التفسير الموضوعي

لسور القرآن الكريم

إعداد

نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن

بإشراف

أ. د. مصطفى مسلم

جامعة الشارقة

المجلد الأول

الفاتحة - آل عمران

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

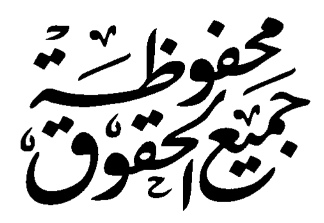


كلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة



الإصدار رقم


كلية الدراسات العليا والبحث العلمي
هاتف: (٥٠٥٠٥٥٠-٦-٩٧١ +)، فاكس: (٥٠٥٠٥٥٥-٦-٩٧١+)
E-mail: pb@sharjah.ac.ae



الطبعة الأولى
١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م



جامعة الشارقة

ص ب: (٢٧٢٧٢)، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
هاتف: (٥٥٨٥٠٠٠-٦-٩٧١+) فاكس: (٥٥٨٥٠٩٩-٦-٩٧١+)
Web site: http://www.sharjah.ac.ae



اللجنة التنفيذية للمشروع

أ.د. مصطفى مسلم	رئيساً
أ.د. عيادة الكبيسي	عضواً
أ.د. أحمد البدوي	عضواً
أ.د. عبد الله الخطيب	عضواً
د. محمد عصام القضاة	عضواً
د. قاسم أسعد	عضواً
د. عواد الخلف	عضواً


مركز تفسير للدراسات القرآنية
Tafsir Center for Qur'anic Studies

الباحثون الذين اشتركوا في المشروع

أ.د. مصطفى مسلم محمد
أ.د. عيادة أيوب الكبيسي
أ.د. أحمد محمد الشرقاوي
أ.د. ناصر سليمان العمر
أ.د. أحمد عباس البدوي
أ.د. محمد أحمد عيد الكردي
أ.د. مساعد مسلم آل جعفر
أ.د. شحادة احميدي العمري
أ.د. عبد الله عبد الرحمن الخطيب
د. أبو بكر علي الصديق
د. أحمد شحروري
د. أحمد محمد نور إبراهيم
د. أحمد محمد مفلح القضاة
د. جمال أبو حسان
د. طه ياسين ناصر الخطيب
د. عبد الحق عبد الدائم القاضي
د. عبد الرحيم الزقة
د. عبد الله محمد سلقيني
د. عدنان عبد الرزاق الحموي
د. عرفات محمد محمد أحمد عثمان
د. عطية محمد عطية
د. عفاف عبد الغفور حميد
د. محمد السيد محمد يوسف
د. محمد عبد اللطيف رجب عبد العاطي
د. محمد عبد الرحمن الشايع
د. محمد عصام القضاة
د. محمد عيادة الكبيسي
د. نايل ممدوح أبو زيد
د. نشأت محمود الكوجك
د. هارون نوح علي سليمان
د. يوسف الشامسي




بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

تقديم :أ.د .مصطفى مسلم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأصلي وأسلم على المبعوث رحمة للعالمين، سيد الأولين والآخريين، وآل بيته الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، **أما بعد:**

فإن التفسير الموضوعي نوع من أنواع التفسير الذي بدأت أصوله تترسخ، ومناهجه تتضح منذ نصف قرن من الزمن، وأقر تدريسه في الجامعات، فهو إلى جانب التفسير التحليلي والإجمالي والمقارن أصبح يشغل حيزا في الدراسات القرآنية المعاصرة، إلا أن جانب التطبيق العملي غلب على الدراسات التأصيلية وبخاصة الموضوع القرآني، فهناك مئات بل ألوف الدراسات التي تناولت حقول المعرفة الإنسانية من خلال القرآن الكريم، وسجلت الرسائل العلمية في الدراسات العليا، في القضايا المختلفة، وبذلت جهود هائلة لإثارة الموضوعات العلمية التطبيقية والدراسات الاجتماعية، والنفسية، والتاريخية، والفلسفية، والعقدية،... من خلال القرآن الكريم.

وحظي هذا اللون -الموضوع القرآني- باهتمام الدارسين بل صار يخيل لكثير من طلبة العلم أنه اللون الوحيد للتفسير الموضوعي ولا زال.

أما اللونان الآخران -المصطلح القرآني- والتفسير الموضوعي للسورة القرآنية، فقد تناولها الباحثون، ولكن ليست على مستوى الدراسات التي حظي بها الموضوع القرآني.

وكُتبت دراسات متفرقة هنا وهناك عن المصطلح القرآني، وفسرت سور متفرقة هنا وهناك أيضا. ولا أظن أحدا وضع في خطته أن يقوم بتفسير لجميع سور القرآن الكريم على منهج التفسير الموضوعي، وكان حلما يراودني مذ توليت تدريس هذه المادة في الجامعات منذ خمسة وثلاثين عاما. إلى أن قيض الله سبحانه وتعالى لهذه المهمة مجموعة بحوث الكتاب والسنة

التي أنشئت عام ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م في جامعة الشارقة، حيث تبنت المجموعة القيام بهذا العمل الرائد غير المسبوق.

ولما كانت مناهج الباحثين مختلفة في تفسير السورة تفسيرا موضوعيا. فقد رأت المجموعة أن تدعو إلى ندوة من أهل الاختصاص للتشاور حول الخطوات المنهجية والخطوات التنفيذية لإبراز هذا المشروع.

وبعد دراسة مستفيضة من المجتمعين، حول الخطوات المنهجية، تم الاتفاق على (مبادئ للسير في مشروع التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم).

حيث يبدأ المفسر بحثه باتباع المنهج التالي:

أولاً: بين يدي السورة

تذكر في هذه المقدمة الأمور التالية:

أ - اسم السورة أو أسماؤها إن كان لها أكثر من اسم.

ب- فضائل السورة إن وجدت.

ج - مكية السورة أو مدنيتها.

د - عدد آيات السورة والاختلاف بين القراء في العد وسببه.

هـ- محور السورة (المحور هو: الأمر الجامع الذي يجمع موضوعات السورة وجزئياتها في نسق واحد).

و - المناسبات في السورة، وأهمها الأنواع الستة من المناسبات مع مراعاة عدم التكلف في ذلك:

١ - المناسبة بين اسم السورة ومحورها.

٢ - المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها.

٣ - المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها.

٤ - المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها.

٥ - المناسبة بين مقاطع السورة بعضها مع بعض.

٦ - المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها.

وتذكر المناسبة بين كل مقطع والمحور في نهاية كل مقطع أثناء تفسير السورة، وإن أراد الباحث أن يتعرض للمناسبة بين المقطع والمقطع السابق له، فمكان ذلك بداية كل مقطع.

ملحوظة: يكون التعرض للفقرات السابقة في التمهيد أو المقدمة أو ما سميناه: بين يدي السورة بإيجاز من صفحتين إلى خمس صفحات حسب الحاجة.

ثانياً: التفسير الإجمالي للمقطع:

يفسر كل مقطع بعد وضع عنوان له تفسيراً إجمالياً يراعى فيه الأسلوب الأمثل في تفسير القرآن، وهو:

أ. تفسير القرآن بالقرآن والإشارة إلى الآيات التي لها علاقة مباشرة بالمقطع.

ب. تفسير المقطع بالأحاديث النبوية الشريفة التي تلقي ضوءاً على ذلك.

ج. في القضايا العقدية (الأسماء والصفات) يلتزم رأي السلف، وإن كان هناك إجماع على التأويل يورد في ذلك قول أئمة التفسير، على سبيل المثال: الطبري، ابن كثير، أئمة المذاهب الأربعة، وابن تيمية.

د. في القضايا الفقهية: يكتفى بالرأي الراجح الذي يراه الباحث مع ذكر الأدلة التي جعلته يرجح هذا القول دون سواه.

هـ. تجتنب القضايا اللغوية أو البلاغية، وإن كان هناك ضرورة لذكر بعضها لارتباطها الوثيق بالمعنى فيكون ذلك في الهامش، وكذلك القراءات القرآنية المتواترة التي لها تأثير في توجيه معنى الآيات.

و. عند تكرار الموضوعات في بعض مقاطع السور كالقصص وغيرها يفسر المقطع في موضعه بما يتناسب مع محور السورة التي ذكر فيها وجو السورة العام من الإيجاز أو الإطناب.

ز. الربط بين هدايات الآيات وواقع الأمة، والرد على الشبهات التي تثار حول القرآن الكريم والسنة النبوية، وعظمة التشريعات الإسلامية وصلاحيتها لكل زمان ومكان، كل ذلك عند ورود مناسباتها في تفسير الآيات المتعلقة بذلك.



ح. الاقتصار على الحقائق العلمية عند تفسير الآيات الكونية وتجنب النظريات العلمية.

ثالثاً: الهدايات المستنبطة من المقطع، وتشمل:

أ. القضايا العقدية.

ب. الأحكام الشرعية.

ج. الأخلاق الإسلامية والآداب الشرعية.

د. الجوانب التربوية.

رابعاً: مبادىء وقواعد عامة:

أ. توضع الآية بين قوسين مزهرين ثم يذكر اسم السورة ورقم الآية المستشهد بها بعد الآية مباشرة وليس في الحاشية، مثال ذلك: (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) الحجر / ٩.

ب. تخريج الحديث بذكر اسم المصدر ورقم الحديث، فمثلا الجامع الصحيح للبخاري، أو صحيح البخاري الحديث رقم (٢٦٥)، إن وجد الحديث في الصحيحين أو أحدهما يكتفى به، وإلا فينص على خلاصة تخريجه ودرجته.

ج. الالتزام بالأحاديث الصحيحة والحسنة في التفسير وأسباب النزول وغيرها.

د. توثيق الأقوال والمنقولات بالإشارة إلى اسم الكتاب ثم المؤلف ثم الجزء والصفحة على النسق التالي: الجامع لأحكام القرآن الكريم، القرطبي ١/ ٢٢٠، وتترك بقية المعلومات إلى فهرس المراجع والمصادر، وتكون على النسق التالي: الجامع لأحكام القرآن الكريم، محمد بن عبد الله القرطبي، ت (.....)، تحقيق:..........، (مكان النشر، تاريخ النشر، رقم وتاريخ الطبعة).

هـ. ترقيم الحواشي يكون بأرقام متسلسلة لكل صفحة على حدة.

و. الالتزام الكامل بالفواصل والنقط وإشارات الاستفهام والتعجب وسائر علامات الترقيم.

ز. إذا كان للسورة سبب نزول واحد يذكر في فقرة بين يدي السورة أما إذا وجد أكثر من سبب نزول لآيات متعددة في السورة فيشار إليها في فقرة بين يدي السورة،



وتترك تفاصيلها إلى المقاطع الخاصة.

ح. يتراوح حجم التّفسير الإجمالي للمقطع مع الهدايات، من (٥-٧) خمس إلى سبع صفحات لكّل صفحة من المصحف.

وبعد إقرار المبادئ، تم إرسالها إلى أهل الاختصاص من أساتذة التفسير في الجامعات الإسلامية. وتلقت المجموعة اقتراحات وآراء كثيرة. وتم تعديل المبادئ والخطة على ضوء ما وصل من الاقتراحات.

وللبدأ بالتنفيذ تم تقسيم سور القرآن الكريم على عدد من أساتذة الجامعات ممن عُرفوا بالكفاءة العلمية من خلال مؤلفاتهم في تفسير القرآن الكريم وعلومه بعد أخذ موافقتهم على الكتابة. وجميع الذين استكتبوا من الحاصلين على شهادة الدكتوراة في التفسير وعلوم القرآن، وممن مارس التدريس الجامعي. وهناك قائمة بأسمائهم في نهاية الكتاب.

وبدأت الخطوات التنفيذية حيث شكلت لجنة للإشراف والمتابعة برئاسة منسق المجموعة، ووضع للمشروع سنتان للانتهاء من طباعته.

ولكن عقبات واجهت المشروع مما أدى إلى تأخيره إلى هذا الوقت.

ومن أهم العقبات:

أولا: اعتذار بعض المستكتبين:

فبعد أخذ موافقة كل مستكتب على الكتابة في السورة التي حددت له خطيا، وأخذ موافقته الخطية على ذلك وتزويده بمبادئ المشروع والمدة الزمنية المطلوبة لإنجازه. وبعد مضي المدة المحددة فوجئت لجنة الإشراف باعتذار بعضهم عن الكتابة.

وكانت لجنة الإشراف تذكرهم كل ثلاثة أشهر. بل وصل الأمر إلى أن يطلب أحدهم تمديد المدة له ثلاثة أشهر إضافية ولما انتهت المدة الإضافية كان الاعتذار مجددا.

ثانيا: عدم الالتزام بالخطة المرسومة للسير في المشروع:

قدم بعض الباحثين تفسير السورة أو السور المكلف بها، وفوجئنا بمنهج مختلف لتفسير السورة. علما أننا أرسلنا لكل مستكتب مع خطاب التكليف نسخة من مبادئ السير في



مشروع التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم مما اضطرنا أن نعيد البحث إلى صاحبه للتغيير والالتزام. وقد التزم كثير منهم بالملحوظات التي كتبت له، ولكن آخرين لم يلتزموا مما فوت علينا الوقت والجهد، وأجبرنا على سحب التكليف منه وإسناده إلى باحث آخر.

ثالثا: التفاوت في الأساليب:

إن الأسلوب البياني وطريقة التعبير عن الأفكار والقضايا جزء من الشخصية العلمية لكل فرد، وهذا التفاوت في الأساليب لم نستطع تجاوزه. فعلى الرغم من المبادئ الواضحة للمشروع والنقاط المحددة، وعلى الرغم من الالتزام بها. فقد كان هنالك تباين واضح في الأساليب سواء في المعنى الإجمالي لآيات المقطع أو الربط بين مقاطع السورة أو الربط بينهما وبين محور السورة وهذا الأمر لا أظن أن يتجاوز في المستقبل ما دامت الشخصيات العلمية متعددة.

ولكن خروج المشروع بهذه الصورة وبهذا المنهج المحدد سابقة لا مثيل لها. لعلها تفتح الآفاق أمام أهل العلم من المتخصصين في التفسير وعلوم القرآن، وخاصة الطاقات الشابة أن يستفيدوا من هذا العمل ليقوم أحدهم بتفسير كامل للقرآن الكريم بغية توحيد الأسلوب والمنهج.

ويبقى لمجموعة بحوث الكتاب والسنة في جامعة الشارقة فضل السبق والريادة لهذه الخدمة المباركة في خدمة كتاب الله تعالى.

ومن باب من لم يشكر الناس لم يشكر الله، فإننا نتقدم بجزيل الشكر لإدارة جامعة الشارقة ممثلة بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي وعميدها الأستاذ الدكتور عدنان العتوم في حرصها على تبني المشروع والإنفاق عليه وتحمل تكاليف طباعته، أرجو الله ان يجعل ذلك في ميزان حسناتهم.

والله من وراء القصد

والحمد لله أولاً وآخراً

رئيس اللجنة التنفيذية للمشروع

أ.د. مصطفى مسلم

الشارقة: ٦ صفر ١٤٣٠ هـ/ ١ / ٢ / ٢٠٠٩ م



الاستعاذة

من رحمة الله تعالى بأمة محمد ﷺ، أن أرشدهم إلى مايصلح دنياهم وأخراهم، وعلمهم كيف يحافظون على مصالحهم، وما يقاومون به أعداءهم، ولما كان أكبر أعدائهم هو إبليس، فقد علمهم كيف يحفظون أنفسهم وأموالهم وذراريهم من شره. فقد جاء في أكثر من آية تعليمهم الاستعاذة منه، كما في قوله تعالى ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ الأعراف، فعند إثارته للغضب، وإغراءاته بالسوء يلتجأ إلى الله سبحانه وتعالى منه.

فقد جاء في ذلك قوله تعالى:﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ ﴾ المؤمنون، وكذلك في التعامل مع المبغضين المعادين كما ورد في قوله تعالى: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾ [فصلت].

ولتجنب وساوس الشيطان وخواطره الصارفة لتدبر القرآن أُمرنا أن نلتجأ إلى الله عز وجل من وساوس الشيطان، وذلك قبل البدء بالقراءة، جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [النحل].

وكذلك الالتجاء إلى الله تعالى عند الصلاة لإبعاد الشيطان ووساوسه، فقد جاء في صحيح مسلم عن عثمان بن أبي العاص الثقفي أنه أتى النبي ﷺ فقال يارسول الله إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي يلبسها علي، فقال له رسول الله ﷺ: ذاك شيطان يقال له خنزب، فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه واتفل عن يسارك ثلاثاً. قال ففعلت فأذهبه الله عني.[1]

كما تستحب الاستعاذة عند النزول في منزل أثناء السفر، فقد روى أبو داود بسنده من

(١) صحيح مسلم، الحديث رقم ٢٢٠٣.



حديث ابن عمر قال: كان رسول الله ﷺ إذا سافر فأقبل عليه الليل قال: يا أرض ربي وربك الله أعوذ بالله من شرِّك وشرّ ماخلق فيك ومن شرّ مايدب عليك، ومن أسد وأسود ومن الحية والعقرب ومن ساكني البلد ووالد وما ولد[1].

وتستخدم رقية لما يجده المؤمن من ألم في جسده، فقد جاء في حديث عثمان ابن أبي العاص الثقفي رضي الله عنه أنه شكا إلى رسول الله ﷺ وجعاً يجده في جسده منذ أسلم، فقال له رسول الله ﷺ: ضع يدك على الذي تألم من جسدك وقل: باسم الله ثلاثاً، وقل سبع مرات: أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر)[2]

وفي كل الأحوال ينبغي أن يكون المرء ذاكراً الله سبحانه وتعالى بالالتجاء إليه في دفع الضر من شياطين الإنس والجن، وبسؤاله إعانته على الطاعات.

صيغ الاستعاذة:

وردت عدة صيغ للاستعاذة عن رسول الله ﷺ، منها:

١- (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) وهي الموافقة للفظ الأمر الرباني في الآية الكريمة ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾ [النحل].

وقد ورد في الصحيحين عن سليمان بن صرد قال: استب رجلان عند النبي ﷺ فجعل أحدهما يغضب ويحمر وجهه وتنتفخ أوداجه فنظر إليه النبي ﷺ فقال: إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب ذاعنه: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فقام إلى الرجل رجل سمع النبي ﷺ، فقال: هل تدري ما قال رسول الله ﷺ آنفاً؟ قال: إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فقال الرجل: أمجنوناً تراني)[3].

---

(١) سنن أبي داود، الحديث رقم (٢٦٠٤).

(٢) صحيح مسلم الحديث رقم (٢٢٠٢).

(٣) صحيح البخاري الحديث رقم (٥٧٦٤) صحيح مسلم الحديث رقم (٢٦١٠).



٢- (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم إن الله هو السميع العليم)

٣- (أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم) :

وهذه الصيغة وردت في حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، عن النبي ﷺ أنه كان إذا قام إلى الصلاة استفتح، ثم قال: (أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه)[1].

والاستعاذة ليست آية من القرآن الكريم إجماعاً.

وقت الاستعاذة:

ذهب الجمهور إلى أن وقت الاستعاذة قبل القراءة، وقبل البدء بالعمل، وقدروا في الآية ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾ أي إذا أردت القراءة، كقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ ... ﴿٦﴾ ﴾ أي إذا أردتم القيام، وذلك لدفع وسوسته أثناء القراءة والعمل.

وذهب داود الظاهري ومن تبعه إلى أن وقت الاستعاذة بعد الانتهاء من القراءة والعمل لدفع وساوسه عن التشكيك في الأداء والقبول، أخذاً من ظاهر النص، والفاء تدل على التعقيب.[2]

حكم الاستعاذة:

ذهب الجمهور إلى أن الاستعاذة مندوبة غير متحتمة، ودليلهم أن الرسول ﷺ لم يعلم الأعرابي- المسيء في صلاته- الاستعاذة في جملة أعمال الصلاة، وتأخير البيان عن وقته غير جائز.

وذهب عطاء وتبعه أهل الظاهر إلى أن الاستعاذة واجبة، لظاهر الأمر (فاستعذ) والأمر للوجوب مالم يصرف عن ظاهره، ولمواظبة رسول الله ﷺ على الاستعاذة.[3]

(١) سنن أبي داود، الحديث رقم (٧٧٥).

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ١٤.

(٣) المحلى لابن حزم الظاهري ٣/ ٢٤٧. دار الآفاق الجديدة، بيروت.



المعنى الإجمالي للاستعاذة:

أمر الله سبحانه وتعالى عباده باللجوء إليه لحفظهم من مكايد عدوهم الأكبر ووساوس إبليس المطرود من رحمة الله سبحانه وتعالى، فإنه يحاول صرفهم عن تدبر القرآن الكريم، بإلقاء الخواطر والشبهات عند أداء العمل، فمن لجأ إلى ربه حماه من شر أعدائه.

سورة الفاتحة

البسملة

قرآنيتها:

- أجمع العلماء على أن البسملة بعض آية في سورة النمل، في قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [النمل].

- وجزم قراء مكة والكوفة بأنها آية من الفاتحة ومن كل سورة.

وينسب هذا القول إلى ابن عباس، وابن عمر، وابن الزبير، وأبي هريرة، وعلي رضوان الله عليهم جميعاً وبه قال الشافعي، وأحمد في رواية له[1].

- وذهب قراء المدينة والبصرة والشام إلى أنها ليست آية من الفاتحة ولا من غيرها من السور، قالوا وإنما كتبت للفصل بين السور وتبركاً، وبهذا القول قال أبو حنيفة ومالك، ورواية عند أحمد.

- وينسب للشافعي قول آخر: إنها آية من الفاتحة لا من غيرها.

- وينسب إلى أبي حنيفة قول آخر: إنها آية مستقلة في كل موضع ذكرت فيه في بدايات السور، للفصل بينها.

وللقراء والفقهاء أدلتهم التفصيلية على ما ذهبوا إليه، تراجع في مظانها، لا يتسع المجال هنا لذكرها.

فضائلها:

- روى الإمام أحمد بسنده عن عاصم قال: سمعت أبا تميمة يحدث عن رديف النبي ﷺ قال: عثر بالنبي ﷺ، فقلت: تعس الشيطان، فقال النبي ﷺ: لا تقل تعس الشيطان، فإنك إذا قلت: تعس

(١) فتح القدير للشوكاني ١/ ١٧، دار المعرفة، بيروت.

(٢) مسند أحمد (٢٠١٩٥) وقال الهيثمي في المجمع (ج١٠ص١٨٦) "رواه أحمد بأسانيد ورجالها كلها رجال الصحيح".

الشيطان تعاظم وقال: بقوتي صرعته، وإذا قلت: بسم الله تصاغر حتى يصير مثل الذباب)[٢].

- روى أبو هريرة قال: كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله فهو أجذم)[١].

كما ورد عنه أيضا مرفوعا (كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله فهو أبتر)[٢].

مواضع استحبابها:

تستحب البسملة في كل موضع يعمل فيه عمل مباح أو مشروع، كما ورد في قوله تعالى: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [الأنعام]، وقوله تعالى: ﴿ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴾ [هود].

وثبت عن رسول الله ﷺ الأمر بها في مواضع منها مارواه الإمام البخاري في صحيحه (... أغلق بابك واذكر اسم الله، وأطفئ مصباحك واذكر اسم الله، وخمّر إناءك واذكر اسم الله، وأوكِ سقاءك واذكر اسم الله...)[٣]، وورد في الصحيحين (... لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال: بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب االشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره شيطان أبداً)[٤].

---

(١) قال النووي في الأذكار (ج١ص١١١): " روينا هذه الألفاظ كلها في كتاب الأربعين لعبدالقاهر الرهاوي وهو حديث حسن".

(٢) رواه الخطيب البغدادي في كتابه الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/ ٦٩)، وروي بلفظ "أقطع" بدلاً من "أبتر". قال النووي في الأذكار (١/ ٩٤): "وقد روي موصولاً ومرسلاً ورواية الموصول جيّدة الإسناد".

(٣) الحديث رقم (٣٠٣٨).

(٤) صحيح البخاري، الحديث رقم (١٣٨). وصحيح مسلم الحديث رقم (٢٥٩١).

بين يدي السورة:

أولاً- أسماؤها:

كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى، وقد وردت أسماء كثيرة لسورة الفاتحة، منها ماثبت بالنص ومنها ما استنبط من خلال ما قيل عنها، وسنقتصر على ماثبت من أسمائها بالنص الصحيح.

١-٢-الفاتحة أو (فاتحة الكتاب):

أخرج مسلم في صحيحه، والنسائي في سننه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينا رسول الله ﷺ وعنده جبريل إذ سمع نقيضاً فوقه، فرفع جبريل بصره إلى السماء فقال: هذا باب قد فتح من السماء ما فتح قط، قال: فنزل منه ملك فأتى النبي ﷺ فقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لم تقرأ حرفاً منهما إلا أعطيته[١].

وقيل في تعليل هذه التسمية لأنها أول ما يفتح به الكتاب، فهي أول ما يكتبه الكاتب من المصحف، وأول ما يتلوه التالي من القرآن العظيم.

وفي الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب[٢].

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: من صلى صلاة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهي خداج-يقولها ثلاثاً-)[٣].

---

(١) صحيح مسلم الحديث رقم (١٨٢٧) سنن النسائي الصغرى الحديث رقم (٩١٠) واللفظ له.

(٢) صحيح البخاري، الحديث رقم (٧٥٦)، وصحيح مسلم، الحديث رقم (٣٩٤).

(٣) الحديث رقم (٣٩٥).

٣- أم الكتاب:

ورد في سنن أبي داود والترمذي عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الحمدلله رب العالمين) أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني[١].

قال الإمام البخاري في أول كتاب التفسير: (وسميت أم الكتاب لأنه يبدأ بكتابتها في المصاحف، ويبدأ بقراءتها في الصلاة[٢]).

قال ابن جرير: والعرب تسمي كل جامع أمر أو مقدم لأمر إذا كانت له توابع تتبعه (أماً)[٣].

٤- أم القرآن:

في صحيح البخاري: (أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم)[٤]، وأخرج مسلم والنسائي من حديث أبي هريرة: (من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج،ثلاثاً، غير تامة)[٥].

٥- السبع المثاني:

أخرج البخاري وأحمد وابن ماجه والنسائي من حديث أبي سعيد بن المعلى أن رسول الله ﷺ قال له: (لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد، قال: فأخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج من المسجد قلت: يا رسول الله إنك قلت لأعلمنك أعظم سورة في القرآن، قال: نعم، الحمدلله رب العالمين، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته)[٦]، قالوا: سميت بذلك لأنها تثنى في الصلاة فتقرأ في كل ركعة.

(١) سنن أبي داود (١٤٥٨) وسنن الترمذي (٣٢٣٥) وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح.

(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير باب ما جاء في فاتحة الكتاب (ج٤ص١٦٢٢).

(٣) جامع البيان، للطبري ج١ ص٣٦، ط دار المعرفة، بيروت.

(٤) صحيح البخاري (٤٥٨٥).

(٥) مسلم (٨٢٩) وسنن النسائي الكبرى (٧٩١٩).

(٦) البخاري (٤٣٦٠) والمسند (١٧٥١٨) وسنن ابن ماجه (٣٨٦٨) وسنن النسائي (٧٩١٩)ومسند أبي داود الطيالسي (١٢٦٧).

٦- سورة الصلاة:

روى الإمام مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله عزوجل: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ﴾ قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال العبد ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ ﴾ قال الله: أثنى علي عبدي، وإذا قال: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ﴾ قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل فإذا قال: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾ قال هؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل[1].

٧- سورة الرقية:

في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري قال: كنا في مسير لنا فنزلنا فجاءت جارية، فقالت: إن سيد الحي سليم، وإن نفرنا غيّب فهل منكم راق؟ فقام معها رجل ما كنا نَأْبِنُه[2] برقية فرقاه فبرأ، فأمر له بثلاثين شاة، وسقانا لبناً، فلما رجع، قلنا له أكنت تحسن رقية أو كنت ترقي؟ قال: لا ما رقيت إلا بأم الكتاب، قلنا لا تحدثوا شيئاً حتى نأتي ونسأل رسول الله ﷺ، فلما قدمنا المدينة ذكرناه للنبي ﷺ فقال: (وماكان يدريه أنها رقية اقسموا واضربوا لي بسهم)[3].

ثانياً- فضائل سورة الفاتحة:

أغلب الأحاديث التي ذكرت أسماء الفاتحة تدل على فضائلها فمن هذه الفضائل:

١- سورة الفاتحة أعظم سور القرآن الكريم وقد تقدم حديث أبي سعيد المعلى عندما قال له رسول الله ﷺ: لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد... ثم ذكر له أنها

---

(١) صحيح مسلم الحديث رقم ٨٢٩.

(٢) نأبنه: أي ما كنا نعلم أنه يرقي فنعيبه بذلك، والأُبن: التهمة، انظر النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ١/ ٣٣، ط دار المعرفة- بيروت. ت خليل شيحا.

(٣) صحيح البخاري، الحديث رقم (٢٢٤٢)، وصحيح مسلم، الحديث رقم (٥٦٨٧).

سورة الحمدلله رب العالمين وهي السبع المثاني والقرآن العظيم[١].

٢- لا مثيل لسورة الفاتحة في الكتب المنزلة فقد أخرج أحمد والترمذي وصححه من حديث أبي ابن كعب أن النبي ﷺ قال له: (أتحب أن أعلمك سورة لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها؟ ثم أخبره أنها الفاتحة [٢].

٣- سورة الفاتحة نور: وتقدم الحديث الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه... فنزل منه ملك فأتى النبي ﷺ فقال أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ حرفاً منهما إلا أوتيته[٣].

٣- سورة الفاتحة: رقية وعلاج ودواء وشفاء للأسقام المادية والمعنوية، وتقدمت الأحاديث في ذلك، عندما رقى الصحابي اللديغ بالفاتحة[٤]، وكذلك الحديث الذي أخرجه أحمد وأبو داود والنسائي والحاكم وصححه عن خارجة ابن الصلت التميمي عن عمه: أنه أتى رسول الله ﷺ ثم أقبل راجعاً من عنده، فمر على قوم وعندهم رجل مجنون موثوق بالحديد، فقال أهله: أعندك ما تداوي به هذا؟ فإن صاحبكم قد جاء بخير، قال: فقرأت عليه فاتحة الكتاب ثلاثة أيام في كل يوم مرتين غدوة وعشية، أجمع بزاقي ثم أتفل فبرأ فأعطاني مائة شاة، فأتيت النبي ﷺ فذكرت ذلك له فقال: كل فلعمري من أكل برقية باطل فقد أكلت برقية حق[٥].

---

(١) تقدم تخريج الحديث في البخاري.

(٢) انظر مسند الإمام أحمد الحديث رقم (٩٢٣٤) والسنن الكبرى للنسائي (١١١٠٠) والجامع الصحيح للترمذي الحديث رقم (٢٩٥٣) وقال حديث حسن صحيح.

(٣) تقدم تخريجه ص٧.

(٤) تقدم تخريجه ص٩.

(٥) المسند رقم الحديث (٢١٤٥٧) سنن أبي داود رقم الحديث (٣٤٢١) سنن النسائي الحديث رقم (٧٥٣٥).

ثالثاً- عدد آيات الفاتحة:

- أجمع العلماء على أن فاتحة الكتاب سبع آيات[1]، إلا أنهم اختلفوا في الآية السابعة، فمن جعل البسملة أولى آياتها[2]، قال: إن قوله تعالى: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧ ﴾ آية واحدة وهي السابعة، ومن لم يجعل البسملة آية من الفاتحة[3] قال ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ.. ﴾ الآية السادسة و﴿ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧ ﴾ الآية السابعة[4].
- قال الخازن: وهي سبع آيات بالاتفاق، وسبع وعشرون كلمة، ومائة وأربعون حرفاً[5].

رابعاً- وقت نزولها:

- قال جمهور العلماء: نزلت سورة الفاتحة بمكة، ولهم أدلة على ذلك، منها:

١- أخرج أبو بكر بن الأنباري في المصاحف عن عبادة قال: فاتحة الكتاب نزلت بمكة.

٢- وأخرج الواحدي في أسباب النزول عن علي قال: نزلت فاتحة الكتاب بمكة عن كنز تحت العرش.

٣- وأخرج أبو نعيم في الدلائل عن رجل من بني سلمة قال: لما أسلمت فتيان بني سلمة... فسأله فقرأ عليه: الحمدلله رب العالمين، وكان ذلك قبل الهجرة.

٤- وقالوا: لم تكن صلاة في الإسلام بدون فاتحة الكتاب، ومن المعلوم أن الصلاة شرعت في

---

(١) انظر تفسير القرطبي ١/ ١٠٨ وفتح القدير للشوكاني ١/ ١٤.

(٢) وهم قراء الكوفة ومكة وبه أخذ الإمام الشافعي ورواية عند أحمد.

(٣) وهم قراء المدينة والبصرة والشام وبه أخذ الجمهور أبو حنيفة ومالك وأحمد.

(٤) من أراد أدلة كل فريق فليراجع أحكام القرآن للجصاص، وأحكام القرآن لابن العربي وتفسير آيات الأحكام للسايس. ومفاتيح الغيب للرازي.

(٥) انظر تفسيره المسمى لباب التأويل ١/ ١١.

الأيام الأولى من البعثة، وفرضت الصلوات الخمس في ليلة الإسراء والمعراج، وكانت قبل الهجرة بثلاث سنوات(١).

- وقال مجاهد: إنها نزلت في المدينة، واعتبر بعض العلماء أن هذا القول كبوة جواد من مجاهد، والرواية التي استندوا عليها هي ما أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف(٢)، وأبو سعيد ابن الأعرابي في معجمه والطبراني في الأوسط(٣) من طريق مجاهد عن أبي هريرة: رنَّ إبليس حين أنزلت فاتحة الكتاب، ونزلت بالمدينة، ولا تقوم بهذه الرواية حجة.

- وقيل نزلت مرتين، مرة في مكة حين فرضت الصلاة، ومرة في المدينة حين حولت القبلة، ولذلك سميت مثاني، قاله البنوي، وأيضاً هذا القول لا دليل عليه، وفي القول بنزول بعض السور أو الآيات مرتين نظر.

والراجح القول الأول- أي أنها سورة مكية، لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ ﴾ وهذه الآية في سورة الحجر، وسورة الحجر مكية بالإجماع، وقد صح في الحديث قول الرسول ﷺ عن الفاتحة إنها السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته(٤).

خامساً- موضوعات سورة الفاتحة:

قال جلة من علماء التفسير: إن سورة الفاتحة اشتملت على أغراض القرآن الأساسية، فمن الموضوعات في سورة الفاتحة:

١ - الألوهية: التوحيد بأنواعه: توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات، فأخذ ذلك من قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ ﴾.

---

(١) انظر قول الجمهور في التحرير والتنوير لابن عاشور ١/ ١٣٥، ط دار سحنون.

(٢) مصنف ابن ابي شيبة (٢٥٨٧٥) عن مجاهد عن أبي هريرة بلفظ: "أنزلت فاتحة الكتاب بالمدينة"

(٣) مجمع الزوائد (١٠٨١٣) عن أبي هريرة وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط وهو شبيه بالمرفوع ورجاله رجال الصحيح.

(٤) صحيح البخاري (٤٣٦٠).

٢- اليوم الآخر: هو يوم الدين الذي يلقى العبد فيه حسابه على ما قدمت يداه في الحياة الدنيا، وكل ما يكون بعد الموت يتعلق بيوم الدين، فالحياة البرزخية والبعث بعد الموت، والحشر والحساب والميزان والصراط، والاستقرار في الجنة أو النار، كلها من متعلقات يوم الدين، اليوم الآخر، فأخذ ذلك من قوله تعالى: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ ﴾ .

٣- عبادة الله سبحانه وتعالى، والإخلاص لله تعالى فيها، العبادة بمفهومها الواسع وتدخل الشعائر التعبدية من صلاة وزكاة وصوم وحج وجهاد وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر، في مفهوم العبادة الواسع دخولاً أولياً، فإن حياة المؤمن ومماته على منهج الله وفي طاعته كلها عبادة كما تشير الآية الكريمة ﴿ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ الأنعام، وهذا يدل عليه قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ .. ﴾ ..

٤- الاستعانة بالله وحده في كل الأمور وجميع شؤون الحياة، ما تعلق منها بالمعاش وما تعلق منها بالتوفيق لصالح العمل والإخلاص فيه، والقبول عند الله في كل ما يعمله العبد ومايدع، فالله الموفق لصالح العمل المعين على أدائه المتفضل بقبوله، وهو ما دل عليه قوله تعالى: ﴿ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴾ .

٥- الالتزام بالصراط المستقيم بعد الاهتداء إليه فضل عظيم من الله تعالى يوفق عباده المخلصين إليه، وللصراط المستقيم دلالة واسعة يشمل كل ما جاء من الله سبحانه وتعالى وأنزله على أنبيائه ورسله من لدن آدم عليه السلام إلى خاتمهم محمد ﷺ، الذي اشتملت رسالته على جميع الرسالات وهداياتها، كما أشارت الآية الكريمة ﴿ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ ﴾ المائدة/ ٤٨، وكل ذلك في قوله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾.

٦- صراط المنعم عليهم: من عباد الله المصطفين المخلصين، الذين جاء ذكرهم في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾ ﴾ النساء، وهذا الصراط بمفهومه المديد عبر تاريخ البشرية يشمل معتقدات المنعم عليهم، وأساليبهم في دعوة الأقوام إلى الخير الذي

التزموا به، والعظات والعبر التي أخذت من الحوادث التي مرت بهم، وما خلفوه وراءهم من سير عطرة، وحضارات ربانية بقيت منارات ومعالم يهتدى بها على مر العصور.

٧- تجنب صراط المغضوب عليهم والضالين: وهما نموذجان من البشر: الأول عرف الحق ثم عاداه وتنكب طريقه، بسبب الحسد أو العناد أو اتباعاً للهوى، وعلى رأس هذا النموذج اليهود، والثاني: فئات الضلال، ولا تحصى هذه الفئات فمنهم من أضل الطريق فلم يهتد إلى الحق، و منهم من ضل في متاهات الأفكار البشرية، ومنهم من انحرف عن منهج الحق وجادة الصواب، وكلما استجدت أفكار وأحداث استجدت فئات الضلال، وعلى رأس هؤلاء الضالين النصارى.

وقد ورد في الحديث النبوي تمثيل هذين النموذجين (المغضوب عليهم اليهود والضالون النصارى) كما في حديث عدي بن حاتم ﷺ[1].

ولو رجعنا إلى أغراض القرآن المكي لوجدناها تدور حول (التوحيد، اليوم الآخر، النبوات، أمهات العبادات والأخلاق) ولو رجعنا إلى أغراض القرآن المدني لوجدناها تدور حول (بناء المجتمع الإسلامي بتشريع العبادات والمعاملات، وحمايته من مكائد الأعداء والمنافقين من الخارج والداخل، وصيانته من الانحرافات والأخطاء).

وكل هذه الأغراض في السور المكية والمدنية تعود إلى الأغراض المذكورة في الفاتحة، ولعلنا ندرك بعد هذا البيان الحكمة من وصف رسول الله ﷺ لسورة الفاتحة أنها (أم الكتاب وأم القرآن)، فهي كالأم ومن الأم تتوالد الذرية وتتكاثر، وإلى الأم يرجع في الانتساب فمن موضوعات سورة الفاتحة المجملة تأتي التفصيلات في السور الأخرى، وكل أغراض السور القرآنية ترجع إلى هذه الأساسيات المجملة في سورة الفاتحة.

(١) مسند أحمد (١٩٠١٧) وصحيح ابن حبان (٦١٣٧) ومجمع الزوائد (١٠٣٥٢)(ج٦ص٣٠٦) ومعجم الطبراني الكبير (٢٣٧) ومسند أبي داوود الطيالسي (١٠٤١)(ج١ص٥٨٣).

وهل يمكننا بعد هذا البيان أن نفهم من قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ ﴾ الحجر، ومن قول رسول الله ﷺ عن الفاتحة إنها السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته.

إن الفاتحة سبع آيات اشتملت على سبعة أهداف، وهذه الأهداف تثنى في سور القرآن الكريم وتكرر من خلال محاور السور وأغراضها؟؟.

سادساً- محور سورة الفاتحة:

يمكن أن يقال إن لسورة الفاتحة محوراً واحداً هو (بيان طريق العبودية لله وحده) كما يمكن أن يقال إن للفاتحة عدة محاور، هي المحاور التي يدور عليها القرآن الكريم كله بسوره المكية والمدنية.

ولعل إشارة ابن مسعود إلى هذا الجانب الأخير، فقد أخرج عبد بن حميد عن إبراهيم قال: كان عبد الله بن مسعود لا يكتب فاتحة الكتاب في المصحف، وقال: لو كتبتها لكتبت في أول كل سورة[1]، وكأنه يرى أن كل سورة تفصل جانباً أو محوراً مما اشتملت عليه سورة الفاتحة، وهذا ما أطلقنا عليه عنوان (موضوعات سورة الفاتحة)، وسيأتي تفصيله فيما بعد.

وفصل محمد بن جزي الكلبي ذلك وكأنه شرح لكلام ابن مسعود بقوله: (سميت أم القرآن) لأنها جمعت معاني القرآن كله، فكأنها نسخة مختصرة، وكأن القرآن كله بعدها تفصيل لها، وذلك لأنها جمعت:

- الإلاهيات في ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ ﴾.
- والدار الآخرة في ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ ﴾.
- والعبادات كلها من الاعتقاد والأحكام التي تقتضيها الأوامر والنواهي في ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴾.

(١) انظر فتح القدير للشوكاني ١/ ١٥.

- والشريعة كلها في ﴿ ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ ﴾.
- والأنبياء وغيرهم في ﴿ ..ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ.. ﴾.
- وذكر طوائف الكفار في ﴿ .. غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾[1].

ولو أضاف أمراً سابعاً أو محوراً سابعاً وهو (طريق العبودية إلى الله تعالى في قوله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا. ﴾ لاكتملت المحاور السبعة، ولألقى ضوءاً على سر تسميتها بالسبع المثاني والقرآن العظيم).

سابعاً: التفسير الإجمالي للفاتحة:

سورة الحمد أفضل سورة في القرآن، اشتملت على آداب وحكم ومواعظ في غاية الشمول والعموم والدقة والروعة والجمال.

ففيها براعة الاستهلال، وحسن الثناء على خالق الكون ومدبر أمره، الذي خلق ورزق، ولطف بعموم رحمته وعميم فضله، وإليه مصير الخلائق للحساب جزاء وفاقاً.

وفي هذه السورة تعليم العباد بالتوجه إلى بارئهم بتقديم الوسائل التي شرعها لهم ربهم، والتقرب إليه بخالص النيات لتثبيتهم على شرائع الإسلام بالتمسك بالعروة الوثقى، وحبل الله المتين، الذي تمسك به عباده المنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، والذي طرفه من عند الله وطرفه الآخر في جنات النعيم، وأن يجنبهم الزلل في المعتقد والانحراف في السلوك، كما كان حال ملل عرفت الحق فتنكبته عن عمد وسبق إصرار فاستحقوا غضب الله ومقته، وملل تاهت عن الحق فضلت سبيل الهداية، فهم في كل وادٍ يهيمون.

إن هذه المعاني التي اشتملت عليها سورة الفاتحة من الثناء على الله سبحانه وتعالى واللجوء إليه في الدعاء، رمز هذه العبودية التي يتقرب بها المؤمن إلى الله عزوجل، فيتعلق قلبه بربه رب العالمين، ويحاسب نفسه في تلك المحطات التي يقف فيها بين يديه ليستشعر عظمة مالك يوم الدين فيعيد النظر فيما قدمه بين الصلاتين من قول أو عمل ليدرك في أي كفتي الميزان توضع، وليدرك أن لا

(١) انظر التسهيل في علوم التنزيل لابن جزي الكلبي ١/ ١١.



توفيق ولا فلاح إلا من وفقه الرحمن الرحيم وأخذ بناصيته إلى الخير والطاعة وثبته عليها، وأن من سلك سبيل الغي واتبع هواه وانساق وراء أهل الزيغ والضلال فنهايته إلى غضب الله وعذابه.

فليدرك المؤمن هذا الاستشعار والتوجه في أعماقه وهو يقف بين يدي ربه في صلاته ودعائه، وليقل بعد قراءة هذه السورة العظيمة الجامعة (آمين) أي استجب يا ربنا لدعائنا.

ثامناً- الهدايات والحكم والآداب فيها:

١- تسميتها بفاتحة الكتاب: يدل على فضلها وشرفها، لأن الابتداء بالشيء يدل على أهميته، وتقدمه على غيره، وفي سورة الفاتحة براعة الاستهلال وجمال الابتداء.

٢- تسميها بأم الكتاب وأم القرآن، لأنها مشتملة على أغراض القرآن الأساسية، فسور القرآن الكريم كالتفصيل لما ورد في الفاتحة من الإجمال، فصارت كالأصل والأم، تشبيهاً بالأم التي هي منشأ الولد، من حيث ابتداء الظهور والوجود.

٣- تسميتها بالسبع المثاني: لأنها سبع آيات تثنى -تكرر- في الصلوات، أو تكرر معانيها في سور القرآن الكريم.

٤- يسن للقارئ بعد فراغه من الفاتحة أن يقول (آمين) مفصولاً عنها بسكتة، ويقولها المأموم أيضاً، في صحيح البخاري: أن الإمام إذا قرأ غير المغضوب عليهم ولا الضالين، فقولوا: آمين، فإن الملائكة تقول: آمين، فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه[١]، وأخرج أحمد وابن ماجة والبيهقي بسند صحيح عن عائشة أن النبي ﷺ قال: ما حسدتكم اليهود على شيء ما حسدتكم على السلام والتأمين[٢].

---

(١) صحيح البخاري (٧٧٢) ومسلم (٨٦٦) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إذا أمن الإمام فأمنوا فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه" قال ابن شهاب كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول "آمين".

(٢) سنن ابن ماجه (٨٨٦) والأدب المفرد للبخاري (٢٩٢)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٧٣٤): رواه ابن ماجه بإسناد صحيح وابن خزيمة وأحمد بألفاظ أخرى وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (٣١٦): إسناد صحيح احتج مسلم بجميع رجاله.

٥- استحباب التوسل إلى الله عز وجل قبل الدعاء بأسمائه الحسنى وصفاته العلى والثناء عليه وتمجيده، فهو أرجى للإجابة.

٦- الله جل جلاله المستحق للعبادة وحده، ومنه وحده تطلب المعونة على أدائها، وسائر شؤون الحياة.

٧- لزوم المداومة على الدعاء بالثبات على الدين القويم والالتزام بشرائع الله سبحانه وتعالى (إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء)[١]، ومن دعاء رسول الله ﷺ: (اللهم يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك)[٢].

٨- استحباب الدعاء بصيغة الجمع ليضم دعاءه إلى دعاء الصالحين فهو أدعى للقبول، وكأنه يقول: إنني العبد المذنب المقصر أرفع حاجتي مع حاجات عبادك الصالحين، فشفعهم في، فلا يليق بجناب الكريم أن يقضي بعض الحاجات ويرد بعضها، وقد رفعت مجتمعة.

٩- الاقبال على الله سبحانه وتعالى عنوان السعادة وجملة الخير والفلاح والإعراض عن الله تعالى والبعد عن شرائعه رأس المفاسد والمعاصي والآفات والخذلان في الدنيا والآخرة وذلك لأن أول الفاتحة اشتمل على الحمد لله والثناء عليه، وآخرها في ذم المعرضين عن الإيمان وتنكب شرائعه وطاعته[٣].

١٠- شأن المؤمن أن يكون من الرجاء والخوف، فهما كجناحي الطائر ليعتدل طيرانه، فإن اختل أحدهما لم يستقم أمره، وكذلك المؤمن في سيره إلى الله تعالى فيدعو ربه ليهديه إلى طريق المنعم عليهم ويرجو ذلك ويتطلع إليه، ويستعيذ بالله من أن يكون مع المغضوب عليهم والضالين، فهو يخاف أن ينضم إلى فئاتهم ويحشر معهم.

---

(١) أخرجه مسلم (٦٧٠١) وأحمد (٦٥٥٣).

(٢) انظر سنن الترمذي، كتاب الدعوات، الحديث رقم (٣٥٢٤)، ومسند أحمد ٤/ ١٨٢.

(٣) مفاتيح الغيب للرازي ١/ ٢٦٢.

سورة البقرة

بين يدي السورة

أ- اسم السورة:

اسم السورة: سورة البقرة، وقد ورد في أكثر من حديث صحيح، منها قوله ﷺ: (الآيتان من آخر سورة البقرة من قرأهما في ليلة كفتاه)[1]. ومنها قول ابن مسعود: (هذا مقام الذي أنزلت عليه سورة البقرة)[2].

وذهب جماعة إلى انه لا يقال سورة البقرة ولا غيرها من السور، وإنما يقال: السورة التي يذكر فيها البقرة، واستدلوا بما روى عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: " لا تقولوا: سورة البقرة، ولا سورة آل عمران، ولا سورة النساء، وكذا القرآن كله، ولكن قولوا: السورة التي يذكر فيها البقرة، والتي يذكر فيها آل عمران، وكذا القرآن كله "[3].ولكن الحديث منكر فلا يحتج به.

وكان خالد بن معدان (ت: ١٠٣هـ) يسميها: فسطاط القرآن[4]، قال المناوي: "أي مدينته الجامعة لاشتمالها على أمهات الأحكام ومعظم أصول الدين وفروعه، والإرشاد إلى كثير من مصالح العباد ونظام المعاش ونجاة المعاد"[5].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه/ ٤٧٥٣ ومسلم في صحيحه/ ٨٠٧ عن أبي مسعود الأنصاري.

(٢) رواه البخاري في صحيحه/ ١٦٦٠، ومسلم في صحيحه/ ١٢٩٦.

(٣) رواه الطبراني في المعجم الأوسط وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٥٧: وفيه عبيس بن ميمون وهو متروك، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان برقم (٢٥٨٢) من طريق عُبيس وقال البيهقي: "عُبيس ابن ميمون منكر الحديث: وهذا لا يصح، وإنما روى عن ابن عمر من قوله، وقال العقيلي في الضعفاء ٣/ ٤١٨: منكر. وقال أحمد بن حنبل: حديث منكر. العلل ومعرفة الرجال٣/ ٤٥٨.

(٤) رواه عنه الدارمي في سننه/ ٣٣٧٦، وروى في حديث مرفوع عن أبي سعيد الخدري عند الديلمى في مسند الفردوس/ ٣٥٥٩، وفيه وضاع كما في: التيسير بشرح الجامع الصغير٢/ ٧٣.

(٥) فيض القدير بشرح الجامع الصغير للمناوي ٤/ ١٤٩.

وعن أبي هريرة ﷺقال: قال رسول الله ﷺ: (إن لكل شيء سناماً وسنام القرآن البقرة)[1]. والسنام الرفعة، ومنه سنام البعير لارتفاعه، قال ملا على القاري: "سنام القرآن سورة البقرة إما بطولها واحتوائها على أحكام كثيرة، أو لما فيها من الأمر بالجهاد وفيه الرفعة العظيمة"[2].

والظاهر أن هذين وصفان جليلان للسورة؛ لكثرة أحكامها، وعظيم فضلها، وثواب قراءتها، لكنهما ليسا اسمين من أسمائها التوقيفية والله أعلم.

وقد ورد وصفها أيضا بالزهراء؛ وذلك في حديث (اقرؤوا الزهراوين البقرة وآل عمران) وسيأتي.

ب- فضائل السورة:

١- فضائل السورة منفردة:

من قرأها على عهد النبي كان ينادى بها:

عن العباس قال: "كنت مع الرسول ﷺ يوم حنين ورسول الله ﷺ على بغلته التي أهداها له الجذامي فلما ولى المسلمون قال لي رسول الله ﷺ: يا عباس ناد : يا أصحاب السمرة، يا أصحاب سورة البقرة وكنت رجلا صيتا فقلت : يا أصحاب السمرة يا أصحاب سورة البقرة[3].

وقد استمر هذا الأمر بعد وفاة النبي ﷺ حتى لكأن السورة صارت علما لأهلها؛ فقد ورد عن عروة بن الزبير أنه قال: "كان شعار أصحاب النبي ﷺ يوم مسيلمة يا أصحاب سورة

---

(١) رواه الترمذي في سننه / ٢٨٧٨ وقال: حسن غريب، والحاكم في المستدرك برقم/ ٣٠٢٧وصححه على شرط الشيخين وعبد الرزاق في المصنف/ ٦٠١٩ وعن سهل بن سعد رواه ابن حبان في صحيحه/ ٧٨٠وأبويعلى في مسنده/ ٧٥٥٤والطبراني في المعجم الكبير/ ٥٨٦٤ وله طرق عن ابن مسعود، فالحديث حسن بمجموع طرقه.

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح لملا على القاري ٥/ ٦٤.

(٣) رواه بلفظه ابن أبي حاتم ١٠٢٣٢ والحديث عند مسلم برقم ٣٣٢٤ بدون ذكر لفظ البقرة.

البقرة"[1].

من قرأها آنسته في قبره:

عن أبي عمران أنه سمع أبا الدرداء يقول : إن رجلا ممن قد قرأ القرآن أغار على جار له فقتله وأنه أقيد منه فقتل، فما زال القرآن ينسل منه سورة سورة حتى بقيت البقرة وآل عمران جمعة ثم إن آل عمران انسلت منه فأقامت البقرة جمعة. فقيل لها: ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [ق: ٢٩] قال : فخرجت كأنها السحابة العظيمة[2] قال أبو عبيد: يعني أنهما كانتا معه في قبره تدفعان عنه وتؤنسانه فكانتا من آخر ما بقي معه من القرآن.

الشيطان ينفر من البيت التي تقرأ فيه:

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (لا تجعلوا بيوتكم مقابر؛ إن الشيطان ينفر من البيت الذي يقرأ فيه سورة البقرة)[3].

أنها سنام القرآن:

عن سهل بن سعد الساعدي قال " قال رسول الله ﷺ إن لكل شيء سناماً وسنام القرآن سورة البقرة من قرأها في بيته نهاراً لم يدخله الشيطان ثلاث ليال[4].

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور في سننه رقم/ ٢٩٠٨وابن أبي شيبة في المصنف برقم/ ٣٣٥٧٢ وعبد الرزاق في المصنف رقم/ ٩٤٦٥، وسنده صحيح.

(٢) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص١٦٧ بسند حسن، ومثله لا يقال بالرأي.

(٣) أخرجه مسلم / ٧٨٠والترمذي/ ٢٨٧٧ بلفظ: وإن البيت الذي يقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان ".

(٤) أخرجه أبو يعلى١٣/ ٤٦٥وابن حبان ٢/ ١٠٩والبيهقي في الشعب٢/ ٤٥٣. وسنده حسن، انظر: صحيح الترغيب والترهيب ٢/ ٨٧.

تتنزل الملائكة لقراءتها:

عن أسيد بن حضير قال: "بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوطة عنده إذ جالت الفرس فسكت، فسكنت، ثم قرأ فجالت الفرس فسكت،فسكنت، ثم قرأ فجالت فسكت،فسكنت، ثم قرأ فجالت. فانصرف إلى ابنه يحيى وكان قريبا منها فأشفق أن تصيبه فلما أخذه رفع رأسه إلى السماء فإذا هو بمثل الظلة فيها أمثال المصابيح عرجت إلى السماء حتى ما يراها فلما أصبح حدث رسول الله ﷺ بذلك فقال رسول الله ﷺ : أتدري ما ذاك ؟ قال : لا يا رسول الله قال : تلك الملائكة دنت لصوتك ولو قرأت لأصبحت تنظر الناس إليها لا تتوارى منهم [(١)].

وعن أسيد بن حضير أنه قال " يا رسول الله بينما أقرأ الليلة سورة البقرة إذ سمعت وجبة من خلفي فظننت أن فرسي انطلق فقال رسول الله ﷺ : اقرأ يا أبا عبيد. فالتفت فإذا مثل المصباح مدلى بين السماء والأرض فما استطعت أن أمضي فقال رسول الله ﷺ: تلك الملائكة نزلت لقراءتك سورة البقرة أما إنك لو مضيت لرأيت العجائب[(٢)].

قارئها جدير بإمارة قومه:

عن أبي هريرة قال " بعث رسول الله ﷺ بعثا وهم ذوو عدد فاستقرأهم فاستقرأ كل رجل منهم يعني ما معه من القرآن فأتى على رجل منهم من أحدثهم سنا فقال : ما معك يا فلان ؟ قال: معي كذا وكذا وسورة البقرة. قال : أمعك سورة البقرة ؟ قال : نعم. قال : اذهب فأنت أميرهم[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه تعليقا/ ٤٧٣٠ ومسلم في صحيحه/ ٧٩٦.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك برقم/ ٢٠٣٥، وابن حبان في صحيحه برقم/ ٧٩٩، والطبراني في المعجم الكبير برقم/ ٥٦٦. وسنده صحيح.

(٣) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه برقم/ ١٥٠٩ وابن حبان في صحيحه برقم/ ٢١٢٦ والحاكم وصححه على شرط الشيخين برقم/ ١٦٢٢ والترمذي في سننه برقم/ ٢٨٧٦ وقال: حديث حسن.

٢- فضائلها مع آل عمران مجتمعتين:

تأتيان تحاجان عن صاحبهما:

عن أبي أمامة الباهلي قال " سمعت رسول الله ﷺ يقول: (اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه، اقرؤوا الزهراوين : سورة البقرة وسورة آل عمران فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غيايتان وكأنهما غمامتان أو كأنهما فرقان من طير صواف يحاجان عن صاحبهما، اقرؤوا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة)[(١)].

وعن نواس بن سمعان قال " سمعت رسول الله ﷺ يقول: (يؤتى بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به في الدنيا تقدمهم سورة البقرة وآل عمران، قال: وضرب لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد، قال : كأنهما غمامتان أو كأنهما غيايتان أو كأنهما ظلتان سوداوان بينهما شرف أو كأنهما فرقان من طير صواف يحاجان عن صاحبهما) [(٢)].

وعن بريدة قال : قال رسول الله ﷺ: (تعلموا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة، ثم سكت ساعة ثم قال : تعلموا سورة البقرة وآل عمران فإنهما الزهراوان يظلان صاحبهما يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف..)[(٣)].

فيهما اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب:

عن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال: (اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب في سور ثلاث؛ في البقرة وآل عمران وطه_ يعني: الحي القيوم_)[(٤)].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم/ ٨٠٤.
أخرجه مسلم في صحيحه برقم/ ٨٠٥.

(٢) أخرجه أحمد ٥/ ٣٤٨ والدارمي في سننه برقم/ ٣٣٩١ والبغوي في شرح السنة برقم/ ١١٩٠، قال

(٣) الهيثمي: رجاله رجال الصحيح. مجمع الزوائد٧/ ١٥٩.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك برقم/ ١٨٦٧وابن ماجه في سننه برقم/ ٣٨٥٦ورجاله ثقات. مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه للبوصيري ٤/ ١٤٤.

من قرأهما عُدَّ من الصحابة عظيما:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جد فينا[1]. يعني عَظُم.

فضائلها مع السبع الطوال:

وهي سور: البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والأنفال والتوبة معا أو يونس على قول آخر. وقد ورد في فضل هذه السبع عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: (من أخذ السبع الأول من القرآن فهو حبر)[2] والحبر العالم؛ وذلك لكثرة ما فيهما من أحكام وشرائع والله أعلم.

وورد عنه ﷺ أنه قال: (أعطيت مكان التوراة السبع الطوال وأعطيت مكان الزبور المئين وأعطيت مكان الإنجيل المثاني وفضلت بالمفصل)[3].

جـ-مدنية السورة:

سورة البقرة مدنية بالإجماع، بل ورد أنها أول سورة نزلت بالمدينة، وفي هذا عدة آثار عن الصحابة والتابعين؛ فقد ورد من عدة طرق عن عبد الله بن عباس قال: "نزلت بالمدينة سورة البقرة "[4].

(١) أحمد ٣/ ١٢٠ وابن حبان٢/ ٨٦ والبغوي في شرح السنة ١٣/ ٣٠٥ وسنده صحيح.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك برقم/ ٢٠٧٠ وصححه على شرطهما، وأحمد في مسنده ٦/ ٧٢واللفظ له، والبغوي في شرح السنة برقم/ ١٢٠٣، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٦٢: ورجاله رجال الصحيح.

(٣) رواه أحمد في مسنده ٤/ ١٠٧ والطبراني في المعجم الكبير ٢٢/ ٧٥وسنده حسن.

(٤) أخرج ابن الضريس في فضائل القرآن ص٧٥، وأبو جعفر النحاس في الناسخ والمنسوخ ص ٤١٦، وقال السيوطي:"وإسناده جيد؛ رجاله كلهم ثقات. الإتقان في علوم القرآن ١/ ٣٧، والبيهقي في دلائل النبوة ٧/ ١٤٤ وقال: ولهذا الحديث شاهد صحيح. وأخرجه أبوعبيد في فضائل القرآن برقم/ ٨١٣ عن علي بن أبي طلحة، وبنحوه أبوعمرو الداني في البيان في عد آي القرآن ص١٣٤.

قال ابن حجر: "واتفقوا على أنها مدنية وأنها أول سورة نزلت بها"[1]. ولكن هذا لا يعني أن كل آياتها أول ما نزل بالمدينة، فقد دلت أدلة كثيرة على أن آيات كثيرة بالسورة نزلت متأخرة. قال ابن تيمية: "والبقرة وإن كانت مدنية بالاتفاق، و قد قيل: إنها أول ما نزل بالمدينة فلا ريب أن هذا في بعض ما نزل و إلا فتحريم الربا إنما نزل متأخرا، و قوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٨١] من آخر ما نزل، و قوله ﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِ ﴾ نزلت عام الحديبية سنة ست باتفاق العلماء"[2].

د- عدد الآي واختلاف العلماء في ذلك:

عدد آيات سورة البقرة مائتان وخمس وثمانون في عدِّ المدني والمكي والشامي، ومائتان وست وثمانون في العدِّ الكوفي، ومائتان وسبع وثمانون في العد البصرى.

واختلافهم في أحد عشرة آية: ﴿ الٓمٓ ١ ﴾ [البقرة: ١] عدها الكوفي ولم يعدها الباقون، ﴿ عَذَابٌ أَلِيمُۢ ﴾ [البقرة: ١٠] عدها الشامي ولم يعدها الباقون، ﴿ مُصۡلِحُونَ ١١ ﴾ [البقرة: ١١] لم يعدها الشامي وعدها الباقون ﴿ إِلَّا خَآئِفِينَ ﴾ [البقرة: ١١٤] عدها البصري ولم يعدها الباقون، ﴿ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [البقرة: ١٧٩] لم يعدها المدني الأول والمكي وعدها الباقون، ﴿ مِنۡ خَلَٰقٖ ٢٠٠ ﴾ [البقرة: ٢٠٠] لم يعدها المدني الأخير وعدها الباقون ﴿ مَاذَا يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٩] عدها المدني الأول والمكي ولم يعدها الباقون، ﴿ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ٢١٩ ﴾ [البقرة: ٢١٩] عدها المدني الأخير والكوفي والشامي ولم يعدها الباقون، ﴿ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴾ [البقرة: ٢٣٥] عدها البصري ولم يعدها الباقون، ﴿ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] عدها المدني الأخير والمكي والبصري ولم يعدها الباقون ﴿ مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [البقرة: ٢٥٧] عدها المدني الأول ولم يعدها الباقون.[3]

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ٨/ ١٦٠.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية١٧/ ١٩٣.

(٣) البيان في عد آي القرآن لأبي عمرو الداني/ ١٤٠، وقد اختلف في عدد الآي أهل المدينة ومكة والشام=

هـ - محور السورة:

معلوم أن سورة البقرة أطول سورة في القرآن، ومع هذا فإن الوحدة الموضوعية للسورة الكريمة واضحة تمام الوضوح وإن اختلفت عبارات المفسرين في الظاهر.

قال الإمام الرازي في ختام تفسيره لسورة البقرة: "ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة وفي بدائع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه فهو أيضا بسبب ترتيبه ونظم آياته، ولعل الذين قالوا إنه معجز بسبب أسلوبه أرادوا ذلك، إلا أني رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف غير منتبهين لهذه الأسرار، وليس الأمر في هذا الباب إلا كما قيل:

والنجم تستصغر الأبصار صورته... والذنب للطرف لا للنجم في الصغر.[1]

وسوف نذكر أولا بعض أقول المفسرين في محور السورة:

= والبصرة والكوفة. وتفصيل ذلك كالتالي:

أ- عدد أهل المدينة عددان: عدد أول وهو عدد أبي جعفر يزيد بن القعقاع وشيبة بن نصاح، وعدد أخير وهو عدد إسماعيل بن جعفر بن أبي كثير الأنصاري.

ب- عدد أهل مكة فهو مروي عن عبد الله بن كثير عن مجاهد عن ابن عباس عن أبي بن كعب.

جـ- عدد أهل الشام رواه هارون بن موسى الأخفش وغيره عن عبد الله بن ذكوان وأحمد بن يزيد الحلواني وغيره عن هشام بن عمار. ورواه ابن ذكوان وهشام عن أيوب بن تميم الزماري. ورواه عبد الله بن عامر وغيره عن أبي الدرداء.

د- عدد أهل البصرة مداره على عاصم بن العجاج الجحدري.

هـ - عدد أهل الكوفة مضاف إلى حمزة بن حبيب الزيات وأبي الحسن الكسائي وخلف بن هشام. قال حمزة: أخبرنا بهذا العدد ابن أبي ليلى عن أبي عبد الرحمن السلمي عن علي بن أبي طالب.

وانظر في ذلك: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ١/ ١٨٢،١٨٣، المحرر الوجيز في عدَّ آي الكتاب العزيز لعبد الرزاق إبراهيم موسى / ٦٧.

(١) التفسير الكبير للرازي ٧/ ١١٢. والبيت لأبي العلاء المعري. انظر: الحماسة المغربية٢/ ١٢٦٧.

ذهب أبو جعفر بن الزبير الغرناطي إلى أن السورة بأسرها :" بيان الصراط المستقيم على الاستيفاء والكمال أخذاً وتركاً، وبيان شرف من أخذ به وسوء حال من تنكب عنه"(١).

وقال برهان الدين البقاعي:" مقصودها:إقامة الدليل على أن الكتاب هدى ليتبع في كل ما قال، وأعظم ما يهدي إليه الإيمان بالغيب، ومجمعه الإيمان بالآخرة؛ فمداره الإيمان بالبعث التي أعربت عنه قصة البقرة، التي مدارها الإيمان بالغيب"(٢).

وقال الطاهر بن عاشور: " ومعظم أغراضها ينقسم إلى قسمين : قسم يثبت سمو هذا الدين على ما سبقه وعلو هديه وأصول تطهيره النفوس، وقسم يبين شرائع هذا الدين لأتباعه وإصلاح مجتمعهم"(٣).

ويكاد يتفق جمهور المعاصرين على أن محور السورة يدور حول الخلافة في الأرض ومقوماتها وأهلها(٤).

---

(١) البرهان في تناسب سور القرآن لأبي جعفر بن الزبير الغرناطي ص٨٨.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. لبرهان الدين البقاعي ١، ص٥٥ وقريب منه ما ذكره الشعراوي في تفسيره١/ ٩٥.

(٣) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١/ ٢٠٣.

(٤) قال سيد قطب: "هذه السورة تضم عدة موضوعات، ولكن المحور الذي يجمعها كلها محور واحد مزدوج، يترابط الخطان الرئيسان فيه ترابطاً شديداً؛ فهي من ناحية تدور حول موقف بني إسرائيل من الدعوة الإسلامية في المدينة، واستقبالهم لها ومواجهتهم لرسولها وللجماعة المسلمة الناشئة على أساسها، وسائر ما يتعلق بهذا الموقف بما فيه تلك العلاقة القوية بين اليهود والمنافقين من جهة، وبين اليهود والمشركين من جهة أخرى.
وهي من الناحية الأخرى تدور حول موقف الجماعة الإسلامية في أول نشأتها، وإعدادها لحمل أمانة الدعوة والخلافة في الأرض، بعد أن تعلن السورة نكول بني إسرائيل عن حملها، ونقضهم لعهد الله بخصوصها، وتجريدهم شرف الانتساب الحقيقي لإبراهيم صاحب الحنيفية الأولى، وتبصير الجماعة المؤمنة وتحذيرها من العثرات التي سببت تجريد بني إسرائيل من هذا الشرف العظيم، وكل موضوعات السورة تدور حول هذا المحور المزدوج". في ظلال القرآن ١/ ٢٨. =

وهذا يتفق مع مضمون السورة إلى حد كبير؛ ولذلك توطأ عليه بعض القدامى وجمهرة المعاصرين؛ ذلك أن السورة استفتحت بالحديث عن القرآن موقف الناس حياله، ثم تحدثت بعد ذلك عن خلافة آدم، وتحدثت حديثاً مطولاً عن بني إسرائيل وذكرت طرفاً من مثالبهم، مما كان داعيا إلى ألا ينالوا عهد الله، ثم انتقل الحديث إلى المسلمين ليخاطبهم بموجبات الخلافة.

ومما سبق وباستعراض أقوال العلماء وتدبر السورة وموضوعاتها نستطيع أن نقول إن محور السورة يدور حول: **"منهج خلافة الله في الأرض بين من أضاعوه ومن أقاموه"**.

وهذا المحور يتناسب مع موضوعات السورة ومع ملابسات نزولها؛ فسورة البقرة أول سورة نزلت بالمدينة كما سلف، وقد صار للمسلمين عندئذ دولة وأرض، فناسب أن يخاطبوا لوراثة الاستخلاف الإلهي لهم. أما تناسب المحور مع موضوعاتها فسيأتيك تفصيله.

والناظر في السورة الكريمة يجد أن خطابها وموضوعاتها تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: خطاب لليهود أو عن اليهود وهذا يمثل الشطر الأول في السورة تقريباً.

أما القسم الثاني في السورة: فإنه يتوجه للمسلمين بالخطاب ويكلفهم بجملة من أحكام العبادات والمعاملات المالية والأسرية والدولية. ثم تتوج السورة بختامها العظيم الذي يبين استجابة المؤمنين لأمر ربهم وتضرعهم له أن يتم عليهم أمرهم في خاصة شؤونهم وعامها. ولوضوح هذا الأمر فقد أشار إليه غالب من كتب في موضوعات هذه السورة المباركة[1].

= ويقول د/ صلاح الخالدي: هي سورة الخلافة والخلفاء. التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق ص٧٣. ويقول د/ مصطفى مسلم: موضوعها: القوامة على دين الله سلب وإسناد. بحث :المناسبات وأثرها ص١٨، ويتشابه هذا مع ما ذكره البقاعي في خاتمة السورة حيث قال:" بداية هذه السورة هداية وخاتمتها خلافة، فاستوفت تبيين أمر النبوة إلى حد ظهور الخلافة فكانت سناماً للقرآن". نظم الدرر للبقاعي ٤/ ١٨٧.

(١) ذكر السيد رشيد رضا في تفسير المنار أن ما يناهز نصف السورة وهو شطرها الخاص بأمة الدعوة، والشطر الثاني قد وجه لأمة الإجابة. تفسير القرآن الحكيم المشهور بتفسير المنار ١/ ١٠٧. وهو=

والذي استخلصته من كلام أهل العلم ومن التدبر مليا في السورة أن عنوانها السابق ينتظمه محوران مع مقدمة وخاتمة.

أما المقدمة فتشمل مقصدين مترابطين:

يتحدث المقصد الأول عن هداية القرآن، وموقف الناس منها، وهذا المقصد يتحدث أولاً عن المنهج، وانقسام الناس حياله.

وجاء المقصد الثاني في المقدمة ليتحدث عن الأمر للناس باتباع المنهج، وليذكرهم بأصوله وغاياته، وليضرب لهم نموذج الاستخلاف الأول في الكون.

= موافق لكلام الشيخ محمود شلتوت حيث قال: " السورة تهدف في جملتها إلى غرضين هما: توجيه الدعوة إلى بني إسرائيل ومناقشتهم فيما كانوا يثيرونه حول الرسالة المحمدية من تشكيكات وشبه... أما الغرض الثاني فهو التشريع الذي اقتضاه تكوين المسلمين جماعة متميزة على غيرها في عبادتها ومعاملاتها وعاداتها. تفسير القرآن الكريم لمحمود شلتوت ص٥١،٥٢. وقريب من هذا ما ذكره سيد قطب في تفسيره: في ظلال القرآن ١/ ٢٨ وقد سبقت الإشارة إليه، وذكره محمد قطب في: دراسات قرآنية ص٢٧٧، ود/ مصطفى مسلم في كتابه: مباحث في التفسير الموضوعي ٤٨،٤٩. ود/ زاهر عواض الألمعي في كتابه: دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ص١١٤. وراجع: التفسير الوسيط للدكتور سيد طنطاوي ١/ ٣٢.

أما الدكتور محمد عبد الله دراز فقد قسمها إلى مقدمة وأربعة مقاصد وخاتمة؛ فالمقدمة في التعريف بشأن القرآن (١-٢٠) والمقصد الأول في دعوة الناس كافة إلى اعتناق الإسلام وعود على بدء (٢٥-٣٩) وهذان معا قد أدمجها رشيد رضا معاً في مقدمة تحت عنوان (دعوة الإسلام العامة) المنار ١/ ١٠٥.

والمقصد الثاني: دعوة أهل الكتاب دعوة خاصة إلى ترك باطلهم والدخول في دين الحق(٤٠-١٦٢).

والمقصد الثالث: عرض شرائع هذا الدين تفصيلاً (١٧٨-٢٨٣) وقبله مدخل إلى المقصد (١٦٣-١٧٧).

المقصد الرابع: ذكر الوازع الذي يبعث على ملازمة تلك الشرائع(٢٨٤).

أما الخاتمة ففي التعريف بالذين استجابوا لهذه الدعوة وبيان ما يرجى لهم في عاجلهم وآجلهم(٢٨٥-٢٨٦).

وكان المحور الأول بعنوان : بنو إسرائيل ومبررات عزلهم عن القوامة والخلافة.

وفيه مقدمة وأربعة مقاطع:

والمقدمة بعنوان: (تذكير وعتاب)[٤٠-٤٨] ذكَّرت بني إسرائيل بنسبهم الكريم، وبنعمة الله عليهم، ثم بينت لهم العهد الذي أخذه الله عليهم، وعاتبتهم على أمرهم الناس بالبر ونسيانهم أنفسهم، وذكرتهم ثانيةً بالنعم، ثم حذرتهم من يوم القيامة، وكل هذا تذكير لهم وعتاب.

والمقطع الأول عنوانه: (أحوال بني إسرائيل مع موسى عليه السلام) [٤٩-٧٩] وفيه تفاصيل نعم الله عليهم وقت أن كانوا في مصر وبعد أن خرجوا منها، وجاءت النعم مفصلة على قسمين: حسية بالإنجاء، ومعنوية بقبول التوبة. ثم عاد إلى ذكر النعم الحسية من الطعام والشراب وعقب بذكر مخالفاتهم من الاعتداء في السبت وقصة البقرة وما حدث فيها من مخالفات. ثم اختتم المقطع بذكر عاقبة أعمالهم وهي قسوة قلوبهم.

وجاء المقطع الثاني ليتحدث عن: (مواقف اليهود المعاصرين للنبيﷺ) [٧٥-١٢٣].

وجاءت في أوله تيئيس المسلمين من إيمانهم بسبب ما كان منهم قديماً وما يكون منهم بعد ذلك؛ فذكرت الآيات كثيراً من أخلاقهم، وردت عليهم افتراءاتهم، وبينت حقدهم وحسدهم، ثم ختم المقطع بدعوتهم إلى الإيمان بأسلوب هادئ يجذب مشاعرهم.

وتحدث المقطع الثالث عن: (دعوة إبراهيم وتبرؤها من ادعاءات السابقين) [١٢٤-١٤١].

وتحدث عن إمامة إبراهيم، وأبطل حجتهم في الانتساب إليه، لأنه ليس مجرد نسب مادي بل هو نسب روحي، وما كان إبراهيم إلا مسلماً، وما أوصى ذريته إلا بالإسلام، وكذلك كان يعقوب، فهم بريئون ممن كان على غير الإسلام، فإذا أردتم أن تتبعوهم فادخلوا في الإسلام، وتحدث المقطع عن بناء الكعبة وما صحب ذلك من دعوات خاشعة تمهيداً لما سيأتي بعد.

أما المقطع الرابع فعنوانه (انتقال القبلة والإمامة في الدين لأمة سيد المرسلين)[١٤٢-١٦٢].

وتحدث عن تحويل القبلة، وبينت الآيات أن تحويل القبلة إيذان بتحويل الخلافة لأهلها المستحقين لها، وقد ردّت الآيات على شبهات اليهود وأبطلتها كلها، وقوّتْ قلوب المؤمنين ومهّدت لهم طريق المواجهة، ثم انتقل آخر المقطع لخطاب المؤمنين وإعدادهم لحمل الأمانة الكبرى بالجهاد والصبر، وبينت لهم أن الصدَّ ليس عن المسجد الحرام وإنما عما حوله أيضاً كشعائر الحج.

المحور الثاني: مقومات استحقاق أمة الإسلام للقوامة والخلافة.

انتقل الحديث في المحور الثاني لمخاطبة المؤمنين وتكليفهم لحمل الأمانة العظمي في الكون، وقد تدرج هذا المقطع في خطاب المسلمين تدرجاً حكيماً نعرفه من مطالعة مقاطع هذا المحور:

فابتدأ المقطع بتمهيد يعد مدخلاً اعتقادياً يربط المسلمين بالتوحيد، ثم تحدث عن تخليص منهج التلقي لله رب العالمين؛ وذلك ببيان أنه وحده المتفرد بالتحليل والتحريم مع ذكر أمثلة على ضلال السابقين في هذا الجانب، وبهذا تهيأت النفوس لتلقي الأوامر فجاءت آية البر التي كشفت ضلال السابقين، وأنارت طريق الهداية للمسلمين.

ثم جاءت تفاصيل هذا المحور في ستة مقاطع وهاك بيانها بإيجاز:

١- المقطع الأول: تفصيل بعض أمور البر[١٧٨-٢٠٣].

٢- المقطع الثاني: نماذج بشرية ومواعظ إلهية[٢٠٤-٢٢٠].

٣- المقطع الثالث: تفاصيل أحكام الأسرة [٢٢١-٢٤٢].

٤- المقطع الرابع: قصص الإحياء والإماتة والعبرة منها [٢٤٣-٢٦٠].

٥- المقطع الخامس: الإنفاق؛ آدابه والمستحقون له.[٢٦١-٢٧٤].

٦- المقطع السادس: حفظ الأموال عن الحرام وعن الإضاعة[٢٧٥-٢٨٣].

وفي ثنايا البحث تفصيل الروابط بين هذه المقاطع، لتشكل معا مجمل التكاليف التي بها صلاح الأمة وإصلاح الدنيا. ثم جاءت خاتمة السورة؛ وفيها رد لآخرها على أولها، والشهادة للأمة بالإيمان واللجوء إلى الله.

و: المناسبات في السورة:

١ - مناسبة اسم السورة لمحورها:

سميت سورة البقرة بهذا الاسم لورود قصة بقرة بني إسرائيل فيها، ولم ترد أي إشارة إلى هذه القصة في أي سورة غيرها.

وقصة البقرة تكشف عدة قضايا أساسية لها تعلق قوي بمحور السورة؛ فإن من وجوه العبرة في القصة ما يلي:

أ- الحرص على نقاء العقيدة وعدم تقديس أي معبود من دون الله.

ج- بيان تلكؤ بني إسرائيل في تنفيذ الأمر الإلهي.

د- معاندة الأنبياء والاستهزاء بهم وعدم التسليم لهم.

هـ-بيان أن من طبيعتهم سفك الدماء والتنصل من الجريمة.

و-إحياء الله للموتى[1].

ولكلٍ من هذه الأمور تعلق قوي بمحور السورة؛ فأمر التوحيد والإيمان قد افتتحت به السورة واختتمت به، وجاء الأمر به وذكر ما يسوغ الإيمان بالواحد الأحد في تضاعيف السورة.

والإيمان بالبعث بعد الموت من العلامات البارزة في محور السورة؛ وقد جاء في السورة عدة شواهد عملية على البعث بعد الموت، وهي إحياء بني إسرائيل بعد صعقهم، وإحياء الذين خرجوا من ديارهم حذر الموت فقال لهم الله موتوا، وقصة الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها

(١) وقد أشار إلى معظمها الشيخ أحمد مصطفى المراغي في: تفسير المراغي ١/ ٨١.

فأماته الله مائة عام ثم بعثه، وبعدها قصة إبراهيم مع إحياء الطير، وهنا قصة إحياء القتيل.

قال ابن تيمية: " فهذه خمس قصص في إحياء الآدميين وقصة في إحياء البهائم وقصة في إبقاء الطعام والشراب وقصة في إحياء الطير"[1]. وهذا مرتبط بالإيمان بالغيب الذي جاء أول وصف للمتقين في السورة، ومرتبط أيضاً بالحديث عن بني إسرائيل الذين صبوا اهتمامهم على الماديات دون الأمور الغيبية.

وأخلاق بني إسرائيل وطباعهم مثلتها قصة البقرة أتم تمثيل:

١- فهم يميلون إلى سفك الدماء حتى مع الأنبياء، وفي قصة البقرة إشارة إلى قتل نفس، ولا شك أن القتل لا تصلح معه الخلافة؛ وقد استبعد الملائكة وجود خليفة في الأرض يسفك الدماء.

٢- وهم مجادلون لا يمتثلون للأمر بسهولة، وقد جادلوا موسى في أمر البقرة أكثر من مرة، واستهزؤوا به وكان لازم كلامهم نسبته إلى الجهل.

٣- وهم وثنيون لم يتغلغل التوحيد في نفوسهم، ولذلك عبدوا العجل عندما ذهب موسى لربه، فجاء الأمر بالذبح ليهون عندهم ما كانوا يعتقدون من تعظيمه.

٤- والتعقيب القرآني على القصة يثبت قساوة قلوبهم بحيث لم يعد فيها خير، ثم يصل ذلك بنفي طمع المسلمين في إيمانهم.

وبهذا يتضح لنا أن هذه القصة تمثل محاور السورة بوضوح تام؛ فقد تحدثت عن طرفي الإيمان؛ مصدر التكليف (إن الله يأمركم) وغاية التكليف وهو الإيمان بالآخرة. ثم تحدثت عن أسباب سلب الخلافة عن بني إسرائيل؛ وقد سبق بيانها.

ومما سبق يظهر وجه تسمية السورة بهذا الاسم، ويكشف كذلك صحة ما قاله الأقدمون: " ينبغي النظر في وجه اختصاص كل سورة بما سميت به"[2].

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ٤/ ٦٠.

(٢) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ١/ ١٥٦.

٢-المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

من الأمور التي تجذب اهتمام السامع براعة الاستهلال في فاتحة الكلام، وهذا أمر ملحوظ في سور القرآن الكريم، ولا يقتصر الأمر على براعة الاستفتاح، بل إن للخواتم موقعها من الحسن أيضاً، يقول الزركشي:" وهي مثل الفواتح في الحسن لأنها آخر ما يقرع الأسماع؛ فلهذا جاءت متضمنة للمعاني البديعة مع إيذان السامع بانتهاء الكلام حتى يرتفع معه تشوّف النفس إلى ما يُذكر بعد"(١).

وللتناسب بين افتتاحية سورة البقرة وخاتمتها أوجه كثيرة؛ من أهمها ما يلي:

١- قال الرازي: "بدأ في السورة بمدح المتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون، وبيّن في آخر السورة أن الذين مدحهم في أول السورة هم أمة محمد ﷺ فقال: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ [٢٨٥] وهذا هو المراد بقوله في أول السورة: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ [٣].

ثم قال ههنا ﴿ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ وهو المراد بقوله في أول السورة ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ ﴾.

ثم قال ههنا: ﴿ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝٢٨٥ ﴾ وهو المراد بقوله في أول السورة ﴿ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ ﴾ [٤] ثم حكى عنهم ههنا كيفية تضرعهم إلى ربهم في قولهم: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦] إلى آخر السورة وهو المراد بقوله في أول السورة: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥ ﴾ [٥] فانظر كيف حصلت الموافقة بين أول السورة وآخرها"(٢).

٢- قال الإمام البقاعي في ختام سورة البقرة: "وأما مناسبتها لأول السورة رداً للمقطع على

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي ١/ ١٨٢.

(٢) التفسير الكبير للرازي ٧/ ١١١.

المطلع فهو أنه لما ابتدأ السورة بوصف المؤمنين بالكتاب الذي لا ريب فيه على الوجه الذي تقدم ختمها بذلك بعد تفصيل الإنفاق الذي وصفهم به أولها على وجه يتصل بما قبله من الأوامر والنواهي والاتصاف بأوصاف الكمال أشد اتصال، وجعل رأسهم الرسول عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام تعظيماً للمدح وترغيباً في ذلك الوصف فأخبر بإيمانهم بما أنزل إليه بخصوصه وبجميع الكتب وجميع الرسل وبقولهم الدال على كمال الرغبة وغاية الضراعة والخضوع فقال استئنافاً لجواب من كأنه قال: ما فعل من أنزلت عليه هذه الأوامر والنواهي وغيرها؟ ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ ﴾[1].

٣- قال أبو جعفر بن الزبير: " ولما بين سبحانه أن الكتاب هو الصراط المستقيم، وذكر افتراق الأمم كما شاء، تناول أحوال الزائغين والمتنكبين تحذيراً من حالهم، ونهياً عن مرتكبهم، وحصر قبيل المتروك بجملته، وانحصار التاركين، وأعقب بذكر مستلزمات المتقين وما ينبغي لهم امتثاله والأخذ به من الأوامر والأحكام والحدود أعقب ذلك بأن الإيمان يجب أن ينطوي على ذلك، وأن يسلم الأمر لمالكه، فقال تعالى : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ ﴾ [٢٨٥] فأعلم أن هذا إيمان الرسول ومن كان معه على إيمانه، وأنهم قالوا: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ ﴾ [٨٥] لا كقول بني إسرائيل: ﴿ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ [النساء: ٤٦] وأنه أثابهم على إيمانهم برفع الإصر والمشقة والمؤاخذة بالخطأ والنسيان عنهم فقال: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [٢٨٦]"[2].

٤- ومن أوجه المناسبة بين البدء والختام أن أول السورة فيه مدح للمؤمنين بصفتين هما: إقامة الصلاة والإنفاق، وفي خاتمة السورة ذِكْر الأمرين مع بيان حسن العاقبة في كلتا الآيتين، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ ﴾ [٢٧٧].

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين البقاعي ٤/ ١٦٨.

(٢) البرهان في تناسب سور القرآن لأبي جعفر بن الزبير الغرناطي ص٨٨.

٥- جاء الحديث في أول السورة عن الإيمان، وكذلك في آخرها؛ فقد جاء في أول السورة وصف المتقين بالإيمان بالغيب، وفي آخر آيات السورة إثبات الإيمان للرسول والمؤمنين.

وجاء في أول السورة الإيمان بكل ما نزل على الرسل في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾[٤]، وجاء في آخرها الإيمان بجميع الأنبياء في قوله تعالى: ﴿ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ﴾ [٢٨٦]، وفي وسطها جاء قوله تعالى: ﴿ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا ... وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾[١٣٦]: قال ابن تيمية: "ففتحها - أي سورة البقرة- بالإيمان الجامع، وختمها بالإيمان الجامع،ووسطها بالإيمان الجامع"[١].

٦- جاء في أول السورة بيان هداية القرآن ﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ﴾ والإيمان بالقرآن في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ وكذلك في آخرها ﴿ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ ﴾ وفي وسط السورة حديث طويل عن القرآن لبيان أنه دستور الخلافة الإنسانية في الأرض وأن قيمة الأمة في التمسك به، وأن ضلال بني إسرائيل كان بسبب تفريطهم في الكتاب، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ [١٧٦].

٧- قال الشيخ الشعراوي: "في أول السورة ضرب الله المثل بالكافرين والمنافقين، وفي ختامها يقول الحق دعاءً على لسان المؤمنين: ﴿ أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [٢٨٦] هذا القول يدل على استدامة المعركة بين الإيمان والكفر، وأن المؤمن يأخذ أحكام الله دائما لينازل بها الكفر، أيان وجد ذلك الكفر، ويثق المؤمن تمام الثقة أن الله متوليه، لأن الله مولى الذين آمنوا، أما الكافرون فلا مولى لهم"[٢].

وهذا يبين طبيعة الصراع بين الحق والباطل؛ وقد أشارت السورة في أكثر من موطن إلى

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٩/ ١٠٨.

(٢) تفسير الشعراوي للشيخ محمد متولي الشعراوي ٢/ ١٢٤٩.

أن سنة المدافعة من سنن الله الكونية التي تصلح الحياة وتمنع الفساد وسفك الدماء، ولن تقوم هذه السنة إلا على يد الجماعة المؤمنة.

٨- وفي ذكر المتقين بأوصافهم أول السورة ثم دعاؤهم آخرها بالنصر على الكافرين إشارة واضحة إلى أن التقوى سبب من أسباب النصر؛ فمن حصَّل التقوى كان من أهل النصر، ولذلك فإن معية الله للمتقين جاءت في وسط آيات الأمر بالقتال قال تعالى: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٩٤﴾ [١٩٤].

٩-جاء وصف المتقين في أول السورة بأنهم بالآخرة يوقنون، وجاء في آخر السورة التذكير باليوم الآخر، قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ [٢٨١] ثم جاء في آخر آيتين في السورة حديث عن الحساب يوم القيامة، وطلب المغفرة والرحمة.

٣- المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

المناسبة بين افتتاحية البقرة وخاتمة الفاتحة واضحة تمام الوضوح، وقد أشار إليها جمع كبير من العلماء، ونذكر منهم الخوبي حيث قال: "أوائل هذه السورة مناسبة لأواخر سورة الفاتحة؛ لأن الله تعالى لما ذكر أن الحامدين طلبوا الهدى، قال: قد أعطيتكم ما طلبتم: هذا الكتاب هدى لكم فاتبعوه، وقد اهتديتم إلى الصراط المستقيم المطلوب المسئول.

ثم إنه ذكر في أوائل هذه السورة الطوائف الثلاث الذين ذكرهم في الفاتحة، فذكر الذين على هدى من ربهم وهم المنعم عليهم، والذين اشتروا الضلالة بالهدى وهم الضالون، والذين باؤوا بغضب من الله وهم المغضوب عليهم"[1].

(١) أسرار ترتيب القرآن لجلال الدين السيوطي ص٦٧.



٤- المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها:

أ- جاء في الحديث النبوي الشريف لفت النظر والاهتمام بشأن الفاتحة وخواتيم البقرة، وذلك في الحديث الوارد عن ابن عباس قال: "بينما جبريل قاعد عند النبي ﷺ سمع نقيضاً من فوقه فرفع رأسه فقال هذا باب من السماء فتح اليوم لم يُفتح قط إلا اليوم فنزل منه ملك فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم، فسلم وقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته"[1].

وهذا يشير إلى وجود مناسبة قوية بين الموضعين؛ ففي كليهما حمدٌ وثناء على الله تعالى بما هو أهل له، وفيهما دعاء بطلب الهداية والمغفرة، ولذلك فإن سورة الفاتحة تختم بقول: آمين. وفي آخر الفاتحة تبرؤ من طريق المغضوب عليهم والضالين، وفي ختام البقرة إشارة إليهم في قوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾[٢٨٥].

ب- في سورة الفاتحة دعاء من المؤمنين أن يسلكهم الله في طريق من أنعم عليهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾[الفاتحة ٦، ٧] وقد أجاب الله دعائهم في سورة البقرة، وأسبغ عليهم من فضله فأتم النعمة وقال: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ﴾[البقرة/ ١٥٠].

ج- تضمنت سورة الفاتحة الإقرار بالربوبية والالتجاء إليها في دين الإسلام والابتعاد عن سبيل أهل الكتابين، وسورة البقرة تضمنت قواعد الدين وآل عمران مكملة لمقصودها؛ فالبقرة بمنزلة إقامة الدليل على الحكم، وآل عمران بمنزلة الجواب عن شبهات الخصوم.

فأوجب الحج في آل عمران وأما في البقرة فذكر أنه مشروع وأمر بإتمامه بعد الشروع فيه، وكان خطاب النصارى في آل عمران كما أن خطاب اليهود في البقرة أكثر لأن التوراة أصل والإنجيل فرع لها. والنبي ﷺ لما هاجر إلى المدينة دعا اليهود وجاهدهم وكان تعامله مع النصارى في آخر

(١) رواه مسلم في صحيحه برقم/ ٨٠٦.

الأمر، كما كان دعاؤه لأهل الشرك قبل أهل الكتاب؛ ولهذا كانت السور المكية فيها الدين الذي اتفق عليه الأنبياء فخوطب به جميع الناس، أما السور المدنية فيها خطاب من أقر بالأنبياء من أهل الكتاب والمؤمنين فخوطبوا بـ: (يا أهل الكتاب) (يا بني إسرائيل) (يا أيها الذين آمنوا).

د- ذكر بعض العلماء أن سورة البقرة قد اشتملت على تفصيل ما أجملته الفاتحة:

١- فقوله: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ تفصيله ما وقع فيها من الأمر بالذكر في عدة آيات ومن الدعاء في قوله: ﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾[البقرة: ١٨٦] الآية وفي قوله ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾ [البقرة: ٢٨٦] وبالشكر في قوله: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٢].

٢- وقوله: ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ تفصيله قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[البقرة: ٢١،٢٢] وقوله:﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ [البقرة: ٢٩]. ولذلك افتتحها بقصة خلق آدم الذي هو مبدأ البشر وهو أشرف الأنواع من العالمين وذلك شرح لإجمال رب العالمين.

٣- وقوله: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ قد أومأ إليه بقوله في قصة آدم: ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ٥٤] وفي قصة إبراهيم لما سأل الرزق للمؤمنين خاصة بقوله: ﴿ وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ ﴾ [البقرة: ١٢٦] فقال: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ ﴾ [البقرة: ١٢٦] وذلك لكونه رحماناً، وما وقع في قصة بني إسرائيل ﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم ﴾ [٥٢] إلى أن أعاد الآية بجملتها في قوله ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾[البقرة: ١٦٣] وذكر آية الدين إرشاداً للطالبين من العباد ورحمة بهم، ووضع عنهم الخطأ والنسيان والإصر وما لا

طاقة لهم به، وختم بقوله: ﴿ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

٤- وقوله: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الفاتحة: ٤] تفصيله ما وقع من ذكر يوم القيامة في عدة مواضع ومنها قوله: ﴿ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [٢٨٤] والدين في الفاتحة الحساب في البقرة.

٥- وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ [الفاتحة: ٥] مجمل شامل لجميع أنواع الشريعة الفرعية، وقد فصلت في البقرة أبلغ تفصيل؛ فذكر فيها الطهارة والحيض والصلاة والاستقبال وطهارة المكان والجماعة وصلاة الخوف وصلاة الجمع والعيد والزكاة بأنواعها كالنبات والمعادن والاعتكاف والصوم وأنواع الصدقات والبر والحج والعمرة والبيع والإجارة والميراث والوصية والوديعة والنكاح والصداق والطلاق والخلع والرجعة والإيلاء والعدة والرضاع والنفقات والقصاص والديات وقتال البغاة والردة والأشربة والجهاد والأطعمة والذبائح والأيمان والنذور والقضاء والشهادات والعتق.

٦- وقوله: ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥] شامل لعلم الأخلاق؛ وقد ذكر منها في هذه السورة التوبة والصبر والشكر و الرضا والتفويض والذكر والمراقبة والخوف وإلانة القول. وقد استنبط بعض أهل السلوك من هاتين الآيتين جميع منازل السائرين ومدارج السالكين إلى رب العالمين.

٧- وقوله: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦] الى آخره تفصيله ما وقع في السورة من ذكر طريق الأنبياء ومن حاد عنهم؛ ولهذا ذكر في الكعبة أنها قبلة إبراهيم فهي من صراط الذين أنعم عليهم وقد أضل الله عنها السابقين؛ ولذلك قال في قصتها: ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [١٤٢] تنبيهاً على أنها الصراط الذي سألوا الهداية إليه.

ثم ذكر ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ ﴾ [١٤٥] وهم المغضوب عليهم والضالون الذين حادوا عن طريقهم، ثم أخبر بهداية الذين آمنوا إلى طريقهم ثم قال: ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وأيضا قوله أول السورة: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٢] إلى آخره في وصف الكتاب إخبار بأن الصراط الذي سألوا الهداية إليه هو ما تضمنه الكتاب وإنما يكون هداية لمن اتصف بها ذكر من صفات المتقين، ثم ذكر أحوال الكفرة ثم أحوال المنافقين وهم من اليهود وذلك تفصيل لمن حاد عن الصراط المستقيم.

وكذلك قوله هنا: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ ﴾ [١٣٦]الآية فيه تفصيل النبيين المنعم عليهم وقال في آخرها: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ﴾ [١٣٦] تعريفاً بالمغضوب عليهم والضالين الذين فرقوا بين الأنبياء ولذلك عقبها بقوله: ﴿ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ﴾ [١٣٧] أي إلى الصراط المستقيم صراط المنعم عليهم كما اهتديتم.

٨- أن الحديث والإجماع على تفسير المغضوب عليهم باليهود والضالين بالنصارى، وقد ذكروا في سورة الفاتحة على حسب ترتيبهم في الزمان فعقب بسورة البقرة وجميع ما فيها من خطاب أهل الكتاب لليهود خاصة وما وقع فيها من ذكر النصارى لم يقع بذكر الخطاب، ثم عقبت البقرة بسورة آل عمران وأكثر ما فيها من خطاب أهل الكتاب للنصارى؛ فإن ثمانين آية من أولها نازلة في وفد نصارى نجران كما ورد في سبب نزولها، وختمت بقوله ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران/ ١٩٩] وهذا وجه بديع في ترتيب السورتين؛ كأنه لما ذكر في الفاتحة الفريقين قص في كل سورة مما بعدها حال كل فريق على الترتيب الواقع فيها ولهذا كان صدر سورة النساء في ذكر اليهود وآخرها في ذكر النصارى.

- أن سورة البقرة أجمع سور القرآن للأحكام والأمثال ولهذا سميت في أثر "فسطاط القرآن" الذي هو المدينة الجامعة فناسب تقديمها على جميع سوره.

- أنها أطول سورة في القرآن وقد افتتح بالسبع الطوال فناسب البداءة بأطولها[١].

(١) تناسق الدرر في تناسب الآيات والسور ص٧٨ وما بعدها. بتصرف.

مقدمة السورة: (١-٣٩) هداية القرآن، وخلافة الإنسان

﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُولَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ۝١٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ۝١٢ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ۝١٣ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۝١٤ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١٥ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ۝١٦ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ۝١٧ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝١٨ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٩ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٠ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٢ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٢٣ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ۝٢٤ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢٥

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ البقرة: [١ - ٣٩].

التفسير الإجمالي للمقطع:

تبدأ سورة البقرة بهذه الحروف المقطعة ﴿ الٓمٓ ﴾ وللعلماء فيها أقوال شتى، والراجح أنها أدوات تنبيه على غير ما ألف العرب، جاءت بهذه الكيفية للتحدي والإعجاز، والمبالغة في قرع أسماعهم، ولفت انتباههم إلى القرآن الذي يهربون عند سماعه، وليعلموا أنه من جنس كلامهم

لكنهم لا يستطيعون أن يأتوا بمثله.

وقد كان المشركون يهربون عند سماع القرآن، فإذا سمعوا هذه الفواتح وقفوا مشدوهين ينتظرون ما يكون بعدها، فإذا هو القرآن الذي يفرون منه يأتيهم وبهذا تقوم الحجة عليهم في سماع الحق الذين يصممون آذانهم عنه.[(١)]

قال الرازي: "الحروف تنبيهات قُدِّمَتْ على القرآن، ليبقى السامع مقبلاً على استماع ما يرد عليه، فلا يفوته شيء من الكلام الرائق والمعنى الفائق".[(٢)]

وهناك مناسبة بين ورود هذه الحروف وبين الحديث بعدها عن القرآن، وقد لحظها ابن كثير فقال: "كل سورة تَبتدئ بهذه الحروف ففيها الانتصار للقرآن، وتبيان أن نزوله من عند الله حق لا شك فيه ولا مرية ولا ريب"[(٣)].

وجاء بعد هذه الحروف الإشارة إلى القرآن ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ ﴾ أي أن ذلك هو الكتاب الكامل، الذي يستحق أن يسمى كتاباً، وليس في الكون كله ما يصلح أن يسمى كتاباً بالقياس إليه، ثم جاء بعد ذلك ما يؤكد هذا الحكم ويستدل له وهو قوله تعالى: ﴿ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾ والريب شك مع تهمة، ونفي الريب دليل على أن القرآن ليس محلاً لأن يرتاب فيه عاقل متدبر، فإذا استقر ذلك في النفس اهتدت بهداه الذي لا ينتفع به إلا من اتقى نفسه وصانها من عذاب الله، قال تعالى: ﴿ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًى ﴾ [فصلت: ٤٤].

(١) وهذا القول عليه جمهور أهل اللغة والتفسير والحديث، ويميل إليه أهل العلم المعاصرون. انظر في ذلك: فواتح سور القرآن للدكتور حسين نصار ص ٣٦ وما بعدها.

(٢) التفسير الكبير للرازي ٢٨/ ١٢٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/ ٤٢٨. وقريب من ذلك ما ذكره الرازي في التفسير الكبير ٢٤/ ٢٥، واستثنى من ذلك سور مريم والعنكبوت والروم وبين حكمة ذلك. وأضاف الشيخ شلتوت سورة الروم. تفسير القرآن الكريم ص٦٢. وانظر: إعجاز القرآن للباقلاني ص٨، والبرهان للزركشي ١٧٠، وتفسير المنار لرشيد رضا ٨/ ٢٩٦.

وبعد هذا الوصف البليغ للقرآن الكريم وهدايته، تتشوف النفس إلى معرفة أثر هذا القرآن على الناس، واستجابتهم لهداه، فجاء التفصيل القرآني ليبين انقسام الناس إلى ثلاث طوائف: مؤمنين، وكافرين، ومنافقين.

وجاء الوصف القرآني متصلاً بالحديث عن هدايته للمتقين وذكر خمسة أوصاف لهم:

أولها: أنهم يصدقون تصديقاً جازماً بكل ما غاب عن حواسهم، ويشمل ذلك الإيمان بالله وملائكته واليوم الآخر.

وثاني أوصافهم: أنهم يؤدون الصلاة في أوقاتها مستوفية لأركانها وآدابها وخشوعها، مع استحضار جلال الله فيها.

وثالث أوصافهم: أن كل ما انتفعوا به من رزق يخرجون بعضاً منه، والتعبير بالمضارع يفيد الدوام، والإنفاق من أقوى علامات الإيمان بالغيب، قال ﷺ:(والصدقة برهان)[1] أي برهان على صدق إيمان صاحبها، وتصديقه بموعود ربه.

ثم ذكرت الآيات وصفاً رابعاً للمتقين وهو أنهم يؤمنون بالقرآن الذي أنزل إلى النبي ﷺ ويؤمنون كذلك بالكتب السماوية السابقة، والظاهر أن هذه الآيات في وصف مؤمني أهل الكتاب، وقد ذهب إلى ذلك جماعة من أهل العلم[2].

---

(١) رواه مسلم في صحيحه برقم/ ٢٢٣.

(٢) انظر: جامع البيان للطبري ١/ ٢٣٨ والمحرر الوجيز لابن عطية ١/ ٨٦، والجواهر الحسان للثعالبي ١/ ٣١، والبحر المحيط لأبي حيان ١/ ١٧٠ورجحه إسماعيل حقي في تفسيره: روح البيان ١/ ٤٠.
ويشهد لهذا القول أن الصالحين من أهل الكتاب جاء وصفهم بهذه الصفات في آيات أخرى كقوله تعالى على لسان موسى عليه السلام ﴿ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٦] وقد وصفهم القرآن في عدة آيات بالمسارعة إلى الإيمان بالإسلام.

وذكرت الآيات خامس صفاتهم وهي أنهم يوقنون يقيناً جازماً مطابقاً للواقع بالدار الآخرة وما فيها من بعث وحساب وثواب وعقاب، مما يدفعهم إلى عمل الخيرات وترك المنكرات.

وهؤلاء الموصوفون بهذه الصفات متمكنون على الهدى الكامل الذي وهبهم الله إياه بالقرآن، وأولئك هم ولا أحد غيرهم أهل الفلاح والفوز الحقيقي.

ولأن الآيات وصفت القرآن بأنه هدى للمتقين، وبين موقف المتقين من هداية القرآن، جاء الكلام على هؤلاء الذين لم ينتفعوا بهدايته إجابة على سؤال مقدر: إذا كان القرآن هو الحق الواضح الذي لا مرية فيه فلم لا يؤمن الناس جميعاً؟

فذكرت الآيات أن هناك من الناس من عَمِي وصمّ فلم ينتفع بأي وعظ أو هدى وهم الكفار، والكفر في اللغة الستر[1]، والذين كفروا من لم يؤمنوا بما يجب الإيمان به بعد دعوتهم إليه، وهؤلاء سواء عليهم الأمران الإنذار وعدمه؛ لأنهم في كلتا الحالتين لا يؤمنون.

والآيات مرتبطة بما قبلها؛ فالأوصاف الأولى لمؤمني أهل الكتاب، وهذه الأوصاف لكفارهم، قال الطبري: "أنّ قول الله جل ثناؤه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ [البقرة: ٦] عَقِيبَ خبر الله جل ثناؤه عن مؤمني أهل الكتاب، وعَقِيبَ نعتهم وصِفتهم وثنائه عليهم بإيمانهم به وبكتبه ورسله. فأوْلى الأمور بحكمة الله، أن يُتلِيَ ذلك الخبرَ عن كُفّارهم ونُعُوتهم، وذمِّ أسبابهم وأحوالهم، وإظهارَ شَتْمهم والبراءةَ منهم؛لأن مؤمنيهم ومشركيهم - وإن اختلفت أحوالهم باختلاف أديانهم- فإن الجنس يجمع جميعَهم بأنهم بنو إسرائيل".[2]

ثم بينت الآيات المانع الذي يحول بينهم وبين الاهتداء وهو أن الله تعالى ختم على قلوبهم؛ قال القرطبي: " والختم مصدر ختمت الشيء ختماً فهو مختوم ومختَّم، شدد للمبالغة، ومعناه:

---

(١) المفردات للراغب الأصفهاني ص٤٣٤.

(٢) جامع البيان للطبري١/ ٢٥٣.



التغطية على الشيء والاستيثاق منه حتى لا يدخله شيء.. والختم يكون محسوساً كما في ختم الكتاب والباب.. وقد يكون معنى كالختم على القلوب "[١] وقد ختم الله على قلوبهم التي هي مصدر العلم والفهم، وعلى أسماعهم التي توصل للقلوب، وجعل أبصارهم لا تهتدي للاعتبار والتدبر فصارت كأن عليها غشاوة تحول بينها وبين الرؤية، وليس في هذا أي ظلم لهم، فهذا فعل الله فيهم بسبب ظلمهم لأنفسهم وإعراضهم عن الحق والهدى بعد معرفته[٢]، قال تعالى ﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ ﴾ [البقرة: ٨٨] وقال ﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ [النساء: ١٥٥]، ثم بين سبحانه ما يستحقونه من عذاب بسبب كفرهم فقال ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ أي أنهم بسبب سوء عملهم أصابهم العذاب الموجع المؤلم لأبدانهم.

وبعد أن تحدث القرآن عن مؤمني أهل الكتاب وكافريهم وموقفهم من هداية القرآن وعاقبة أمرهم جاء الحديث الطويل عن منافقيهم ومن كان على شاكلتهم من منافقي العرب[٣]؛ ولأن هذه السورة أوائل ما نزل بالمدينة، جاء التحذير القرآني من النفاق والمنافقين؛ ذلك لأن النفاق ما كان موجداً بمكة، وإنما وُجد بالمدينة بعد أن صار للإسلام دولة وكان للمسلمين على المشركين في بدرٍ صولة، فلما رأى بعضهم انتصار المسلمين أظهروا الدخول في الدين مع إخفاء الكفر.

وقد حذر القرآن من المنافقين، وكشف سرهم، وأظهر دخائلهم، وورد ذكرهم في سبع عشرة سورة مدنية من جملة ثلاثين سورة، أولها نزولاً البقرة وآخرها التوبة.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/ ٢٨٤ باختصار.

(٢) قال الماتريدي: "والأصل في ذلك أنه ختم الله على قلوبهم لما تركوا التأمل والتفكر في قلوبهم فلم يقع، وختم على سمعهم لما لم يسمعوا قول الحق والعدل خلق الثقل عليه، وخلق على أبصارهم الغطاء لما لم ينظروا في أنفسهم ولا في خلق الله." تأويلات أهل السنة لأبي منصور الماتريدي ١/ ١٦.

(٣) روى أبو صالح عن ابن عباس قال: إنها نزلت في منافقي أهل الكتاب. زاد المسير لابن الجوزي ١/ ٢٩.

وتبدأ الآيات ببيان أن من أصناف الناس أناساً يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ويدعون أنهم مؤمنون بالله واليوم الآخر، ولكنهم كاذبون في دعواهم، فما هم من أهل الإيمان في الحقيقة وإن تظاهروا بذلك.

وإن الذي دفعهم إلى ادعاء الإيمان المخادعة؛ فصورة فعلهم صورة الخداع والإيهام لله، لكنه سبحانه يعلم أمرهم، ويخدعون المؤمنين ويظهرون لهم أنهم إخوانهم في الدين بينما يتربصون بهم الدوائر، والحق أنهم لم يخادعوا ربهم لعلمه بسريرتهم وعلانيتهم، ولم يخادعوا المؤمنين لأن الله يدفع عنهم، إنما يخدعون أنفسهم؛ لأن ضرر الخداع والإخفاء راجع إليهم لكنهم لا يشعرون بذلك لانطماس بصيرتهم.

ثم بينت الآية علة خداعهم وهي أنهم في قلوبهم فساد متمكن من قلوبهم هو مرض الشك والشبهات والجحود فزادهم الله نفاقاً جزاءً على كفرهم قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [التوبة: ١٢٤ - ١٢٥] ولهم العذاب الموجع في الآخرة بسبب كذبهم[١].

وقد بينت الآية أن سبب نفاقهم مداومتهم على الكذب؛ فالكذب أصل النفاق وأساسه، وقد ورد: "إياكم والكذب فإن الكذب مجانب للإيمان"[٢].

---

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف(يكذبون) أي في قولهم آمنا وما هم بمؤمنين، وقرأ الباقون (يكذّبون) بالتشديد أي: يكذبون بآيات الله والرسل. قال مكي بن أبي طالب: " والقراءتان متداخلتان ترجع إلى معنى واحد؛ لأن من كذب رسالة الرسل وحجة النبوة فهو كاذب على الله، ومن كذب على الله وجحد تنزيله فهو مكذب بما أنزل الله". الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها ١/ ٢٢٨.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ١/ ٥ والبيهقي في سننه١٠/ ١٩٦ موقوفاً على أبي بكر، وحسّن الحافظ العراقي سنده مرفوعاً. المغني عن حمل الأسفار ٢/ ٨٠٥.

ولم يقف هؤلاء عند حد الكذب والمخادعة، بل أضافوا إلى ذلك السفاهة وتبرير الإفساد؛ فإذا نصحهم ناصح ألا يفسدوا في الأرض بالكفر والمعاصي وإلقاء الشبه بالغوا في نفي الفساد عن أنفسهم وقصروا أنفسهم على الإصلاح وأكدوا ذلك بالجملة الإسمية التي تدل على الثبات والرسوخ، قال تعالى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ﴾ [فاطر: ٨] لكن القرآن رد عليهم، وأثبت كذبهم وأكدَّ أنهم هم المفسدون، وقصره عليهم، لكنهم لا يشعرون بذلك مع أن أثره ظاهر وذلك لاستحكام الفساد في مداركهم مما أدى لاختلال آلة الإدراك عنهم فجعلهم يرون المنكر معروفاً.

وبعد أن أمرهم المسلمون بالتخلي عن الفساد نصحوهم بالتحلي بالإيمان؛ وذلك بأن يؤمنوا إيماناً كإيمان الناس الصادقين، فكانوا يردون مستنكرين: أنؤمن كما آمن ضعفاء الرأي؟ وكان قولهم هذا فيما بينهم لكن القرآن سجّله عليهم، وأخبر أنهم هم السفهاء في الحقيقة وحصر السفاهة فيهم، ولكن لا يعلمون حقيقة جهلهم.

وقد زادوا على سفاهتهم الخداع والتمويه؛ فكانوا إذا استقبلوا المؤمنين وكانوا قريباً منهم تظاهروا أمامهم بالإيمان الصادق، وإذا انفردوا مع شياطينهم من اليهود[1] قالوا إنا معكم، وما نحن إلا بمستهزئين بالمؤمنين ساخرين منهم في ادعاء الإيمان، فلكل منهم وجهان؛ وجه يلقى به المؤمنين، ووجه آخر ينقلب به إلى إخوانه الضالين، وله لسانان؛ لسان صدق زائف يعامله المسلمون بظاهره، ولسان كذب وخداع يظهر به خفايا نفسه ويكشف عما أضمره فؤاده من الكفر بالله والحقد على أولياء الله.

ولكن الله يغار على عباده المؤمنين، فيجازى المنافقين بنفس عملهم؛ ويظهر لهم من عصمة أموالهم ودمائهم في الدنيا خلاف الذي أعد لهم في الآخرة من العذاب. ويمد لهم ويمليهم في كفرهم ومجاوزتهم الحد ويمكنهم من المعاصي حال كونهم يعمون عن الهدى ويتحيرون بين

---

(١) رواه الطبري في جامع البيان ١/ ٣٩٧عن عبد الله بن عباس بسند حسن.

الكفر والإيمان، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨] .

وما كان أيسر الهدى على كل هؤلاء الضالين من الكفار والمنافقين، لكنهم استبدلوا الضلالة بالهدى، وكان ذلك عن رغبة في الضلال عن الطريق المستقيم، وزهداً في الهداية إلى الصراط القويم فهم كالمشتري الذي يرغب في المبيع، لكنهم لم يحصلوا من اشتراء الضلالة إلا الخسارة، فما ربحت تجارتهم بل خسروا، وما كانوا مهتدين بل ضلوا. وكما بينت الآيات في ختام خصال المتقين وصفهم بالفلاح بينت هنا عاقبة الطائفتين الأخريين وهي الخسارة وبوار التجارة.

وبعد أن ذكرت الآيات الطوائف الثلاث قربت المعقول للمحسوس بمثلين ضُربا للطائفتين الأخيرتين.

فالمثل الأول للكفار[١]، وهو يشَّبه حالهم بحال رجل استوقد النار للقافلة التي كانت

---

(١) ذهب الشيخ محمد عبده إلى أن المثل الأول في منافقي اليهود والمثل الثاني في المنافقين. انظر: تفسير المنار لرشيد رضا١/ ١٦٨ وما بعدها، وهو قريب مما ذكره الدكتور محمد عبد الله دراز في النبأ العظيم حيث قال: "إذا رجعت بنفسك إلى أي أجزاء المثلين سترى معنا أن المثل الأول ينطبق تمام الانطباق على الأوصاف التي ذكرها الله للكافرين، وأن الذي ينطبق على صفات المنافقين إنما هو المثل الثاني وحده، فهؤلاء القوم الذين: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبْصِرُونَ ۝١٧ صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ۝١٨﴾[١٧، ١٨] أليسوا هم أولئك القوم الذين ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞ﴾؟[٧] وهذه الظلمات الثابتة المستقرة التي ليس فيها بصيص من نور وليس فيها تقلب ولا تذبذب، هل ترى فيها تصويراً لألوان النفاق ووجوهه المختلفة باختلاف الأحوال؟ إنك لا تجد هذه الصورة إلا في المثل الثاني حيث يتعاقب فيه الظلام والنور والوقوف والمسير، وكذلك ترى في المثل الثاني قوماً لهم أسماع وأبصار لم يذهب الله بها ولو شاء لذهب، وهذا مناسب لقوله في المنافقين ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ فوصفهم بالمرض ولم يصفهم بالختم الكلي على القلب. النبأ العظيم هامش ص ٢١٠. وقد رجح هذا الرأي جماعة من المعاصرين، قال د/ سيد طنطاوي: وهو رأي مستساغ يتمشى مع روح الآيات وأهداف السورة. التفسير الوسيط ١/ ٧٠. ونقله مستحسناً: الدكتور محمد سبحاني في كتابه: البرهان في نظام القرآن ص ٩٩. أقول: وليس الاختلاف في تأويل المثل الأول بمؤثر؛ ولا يغير شيئاً في التأويل؛ فالمنافق كافر، بل ربما يكون أشد خطراً وضرراً منه.

في تيه الظلمة، فلما أضاءت النار ما حوله من الأماكن وتمكنوا من الانتفاع بضوئها، لم ينتفعوا بدعوته لهذا النور، وظلوا في دياجير الظلام لا يبصرون من نور الحق شيئاً؛ فالنور نور الإيمان، قال تعالى: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾[الزمر: ٢٢]. وذهاب النور يكون في الدنيا بالعمى والجهل والتخبط في أودية الضلال.

وإنما قال الله: ﴿ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ للدلالة على أنه سبحانه كان معهم بمعونته وتوفيقه عندما استوقدت لهم النار فأضاءت، فلما أعرضوا عن النور غرقوا في ظلمات بعضها فوق بعض، وأمثال هؤلاء لا يرجى لهم اهتداء ابتداءً؛ لأنهم سدوا على أنفسهم مفاتيح الخير، قال تعالى: ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝١٨ ﴾ فهم لا يسمعون الوعظ ولا يطلبون بياناً ولا يبصرون فيعتبروا أو ينزجروا. فقد فقدوا كل وسائل التعقل؛ ولذلك فإنهم لا يرجعون عن الجهالة ولا يهتدون من الضلالة، فكيف لتائه ضل الطريق عامداً وهو لا يسمع ولا يبصر ولا ينطق كيف له أن يرجع؟

وهذا المثل يتطابق مع حال اليهود وأشباههم الذين عرفوا الحق وعرفوا داعيه، لكنهم استحبوا العمى على الهدى، وقد كان عندهم نور من بقايا وحي السماء لكنهم رفضوا ما أتاهم من نور القرآن فذهب الله بما عندهم من نور وتركهم في ظلمات يتخبطون.

ثم جاء المثل الثاني ليبين حال المنافقين مع هدايات القرآن؛ فمثلهم كمثل مطر من السحاب فيه ظلمات داجية، وصوت رعد قاصف، وضوء برق خاطف، حتى إنهم ليجعلون أصابهم في آذانهم من شدة الصواعق المحرقة خوفاً على أنفسهم من الموت[1]، ولن ينفعهم ذلك؛ فالله محيط بهم علماً وقدرة.

ويكاد البرق لشدة لمعانه أن يأخذ قوة البصر المودعة في أعينهم فإذا صادفوا من البرق

(١) قال الفراء: قيل: إن الرعد إنما ذُكِر مَثَلاً لخوفهم من القتال إذا دُعُوا إليه. ألا ترى أنه قد قال في موضع آخر: ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ أي يظنُّون أنهم أبداً مغلوبون. معاني القرآن للفراء ١/ ١٧.



وميضاً انتهزوا فرصة ذلك الوميض ومشوا فيه خطوات قليلة، وإذا خفت بريقه، واختفى لمعانه وقفوا في مكانهم خائفين لشدة حرصهم على النجاة، ولو شاء الله لزاد في قصف الرعد فأصمهم وذهب بسمعهم ولو شاء لزاد في ضوء البرق فأعماهم وأذهب أبصارهم، فإنه تعالى على كل شيء قدير، ومن جملة ذلك أن يذهب بأسماعهم وأبصارهم متى يشاء.

والمثل يشبِّه حظهم من الحياة والنور بحظ صاحب المطر الصيب الذي هو في حقيقته حياة للأرض الميتة، وشبه الهدى به لأنه يحيي القلوب الميتة كما تحيى الأرض بالمطر، وتنبت به ثمرات العبادة ومحاسن الأخلاق. لكن المنافق لا نصيب له من الصيب إلا الظلمات والرعد والبرق، أما النفع الحقيقي بالمطر فإنهم عنه بمعزل.

وحالهم مع الدين قائم على مبدأ النفعية؛ فإن كان ثمة خير عاجل لزموا الدين ومشوا فيه واطمأنوا به، وإن وجدوا فتنة تصيبهم في أنفسهم وأموالهم قاموا وتركوا الهدى، قال تعالى في وصف حالهم: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النساء/ ١٤١]، فهذا دأبهم وتلك طبيعتهم، قال ابن مسعود: "كلما صلحت أحوالهم في زروعهم ومواشيهم وتوالت عليهم النعم قالوا: دين محمد دين مبارك، وإذا نزلت بهم مصيبة أو أصابتهم شدة سخطوه وثبتوا في نفاقهم"[(١)].

كان هذا هو المقصد الأول في المقدمة، وهو يتحدث عن هداية القرآن، وموقف الناس منها، وهذا المقصد يتحدث أولاً عن المنهج، وانقسام الناس حياله.

فمنهج القيام بالخلافة في الأرض له دستور، هذا الدستور هو القرآن الكريم، وقد جاء ذكره أولاً لبيان أنه هو الصراط المستقيم، ثم انتقل الحديث إلى موقف من قاموا بحقه، ومن

(١) المحرر الوجيز لابن عطية ١/ ١٠٣. قال النحاس: وهذا قول حسن. انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/ ٣٣٨.



علموا الحق وتركوه، ثم من عرفوا الحق ظاهراً وتركوه باطناً.

وجاء المقصد الثاني في المقدمة ليتحدث عن الأمر للناس باتباع المنهج، وليذكرهم بأصوله وغاياته، وليضرب لهم نموذج الاستخلاف الأول في الكون.

وقد بدأت آياته بنداء قوي موجه إلى جميع الناس بثلاثة مطالب:

أولها: أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً.

وثانيها: أن يؤمنوا بالقرآن الذي نزله على نبيه محمد ﷺ.

وثالثها: أن يرهبوا شديد عقابه ويرغبوا في واسع ثوابه.

وهذه أركان العقيدة الإسلامية، ابتدأت بالإيمان بالله وهو مبدؤها وختمت بطرفها وهو الإيمان باليوم الآخر، ثم جاء في الوسط الحديث عن الواسطة وهو الإيمان بالكتاب وبالرسول.

وتبدأ الآيات بأمر الناس جميعاً أن يعبدوا ربهم الذي رباهم على موائد كرمه سبحانه، ثم بينت الآية موجبات استحقاقه سبحانه العبادة وتدرجت في ذلك من خلق الأنفس إلى الآفاق، وجمعت بين دليلي الاختراع والعناية؛ فهو سبحانه الذي أخرج العباد جميعاً من العدم إلى الوجود وكما أوجد المخاطبين فإنه أوجد المتقدمين أيضاً، وبدأ بالمخاطبين لأن علم الإنسان بحال نفسه أوضح من علمه بحال غيره، وعبادة الله المأمور بها تجعل الإنسان على رجاء أن يكون من المتقين. وهذا من أدلة الاختراع التي نعلم بها أن هناك موجداً للحياة ومنعماً بها هو الله تعالى[1].

ثم انتقلت الآيات بعد ذلك إلى أدلة العناية بالإنسان الموجودة في العالم السفلي والعالم العلوي؛ فبينت أن مما يحمل الناس جميعاً على عبادة الله وحده أنه جعل لهم مهاداً كالبساط

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ٩/ ٣٢٣.



المفروش، فصارت مذللة سهلة للمعيشة، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾ [الملك: ١٥] وقال: ﴿ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الذاريات/ ٤٨] فالأرض في سهولة العيش عليها ويسر التقلب فيها كمهاد الصبي[1].

وبعد أن ذكر خلق الأرض التي هي أقرب للإنسان ذكر خلق السماء التي هي كالسقف والبناء للأرض[2]، قال تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ﴾ [الأنبياء: ٣٢] فالسماء محكمة البناء، ينزل من سحابها الماء المبارك الذي يخرج به من أنواع الثمرات بعض ما يكون رزقاً للعباد وحياةً للبلاد، قال تعالى: ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾ [عبس: ٢٥: ٣٢]

ومن كانت هذه أفعاله، وكان هذا صنعه وتدبيره فهو جدير بأن يفرد وحده بالعبادة،

---

(١) وقد أثبت العلم أن الأرض لم تكن في بداية تكونها فراشاً أو مهاداً و قراراً يمكن أن تنشأ عليها حياة، ثم صارت بعد ذلك كذلك وتحقق كونها فراشاً ومهاداً بتكون السطح الصخري الخارجي لها من سهول وهضاب وجبال، وجعل الله سبحانه وتعالى هذا السطح بهيئة منبسطة مسطحة ممهدة، وجعل لها سهولاً واسعة الامتداد تصلح للحياة التي قدرها فيها ممهدة للسير والحرث والزرع والنماء والحياة. انظر: مجلة الإعجاز التي تصدرها هيئة الإعجاز العلمي برابطة العالم الإسلامي. العدد رقم (٤) وبهذا يكون الجعل بمعنى التصيير والله أعلم.

(٢) وصف السماء بالبناء يتوافق مع ما أثبته العلم من أن السماء المحيطة بالكرة الأرضية مكونة من طبقات متعاقبة ومترابطة معاً بالأرض؛ حيث تقوم الأرض بجذب هذا الغلاف السماوي إليها ومنعه من التبدد والزوال بخلاف ما كان عليه الحال عند بداية تكون الأرض وقبل استقرار سطحها،كما بين العلم الحديث أن طبقات هذا الغلاف الجوي المحيط بالأرض تحمي الحياة والأحياء فوقها من أخطار كونية كالنيازك والأشعة الكونية وكهارب الرياح الشمسية التي تتعرض لها الأرض على مدار اليوم والليلة كما أثبت العلم أيضاً أن هذا البناء المحكم حول الأرض يوفر أسباب الحياة عليها وفق سنن محكمة فهو مخزن هائل للغازات الضرورية للحياة كالأكسجين والنتروجين، وهو منظم لدرجات الحرارة الملائمة للحياة فوق الأرض وناقل للسحب وموزع للرياح والماء. انظر: المرجع السابق.

ولا يليق بعاقل أن يجعل له أمثالاً وشركاء يعبدها ويطيعها من دونه، ويعتقد أنها تنفعه وتضره وهو يعلم أنها لا تصلح أن تكون أنداداً لله، قال مجاهد: "وأنتم تعلمون أنه إله واحد في التوراة والإنجيل"[١]. وفي الصحيح: (**وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا شيئاً**)[٢].قال ابن كثير: " وهذه الآية دالة على توحيده تعالى بالعبادة وحده لا شريك له، وقد استدل به كثير من المفسرين كالرازي وغيره على وجود الصانع"[٣].

وبعد أن قررت الآية الوحدانية بأبلغ لفظ وأحكمه انتقلت إلى إثبات صدق نبوة محمد ﷺ، فخاطبت كل كافر قائلةً إن ارتبتم في أمر القرآن الذي نزل مفرقاً على عبدنا محمد فأتوا بأقل ما يطلق عليه لفظ سورة من مثله واستعينوا على ذلك بكل من يمكنه معونتكم متجاوزين الله إن كنتم صادقين في قدرتكم على المعارضة، كما قالوا في آية أخرى: ﴿ لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ﴾ [الأنفال: ٣١].

وفي الآية تحدٍ للعرب وللناس أجمعين أن يأتوا بسورة تقارب أو تداني أقصر سورة منه وهي سورة الكوثر.

وإعجاز القرآن الكريم في نظمه وأسلوبه، وبلاغته التي لا يمكن لأساطين البلاغة أن يجاروها، وقد نزل القرآن على العرب وهم أهل الفصاحة والبيان فانقطعوا عن معارضته ولم يستطيعوا، وقد نزلت عدة آيات متدرجة في تحدي العرب، قال أبو بكر الجصاص: " وقد

---

(١) أخرجه الطبري عنه بسند صحيح رقم/ ٤٩٠ وهذا يشير إلى أن هذه الآيات خطاب لأهل الكتاب، وهم داخلون في العموم لكن كما قال الطبري: وإن كان الخطابُ لكفار أهل الكتاب الذين كانوا حَوالَيْ دَار هجرة رسول الله ﷺ، وأهل النفاق منهم، وممن بينَ ظَهرانيهم ممّن كان مشركًا فانتقل إلى النفاق بمقدَم رسول الله ﷺ. جامع البيان للطبري ١/ ٣٧٣.

(٢) رواه الحاكم في مستدركه برقم/ ١٥٣٤ وصححه على شرطهما، وابن خزيمة في صحيحه برقم/ ٩٣٠، وابن حبان برقم١٢٢٢موارد، وأحمد في مسنده٤/ ١٣٠ عن الحارث الأشعري مرفوعاً في حديث طويل، وسنده صحيح.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ١٩٧.



تحدى الله الخلق كلهم من الجن والإنس بالعجز عن الإتيان بمثل القرآن بقوله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء: ٨٨] فلما ظهر عجزهم قال: ﴿ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ ﴾ [هود: ١٣] فلما عجزوا ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الطور: ٣٤] فتحداهم بالإتيان بمثل أقصر سورة منه"[١].

فأفحموا عن الجواب، وتقطعت بهم الأسباب، وعدلوا إلى الحروب والعناد ولو قدروا على المعارضة لكان أهون كثيراً وأبلغ وأشد تأثيراً هذا مع كونهم أرباب البلاغة واللحن، وعنهم تؤخذ الفصاحة واللسان[٢].

وفي القرآن أوجه كثيرة تثبت صدق النبي ﷺ لكن لم يقصد بها التحدي للعرب؛ وذلك مثل الأخبار بالأمور الغيبية، وأوجه التشريع الحكيمة، ودلائل الإعجاز العلمي التي تثبت أن القرآن هو الحق.

وبعد أن أثار القرآن حماستهم، وعرّض بعدم صدقهم حتى تتوفر دواعيهم على المعارضة أكد لهم أنهم لن يستطيعوا، وفي هذه الكلمة: ﴿ وَلَن تَفْعَلُوا۟ ﴾ إعجاز مستقل؛ حيث أثبتت أنهم لم يعارضوا، ولن يستطيعوا ذلك لا هم ولا من سيأتي بعدهم، فهذا تحدٍ بالأخبار عن الغيب المستقبل. وحيث ظهر العجز: فليس أمامهم إلا التصديق بالقرآن، وإن لم يؤمنوا فليس إلا العناد وبهذا يستحقون النار التي توقد بالناس والأصنام التي كانت تُعبدَ من دون الله، قال تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾ [الأنبياء/ ٩٨] وهذه النار الشديدة أعدها الله وهيأها للكافرين، فهي نار مختصة بهم لا يشاركهم فيها غيرهم.

---

(١) أحكام القرآن للجصاص ١/ ٣٤.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/ ١٢١.

وبهذه الجملة الأخيرة انتقل الحديث من الإيمان بالقرآن إلى الإيمان باليوم الآخر، وجاء بعد تخويف المشركين من النار الأمر ببشارة الذين آمنوا وعملوا الصالحات بأن لهم عند ربهم جنات بها أشجار كثيفة تجري من تحتها الأنهار، وإن سكان الجنة كلما قُدمَّت لهم ثمرة من ثمراتها وجدوها شبيهة بسابقتها قالوا: هذا مثل الذي رزقناه فيها من قبل، فأشجار الجنة متماثلة في حسن المنظر وحلاوة الطعم بحيث لا تفاضل بين واحدة وأخرى، وجيئوا بهذه الثمار يشبه بعضها بعضاً في الحسن ويختلف في اللذة والطعم، قال ابن عباس: "ليس في الدنيا من الجنة شيء إلا الأسماء"[١].

وإن لهؤلاء المؤمنين في الجنة أزواجاً من الحور العين اختصصن بهم، مطهرات من كل دنس وقذر حسي أو معنوي، قال تعالى: ﴿ فِيهِنَّ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾ [الرحمن/ ٥٦]، ولما ذكر الله نعيم المؤمنين في الجنة من المسكن والمطعم والنكاح ولا ينغص على النفس بعد الكمال إلا الزوال أعقب القرآن ذلك بالتأكيد على الخلود والنعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول.

وبعد أن ذكرت الآيات أمثلة العذاب والنعيم في الآخرة عادت إلى بيان أن هذه طريقة القرآن في هدايته؛ يضرب الأمثال ويبين الحقائق لا يبالي أن يتناول عظائم الأمور أو سفسافها، وقد نعى اليهود على المسلمين ذلك الأمر؛ فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: "لما ضرب الله سبحانه هذين المثلين للمنافقين؛ يعني قوله: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾وقوله: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ قالوا: الله أجل وأعلى من أن يضرب الأمثال فأنزل الله﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ ﴾ "[٢].

ووردت عدة روايات أن القائلين هم المشركون والمنافقون، قال ابن عاشور: "وكون القائلين هم اليهود هو الموافق لكون السورة نزلت بالمدنية، وكان أشد المعاندين فيها هم اليهود، ولأنه الأوفق بقوله تعالى: ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ ﴾ وهذه صفة

(١) رواه الطبري في جامع البيان ١/ ٣٩٢ برقم/ ٥٣٥ عن ابن عباس ورواه ابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم ١/ ٦٦ برقم ٢٦٠.

(٢) أسباب النزول للواحدي ص ٦ وسنده ضعيف، انظر العجاب في بيان الأسباب لابن حجر ١/ ٢٤٦.

اليهود[١]". ويحتمل أن يكون الكل قد تظاهر على ذلك، وهذا ما رجحه جمع من المفسرين.[٢]

ومعنى الآية أن الله لا يستنكف[٣] أن يضرب أيَّ مثل كان بأي شيء كان حتى ولو كان من المخلوقات الصغيرة كأي بعوضة فما دونها في الصغر[٤]، وليس هذا بمستغرب؛ فالمثل لتقريب المعقول بشيء محسوس تأنس به النفوس، ولله تعالى أن يمثل الأصنام وحقارة شأنها بأهون شيء وأحقره كالذباب وغيره.

والناس في موقفهم من هذه الأمثال فريقان:

فريق مؤمن يعلم أن هذا المثل هو الحق الكامل الوارد عند الله. أما الفريق الثاني وهم الكفار فإنهم يستفهمون منكرين: ما الذي أراده الله بهذا المثل؟

فردَ الله عليهم وبين أن هذا المثل يكون سبباً في زيادة هؤلاء ضلالاً على ضلالهم؟ لأنهم كذَّبوا بما علموه، وفي المقابل يزداد المؤمنون إيماناً؛ لأنهم صدَّقوا بما علموه حقاً؛ قال تعالى:

---

(١) التحرير والتنوير ١/ ٣٥٨.

(٢) انظر: التفسير للكبير للرازي٢/ ١٢٢ والبحر المحيط لأبي حيان ١/ ٢٦٤ وفي ظلال القرآن لسيد قطب ١/ ٥٠.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ٢٠٧.

(٤) قال الرازي: والمحققون مالوا إلى هذا القول. التفسير الكبير٢/ ١٢٥، وذهب بعضهم إلى أن معنى ما فوقها أي أكبر منها.انظر: معاني القرآن للفراء، ج١، ص٢٠.

فائدة: ومع أن ذكر البعوضة للتمثيل إلا أن خلقها فيه من عجائب صنع الله ؛ فعلى الرغم من ضآلة حجمها إلا أنها المسبب الرئيس لمرض الملاريا والفلاريا المعروف بداء الفيل والحمى المخية وحمى الوادي المتصدع وغير ذلك، ومن إشارات اللفظ أن اللفظ جاء بصيغة التأنيث والحقيقة العلمية تثبت أن الأنثى وحدها هي التي تتغذى على الدم فقط وتنقل الأمراض دون الذكر. وهناك ما دونها مثل الفيروسات وغيرها مما لا يرى بالعين بالمجردة ومع هذا فإن فيه من القوة ما يهلك الإنسان، فسبحان من هذا كلامه. وللتفصيل انظر: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة ليوسف الحاج أحمد ص٦٨٤ وما بعدها.

﴿ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [المدثر ٣١، ٣٢].

ثم بينت الآية الكريمة أن علة إضلال هؤلاء هو خروجهم عن طاعة الله وأوامره فزادهم الله ضلالاً على ضلالهم، قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ﴾ [مريم:٧٥] وذكرت ثلاثة أوصاف لهؤلاء الفاسقين:

أولها: أنهم ينقضون ويحلون العهد والميثاق الذي أخذه الله عليهم بعد أن أكدوه ووثقوه وذلك العهد هو ما فطره الله في النفوس من توحيد، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ [الأعراف: ١٧٢] وتحتمل ما أخذه الله على أهل العلم، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

ثانيها: أنهم يقطعون كل ما أمر الله به أن يوصل، ومن ذلك قطيعة الرحم، قال تعالى: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ ﴾ [محمد:٢٢] ومنه قطع بعض الرسل عن بعض، بأن يؤمن ببعضهم دون البعض الآخر، قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١].

ثالثها: الإفساد في الأرض؛ وذلك بالشرك، والدعوة إلى الكفر، وإلقاء الشبهات في وجه الدين الحق.

وأصحاب هذه الصفات هم الذين نقصوا أنفسهم حقها من الخير قال الطبري: "والخاسرون جمع خاسر، وهم الناقصون أنفسهم حظوظهم من رحمة الله بسبب معصيتهم له".[1]

(١) جامع البيان للطبري ١/ ٤١٧.



ويلاحظ أن هذه الصفات التي اتصف بها الفاسقون جاءت على عكس ما اتصف به المتقون في أول السورة:

* فالفاسقون ينقضون عهد الله لهم، أما الأولون فإنهم يوفون بعهد الله ويؤمنون بما أنزل إلى محمد ﷺ وما أنزل من قبله.

* والفاسقون يقطعون ما أمر الله بوصله، والمتقون يصلون ما أمر الله بوصله فيقيمون الصلاة التي هي الصلة بين العبد وربه.

* والفاسقون يفسدون في الأرض ولا يقومون بواجب الخلافة، أما المتقون فإنهم يحرصون على عمارتها وينفقون من كل ما رزقهم الله في سبيل ذلك.

ولذلك استحق المتقون أن يكونوا هم المفلحين، قال تعالى: ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [٥]، أما الفاسقون فكان جزاؤهم موافقاً لعملهم فكانوا من الخاسرين، قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾[٢٧].

وبعد أن بينت الآيات أقسام الناس إزاء هداية القرآن، وبينت أوصاف الضالين وسوء مصيرهم. جاء الخطاب القرآني بالتعجيب والإنكار من كفرهم رغم أنعم الله الواسعة فهذا عود على بدء إلى المقصد الأول في هذه المقدمة؛ حيث بيَّن أولاً هداية القرآن وأقسام الناس إزائها، وأعاد الكلام هنا من وجه آخر وبأسلوب جديد؛ فقد أمرت الآيات هناك بعبادة الله وذكرت النعم مجملة، ثم نهت هنا عن الكفر بالله وذكرت النعم بشيء من التفصيل. وذكرت الأولى مبدأ الخلق، أما هذه فتحدثت عن منتهى ورجوع كل عبد لمولاه.

وابتدأت الآية بصيغة الاستفهام الإنكاري التوبيخي، والتفتت بالخطاب إلى الكافرين مواجهةً وذلك لزيادة التعجب من غرابة أحوالهم، وقلة علمهم، فقد كانوا معدومين فخلقهم الله وأخرجهم من العدم إلى الوجود، قال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ ﴾ [الإنسان: ١].

وبعد أن ذكَّرهم بالنشأة الأولى جاء ذكر أطوار انتقال الإنسان من حياته الدنيا إلى الموت وقبض الأرواح عند انقضاء الأجل فهذه ثلاثة أمور مشهودة، ثم ذكر الأمر الرابع الموعود به وهو الإحياء والبعث بعد الموت والرجوع إلى الله تعالى الذي يجمع الناس ويقضي بينهم بحكمة سبحانه، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [المؤمنون:١٥، ١٦].

وبعد أن ذكر الله الأدلة من الأنفس أعقب ذلك بذكر الأدلة من الآفاق وذلك ببيان أنه تعالى خلق للإنسان جميع ما في الأرض من معادن ونباتات وحيوان وغير ذلك، ثم علا وارتفع وقصد إلى السماء من غير تشبيه ولا تكييف فسَّوى السموات السبع[1] على هذه الصورة الحكيمة التي تدل على إحاطته سبحانه بكل شيء علماً. وفي خلق الأرض تمهيد للحديث عن الخلافة في الأرض.

وهذه الآية التي معنا تشير إلى أن خلق الأرض مقدم على خلق السموات، ويدل على ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ [فصلت :٩-١٢] .

وإذا كانت الآية في المقصد الأول قد تحدثت عن نبوة سيدنا محمد ﷺ بعد الحديث عن وحدانية الله، فإن هذا المقصد بعد أن نهى عن الشرك تحدث عن النبوة الأولى، ومهد لها بحديث شائق عن تلك النشأة، وما جرى في شأنها مع الملائكة ثم انتقل إلى الحديث عن حسد إبليس وما نشأ عنه المعصية ومن ثم الابتلاء في الأرض.

---

(١) الظاهر أن السماوات السبع هي تحديد للنوع مما خلق الله سبحانه فوقنا من هواء وشهب ونيازك وأقمار ومذنبات وكواكب وشموس يعلو بعضها بعضاً، ويتألف منه عوالم الكون أو طباق السماوات. انظر: الله والكون للدكتور/ محمد جمال الدين الفندي ص٢٤٣.

فالحديث الأول كان خاصاً بالقائد الأعظم محمد ﷺ الذي ختم الله به الرسل، أما هنا فالحديث عن أبي البشر، والخليفة الذي قام بعمارة الأرض وإقامة حدود الله. فبينهما الاتصال بين المبدأ والمختتم، وبين الوراثة والخلافة، وبين الملة الأولى والآخرة.

وتبدأ القصة بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ أي: واذكر يا محمد وقت أن قال الله لمخلوقاته النورانية العابدة المسبحة بحمده إني متخذ في الأرض خليفة يعمرها، ويقيم العدل فيها، وهو آدم وذريته الذين يخلفونه من بعده، وقد أخبرهم الله بذلك لأجل ما ترتب عليه من سؤالهم عن الحكمة وليس على سبيل مشورتهم، فتعجب الملائكة وتساءلوا: أتجعل في الأرض خليفة، وفيهم من يخرج من الاعتدال والصلاح إلى الفساد، والقتل وإراقة الدماء ظلماً وبغياً، والحال أننا ننزهك عما لا يليق بجلالك تنزيهاً متلبساً بحمدك والثناء عليك، ونطهرك عما لا يجوز فهلا وقع الاكتفاء بنا؟

وسؤالهم هذا إنما هو سؤال استعلام واستكشاف لا سؤال حسد واعتراض، وكأنهم علموا بذلك من جهة الوحي، أو فهموا من الخليفة أنه الذي يفصل بين الناس فيما يقع بينهم من المظالم ويرد عنهم المحارم والمآثم.[1]

وقد أجابهم الله تعالى عن سؤالهم: إني أعلم من المصلحة الراجحة في استخلافه مما تجهلونه؛ فبهم تعمر الأرض، وتظهر الحكمة الإلهية في إرسال الرسل.

ثم أظهر الله لهم جانباً من حكمة خلق آدم، وأظهر كذلك عجزهم من استحقاق الخلافة؛ فعلم آدم أبا البشر أسماء كل ما خلق الله تعالى من الأشياء والأجناس، وعلمه كذلك المسميات ويفهم هذا من ضمير العقلاء في ﴿عَرَضَهُمْ﴾ ولم يقل: عرضها؛ لأن من المسميات ما هو عاقل كالبشر والملائكة، ومن أدلة العموم حديث الشفاعة الطويل وفيه: (فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو الناس، خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء)[2].وعندما عرض

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ٢١٦.

(٢) رواه البخاري في صحيحه عن أنس مرفوعا، ورقمه/ ٤٢٠٦.

الله المسميات على الملائكة، قال لهم -على سبيل الإفحام-: أخبروني بأسماء هذه الأشياء إن كنتم صادقين في إدعائكم أنكم أحق بالخلافة، فنفوا عن أنفسهم أن يعلموا شيئاً غير ما يعلمهم الله. ومن جملة هذا النفي العام الاعتراف بعدم معرفة الأسماء التي سئلوا عنها. ثم ختموا كلامهم بقولهم: إنك يا رب العليم بكل شيء، الحكيم في خلقك وأمرك.

وتوجه الخطاب الإلهي بعد ذلك إلى آدم عليه السلام بالإذن ليخبر الملائكة بالأسماء التي عجزوا عن معرفتها، ليعلموا فضله، ويوقنوا بأحقيته في الخلافة، فلما أنبأهم آدم بها خاطبهم الله معاتباً: ألم أقل لكم إني أعلم ما غاب عنكم في السموات والأرض، وما حضر من باب أولى، وما تبدونه بألسنتكم من قول: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ وما تكتمونه مما تنطوي عليه ضمائركم؟

ثم ذكرت الآيات فضيلة أخرى من فضائل آدم وهي أمر الله تعالى للملائكة بالسجود له، والسجود الخضوع والتذلل، وليس سجود الملائكة لآدم سجود عبادة، وهذا مما أجمع عليه المسلمون،[١] وذهب الأكثرون إلى أنه كان سجود تحية وتعظيم كالسلام منهم عليه، وقد كانت الأمم السابقة تفعل ذلك كما حدث مع أخوة يوسف لأخيهم[٢]،ولكن إبليس لم يسجد لآدم؛ فامتنع مستكبراً، وكان من جملة الكافرين العاصين.

وإبليس من الجن على ما هو الراجح؛ لأنه عصى ربه، أما الملائكة فإنهم مفطورون على الطاعة، ولأنه قد صرح في آية أخرى بأنه خلق من نار، قال تعالى: ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأعراف: ١٢] وقد ورد أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب للرازي ٢/ ١٩٤.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب سابق. وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ٢٣٢ والتفسير الوجيز للواحدي ١/ ١٠٠ ومدارك التأويل للنسفي ١/ ٣٧ وتفسير القرآن الحكيم ١/ ٦٥ والتحرير والتنوير لابن عاشور ١/ ٤٢٢.

(٣) رواه مسلم في صحيحه برقم/ ٢٩٩٦ عن عائشة.

(خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم)[٣]، والقرآن يصرح بذلك؛ قال تعالى: ﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الحجر: ٢٧] واستثناؤه من الملائكة من قبيل الاستثناء المنقطع، وإدخاله في خطابهم لأنه كما قال ابن كثير: "وإن لم يكن من عنصرهم إلا أنه كان قد تشبه بهم وتوسم بأفعالهم فلهذا دخل في الخطاب لهم"[١] والله أعلم.

ولم تذكر الآيات هنا سبب استكباره، ولكن ورد في مواضع أخرى منها قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الحجر: ٣٣]، وهذا قياس خاطئ منه،ولذلك كان الحسن وابن سيرين يقولان:"أول مَنْ قاسَ إبليس"[٢]، يعنيان بذلك: القياسَ الخطأ.

وبعد أن كرَّم الله آدم فأمر الملائكة بالسجود له أمره أن يسكن الجنة وزوجه، واسمها حواء كما ورد في الصحيح[٣]، وكان خلقها بعد آدم، قيل: منه اتباعا لظاهر قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [النساء: ١] وقيل: منها أي: من جنسها. وقد جاء الخطاب في الآية لآدم وحواء بإباحة الأكل من ثمار الجنة أكلاً هنيئاً واسعاً في أي مكان من الجنة أرادا، ثم نهاهما الله عن الأكل من ثمار الجنة، والنهي عن القرب مبالغة في النهي عن الأكل، وجعل عدم اجتناب الأكل من الشجرة ظلماً، والجنة هي جنة الخلد، وهي دار ثواب المؤمنين في الآخرة، كما هو المشهور عند أهل السنة والجماعة خلافاً للمعتزلة وجماعة[٤]. وأما نوع الشجرة فلم يرد في القرآن ولا في السنة الصحيحة، وليس في معرفته كبير

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ٢٣٠.

(٢) انظر: جامع البيان للطبري ١٢/ ٣٢٧، وصحح إسنادهما ابن كثير في تفسير القرآن العظيم٣/ ٣٩٣.

(٣) صحيح البخاري برقم/ ٣١٤٧ ومسلم برقم/ ٢٦٧٣.

(٤) انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ٤/ ٦٩، ومفتاح دار السعادة لابن القيم ١/ ٨ وما بعدها حيث استفاض في عرض المسألة، ومن أقوى أدلة الجمهور ما رواه مسلم في صحيحه عن حذيفة مرفوعاً وفيه: "فيقولون يا آدم، استفتح لنا الجنة، فيقول: وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم آدم. ورقمه/ ١٩٤.

فائدة، قال الطبري " ولا علم عندنا بأي شجرة كانت على التعيين"[١].

ثم بينت الآيات بعد ذلك ما وقع فيه آدم وحواء حيث أزلهما الشيطان أي: أذهبهما[٢] عن الشجرة، فأوقعهما في الزلة بسببها، فأخرجهما من النعيم الذي كانا فيه، وقد جاء تفصيل إغواء الشيطان لهما في آيات أخرى، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٠-٢٢] وقوله تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [طه: ١٢٠].

وقد أشارت مواضع أخرى من القصة أن إبليس قد طُرد من الجنة بعد أن أبى السجود لآدم قال تعالى ﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ ﴾ [ص: ٧٥: ٧٨] ولهذا بحث العلماء في كيفية وسوسته لآدم وهو مطرود من الجنة، وذكروا في ذلك عدة احتمالات. فقالوا: إنما منع من الدخول على وجه التكريم كما يدخلها الملائكة، ولم يمنع من الدخول للوسوسة وقيل: قام عند الباب فناداهما، وقيل: أرسل بعض أتباعه فأزلهما.. والعلم عند الله[٣].

وذهب جماعة من المفسرين إلى أن آدم ظن أن النهي كان على شجرة بعينها وليس على الجنس كله، والظاهر أنه أكل من الشجرة ناسياً النهي عن الأكل منها، وغافلاً عن استحضار

---

(١) جامع البيان للطبري ١/ ٢٣٣.

(٢) قرأ الجمهور (فأزلهما) وقرأ حمزة فأزالهما الشيطان عنها بالألف أي نحاهما عن الحال التي كانا عليها من قول القائل أزال فلان فلاناً عن موضعه إذا نحاه عنه وزال هو. انظر: حجة القراءات لابن زنجلة ص ٩٤.

(٣) إرشاد العقل السليم لأبي السعود ١/ ٩١.

النهي، ولم يتعمد المخالفة، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [طه: ١١٥] قال ابن عباس في تفسيرها: إنما سُميَّ الإنسان لأنه عهد إليه فنسي[1].

ثم أمر الله آدم وحواء بالنزول من الجنة إلى الأرض، وكتب بينهما وبين إبليس العداوة المستمرة إلى آخر الزمان، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾ [فاطر: ٦] ثم ختمت الآية ببيان أن الأرض منزلُ الكل وموضع استقرار وتمتعٍ بالعيش إلى أن يحين الأجل.

وما إن وقعت المعصية، وحدث التعري، وعاتبهما ربها بقوله: ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأعراف:٢٢] ما إن حدث هذا إلا وبادر آدم بطلب المغفرة من ربه، فألهمه الله كلمات قالها هو وزوجته وأيقنا بها وهي قوله تعالى: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأعراف:٢٣] .

والتوبة الندم، والإقلاع عن الذنب، والعزم على عدم العود، وقد تاب الله على آدم فقبل توبته؛ فهو سبحانه الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويكثر الرحمات، سبحانه.

ثم أعاد الأمر بالإهباط ليعلق عليه ما ترتب على هذا الهبوط من انقسام أحوال المخاطبين إلى ضالين ومهتدين، فإن جاء الهدى من الله على لسان رسله فمن تبعه فلا يناله في الآخرة فزع على ما هو آت ولا حزن على ما فات، أما الذين لم يرفعوا بذلك رأساً ولم يقبلوا هدى الله بأن كفروا وكذبوا بآيات الله المتلوة المسطورة وآياته في الكون المنظورة فأولئك هم الملازمون للنار ملازمة لا تنقطع.

وقد ابتدأ المقطع ببيان أن القرآن هدى للمتقين، وختم ببيان أن الهدى يأتي من عند الله، وجاء وصف المستمسكين بكتابه بأنهم على هدى من ربهم، فدل ذلك على أن الخلافة في الأرض غايتها الهدى، وبدونها تكون إفساداً.

(١) رواه عنه الطبري في جامع البيان ١٦/ ٢٢١ بسند حسن.

قال سيد قطب: لقد اقتضت رحمة الله بهذا المخلوق أن يهبط إلى مقر خلافته مزوداً بهذه التجربة التي سيتعرض لمثلها طويلاً، استعداداً للمعركة الدائبة وموعظة وتحذيراً"[١].

والملاحظ أن هذا هو الموضع الوحيد في قصة آدم الذي يأتي فيه تفاصيل الاستخلاف؛ وسبب ذلك - والله أعلم- أن هذا هو الموضع الوحيد في قصة آدم الذي جاء في سورة مدنية؛ فناسب أن يأتي ذكر الخلافة مع تكليف المسلمين بأمانة الخلافة، وهذا مما يؤكد صحة استنباط محور السورة، والله أعلم.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أ - القضايا العقدية:

- أن من طبع الله على قلبه، وحقت عليه كلمة الله بسبب فعله، لا يدخل في الإيمان أبداً، ولن تجدي معه أي موعظة، ولن يفيء إلى هدى، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [يونس ٩٦ - ٩٧] وما ذلك إلا بسبب أنه أغلق منافذ الهداية من نفسه، فصار لا يستفيد قلبه بموعظة ولا تنتفع عينه وأذنه بذكرى.
- الإيمان ليس مجرد إقرار باللسان وحسب؛ فالمنافقون أقروا بالإيمان بألسنتهم، ومع هذا فما هم بمؤمنين، والذي عليه جمهور أهل السنة والجماعة أن الإيمان حقيقة مركبة من التصديق بالقلب والإقرار باللسان والعمل بالجوارح. قال النووي: "مذهب جماعة أهل السنة من سلف الأمة وخلفها: أن الإيمان قول وعمل يَزيد وينقص". إلى أن قال: "فالمعنى الذي يستحِق به العبد المدح والولاية من المؤمنين هو إتيانه بهذه الأمور الثلاثة: التصديق بالقلب، والإقرار باللسان، والعمل بِالجوارح"[٢].

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ١/ ٥٩.

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ١/ ١٤٧.

- نفى الله الإيمان عن المنافقين في قوله تعالى: ﴿ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾،ولكن هل يقال إنهم مسلمون؟

قال أبو الحسن الأشعري: المنافق مسلم غير مؤمن؛ لأنه مستسلم في الظاهر غير مصدِّق في الباطن[١]، ولكن هذا الإسلام لا ينفعه يوم القيامة ولا يثاب عليه، لأنه استسلام ظاهري للخوف من إجراء أحكام الكفار عليه في الدنيا، لكنه لا ينفعه في معاده، قال تعالى في حق المنافقين: ﴿ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ ﴾[التوبة/ ٧٤].

- جاء في الآيات الإخبار عن فعل الله بالمنافقين من الاستهزاء بهم،وهذا إخبار مقيد عن صفة من صفات الأفعال، وباب الأفعال أوسع من باب الأسماء؛ فلا يجوز أن يشتق منها اسم من أسماء الله؛ قال ابن حزم:" ولا يحل لأحد أن يشتق لله تعالى اسما لم يسم به نفسه. برهان ذلك أنه تعالى قال: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴾ وقال:﴿ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾وقال تعالى: ﴿ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾. ولا يحل لأحد أن يسميه البناء ولا الكياد ولا الماكر ولا المتجبر ولا المستكبر لا على أنه المجازي بذلك ولا على وجه أصلاً ومن ادعى غير هذا فقد ألحد في أسمائه تعالى وتناقض وقال على الله تعالى الكذب وما لا برهان له به"[٢].

- النار موجودة الآن؛ قال تعالى: ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ وكذلك الجنة قال تعالى: ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾وقد عرضتا على النبي ﷺ؛ فقد ورد عنهﷺ أنه قال: (عُرضت علي الجنة والنار فلم أر كاليوم في الخير والشر)[٣]. قال القرطبي:" لا إحالة في إبقاء هذه الأمور على ظواهرها، لاسيما على مذهب أهل السنة في أن الجنة والنار قد خلقتا ووجدتا، فيرجع إلى أن الله قد خلق لنبيه إدراكاً خاصاً به أدرك الجنة والنار على حقيقتهما"[٤].

---

(١) انظر: البحر المحيط في أصول الفقه ١/ ٥٢٠.

(٢) المحلى لابن حزم ١/ ٣٠.

(٣) رواه البخاري في صحيحه برقم / ٥١٥ ومسلم في صحيحه واللفظ له برقم / ٢٣٥٩ عن أنس.

(٤) نقله عنه ابن حجر في فتح الباري ٢/ ٥٤١.

- نهي الله تعالى أن نجعل له أنداداً؛ وهذا يقتضي أن يكون المرء حذراً من أي مدخل يؤدي إلى الشرك، فإن بعض أبواب الشرك خفية، ومن ذلك ما ورد عن عبد الله بن عباس في تفسير الآية حيث قال: الأنداد هو الشرك، أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل، وهو أن يقول: والله، وحياتك يا فلانة، وحياتي، ويقول: لولا كلبه هذا لأتانا اللصوص، ولولا البط في الدار لأتى اللصوص، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل: لولا الله وفلان، لا تجعل فيها فلاناً؛ فإن هذا كله به شرك"[1].

- الهداية والإضلال بيد الله؛ قال تعالى: ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ﴾.

- الهداية والإضلال تبع للحكمة؛ فلا يضل الله إلا من كان أهلاً لذلك بسبب خروجه عن طاعة ربه؛ قال تعالى: ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾.

- في حديث القرآن عن قصة استخلاف آدم، وفي تفصيل خلقه الوارد في سورة الأعراف والحجر وص ردٌّ على أصحاب نظرية النشوء والارتقاء؛ وكان الباحث الإنجليزي : دارون قد نشر عام ١٨٥٩م كتابه: (أصل الأنواع) الذي يدور حول أن أصل الحياة كانت خلية في مستنقع، وأن الطبيعة وهبت بعض الكائنات عوامل البقاء فأدى ذلك إلى تحسن نوعي نتج عنه أنواع راقية مثل القرد وأرقى مثل الإنسان، فصار البقاء للأنسب. وهذه النظرية في مجملها تناقض ما ورد في القرآن بل والتوراة من قصة آدم وحواء؛ والآيات في قصة الخلق لا تحتاج إلى بيان[2].

- دل قوله تعالى: ﴿ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ على أن علم الغيب لله وحده، أو لمن ارتضى من رسول، فليس للكهان ولا لغيرهم معرفة الغيب.

- دل قوله تعالى: ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ على أن الجن مكلفون بالأوامر والنواهي كبني آدم، وهذا متفق

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم برقم/ ٢٢٩.

(٢) انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة: الدراوينية.

عليه بين الأمة[١]، ومتفق كذلك على تعذيب عاصيهم، أما إثابة المطيع منهم ففيها خلاف. والآيات في ذلك كثيرة؛ منها قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [الأحقاف/ ٢٩].

ب-الأحكام الشرعية:

- إجراء الأحكام الدنيوية مبني على ما يظهر من أمر الإنسان وليس على الباطن المجهول؛ لأن الباطن لا يعلمه إلا الخالق سبحانه، قال الطبري: "جعل الله تعالى الأحكام بين عباده على الظاهر، وتولى الحكم في سرائرهم دون أحد من خلقه، فليس لأحد أن يحكم بخلاف ما ظهر، لأنه حكم بالظنون، ولو كان ذلك لأحد كان أولى الناس به رسول الله ﷺ،وقد حكم للمنافقين بحكم المسلمين بما أظهروا، ووكل سرائرهم إلى الله. وقد كذب الله ظاهرهم في قوله: ﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [المنافقون: ١][٢].
- الأصل في الأشياء الإباحة إلا ما نص الدليل على تحريمه[٣]. وهذه قاعدة جليلة استنبطها الفقهاء والأصوليون من استقراء أدلة كثيرة في الشرع كقوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾. حيث ذكرها الله في معرض الامتنان على بني الإنسان. ونظيره قوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية/ ١٣] وقوله: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ [الأعراف/ ٣٢].
- في قوله تعالى: ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ دليل على وجوب اتخاذ خليفة للمسلمين؛

---

(١) ونقل الإجماع ابن عبد البر في التمهيد ١١/ ١١٧، وانظر: البحر المحيط في أصول الفقه للزركشي١/ ٣٠٩.

(٢) نقله عنه القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ١/ ٣٠٤.

(٣) وهي قاعدة متفق عليها. ونسب الشافعية إلى الأحناف أنهم يقولون الأصل في الأشياء التحريم. الأشباه والنظائر للسيوطي ص٦٠، لكن الثابت عن الأحناف أنهم يقولون بهذه القاعدة. انظر: غمز عيون البصائر للحموي ١/ ٢٢٣.

قال القرطبي: " هذه الآية أصل في نصب إمام وخليفة يُسمع له ويُطاع؛ لتجتمع به الكلمة، وتنفُذ به أحكام الخليفة. ولا خلاف في وجوب ذلك بين الأمة ولا بين الأئمة "[١].

قال الشيخ الشنقيطي معلقاً: "من الواضح المعلوم من ضرورة الدين أن المسلمين يجب عليهم نصب إمام تجتمع به الكلمة وتنفذ به أحكام الله في أرضه. ولم يخالف في هذا إلا من لا يعتد به... وأكثر العلماء على أن وجوب الإمامة الكبرى بطريق الشرع كما دلت عليه الآية المتقدمة وأشباهها وإجماع الصحابة رضي الله عنهم. ولأن الله تعالى قد يزع بالسلطان ما لا يزعه بالقرآن"[٢].

- في جواز إطلاق لفظ (خليفة الله) اختلف العلماء؛ فذهب جماعة إلى جواز الإطلاق، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةً ﴾ وبقوله تعالى: ﴿ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِ ﴾ [النمل/ ٦٢] وبقول علي رضي الله عنه: "أولئك خلفاء الله في أرضه"[٣].

وذهب آخرون إلى المنع؛ قالوا: لأن الخليفة عمن غيب ويخلفه غيره، والله لا يغيب، والله هو الخليفة على عباده المؤمنين، يخلفهم في أهليهم بخير. قال البغوي: "ولا يسمى أحد خليفة الله بعد آدم وداود عليهما السلام"[٤].

والظاهر التفصيل؛ فإن قصد أنه خليفة الله القائم بتنفيذ شرعه فهذا لا بأس به، لأن الله قد استخلف الناس في الدنيا، ولا يراد بها معنى أن الخليفة يخلف الله أو يعينه عياذاً بالله[٥].

ج- الأخلاق الإسلامية والآداب الشرعية:

- اليقين من أعظم منازل المؤمنين، وقد اختص الله بالهدى والفلاح من كان بالآخرة موقناً،

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/ ٣٩٥.
(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ١/ ٢٣.
(٣) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق الكبير ٥٠/ ٢٥٥.
(٤) شرح السنة للبغوي ١٤/ ٧٥.
(٥) وانظر للتفصيل: فيض القدير للمناوي ١/ ٣٦٣، ومغنى المحتاج للشربيني٤/ ١٣٢، وحاشية ابن عابدين ٥/ ٣٦٧.

وأخبر عن أهل النار بأنهم لم يكونوا من أهل اليقين، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ [الجاثية/ ٣٢].

- خطورة الكذب، وقبح أثره في الدنيا والآخرة؛ ففي الدنيا يكتب صاحبه عند الله كذاباً، كما ورد: «عليكم بالصدق؛ فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإياكم والكذب؛ فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً»[١]، وفي الآخرة له العذاب الأليم ؛ قال تعالى: ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾ [البقرة ١٠].

-وجوب الوفاء بعهد الله، والتحذير من نقضه، وقد وصف الله الفاسقين بأنهم ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ ﴾، وقد بينت آيات أخرى أن نقض العهد مع الله من أسباب قساوة القلوب في الدنيا والطرد من رحمة الله في الآخرة، قال تعالى : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ﴾ [المائدة/ ١٣].

- تعظيم شان سفك الدماء، قال تعالى على لسان الملائكة: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾ فسفك الدماء داخل في الإفساد في الأرض لكنه جاء معطوفاً عليه للاهتمام بشأنه، وبيان خطورة سفك الدماء؛ فهي أول ما يقضى فيه بين الناس يوم القيامة، وقد قال النبي ﷺ: (لا يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً)[٢]، وقال عبدالله ابن عمر: "إن من ورطات الأمور التي لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها سفك الدم الحرام بغير حله"[٣].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ٥٧٤٣، ومسلم في صحيحه برقم / ٢٦٠٧، واللفظ له، عن عبد الله بن مسعود مرفوعاً.

(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ٦٤٦٩ عن عبد الله بن عمر مرفوعا.

(٣) رواه البخاري في صحيحه برقم / ٦٤٧٠عن عبد الله بن عمر موقوفاً عليه.

- خطورة الكبر؛ فمعصية إبليس كان سببها الكبر،قال تعالى: ﴿ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾، فالكبر خلق باطني يجعل صاحبه يرى نفسه فوق المتكبر عليه، وبذلك يغلق على نفسه كل أبواب الخير، ويفتح أمامها جميع أبواب الشر، قال أبو حامد الغزالى: "فما من خلق ذميم إلا وصاحب العز والكبر مضطر إليه ليحفظ عزه، وما من خلق محمود إلا وهو عاجز عنه خوفاً من أن يفوته عزه، فمن هذا لم يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة منه"(١).

- التأدب ونسبة العلم لله، فعلى الإنسان إذا لم يكن يعلم أن يكل العلم إلى خالقه؛ فالملائكة عندما جهلوا أسماء الأشياء قالوا: ﴿ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآ ﴾ وهذا أدب وخلق عظيم حافظ عليه سلفنا الصالح؛ فكان مالك بن أنس إذا جلس مجلسه لا ينطق بشيء حتى يقول: ﴿ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآ ﴾(٢).

- الإقدام على المحرمات واقترافها ظلم، وقد حذر الله آدم وزوجه من الاقتراب من الشجرة المنهي عنها، وجعل الاقتراب منها دخول في جملة من ظلموا أنفسهم فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

د- الجوانب التربوية :

- الإيمان بالغيب هو الإيمان النافع، أما الإيمان بالشهادة فكل أحد يؤمن، قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا ﴾ [غافر/ ٨٤، ٨٥]، وعندما تظهر علامات القيامة لا يغني الإيمان، قال تعالى: ﴿ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرًا ﴾ [الأنعام/ ١٨٥]، والتربية الإسلامية قائمة على تأصيل مبدأ الإيمان بالغيب، لذلك جاء أول

(١) إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالى ٣/ ٣٤٥.

(٢) الآداب الشرعية والمنح المرعية لابن مفلح الحنبلي ٢/ ١٠٣.

وصف للمتقين في القرآن الكريم.

- التقوى جماع كل خير، ومن حصَّلها فقد استمسك من الدين بالعروة الوثقى، وأهلها هم المنتفعون بهداية القرآن حقا، ومن أفضل ما جاء في تعريفها ما ورد عن طلق بن حبيب: "التقوى عمل بطاعة الله رجاء رحمة الله على نور من الله، والتقوى ترك معصية الله مخافة عقاب الله على نور من الله"[(١)]. وقد تكرر أمر التقوى في السورة كثيرا، وما ذاك إلا لأنها رأس الأمر وصلاح القلب، وأعظم ما يعين على امتثال التكاليف.

- ليس على الداعي إلا البلاغ، أما هداية التوفيق فهي من الله وحده، وكم من أناس يستوي عندهم الإنذار وعدمه، وكم من أنبياء دعوا أقوامهم ولم يؤمن أحد قال رسول الله ﷺ: (عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ فَجَعَلَ يَمُرُّ النَّبِي مَعَهُ الرَّجُلُ وَالنَّبِي مَعَهُ الرَّجُلاَنِ، وَالنَّبِي مَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبي لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ)[(٢)].

وفي ذلك تسلية من الله للنبي ﷺ ولكل من سلك دربه في الدعوة إلى الله، ألا يحزن أو يأسى على غير المهتدين، قال تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف/ ٦].

- القلب هو ملك الجوارح، فإن صلح صلح سائر البدن، وإن فسد حلَّ الفساد على كل البدن، وقلوب المنافقين أساس بلائهم.

- خطورة النفاق وأهله على المجتمع المسلم؛ فهم العدو الحقيقي، وقد حذر القرآن منهم في كثير من السور المدنية؛ وذلك لتعرف الأمة خطرهم، وتتقي شرهم.

- من خدع فعاقبة خداعه راجعة إليه، وبخاصة إذا حاول خداع من لا يخدعه أحد.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف برقم/ ٣٥١٦٠وهناد في الزهد برقم/ ٥٢٣. قال ابن القيم: وهذا أحسن ما قيل في حد التقوى. الرسالة التبوكية ص١٠.

(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ٥٣٧٨ ومسلم في صحيحه برقم/ ٢٢٠ عن عبد الله بن عباس.

- المخادعة والاستهزاء والإفساد في الأرض وادعاء الإصلاح، وعدم الشعور. كلها من صفات المنافقين، فليحذر المسلم الصادق منها.

- في قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ تعليم للناس وتربية لهم على أدب التعفف عن السؤال، وبيان لأهمية العمل للتكسب، قال ابن عطية: "وهذه الآية تعطي أن الله تعالى أغنى الإنسان بنعمه هذه عن كل مخلوق، فمن أحوج نفسه إلى بشر مثله بسبب الحرص والأمل والرغبة في زخرف الدنيا، فقد أخذ بطرق من جعل لله نداً، عصمنا الله تعالى بفضله وقصر آمالنا عليه بمنه وطوله، لا رب غيره"[1].

- إذا ترك الإنسان داءه ولم يتعده بالرعاية زاد بلاؤه وضوعفت أدواؤه، قال تعالى: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾.

-الدعوة إلى الله مع جميع الناس حتى المنافق؛ فهؤلاء المنافقون وجدوا من ينصحهم بعدم الفساد، ومن يأمرهم بالإيمان، رغم صدور الكفر منهم.

- من الأساليب التربوية القرآنية، ضرب المثل؛ فالمثل القرآني يبرز المعقول في صورة المحسوس، ويجعل المسلم يعاين تفاصيل المثل بتدبره وتعقله فيهتدي بهداه، يقول الحكيم الترمذي: "اعلم بأن ضرب الأمثال لمن غاب عن الأشياء وخفيت عليه الأشياء؛ فالعباد يحتاجون إلى ضرب الأمثال لمّا خفيت عليهم الأشياء، فضرب الله لهم مثلاً من عند أنفسهم لا من عند نفسه ليدركوا ما غاب عنهم"[2].

- من سنن الله في خلقه أنه يبتلى عباده بآياته وأحكامه؛ ليتميز الخبيث من الطيب، ويُعرف المحق من المبطل والصادق من الكاذب؛ فقد جعل الله المثل بالبعوضة فتنة ليضل بها قوم ويهتدي بها آخرون، وكذلك نزول السورة يكون للمؤمنين زيادة إيمان واستبشار، أما المنافق

(١) المحرر الوجيز لابن عطية ١/ ١٠٦.

(٢) الأمثال من الكتاب والسنة للحكيم الترمذي ص١٤.

فإنها تزيده رجساً وضلالاً، ومثل هذا في عدة أصحاب النار وما يلقي الشيطان وحادثة الإسراء والمعراج؛ حيث كانت فتنة لبعض الناس، والمؤمن الحق هو من يفقه حكمة الابتلاء فيسلِّم لله في حُكمه.

- الاستدلال بالأمور العقلية والمشاهدات الحسية في القضايا الإيمانية أمر مفيد في الدعوة ومحاجة المنكرين، قال الجصاص: "قد تضمنت هذه الآيات مع ما ذكرنا من التنبيه على دلائل التوحيد وإثبات النبوة الأمر باستعمال حجج العقول والاستدلال بدلائلها، وذلك مبطل لمذهب من نفى الاستدلال بدلائل الله تعالى واقتصر على الخبر بزعمه في معرفة الله والعلم بصدق رسول الله؛ لأن الله تعالى لم يقتصر فيما دعا الناس إليه من معرفة توحيده وصدق رسوله على الخبر دون إقامة الدلالة على صحته من جهة عقولنا"[١].
- البشارة بالثواب الأخروي وسيلة من وسائل الترغيب والتحفيز. فهذا أبلغ في نشاط المدعو ومثابرته على العمل.
- إثبات عداوة الشيطان لآدم وبنيه، وتحذير الناس منها، وبيان منشئها وأصلها، وأنها عداوة لا يرجى لها انتهاء إلى يوم الوقت المعلوم، وما ذكرت قصة إبليس إلا لتحذير الناس من إبليس وجنده وحزبه.
- بينت الآيات فضيلة العلم وأهله، وأنه سبب تفضيل آدم على الملائكة، قال رسول الله ﷺ: (وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم)[٢]، وقد قالوا في سبب ذلك: "لأنه سبحانه وتعالى ألزمها ذلك في آدم عليه السلام لما أخبرهم أنه جاعل في الأرض خليفة، فسألته على جهة الاستعظام لخلقه أن خلقاً يكون منهم الفساد وسفك الدماء: كيف يكون خليفة؟ فقال: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وقال لآدم عليه السلام: أنبئهم بأسمائهم. فلما أنبأهم

(١) أحكام القرآن للجصاص ١/ ٣٥، ٣٦.

(٢) أخرجه أبو داود برقم/ ٣٦٤١ والترمذي في سننه برقم/ ٢٦٨٢ وابن ماجه برقم/ ٢٢٣ وسنده حسن.

تصاغرت الملائكة فرأت فضل آدم، فألزمها الخضوع والسجود لفضل العلم، فسجدت فتأدبت، فكلما ظهر علم في بشر خضعت له"[١].

- لإهباط آدم وزوجه إلى الأرض حكم جليلة وغايات عظيمة؛ فبه حدث التكليف، وليتخذ الله من ذريته أولياء يحبهم ويحبونه، ولتظهر آثار أسماء الله الحسنى فيهم؛ فهو الغفور الرحيم التواب، وليؤمنوا بالغيب بعد أن كانوا من أهل المشاهدة، وليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الطيب في دار كرامته، وليظهر علمه الذي أخبر به ملائكته حيث يقوم بنو آدم بواجب الخلافة لله كما أمر. ولن تظهر في الأرض أدلة ربوبيته وإلهيته إلا بوجود الخلق فيها فكان إهباطهم إليها.
- المسؤولية في الإسلام مشتركة بين الرجل والمرأة؛ فقد أكل آدم وحواء من الشجرة المحرمة معاً، وتابا معاً، فلم تكن حواء سبب ضلال آدم، وإنما كان الأمر بينهما مشتركاً، والتوبة كذلك.
- وكل إنسان في الإسلام مسؤول عن فعله؛ فعندما خالف آدم الأمر وأكل من الشجرة تلقى من ربه كلمات التوبة فلهج بها لسانه هو وزوجه فتاب الله عليهم، أما الزعم بأن المسيح عليه السلام صلب من أجل خطيئة آدم ليرفع عن الدنيا الشقاء فهذا كلام يتناقض مع العقل والنص والتاريخ؛ ذلك أنه لا تزر وازرة وزر أخرى، وأن الصلب لن يجعل الله يعفو عن البشر جميعاً، إن القاعدة المستقرة في الفطر السليمة أن كل إنسان محاسب عن عمله.

المناسبة بين المقدمة ومحور السورة:

سبق أن ذكرنا أن المقدمة تنقسم إلى مقصدين رئيسين، وقد آثرنا إدماجهما لقوة الصلة بينهما؛ ولأن في المقصد الثاني عودة إلى قضايا القصد الأول. وفي كليهما صلة بمحور السورة.

فقد استفتحت السورة بالحديث عن القرآن الكريم وموقف الناس تجاهه، وقسمت

(١) انظر: فيض القدير للمناوي ٢/ ٣٩٢ والجامع لأحكام القرآن ١/ ٤٣٠.

الناس إلى ثلاث طوائف: مؤمنين وكافرين ومنافقين، وقد رجحنا في ثنايا التفسير أن الحديث في كلٍ كان عن أهل الكتاب مؤمنهم وكافرهم، وهذا يعد توطئة للحديث المطول عن منافقيهم وكفارهم في المقطع الأول من السورة.

وقد نزلت السورة في بداية الهجرة وقيام الدولة المسلمة واحتكاكها باليهود لأول مرة، وكذلك مع بروز ظاهرة النفاق بعد بدر مما يستلزم تحذير الجماعة الناشئة من هؤلاء.

والحديث عن القرآن وهدايته له تعلق قوي بخط السورة؛ فلن يكون هناك خلافة إلا بهداية، ولن تكون هداية إلا بالمنهج، وهذا هو المنهج؛ ولذلك تكرر الحديث عنه في المقدمة من حيث بيان هدايته ومواقف الناس منها، ومن حيث نفي الريب عنه أولاً وإثبات ذلك بالدليل الذي يتحداهم به ثانية، وجاء ذلك مرتبطاً بالحديث المبثوث عن القرآن في آيات السورة. فهو الكتاب المصدق لما معهم كما في آية[٨٩] ولكنهم نبذوه وراء ظهورهم آية[١٠١]، وإن منهم لفريقاً يتلونه حق تلاوته ويؤمنوا به آية[١٢١]،وهذا الكتاب هو الحق الذي نزل بالحق، آية [١٧٦]، وهو دستور الخلافة الذي يهدى المختلفين للحق آية[٢١٣]، وتلاوة القرآن على الرسول بالحق آية[٢٥٢]. وهذا الكتاب موصول الصلة بمواعظ الأنبياء الأولين، ودعوة أبي الأنبياء لأمة الوراثة في الدين آية [١٢٩]، ولذلك دعا أهل الكتاب للإيمان به آية [٤١] وبين أن هذا هو طريق الاهتداء لهم في آية[١٣٧] ثم ختمت السورة بالإيمان به في آية[٢٨٥].

ولن تتحقق هداية القرآن إلا للمتقين كما جاء في أول الآيات، وقد بينت الآية أوصافهم ثم ذكرت في المقصد الثاني أوصاف الفاسقين الذين ابتعدوا عنها وجانبوها، والتقوى هي وصية الله لبني إسرائيل آية[٤١]، وخوّف الله من ارتاب في القرآن وحذره باتقاء النار، وبين أن عبادته سبحانه توصل للتقوى في آية [٢١] وهي أيضاً متكررة في السورة تكرراً واضحاً مع الأوامر الربانية للمسلمين، وهذا يدل على أن هداية القرآن وتطبيق أحكامه لن تكون إلا للمتقين.

وحديث القرآن عن خلافة آدم هو التطبيق العملي والنموذج الأول للخلافة في الأرض، وقد ناسب هنا أن يأتي الحديث عن الخلافة لا عن تفصيل بدء الخلق الذي تكفلت به آيات

أخرى؛ لأن هذا هو المناسب لمحور السورة، وذكرت الآيات أن الخلافة لا يستقيم معها الإفساد في الأرض، واربط هذا بما جاء في أول السورة من وصف المنافقين بأنهم المفسدون وبالتالي فلا يصلحون لإقامة منهج الله في الأرض.

وجاء الحديث في ثنايا القصة عن العلم، وهو رمز الخلافة وعنوانها؛ فبالعلم كان تفضيل آدم على الملائكة، وقد جاء وصف الله بالعلم في السورة في أكثر من آية كما في آيات [٩٥]و[١١٥] و [١٢٧] و[١٥٨] و[١٨١] و[٢١٥] و[٢٢٤] وغيرها كثير؛ وذلك ليعلم المؤمن أنه لن يصل إلى العلم إلا بتعليم الله إياه، كما قالت الملائكة، وليوقن أنه لن يحيط بشيء من علمه تعالى إلا بما شاء هو كما في آية الكرسي. وقد نعت الآيات على اليهود علمهم الذي لم ينتفعوا به فكتموا الحق وهم يعلمون، وبينت في هذا المقطع أن منافقيهم لا يعلمون، ولذلك عندما أمرت المؤمنين قرنت الأمر بالعلم مع الأمر بالتقوى كما في آيات [١٩٤] و [١٩٦] وغيرها.

وأصول العقيدة المذكورة في هذه المقدمة من الإيمان بالله وعبادته وعدم اتخاذ الأنداد معه، والإيمان برسوله وبالكتاب الذي نزل عليه وباليوم الآخر والغيب عموماً مرتبط كل هذا بمقاصد السورة من حيث بيان النموذج السلبي الذي كفر بالله وعاند في الغيبيات ولم يؤمن بالكتاب الحق ولا بالرسول الذي جاء بالحق، وفي مقابل ذلك الأوامر الاعتقادية التي كلف بها أهل الإيمان في هذه السورة.

المحور الأول: بنو إسرائيل ومبررات عزلهم عن القوامة والخلافة

وفيه مقدمة وأربعة مقاطع.

المقدمة (تذكير وعتاب) من الآية (٤٠) إلى الآية (٤٨)

قال تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٤٠ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ٤١ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤٢ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ٤٣ ۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٤٤ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ٤٥ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ٤٦ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٧ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٤٨ ﴾

المناسبة بين المقطع والمقطع السابق:

تحدث المقطع السابق عن استخلاف آدم وذريته، ونعم الله عليهم في الدنيا بإتيان الهداية منه سبحانه، ثم ابتدأت الآيات تذكر تفاصيل استخلاف بني إسرائيل؛ حيث إنهم من ورثة الوحي، وقد أورثهم الله الأرض ليعمروها ويقوموا بواجب الخلافة فيها، ولذلك فإن هذا المقطع يذكّرهم بعهدهم الذي عاهدوا الله عليه، وبنعمة الله عليهم، وتفضيله لهم، وتدعوهم للوفاء بعهده وتذكر لهم تفاصيله، مع ترغيب في الوفاء وتخويف من المخالفة.

وقال الألوسي في مناسبة خطاب بني إسرائيل لما قبله: "وجعله سبحانه بعد قصة آدم، لأن هؤلاء بعد ما أوتوا من البيان الواضح والدليل اللائح، وأمروا ونهوا وحرضوا على اتباع النبي الأميّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم ظهر منهم ضد ذلك، فخرجوا عن جنة الإيمان الرفيعة،وهبطوا إلى أرض الطبيعة، وتعرضت لهم الكلمات إلا أنهم لم يتلقوها بالقبول ففات

منهم ما فات، وأقبل عليهم بالنداء ليحركهم لسماع ما يرد من الأوامر والنواهي"[١].

التفسير الإجمالي للمقطع:

يبدأ هذا المقطع بتذكير بني إسرائيل بنعم الله الكثيرة التي أنعمها عليهم وبيان موقفهم منها، وذلك في عرض تاريخي لما كان منهم مع أنبياء الله ورسله وما كان منهم من اجتراء على الله تعالى.

وإسرائيل هو نبي الله يعقوب[٢] وهو مركب من: (إسرا) وهو العبد أو الصفوة أو الإنسان أو المهاجر، و(ايل) اسم من أسمائه تعالى[٣]، وقد ذكَّرهم الله تعالى باسم أبيهم الذي هو عنوان فخرهم ومجدهم، وعادة ما يأتي النداء بـ(بني إسرائيل) في مقام الترغيب والتذكير بالنعم والأصل النبوي.

والآيات تستجيش فيهم روح الإيمان والانتساب إلى النبي الكريم ابن الكريم ابن الكريم وتُذكِّرهم بنِعَم الله إجمالاً وبما يترتب على ذلك من الوفاء بالعهد الذي في كتبهم من عبادة الله وحده والإيمان برسوله، وفي مقابل هذا فإن الله يوفي لهم بما وعدهم من النصر والعلو ليكن خوفهم منه وحده لا من بعضهم البعض.

وقد ورد هذا الوعد في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ

---

(١) روح المعاني للألوسي ١/ ٢٤١.

(٢) أخرجه عبد بن حميد في تفسيره عن ابن مسعود وحسنه ابن حجر في الفتح ٦/ ٣٧٣، وعليه إجماع المفسرين والمؤرخين.

(٣) انظر: روح المعاني للألوسي ١/ ٢٤١.

سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ ﴾ [المائدة:١٢]

ثم انتقل بهم إلى الحديث على عهد خاص وهو الإيمان بالقرآن الذي نزل - كما قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤٨] وحذَّرهم من أن يكونوا أول الكافرين مسارعة إلى الكفر فيصيروا قدوةً لغيرهم. ثم خص العلماء بألا يستبدلوا بآيات الله عرضاً يسيراً من أعراض الدنيا؛ فإنه وإن كثر فهو بجوار نعيم الآخرة قليل، وأمرهم بأن يتقوه وحده، وألا يفعلوا واحداً من أمرين بهما إضلال الناس:

أولها: إظهار الباطل في صورة الحق، والخلط بينهما وذلك بتأويل النصوص وإلقاء الشبه.

ثانيهما: كتمان الحق وجحده وإخفاؤه مع العلم به، فقد كانوا يكتمون صفة النبي ﷺ.

ثم دعاهم إلى الصلاح بإقامة الصلاة حق الإقامة والإصلاح بأداء الزكاة كما يصلي المسلمون ويزكون ويركعون ويسجدون.

وخاطب القرآن علماءهم موبخاً لهم في أمرهم للناس بالخير واتباع النبي ﷺ ونسيان أنفسهم؛ فقد كان الواحد منهم يقول لصهره ولذوي قرابته ولمن بينه وبينه رضاع من المسلمين: اثبت على هذا الدين وما يأمرك به محمد فإنه حق، فكانوا يأمرون بذلك ولا يفعلونه[1]، وهذا يدل على خلل في العقل.

وإذا كانوا يرون أن هذه التكاليف شاقة على أنفسهم بسبب إدمان الشهوات فإن الآيات تبين لهم طريقة تقوية عزيمتهم وذلك بالاستعانة بالصبر والصلاة؛ فبالصبر يحجزون أنفسهم عن الحرام، وبالصلاة ينتهون عن المنكر، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ [العنكبوت:٤٥] والصلاة شكر، والإيمان صبر وشكر، وإن إقامة الصلاة ذات

(١) انظر: العجاب في بيان الأسباب لابن حجر ١/ ٢٥٢.

الخشوع والخضوع لشديدة شاقة إلا على الخاشعين، ويجوز أن يكون لجميع الأمور التي أمر بها بنو إسرائيل ونهوا عليها من قوله ﴿ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ﴾[١].

ثم ذكرت الآيات أوصاف هؤلاء الخاضعين الخاشعين وهم الذين يوقنون ويعتقدون لقاء ربهم به يوم العرض عليه، وأنهم عائدون لينالوا ثواب عملهم.

وتعود الآيات مرة أخرى تذكرهم بنعم الله على سبيل التفصيل بعد الإجمال فتكرر لهم نفس النداء، ويذكرهم بالنعم الجزيلة عليهم، وفي النداء الأول طالبهم بالعبادة والوفاء بالعهد، أما النداء الثاني فطالبهم بشكر النعمة التي أنعم بها عليهم؛ حيث فضَّلهم على عالمي ذلك الزمان[٢]، فجعل فيهم النبوة والملك وآتاهم ما لم يؤت أحد ممن كانوا في وقتهم.

ثم أمرهم باتقاء يوم القيامة الذي لا تقضي أي نفس عن نفسٍ شيئاً ولا يقبل من الكفار شفاعة لأي أحد، ولا يؤخذ من أي نفس كافرة فداء، قال تعالى: ﴿ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ﴾[الأنعام: ٧٠] ولا تجد من ينصرها، وبهذا تُسَدَّ أمامها كل الأبواب قال أبو السعود: " وكأنه أريد بالآية نفي أن يدفع العذاب أحد عن أحد من كل وجه محتمل"[٣].

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أ- القضايا العقدية:

- أهل الكتاب من اليهود والنصارى مطالبون بالإيمان بسيدنا محمد ﷺ وبكل ما جاء به، ولو آمنوا بالله واليوم الآخر ولم يؤمنوا بالنبي محمد فلا فائدة في إيمانهم؛ وقد آتاهم الله البينات على صدقه في كتبهم، وقد أكد الرسول ﷺ هذا الحكم بالقسم فقال: (والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة؛ يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن

(١) انظر: الكشاف للزمخشري ١/ ١٦٣.

(٢) رواه عبد الرزاق في التفسير بسند صحيح عن قتادة ١/ ٤٥، ورواه عنه: الطبري ٢/ ٢٤.

(٣) إرشاد العقل السليم لأبي السعود ١/ ٩٩.

بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار)(١).

- ظاهر قوله تعالى: ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ ﴾ يدلُّ على عدم قبول أي شفاعة يوم القيامة، ولكن وردت آيات أخرى تفيد أن الشفاعة المنفية هي الشفاعة للكفار، والشفاعة بدون إذن المولى تبارك وتعالى. قال تعالى في حق الكفار: ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴾ [المدثر/ ٤٨]، وفي الشفاعة بدون إذن قال تعالى: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ [٢٥٥]، وقال: ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾ [طه/ ١٠٩].

أما الشفاعة للمؤمنين بعد إذن المولى ورضاه فهي ثابتة لنبينا محمد ﷺ ولإخوانه من الرسل، ومنها ما اختص به وحده، والشفاعة ثابتة أيضاً لبعض المؤمنين والشهداء وغيرهم، والنصوص في ذلك كثيرة.

ب- الأحكام الشرعية:

- دل قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ على حرمة طلب العلم الديني من أجل الدنيا؛ فهذا من قبيل الاشتراء بآيات الله ثمناً قليلاً، وقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: (من تعلم علماً مما يبتغي به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة)(٢).

- وقد فرَّع المفسرون على هذه المسألة الكلام على حكم أخذ الأجرة على تعليم القرآن؛ فمذهب مالك والشافعي وأحمد في رواية: جواز أخذ الأجرة على تعليم القرآن، ودليلهم قول النبي ﷺ: (إن أحق ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله)(٣).

ومذهب أبي حنيفة ورواية عن أحمد عدم جواز الاستئجار على الطاعات كالإمامة والأذان

---

(١) رواه مسلم في صحيحه برقم/ ١٥٣.

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه برقم/ ٧٨، وأحمد في مسنده برقم / ٨٤٣٨، وأبو يعلى في مسنده برقم/ ٦٣٧٣، وأبو داود في سننه برقم/ ٣٦٦٤، وابن ماجه في سننه برقم / ٢٦٠، قال الحافظ العراقي في تخريج الإحياء: إسناده جيد. المغنى عن حمل الأسفار في الأسفار ١/ ٣٨.

(٣) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ٥٧٣٧.

وتعليم القرآن ووافقهم عطاء وإسحق والزهري، إلا أن متأخري الأحناف أجازوا أخذ الأجر؛ قال في الهداية " وبعض مشايخنا استحسنوا الاستئجار على تعليم القرآن اليوم؛ لأنه ظهر التواني في الأمور الدينية ففي الامتناع تضييع حفظ القرآن، وعليه الفتوى"[(١)].

- في قوله: ﴿ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ دليل على فرضية الزكاة؛ لأن الأمر في أصل إطلاقه يفيد الوجوب. وقد جاء الأمر بإيتائها مجملاً لكن فصلت السنة مقاديرها وأصنافها.

- استنبط جماعة من الفقهاء من قوله تعالى: ﴿ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ أن الإيتاء الذي هو تمليك الفقير شرط لصحة الزكاة، وبالتمليك تنقطع صلة المزكي بالمال، قال الكاساني: "وعلى هذا يخرج صرف الزكاة إلى وجوه البر من بناء المساجد، والرباطات والسقايات، وإصلاح القناطر، وتكفين الموتى ودفنهم أنه لا يجوز؛ لأنه لم يوجد التمليك أصلا، وكذلك إذا اشترى بالزكاة طعاما فأطعم الفقراء غداء وعشاء ولم يدفع عين الطعام إليهم لا يجوز لعدم التمليك"[(٢)].

- استدل بعض العلماء بقوله تعالى: ﴿ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ على وجوب صلاة الجماعة؛ قال ابن تيمية: "وأما الجماعة فقد قيل: إنها سنة، وقيل: إنها واجبة على الكفاية، وقيل: إنها واجبة على الأعيان. وهذا هو الذي دل عليه الكتاب والسنّة فإن الله أَمر بها في حال الخوف ففِي حال الأَمن أَولى وآكد. وأيضاً فقد قال تعالى ﴿ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ وهذا أمر بها[(٣)].

على أن جماعة من الفقهاء منهم الحنفية في قول والشافعية في قول وأكثر المالكية إلى أن الجماعة سنة مؤكدة، والرواية الأخرى عند الحنفية والشافعية أنها واجبة وجوب عين، وهذا مذهب الحنابلة[(٤)].

---

(١) الهداية للمرغيناني ٣/ ٢٤٠.

(٢) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع للكاساني ٢/ ٣٩.

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٣/ ٢٣٩.

(٤) انظر: حاشية ابن عابدين١/ ٤٥٧، حاشية الجمل على شرح المنهج ١/ ٤٩٩، حاشية الدسوقي على الشرح الكبير١/ ٣١٩، شرح منتهى الإرادات للبهوتي ١/ ٢٥٩.

- الركوع من فرائض الصلاة، لقوله تعالى: ﴿ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ ﴾الحج/ ٧٧].

ج - الأخلاق الإسلامية والآداب الشرعية:

- كتمان العلم كبيرة من الكبائر[١]، قال رسول الله ﷺ: (من كتم علماً ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة)[٢]، والظاهر أن ذلك ليس على وجه العموم وإنما يرتبط بالمصلحة في الكتمان أو الإظهار، لكن الأصل إظهار العلم إلا لمصلحة.

- خلق الصبر مما يعين على الشدائد، وقد جاء في القرآن مقروناً بالصلاة في كثير من المواضع، والصبر مع الصلاة من أعظم ما يعين على مصالح الدنيا والدين؛ قال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [هود/ ١١٤، ١١٥].

-الخشوع روح الصلاة، وهو في الأصل من أعمال القلب ومعناه السكون، ويظهر أثر خشوع القلب على الجوارح فتسكن، وصلاة بلا خشوع لا تؤثر، وقد علق الله الفلاح على الخشوع في الصلاة فقال: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [المؤمنون/ ١، ٢].

د- الجوانب التربوية:

- الوعيد الشديد على من يأمر الناس بالطاعة والخير وينسى نفسه، وفي الحديث: (مثل العالم الذي يعلم الناس الخير وينسى نفسه كمثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه)[٣].

---

(١) ذكره الهيثمي في الزواجر عن اقتراف الكبائر. الكبيرة الرابعة والأربعون١/ ١٧٤.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك برقم/ ٣٤٦ وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، ورواه ابن حبان في صحيحه برقم/ ٩٦ عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير برقم / ١٦٨١. قال الهيثمي: ورجاله موثوقون. مجمع الزوائد ١/ ١٨٥ وحسنه المناوي في التيسير ٢/ ٣٧١.

ومخالفة القول للفعل عظيمة من العظائم. ولهذا جاء التعقيب القرآني على هؤلاء ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ وذلك دليل على أن الذي يخالف قوله فعله لا عقل له.

- مسؤولية العالم أشد من الجاهل؛ فإنه إن فرط يلحقه الذم أكثر من الجاهل، قال تعالى: ﴿ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾.

- الصلاة من أعظم ما يعين على مكابدة الأمور؛ إذ هي الصلة بالله التي تهون على العبد كل مصاعب الحياة وقد ورد: (وكان النبي ﷺ إذا حزبه أمر صلى)[1].والآيات الواردة تدل على تعظيم قدر الصلاة؛ فقد كانت مفروضة على جميع الأمم، وكانت أول ما أوصى به الله نبيه موسى عند تكليفه بالوحي فقال: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾ [طه/ ١٤].

- تذكير الناس بنعم الله يقوي داعي الشكر في النفس، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥ ﴾ [إبراهيم/ ٥] وأيام الله نعماؤه[2]، وامتثل موسى عليه السلام للأمر وذكر قومه بنعم الله عليهم من الإنجاء من آل فرعون ثم قال: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم/ ٧] فدل هذا على أن المقصود بالتذكير هو القيام بواجب الشكر لله واهب النعم.

- دل قوله تعالى ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ ﴾ على أن من علامات أهل العصيان أن تكون الطاعة كبيرة وثقيلة عليهم، وشاهد هذا من كتاب الله قوله تعالى: ﴿ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ [الشورى/ ١٣] فمن ثقل عليه ما يحبه الله فهو في معرض الذم.

---

(١) رواه أبو داود في سننه برقم/ ١٣١٩، وأحمد في مسنده برقم/ ٢٣٣٤٧عن حذيفة وحسن الحافظ ابن حجر إسناده في فتح الباري ٣/ ١٧٢.

(٢) وقد ورد هذا في نص حديث رسول الله الذي ذكر فيه قصه موسى والخضر وهو بلفظه عند مسلم في صحيحه برقم / ٢٣٨٠.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة:

سبق بيان أن محور السورة يدور حول أمرين؛ أولهما: مبررات عزل بني إسرائيل عن القوامة والاستخلاف في الأرض، وهذا المقطع مرتبط بالمحور الأول ارتباطاً وثيقاً؛ فهو يتحدث عن نقض اليهود العهد مع الله، وعن أمرهم الناس بالبر ونسيانهم أنفسهم، وهي وغيرها أمور تبين أنهم لم يعودوا جديرين بحمل الأمانة.

وهو مرتبط أيضاً بالمقطع الثاني في السورة ارتباط الضد بالضد؛ فمن صفات أهل البر والتقوى أنهم يوفون بعهدهم إذا عاهدوا، والتقوى لا تجعل كلام المرء مخالفاً لفعله.

والصبر والصلاة أيضاً من صفات أهل البر، والرجوع إلى الله يوم القيامة جاء التأكيد عليه في أول السورة وفي آخرها، وفي آخر نزلت في السورة كلها، ليكون ذلك يقيناً في قلب كل مؤمن.

المحور الأول: بنو إسرائيل ومبررات عزلهم عن القوامة والخلافة

المقطع الأول: أحوال بني إسرائيل مع موسى عليه السلام (٤٩-٧٤)

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَـٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَـٰيَـٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ

ذَٰلِكَ فَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلۡنَٰهَا نَكَٰلٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهَا وَمَا خَلۡفَهَا وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌ عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَۖ فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ قَالُواْ ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَاۖ وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾

المناسبة بين المقطع والمقطع السابق:

هذا المقطع بطوله يتحدث عن نعم الله على بني إسرائيل بشكل مفصَّل، بعد أن ذكرَّهم بها إجمالاً في المقطع السابق في قوله: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ ﴾[٤٠] و[٤٧]، وخوَّفهم من عاقبة كفرانها في قوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [٤٨].

وجاء في هذا المقطع ذكر النعم تفصيلاً من أول الآية[٤٩] حتى الآية [٥٨] ثم تكلم عن موقفهم من نعم الله وتبديلها في قوله: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾[٥٩]. وجاء بعد ذلك تفصيل كفرانهم للنعم،ومخالفاتهم مع نبي الله موسى، وتباطؤهم في تنفيذ الأمر الإلهي، واتهامهم للنبي بالجهل مما كان سبباً في قساوة قلوبهم وقد أخذ هذا القدر من قوله تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ

لِقَوْمِهِۦ ﴾ [٦٠] إلى نهاية الربع في قوله تعالى: ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [٧٤]. فهذا المقطع تفصيل للإجمال الوارد في المقطع السابق.

التفسير الإجمالي للمقطع:

بدأت الآيات بالحديث تفصيلاً عن جملة نعم الله على بني إسرائيل الأولين، وقد امتن الله بها على المتأخرين، وكما يقول السعدي: "نعمة الله على المتقدمين منهم، نعمة واصلة إلى المتأخرين، والنعمة على الآباء، نعمة على الأبناء، فخوطبوا بها، لأنها نعم تشملهم وتعمهم"[١]، وبيان هذه النعم على النحو التالي:

١ ـ أن الله تعالى نجّى آباءهم من فرعون مصر وجنده؛ حيث كانوا يذيقونهم ويديمون عليهم العذاب الشديد، وذلك بتذبيح الأبناء لقطع النسل واستبقاء النساء ليصرن خدماً لأهل مصر، وفي كلا الأمرين: العذاب والإنجاء بلاء عظيم، قال تعالى: ﴿ وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

٢ـ وثاني هذه النعم فلق البحر الأحمر لهم ليعبروا من مصر في أمن وسلامة وليغرق فرعون وجنده حين عبورهم وهم يشاهدون غرقه، قال تعالى: ﴿ فَأَغْرَقْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴾ [الإسراء: ١٠٣]، وكان ذلك يوم عاشوراء[٢].

٣ ـ ومع رؤيتهم لهذه النعمة العظمى إلا أنهم عبدوا العجل الذهبي الذي صنعه السامري وقت أن كان موسى ذاهبا للقاء ربه في طور سيناء ليتلقى عنه التوراة، فظلموا أنفسهم بعبادة غير الله ولكن مَنَّ الله عليهم ومحا جُرمهم لكي يشكروه.

٤ ـ ومن النعم الدينية أيضاً إنزال التوراة مكتوبة في ألواح ليفرقوا بها بين الحق والباطل فيهتدوا قال

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لعبد الرحمن بن سعدي ص٥٣.

(٢) والحديث في ذلك رواه البخاري في صحيحه برقم/ ٣٧٢٧ومسلم في صحيحه برقم/ ١١٣٠.عن ابن عباس.

تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الأنبياء: ٤٨][(١)].

٥ ـ ومنها أيضاً العفو عنهم، وهذه نعمة أخرى غير السابقة؛ إذ أنهم بعبادتهم العجل قد ظلموا أنفسهم فمن الله عليهم بنعمة أخروية وهي قبول توبتهم، وذلك بأن يقتل بعضهم بعضاً حتى يكون لهم الخيرية عند الله يوم القيامة؛ حيث يتقبل توبتكم ويعفو عن بقيتكم بعفوه وكرمه سبحانه.

٦ ـ ومن نعم الله عليكم ما حصل لكم عندما ربطتم إيمانكم بالله برؤيته جهرة فأصابتكم من ذلك صاعقة أهلكتكم وطفق الأحياء ينظرون للموتى، لكن الله بعثكم[(٢)] وأحياكم لتقوموا بواجب الشكر له.

٧ ـ واذكروا وقت أن صار الغمام ظلَّة عليكم وقت التيه أربعين سنة ليقيكم الحر، وكذلك أنزل المولى المن وهو طعام حلو مثل العسل، والسلوى وهو طائر طيب الطعم يشبه السماني، وقال لهم الله كلوا الطيب واشكروا. فأكلوا وما شكروا، فما ظلموا بذلك إلا أنفسهم بانقطاع الفضل عنهم.

٨ ـ واذكروا إذا أمركم الله بدخول بيت المقدس وقال: اطعموا ما شئتم وادخلوا بابها ساجدين لله داعين له أن يحط عنكم خطاياكم فإنه يزيد المحسنين من فضله، لكنكم بدلتم وخالفتم فنزل عليكم العذاب من السماء بسبب فسقكم،عن أسامة قال: قال رسول الله ﷺ (الطاعون رجز أرسل على طائفة من بني إسرائيل)[(٣)].

---

(١) فالفرقان معطوف على التوراة من باب عطف الصفات. انظر: معاني القرآن للزجاج١/ ١٣٤.

(٢) الإحياء عند جمهور المفسرين على حقيقته، ويرى آخرون أن المراد بالبعث كثرة النسل، أي أنه بعد أن وقع فيهم الموت بشتى الأسباب وظنّ أنهم سينقرضون، بارك الله في نسلهم ليُعِدَّ الشعب بالبلاء السابق للقيام بحق الشكر على النعم التي تمتع بها الآباء الذين حل بهم العذاب بكفرهم لها. انظر: تفسير المراغي للشيخ أحمد مصطفي المراغي ١/ ٧١.

(٣) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ٦٥٧٣ ومسلم في صحيحه -واللفظ له- ورقمه/ ٢٢١٨.

٩ـ ثم ذكرتهم الآية بنعمة أخرى وقت أن كانوا عطاشى في التيه، و" ضرب لهم موسى الحجر فصار فيه اثنتا عشرة عيناً من ماء، لكل سبط منهم عين يشربون منها"[١] وأمرهم الله أن يأكلوا المن والسلوى ويشربوا من هذا الماء ولا يتمادوا في الفساد.

١٠ـ ومع هذا الرغد من العيش فإنهم تبطروا وملّوا وطلبوا الأدنى من الطعام قائلين لن نصبر على طعام واحد، وطلبوا البقول مثل القثاء والثوم والعدس والبصل، فعجب موسى عليه السلام من طلبهم واستنكر أن يطلبوا الأنواع الدنيئة ويتركوا الطعام الطيب ثم أمرهم بالنزول إلى أي مصر زراعي ليجدوا فيه طلبهم.

وقد عاقبهم الله على كفرهم النعم واستهزائهم بآيات الله وذلك بأن حاق بهم الذل من خارجهم والهوان من داخل نفوسهم ورجعوا بغضب من الله بسبب أربعة أمور مرتبة على شناعتها؛ الأشد فالشديد:

وأولها: كفرهم بآيات الله المكتوبة، وكفرهم بآلائه ونعمه التي أنعم بها عليهم.

وثاني هذه الأمور: قتلهم الأنبياء بلا خطأ أو تأويل أو شبهة، بل كانوا عامدين عالمين بشناعة هذا الجرم وقبحه، وثالثها العصيان وفعل المحظورات وتعدي المأمورات وظلم النفس، ثم ختم جرائمهم باعتدائهم المستمر على الناس.

وليس هذا العذاب خاصاً ببني إسرائيل فحسب، بل إن سنة الله الكونية اقتضت أن: المؤمنين بالنبي محمد ﷺ واليهود والنصارى والذين تركوا دينهم وأسلموا لا خوف عليهم في الآخرة ولا يحزنون على ما في الدنيا طالما آمنوا وعملوا الصالحات. قال تعالى ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [النساء/ ١٢٣]. فلو تابوا وعملوا الصالحات لتاب الله عليهم، والآية تفتح لهم ولغيرهم أبواب الأمل في رحمة الله تعالى.

---

(١) رواه الطبري في تفسيره عن ابن عباس٢/ ١٢٠ بسند صحيح.

ولكي لا يصابوا باليأس والقنوط بسب ما توعدهم الله من العذاب على جرائمهم فإن الله ذكرهم ببعض ما استحقوا بسببه العقوبة لولا رحمته؛ فقد أخذ الله منهم الميثاق فأبوا فرفع الطور أمامهم قال تعالى ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ ﴾ [الأعراف: ١٧١] ثم أمرهم الله تعالى أن يأخذوا التوراة بقوة واجتهاد في العمل، وأن يتدبروا ما فيها كي يصلوا إلى التقوى لكنهم أعرضوا عن القبول، ولولا فضل الله ورحمته لهلكوا في الدنيا.

وقد علموا ما كان من شأن آبائهم حيث فرض الله عليهم الراحة في يوم السبت إحياء للدين في نفوسهم وتخفيفاً لشدة نهمهم في الدنيا، لكنهم ارتكسوا في حمأة المعاصي وتحايلوا على النهي فصاروا كالقردة والخنازير في الصغار والذلة والمنزلة[1] فكان ذلك عبرة زاجرة لمعاصريهم ولمن جاء بعدهم، وهداية للمتقين الذين ينتفعون بالعظات.

وما كان أمر الاعتداء في السبت هيناً؛ إذ هو اعتداء على محارم الله، وتفريط في كتاب الله الذي أمروا بأن يتفرغوا له يوم السبت ويقوموا بحقه، لكنهم فرطوا، فجاء ذكر القصة هنا مخوفاً من مغبة التفريط في كتاب الله، والناظر إلى آيات قصة السبت في سورة الأعراف يجد الارتباط بينها وبين آيات الكتاب حيث جاء بعدها مباشرة قوله تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ

---

(١) قال مجاهد: لم يمسخوا قردة، ولم تمسخ صورهم، وإنما مسخت قلوبهم، فلا تقبل وعظاً، ولا تعي زجراً، وهو مثل ضرب الله لهم، كما مثلوا بالحمار يحمل أسفاراً، في قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ﴾[الجمعة:٥] رواه الطبري عنه. والجمهور على أن مسخوا قردة وخنازير حقيقة ثم ماتوا بعد ثلاثة أيام.انظر: جامع البيان الطبري ٢/ ١٧٣والجامع لأحكام القرآن للقرطبي٢/ ١٧١ وروح المعاني للألوسي ١/ ٢٨٣.

تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [الأعراف: ١٦٩_١٧١].

ثم تذكر الآيات أمر البقرة التي تقص طرفاً من مواقفهم مع نبي الله موسى مما يبين قسوتهم واستهزائهم وتنطعهم في الدين ومخالفة الأمر، وتبدأ بتذكيرهم بأمر موسى لأسلافهم أن يذبحوا بقرة، فاستهزؤوا به ورموه بالسفه فقال: أعوذ بالله أن الجأ إلى السخرية في أمر وارد عن الله تعالى!

فلما رأوا الأمر كذلك ألحفوا في السؤال فسألوا عن وصفها، فأجابهم بأنها ليست كبيرة مسنة ولا صغيرة بكراً بل هي وسط بين هذا وذاك وأمرهم بالامتثال بلا تلكؤ، لكنهم سألوا مرة أخرى عن لونها فأجابهم بأنها شديد الصفرة تسرُّ من نظر إليها. ومع هذا التحديد الدقيق فإنهم لم يكتفوا بل طلبوا أوصافاً أخرى معتذرين باشتباه البقر واختلاطه عليهم، وبينوا أنهم سيهتدون إن شاء الله فأجابهم بأنها بقرة ليست مذللة بالعمل في حرث الأرض وسقيها، وهي سالمة من العيوب لا لون فيها إلا الصفرة، فعندئذ قالوا: الآن جئتنا بالحقيقة الظاهرة فذبحوها بعُسْر وقلة مبادرة وتثبيط لأمر الله. قال ابن عباس " لو ذبحوا أي بقرة أرادوا لأجزائهم، ولكن شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم"[(١)].

لماذا الأمر بذبح البقرة تحديداً؟

أشار جمع من المفسرين إلى علة الأمر بذبح البقرة وحكمة ذلك، ومن هؤلاء الإمام الماوردي حيث قال: وإنما أمر - والله أعلم - بذبح البقرة دون غيرها، لأنها من جنس ما عبدوه من العجل، ليهون عندهم ما كانوا يرونه من تعظيمه، وليعلم بإجابتهم زوال ما كان في نفوسهم من عبادته"[(٢)].

---

(١) رواه الطبري ٢/ ٩٨ وابن أبي حاتم ١/ ٢١٥، قال ابن كثير: إسناده صحيح، وقد رواه غير واحد عن ابن عباس. وكذا قال عبيدة، والسدي، ومجاهد، وعكرمة، وأبو العالية وغير واحد. تفسير القرآن العظيم ١/ ٢٩٨.

(٢) النكت والعيون للماوردي ١/ ١٣٧.

وقريب من هذا ما ذكره أبو حيان بقوله :" وإنما اختص البقر من سائر الحيوانات لأنهم كانوا يعظمون البقر ويعبدونها من دون الله، فاختبروا بذلك، إذ هذا من الابتلاء العظيم، وهو أن يؤمر الإنسان بقتل من يحبه ويعظمه"[١]. وهذا ما استظهره ابن القيم حيث قال:" الظاهر: أن هذه القصة كانت بعد قصة العجل؛ ففي الأمر بذبح البقرة تنبيه على أن هذا النوع من الحيوان الذي لا يمتنع من الذبح والحرث والسقي لا يصلح أن يكون إلهاً معبوداً من دون الله تعالى وأنه إنما يصلح للذبح والحرث والسقي والعمل"[٢].

وبذلك نفهم أن المعنَى المقصود من ذبح البقرة أن تُذبَح قداستُها من نفوسهم، وأن يعلموا أنها حيوان لا ينفع ولا يضر، وأنها لا تستحق أن تُعبَد وإنما تستحق أن تُذبَح وتؤكل، ونفهم أيضاً أن قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ بسبب صعوبة ذلك على نفوسهم لا بسبب غلاء ثمنها كما قال بعض المفسرين، والله أعلم.

وإذا كانوا قد تلكأوا في امتثال الأمر بذبح البقرة وتشددوا في أوصافها حتى ما كادوا ينفذوا ذلك الذبح، فإنهم في الجانب الآخر تجرؤوا على قتل نفس بريئة وكاد حق القتيل أن يضيع لولا أن الوحي نزل ببيان الوسيلة التي يعرفون بها القاتل.

وبيان ذلك أنهم قتلوا شخصاً- وقد أسند القتل للجميع لأنهم أمة واحدة كالشخص الواحد- فلما قتلوه تدافعوا في شأنه ليدرء كل منهم التهمة عن نفسه، فأخرج الله ما كان مخبوءاً من أمرهم فأمرهم أن يضربوا القتيل ببعض أجزاء البقرة فأحياه الله، قال عكرمة: " لما ضُرب بها عاش، وقال: قتلني فلان. ثم عاد إلى حاله"[٣]. ومِثل هذا دليلٌ على إحياء الموتى يوم القيامة، وهو آية من آيات الله الظاهرة الدالة على قدرته وعلى صدق نبيه ﷺ لكي يتأتى منهم الفقه والتزام الأوامر.

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان ١/ ٤١٤.

(٢) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان لابن القيم ٢/ ٣١٧.

(٣) رواه الطبري في جامع البيان ٢/ ٢٣٠ برقم١٣١١، وصحح إسناده الشيخ شاكر.

وفي هذه الآية الكريمة دلالة على قدرته تعالى على البعث، رآها هؤلاء القوم المنكرون بأعينهم؛ فإنهم -بطبيعتهم- لا يعترفون إلا بالمادة ولا تخضع عقولهم إلا لما تراه عيونهم، فأراهم الله آية واضحة تدل على إحياء الموتى.

ومع كل هذه الآيات الباهرات من انفجار الماء ونتق الجبل وإحياء الموتى فإنهم ما ازدادوا إلا قسوة وعناداً، وقوله: ﴿ مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ ﴾ يشير إلى بداية القسوة، لكن لم يحدد لها نهاية، فكأنها مستمرة لا حد لنهايتها، فصارت قلوبهم كالحجارة في صلابتها بل هي أشد من الحجارة؛ لأن الحجارة قد يتفجر منها الأنهار، ومنها ما يتشقق فيخرج منه ماء يسير، ومنها ما يسقط من أعالي الجبال تصدعاً وتخشعاً، أما هؤلاء فلا يأتي منهم خير ولن يذهب ما عملوه بلا حساب، فالله مطلع عليهم ويجازيهم عليه.

وكانت هذه الآية بمثابة الخاتمة والنتيجة الحتمية لكل ما اقترفته أيديهم، فإذا ما قست قلوبهم فلا فائدة من توجيه الحديث إليهم، وإنما بقي أن يتوجه الخطاب للمؤمنين كي يأخذوا حذرهم.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أ- القضايا العقدية:

- يبتلي الله عباده بالسراء والضراء؛ فالسراء تُظهر الشاكر وتبين منزلته عند ربه، أما الضراء فإنه يتميز بها من صبر ممن جزع، قال تعالى: ﴿ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴾ [الأنبياء/ ٣٥].

- دل قوله تعالى: ﴿ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ ﴾ على أن الشرك أظلم الظلم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴾ [لقمان/ ١٣].

- دل قوله تعالى: ﴿ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ ﴾ مع قوله: ﴿ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ ﴾ [النساء/ ١٥٣] على أن رؤية الله في الدنيا جهرة غير واقعة، قال

رسول الله ﷺ: (تعلموا أنه لن يرى أحد منكم ربه عز وجل حتى يموت)[(١)]، وقد اتفق جمهور أهل السنة على جواز رؤية الله مناماً؛ قال ابن تيمية :" فالصحابة والتابعون وأئمة المسلمين على أن الله يرى في الآخرة بالأبصار عياناً وأن أحداً لا يراه في الدنيا بعينه؛ لكن يرى في المنام، ويحصل للقلوب - من المكاشفات والمشاهدات - ما يناسب حالها"[(٢)].

- قدرة الله تعالى على البعث بعد الموت؛ فقد أهلك بني إسرائيل بالصعقة، ثم أحياهم بعد موتهم.

- الله تعالى هو الرزاق الذي يرزق عباده من الطيبات، فهو وحده صاحب المنة والفضل، قال تعالى: ﴿ كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللَّهِ ﴾.

- اللجوء إلى الله عند الشدائد، والافتقار إليه، وطلب السقيا منه أمر محمود، قال تعالى: ﴿ ۞ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ ﴾.

- اختلف الناس كثيراً في شان الصابئين، والذي حققه ابن تيمية أنهم ليسوا نوعاً واحداً فقال: "الصابئة نوعان: صابئة حنفاء موحدون وصابئة مشركون؛ فالأولون هم الذين أثنى الله عليهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَـٰرَىٰ وَالصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ فأثنى على من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً من هذه الملل الأربع المؤمنين واليهود والنصارى والصابئين، فهؤلاء كانوا يدينون بالتوراة قبل النسخ و التبديل، و كذلك الذين دانوا بالإنجيل قبل النسخ و التبديل، و الصابئون الذين كانوا قبل هؤلاء كالمتبعين لملة إبراهيم إمام الحنفاء... قبل نزول التوراة والإنجيل.. ثم إن الصابئين ابتدعوا الشرك فصاروا مشركين"[(٣)].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم/ ٢٩٣٠عن بعض أصحاب رسول الله.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢/ ٣٣٦.

(٣) الرد على المنطقيين لابن تيمية ص٢٨٨، وانظر: الملل والنحل للشهرستاني ٢/ ٥.

- دلَّ قوله تعالى: ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾ على نفي الأوصاف السلبية لله تعالى، وهي التي تنفي معنى النقص عنه سبحانه، ومن ذلك أيضا: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ [فصلت/ ٤٦] ونفي هذه الصفات السلبية يثبت لله ضدها الذي يحمل صفة مدح وكمال.

ب- الأحكام الشرعية:

-المباشر ينسب إليه الفعل، فمن أمره ظالم بقتل أحد، فقتله المأمور فهو المحاسب، ودليل ذلك أن الله نسب التعذيب والقتل إلى من يقومون به وهم:(**آل فرعون**) مع أنهم المباشرون لأمر فرعون.

- في قوله: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ ﴾ إباحة للطيب بالمنطوق، وتحريم للخبيث بالمفهوم.

- في قوله: ﴿ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا ﴾ إشارة إلى سجود الشكر عند تجدد نعمة.

- في قوله تعالى ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ دليل على حرمة تبديل النصوص؛ قال ابن العربي في تفسير الآية: "إن الأقوال المنصوص عليها في الشريعة لا يخلو أن يقع التعبد بلفظها، أو يقع التعبد بمعناها؛ فإن كان التعبد وقع بلفظها فلا يجوز تبديلها، وإن وقع التعبد بمعناها جاز تبديلها بما يؤدي ذلك المعنى، ولا يجوز تبديلها بما يخرج عنه، ولكن لا تبديل إلا باجتهاد"[١].

- استسقى موسى لقومه، وسنة الاستقاء في شرعنا صلاة ركعتين، قبلهما خطبة، وقد ورد عن عبد الله بن زيد أن النبي ﷺ خرج إلى المصلى فاستسقى فاستقبل القبلة وقلب ردائه وصلى ركعتين[٢].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٣٥.

(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ٩٦٦، ومسلم في صحيحه برقم/ ٨٩٤.

- في قوله: ﴿ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ دليل على جواز التوسل بدعاء الأحياء. وهذا من جملة شرع ما قبلنا الذي أقره شرعنا، فقد ورد عن أنس قال: "جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: هلكت المواشي وتقطعت السبل. فدعا، فمطرنا من الجمعة إلى الجمعة.."[١].

- في قوله تعالى: ﴿ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ ﴾ دليل على إباحة أكل الطعام المستلذ الطيب، وليس في هذا أي حرج؛ فقد كان النبي ﷺ يحب الطعام الطيب ويأكله، فعن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يحب الحلواء والعسل[٢].

- جواز أن يقال هذا طعام أدنى وهذا طعام خير.

- تحريم التحايل على شرع الله بالحيل، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ ﴾، وقد حذر النبي أمته من سلوك منهج بني إسرائيل فقال: (لا ترتكبوا ما ارتكب اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل)[٣].

- يؤخذ من قوله تعالى ﴿ تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ ﴾ أن الأولى في البقر الذبح لا النحر، قال الشافعي: "وكل ما كان مأكولاً من طائر أو دابة فأن يذبح أحب إلي، وذلك سنته ودلالة الكتاب فيه، والبقر داخلة في ذلك لقوله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ ﴾ وحكايته فقال: ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾ إلا الإبل فقط فإنها تنحر لأن رسول الله ﷺ نحر بدنه"[٤].

- أعظم ما يتقرب به إلى الله الوسط الذي ليس بالكبير ولا بالصغير، وشاهد هذا من كتاب الله قوله تعالى: ﴿ لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌ عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَۖ ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم/ ٩٧٠.

(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ٥١١٥، ومسلم في صحيحه برقم/ ١٤٧٤.

(٣) رواه ابن بطه في كتاب: إبطال الحيل ص٤٧ وقال ابن كثير: هذا إسناد جيد. تفسير القرآن العظيم ١/ ٢٩٣.

(٤) الأم للشافعي ٢/ ٢٣٩. ونحر النبي للبدنة ورد في حديث صلح الحديبية الطويل عند البخاري برقم/ ٢٥٨١.

- يجوز استخدام البقر للحرث والسقي. قال ابن قدامة: "ويجوز كراء الدابة للعمل لأنها منفعة مباحة خلقت الدابة لها فجاز الكراء لها كالركوب، وإن اكترى بقراً للحرث جاز لأن البقر خلقت للحرث"[1].

- استدل جمع من الفقهاء بآيات الأمر بذبح البقرة على جواز السلم في الحيوان[2]؛ لأن الحيوان مضبوط الصفة. وكل ما أمكن ضبط صفته جاز السلم فيه.

- جواز الأمر بالشيء المبهم إذا كان يمكن امتثاله، ومثال ذلك الأمر بضرب القتيل ببعض البقرة دون تحديد، قال تعالى: ﴿ فَقُلْنَا اَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾.

ج - الأخلاق الإسلامية والآداب الشرعية:

- من الأخلاق التي ينبغي أن يحرص عليها المسلم والداعية على وجه الخصوص: التلطف مع الناس، والتحبب إليهم؛ فذلك أدعى أن يقبلوا توجيهه، ويحرصوا على الاستفادة من نصائحه، ونأخذ هذا من خطاب موسى لقومه بلفظ **(يا قوم)**، فهو ينسب نفسه إليهم.

- إذا ورد الناس الماء أو اجتمعوا لأي شأن عام فالأولى والأفضل لهم جميعاً أن يكون بينهم شيء من النظام وحسن الترتيب حتى يسقى الجميع ويقضوا أمرهم بلا اختلاف فيما بينهم، قال تعالى: ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾.

- ترك الاستفصال وكثرة السؤال في الأمور التي تأتي مطلقة حتى لا يؤدي ذلك إلى الإثقال والتشديد.

- الاستهزاء بالناس من الجهالة؛ ولذلك لما قال بنو إسرائيل لموسى ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ رد عليهم قائلاً: ﴿ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾.

- يجب على المرء فعل ما يؤمر به، قال تعالى: ﴿ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴾.

---

(١) المغني لابن قدامة ٥/ ٣٠٣.

(٢) انظر: الحاوي الكبير للماوردي ٥/ ٤٠٠. والسلم ما قدم من الثمن على المبيع.

د- الجوانب التربوية :

- في قوله تعالى على لسان موسى: ﴿ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ ﴾ دليل على أن المربي إذا ذكر الداء فلا يكتفي بتشخيصه، بل يحرص على ذكر الدواء؛ فمن أذنب فإنه ينصح بالتوبة، ومن ظلم ينصح بردِّ المظلمة وهكذا.

- من سنن الله الكونية المعاجلة بالعقوبة في الدنيا؛ وقد تكون العقوبة بالإهلاك كما حدث مع الأمم البائدة، وقد تكون عقوبة جزئية ليتعظ المعذبون ويشكروا نعمة ربهم إذا خفف عنه العذاب وليتضرعوا إليه عند البأساء، قال تعالى ﴿ فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ ﴾.

- في قوله تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ إشارة إلى أن ضرر المعصية راجع إلى صاحبها، فإن الله لن تضره معصية العاصين، ولا تنفعه طاعة الطائعين.

- الأصل أن نعم الله تقابل بالشكر، وشكرها ألا تستعمل في معصية الله، قال تعالى: ﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ قال بعض الحكماء: أقل ما يجب للمنعم بحق نعمته أن لا يتوصل بها إلى معصيته[١].

-لا بد مع الإيمان من العمل؛ قال تعالى: ﴿ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.

- من سنن الله الكونية المساواة وعدم المحاباة؛ فالله لا يجامل أحداً من خلقه وكل الأمم عنده سواء؛ فمن آمن بالله ورسله وعمل الصالح الذي أمره به ربه كان له جزاء الضعف بما عمل سواء كان مؤمناً أو يهودياً أو نصرانياً أو صابئاً..

- عدم الخوف من المستقبل وعدم الحزن على الفائت نتيجة طبيعية للإيمان والعمل الصالح، ويشير هذا إلى أن الحزن لا يتقرب به إلى الله، بل هو من الشيطان؛ قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا

---

(١) أدب الدنيا والدين للماوردي (١/ ٤٣٨).

ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [المجادلة : ١٠].

- من الجوانب المهمة أن يحرص الإنسان على أخذ شرع الله بقوة، قال تعالى: ﴿ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ ﴾ ولا يكتفي بمجرد القراءة، بل لا بد من صدق الإرادة بالعزم، وصدق العمل بالجد وبذل الجهد بلا تراخ أو فتور أو تردد.

- في قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ حكمة بالغة؛ فإن تدافع بني إسرائيل في شأن القتيل لم ينفعهم في كتمانه، بل أخرج الله ما كانوا يكتمون، وكل عاص له من ذلك نصيب، فلا يظنن ظان أن كتمانه لأمر ما سيحجبه عن العيون، كلا فإن الله مخرج ما يكتمون. وفي الحديث الصحيح: (لو أن رجلاً عمل عملاً في صخرة لا باب لها ولا كوة لخرج عمله إلى الناس كائناً ما كان)[1].

- العقوبة من الله لها جانبان: جانب تأثير على إصلاح المفسدين، وجانب هداية وعظة للمؤمنين، قال تعالى:﴿ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾. وقد فقهت السيدة عائشة هذا الأمر فقالت:"إذا استحلوا الزنا، وشربوا الخمور بعد هذا، وضربوا المعازف؛ غار الله في سمائه، فقال للأرض: تزلزلي بهم، فإن تابوا ونزعوا، وإلا؛ هَدَمَها عليهم.

فقال أنس: عقوبة لهم ؟ قالت: رحمة وبركة وموعظة للمؤمنين، ونكالاً وسخطة وعذاباً للكافرين"[2].

- آيات الله الكونية إذا تدبرها الناس فإنها تكون سببا في تعقلهم قال تعالى: ﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾.

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه برقم/ ٧٨٧٧وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي، وأخرجه ابن حبان في صحيحه برقم/ ٥٦٧٨، وأحمد في مسنده ٣/ ٢٨، وأبو يعلى في مسنده برقم/ ١٣٧٨، وحسن إسناده الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٢٢٥.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك برقم/ ٨٥٧٥ وصححه على شرط مسلم، وتعقبه الذهبي.

- إذا لم يستفد الناس من آيات الله المشاهدة فإن قلوبهم تقسو، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ وقست في اللغة غلظت ويبست وعست. وتأويل القسوة في القلب: ذهاب اللين والرحمة والخشوع منه[١].

والقاسية قلوبهم هم أقرب الناس للفتن يتسارعون إليها، قال تعالى: ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحج/ ٥٣] ولو جاءتهم كل آية فإنهم لا يؤمنوا، ﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنعام/ ٤٣].

المناسبة بين المقطع ومحور السورة:

اتصال المقطع بمحور السورة واضح؛ فالحديث عن نعم الله المتوالية على بني إسرائيل ثم بيان موقف الكنود والجحود الذي اعتادوا عليه لهو من أعظم أسباب سلبهم الخلافة والقوامة على العالمين، مما يؤذن بإفساح المجال لقيادة أخرى تصلح ما أفسده هؤلاء.

وفي بداية المقطع تذكير لبني إسرائيل بنعم الله عليهم، وما قابلوا به هذه النعم، ثم انتقل إلى ذكر المخالفات التي قاموا بها مع بيان لبعض العقوبات التي حلت بهم.

وقد سبق أن ذكرنا في مقدمة السورة أن قصة البقرة لها تعلق قوي بمحور السورة العام؛ فهي تكشف كثيراً من طبائع اليهود وأخلاقهم الرديئة وتبين أن سلب القوامة منهم بسبب إفسادهم وسفكهم الدماء وعبادة غير الله[٢].

وقد أشارت الآيات إلى أن الإيمان والعمل الصالح يجعل أصحابه في مأمن من الخوف والحزن، وقد سبق هذا الوعد في نهاية قصة آدم لمن اتبع هدى ربه، وسيأتي لاحقاً جزاء لمن أسلم وجهه لله وهو محسن، ولمن تصدق بلا منٍّ وفي كل وقت، وهذا من حسن الجزاء لمن اتبع

(١) تهذيب اللغة للأزهري ٩/ ١٨٠.

(٢) انظر ص ١٢، ١٣.



المنهج، وقد جاء مجملاً في قصة آدم، ثم جاءت تفاصيل اتباع الهداية في ثنايا السورة لتبين للناس حسن موعود الله لهم إن اتبعوا منهجه.

وقد عدد هذا المقطع من مبررات عزلهم عن القوامة ما يلي: ١- اتخاذ العجل إلهاً من دون الله، ٢-قولهم لموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، ٣-تبديل قول غير الذي قيل لهم عند دخول القرية، ٤-قولهم لموسى لن نصبر على طعام واحد، ٥-ضربت عليهم الذلة لكفرهم بآيات الله، ٦-قتلهم الأنبياء بغير حق، ٧-توليهم بعد أخذ الميثاق منهم ورفع الطور فوقهم، ٨-الاعتداء في السبت، ٩-سوء الأدب مع موسى، ١٠-مماراتهم في تعيين البقرة هربا من التكليف الشرعي، ١١-قسوة القلب بعد رؤية الآيات الدالة على عظمة الخالق[1].

(١) المحاور والمناسبات لسور القرآن الكريم.د مصطفى مسلم ص٦٠ نقلاً عن: المناسبات وأثرها.

المقطع الثاني: مواقف اليهود المعاصرين للنبي ﷺ (٧٥-١٢٣)

﴿ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ
مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ
قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ
أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ
هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟
بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا
ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى
ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ
ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ
وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ
إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ
أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ
فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ
مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ
ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا
تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ
﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ
بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ
﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ

مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟
بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ
بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ
مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا
وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾
۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ
أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا
وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن
كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟
ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾
وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ
بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ
نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا
لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ
ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ
بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ
مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟
ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ
ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ
فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ
أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى
ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ

ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَمَثُوبَةٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ خَيۡرٞۖ لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا
تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ
بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ۞مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ
بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمۡ تُرِيدُونَ أَن تَسۡـَٔلُواْ رَسُولَكُمۡ
كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ
كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم
مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ
﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا
تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿١١٠﴾ وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ
قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ
فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ
شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ
قَوۡلِهِمۡۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ
أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ لَهُمۡ فِي
ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ
إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿١١٥﴾ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ
لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ
لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ
تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ
وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى

ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

المناسبة بين المقطع والمقطع السابق:

- هذا المقطع يصل اللاحقين بالسابقين، قال الرازي:" اعلم أنه سبحانه لما ذكر قبائح أفعال أسلاف اليهود إلى ههنا، شرح من هنا قبائح أفعال اليهود الذين كانوا في زمن محمد ﷺ"[1].

وفيه تفصيل لبعض الإجمال الوارد في المقطع السابق؛ فقد جاء ذكر العهد هناك مجملاً في قوله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ ﴾ [٦٣]، وجاء هنا تفصيل ذلك العهد والميثاق في الآيات(٨٣-٨٦).

قال سيد قطب:" ولقد سبقت الإشارة إلى الميثاق في معرض تذكير الله لبني إسرائيل بإخلاف موقفهم معه في الدرس الماضي. فهنا شيء من التفصيل لبعض نصوص هذا الميثاق"[2]. وقد جاء التفصيل لفضح علمائهم وتذكير الأميين منهم حتى يفيئوا إلى ربهم.

ثم جاءت الآيات [٨٨-١٠٣] لتتحدث عن موقفهم من ميثاق الله ورسله، وموقفهم من القرآن الذي نزل مصدقاً لما معهم؛ فجاء تفصيل موقفهم من النبي موسى ومن جاء بعده، وموقفهم من نبي الله سليمان، وموقفهم من نبي الله محمد الذي جاءت بشاراته في كتبهم.

ثم انتقل السياق إلى الحديث عن المؤمنين ليحذرهم من التشبه بهم، ويبين لهم حقدهم وحسدهم تجاه المسلمين، ثم ذكرت أموراً يشترك فيها أهل الكتاب مع المشركين كمنع المساجد ونسبة الولد لله وطلب الآيات المستحيلة، وقد سبق ذلك ولحقه بيان ما تشابهت قلوب أهل

---

(١) التفسير الكبير للرازي ٣/ ١٢١.

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب ١/ ٨٧.

الكتاب من زعمهم دخول الجنة وغير ذلك.

ثم يختتم المقطع بتوجيه الخطاب لهم لكنه في هذه المرة خطاب هادئ يستثير فيهم النسب الكريم، والنعم العظيمة، وهذا متصل بما قبله حيث وجه لهم الخطاب مباشرة، ثم أعاده لهم هنا حتى تقوم عليهم الحجة بتنوع أساليب التذكير.

التفسير الإجمالي للمقطع:

يتوجه الخطاب إلى النبي ﷺ والمؤمنين قاطعاً طمعهم في إيمان هؤلاء القوم ومستبعداً حصوله منهم فيخاطبهم: أترجون برغبة وتتعلقون بقوة أن يستجيب لكم هؤلاء والحال أن علماءهم يسمعون كلام الله الذي نزل على نبيه موسى لكنهم يحرفوه ويؤولوه تأويلاً فاسداً رغم فهمهم وضبطهم المعنى، لكنهم عامدون، ويعلمون أنهم على كذب ويعلمون ما أعد الله للكاذبين.

وإن هؤلاء ليلقون المؤمنين بوجه الإيمان فإذا أوى بعضهم إلى بعض وانفرد به قال مستنكراً: أتخبرون المؤمنين بما أعلمكم الله من صحة دينهم لكي يقيموا الحجة عليكم عند ربكم في الآخرة؟ أفلا تتأملون فتعقلون ولا تتكلموا!. أولم يفهم هؤلاء أنهم إن كتموا وصف النبي ﷺ أو أعلموه فإن الله عالم به؟

وبعد أن تحدثت الآيات عن علمائهم تحدثت عن طائفة أخرى وهم الجهال الأميون الذين لا يعلمون من كتابهم إلا تلاوة يتلونها باللسان بلا فقه، أو لا يعلمون إلا أماني باطلة وأكاذيب تلقفوها من أهل الإضلال، وما هم إلا على الظن فكيف يتأتي من هؤلاء إيمان؟

فاليهود المعاصرون للبعثة ينقسمون إلى قسمين: إما عالم سوء يحرف الكلم عن مواضعه، أو جاهل مغرور يتلو كتابه بلا فهم ويعيش على وهم النجاة !

ثم تتوعد الآيات أولئك الذين كتبوا الكتاب المحرف ثم نسبوا هذا التحريف لله لكي يعظموا شأنه في قلوب عوامهم، وإنما فعلوا هذا لكي يأخذوا عرضاً قليلاً من أعراض الدنيا

الزائلة. ثم فصلت الآيات سبب الويل الذي أصابهم بأنه من أمرين: كتابتهم الباطل ومن استمرار تكسبهم به.

والظاهر أن من جملة هذا التحريف ما خدعوا به جهالهم من أنهم لن يدخلوا النار إلا أياماً قلائل تُعدُّ، وهذا من جملة أماني الأميين الكاذبة حيث ادعوا أنهم لن يدخلوا النار في الآخرة إلا أياماً معدودة والتعبير بمعدودة يفيد القلة، لأن القليل يُعدُّ بخلاف الكثير، قالوا: سندخل النار أربعين يوماً بعدد أيام عبادة العجل[1]، أو سبعة أيام على أن الدنيا سبعة آلاف سنة فيكون لكل ألف يوماً.[2] وقد ورد في صحاح الأحاديث أنهم صرحوا بهذا الزعم فعندما سألهم رسول الله ﷺ : من أهل النار؟ قالوا: نكون فيها يسيراً ثم تخلفوننا فيها. فقال النبي ﷺ : اخسئوا والله لا نخلفكم فيها أبداً[3].

وبعد أن ذكرت الآية زعمهم ردته عليهم وأنكرت قولهم ولقنت النبي ﷺ حجته تجاههم بأن يقول لهم توبيخاً وتبكيتا: هل أخذتم من الله وعداً مؤكداً ألا تمسكم النار؟ وعندئذ لن يخلف الله هذا العهد أم أن الأمر لا يعدو إلا أن يكون دعوى بلا برهان وقول على الله بلا علم؟ فهذه قضية غيب لا تُعرف إلا بالوحي فإذا لم يكن معكم وحي فليس إلا الكذب حينئذ.

إن الأمر ليس كما تظنون؛ فهناك سنن كونية تحكم الجميع ومنها سنة العقاب والثواب الأخروي، ومؤداها أن من فعل كبيرة توجب للعذاب واستولت عليه وصارت كالحائط الذي يحيط به من كل الجهات وهو محبوس ومحصور فيه فإنه بهذا الفعل يكون من الملازمين للنار ملازمة دائمة. وبهذا قلب القضية عليهم؛ لأنهم نقضوا العهد وغيروا وبدَّلوا فاستحقوا الخلود في النار.

---

(١) رواه عبد الرزاق في التفسير ١/ ٥١ عن قتادة بسند صحيح.

(٢) رواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس ١/ ١٥٥ برقم/ ٨١٣.

(٣) رواه البخاري في صحيحه برقم / ٢٩٣٣.

أما الصنف الآخر هم المؤمنون المصدقون بما جاء من عند الله وعملوا بالطاعات فهؤلاء هم أهل الجنة الذين لا يتحولون عنها ولا يزولون.

وبعد أن تحدثت الآيات السابقة عن النعم الحسية على بني إسرائيل جاء الحديث عن لون آخر من النعم ألا وهو الحديث عن نعمة التكليف وكيف أنهم ما استجابوا وما انتصحوا، فبينت الآيات أن الله قد أخذ العهد المؤكد على بني إسرائيل وقال لهم وذكرهم بثمانية أشياء[1]:

أولها: أن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا به شيئاً.

وثانيها: أن يحسنوا إلى الوالدين إحساناً بكل أوجهه الممكنة الحسية والمعنوية، قال تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ﴾ [الإسراء:٢٣] ثم انتقل بهم إلى دائرة أوسع وهي ما جاء في الوصية الثالثة: بالإحسان إلى القرابة من جهة الأبوين وهذا الإحسان " كالتابع لحق الوالدين، لأن الإنسان إنما يتصل به أقرباؤه بواسطة اتصالهم بالوالدين"[2].

والوصية الرابعة: الإحسان إلى كل من مات أبوه وهو دون سن البلوغ، وذلك لأن النفس في الغالب لا تميل إلى الإحسان لمثل هذا لعدم ترجِّي نفعٍ من ورائه.

الوصية الخامسة: الإحسان إلى الذين أسكنهم الفقر فلم يجدوا شيئاً.

الوصية السادسة: إذا لم يتيسر الإحسان الفعلي لعجز أو ضعف فلا أقل من الإحسان القولي، بأن يكون القول طيباً ليناً.

أما الوصية السابعة والثامنة: فهما إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وهما دعامة صلاح الإنسان؛

---

(١) والوصية بعبادة الله وحدة في التوراة.سفر التثنية إصحاح ٥ رقم٧، والإحسان للوالدين في رقم ١٦ والنهي عن القتل رقم ١٧.

(٢) التفسير الكبير للرازي ٣/ ١٥٢.

إذ بها إصلاح ما بين العبد وربه وما بينه وبين الناس.

ولكن، هل امتثل بنو إسرائيل لهذه الوصايا الحكيمة؟ لقد أعرض غالب المتقدمين عنها وشاركهم الحكم من أتى بعدهم إلى عهد الإسلام وهم على حال من الإعراض بالقلب بعد الرفض الحسي.

وبعد أن تكلمت الآيات عن المأمورات تكلمت عن المنهيات ومنها أن الله قد أخذ عليهم العهد الموثق ألا يقتلوا إخوانكم وعبر بالنفس عن الأخوة بياناً لأن من قتل أخاه فقد قتل نفسه لشدة الاتصال ووحدة الأمر، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ ﴾ [الحجرات/ ١١] وقوله: ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾ [النور/ ١٢] وجاءت نفس الصيغة في النهي عن إخراج إخوانهم من الديار، وفي ذلك يقول ابن عطية "ولما كانت ملتهم واحدة وأمرهم واحداً وكانوا في الأمم كالشخص الواحد، جعل قتل بعضهم بعضاً ونفي بعضهم بعضاً قتلاً لأنفسهم ونفياً لها"[(١)] ومن ذلك قوله عليه السلام" ذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم"[(٢)].

وقد أقر القوم بهذا الميثاق وشهدوا عليه واستمرت شهادتهم، لكنهم ما استمروا على الالتزام فخاطبهم الله: ثم أنتم يا هؤلاء المعاصرون تفعلون هذه الأفعال المنهية فتقتلون إخوانكم وتجلوهم من ديارهم على وجه من العلو والمعاونة مع المعتدين بالإثم والاعتداء بغير حق. فإن أسرتموهم في القتال فاديتموهم.

قال المفسرون: "كانت قريظة حلفاء الأوس والنضير حلفاء الخزرج، وكان بين الأوس والخزرج حروب، فكانت بنو النضير تقاتل مع حلفائهم وبنو قريظة تقاتل مع حلفائهم فإذا غلب أحد الفريقين أخرجوهم من ديارهم وخربوها، وكان إذا أسر رجل من الفريقين جمعوا له مالاً يفدونه به فعيرتهم العرب وقالوا: إنا نستحي أن نذل حلفاءنا[(٣)].

---

(١) المحرر الوجيز لابن عطية ١/ ١٧٣.

(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ٣١٧٩ ومسلم في صحيحه برقم/ ٣٣٢٧.

(٣) الكشاف للزمخشري ١/ ١٨٨.

وإنه لتناقض عجيب أن يعملوا بأمر واحد من الأوامر وهو فداء الأسرى ويكفروا باثنين منها وهما تحريم القتل والإخراج من الديار فمثل هذا عبودية بالهوى، وإيمان ببعض الكتاب وكفر ببعضه، وإن عقاب أصحابها أن يتعرضوا في الدنيا للذل والهوان ويذوقوا في الآخرة أشد العذاب لأن الله محيط بعملهم ويراقبهم ولا يغفل عنهم.

ثم أكد الله ذلك الوعيد وبيّن سبب استحقاقهم له بأنهم اختاروا الدنيا مع خساستها على الآخرة مع نفاستها فاشتروا القريب وزهدوا في الآجل، ومثل هؤلاء لا يهوَّن عليهم العذاب في وقته ولا في قوته ولا يمنع أحد عنهم عقاب الله بشفاعة أو نصرة.

وليست مصيبة هؤلاء القوم في قلة الإنذار؛ كلا فقد أرسل الله لهم موسى عليه السلام بالتوراة، ثم أتبعه برسل كثيرين على شريعة موسى، ومن هؤلاء عيسى بن مريم الذي جاءهم بآيات ومعجزات واضحات منها قوله: ﴿ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [آل عمران/ ٤٩] وقد أيده الله عز وجل وقواه بالروح المقدس المطهر - وهو جبريل على الراجح - الذي يقدس النفوس ويزكيها ويقويه على عدوه، فماذا فعل القوم مع كل هؤلاء؟

لقد أنكرت الآيات عليهم اتباعهم الهوى مع أنبيائهم وسلوكهم طريق الكبر والعلو فلم يخل حالهم معهم من أمرين: إما أن يكذبوا بما جاؤوا به أو يقتلوهم كما فعلوا مع يحيى عليه السلام.

وقد أجملت هذه الآية كل مساوئهم وانحرافهم منذ بداية عهد موسى معهم إلى أن جاءهم عيسى بن مريم مروراً بتاريخ الأنبياء الطويل؛ وفي الصحيح من حديث أبي هريرة مرفوعاً: (كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي خَلَفه نبي)[1].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ٣٢٦٨، ومسلم في صحيحه برقم/ ١٨٤٢.

وقد حاولوا أن يعتذروا عن عدم إيمانهم بأنهم ذوي قلوب عليها غلاف يمنع من وصول الحق وهذا عذر باطل، لأن قلوبهم لم تكن كذلك لفطرةٍ فُطرت عليها إنما أصابهم الطرد والإبعاد عن رحمة الله بسبب كفرهم فلم يؤمن منهم إلا قليل، ولم يؤمنوا إلا بقليل من التكاليف، قال تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ ﴾ [النساء/ ١٥٥].

وكان موقفهم من الكتب السماوية السابقة تمهيداً لموقفهم من القرآن؛ فهم ما آمنوا بكتبهم إلا قليلاً، فلما جاءهم القرآن الذي يتفق مع كتبهم في العقائد وأصول الأخلاق والتشريع ويصدق ما جاء فيها من البشارة بنبي الله محمد ﷺ وكانوا ينتظرون مبعث نبي بكتاب عندهم أماراته ويستنصرون به على العرب الكافرين وعندما جاءهم النبي بما يعرفون ويوقنون كفروا فاستحقوا اللعن بسبب كفرهم.

وفي سبب نزولها يقول ابن عباس: "إن اليهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء: يا معشر يهود اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ ونحن أهل شرك وتخبروننا بأنه مبعوث، وتصفونه لنا بصفته، فقال سلام بن مشكم: ما جاءنا بشيء نعرفه وما هو بالذي كنا نذكر لكم! فأنزل الله في ذلك من قولهم: (ولما جاءهم...)"[1].

وهذا الموقف يكشف تناقضهم واتباعهم الهوى؛ فإذا كانوا قد استفتحوا به فكيف ينكرون نبوته؟ لقد كانوا يستفتحون به ولم يروه فالأولى أن يؤمنوا به بعد أن صار المعلوم واقعاً حياً أمامهم.

---

(١) رواه ابن إسحق في السيرة ١/ ٥٤٦ وعنه الطبري في جامع البيان ٢/ ٢٣٣ وانظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ٣٢٦.

ثم تذكر الآيات سبب كفرهم وتذمهم وتوبخهم على ما اختاروا لأنفسهم من الكفر على الإيمان، فقد باعوا أنفسهم، وياله من بيع لا قيمة له، وقد يكون اشتروا بمعنى الشراء، يقول الرازي:" ولما كان الغرض بالبيع والشراء هو إبدال ملك بملك صلح أن يوصف كل واحد منهما بأنه بائع ومشترٍ لوقوع هذا المعنى من كل واحد منهما"[١].

وكان سبب غبنهم هذا بغيهم وعدوانهم وحسدهم أن ينزل فضل الله على الأميين، فاستحقوا أن يعودوا بغضب مضاعف بسبب كفرهم أولاً بنبيهم وكفرهم ثانياً بنبي الإنسانية محمد ﷺ وإن لهم عند الله عقوبة ذات إهانة وإذلال.

ثم ذكرت الآيات شبهة أخرى لهم في عدم الإيمان وأبطلتها، ألا وهي أنهم إذا دعوا إلى الإيمان بالقرآن قالوا إرضاءً لأنفسهم: إنما نؤمن بالتوراة المنزلة علينا، ونكفر بما سواها وما عداها وهو القرآن الحق الذي يصدق ما معهم من الحق فكلاهما من عند الله، وإذا كان الأمر كذلك فلم تقتلون الأنبياء الذين جاؤوكم بتصديق التوراة التي معكم؟ وهذا معناه أنكم كافرون بالقرآن وبالتوراة معاً؛ لأن الذي يكفر بالحق دل على أن إيمانه الأول لم يكن حقاً.

وتمضي الآيات لتفضح هذه الدعوى وتفندها؛ فتاريخهم يقول بخلاف ذلك، إن التوراة التي تزعمون أنكم آمنتم بها قد جاءكم موسى بها وبغيرها من الآيات فلم تزدكم إلا كفراً؛ فقد اتخذتم من بعد مجيء الآيات البينات العجل إلهاً وأنتم في ذلك معتدون، قال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [الأعراف:١٤٨] بل إنهم جعلوا أن الأصل عبادة العجل وأنه كان الإله لكن موسى نسي، قال البخاري: يقولون: أخطأ الربُّ[٢].

---

(١) مفاتيح الغيب للرازي ٣/ ١٦٧.

(٢) صحيح البخاري كتاب التفسير، تفسير سورة طه.

ويأتي نفس المعنى بصيغة أخرى ليذكرهم بالعهد الذي أخذ عليهم وبموقفهم منه، وبجبل الطور الذي رفع عليهم إرهاباً وتهديداً فرأوه كأنه ظلة فأمر أن يهتموا ويجدوا وينشطوا في تلقي أوامر الله وأن يسمعوا سماع قبول لكنهم قالوا بأفواههم سمعنا وعصوا بأفعالهم، وامتزج في قلوبهم وسرى حب العجل الذهبي الذي صنعوه ليعبدوه وهنا يلقن الله النبي الحجة عليهم : إن كنتم صادقين في إيمانكم بما أُنزل عليكم فأين هذا الإيمان عندما عبدتم العجل؟ هل أمركم إيمانكم بالشرك؟ بئس الإيمان إيمان يأمر أصحابه بالوثنية وقتل الأنبياء!

ولأن أثر الإيمان الحقيقي لم يظهر في الدنيا، فإنه أيضاً لن تظهر ثمرته في الآخرة والدليل على ذلك أن النبي ﷺ يتحداكم إن كان لإيمانكم ثمرة أخروية وترون أنه سيهبكم الثواب والنعيم الخالص من دون الناس فاطلبوا حصول ومجيء الموت لكم إن كنتم صادقين في دعواكم حتى تنعموا بما تظنون؟ لأن الحائل بينكم وبين النعيم بزعمكم هو الموت فاطلبوه.

وهذا تحد قرآني لهم ومعجزة نبوية؛ فلم يتمنوا؛ وقد ورد عن عبد الله بن عباس قوله: "لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار"[1] ولن يتمنوا؛ وذلك لأنهم يعرفون جيداً أنهم عصاة فسقة ارتكبت أيديهم القتل والتحريف وغيره والله تعالى عالم بما صنعوا.

وإن حالهم في حب الدنيا لعجيب؛ فهم أشد الناس طمعاً في الحياة بأي كيفية كانت هذه الحياة، وجاءت حياة منكرة لإفادة التحقير، يقول سيد قطب " أية حياة، لا يهم أن تكون حياة كريمة ولا حياة مميزة على الإطلاق! حياة فقط حياة بهذا التنكير والتحقير... حياة والسلام، إنها يهود، في ماضيها وحاضرها ومستقبلها سواء"[2].

---

(١) رواه أحمد في مسنده١/ ٢٤٨وأبو يعلى في مسنده برقم / ٢٦٠٤،والنسائي في السنن الكبرى التفسير برقم / ١١٠٦١ وهو صحيح. انظر: مجمع الزوائد٨/ ٢٨٨.

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب ١/ ٩٢.

ومن العجيب أن اليهود أحرص على الحياة من المشركين الذين لا يؤمنون بالبعث ولا بالجنة ولا بالنار، فدلَّ ذلك على أنهم يعرفون حقيقة مصيرهم في الآخرة جيداً، ولذلك: فإنه غاية أمانيهم أن يزاد في عمرهم إلى ألف سنة، ولن يفيده تعميره شيئاً في النجاة من العذاب بل سيكون زيادة في تعذيبه وقد سئل النبي أي الناس شر؟ فقال: (من طال عمره وساء عمله)[1].

ثم تختتم الآية بتهديدهم بأن الله عالم بكل ما يفعلون.

وبعد أن بينت الآيات السابقة عداواتهم لصفوة البشر من الأنبياء ذكرت عداوتهم لصفوة الملائكة وهو جبريل، وفي ذكر هذه العداوة بعد بيان استحقاقهم للعذاب ذكر سبب من أسباب عذابهم.

وفي سبب نزولها ورد أن اليهود قالوا للنبي ﷺ : إنه ليس نبي من الأنبياء إلا يأتيه ملك من الملائكة من عند ربه بالرسالة والوحي، فمن صاحبك حتى نتابعك؟ قال: جبريل، قالوا: ذلك الذي ينزل بالحرب والقتال، ذاك عدونا، لو قلت: ميكائيل الذي ينزل بالقطر والرحمة تابعناك، فأنزل الله الآيتين[2].

وهذا إجماع من المفسرين على أن الآية نزلت جواباً لليهود، ونقل هذا الإجماع الطبري في تفسيره[3].

والآية تبين أن من اتخذ جبريل عدواً فإنه يعادي الوحي، لأنه لا سبب لعداوته فالظاهر أنهم يعادونه من أجل القرآن الذي نزل على قلبك وهو لا يستوجب عداوتهم لأنه مصدق لما جاء في الكتب السابقة، وهداية من الضلال، وبشارة للمؤمنين، فكيف يعادى؟!

(١) رواه الحاكم في المستدرك برقم/ ١٢٥٦،والترمذي في سننه برقم/ ٢٣٣٠ وأحمد في مسنده ٥/ ٤٧،عن أبي بكرة، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد١٠/ ٢٠٣: وإسناده جيد.

(٢) رواه أحمد ١/ ٢٧٨ والنسائي في الكبرى ٥/ ٣٣٧ قال الهيثمي في المجمع ٨/ ٤٣٦: رجاله ثقات.

(٣) جامع البيان للطبري ٢/ ٣٩٤.



إن الحكم القاطع أن من عادى الله بالكفر بما أنزل، وعادى الملائكة بكراهيتهم، وعادى الرسل بتكذيب وقتلهم، وعادى جبريل وميكائيل الذي يدعون محبته، من عادى كل هؤلاء فإن الله يعادي من عاداهم لأنهم كافرون.

وبعد أن خوفتهم الآيات من معاداة القرآن ومن نزل به، عادت وعنَّفتهم على نبذ العهد، ذلك الخلق السيئ الذي دفعهم لرفض التوراة أولاً والقرآن ثانياً، فخاطب الله نبيه مبيِّناً أن هذه الآيات التي نزلت عليك لا تحتاج إلى دليل صدق؛ فهي بينة واضحة لا يكفر بها إلا المعاند الخارج عن طاعة الله. فلا تقنطن مما ترى من جحودهم فذلك دأبهم: نبذ العهد ونبذ الإيمان فهم كفروا بالآيات، وكلما عاهدوا الله أو رسله عهداً نقضه فريق منهم، ولا يظنن أحد أن هؤلاء الناقضين قلة، بل نقضه أكثرهم ولم يؤمنوا به، وكذلك نقضوا ونبذوا ما عرفوا لَمَّا جاءهم النبي محمد ﷺ مرسلاً من عند ربه، بيده ما يصدق كتبهم، نبذ علماؤهم القرآن نبذاً حتى كأنهم لن يلقونه وتركوه كأنهم لا يعلمون أنه كتاب الله.

وعندما تركوا كتاب الله استبدلوا به الباطل، وعندما لم يشغلوا أنفسهم بالحق شغلتهم بالسحر فاتبعوا السحر، واتبعوا ما كانت تكْذِب به الشياطين في عهد سليمان وأيام ملكه ونبوته.

وقد كان سليمان بن داود نبياً ملكاً، وهبه الله ملكاً لم ينبغ لأحد من بعده، وسخر له الريح والجن، قال تعالى: ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ ﴾ [ص:٣٦-٣٩] وقال تعالى: ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾ [سبأ: ١٢، ١٣] وقد كذب اليهود على نبي الله سليمان في نسبتهم السحر له، وقد نسبوا إليه السحر تزييناً لما يفعلون هم، لكن الله برأه من السحر،

ووصفهم مع شياطينهم بالكفر لأنهم يعلمونهم السحر.

والسحر في اللغة هو كل شيء خفي سببه، أما في اصطلاح الشرع فهو النفث في العقد، والتأثير من خلاله في أفعال الناس، وغالبه من أمور التخييل والخداع قال تعالى: ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ ﴾ [طه: ٦٦] ومنه حديث سحر النبي ﷺ (**حتى كان يخيل أنه صنع شيئاً ولم يصنعه**)[١] وجزء قليل منه يكون باتصال السحرة ببعض الشياطين.

اتبع اليهود الشياطين في تعلم السحر وزعموا أن سليمان ساحر. وما كان سليمان ساحراً بل إن التوراة نهت عن السحر[٢]، وكانت بابل - وهي من بلاد العراق - موطناً لهؤلاء السحرة، فلما كثروا واختلط على الناس الأمر فلم يفرقوا بين المعجزة والسحر نزل من السماء ملكين هما هاروت وماروت ليعلمان الناس السحر كي يعرفوه فقط، وكانا يحذران من العمل به ويبينان أنهما ابتلاء من الله للناس فلا يكفروا بالعمل بالسحر، ورغم هذا التحذير فإنهم افتتنوا وتعلموا ما يفرقون به بين الزوجين وهذا من أفعال الشيطان ومع هذا فإنهم جميعاً لا يملكون إلحاق الأذى والضرر بأحد إلا بإذن الله الكوني بإلحاق ضرر بهم لا فائدة منه.

وإنهم لعلى يقين أن من يختار السحر فلا نصيب له في الآخرة من خير. وبئس التجارة تجارة تفقد صاحبها نصيبه عند الله يوم القيامة ولو آمن اليهود إيمانا حقيقياً بكتابهم وبما فيه من إثبات نبوة محمد ﷺ لأثابهم الله مثوبة كبرى جزاء من ربك عطاء بما آمنوا لكنهم لم

(١) رواه البخاري ٢٩٣٩ ومسلم / ٤٠٥٩ بنحوه عن عائشة.

(٢) في سفر التثنية إصحاح ١٨ " إذا دخلت الأرض التي يعطيك الرب إلهك لا تتعلم أن تفعل مثل رجس أولئك الأمم لا يوجد فيك من يزج ابنه أو ابنته إلى النار ولا من يعرف عرافة ولا عائف ولا متفائل ولا ساحر ولا من يرقى رقية ولا من يسأل جان أو تابعه ولا من يستشير الموتى لأن كل من يفعل ذلك مكروه عند الرب " أ.هـ.

يعلموا علماً ينفعهم وينجيهم.

وبعد أن ذكرت الآيات السابقة حجج اليهود في عدم الإيمان بالنبي ﷺوأبطلتها عليهم وبين فسادهم وضلالهم جاءت هذه الآيات خطاباً للمؤمنين وتوجيهاً لهم في أمور مشتركة بينهم وبين اليهود، ولتنهاهم عن التشبه بهم، فعرضت الآيات لما يلي :ـ

١ـ النهي عن التشبه بهم في اللفظ الذي يوهم السوء.

٢ـ بيان حكمة النسخ وفائدته، وإبطال مزاعم اليهود فيه.

٣ـ نهي المؤمنين عن التشبه بهم في السؤال وتبدل الكفر بالإيمان.

٤ـ بيان المانع لأهل الكتاب من الإيمان ومحبتهم لارتداد المؤمنين.

٥ـ إبطال ادعائهم بأن الجنة لهم من دون الناس وبيان السنة الجامعة في ذلك.

٦ـ إبطال ادعاء اليهود والنصارى أن كلاً منهم على ضلال.

٧ـ بيان خطورة ما قام ويقوم به أعداء الإسلام من تخريب المساجد.

٨ بطلان ادعائهم الولد لله تعالى.

٩ـ النهي عن اتباع أهوائهم.

١٠ـ ثم تعود الآيات لتذكرهم بنعم الله تعالى وتبين لهم أن يوم القيامة لن ينفع فيه إلا العمل الصالح.

والآن إلى تفاصيل هذه الآيات:

١ـ خاطبت الآيات الكريمة المؤمنين ونهتهم عن مشابهة اليهود وذلك في قولهم للنبي ﷺ راعنا، وهي عند اليهود لها معنى قبيح من الرعونة أو الشر، فنهاهم القرآن عن النطق بهذه اللفظة وأمرهم بقول لفظة مساوية لها في الحروف لكن معناها مختلف وهي قول: انظرنا أي: أمهلنا، ثم أمرهم بسماع القبول والإجابة، وبين أن الكفار

من اليهود و مشركي العرب وغيرهم لهم عذاب مؤلم. قال تعالى: ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ﴾[النساء: ٤٦] .

وإذا خالفتموهم فلا تبالوا بعدائهم، فإنهم لا يحبون أن يتنزل عليكم أي خير من ربكم حسداً من عند أنفسهم، وما دروا أن الله يخص بالنبوة والرحمة والفضل من يريد من عباده، فهو ذو الفضل العظيم.

٢- ولما تكلم اليهود في أمر النسخ وأنكروا أن يقع النسخ بين الشرائع، بيَّن الله حكمة النسخ فقال: ما ننسخ من آية نقيمها دليلاً على نبوة نبي من الأنبياء أي نزيلها ونترك تأييد نبي آخر بها، أو ننسها الناس لطول العهد بمن جاء بها فإن لنا أن نأتي بخير منها في إثبات النبوة لأن لنا القدرة على كل شيء فنرفعه[1].

والنسخ الإزالة، والمقصود به: رفع حكم شرعي بطريق شرعي لحكمة التدرج، وزيادة الأجر، ثم تخاطب الآية النبي والمراد المؤمنين وتثبت لهم أن الله قادر على كل شيء ومن جملة ذلك النسخ وغيره.

والظاهر أن المقصود بالآية الرد على ما أنكره اليهود من نسخ شريعتهم بشريعة الإسلام، وفي ذلك يقول الطبري: " وهذا الخبر وإن كان من الله عز وجل خطاباً لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم على وجه الخبر عن عظمته، فإنه منه جل ثناؤه تكذيب لليهود الذين أنكروا نسخ أحكام التوراة وجحدوا نبوة عيسى، وأنكروا محمدا ﷺ، لمجيئهما بما جاءا به من عند الله بتغيير ما غير الله من حكم التوراة. فأخبرهم الله أن له ملك السموات والأرض وسلطانها، فإن الخلق أهل مملكته وطاعته، عليهم السمع له والطاعة لأمره ونهيه، وأن له أمرَهم بما شاء ونهيَهم عما شاء، ونسخ ما شاء، وإقرار ما شاء، وإنساء ما

(١) انظر: تفسير القرآن الحكيم لرشيد رضا ١/ ٤١٧.

شاء من أحكامه وأمره ونهيه"[١].

وإذا كان الله تعالى ينسخ الأحكام ويأتي بالشرع فذلك لأنه المالك، قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤] له التصرف في السموات والأرض، وما للعباد من دونه من ولي ولا ناصر ولن يضركم غيره شيئاً.

٣- وللتحذير من وراثة أفعال اليهود توعَّد الله من يسأل إعناتاً وكبراً فقال: أتريدون أن تسألوا نبيكم كما سأل اليهود نبيهم فقالوا: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء:١٥٣] إن من فعل هذا فقد رضي بالكفر بدلاً عن الإيمان وضل السبيل الوسط. ولعل هذا التحذير للمسلمين مقدمة لمسألة القبلة؛ حيث سيكثر فيها الخوض واللجاج، مما يدفع بعض ضعفاء الإيمان إلى الشك وكثرة الأسئلة.

٤- ولم يكتف اليهود بكفرهم بل ودُّوا لو صرفوكم عن دينكم لتعودوا كفاراً، ليس حباً في دينهم، وإنما حسداً ناشئاً عن فساد نفوسهم بعد ما ظهرت علامات الحق بآيات القرآن[٢]، فاتركوا عقابهم واطووا عنهم صفحاً حتى يأتي قدر الله بالنصر أو أمره بالجهاد وإنه على كل شيء قدير.

دعوهم وشأنهم وانصرفوا لتحقيق أدوات النصر من إصلاح الفرد بالصلاة وإصلاح المجتمع بالزكاة، وليس في هذا إصلاح الدنيا فقط بل إصلاح الآخرة؛ فإن كل ما تقدمونه من خير تلقونه يوم القيامة إن الله بصير بما تعملون.

٥- لقد اغتر الفريقان بما هم عليه وظهر حقدهما معاً تجاه الإسلام فقالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا يهودي، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا نصراني. وهذا من جملة

---

(١) جامع البيان للطبري ٢/ ٤٨٨.

(٢) عن ابن عباس قال: كان حيي بن أخطب وأبو ياسر بن أخطب من أشد يهود العرب حسداً إذ خصهم الله برسوله، وكانا جاهدين في رد الناس عن الإسلام بما استطاعا فأنزل الله فيهما (ود كثير) رواه ابن أبي حاتم في التفسير ١/ ٢٠٤ برقم/ ١٠٨١.

أمانيهم الباطلة، ويلقِّن الله نبيه الرد عليهم: هاتوا دليلكم على صحة هذه الدعوى إن كنتم صادقين.

ثم تأتي: (بلى) التي تضرب عما قبلها لتبطل أمانيهم وتذكر قاعدة عامة تشمل جميع الأمم والأجناس وهي: أن من انقاد لله بوجهه وأحسن في عبادته وعمله فله الأجر من الله ولا خوف عليه فيما يستقبل ولا حزن فيما فاته.

٦ـ وقد ادعى كل فريق منهم أن صاحبه ليس على شيء، وأنه أحق برحمة الله منه،[1] مع أن اليهود يتلون التوراة وهي أصل الإنجيل، والنصارى يتلون الإنجيل الذي جاء ليتمم ما جاءت به التوراة، إن تعصبهم هذا وثيق الصلة بتعصب المشركين حيث زعموا أن المسلمين ليسوا على شيء، والكل أهل هوى وسيردون إلى ربهم فيحكم بينهم بالقسط فيما كانوا فيه يختلفون، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ۝٢٦ ﴾ [سبأ: ٢٦]

٧ـ وكيف يدعي هؤلاء أنهم على شيء وهم يصدون عن بيوت الله ويمنعون ذكره في بيته سبحانه؛ فاليهود يصدون المسلمين عن التوجه للكعبة[2]، والنصارى خربوا بيت المقدس، والمشركون صدوا المسلمين عن دخول المسجد الحرام بإيعاز من يهود، لقد

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢/ ٣١٩.

(٢) انظر: التفسير الكبير للرازي ٤/ ١٠، حيث ذكر أقوال المفسرين في المسألة ثم قال:" وعندي فيه وجه خامس وهو أقرب إلى رعاية النظم : وهو أن يقال : أنه لما حولت القبلة إلى الكعبة شق ذلك على اليهود فكانوا يمنعون الناس عن الصلاة عند توجههم إلى الكعبة، ولعلهم سعوا أيضاً في تخريب الكعبة بأن حملوا بعض الكفار على تخريبها، وسعوا أيضاً في تخريب مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم لئلا يصلوا فيه متوجهين إلى القبلة، فعابهم الله بذلك وبين سوء طريقتهم فيه، وهذا التأويل أولى مما قبله، وذلك لأن الله تعالى لم يذكر في الآيات السابقة على هذه الآية إلا قبائح أفعال اليهود والنصارى، وذكر أيضاً بعدها قبائح أفعالهم فكيف يليق بهذه الآية الواحدة أن يكون المراد منها قبائح أفعال المشركين في صدهم الرسول عن المسجد الحرام.

سعى الكل في التخريب المعنوي للمساجد بمنع العبادة فيها والتخريب الحسي بالهدم وما كان لهم أن يدخلوها إلا وهم على أسوأ حال من الذلة والمهانة بخلاف ما يلقونه يوم القيامة من العذاب الأليم.

وإذا لم يتمكن المسلم من الصلاة وقتئذ فلله الأرض كلها، فليصلِّ حيث كان إذ الجهات كلها لله، والله واسع الرحمة على عباده لا يضيق عليهم عليم بما ينفعهم، وعن ابن عمر قال: " كان رسول الله ﷺ يصلي وهو مقبل من مكة إلى المدينة على راحلته حيث كان وجهه، وفيه نزلت ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا ﴾[١]. ففيه تسليه للرسول وأصحابه الذين أخرجوا من مكة وفارقوا مسجدهم ومصلاهم.[٢]

٨ـ وما زالت الآيات تعدد مخازي أهل الكتاب؛ فقد ادعى بعض اليهود أن عزيراً ابن الله، وادعت النصارى أن المسيح ابن الله، أما المشركون فقد زعموا أن الملائكة بنات الله. وقد تقدس الله تعالى وتنزه عن كل هذا.

ثم ذكرت الآيات ثلاثة أدلة على استحالة أن يكون له ولد؛ أولها: أن الكون كله عابد له ولا يمكن للعابد أن يتصل بنسب للمعبود، قال تعالى: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [مريم: ٩٣] وأكد ذلك بأن الكل له عابد طائع؛ فهم مخلوقون ليس فيهم من يصلح أن يكون ولدا أو شريكا.

الثاني: أنه سبحانه انفرد بإنشاء السموات والأرض بلا مثال سابق، مع ما فيهما من الخلق العظيم، فكيف له أن يحتاج بعد ذلك إلى ولد؟ قال تعالى: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ﴾ [الأنعام/ ١٠١].

---

(١) رواه مسلم في صحيحه برقم/ ٧٠٠.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ٣٩٠.

الثالث: أنه إذا أراد أمراً قضاه بالكاف والنون فهو المالك، الغني، القدير، الذي لا يحتاج لأحد فكيف يحتاج إلى ولد؟

٩ـ ومن جملة الشبه التي يحتج بها اليهود وغيرهم طلبهم أن يكلمهم الله مباشرة أو عن طريق ملك كما يكلم النبي أو يأتيهم دليل على صحة نبوة محمد ﷺ، قال ابن عباس: قال رافع بن حريملة لرسول الله: إن كنت رسولاً من الله كما تقول، فقل لله: يكلمنا حتى نسمع كلامه، فأنزل الله في ذلك: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ... ﴾)[1].

ولئن كانت الآية نازلة في اليهود بدلالة السياق وسبب النزول فإن اللفظ يندرج فيه النصارى ومشركوا العرب، وقد ذكر القرآن كثيراً من هذه الأسئلة التي لا تفيد إلا التعنت مثل ما ذكر القرآن على لسان المشركين في قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ ﴾ [الأنعام:١٢٤] وقوله: ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ ﴾ [الإسراء:٩٠] وليسوا ببدع في هذا القول فقد قاله مشركو الأمم السابقة مع أنبيائهم فكأنهم تواصوا جميعاً بهذا الإفك، وما ذاك إلا من تشابه أحوالهم في الطغيان، ولم يكن الله ليترك رسوله بل بين الأدلة وأوضحها لمن أراد الاستنارة بنور الحق، فلا عليك أيها الرسول منهم؛ لا تحزن ولا تغتم بسبب إعراضهم، ولا يضيقن صدرك من مسارعتهم إلى الكفر؛ لقد أرسلك الله بالحق الثابت الذي لا يتأثر بشبهاتهم لكي تبشر به المتقين وتنذر به المعاندين ولن يسألك الله عن تكذيب المكذبين وعناد أصحاب الجحيم.

١٠ـ وقد مر بيان بعض ما تشابهت فيه قلوب اليهود والنصارى، ومن جملة هذه المشابهة أنهم لن يرضوا عن النبي حتى يتبع ما هم عليه من الضلال، فرد الله ضلالهم ولقَّن النبيَّ ﷺ حجته؛ وهي أن الهدى الحق هو الذي نزل به أنبياؤه وليس ما أضافه القوم

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان ٢/ ٥٥١ برقم/ ١٨٦٢، وابن أبي حاتم ١/ ٢١٥ برقم/ ١١٤٠ وسنده حسن.

بأهوائهم، ولئن أردت استرضاءهم واتبعت ضلالهم بعد ما جاءك من اليقين بالوحي المبين فإن الله لن ينصرك، فلن يكون اتباع الهوى موصلاً للهدى. وقد ورد اتباع الهوى بصيغة الشرط ومعلوم أن الشرط لا يقتضي وقوع ذلك من النبي ﷺ.

١١ـ وبعد أن بينت الآيات كثيراً من ضلالهم استدركت وأوضحت أن منهم من يرجى خيره وهم الذين يتلون الكتاب حق تلاوته فيفهمون ويتدبرونه وهؤلاء يدركون الحق[1]، أما من كفر به من المعاندين أو المقلدين فهو التاركون للسعادة والسيادة.

وبعد هذا المقطع الذي أقام القرآن فيه الحجة عليهم يذكرهم المولى بنعمه الدينية والدنيوية عليهم، وإنه فضلهم على عالمي زمانهم وحذرهم من يوم القيامة الذي لا يصلح فيه الاعتذار بصلاح الآباء، فلن تجزي نفس عن نفس شيئاً ولن يؤخذ فدية من الكافرين ولن تنفعهم شفاعة الشافعين بل لن يكون هناك أي رجاء في النصرة من دون الله.

ويلاحظ أن هاتين الآيتين قد جاءتا واسطة عقد بين ما قبلهما وما بعدها؛ فقد سبق قبلهما تعداد كثير من أخطاء بني إسرائيل، وبيان أخطائهم في حق الله تعالى وحق رسله، وموقفهم من النبي الخاتم وأتباعه، كل ذلك عرضه القرآن في أسلوب من الشدة، حتى وصل إلى حدٍّ جردهم من كل حجة ومعذرة.

ثم عاد السياق في هاتين الآيتين لأسلوب اللين، تمهيداً لما سيأتي بعده من قطع الصلة المزعومة بينهم وبين أبي الأنبياء إبراهيم؛ فقد ناسب ذلك أن يمهد بهذا التمهيد الذي يحذرهم من نسيان النعم ويذكرهم بالتفضيل الإلهي لهم، بأسلوب حانٍ رقيق، حتى لا يقنطوا ولا ييأسوا من روح الله، ولكي تستعد نفوسهم لتلقي ما يأتي بعد ذلك، وهذا من أساليب القرآن الحكيمة في سوق النفوس إلى الحق.

---

(١) وقد جاء لفظ (الذين آتيناهم الكتاب) في ثمانية مواضع من كتاب الله كلها في معرض المدح على الراجح، ومواضعها في البقرة (١٢١) و(١٤٦) والأنعام(٢٠) و(٨٠)و(١١٤)والرعد(٣٦)والقصص(٥٢) والعنكبوت(٤٧).

الهدايات المستنبطة من المقطع

أ- القضايا العقدية:

- في قوله تعالى: ﴿ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ إثبات صفة الكلام لله رب العالمين، ومذهب أهل السنة والجماعة في ذلك ما ذكره الإمام الطحاوي حيث قال: "إنه تعالى لم يزَل متكلماً إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء، وهو يتكلم به بصوت يُسْمَع، وأَن نوع الكلام قديم وإِن لم يكن الصوت المُعَيَّن قديمًا، وهذا المأْثور عَن أَئمة الحديث والسنة"[1].

- دل قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ ﴾ على إثبات التحريف الواقع في الكتب السابقة، وهو إما بالتأويل أو بالزيادة والنقص. وقد ذكر العلماء في المسألة أقوالاً؛ فقال بعضهم: حرفت كلها. وهذا الرأي مبالغ فيه. وقيل: وقع التحريف في معظمها، وقيل: وقع في اليسير منها، وقيل: وقع التبديل في المعاني لا في الألفاظ[2]. وأمثلها الثالث والله أعلم.

- صفة النبي محمد ﷺ معلومة في التوراة والإنجيل، وقد أثبت القرآن ذلك في أكثر من آية، قال تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾. وقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ [الأعراف/ ١٥٧].

والناظر في العهدين: القديم والجديد يجد أدلة ذلك واضحة، وسنذكر طرفاً من ذلك؛ ففي التوراة: (قال لي الرب: قد أحسنوا في ما تكلموا. أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به، ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه). سفر التثنية باب (١٨) أرقام ١٧-١٩. والنبي الذي جاء من بني عمومة موسى هو محمد ﷺ، وقول: (أجعل كلامي في فمه) إشارة إلى أن النبي ﷺ لا يقرأ من كتاب، والذي كلم الناس بكل ما أوصى به ربه هو نبينا محمد ﷺ.

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص١٨٠.

(٢) انظر في هذه الأقوال: إغاثة اللهفان لابن القيم ٢/ ٣٥١ وما بعدها، فتح الباري لابن حجر١٣/ ٥٢٤.

ومن البشارات الواردة في العهد الجديد قول عيسى عليه السلام: (لكني أقول لكم الحق: إنه خير لكم أن أنطلق، لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزيّ، ولكن إن ذهبت أرسله إليكم.ومتى جاء ذاك يبكّت العالم على خطية وعلى بر وعلى دينونة، أما على خطية فلأنهم لا يؤمنون بي، وأما على بر فلأني ذاهب إلى أبي ولا ترونني أيضاً، وأما على دينونة فلأن رئيس هذا العالم قد دين.

إن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن، وأما متى جاء ذاك، روح الحق، فهو يرشدكم إلى جميع الحق، لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به،ويخبركم بأمور آتية،ذاك يمجدني لأنه يأخذ مما لي ويخبركم) [إنجيل يوحنا:١٦/ ٧-١٤].

وفي هذا الكلام السابق إشارات عديدة لنبينا محمد ﷺ؛ فهو الذي مجدَّ المسيح، وهو الذي بلغ كل ما أمر به، وهو الذي أخبر بالغيوب المستقبلية.

وقد أوردنا من كل كتاب مثالاً، وإلا فالإشارات بالنبي ناطقة، والبشارات بمقدم الأميّ صادقة، بل إن المعرفة به من أحبارهم واضحة للعيان لا تحتاج إلى بيان[١].

- إثبات معرفة الله لما يسر المرء وما يعلن قال تعالى ﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

- دل قوله تعالى ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ على ذم التقليد واتباع العقائد الموروثة حتى لو كانت خطأ. قال الشيخ محمد عبده:" أما الأماني ففسرت بالقراءات والتلاوات، أي لا يعلمون منه إلا أن يتلوه وإذا ظنوا أنهم على شيء مما دعا إليه فهو عن غير علم بها أودعه وبلا برهان على ما تخيلوه عقيدة وظنوه ديناً"[٢].

---

(١) وللتفصيل انظر: شرح المقاصد في علم الكلام للتفتازاني ٢/ ١٩٨، الإعلام بما في دين النصارى من الأوهام للقرطبي ص٢١٩، هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى لابن القيم ص٥، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية ٣/ ١٤٥، وغيرها، وإظهار الحق للشيخ رحمت الله الهندي فقد ذكر ثماني عشرة بشارة. المجلد، ص١١١٦، وما بعدها.

(٢) رسالة التوحيد لمحمد عبده ص٨٤.

- ترتب الجزاء على العمل إن خيراً وإن شراً، قال تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾.

- دل قوله تعالى: ﴿ فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ﴾ على أن العهد والوعد من الله لا يخلف، قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ [الرعد/ ٣١]. واختلفوا في جواز إخلاف الوعيد بالعذاب؛ فأجازه قوم. قال التفتازاني: "والمذهب جواز الخلف في الوعيد بألا يقع العذاب"[(١)]، ومنعه المعتزلة ولم يجوزوه.

- من أحاطت به خطيئته فإنه كافر يخلد في النار، أما من خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً فحكمه حكم عصاة المسلمين؛ فأمره مفوض إلى ربه إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه، قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [النساء/ ٤٨]. قال البيهقي: "أخبر أن التخليد في النار إنما هو لمن أحاطت به خطيئته، والمؤمن صاحب الكبيرة أو الكبائر لم تحط به خطيئته؛ لأن رأس الخطايا هو الكفر وهو غير موجود منه فصح أنه لا يخلد في النار"[(٢)].

- دل قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ على أن المؤمنين مخلدون في الجنة، وأن هذا الخلود أبدي، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾ ﴾ [البينة/ ٧، ٨].

- ودلت نفس الآية على أن الإيمان يشترط له العمل الصالح.

-ودلت أيضاً على أن العمل لابد أن يكون صالحاً، أي صواباً، قال تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ

---

(١) شرح المقاصد ٢/ ٢٢٧. وانظر في تقرير مذهب المعتزلة: شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ص١٣٥، ١٣٦. ولازم قول المعتزلة نفي الشفاعة وعفو الرحمن عن العصاة يوم القيامة.

(٢) شعب الإيمان للبيهقي ١/ ٢٧٤.

رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف/ ١١٠].

- دل قوله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ على أن جميع الأمم مطلوب منها العبادة الحقة الخالصة لله رب العالمين، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة/ ٥].

-عذاب يوم القيامة بعضه أشد من بعض، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ﴾. وقد ورد في القرآن ﴿ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر/ ٤٦] وفي السنة التخفيف عن أبي طالب، وهذا دليل على أن جهنم دركات.

- أثبتت الآيات نبوة موسى بالنص ونبوة من جاء بعده على وجه الإجمال، قال تعالى : ﴿ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ﴾.

- لكل رسول آية بينة تدعو إلى صدقه؛ قال تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ [الحديد/ ٢٥].

- دل قوله تعالى: ﴿ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ على إبطال ألوهية عيسى عليه السلام، لأن الله أيده بروح القدس، ولو كان إلهاً لما احتاج إلى تأييد من أحد.

- يستفاد من قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ أن سيدنا محمداً ﷺ مبعوث إلى أهل الكتاب، وهذا يشير إلى عموم رسالته، ويكذب ادعاء اليهود أنه نبي العرب فقط.

- الأنبياء معصومون من الكفر، وقد نزه القرآن أنبياء الله عن كل نقيصة، وأعلاها الكفر فقال تعالى: ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ ﴾ وهذا بخلاف ما ادعته عليه اليهود؛ حيث ذكرت التوراة عنه أنه: "كانت له سبع مائة من النساء السيدات، وثلاث مائة من السراري، فأمالت نساؤه قلبه، وكان في زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى،....وعمل سليمان الشر في عيني الرب، ولم يتبع الرب تماماً كداود أبيه،....فغضب الرب على سليمان لأن قلبه مال عن الرب إله إسرائيل الذي تراءى له مرتين و أوصاه في هذا الأمر أن لا يتبع آلهة أخرى

فلم يحفظ ما أوصى به الرب"[١].

- اتفق الفقهاء على أن تعلم تعليم السحر وتعلمه حرام، قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ ﴾ ، قال ابن قدامة : "لا نعلم فيه خلافاً بين أهل العلم"[٢]، وقال جمع من الفقهاء بكفر من تعلم السحر.

-حكم الساحر أنه كافر طالما استعان بالشياطين وتوسل بها على مقصوده، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴾ .

- كل ما يصيب المؤمن من ضرر أو أذى فإنه بإذن الله الكوني القدري، ولن يستطيع ساحر أو غيره أن يؤذى أي أحد إلا بإذن الله تعالى.

ب- الأحكام الشرعية :

- تحريم أن يكتب الإنسان من عند نفسه ثم ينسب ذلك إلى الله، قال تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ .

- تحريم التبديل في الشرع، قال تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ قال القرطبي: "في هذه الآية والتي قبلها التحذير من التبديل والتغيير والزيادة في الشرع، فكل من بدل وغير أو ابتدع في دين الله ما ليس منه ولا يجوز فيه فهو داخل تحت هذا الوعيد الشديد، والعذاب الأليم[٣].

- قال الشافعي: "ولو أوصى أن يعطى الرهبان والشمامسة ثلثه جازت الوصية لأنه قد تجوز الصدقة على هؤلاء، ولو أوصى أن يكتب بثلثه الإنجيل والتوراة لِدَرْس لم تجز الوصية لأن الله عز وجل قد ذكر تبديلهم منها فقال: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ

---

(١) العهد القديم. سفر الملوك الأول. الإصحاح/ ١١ أرقام/ ٣، ٤، ٦، ٩، ١٠.

(٢) المغني لابن قدامة ٩/ ٣٤.

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢/ ٢٢٣.

﴿هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾[١].

- تحريم سفك الدماء، وبيان أنه مما أجمعت الشرائع عليه.

- تحريم إخراج الإنسان من بلاده إلا بمسوغ شرعي.

- قال ابن قدامة: "ويجب فداء أسرى المسلمين إذا أمكن، وبهذا قال عمر بن عبد العزيز ومالك وإسحق"[٢].

- تحريم الإيمان ببعض الكتاب وترك بعضه.

- تجنب الألفاظ المحتملة التي فيها التعريض للتنقيص والغض، ويخرج من هذا فهم القذف بالتعريض، وذلك يوجب الحد عند المالكية خلافاً للأحناف والشافعية؛ فعندهم: التعريض محتمل للقذف وغيره، والحد مما يسقط بالشبهة.

- تحريم مخاطبة رسول الله بالألفاظ الموهمة التي تحتمل الحق والباطل،قال تعالى: ﴿لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا﴾.

- ذهب المالكية وغيرهم إلى الأخذ بقاعدة سد الذرائع؛ وهي المسألة التي ظاهرها الإباحة ويتوصل بها إلى فعل المحظور. ومن جملة أدلتهم على ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا﴾ فقد نهاهم سبحانه أن يقولوا هذه الكلمة مع قصدهم بها الخير لئلا يكون قولهم ذريعة إلى التشبه باليهود في أقوالهم وخطابهم فإنهم كانوا يخاطبون بها النبيﷺ ويقصدون بها السب[٣].

- دل قوله تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم

---

(١) الأم للشافعي ٤/ ٢١٣.

(٢) المغني ٩/ ٢٢٨ وذكر القرطبي الوجوب عند تفسيره لقوله تعالى (وإن يأتوكم أسارى تفادوهم) ٢/ ٢٤٢.

(٣) انظر: الموافقات للشاطبي ٣/ ٣٠٠، وإعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم ٣/ ١٣٧.

مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ على أن كراهة نزول الخير للمؤمنين حرام.

- النسخ ممكن عقلا لا يترتب على وقوعه مستحيل، واقع في الشرع، وقد حدث بين الشرائع، ومن أمثلة ذلك في التوراة أن زواج الأخ بأخته كان جائزاً في زمن آدم عليه السلام، وهذا واضح في قصة قابيل وهابيل. بل في كتبهم أن هذا الزواج كان في عهد إبراهيم عليه السلام حيث قال: (وبالحقيقة أيضاً هي أختي ابنة أبي، غير أنها ليست ابنة أمي. فصارت لي زوجة) "سفر التكوين.الإصحاح العشرون. رقم ١٢". ثم نسخ هذا الحكم بعد ذلك وصار هذا النوع من الزواج محرماً في الشريعة الموسوية؛ ففي سفر التثنية الإصحاح السابع والعشرين رقم ٢٢: (ملعون من يضطجع مع أخته بنت أبيه أو بنت أمه).

ومن أمثلته في الشريعة نفسها ما ورد في إنجيل متى الإصحاح الخامس عشر رقم ٢٤: (لم أرسل إلا إلى خراف بني إسرائيل الضالة) وهذا بأسلوب القصر: النفي والاستثناء، وجاء في إنجيل مرقس الإصحاح السادس عشر رقم ١٥: (اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها). فهذان نصان لا بد أن يكون أحدهما ناسخاً للآخر.

وقد نسخت شريعة الإسلام ما قبلها كما سبق، وحدث النسخ في بعض الأحكام على خلاف بين العلماء المضيقين والموسعين في عدد حدوثه، لكن جمهور الأمة متفقون على وقوع النسخ.

- تحريم سؤال التعنت؛ قال تعالى: ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴾ ١٠٨.

- في قوله تعالى: ﴿ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾ ١٠٩ بيان لحكم منسأ، أي مؤخر إلى غاية وأمد وهو حكم قال المشركين، فالآيات التي تأمر بالعفو والصفح لها غاية وهي قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾ ١٠٩.

- من لم يتبين الحق ويعلمه فهو معذور بجهله، أما إذا علم المرء الحق وتبينه فلا عذر له، قال تعالى في معرض ذم اليهود ﴿ مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ ١٠٩.

- حرمة منع مساجد الله أن يُذكر فيها اسمه. وحرمة السعي في خرابها.
- استدل الحنفية بالآية على كراهة إغلاق باب المسجد لأنه يشبه المنع من الصلاة، وقيل: لا بأس به إذا خيف على متاع المسجد.[1]
- عدم جواز منع النساء من الذهاب للمساجد، قال رسول الله: (**لا تمنعوا إماء الله مساجد الله**)[2]. وقال بعضهم إن النهي للتنزيه لا للتحريم[3].
- استدل بعض الفقهاء بقوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ﴾ على أن الكافر لا يجوز له دخول المسجد بحال. وأجازه أبو حنيفة مطلقاً والشافعي بإذن المسلمين. فيما عدا مكة.

قال الصنعاني في الآية: "ولا يتم بها دليل على تحريم المساجد على المشركين؛ لأنها نزلت في حق من استولى عليها وكانت له الحَكَمة والمنعة كما وقع في سبب نزول الآية الكريمة.. أما دخوله من غير استيلاء ومنع وتخريب فلم تفده الآية الكريمة"[4].

- لا ينبغي أن تستغل المساجد في غير ذكر الله، كالبيع والشراء، وقد كرهه جمهور أهل العلم[5]. قال رسول الله ﷺ (إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد، فقولوا: لا ربح الله تجارتك، وإذا رأيتم من ينشد فيه الضالة فقولوا: لا رد الله عليك)[6].
- إذا صلى إلى جهة مجتهداً معتقداً أن هذه الجهة هي القبلة فإن صلاته تصح. وهو مذهب جماعة

---

(١) البحر الرائق لزين الدين الحنفي ٢/ ٣٦.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم/ ٨٥٨ ومسلم في صحيحه برقم/ ٤٤٢عن عبد الله بن عمر.
(٣) المجموع للنووي ٤/ ١٧١.
(٤) سبل السلام للصنعاني١/ ١٥٤.
(٥) انظر: تبيين الحقائق للزيلعي ١/ ٣٥١ والمجموع للنووي ٢/ ٢٠٠ ونيل الأوطار للشوكاني ٢/ ١٦٧.
(٦) أخرجه ابن خريمة في صحيحه برقم/ ١٣٠٥، والحاكم في المستدرك برقم/ ٢٣٣٩ وصححه على شرط مسلم، والترمذي برقم/ ١٣٢١ وحسنه.

من التابعين وأبي حنيفة وأحمد ومالك، إلا أن مالك قال يعيد استحساناً؛ ودليلهم ما ورد عن عامر بن ربيعة قال: "كنا مع النبي ﷺ في سفر في ليلة مظلمة، فلم ندر أين القبلة، فصلى كل رجل منا على حياله، فلما أصبحنا، ذكرنا ذلك لرسول الله ﷺ فنزل: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾[1].

- يجوز للمصلي أن يصلي النافلة على دابته حيث توجهت به؛ لحديث عبد الله بن عمر: "قال كان رسول الله ﷺ يصلي وهو مقبل من مكة إلى المدينة على راحلته حيث كان وجهه، قال: وفيه نزلت (فأينما تولوا فثم وجه الله)[2].

- استدل الأحناف والشافعية بقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ على أن الكفر كله ملة واحدة؛ فلم يقل مللهم وبذلك يكون قد جعلهم ملة واحدة؛ وعلى هذا فإن اليهودي يرث النصراني والعكس، وكذا المجوسي. لأن الأصل إسلام وكفر ولا ثالث بينهما[3].

ج - الأخلاق الإسلامية والآداب الشرعية:

- الرد على القول الخاطئ يكون بكشف شبهته وبيان فساده، ويكون ذلك بالحجج المنطقية كطريقة السبر والتقسيم في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾. ويكون أيضاً بالحجج التي تفحم الخصم، فلما ادعى اليهود أنهم يؤمنون بما أُنزل عليهم فقط رد الله قولهم وأبطل دعواهم بقوله: ﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه برقم/ ٣٤٥، ٢٩٥٧ وقال: ليس إسناده بذاك، لكن يشهد له حديث جابر في نفس معناه عند الحاكم برقم/ ٧٤٣ فيصير هذا الحديث حسنا. وانظر فتح الباري لابن حجر ٤/ ١٤٣.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه برقم/ ٧٠٠.

(٣) انظر: المبسوط للسرخسي ٣٠/ ٣١، والحاوي الكبير للماوردي ٨/ ٨٠. وخالفهم في ذلك مالك فلم يجز توارثهما. وانظر الاستذكار لابن عبد البر ٥/ ٣٧٠.

- من أخلاق اليهود الرديئة التي سجلتها عليهم الآيات: الكذب والاجتراء على الغيب كما في قولهم: ﴿ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾، والقول على الله بلا علم، قال تعالى: ﴿ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾، فعلى المسلم أن يحذر هذه الأخلاق وإلا كان مشابهاً لليهود في بعض أوصافهم.

- وجوب الإحسان إلى الوالدين وبرهما، والتحذير من عقوقهما، وقد فصلت الآيات أبواب الإحسان إلى الوالدين، ومن ذلك قوله تعالى ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الإسراء/ ٢٣، ٢٤].

- الإحسان إلى ذي القربى أجره مضاعف؛ إذ فيه أجران: أجر صلة الرحم وأجر الإحسان، والإحسان إليهما إحسان للأبوين من جهة. والإحسان إليهم مطلوب حتى لو كانوا يضمرون العداوة، قال رسول الله : ﷺ(أفضل الصدقة على ذي الرحم الكاشح)[1].

- الإحسان إلى اليتامى وكفالتهم أمر مرغوب فيه، وقدمهم الله على المساكين لأنهم لا يستطيعوا رد المعروف فالنفس لا تميل إليهم، وقد اقترن اليتيم والمسكين في الإعطاء في أكثر من آية؛ منها قوله تعالى: ﴿ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [البلد/ ١٤-١٦] والإحسان إليهما سبب لرقة القلب؛ فعن أبي هريرة أن رجلا شكا إلى النبي ﷺ قسوة قلبه فقال: (امسح رأس اليتيم وأطعم المسكين)[2].

- من أخلاق الإسلام: الإحسان إلى المساكين بالقول والفعل، وتفقد أحوالهم ورعايتهم،

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك برقم/ ١٤٧٥ وصححه على شرط مسلم، وابن خريمة في صحيحه برقم / ٢٣٨٦ عن أم كلثوم بنت عقبة. قال الحافظ المنذري: ورجاله رجال الصحيح. الترغيب والترهيب ٢/ ١٨. ومعنى الكاشح: الذي يضمر العداوة. غريب الحديث للخطابي ١/ ٧١٤.

(٢) رواه أحمد في مسنده ٢/ ٣٨٧ عن أبي هريرة.قال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح.مجمع الزوائد ٨/ ١٦٠.

وحبهم، والسعي في قضاء حاجاتهم؛ قال رسول الله ﷺ:(الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله أو القائم الليل والصائم النهار)[١].

- القول الحسن خلق حسن مع الناس عموماً مؤمنهم وكافرهم. قال ابن عباس: "لو قال لي فرعون: بارك الله فيك قلت: وفيك"[٢]. وفي أدب هذه الآية يقول القرطبي: "فينبغي للإنسان أن يكون قوله للناس ليناً ووجهه منبسطاً طلقاً مع البر والفاجر، والسني والمبتدع، من غير مداهنة، ومن غير أن يتكلم معه بكلام يظن أنه يرضي مذهبه، لأن الله تعالى قال لموسى وهارون: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾ [طه/ ٤٤] فالقائل ليس بأفضل من موسى وهارون، والفاجر ليس بأخبث من فرعون، وقد أمرهما الله تعالى باللين معه"[٣].

- من الأخلاق القرآنية العظيمة خلق الإنصاف، وعدم التعميم في إطلاق الأحكام، وبيان ذلك أن القرآن عندما ذم اليهود بنقض العهد لم يعمم الحكم عليهم، وإنما وصم به فريقاً منهم فقال: ﴿ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ﴾، وقال في آية أخرى: ﴿ لَيْسُواْ سَوَآءً ﴾ [آل عمران: ١١٣] وهذا غاية الإنصاف والعدالة.

- خلق الحسد من الأخلاق الذميمة، ومعناه تمني زوال النعمة من الغير، وقد اتصف به اليهود، فحسدوا المسلمين على فضل الله، قال تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [النساء: ٥٤] وقد دفعهم حسدهم إلى محبة إضلال المسلمين.

-حسد اليهود المسلمين فأمرهم الله أن يعفوا ويصفحوا، وهذا خلق إسلامي طيب مع الحاسد وغيره، وقد حسد يوسفَ أخوتُه فعفا عنهم، وحسد قابيل أخاه هابيل فلم يؤذه، فالأولى للمحسود أن يعفو ويصفح، ويستعين بالله على هؤلاء حتى يكفهم عن أذاه.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم/ ٥٠٣٨ ومسلم في صحيحه برقم/ ٢٩٨٢ بنحوه عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير برقم/ ١٠٦٠٩ وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح. مجمع الزوائد ٨/ ١٨٢.

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢/ ٢٣٣.

- من الآداب الإسلامية مطالبة الخصم بالحجة والبرهان، وعدم الحكم قبل معرفة حجة الخصم، قال تعالى: ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة:١١١] و[النمل: ٦٤]، وقال: ﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

- صاحب اليقين الصادق هو الذي ينتفع بالقرآن حقاً، قال تعالى ﴿ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾، واليقين هو حياة القلب وقوته، وقد أثنى الله على أهله في أول السورة، وإذا كانت آيات الله المسطورة لا ينتفع بها إلا الموقنون فكذلك آياته المنظورة في الكون؛ قال تعالى ﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [الجاثية: ٤] أما ضعيف اليقين فإن الآيات القرآنية والكونية لن تزيده إلا ضلالاً على ضلاله.

- تلاوة القرآن حق التلاوة أمر ديني. وأصل الكلمة في اللغة تعني الاتباع: قال ابن منظور: وتلا إذا اتبع فهو تال أي تابع[1]. فالمقصود من التلاوة الجانب اللفظي، والأشرف منه والأعظم جانب الاتباع والعمل، وبهذا فسر السلف الآية؛ قال الطبري: "والصواب من القول في تأويل ذلك أنه بمعنى: يتبعونه حق اتباعه، من قول القائل: ما زلت أتلو أثره، إذا اتبع أثره؛ لإجماع الحجة من أهل التأويل على أن ذلك تأويله"[2]. وعلى هذا فللسان حظ من التلاوة بالنطق، وكذا العقل بالفهم والقلب بالاتعاظ والتدبر والجوارح بالعمل، والله الموفق.

د- الجوانب التربوية:

- ثبت من كلام الله أن بني إسرائيل حرفوا كتابهم الذي نزل عليهم، وهذا يستلزم من المسلمين أن يكونوا حذرين فيما يأخذونه منهم، وقد أضير العقل المسلم بسبب كثرة الإسرائيليات التي تسللت إلى بعض كتب الأقدمين، وغالبها مما لا فائدة منه، وقد كان الصحابة الكرام حريصين على نقاء منهجهم التربوي فلم يَرِدوا هذه الكتب، ويشهد لذلك ما ورد عن

(١) لسان العرب مادة (تلا).

(٢) جامع البيان للطبري ٢/ ٥٦٩. قال الماوردي: وهذا قول الجمهور. النكت والعيون.

عبدالله بن عباس رضي الله عنهما حيث قال: "يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذي أنزل على نبيه ﷺ أحدث الأخبار بالله تقرؤونه لم يشب، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدلوا ما كتب الله وغيروا بأيديهم الكتاب فقالوا ﴿ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم! ولا والله ما رأينا منهم رجلا قط يسألكم عن الذي أنزل عليكم"[1].

- القراءة بلا فهم لا فائدة منها، وقد ذم الله أقواما من أهل الكتاب ووصفهم بأنهم أميون فقال: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ ﴾، أي تلاوة. وهذا أحد أوجه تفسير لفظة الأماني. ومثل هذه القراءة لا تفيد صاحبها شيئاً؛ لأنه لم يفقه ما قرأ، وإذا كان الله قد ذم الأولين ففي هذا تحذير للآخرين، عن سعيد بنُ جبير، قال: "من قرأ القرآنَ ثم لم يُفسِّره، كان كالأعمى"[2].

- من الأساليب التربوية تأكيد الشيء بما هو معلوم، قال تعالى: ﴿ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ﴾.

- كل ثمن يأخذه الإنسان في الدنيا نتيجة التحريف والتبديل فهو قليل لا قيمة له بجوار الآخرة ونعيمها.

- انحراف العالم أشد من انحراف غيره، لأنه فعل ذلك عن عمد؛ فهو قد عرف وأنكر، قال الجصاص: " وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ يدل على أَن العَالِم بالحقِّ المعَاند فيه أَبعد من الرّشد وأَقرب إِلى اليأس من الصلاح من الجاهل؛ لأن قوله تعالى: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ ﴾ يفيد زوال الطَّمع في رشدهم لمكابرتهم الحق بعد العلم به"[3].

- الاقتران بين الترغيب والترهيب، وذكر المؤمنين بعد الكافرين منهج تربوي قرآني. فهو يُعرِّف

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم/ ٢٥٣٩. ومعنى لم يشب أي لم يخلط؛ لأنه لم يتطرق إليه تحريف ولا تبديل بخلاف التوراة. عمدة القاري للعيني ٢٥/ ٧٥.

(٢) أخرجه عنه الطبري في جامع البيان ١/ ٨١ برقم/ ٨٧ وصحح الشيخ شاكر إسناده.

(٣) أحكام القرآن للجصاص ١/ ٤٦. ونقله عنه الرازي في التفسير الكبير ٣/ ١٢٥.

القارئ حال الفريقين ومآلهم، ومن فوائده أنه يجعل المؤمن يتقلب بين الخوف والرجاء، وهذه قاعدة تربوية قرآنية؛ قال الشاطبي: "إذا ورد في القرآن الترغيب قارنه الترهيب في لواحقه أو سوابقه أو قرائنه وبالعكس، وكذلك الترجية مع التخويف وما يرجع إلى هذا المعنى مثله. ومنه ذكر أهل الجنة يقارنه ذكر أهل النار وبالعكس؛ لأن في ذكر أهل الجنة بأعمالهم ترجية وفي ذكر أهل النار بأعمالهم تخويفاً، فهو راجع إلى الترجية والتخويف"[(١)].

- التخويف من اختيار الدنيا على الآخرة، واستبدال الآخرة بالدنيا؛ فمن باع دينه بعرض من دنياه فقد عرضَّ نفسه للفتن، وأتى باباً من أبواب كبائر الذنوب.

- ما يصيب الإنسان من المرض المعنوي في قلبه إنما هو أثر من آثار ذنبه، قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ ﴾ وقال رسول الله ﷺ: (إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه. فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه، وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه فذلكم الران الذي ذكر الله تعالى: ﴿ كَلَّاۖ بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[المطففين: ١٤])[(٢)].

- العناد يورث الكفر؛ فإذا أنكر العالم ما يعلم وجحده أداه ذلك إلى الكفر، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ﴾ وليس هذا بأول مخارق بني إسرائيل؛ فقد فعلوا ذلك مع نبيهم موسى، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾ [الصف: ٥] وفي حق عيسى قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الصف: ٦].

- التعصب بالباطل من سمات اليهود، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾. وكذلك أيضاً عدم الاستجابة للبينات، فعندما تأتيهم البينات على

---

(١) الموافقات للشاطبي ٣/ ٣٥٨. وقد ذكر بعدها أمثلة تطبيقية للقرآن المدني من سورة البقرة وللمكي من سورة الأنعام.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك برقم/ ٣٩٠٨ وصححه على شرطهما، والترمذي في سننه برقم/ ٣٣٣٤ وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه برقم/ ٤٢٤٤.

الحق يتخذوا العجل إلها!

- إذا أعرض الإنسان عن الحق دخل في قلبه الباطل، قال تعالى: ﴿ وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ فسبب محبتهم لعبادة العجل أن نفوسهم فارغة عن الحق، وقديما قيل: النفس إن لم تشغلها بالحق شغلتك عن الحق[1].

-أعلى درجات السمع: القبول والاستجابة لما يُسمَع، وأسوأ مراتب السمع: السمع والعصيان. وقد وردا معا في قوله تعالى: ﴿ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾.

- ذم القرآن حرص اليهود على الحياة الذليلة؛ قال تعالى: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ﴾ والحياة إن لم تكن لهدف وقيمة فلا خير فيها ولا فائدة من عمر يمرُّ سبهللا[2].

- دل قوله تعالى: ﴿ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ﴾ على أن التعمير "طول العمر" لا يفيد صاحبه شيئا إذا لم يصحبه تقوى وإيمان، فقد سئل رسول الله ﷺ: أي الناس شر؟ فقال: من طال عمره وساء عمله[3].

- من أساليب القرآن في مواجهة المعاندين، أسلوب التحدي، وقد تحدى القرآن المشركين أن يأتوا بسورة من مثله وبيَّن عجزهم عن ذلك بقوله: ﴿ وَلَن تَفْعَلُواْ ﴾ ،وتحدى اليهود في أكثر من موطن؛ منها قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ وبيَّن عجزهم في قوله: ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا ﴾ .

- يبين الله تعالى للمؤمنين في كثير من الآيات أن الكافرين ليسوا فقط أعداء للمؤمنين، وإنما هم

(١) وتنسب هذه المقولة إلى الحلاج: كما في تاريخ بغداد ٨/ ١١٤، وتاريخ الإسلام للذهبي ٢٣/ ٤٧.

(٢) أي فارغاً لا في عمل دنيا ولا آخرة. تاج العروس للزبيدي ٢٩/ ١٧٤.

(٣) رواه الحاكم في المستدرك برقم/ ١٢٥٦ والبيهقي في سننه الكبرى برقم/ ٦٣١٨ و الترمذي في سننه برقم/ ٢٣٣٠ وقال: حسن صحيح، والدارمي في سننه برقم/ ٢٧٤٢ واحمد في مسنده ٥/ ٤٠، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٢٠٣: إسناده جيد.

أعداء لله تبارك وتعالى؛ قال تعالى: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾، وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾[الممتحنة/ ١] وهذا تربية للمؤمنين وتعليم لهم أن يكونوا على ثقة من معية الله ومن نصرته لهم.

- ينبغي على المعلم أن يوجه المتعلم التوجيه الصحيح؛ فالملكان اللذان نزلا الأرض ليعلما الناس السحر كانا يعرفان الناس حكم تعلمه، قال تعالى: ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ وبهذا أوضحا للناس أنهما فتنة للعباد، وأوضحا للمتعلم أنه قد يكفر إذا تعلم السحر وعمل به.

- من أساليب القرآن الحكيمة في توجيه المؤمنين نداؤهم بالوصف المحبب إليهم، وهو وصف الإيمان.

- من الأمور التي ربى القرآن عليها أتباعه عدم مشابهة الكافرين عموماً، وأهل الكتاب خصوصاً في أهوائهم، والآيات في ذلك كثيرة. قال تعالى: ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ فهذا نهي للأمة عن اتباع أهواء أهل الكتاب، ومن المواقف العملية في ذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا ﴾.

- مما يحرص عليه المربي الناجح أن يوفر البديل الحلال إذا ذكر شيئاً محرماً، فالقرآن عندما نهى المؤمنين عن ذكر لفظ راعنا، أعطاهم البديل المشروع وهو قوله تعالى: ﴿ وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا ﴾ فهذا بديل عن اللفظ المحرم، يعين على التخلص من الحرام، ويغني الأتباع عن إتيانه ومقارفته.

- تعريف الأعداء، وكشف باطلهم، وبيان ما يكنونه للمؤمنين من شر، منهج قرآني ربّي الحق المسلمين عليه؛ حتى يحذروا من مكر الماكرين، ولا يغتروا بمعسول القول وليّن الحديث.

- النسخ أسلوب تربوي حكيم، يصلح الأفراد، ويخفف عنهم،وفي حكمة النسخ بالأخف يقول الإمام الشافعي: "إن الله خلق الخلق لما سبق في علمه مما أراد بخلقهم وبهم، لا

معقب لحكمه وهو سريع الحساب، وأنزل عليهم الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وفرض فيه فرائض أثبتها وأخرى نسخها، رحمة لخلقه: بالتخفيف عنهم، وبالتوسعة عليهم، زيادة فيما ابتدأهم به من نعمة، وأثابهم على الانتهاء إلى ما أثبت عليهم: جنته، والنجاة من عذابه فعمتهم رحمته فيما أثبت ونسخ. فله الحمد على نعمه"[(١)]

وهذا الكلام واضح في مسألة النسخ بالأخف، أما في النسخ بالأثقل فإنه أسلوب تربوي حكيم يأخذ الناس بالتدرج في الأحكام حتى يألفوا الأمر ويهون عليهم فعله بلا مشقة، وتلك سياسة حكيمة تسوس الناس إلى الخير برفق حتى يسلس قيادهم، ولو نزل الحكم ثقيلاً من أوله فلربما قالوا: لا ندع فعله أبداً.

- التدرج في معاملة الكفار منهج قرآني لتربية الجماعة المؤمنة؛ فقد ابتدأت الآيات بالعفو والصفح ثم تدرج الحكم إلى الأمر بقتال من قاتل المسلمين، ثم انتقل إلى المرحلة الثالثة وهي قتال المشركين كافة.

- تشابه القلوب يؤدي إلى تشابه الأقوال وكذا الأفعال، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ وقد تشابهت أقوال وأفعال المكذبين؛ قال تعالى: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ [فصلت:٤٣] وقال في حق أهل الكتابين: ﴿ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ﴾ [التوبة:٣٠].

- مهمة المربي المقتدي بالنبي ﷺ أن يكون مبشراً للطائعين ومنذراً للعاصين، قال تعالى مخاطباً نبيه عليه السلام: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾.

- من ضلَّ فإنما يضل على نفسه، ولن يضر الداعي أو المربي شيئاً، لأنه لن يُسئل عن النتائج، قال تعالى: ﴿ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴾.

(١) الرسالة للإمام الشافعي ص ١٠٦.

- التفاضل وارد بين الأمم وحتى بين الأنبياء، قال تعالى ﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران/ ١٦٣].

المناسبة بين المقطع ومحور السورة:

- تحدث هذا المقطع عن مواقف بني إسرائيل مع النبي ﷺ وأصحابه ومع القرآن الكريم وقد عددت الآيات كثيرا من مواقف اليهود ونجملها فيما يلي:

١-سماع كتاب الله المنزل ثم تحريفه وهم يعلمون، ٢-لوم بعضهم البعض على نشر العلم الموجود في كتبهم، ٣-كتابة الكتاب بأيديهم ونسبته إلى الله لنيل بعض أعراض الدنيا، ٤-زعمهم أن النار لن تمسهم سوى أيام، ٥- تركهم أوامر التوراة من التوحيد والإحسان إلى الوالدين والقول الحسن وغير ذلك، ٦-مخالفتهم الميثاق بعدم سفك الدماء حيث سفكوا دماء بعضهم وأخرجوا بعضهم من ديارهم، ٧-تناقضهم؛ فبعد أن قتلوا وأخرجوا فادوا أسراهم، ٨-كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون، ٩-عندما دعوا لكتاب الله قالوا إن قلوبهم غلف، ١٠-كفرهم بالقرآن المصدق لما معهم ١١- كانوا يستفتحون على الكفار بالنبي المبعوث، ١٢-استبعاد الإيمان بالكتب المنزلة من غير أنبيائهم، ١٣-قولهم سمعنا وعصينا عندما أمروا بالعمل بما في التوراة، ١٤- ادعوا أن الآخرة خالصة لهم ثم رفضوا تمني الموت وهذا تناقض عجيب، ١٥-حرصهم الشديد على طول الحياة في الدنيا بأي وضع كان، ١٦-ادعاؤهم عداوة أمين الوحي جبريل، ١٧- نقض فريق منهم عهودهم مع الناس، ١٨-نبذهم كتاب الله وراء ظهورهم واتباعهم السحر، ١٩-تعلمهم السحر للإفساد بين الرجل وزوجه، ٢٠-إمالتهم الكلام للنبي محمد ﷺ بقصد الإساءة والسب بقول (راعنا)، ٢١- حسدهم المؤمنين وتمنيهم ألا ينزل عليهم خير من ربهم، ٢٢-محبتهم أن يرتد المسلمون كفاراً حسداً من بعد معرفتهم بالحق الذي مع المسلمين، ٢٣-ادعاؤهم أنه لن يدخل الجنة غيرهم، ٢٤-منعهم مساجد الله أن يذكر فيها اسمه والسعي في خرابها، ٢٥- قولهم: اتخذ الله ولداً، ٢٦-عدم رضاهم عن المسلمين حتى

يتبعوا ملتهم[1].

ولم يكتف القرآن بدمغهم بهذه المواقف المسجلة عليهم؛ بل ردَّ عليهم باطلهم من زعمهم أنهم لن يدخلوا النار سوى أيام معدودة؛ فطالبهم بالبرهان، وبين سنة الله في الكون من تعذيب العاصي وإثابة المطيع، ثم أثبت لهم أنهم قد أحاطت بهم خطاياهم فلا مطمع في نجاتهم. وكذلك ردَّ عليهم في زعمهم أنهم يؤمنون بما أنزل عليهم فقط، وردَّ عليهم زعمهم أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، وزعمهم أن لله ولداً، وأثبت تناقضهم في أكثر من موطن.

وما سبق متصل بمحوري السورة بأكثر من وجه؛ فهو يعلُّم المسلمين كيفية مجادلة هؤلاء القوم وإفحامهم، ويعدّهم للمواجهة معهم، ويحذرهم من اتباعهم ولو في مجرد اللفظ الذي يوهم السوء. وذلك حتى يتسنموا ذروة العلا بلا شائبة مشابهة لمن خلا.

(١) انظر: المحاور والمناسبات لسور القرآن الكريم للدكتور مصطفى مسلم مخطوط ص ٦٠، ٦١. بحث: المناسبات وأثرها: ص٤٠ بتصرف.

المقطع الثالث: دعوة إبراهيم وتبرئتها من انتساب اليهود والنصارى إليها

[١٢٤-١٤١]

﴿ ۞ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤ وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ١٢٥ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٢٦ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩ وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٣٠ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٣١ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٣٢ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٣ تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٣٤ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٣٥ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٣٧ صِبۡغَةَ ٱللَّهِ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ١٣٨ قُلۡ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ ١٣٩ أَمۡ تَقُولُونَ إِنَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ وَمَنۡ

أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ ﴾ [البقرة: ١٢٤-١٤١]

مناسبة المقطع لما قبله:

بعد أن بينت الآيات السابقة نعم الله على اليهود، وذكرت بغيهم وعنادهم، توجهت الآيات بالاحتجاج عليهم وعلى المشركين، وكلا الفريقين يزعم الانتساب إلى إبراهيم عليه السلام. فبينت الآيات الكريمة إمامة إبراهيم، وأوليته في الإسلام وبناء بيت التوحيد في الأرض وذكرت من يستحق وراثته بحق، ومن أولى الناس.

ويظهر التناسب واضحاً بين هذه الآيات والتي قبلها؛ فقد ادعى اليهود والنصارى أنهم أصحاب الجنة فقالوا ﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾ [١١١] فردّ الله هنا على هذا الادعاء وبيَّن أنه لن ينال أحد منزلة عنده إلا بعد الابتلاء، وبيَّن أيضاً أن مجرد الانتساب إلى إبراهيم لا يفيد صاحبه شيئاً؛ فعندما دعا إبراهيم بالإمامة لذريته قال له ربه ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [١٢٤].

وإذا كان المقطع السابق قد كشف أن اليهود ومن إليهم قد حاولوا أن يمنعوا المسلمين من الصلاة في المسجد الحرام، فإن هذا المقطع أوضح بجلاء أن هذا البيت المبارك أمن للناس وموئل للتوحيد لا مكان للشرك فيه بحال، وأطهر بقعة في الدنيا لا يصح تدنيسه بالأصنام ولا بأي مظهر من مظاهر الشرك.

وقد ادعى هؤلاء لله الولد، وهذا دليل على انقطاع نسبهم الروحي بإبراهيم؛ لأنه دعا ربه أنه يهبه ذرية مسلمة.

ولم يظهر شرك هؤلاء في أمر الإلهيات فقط، بل أنكروا أمر النبي الخاتم وكفروا به، ولو صدقوا في نسبتهم لإبراهيم عليه السلام لعلموا أنه قد دعا ربه قائلا: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ ﴾ [١٢٩].

ولم يكن الأمر قاصراً على إبراهيم وحده، فإذا كانوا زعموا في المقطع السابق الإيمان بما أنزل عليهم فقالوا: ﴿ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ ﴾ [٩١] فإن أنبيائهم كانوا على نفس النهج، قال تعالى : ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [١٣٣] وليس أنبياء بني إسرائيل بدعاً من الأمر، فكل المرسلين كانوا على نهج التوحيد، قال تعالى: ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [١٣٦].

ومن أوجه المناسبات إعادة التذكير ببعض القضايا الواردة في المقطع السابق بأسلوب آخر وذلك مثل قوله تعالى ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ وقوله: ﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ﴾.

التفسير الإجمالي للمقطع:

يذكِّر الله تعالى نبيه محمداً بتاريخ أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام فيقول: اذكر إذ عامل الله نبيه وخليله إبراهيم معاملة المختبر بأن ابتلاه بكلمات شرعية هي مجموع التكاليف والأوامر والنواهي[١] فأداهن وأتمهن كما قال تعالى: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ ﴾ [النجم/ ٣٧] فاستحق بذلك عِظَم المنزلة ورِفعة القدر بأن يكون إماماً يأتم ويقتدي به الناس جميعاً.

فدعا ربه قائلاً: واجعل بعضاً من ذريتي يا رب أئمة للناس، ونظيره دعاؤه لربه: ﴿ رَبِّ

(١) ذكر المفسرون هنا أقوالاً عدة؛ فمن قائل: إنها خصال الفطرة، وقيل: ثلاثون خصلة من خصال الإسلام، في سورة براءة، والأحزاب، والمؤمنون، وقيل: ما جاء بعد الآية من الإمامة وتطهير البيت، قال الطبري معلقاً على هذه الأقوال:" ولا يجوز الجزم مما ذكروه منها أنه المراد على التعيين إلا بحديث أو إجماع" ومن بلاغة القرآن أنه ذكرها مجملة لأن الغرض ليس تفصيل شريعته ولا بسط قصته عليه السلام وإنما الغرض بيان فضله. انظر التحرير والتنوير لابن عاشور: ١/ ٧٠٣.

ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾[إبراهيم: ٤٠] فأجابه الله إلى دعائه، لكنه مقيد بالصالحين فلن ينال وعد الله المؤكد بحراسة الدين وسياسة الدنيا من ظلم نفسه بالشرك.

ثم ذكرت الآية أعظم أثر لإمامة إبراهيم للناس وهو بناء البيت الحرام الذي خلق الله في قلوب الناس محبته والشوق إليه استجابة لدعوة أبي الأنبياء في قوله ﴿ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ ﴾ [إبراهيم:٣٧] فما من موحد إلا ويثوب أي يرجع إليه بقلبه في صلاته. ومنهم من يرجع إليه للحج والعمرة، والكل يُثاب بالمثوبة إليه؛ إذ هو الأمن الذي يأمن أهله والناس من حولهم يتخطفون قال تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنٗا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡ ﴾ [العنكبوت: ٦٧] ويأمن الناس فيه على أموالهم ودمائهم حتى إن أشجاره لتأمن من أن يصيبها القطع.

ومن اتصال اللاحقين بالسابقين أن الله أمر المؤمنين أن يتخذوا الموضع الذي قام عليه إبراهيم لبناء الكعبة مصلى لهم، وقد يكون المعنى على العموم فيراد مكان قيامه للعبادة فيشمل مكة وأماكن الحج كلها، وقد امتثل النبي محمد الأمر فلما فرغ من الطواف تقدم إلى مقام إبراهيم وقرأ الآية وصلى ركعتين[1].والعموم أولى[2]، وقد فسر النبي العام ببعض ما ورد فيه، وقد كان إبراهيم عليه السلام هو الأمين على هذا المكان؛ وقد أوصاه الله وصية مؤكدة بأن يقوم هو وولده إسماعيل بتطهير بيت التوحيد من كل نجس ورجس حسي أو معنوي ليكون مهيأ لمن يطوف به أو يقيم به للعبادة والصلاة المعبر عنها بأعظم أركانها وهو الركوع والسجود.

وقد تتابعت منن الله على أهل المكان ببركة دعاء إبراهيم حيث سأل ربه أن يكون هذا المكان القفر بلداً مسكوناً ويكون آمناً أهله من الجبارين والمستأصلين وأن يهبهم الله من كل

---

(١) رواه مسلم في صحيحه برقم/ ٢٩٥٠ عن جابر.

(٢) قال سيد قطب: مقام إبراهيم يشير هنا إلى البيت كله وهذا ما نختاره في تفسيره؛ فاتخاذ البيت قبلة للمسلمين هو الأمر الطبيعي، الذي لا يثير اعتراضاً. وهو أولى قبلة يتوجه إليها المسلمون. في ظلال القرآن ١/ ١١٣.



الثمرات فاستجاب الله دعائه، قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ [القصص: ٥٧].

وقد قاس إبراهيم عليه السلام الرزق على الإمامة فقيده في طلبه بالمؤمنين فقط تأدباً مع الله، لكن الله عمم عطاءه للجميع مؤمنهم وكافرهم، قال تعالى: ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [الإسراء: ٢٠] لكن الكافر يمتع في الدنيا فقط، وهو متاع لو يعلمون قليل، فإذا جاءت الآخرة ذهب بغير اختياره إلى العذاب المؤلم وبئس المرد والمرجع، قال تعالى: ﴿ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ [النحل: ١١٧] .

وبعد أن بينت الآيات النعم الحسية على العرب من أبناء إسماعيل ذكَّرتهم بالنعم المعنوية من بناء البيت، وجاء التذكير بصيغة المضارع (يرفع) ليستحضر القارئ والسامع صورة البناء ويتمثلها أمامه وقت أن رفع إبراهيم الأساس وولده إسماعيل معه يعاونه، وهذا استحضار جميل لهذا المشهد الرائع نراه متمثلاً أمامنا، مما يصل حاضر الأمة بماضيها.

وكانت قواعد البيت من قديم الزمان، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ ﴾ [الحج: ٢٦] وعن ابن عباس قال: " القواعد التي كانت قواعد البيت قبل ذلك"[١]، وكان إبراهيم وإسماعيل وقت بنائهما يتضرعان إلى ربهما أن يقع عملهما منه موقع الرضا والقبول وذلك لأنه السميع لكلامهما العليم بأحوالهما.

ثم أكَّدا ارتباط البيت بملة الإسلام فدعوا الله ربهما قائلَين: ربنا ثبتنا على الإسلام وأدم علينا نعمة الانقياد واجعلنا خاضعين منقادين لأحكامك، واجعل هذا الخير باقياً في أعقابنا، فهم أولى الناس بدعوتنا، قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ [التحريم: ٦] وعلمنا يا رب مناسك الحج وشرائع الدين كلها تعليماً واضحاً كالرؤية[٢]، وإنا مع كل هذا يا ربنا لا غنى

---

(١) تفسير عبد الرزاق١ / ٥٩ وصححه الحافظ في فتح الباري ٨/ ١٧٠.

(٢) قال الشيخ محمد أبو زهرة:" وإني أميل إلى تعميم مدلول المناسك ليشمل كل العبادات الشرعية". زهرة التفاسير ١/ ٤٠٧.

لنا عن رحمتك، فندعوك ضارعين أن تتوب علينا من تقصيرنا مما هو مقتضى طبع البشر، يقول أبو حامد الغزالي: "وقد كان ﷺ لا يرقى من رتبة إلى أخرى إلا ويرى في الأولى بعداً بالإضافة إلى الثانية، فكان يستغفر من الأولى ويرى ذلك نقصاً في سلوكه وتقصيراً في مقامه"[1]. هذا هو اللائق بمقام الأنبياء إذ ليست توبتهم كتوبة العصاة والمذنبين.

وفي دعائهما بهذا المكان تعليم للناس جميعاً أن هذا مكان التوبة والدعاء بالمغفرة، ثم عللا رجاءهما في قبول التوبة بأن الله تعالى هو عظيم التوبة واسع الرحمة بعبادة.

وظاهر هذا الدعاء أنه يخص العرب، إذ الحديث عن نعمة الله عليهم، ثم إن ذرية إبراهيم وإسماعيل معاً هم العرب وحسب، ثم أكملوا دعاءهم لذريتهم بأن يتفضل الله عليهم ويبعث في العرب إلى الدنيا كلها رسولاً منهم يكون أعرف بحالهم وليبين لهم فيشرفوا به ويقوم بثلاث مهام:

أولها: تلاوة آيات الله الكونية والشرعية عليهم.

وثانيها: يعلمهم الكتاب تلاوة ومعنى، ويفقههم في أسرار الأحكام. وإذا كان نبي الله عيسى قد امتن الله عليه وورد في حقه: ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾[آل عمران/ ٤٨] فإن الأمة كلها قد بيَّن خليل الرحمن أنها مقصودة بتعلم الكتاب والحكمة لعموم أفرادها، وهذا شرف وتكريم ما بعده تكريم.

وثالثها: وهي ثمرة الأولين وشرط قبولها، ألا وهي تطهيرهم من أدران الشرك ورديء الخلق، بتزكية نفوسهم وطهارتها، وهذا إشارة إلى المقصود الأصلي لبعثة نبينا محمد الوارد في قولهﷺ: (بعثت لأتمم صالح الأخلاق)[2].

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالي ٤/ ٨٧.

(٢) رواه عن أبي هريرة: الحاكم في المستدرك برقم/ ٤٢٢١ وصححه على شرط مسلم، والبيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ١٩٢، وأحمد٢/ ٣٨١ بلفظ: إنما بعثت. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ١٨٨: ورجاله رجال الصحيح.



وأعظِم به من شرف أن ترث أمتنا خليل الرحمن وأن نكون أولى الناس به، وأن تتحقق فينا دعوته كما قال النبي ﷺ :(أنا دعوة أبي إبراهيم)[1].

وبعد هذا العرض القرآني لسيرة أبي الأنبياء خليل الرحمن في بناء البيت ودعائه وتضرعه، يأتي ذكر النتيجة القرآنية لما سبق، والمعنى: من مِن العقلاء يزهد ويربأ بنفسه عن ملة أبيه إبراهيم؟

إنه لا يفعل ذلك إلا من استخف نفسه وامتهنها فأهلكها؛ لأن الله تعالى رفع درجته في الدار الأولى والآخرة؛ أما في الدنيا فقد جعله صفوة الأنبياء وإمامهم؛ عن أنس قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا خير البرية، فقال ﷺ: (ذاك إبراهيم)[2]، وفي الآخرة فإنه من جملة أهل الصلاح والطاعة، قال تعالى في حقه: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [النحل: ١٢٢].

وكان هذا الاصطفاء من الله لإبراهيم الخليل وقت أن قال له ربه استسلم فأجاب على الفور: أسلمت وجهي للذي خلقني ورزقني، ولم يكتف بهذا الفضل لنفسه وإنما أشرك معه بنيه، فوصى بهذه الكلمة وبهذا الدين بنيه، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الزخرف: ٢٨] فسَّر ابن زيد قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ ﴾ فقرأ: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾ وقال: جعل هذه باقية في عقبه، قال:الإسلام،وقرأ: ﴿ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ [الحج/ ٧٨] فقرأ: ﴿ وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ﴾.[3]

وكما وصىَّ إبراهيم عليه السلام وصىَّ يعقوب ليفهم بنو إسرائيل ذلك، فقال لبنيه: إن الله

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك برقم/ ٣٥٦٦ وصححه على شرطهما، وابن حبان في صحيحه برقم / ٦٤٠٤،وأحمد في مسنده برقم/ ١٧١٩٠ . قال ابن كثير في البداية والنهاية ٢/ ٣٢٣: إسناده جيد.

(٢) رواه مسلم في صحيحه برقم/ ٢٣٦٩.

(٣) جامع البيان للطبري ٢١/ ٥٩٠.



أعطاكم صفوة الأديان وشرعه وارتضاه لكم فداوموا عليه في كل وقت فإذا جاءكم الموت في أي لحظة وعلى أي حال كنتم من المسلمين لله رب العالمين.

وبعد أن ذكرت الآيات وصية يعقوب لبني إسرائيل يتوجه الخطاب إلى اليهود منكراً عليهم زعمهم أن يعقوب كان على اليهودية فيخاطبهم: أكنتم حاضرين إذ حضرت مقدمات الموت ومبادؤه يعقوب وعلمتم كيف سأل أبناءه سؤال تقرير وتثبيت: ما تعبدون بعد موتي؟ فأجابوا جميعاً: إنا على نهجك سائرون ولطريقتك وطريق آبائك مقتدون، فلن نعبد إلا من توجهتم له بالعبادة، هذا هو سبيل أبيك إسحق وجدك إبراهيم وعمك إسماعيل، ومعلوم أن العم يقال له أب، قال عليه السلام: (عم الرجل صنو أبيه)[1] لقد توجه هؤلاء جميعاً إلى الله بالعبادة ونحن أيضاً نخصه وحده بالعبادة إلهاً واحداً لا شريك ونحن له مستسلمون.

لماذا يدعي اليهود إذن النسبة إلى هؤلاء القوم الصالحين وهم ليسوا منهم في شيء؟ هل يحسبون أن مجرد النسب ينفعهم ؟ كلا، فقد ذهب يعقوب وبنوه وأبناؤهم بخير عملهم فلم ينتفع من بعدهم بهم، وكذلك أنتم لن ينفعكم إلا ما عملتم وقدمتم، ولن تُسئلوا عن عملهم، قال تعالى: ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ [النجم:٣٦-٤١] .

وبعد أن ردت الآية على زعمهم أن يعقوب على ملتهم ردت عليهم كذلك ما أرادوه من دعوة الناس إلى دين اليهودية والنصرانية وأبطلت قول اليهود: كونوا هوداً تهتدوا، وكذلك قول النصارى: كونوا نصارى تهتدوا. فأبطلت كلامهم أولا بحرف (بل) الذي يفيد معنى إبطال الكلام[2]، وأعطت للنبي الحجة عليهم: وهي الانتساب إلى ملة إبراهيم الذي يتشرف

---

(١) رواه مسلم في صحيحه برقم/ ٩٨٣ عن أبي هريرة.

(٢) قال أبو القاسم الزجاجي: بل تأتي لتدارك كلام غلط فيه تقول رأيت زيداً بل عمراً، وتكون لترك شيء من الكلام وأخذ في غيره وهي في القرآن بهذا المعنى كثير. حروف المعاني ص١٥.

الكل بالانتساب إليه؛ فقد كان خليل الرحمن مائلاً عن كل دين باطل، فلا يغتر المشركون بهذا فإنه ما كان من المشركين. وهو الأولى بالاتباع مما دعوا إليه.

وورد أن عبد الله بن صوريا- وهو يهودي- قال للنبي: ما الهدى إلا ما نحن عليه فاتبعنا يا محمد تهتد، وقالت النصارى مثل ذلك فنزلت الآية[1].

ثم وصلت الآيات للمؤمنين منهج وحدة الدين الإسلامي في كل عصر، وفصلت لهم ملة السابقين، ووجهتم إلى تحقيق وحدة العقيدة والدعوة فأمرتهم أن يقولوا : آمنا بالله وحده وآمنا بكتابه المنزل إلينا، وكذلك آمنا بكل ما نزل على السابقين وما تعبدنا الله من صحف إبراهيم وما نزل إلى يعقوب وإلى بنيه الاثني عشر ناصحاً لهم وموجهاً، وكذلك ما أوتي موسى من التوراة وما أوتي عيسى من الإنجيل، وعلى وجه العموم: كل ما جاء به الأنبياء السابقون، وليس في إيماننا هذا أي انتقاص من أحد، بل كلهم في الإيمان على قدم سواء، لا نفرق بين أحد منهم، فهم قادة مسلمون لله ونحن على هديهم مسلمون.

ولأن هذه الآية قد جمعت أصول الإيمان، وبينت وحدة اتصال دعوة الإسلام بكل ما جاء من عند الله، لهذا فإن النبي كان كثيراً ما يقرأ بها في الركعة الأولى من سنة الفجر[2].

هذه هي عقيدتنا وهذا منهجنا، فإن آمن السابقون إيماناً مثل إيماننا فقد حققوا الخير والهدى لأنفسهم، وإن أبو إلا الإعراض والمخالفة والمنازعة فلن يكونوا إلا منغمسين في العداوة والإيذاء وشق الصف وعندئذ فإن الله سيكفي عباده المؤمنين ضررهم وأذاهم، إذ هو السميع لكلامهم العليم بأحوالنا وأحوالهم.

لئن ظن السابقون أن تعميد الطفل وغمسه في الماء المقدس يصبغه ويجعله على دينهم فإننا

(١) قال ابن كثير ١/ ٢٤٤ وسنده حسن.

(٢) رواه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عباس برقم/ ٧٢٧، رواه أبو داود في سننه عن أبي هريرة برقم/ ١٢٥٩.



مؤمنون، وقد صبغنا الله صبغة لا تزول أبداً[١]، ولا أحسن من هذه الصبغة، قال ابن عطية: "وسمى الدين صبغة استعارة من حيث تظهر أعماله وسمته على المتدين كما يظهر الصبغ في الثوب وغيره"[٢]. فقد صبغنا بهذا الدين وتوجهنا بالعبادة لله وحده لا للأحبار ولا للرهبان.

أيا من تزعمون أنكم أبناء الله وأحباؤه وتجادلوننا في دين الله وفي اصطفاء الله لنا كيف تحاجوننا في الله ونحن وأنتم منتسبون إليه؟ وليس أحد الجنسين بأولى من الجنس الآخر، ولا يقرب عنده سبحانه إلا العمل الصالح؛ فلنا أعمالنا ولكم أعمالكم، وإن أعمالنا ليزكيها الإخلاص وطلب الثواب منه وحده سبحانه، ولا نزعم أن الأولين كانوا على اليهودية والنصرانية، فما كان إبراهيم ولا بنوه إلا مسلمين، قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [آل عمران/ ٦٧] وما كانت التوراة والإنجيل إلا من بعده هو وإسماعيل وإسحق ويعقوب وبنوه، وإن كان عندكم من علم بغير ذلك فأجيبونا: أأنتم أعلم بهذا أم الله الذي خلقنا وخلقهم؟ إنه لا أحد أظلم منكم لكتمانكم شهادة الحق على الأنبياء جميعاً وشهادة الحق لنبي الهدى محمد ﷺ.

ولمَّا وصل السياق إلى هذا الحد آن أن يظهر التمايز؛ فقد بان أن هؤلاء القوم لا خير يرتجى منهم فلتبدأ صفحة جديدة من صفحات التاريخ، تطوى فيها سيرة هؤلاء ليحل محلهم من يسير على الجادة، قال محمد قطب: " ثم يختتم السياق بصيغة المفاصلة التي تفصل بين الأمتين، وتعلن انتهاء عهد الأمة الأولى ليبدأ عهد الأمة الثانية، ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ ﴾"[٣][١٤١].

---

(١) وصبغة هنا مؤكد منصوب بتوكيده لنفسه، قال سيبويه في الكتاب: باب: ما يكون المصدر فيه توكيداً لنفسه نصباً ١/ ٣٨٠.

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية ١/ ٢١٦.

(٣) دراسات قرآنية لمحمد قطب ص٢٩٩.

الهدايات المستنبطة من المقطع

أ- القضايا العقدية:

-في قوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ دليل على عصمة الأنبياء؛ لأن العهد هو الإمامة. قال سعد الدين التفتازاني: "لو صدر عنهم - أي الأنبياء- الذنب لزم أمور كلها منتفية... ومنها: عدم نيلهم عهد النبوة؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فإن المراد به النبوة أو الإمامة التي دونها"[١].

- التوسل والدعاء إلى الله يكون بأسمائه الحسنى، وقد سأل إبراهيم ربه التوبة ولذلك توسل في دعائه باسم التواب، فقال ﴿ وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

- الهداية الحقة ليست مع اليهودية ولا مع النصرانية، وإنما تكون باتباع ملة إبراهيم الذي ورثها محمد ﷺ وصار هو وأمته أولى الناس بها.

- استدل بعض العلماء بقوله تعالى ﴿ وَٱلْأَسْبَاطِ ﴾على نبوة إخوة يوسف جميعاً، قال ابن كثير: وليس الاستدلال بها بقوي[٢]. وقال في تفسيره: " **واعلم أنه لم يقم دليل على نبوة إخوة يوسف، وظاهر هذا السياق يدل على خلاف ذلك، ومن الناس من يزعم أنهم أوحي إليهم بعد ذلك، وفي هذا نظر. ويحتاج مُدّعي ذلك إلى دليل، ولم يذكروا سوى قوله تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ ﴾ [البقرة: ١٣٦]، وهذا فيه احتمال؛ لأن بطون بني إسرائيل يقال لهم: الأسباط، كما يقال للعرب: قبائل، وللعجم: شعوب؛ يذكر تعالى أنه أوحي إلى الأنبياء من أسباط بني إسرائيل، فذكرهم**

---

(١) شرح المقاصد في علم الكلام للتفتازاني ٢/ ١٩٤.وقال عضد الدين الإيجي: فإن حمل ما في الآية على عهد النبوة فذاك، وإن حمل على عهد الإمامة فبطريق الأولى؛ لأن من لا يستحق الأدنى لا يستحق الأعلى.المواقف ٣/ ٤٢٩.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير١/ ١٩٨.

إجمالاً لأنهم كثيرون، ولكن كل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف، ولم يقم دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحي إليهم، والله أعلم[١].

- في قوله تعالى: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ﴾ دليل على إثبات الكسب للعبد، وأن العمل ينسب للإنسان الذي هو فاعله بقدرة أودعها الله فيه، قال شارح الطحاوية: "فالحاصل: أن فعل العبد فعل له حقيقة ولكنه مخلوق لله تعالى ومفعول لله تعالى ليس هو نفس فعل الله. ففرق بين الفعل والمفعول والخلق والمخلوق، وإلى هذا المعنى أشار الشيخ رحمه الله بقوله : وأفعال العباد خلق الله وكسب من العباد. أثبت للعباد فعلاً وكسباً وأضاف الخلق لله تعالى والكسب: هو الفعل الذي يعود على فاعله منه نفع أو ضرر[٢].

- وجوب الإيمان بآيات الأنبياء عموما، وقد ثبت لدينا أن لكل نبي آية؛ وذلك بقول رسول الله: (ما من الأنبياء من نبي إلا وقد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر)[٣].

- دل قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ﴾على وجوب اتباع دين الإسلام من أصحاب الديانات السابقة، وأنه لا تحصل الهداية إلا بذلك.

- دل قوله تعالى: ﴿ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ﴾ على أن العبد يلزمه أن يصف الله بما وصف به نفسه؛ قال الشنقيطي: " الإيمان بكل ما وصف الله به نفسه في كتابه، أو وصفه به رسوله ﷺ لأنه لا يصف الله أعلم بالله من الله ﴿ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة/ ١٤٠]، ولا يصف الله بعد الله أعلم بالله من رسول الله ﷺ الذي قال فيه: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾[النجم: ٣-٤] فمن نفى عن الله وصفاً أثبته لنفسه في كتابه العزيز، أو أثبته له رسوله ﷺ زاعماً أن ذلك الوصف يلزمه ما لا يليق بالله جل وعلا، فقد جعل نفسه أعلم من الله

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/ ٣٧٢

(٢) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص٥٠٢.

(٣) رواه البخاري في صحيحه برقم / ٤٦٩٦، ومسلم في صحيحه برقم/ ١٥٢.

ورسوله بما يليق بالله جل وعلا[١].

ب- الأحكام الشرعية:

- لا يجوز تولي الظالم الإمامة في الدين أو الدنيا، قال الزمخشري: "قالوا: في هذا دليل على أن الفاسق لا يصلح للإمامة. وكيف يصلح لها من لا يجوز حكمه وشهادته. ولا تجب طاعته، ولا يقبل خبره، ولا يقدّم للصلاة...... وعن ابن عيينة : لا يكون الظالم إماماً قط. وكيف يجوز نصب الظالم للإمامة، والإمام إنما هو لكف الظلمة ؟"[٢].

وقال ابن خويز منداد: وكل من كان ظالماً لم يكن نبياً ولا خليفة ولا حاكماً ولا مفتياً، ولا إمام صلاة، ولا يقبل عنه ما يرويه عن صاحب الشريعة، ولا تقبل شهادته في الأحكام، غير أنه لا يعزل بفسقه حتى يعزله أهل الحل والعقد[٣].

- وقد استنبط الفقهاء من الآية أن إمام الصلاة (الإمامة الصغرى) لا يجوز أن يكون ظالماً؛ قال الجصاص: "وهذا يدل أيضاً على أن أئمة الصلاة ينبغي أن يكونوا صالحين غير فساق ولا ظالمين؛ لدلالة الآية على شرط العدالة لمن نصب منصب الائتمام به في أمور الدين ؛ لأن عهد الله هو أوامره، فلم يجعل قبوله عن الظالمين منهم وهو ما أودعهم من أمور دينه وأجاز قولهم فيه وأمر الناس بقبوله منهم والاقتداء بهم فيه"[٤].

-في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ دليل على أن الأمن غير مختص بالبيت الحرام فقط، وإنما يشمل مكة كلها، وذلك كقوله تعالى:﴿ هَدْيًا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ ﴾ [المائدة/ ٩٥] والمقصود الحرم كله، ويؤكد ذلك قوله تعالى على لسان إبراهيم: ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا ﴾ [١٢٦].

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن لمحمد الأمين الشنقيطي ٢/ ١٨.

(٢) الكشاف للزمخشري ١/ ٢١١.

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢/ ٣٧٠.

(٤) أحكام القرآن للجصاص ١/ ٨٦.

- استدل الأحناف وجماعة بقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ على عدم قتال البغاة في الحرم، وكذلك الحربي وكل مباح الدم، لكن يمنع عنهم الطعام والشراب حتى يخرجوا. وذهب الشافعية وجماعة إلى جواز قتالهم، وإنما الممنوع أن ينصب عليها الحراب كغيرها من البلاد[١].

- استنبط الفقهاء من قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ ﴾ حكمة عدم تملك لقطة مكة؛ قال الخطيب الشربيني: "ويلزم اللاقط الإقامة للتعريف أو دفعها إلى الحاكم؛ والسر في ذلك أن حرم مكة مثابة للناس يعودون إليه مرة بعد الأخرى، فربما يعود مالكها من أجلها أو يبعث في طلبها، فكأنه جعل ماله به محفوظاً عليه"[٢].

- استنبط بعض الفقهاء من قوله: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ ﴾ استحباب المجاورة بمكة، وكرهه أبو حنيفة رحمه الله لمخافة قصور الناس عن القيام بحق المكان[٣].

- في قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ حمل الحنفية والمالكية هاتين الركعتين على الوجوب اتباعاً لظاهر النص القرآني، وذهب غيرهم إلى الندب؛ فإن الفريضة تجزئ عنهما كما في تحية المسجد[٤].

- استدل الأحناف والشافعية بقوله تعالى: ﴿ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ على جواز صلاة الفرض والنفل داخل الكعبة، قالوا: والآية دليل على جواز الصلاة فيه؛ إذ لا معنى لتطهير المكان لأجل الصلاة وهي لا تجوز في ذلك المكان[٥]. وقال

---

(١) راجع: بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع للكاساني ٧/ ١١٤، ومختصر خلافيات البيهقي ٤/ ٣٥٦.

(٢) الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع للخطيب الشربيني ٢/ ٣٧٥.

(٣) حاشية ابن عابدين ٢/ ٥٢٤.

(٤) راجع: شرح فتح القدير لابن الهمام ٢/ ٤٥٦، المغني لابن قدامة ٣/ ١٩١، ومغني المحتاج ١/ ٤٩٢، والتاج والإكليل ٣/ ١١٠.

(٥) انظر: تبيين الحقائق بشرح كنز الدقائق. ١/ ٢٥٠.

مالك: لا يصلي فيه الفرض.

- في قوله: ﴿ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ سئل عبد الله بن عباس عن الطواف أفضل أو الصلاة؟ فقال: أما أهل مكة فالصلاة، وأما أهل الأمصار فالطواف[1]. قال الجصاص: "وهو على قول من تأول قوله الطائفين على الغرباء يدل على أن الطواف للغرباء أفضل من الصلاة ؛ وذلك لأن قوله ذلك قد أفاد لا محالة الطواف للغرباء؛ إذ كانوا إنما يقصدونه للطواف"[2].

- الأمر بتطهير البيت الحرام وكل المساجد.

- مشروعية الطواف بالبيت العتيق، وهو أنواع: طواف القدوم، طواف الزّيارة، طواف الوداع، طواف العمرة، طواف النّذر، طواف تحيّة المسجد الحرام، طواف التّطوّع.

- مشروعية الاعتكاف في المسجد الحرام.

- دل قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ﴾ على أن شريعة إبراهيم شريعة لنا إلا ما نسخ منها[3]. وقد استدل بهذه الآية جمع من الأصوليين القائلين بأن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ناسخ[4].

- اعتبار قول المحتضر مادام ذاكراً وواعياً لما يقول.

- استدل جماعة من أهل العلم من الصحابة ومن بعدهم بقوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف برقم/ ١٥٠٤٢.

(٢) أحكام القرآن للجصاص ١/ ٩٤.

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢/ ٤٠٦.

(٤) انظر: المستصفي للغزالي ١/ ١٦٧، والإحكام للآمدى ٤/ ١٥٢، والإبهاج في شرح المنهاج للسبكي ٢/ ٢٧٨. والقول بهذا المذهب هو اتجاه الأحناف، أما الجمهور فقد ردوا على استدلال الأحناف بهذه الآية وبغيرها. انظر المراجع السابقة.

ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾على أن الجد بمنزلة الأب في الميراث وغيره، قال السرخسي: "والدليل عليه أن الجد عند عدم الأب يستحق اسم الأبوة قال الله تعالى: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ ﴾[الأعراف/ ٣١] ومن كنت ابنه فهو أبوك، وقال جل جلاله: ﴿ قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ ﴾ وكان إبراهيم جداً. وقال عز وجل: ﴿ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ﴾ [يوسف/ ٣٨] وكانا جدَّين له، وكذلك أيضاً في الحكم؛ فالجد له من الولاية عند عدم الأب ما للأب حتى أن ولايته تعم المال والنفس جميعاً بخلاف الإخوة والخلافة في الإرث نوع ولاية"[١].

ج - الأخلاق الإسلامية والآداب الشرعية:

- من الآداب العظيمة التي نستفيدها من قصة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: الإنابة إلى الله والتضرع إليه، وعدم الإعجاب بالعمل. قال تعالى على لسان إبراهيم وإسماعيل ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ﴾.
- إذا دعا شخص وأمَّن الآخر فإن الدعاء يكون منهما ولهما معاً، فإبراهيم دعا وإسماعيل أمَّن، كما في قصة موسى وفرعون ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا ﴾ [يونس:٨٩].
- كل إنسان مطالب بأن يسأل ربه التوبة؛ فقد قال إبراهيم: ﴿ وَتُبْ عَلَيْنَآ ﴾، وقال قال الله في حق خير خلقه محمد ﷺ: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة/ ١١٧].

---

(١) المبسوط للسرخسي ٢٩/ ١٨٢،وهو قول أبي بكر الصديق وعائشة وعبد الله بن عباس وأبي بن كعب وأبو موسى الأشعري وعمران بن الحصين وأبو الدرداء وعبد الله بن الزبير ومعاذ بن جبل رضوان الله عليهم أجمعين أن الجد عند عدم الأب يقوم مقام الأب في الإرث والحجب حتى يحجب الإخوة والأخوات من أي جانب كانوا وهو قول شريح وعطاء وعبد الله بن عتبة وبه أخذ أبو حنيفة. انظر السابق ٢٩/ ١٧٩، ١٨٠.

- قال تعالى: ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴾. فالإخلاص روح العبادة وثمرتها، ومعناه: تخليص النية من كل شائبة، وإفراد الله وحده بالوجهة والعمل. قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة/ ٥] قال الفضيل: "ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما"(١).

د- الجوانب التربوية:

- الإمامة لا تكون إلا بعد الابتلاء؛ فقد ابتلى الله إبراهيم بكلمات، فلما أتمهن جعله إماماً للناس، وقد فقه الشافعي هذا الأمر فلما سئل: أيهما أفضل: الصبر أو المحنة أو التمكين؟ فقال: "التمكين درجة الأنبياء، ولا يكون التمكين إلا بعد المحنة فإذا امتحن صبر وإذا صبر مكِّن. ألا ترى أن الله عز وجل امتحن إبراهيم عليه السلام ثم مكنَّه، وامتحن موسى عليه السلام ثم مكنَّه، وامتحن أيوب عليه السلام ثم مكنَّه، وامتحن سليمان عليه السلام ثم مكنَّه وآتاه ملكاً، والتمكين أفضل الدرجات؛ قال الله عز وجل: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [يوسف/ ٥٦] وأيوب عليه السلام بعد المحنة العظيمة مكِّن، قال الله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ ﴾[الأنبياء/ ٨٤] الآية"(٢).

- متاع الدنيا قليل، ولن ينفع الكافر تمتعه في الدنيا إذا انقلب إلى الآخرة فذاق العذاب الأليم، قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ ﴾ الشعراء/ ٢٠٥-٢٠٧] وقالﷺ: (يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيصبغ في النار صبغة ثم يقال: يا ابن آدم هل رأيت خيراً قط؟ هل مر بك نعيم قط ؟ فيقول: لا والله يا رب. ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة فيصبغ صبغة في الجنة فيقال له: يا ابن آدم هل رأيت بؤساً قط؟ هل مر بك شدة قط؟ فيقول: لا والله

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن القيم ٢/ ٩١.

(٢) إحياء علوم الدين للغزالي ١/ ٢٦.



يا رب ما مر بي بؤس قط ولا رأيت شدة قط)[١].

- كمال سعادة العبد في أن يكون مسلماً لأحكام الله تعالى وقضائه وقدره، وألا يكون ملتفت الخاطر إلى شيء سواه، ويستفاد هذا من الحصر في دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ﴾ أي لك لا لغيرك[٢].

- الحرص على قبول العمل ينبغي أن يكون أكثر من الحرص على العمل ذاته، فلا فائدة في العمل إذا لم يتقبله ربنا تعالى. وقدر ورد عن السلف حرصهم على قبول العمل أكثر من العمل؛ فعن عبد الله بن مسعود قال: "وددت أني نسبت إلى روثة وأن الله تعالى تقبل مني حسنة واحدة من عملي"[٣]. وقال فضالة بن عبيد: "لأن أكون أعلم أن الله تقبل مني مثقال حبة من خردل أحب إلي من الدنيا وما فيها؛ لأن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة/ ٢٧]"[٤].

- على الداعي أن يحرص للدعاء لذريته، وليكن قدوته في ذلك نبي الله إبراهيم؛ فقد دعا لذريته من بعده فقال: ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ وقد تكرر هذا الأمر منه فدعا أيضاً لذريته بالحرص على إقامة الصلاة فقال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ ﴾ [إبراهيم/ ٤٠].

- وكما يحرص المرء على الدعاء لذريته فإنه يقتدي كذلك بأبينا إبراهيم ويوصي ذريته بالدين كما وصى إبراهيم بنيه وكما وصى يعقوب بنيه؛ فإن المرء مطالب بأن يكون اهتمامه بأمر الدين لبنيه أكثر من أي أمر آخر، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ [التحريم/ ٦].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم/ ٢٨٠٧ عن أنس.
(٢) انظر: التفسير الكبير للرازي ٤/ ٥٦.
(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ١/ ٥٠٣ برقم٨٤٦.
(٤) رواه عنه ابن المبارك في الزهد ٢/ ١٩.

- البيت الحرام هو مهوى الأفئدة ومثابة الناس، تتعلق كل القلوب بمحبته وتعظيمه؛ فتعظيمه تعظيم للدين، بل إن ذهاب تعظيمه من النفوس أمارة وعلامة على ضياع الدين. وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: (لا تزال هذه الأمة بخير ما عظموا هذه الحرمة حق تعظيمها فإذا ضيعوا ذلك هلكوا)[1].

- من مهام الرسالة: تزكية الناس وتطهير النفوس من أدرانها، وتحليتها بالأخلاق والأقوال والأفعال الطيبة، وقد دعا إبراهيم ربه بذلك لمن يأتي في ذريته من الأنبياء فقال: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ وقد استجاب الله هذا الدعاء، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢ ﴾ [الجمعة/ ٢]

- السفاهة هي في البعد عن الطريق المستقيم.

- مما يجب أن يحرص عليه المسلم: دعاء ربه أن يرزقه الثبات على الدين إلى أن يلقاه، وكان إبراهيم وبنوه حريصين على الدعاء بهذا؛ وكان نبينا محمد يدعو بهذا وهو النبي المعصوم؛ فعن أنس أن رسول الله ﷺ كان يقول:(اللهم يا ولي الإسلام وأهله ثبتني به حتى ألقاك)[2].

- اعتبار القدوة العملية؛ فهي أمر ضروري للتربية، ولذلك فإن أبناء يعقوب قد اعتبروا به وانتفعوا بما رأوه منه فقالوا: ﴿ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ ﴾ فالابن يتأثر بأبيه، وينتفع بما يراه منه قبل أن يسمعه.

- قوله: ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ﴾ يبين أثر التربية الإسلامية في النفوس، وأنها تصبغ النفوس والأرواح

---

(١) رواه ابن ماجة في سننه برقم/ ٣١١٠، وأحمد في مسنده ٤/ ٣٤٧ عن عياش بن أبي ربيعة. قال ابن حجر: وسنده حسن. فتح الباري٣/ ٤٤٩.

(٢) رواه الضياء في الأحاديث المختارة برقم/ ٢٢٩٠والطبراني في المعجم الأوسط برقم/ ٦٦١، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ١٧٦: ورجاله ثقات.

والأجسام بالصبغة الربانية التي لا تزول. قال ابن الأنباري: العرب تقول: فلان يصبغ فلاناً في الشيء إذا أدخله فيه وألزمه إياه، كما يجعل الثوب لازماً للصبغ[١]. ودلالة لفظ الصبغة أيضاً تفيد معنى الوضوح والظهور كما يظهر اللون المصبوغ؛ فكذلك صبغة الدين تظهر آثارها على أهلها، قال تعالى: ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ [الفتح/ ٢٩].

- دل قوله تعالى: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ على أنه لا قيمة للنسب عند الله يوم القيامة، وما ينفع المرء إلا عمله الصالح، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه.

- ودلت الآية أيضاً على أن المسؤولية في الإسلام فردية، وأن الجزاء فردي؛ فكل إنسان مسؤول عن فعله، وسيحاسب وحده عليه،قال تعالى: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [٢٨٦].

- إذا ردَّ القول على صاحبه فعلى الراد أن يأتي بالصواب، ولا يكتفي برد القول الباطل؛ فإن من تمام إبطاله أن يأتي بالبديل الصالح. ومثال ذلك من الآيات أن الله لما أبطل قول اليهود والنصارى: ﴿ كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ﴾ ذكر القول الصواب بعده وهو قوله: ﴿ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ - المنهي عنه اتباع أهواء أهل الكتاب، أما الحق الذي عندهم فلا حرج من اتباعه، وقد أجاز الرسول ﷺ للأمة أن تنقل عن بني إسرائيل الأخبار الصادقة التي يروونها فقال: (وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج)[٢].

- من أشد المحرمات كتمان الشهادة، ومن أظلم الظلم كتمان الشهادة التي هي من عند الله، فمن كتم ما أنزل الله من الهدى والبينات استحق اللعنة من الله ومن الناس.

(١) التبيان في تفسير غريب القرآن لابن الهائم ص١١٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم/ ٣٢٧٤ عن عبد الله بن عمرو.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة:

اتصلت آيات هذا المقطع فيما بينها اتصالاً وثيقاً حتى قال أبو حيان: "وجاءت هذه الجمل من ابتداء ذكر إبراهيم إلى انتهاء الكلام فيه، على اختلاف معانيه وتعدّد مبانيه، كأنها جملة واحدة، في حسن مساقها ونظم اتساقها، مرتقية في الفصاحة إلى ذروة الإحسان، مفصحة أن بلاغتها خارجة عن طبع الإنسان"[1].

وهذا المقطع مرتبط تمام الارتباط بمحوري السورة معاً؛ فبعد أن انتهى الحديث في المقطع السابق عن بني إسرائيل وبين فساد مسلكهم واعوجاج طريقتهم جاء هذا المقطع ليدعوهم إلى طريق إبراهيم.

وقد أوضح هذا المقطع بجلاء أن الصلة قد انقطعت بين بني إسرائيل وبين نسبهم الروحي؛ فأبوهم إبراهيم الذي يشرفون بالنسبة إليه ما كان إلا مسلماً، وما أوصى بنيه إلا بالإسلام. بل إن أباهم الأقرب يعقوب قد أوصى بنيه بنفس الوصية، وما أوصى باليهودية ولا بالنصرانية.

وإبراهيم حينما أعطاه الله الإمامة طلبها لذريته، وقد بينت الآيات أن الإمامة مرتبطة بالبيت الحرام، وأن الوراثة الدينية ستنتقل إلى أمة الإسلام؛ فهم أولى الناس بإبراهيم، وهم أصحاب البيت والقائمون بأمره، وهم الذين تحققت فيهم دعوة خليل الرحمن بإرسال النبي الخاتم فيهم..

فالبيت الحرام أعظم مظاهر إمامة إبراهيم، وهذا البيت وضع للناس على منهج الإسلام؛ ولذلك فإن الآيات تذكر وقت أن بنى إبراهيم وولده إسماعيل البيت وتبين دعاءهما بالثبات على الإسلام لهما ولذريتهما من بعدهما، وذلك دلالة واضحة على ارتباطنا بملة أبينا إبراهيم حنيفاً، وارتباط الإمامة بالقبلة، وارتباط المسلمين بالقبلة.

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان ١/ ٥٩٠.

ويبين هذا المقطع بوضوح أمر الوحدة الدينية بين الأنبياء والرسل؛ فهم جميعاً يدعون إلى إله واحد والكل يسلم وجهه إليه، وبهذا يعلم الجميع أن الإسلام إن هو إلا حلقة أخيرة في سلسلة طويلة امتدت زماناً منذ بدء الخليقة، وكان محورها إبراهيم عليه السلام الذي اتفقت كل الأمم على تعظيمه حتى أهل الشرك، وهذا مرتبط بدعوة أهل الكتاب إلى دين الحق بلا تفريق بين الأنبياء، ويعلم المؤمنين أيضاً إسلام وجههم لله رب العالمين في كل وقت وحين.

المقطع الرابع: انتقال القبلة والإمامة في الدين لأمة سيد المرسلين (١٤٢-١٦٢)

قال تعالى: ﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدٗاۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةٗ تَرْضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبْلَتَهُمْۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٖ قِبْلَةَ بَعْضٖۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلّٖ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِۚ أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولٗا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتُۢۚ بَلْ أَحْيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٖ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٖ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٞۖ

وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ ﴾

المناسبة بين المقطع والمقطع السابق:

كان الحديث في المقطع السابق عن إبراهيم وبنائه البيت الحرام، ودعائه أن يبعث الله من ذريته من يبعث للناس ويعلمهم الكتاب والحكمة.

وبيَّن المقطع السابق أن إبراهيم وبنيه كانوا على ملة الإسلام وقد أوصوا ذريتهم بالثبات عليه، ثم ذكرت الآيات أن بني إسرائيل نكصوا ولم يحملوا الأمانة التي كُلِّفوا بها، ولم يتوجهوا إلى قبلة أبيهم، وإنما عادوها وعادوا أهلها.

جاء هذا المقطع بعده ليبين رجوع أمر القبلة إلى مكة، مما يؤْذِن بإمامة ملة إبراهيم في بلد الله الحرام، ولتكون هذه الأمة هي أمة الشهود التي جاءت استجابة لهذه الدعوة القديمة،

وإذا كان المقطع السابق قد ذكر على لسان إبراهيم غاية بعثة النبي محمد فقد جاء هذا المقطع ليؤكد استجابة الدعاء.

وقد ذكرت الآيات أن من رغب عن ملة إبراهيم فهو سفيه وقد أكدت أول آية هذا المقطع أن اليهود والمشركين الذين رغبوا عن ملته هم السفهاء.

وفي ارتباط هذا المقطع بما قبله يقول ابن القيم: " ولما كان أمر القبلة وشأنها عظيماً وطأ سبحانه قبلها أمر النسخ وقدرته عليه وأنه يأتي بخير من المنسوخ أو مثله، ثم عقب ذلك بالتوبيخ لمن تعنت رسول الله ﷺ ولم يَنْقَد له. ثم ذكر بعده اختلاف اليهود والنصارى وشهادة

بعضهم على بعض بأنهم ليسوا على شيء، وحذر عباده المؤمنين من موافقتهم واتباع أهوائهم ثم ذكر كفرهم وشركهم به وقولهم: إن له ولداً. سبحانه وتعالى عما يقولون علواً، ثم أخبر أن له المشرق والمغرب وأينما يولي عباده وجوههم فثم وجهه وهو الواسع العليم فلعظمته وسعته وإحاطته أينما يوجه العبد فثم وجه الله.

ثم أخبر أنه لا يسأل رسوله عن أصحاب الجحيم الذين لا يتابعونه ولا يصدقونه، ثم أعلمه أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى لن يرضوا عنه حتى يتبع ملتهم وأنه إن فعل وقد أعاذه الله من ذلك فماله من الله من ولي ولا نصير. ثم ذكَّر أهل الكتاب بنعمته عليهم وخوَّفهم من بأسه يوم القيامة، ثم ذكَر خليله باني بيته الحرام وأثنى عليه ومدحه وأخبر أنه جعله إماماً للناس يأتم به أهل الأرض، ثم ذكَر بيته الحرام وبناء خليله له، وفي ضمن هذا أن باني البيت كما هو إمام للناس فكذلك البيت الذي بناه إمام لهم، ثم أخبر أنه لا يرغب عن ملة هذا الإمام إلا أسفه الناس، ثم أمر عباده أن يأتموا برسوله الخاتم ويؤمنوا بما أنزل إليه وإلى إبراهيم وإلى سائر النبيين، ثم رد على من قال: إن إبراهيم وأهل بيته كانوا هوداً أو نصارى.

وجعل هذا كله توطئة ومقدمة بين يدي تحويل القبلة ومع هذا كله فقد كبر ذلك على الناس إلا من هدى الله منهم وأكد سبحانه هذا الأمر مرة بعد مرة بعد ثالثة وأمر به رسوله حيثما كان ومن حيث خرج وأخبر أن الذي يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم هو الذي هداهم إلى هذه القبلة وأنها هي القبلة التي تليق بهم وهم أهلها لأنها أوسط القبل وأفضلها وهم أوسط الأمم وخيارهم فاختار أفضل القبل لأفضل الأمم"[1].

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد ﷺ لابن القيم ٣/ ٥٩.

التفسير الإجمالي للمقطع:

أخبر الله بما سيقوله ضعفاء الرأي الذين رغبوا عن ملة إبراهيم وهم اليهود ومن نحا نحوهم من مشركي العرب[١] والمنافقين، حيث أرادوا بث الأراجيف في المجتمع المسلم بسبب تحويل القبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام، فقالوا: ما الذي حولهم وصرفهم عن القبلة الأولى؟ فرد الله عليهم بأن المشرق والمغرب كله لله، وأي قبلة يأمر عباده بها فعليهم أن يمتثلوا أمره؛ فكما صليتم للقبلة الأولى بأمره صليتم كذلك للقبلة الثانية بأمره، وهو سبحانه الذي يرشد من شاء إلى السبيل الحق، وفي هذا تزكية للقبلة التي انتقلوا إليها. روى البخاري عن البراء قال: لما قدم رسول الله ﷺ إلى المدينة، فصلى نحو بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهراً، وكان رسول الله ﷺ يحب أن يتوجه نحو الكعبة، فأنزل الله تعالى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [البقرة: ١٤٤] فقال السفهاء من الناس وهم اليهود ﴿ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ﴾ فقال الله تعالى ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ﴾[٢].

ثم خاطب الله المؤمنين مبيناً فضلهم: كما أنعمنا عليكم بالهداية للدين وللقبلة الوسط حسياً ومعنوياً[٣] مننا عليكم بجعلكم الأمة العدول خيار الأمم كلها مما يؤهلكم للشهادة على

---

(١) روى البخاري في صحيحه برقم/ ٤٠ عن البراء أنهم اليهود، وروى الطبري في جامع البيان ٣/ ١٣١عن مجاهد، وعن السدي أنهم المنافقون، وعن الحسن إنهم المشركون ورجحه الزجاج في معاني القرآن ١/ ٢١٨. وقد وصف الله المنافقين في هذه السورة بالسفاهة فقال تعالى ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾ [آية: ١٣] ولما ادعى المشركون واليهود نسبتهم لإبراهيم عليه السلام بين القرآن أنهم رغبوا عنها فصاروا سفهاء قال تعالى: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ﴾ [آية: ١٣٠] وعلى هذا فمن الإعجاز القرآني أن اللفظ يشمل هؤلاء جميعاً، والله أعلم.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم/ ٣٩٠.

(٣) وقد أثبتت بعض البحوث العلمية مؤخراً أن مكة المكرمة تقع في قلب اليابسة تماماً، وأنها وسط الدنيا من الناحية الجغرافية والجيولوجية، وقد أثبت هذا بالدلائل العلمية الدكتور حسين كامل في بحثه القيم: (الإسقاط المكي للعالم). بمجلة البحوث الفقهية، الجامعة الإسلامية بالمدينة، العدد السادس=

الناس جميعا بحسن البلاغ وصدق الأداء.

ومن معاني الشهادة ما رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً: (يدعى نوح يوم القيامة، فيقول: لبيك وسعديك يا رب، فيقال له: هل بلغت ما أرسلت به؟ فيقول نعم، فيقال لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أنا من نذير، فيقال له: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته. فيشهدون أنه قد بلغ، فذلك قوله جل ذكره (وكذلك جعلناكم..الآية[١].

ومن معانيها أيضاً: الشهادة في الدنيا على الناس، قال رسول الله ﷺ: (من أثنيتم عليه خيراً وجبت له الجنة ومن أثنيتم عليه شراً وجبت له النار. أنتم شهداء الله في الأرض، أنتم شهداء الله في الأرض، أنتم شهداء الله في الأرض)[٢].

ومن معاني الشهادة البلاغ ونقل الوحي والدين إلى الناس كما تعلموه من رسول الله[٣].

وكذلك يشهد الرسول على الأمة أنهم صدقوه وآمنوا به، وقد ورد أن أعمال الأمة تعرض عليه، ومن ذلك قوله ﷺ :(أكثروا علي من الصلاة يوم الجمعة فإن صلاتكم معروضة عليَّ)[٤]، فعلى هذا يكون شهيداً عليهم في حال حياته وبعد مماته[٥].

إن هذه الشهادة اجتباء واصطفاء من الله لهذه الأمة، وأمانة غالية تتطلب منهم أعباء

= ص ٢٤٠ وما بعدها.

ومن العجيب أن بعض المفسرين المتقدمين قد ذكر هذا الأمر؛ ففي تفسير هذه الآية يقول القرطبي: " وكما أن الكعبة وسط الأرض، كذلك جعلناكم أمة وسطا" الجامع لأحكام القرآن ٢/ ٤٣٣.

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ٤٢١٧.

(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ١٣٠١ ومسلم في صحيحه برقم/ ٩٤٩ واللفظ له.

(٣) انظر: البحر المحيط لأبي حيان ١/ ٥٩٥.

(٤) رواه الحاكم في المستدرك برقم/ ١٠٢٩ وصححه على شرط البخاري، وابن حبان في صحيحه برقم/ ٩١٠، وابن خزيمة في صحيحه برقم / ١٧٣٣، وأبو داود في سننه برقم/ ١٠٤٧. وصحح سنده النووي في الأذكار ص ١١٥.

(٥) انظر: أحكام من القرآن الكريم للشيخ محمد بن عثيمين ١/ ٣٨٢.

وجهاد، ولذلك جاءت مقترنة بتكاليف يلزمهم أن يتحملوها حتى يكونوا أهلاً لها، قال تعالى ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨ ﴾ [الحج/ ٧٨].

وجاءت الآية لتؤكد للمسلمين أنهم على الحق في أمر القبلة وغيره من الأمور، وما شرع الله القبلة الأولى إلى بيت المقدس إلا ليعامل الناس معاملة المختبر فيظهر من يتبع الرسول حيث توجه ممن ينقلب على عقبه وإن كان أمر القبلة الأول لشاقاً إلا على من هداهم الله[1]، وهذه حكمة تشريع القبلة الأولى. أما الذين ماتوا وهم يصلون تجاه بيت المقدس فما كان الله ليضيع ثواب ما عملوا فهو سبحانه رؤوف في رفع الضر رحيم في الإحسان والإنعام[2].

وبعد هذا التمهيد الذي يوطن النفوس جاء الأمر بتحويل القبلة باعتباره أثراً من آثار رحمة الله بالمؤمنين، ولما كان النبي ﷺ كثيراً مما يردد نظره جهة السماء انتظاراً للوحي وترقباً لما يتوقعه فإن الله أعلمه وأجابه إلى مراده الذي لم يصرح به ووجَّههُ للقبلة التي يرتضيها وأمره أن يولي وجهه تلقاء المسجد الحرام وليس الحكم خاصاً به ﷺ ولا خاصاً بمكان دون مكان وإنما هو عام للمؤمنين جميعاً حيث كانوا يولوا وجوههم تلقاء[3] المسجد الحرام أما هؤلاء

---

(١) ذلك أن نفوس الصحابة كانت تتشوف للصلاة إلى بيت الله الحرام، قبلة الدنيا وموئل عزهم وفخرهم، فكان أمر القبلة الأول ثقيلاً عليهم، لكن الله جلت حكمته أراد أن يصرفهم عنه فترة لتتخلص مشاعرهم إليه وحده فلا يكون المقصد من الصلاة للبيت الحرام اعتزازاً ببيت العرب المقدس، بل لابد أن يكون لله. انظر: في ظلال القرآن١/ ١٢٦. ورجوع لفظ:(كبيرة) إلى قبلة بيت المقدس جوزه ابن عطية في المحرر الوجيز١/ ٢٢٠ وابن الجوزي في زاد المسير ١/ ٥٥، والزمخشري في الكشاف ١/ ٢٢٣، وهو الأقرب والله أعلم.

(٢) التفسير الكبير للرازي ٤/ ٩٩.

(٣) ورد في معنى شطر: تلقاء عن قتادة عند الطبري في جامع البيان ٣/ ١٧٦.

اليهود المعاندون فإنهم يعلمون يقيناً أن تحويل القبلة حق من عند الله، لكنها معرفة ذهنية مجردة لا تغير في سلوكهم شيئاً، وإن الله لمطّلع عليهم وسيجازيهم على إنكارهم[1].

وحتى لا يتوهم متوهم باستجابتهم بعد معرفتهم بيَّن الله لنبيه أن امتناعهم ليس امتناع مشتبه يطلب اليقين، بل هو امتناع جاحد مستكبر؛ فلو أتى لليهود والنصارى بآيات متتابعة وحجج قاطعة لما تبعوا قبلته عناداً واستكباراً، وما كان للنبي ﷺ أيضاً أن يتبع قبلتهم لضلالهم، ولو اتفقوا على رفض قبلتك فهم مختلفون ولن يترك أحدهم قبلته ليتبع قبلة الآخر فقد اختلفت قلوبهم، ولئن اتبع النبي ﷺ أهواءهم بعد هذا البيان ووضوح البرهان فإنه والحال هذه من الظالمين لنفسه، وحاشاه ﷺ أن يفعل ولكنه تحذير للأمة جاء بأسلوب الشرط الذي لا يقتضي تحقق الوقوع.

وإن طعن اليهود في القبلة ما هو إلا واحد من طعنهم على الإسلام ونبي الإسلام ﷺ، فهؤلاء يعرفون النبي بأوصافه كما يعرفون أبناءهم، لكن الفريق الذي لم يؤمن يكتم الحق الذي يعرفه مع علمه بالحق وبعقوبة الكتمان، وهذا الذي يكتمونه هو الحق، فلا تكن أمتك من الشاكين المترددين في أنه من ربك وفي كونهم كاتمين.

ثم جاءت الآيات بحجة أخرى على أهل الكتاب في شأن القبلة وهي أن لكل أمة من الأمم وجهة تتوجه إليها في صلاتها، فإذا كان الأمر كذلك فلم الاعتراض على قبلة المسلمين؟ إن الأولى بالانشغال أن يتسابق الكل بالحرص على فعل الخير، فاستبقوا الخير أيها المسلمون فكما جمعكم الله للقبلة أينما كنتم، فكذلك يجمعكم ليوم الجمع أينما تكونوا، قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ

(١) قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبوجعفر ويعقوب في رواية روح: (عما تعملون) بتوجيه الخطاب للمؤمنين، فيكون وعداً لهم بالحسنى، ويستلزم ذلك أن يكون وعيداً للآخرين. انظر: حجة القراءات لابن زنجلة ص١١٧.

لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَٰتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [المائدة/ ٤٨] فالكل راجع إلى ربه أينما كان وعندها سيحاسب الجميع على عملهم فهو القادر الذي لا يعجزه شيء.

ثم أعاد الأمر باستقبال القبلة من أي مكان خرج المرء وفي أي موطن حلّ ليعلم الجميع أن هذا الحكم لا يختص بمكان دون مكان وهذه التولية حق من الله لا تنسخ، أما المعاندون والمجادلون فإن الله سيحاسبهم وما ربك بغافل عن أعمالهم.

وجاء الأمر الثالث بتولية الوجه نحو المسجد الحرام وفيه الجمع بين خطاب النبي ﷺ وخطاب المؤمنين لبيان حِكَم التحويل وهي ثلاث:

أولاها: لئلا يكون للمجادلين في أمر القبلة حجة على المسلمين، فاليهود يعلمون من كتبهم أن قبلة المسلمين الكعبة، والمشركون من ورائهم يرون أن النبي الذي يحيي ملة أبيه إبراهيم لا يستقبل غير بيت ربه الذي بناه وكان يصلي هو وإسماعيل إليه[1]، لكن الظالمين أنفسهم يحتجون بالحجة الباطلة[2] جهلا أو عناداً فلا تخشوهم لتهافت كلامهم واخشوا ربكم واتبعوا ما أمركم به.

والعلة الثانية للتحويل: إتمام نعمة الله على المسلمين بتفرد قبلتهم في بيت ربهم المحرم. مثابة الناس، ومهوى الأفئدة، وموئل عز العرب وشرفهم.

وإذا كانت الآيات السابقة قد ذكرّت بني إسرائيل بنعم الله عليهم فيما مضى وذلك في قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾[٤٠] و[٤٧] و[١٢٢] فإن هذه الآية الكريمة قد بينت أن الله قد أتمّ بالقبلة النعمة على المسلمين، وأعطاهم ما لم يؤت بني

(١) انظر: تفسير القرآن الحكيم لرشيد رضا ٢/ ٢٤.

(٢) وكونها حجة لا يقتضي أنها صواب، فالحجة مطلق الاحتجاج بما هو حق أو باطل، وفي نفس السورة نقرأ قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَٰهِيمَ فِي رَبِّهِۦٓ ﴾ [٢٥٨]ومعلوم أن حجته باطلة.



إسرائيل، ولذلك فإنهم كانوا يحسدون المسلمين على نعمة القبلة، قال رسول اللهﷺ:(إنهم لا يحسدونا على شيء كما يحسدونا على يوم الجمعة التي هدانا الله لها وضلوا عنها وعلى القبلة التي هدانا الله لها وضلوا عنها وعلى قولنا خلف الإمام آمين)[1].

والعلة الثالثة للتحويل: أن تحصل للمؤمنين الهداية إلى ما ضلت الأمم عنه وأن تكون هذه الأراجيف عونا للمؤمنين على معرفة الحق ونبذ التقليد.

ثم اتصلت الآية بالتي قبلها اتصالاً وثيقاً؛ فإذا كان الله قد حول القبلة للمسلمين إتماماً لنعمته عليهم ولهدايتهم مثل إتمام نعمته بإرسال رسول كريم ﷺ منهم يتلوا عليهم آيات القرآن الكريم التي فيها هدايتهم وصلاحهم ويطهرهم من أرجاس الشرك الأليم ودنس الخلق الذميم ويعلمهم القرآن والحكمة المانعة من الوقوع في الخطأ ويعلمهم ما لا طريق إلى معرفته إلا بالوحي كأخبار الماضين من سير الأنبياء والمعاندين وغيرها من الأمور؛ فعن أبي ذر قال: (تركنا رسول الله وما طائر يقلب جناحيه في الهواء إلا وهو يذكّرنا منه علماً)[2] وذلك استجابة لدعاء إبراهيم عليه السلام ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡ ﴾ [البقرة:١٢٩]

وما جزاء هذه النعم إلا أن تذكروا ربكم بالقلب واللسان والجوارح فيكون ثوابكم أن يذكركم ربكم وهو الغني عنكم، وفي الصحيح يقول الله تعالى:(**من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه**)[3]، وأمرهم كذلك بأن يشكروا له نعمه ولا يكفروا بها.

وهذه الآية تجديد لعهد الإيمان الذي اندرس عند بني إسرائيل؛ فقد عاهدهم الله ولم

(١) رواه أحمد في مسنده ٦/ ١٣٤عن عائشة وهو صحيح.

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير برقم/ ١٦٤٧ والبزار في مسنده برقم/ ٣٨٩٧. وسنده حسن.

(٣) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ٦٧٩٠ ومسلم في صحيحه برقم/ ٦٧٥.

يوفُّوا، قال تعالى: ﴿ يَبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ ﴾ [٤٠] فانتقل العهد الرباني لتقوم به هذه الأمة، وذلك بأن تذكر ربها وألا تكفر بنعمه عليها، وهذا مرتبط بنعمة القبلة؛ فهي النعمة الكبرى، وهي العهد الذي تكون ترجمته بالقيام لله في الصلاة، كما جاء في أول أوصاف المؤمنين في السورة، وكما ورد في الآية التي تليها من الاستعانة بالصبر والصلاة.

ثم بين الله تبارك وتعالى للمؤمنين أن أعظم ما يعينهم على الثبات في مواجهة الافتراءات والشبهات إنما هو الصبر الذي يشحذ الهمم ويقوي العزائم ويجعل أهله المتخلقين به في معية الله وحفظه ونصره وكذلك الصلاة ذات الخشوع والخضوع أعظم معين على تقوية النفس ومجابهة الكربات، ومن أوجه الصبر المطلوبة تقبل الشهادة في سبيل الله ومعرفة أن المؤمن الذي يقتل في سبيل إعلاء كلمة الله ليس بميت على الحقيقة، فلا تقولوا: هم أموات. لأنهم أحياء في العالم العلوي ولكنكم لا تشعرون بحياتهم، قال ابن مسعود " أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل"[١].

وبعد أمر الله عباده بالاستعانة بالصبر والصلاة على حصول المكروه أعقب ذلك بذكر الابتلاء وبيان أنه ضرورة للتمحيص وللقيام بوراثة أول المسلمين إبراهيم عليه السلام؛ فإذا كان إبراهيم عليه السلام قد ابتلى ثم صار التمكين والإمامة في الدين فالأمة التي تحمل ملته ستتعرض للتمحيص وللابتلاء بجملة من المكاره لابد لها فيها من الاستعصام بالصبر قال تعالى: ﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ٣١ ﴾[محمد/ ٣١].

ومن هذه الابتلاءات الاختبار بقليل من الغم لتوقع مكروه، وتعذر تحصيل الطعام ونقص من الأموال بتلفها، ومن الأنفس بموتها، ومن الثمرات بقلتها، وذكر ذلك لتتوطن النفوس وتتهيأ لما قد يصيبها، ولتتميز النفوس، ثم أردف ذلك بذكر عاقبة الصبر مخاطباً نبيه ﷺ وكل

(١) رواه مسلم في صحيحه برقم/ ١٨٨٧.

من يتأتي منه البشارة أن يبشر الصابرين الذين إذا أصابهم ألم في نفوسهم بسبب الشدائد قالوا: إنا لله، يتصرف فينا كيف يشاء، فالعبد وما ملكت يداه لسيده، وإنا لراجعون إليه فيجازينا على أفعالنا، فهؤلاء لهم من الله الثناء الحسن والمغفرة والرحمة الواسعة والعطاء الجزيل. وهم المهتدون للصراط المستقيم حقاً المسلمون أمورهم لله صدقاً.

وقد امتثل النبي الأمر فبشر الصابرين بالخلف من الله فقال: (ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله: (إنا لله وإنا إليه راجعون) اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها إلا أخلف الله له خيراً منها[1].

ثم أكد البشارة وذكر بعض مناسك الحج إيماء إلى أن صد هؤلاء القوم ليس عن القبلة والحرم فقط وإنما صدٌّ عما حوله من الشعائر فقال: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾، ثم أكد أمر هاتين الشعيرتين على نحو ما أكد أمر القبلة بالتعريض بأهل الكتاب الذين يعرفون أصلها في تاريخ إبراهيم ولكنهم يكتمون ما أنزل الله من البينات وهم يعلمون[2].

والصفا والمروة جبلان بمكة دخلا في توسعة الحرم مؤخراً وهما من مناسك الحج وعلامات الدين، وعلى هذا فمن قصد الحج أو الاعتمار فلا حرج عليه أن يطوف ويسعى بينهما فهما من الطاعات ولا يلتفت لما كان يحدث فيهما من أمور الشرك قالت عائشة رضي الله عنها: (أنزلت في الأنصار كانوا قبل أن يسلموا يهلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلَّل فكان من أهلَّ يتحرج أن يتطوف بالصفا والمروة، فلما أسلموا سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك فقالوا: يا رسول الله: إنا كنا نتحرج أن نطوف بين الصفا والمروة فأنزل الله تعالى هذه الآية[3].

فالسعي بينهما من مناسك الحج، ومن تطوع وزاد على الواجب بأن أتى بالحج والعمرة

---

(١) رواه مسلم في صحيحه برقم/ ٩١٨ عن أم سلمة.

(٢) انظر: النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز ص٢٣٠.

(٣) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ١٥٦١.

مرة بعد مرة. أو غير ذلك من أنواع القربات فإن الله يجزيه الجزاء الأوفى فهو شاكر يجزي على الإحسان، عليم بكل ما يفعله الإنسان.

وبين التنويه بشأن الصابرين وما جاء بعده من الأمر بالسعي بين الصفا والمروة صلة؛ فالصفا كان مسكن إبراهيم وإسماعيل، والمروة هو المكان الذي حدث فيه ابتلاء إبراهيم بذبح ولده، وكان هذا الابتلاء أروع مثال للصبر على أمر الله، وقد أشار القرآن إلى هذا الجانب عند التعرض لقصة الذبح في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الصافات/ ١٠٢][1].

ثم عاد السياق للكلام على إنكار أهل الكتاب لشعائر الدين وكتمانهم أمر النبي ﷺ وقد بين هنا جزاء من كتموا الحق؛ فأخبر أن من كتموا ما أنزل الله من الدلائل الواضحة والهدايات من بعد ما أظهرناه وأوضحناه للناس في الكتب المنزلة ومن هذه البينات دلائل صدق نبوة محمد ﷺ، إن هؤلاء الذين حرموا أنفسهم وغيرهم من النور يلعنهم الله بطردهم من رحمته الخاصة بالمؤمنين ويستحقون لعنة من يتأتى منه اللعن من الملائكة وغيرهم. واستثنت الآيات من هذا الوعيد من تاب عن الكتمان وأصلح عمله وبين ما كان يكتمه أو بين إصلاحه وإظهاره ليكون قدوة صالحة فهؤلاء يقبل الله توبتهم ويفيض عليهم من رحمته ومغفرته، إنه هو التواب كثير قبول التوبة ونشر الرحمة.

وبعد أن بينت الآية السابقة استحقاق الكاتمين وأن من تاب تاب الله عليه بينت هذه الآية أن مستحق اللعنة هو من مات على هذا الكتمان فبين أن الذين كفروا النعمة بكتمانها وظلوا على هذا حتى ماتوا هؤلاء عليهم اللعنة المستمرة من الله، وكذلك يدعو عليهم الملائكة والناس أجمعون مؤمنهم وكافرها كما قال تعالى ﴿ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ

---

(١) انظر:البرهان في نظام القرآن للدكتور محمد عناية الله ص٢١٥.

بَعْضُكُم بَعْضًا ﴾ [العنكبوت/ ٢٥] وهم ماكثون في النار مكثا مؤبداً لا يمهلون ليتوبوا ولا يخفف عنهم فيموتوا.

الهدايات المستنبطة من المقطع

أ- القضايا العقدية:

- هداية التوفيق من الله، قال تعالى: ﴿ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ وليست هذه الهداية لأحد ولو كان نبياً مرسلاً، قال تعالى مخاطباً نبيه محمداً ﷺ ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [٢٧٢]وهذه المشيئة مقرونة بالحكمة الإلهية؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [الإنسان/ ٢٩، ٣٠].

- جواز تسميه الأعمال إيماناً، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة الذين يعتقدون أن الإيمان قول وعمل؛ فقد سمى الله الصلاة إيمانا وهي من الأعمال. وقد ذكر شراح حديث تحويل القبلة أن من فوائده: الرد على المرجئة في إنكارهم تسمية الأعمال إيماناً[١].

- في قوله تعالى ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ دليل على إثبات صفة العلو لله رب العالمين، قال ابن تيمية: "الإشارة إلى فوق إلى الله في الدعاء وغير الدعاء باليد والأصبع أو العين أو الرأس أو غير ذلك من الإشارات الحسية قد تواترت به السنن عن النبيﷺ واتفق عليه المسلمون وغير المسلمين. قال تعالى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ "[٢].

- في قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ﴾ دليل على أن نعت النبي محمد موجود في الكتب السابقة، وقد سبق بيان بعض الأمثلة من كتبهم.

---

(١) انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر ١/ ٩٨.

(٢) بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٤٣٩).



- في قوله تعالى: ﴿ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ جواز الاستعانة بغير الله فيما يكون سبباً للعون، أما الاستعانة المطلقة المتعبد بها فلا تكون إلا لله، قال تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥ ﴾ [١].

- استنبط علماء العقيدة من قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ ﴾ دليلاً على عذاب القبر؛ قالوا: إذا جاز أن يحيا الشهداء في قبورهم قبل الآخرة ليتنعموا جاز أن يحيا الكفار في قبورهم ليعذبوا، قال ابن حزم بعد أن ذكر الآية: "فصح أن النفس منها ما يعرض على النار قبل يوم القيامة فيعذب، ومنها ما يرزق وينعم فرحاً ويكون مسروراً قبل يوم القيامة"[٢].

- أمور الآخرة لا يشعر أحد بها، قال تعالى: ﴿ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ ﴾.

- وعيد الكافر بالنار لا يكون إلا لمن مات على الكفر، وعلى هذا يحمل المطلق الوارد في آيات أخرى على التقييد هنا بحالة الموافاة على الكفر. ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ۝١٦١ ﴾.

ب- الأحكام الشرعية:

- في تحويل القبلة دليل ظاهر على مشروعية النسخ، وعلى وقوعه في الإسلام، فقد كانت القبلة تجاه بيت المقدس فنسخت إلى الكعبة وهذا باتفاق، قال ابن عبد البر:" وقد أجمع العلماء على أن أول ما نسخ من القرآن شأن القبلة وأجمعوا على أن ذلك كان بالمدينة وأن رسول الله ﷺ إنما صُرف عن الصلاة إلى بيت المقدس وأُمر بالصلاة إلى الكعبة بالمدينة"[٣].

- قال الجصاص في آية تحويل القبلة:" هذه الآية يحتج بها من يجوز نسخ السنة بالقرآن؛ لأن النبي عليه السلام كان يصلي إلى بيت المقدس، وليس في القرآن ذكر ذلك، ثم نسخ بهذه الآية"[٤].

---

(١) انظر: أحكام من القرآن الكريم للشيخ محمد بن عثيمين ١/ ٤١٠.

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ٥/ ٥٨.

(٣) الاستذكار لابن عبد البر ٢/ ٤٥٢.

(٤) أحكام القرآن للجصاص ١/ ١٠٦، وانظر أحكام القرآن للكيا الهراسي ١/ ٢٠.

- استدل الأصوليون بقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ على حجية الإجماع باعتباره مصدراً من مصادر التشريع الإسلامي، والإجماع: اتفاق المجتهدين من هذه الأمة في عصر من العصور على أمر من الأمور[1]. وفي دلالة الآية على حجية الإجماع يقول الرازي: الله تعالى أخبر عن كون هذه الأمة وسطاً، والوسط من كل شيء خياره. فيكون الله عز وجل أخبر عن خيرية هذه الأمة؛ فلو أقدموا على شيء من المحظورات لما اتصفوا بالخيرية، وإذا ثبت أنهم لا يقدمون على شيء من المحظورات وجب أن يكون قولهم حجة"[2].

- وجوب استقبال القبلة من أي مكان في الأرض، قال تعالى: ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾ وهذا متفق عليه بين المسلمين، قال ابن عبد البر:" وأجمع العلماء أن القبلة التي أمر الله نبيه وعباده بالتوجه نحوها في صلاتهم هي الكعبة البيت الحرام بمكة، وأنه فرض على كل من شاهدها وعاينها استقبالها، وأنه إن ترك استقبالها وهو معاين لها أو عالم بجهتها فلا صلاة له، وعليه إعادة كل ما صلى كذلك. وأجمعوا على أنه من صلى إلى غير القبلة من غير اجتهاد حمله على ذلك أن صلاته غير مجزئة عنه وعليه إعادتها إلى القبلة كما لو صلى بغير طهارة.... وأجمعوا أن على كل من غاب عنها أن يستقبل ناحيتها وشطرها وتلقاءها، وعلى أن على من خفيت عليه ناحيتها الاستدلال عليها بكل ما يمكنه من النجوم والجبال والرياح وغير ذلك مما يمكن أن يستدل به على ناحيتها"[3].

- الواجب استقبال جهة المسجد الحرام لا عينه لمن كان بعيداً عنه، وهذا مذهب جمهور الفقهاء. قال القرطبي: "وهو الصحيح لثلاثة أوجه:

الأول: أنه الممكن الذي يرتبط به التكليف.

---

(١) انظر: كشف الأسرار عن أصول فخر الإسلام البزدوي لعلاء الدين البخاري٣/ ٣٣٧.

(٢) المحصول للرازي ٤/ ٨٩، ٩٠.

(٣) التمهيد لابن عبد البر ١٧/ ٥٤.

الثاني: أنه المأمور به في القرآن، لقوله تعالى: ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ ﴾ يعني من الأرض من شرق أو غرب ﴿ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾.

الثالث: أن العلماء احتجوا بالصف الطويل الذي يعلم قطعا أنه أضعاف عرض البيت"[١].

- دل قوله تعالى: ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾ على تعليل الأحكام الشرعية. وأن أفعال الله كلها معللة، وأن البحث في علل الأحكام لا بأس به على الراجح. قال الشاطبي في الموافقات: " وأما التعاليل لتفاصيل الأحكام في الكتاب والسنة فأكثر من أن تحصى؛ كقوله بعد آية الوضوء ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ ﴾ [المائدة٦]، وقال في الصيام: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ [١٨٣] وفي الصلاة ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ [العنكبوت/ ٤٥] وقال في القبلة: ﴿ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾ [١٥٠]"[٢].

- النهي عن القول لمن يقتل في سبيل الله: إنه ميت؛ لأنه ليس بميت في الحقيقة، بل هو حي حياة برزخية لا يعلمها إلا الله.

- استشهد الفقهاء بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ﴾ وبقوله: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ ﴾ [آل عمران/ ١٦٩] على أن الشهيد لا يغسل وهذا قول الجمهور. ولا يصلى عليه عند الأكثرين خلافاً للحنفية، لأنه بمنزلة الحي.[٣]

- جواز التوكيد بالقسم كما في قوله تعالى ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم ﴾ فالتقدير: والله لنبلونكم.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢/ ٤٤٤.

(٢) الموافقات في أصول الشريعة ٢/ ٧.

(٣) انظر: كشاف القناع للبهوتي ٢/ ٩٩، والحاوي الكبير للماوردي ٣/ ٣٤. وأحكام القرآن لابن العربي١/ ٦٨.

- السعي بين الصفا والمروة من شعائر الحج. وهو واجب عند الأحناف وقول عند الحنابلة والمالكية يجبر تركه في الحج بدم، وعند جمهور الفقهاء هو ركن من أركان الحج لا يتم الحج إلا به[(١)].

- دلت الآية على لزوم البدء بالصفا، وأكد الأمر ما رواه جابر في صفة حجة النبي قال:".. ثم خرج من الباب إلى الصفا فلما دنا من الصفا قرأ: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾ أبدأ بما بدأ الله به. فبدأ بالصفا، فرقى عليه حتى رأى البيت فاستقبل القبلة فوحد الله وكبره وقال: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. لا إله إلا الله وحده أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده). ثم دعا بين ذلك، قال مثل هذا ثلاث مرات ثم نزل إلى المروة"[(٢)].

- استدل الشافعي بقوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾ على فرضية الترتيب في أعضاء الوضوء فقال: "فمن بدأ بيده قبل وجهه أو رأسه قبل يديه أو رجليه قبل رأسه كان عليه عندي أن يعيد حتى يغسل كلاً في موضعه بعد الذي قبله وقبل الذي بعده لا يجزيه عندي غير ذلك، وإن صلى أعاد الصلاة بعد أن يعيد الوضوء. ومسح الرأس وغيره في هذا سواء. فإذا نسي مسح رأسه حتى غسل رجليه عاد فمسح رأسه ثم غسل رجليه بعده. وإنما قلت يعيد كما قلت وقال غيري في قول الله عز وجل: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾ فبدأ رسول الله ﷺ بالصفا وقال:(نبدأ بما بدأ الله به) ولم أعلم خلافاً أنه لو بدأ بالمروة ألغى طوافا حتى يكون بدؤه بالصفا، وكما قلنا في الجمار إن بدأ بالآخرة قبل الأولى أعاد حتى تكون بعدها، وإن بدأ بالطواف بالصفا والمروة قبل الطواف بالبيت أعاد، فكان الوضوء في هذا المعنى أوكد من بعضه عندي والله أعلم"[(٣)].

---

(١) انظر: بدائع الصنائع للكاساني ٢/ ٢٢٧، وشرح العمدة لابن تيمية ٣/ ٦٠١، ومغنى المحتاج للخطيب الشربيني ١/ ٥١٢، وبداية المجتهد لابن رشد ١/ ٢٥١، والجامع لحكام القرآن للقرطبي ٢/ ٤٧٧.

(٢) رواه مسلم في صحيحه برقم/ ١٢١٨.

(٣) الأم للشافعي ١/ ٣٠. والترتيب فرض عند الشافعية وظاهر مذهب الحنابلة. انظر: الكافي ١/ ٣١.

- حرمة كتمان ما أنزل الله من البينات والهدى من بعد ما بينه الله للناس في الكتاب، ولذلك فإن أبا هريرة رضي الله عنه استشهد بهذه الآية على وجوب التبليغ فقال:"لولا آيتان في كتاب الله ما حدثت حديثاً ثم يتلو: (إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات..إلى قوله الرحيم"[1].

قال ابن العربي: "وللآية تحقيق هو أن العالم إذا قصد الكتمان عصى، وإذا لم يقصده لم يلزمه التبليغ إذا عرف أن معه غيره... ومن سئل فقد وجب عليه التبليغ لهذه الآية".[2]

- في قوله تعالى: ﴿ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴾ [١٦١] دليل على جواز لعن الكافر جزاء له على كفره، وإظهاراً لقبح فعله، وتنفيراً عنه وتحذيرا منه، وهذا على الكفار غير المعين، قال الأعرج: ما أدركت الناس إلا وهم يلعنون الكفرة في رمضان[3]. وكذلك المسلم العاصي غير المعين؛ فقد لعن رسول الله ﷺ آكل الربا وغيره من أهل المعاصي.

أما الكافر المعين إذا كان حياً ففي جواز لعنه خلاف؛ فذهب جمهور الفقهاء من الحنفيّة والشّافعيّة والحنابلة في الصحيح إلى أنّه لا يجوز لعنه؛ لأنّنا لا نعلم حاله عند الوفاة، وقد شرط الله تعالى في إطلاق اللّعنة الوفاة على الكفر وذلك في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿١٦١﴾ ﴾.وهذا هو الراجح والله أعلم؛ لوضوح القيد في الآية بالوفاة على الكفر.

وذهب القاضي أبوبكر بن العربي إلى جواز اللعن فقال: " والصحيح عندي جواز لعنه لظاهر حاله كجواز قتاله وقتله"[4].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم / ١١٨ ومسلم في صحيحه برقم/ ٢٤٩٢.
أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٧٢.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ برقم/ ٢٥٣، والبيهقي في سننه الكبرى برقم/ ٤٤٠١،وعبد الرزاق في المصنف برقم/ ٧٧٣٤.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٧٤.

(٤) رواه مسلم في صحيحه برقم / ١٦٩ عن أبي هريرة.

ج - الأخلاق الإسلامية والآداب الشرعية:

- الوسطية ليست فقط خلقاً أو أدباً إسلامياً، ولكنها منهج كامل يميز النظام الإسلامي، ويشمل الوسطية المكانية في العالم، والوسطية الزمانية وقت اكتمال العقل البشري، ويشمل كذلك وسطية التفكير، ووسطية الاعتقاد، بلا إفراط ولا تفريط، ووسطية التكاليف بلا مشقة ولا تهاون، وبالجملة فالوسطية شعار المنهج الإسلامي في كل أموره.

-الامتراء والشك من الأمور التي تناقض اليقين؛ والمسلم مطالب بأن يوقن بكل ما جاء عن الله ولا يكن في صدره أي شك أو مرية، وقد نهى الله نبيه عن الامتراء والمقصود بالنهي الأمة.

- المسارعة إلى الخيرات، والحرص على المبادرة بها شعار المسلم، وهو أمر إلهي قال تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾وتوكيد نبوي، قال رسول الله ﷺ:(بادروا بالأعمال..)[1]، وذلك قبل تغير أحوال المرء، أو تغير أحوال الزمان.

- بعد أن أخبر الحق جل وعلا عن اختلاف المناهج والوجهات بين أن مرجع الناس جميعاً إليه؛ فعند الاختلاف في الطرائق والمذاهب والشرائع والقبل يكون أقربها إلى الحق ما كان أدل على الله وأوصل إليه؛ لأن مرجع الجميع إليه يوم القيامة وحده وإن اختلفت أحوالهم وأزمنتهم وأمكنتهم فمرجعهم إلى رب واحد وإله واحد. فهكذا ينبغي أن يكون مرد الجميع ورجوعهم كلهم إليه وحده في الدنيا فلا يعبدون غيره ولا يدينون بغير دينه إذ هو إلههم الحق في الدنيا والآخرة[2].

- إذا حاجَّ المبطلون المسلمين فعلى المسلم ألا يخاف من حججهم، ولا يخشى إلا الله؛ فقد حذرنا الله الخشية من الظالمين قال تعالى ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾.

---

(١) انظر: بدائع الفوائد لابن القيم ٤/ ٩٦٨.

(٢) أخرجه سعيد بن منصور في سننه ٢/ ٦٣٢ بسند صحيح.

- الأمر بالذكر؛ قال تعالى: ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ ﴾ وهو مستحب استحباباً شديداً؛ فقد أمر به في كثير من الآيات، ونهى عن ضدّه من الغفلة والنّسيان، وعلّق الفلاح بدوامه وكثرته، وأثنى على أهله وجعلهم أهل الانتفاع بآياته، وبين أنّهم أولو الألباب، وأخبر عن خسران من انشغل عن الذّكر بغيره، وجعل ذكره تعالى لأهله جزاء ذكرهم له كما في الآية التي في هذا المقطع، وأخبر أنّه أكبر من كلّ شيء، وجعله قرين الأعمال الصّالحة، وجعله مفتتحها ومختتمها. وقد يكون الذكر واجباً كما في تكبيرة الإحرام.

- الشكر ضد الكفر، وشكر نعمة الله واجب على كل مؤمن؛ فقد أمر الله به، وقرنه بذكره في هذه الآية، ووصف به أنبيائه، وجعله الله سبباً للمزيد من فضله، واشتق لأهل الشكر اسمين من أسمائه فهو الشاكر الشكور، ورضي عن أهله فقال: ﴿ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡ ﴾ [الزمر/ ٧].

- الاستعانة بالصبر على كل شدة، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾، فالصبر على المصائب واجب، ويجب أن يكون عند الصدمة الأولى. وقد ورد أن عبد الله بن عباس نعي إليه أخوه وهو في سفر فنزل فصلى ركعتين أطال فيهما الجلوس، ثم قام يمشي إلى راحلته وهو يقول: ﴿ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾[1].

وقد وعد الله الصابرين بالثناء الحسن منه وبالرحمة وكافأهم بالاهتداء، وعن عمر بن الخطاب قال:" نعم العدلان ونعم العلاوة ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ ﴾ نعم العدلان ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴾ نعم العلاوة"[3]، وقال رسول الله ﷺ: (من استرجع عند المصيبة جبر الله مصيبته وأحسن عقباه وجعل له خلفاً يرضاه)[2].

---

(١) أخرجه البخاري تعليقاً ٣/ ١٧٢ ووصله الحاكم في المستدرك برقم/ ٣٠٦٨ وصححه على شرط الشيخين والبيهقي في السنن الكبرى ٤/ ٦٥، قال ابن حجر في تغليق التعليق ٢/ ٤٧٠: هذا إسناد صحيح.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير برقم/ ١٣٠٢٧. قال الهيثمي: وإسناده حسن. مجمع الزوائد ٦/ ٣١٧.

- فضيلة القتل في سبيل الله؛ فقد أوضحت الآية الكريمة أن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون.

- من تاب من ذنب معين فلابد أن يأتي بما يقابل هذا الذنب ويضاده، فمن كتم العلم وتاب فلابد أن يبين للناس وإلا كانت توبته ناقصة، قال تعالى:﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ ﴾.

د- الجوانب التربوية:

- السفاهة خلق يوجد مع البعد عن منهج الله، ومن أعراضه: الخوض فيما لا طائل من ورائه، والتكلم في أمور المشيئة الإلهية بجهل وضلال.

- لقد اقتضت حكمة المولى تبارك وتعالى أن تكون تولية الوجوه لبيت المقدس أولاً، وذلك لإصلاح النفوس وتهذيبها وتربيتها على معالم الوحي، ولا بأس هنا أن ننقل - في هذا الجانب- كلام سيد قطب بطوله، وذلك لنفاسته؛ فقد قال: ".. كان العرب يعظمون البيت الحرام في جاهليتهم، ويعدونه عنوان مجدهم القومي.. ولما كان الإسلام يريد استخلاص القلوب لله، وتجريدها من التعلق بغيره، وتخليصها من كل نعرة وكل عصبية لغير المنهج الإسلامي المرتبط بالله مباشرة، المجرد من كل ملابسة تاريخية أو عنصرية أو أرضية على العموم.. فقد نزعهم نزعاً من الاتجاه إلى البيت الحرام، واختار لهم الاتجاه - فترة - إلى المسجد الأقصى، ليخلص نفوسهم من رواسب الجاهلية، ومن كل ما كانت تتعلق به في الجاهلية، وليظهر من يتبع الرسول اتباعاً مجرداً من كل إيحاء آخر، اتباع الطاعة الواثقة الراضية المستسلمة، ممن ينقلب على عقبيه اعتزازاً بنعرة جاهلية تتعلق بالجنس والقوم والأرض والتاريخ؛ أو تتلبس بها في خفايا المشاعر وحنايا الضمير أي تلبس من قريب أو من بعيد..

حتى إذا استسلم المسلمون، واتجهوا إلى القبلة التي وجههم إليها الرسول ﷺ وفي الوقت ذاته بدأ اليهود يتخذون من هذا الوضع حجة لهم، صدر الأمر الإلهي الكريم بالاتجاه إلى المسجد الحرام. ولكنه ربط قلوب المسلمين بحقيقة أخرى بشأنه. هي حقيقة الإسلام. حقيقة أن هذا البيت بناه إبراهيم وإسماعيل ليكون خالصاً لله، وليكون تراثاً للأمة المسلمة التي نشأت

تلبية لدعوة إبراهيم ربه أن يبعث في بنيه رسولاً منهم بالإسلام، الذي كان عليه هو وبنوه وحفدته"[١].

- للتكرار أهميته التربوية. وقد تكرر قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ أكثر من مرة وفي كل مرة فائدة كما سبق. يقول محمد قطب : "وكل من مارس التربية مع صغير أو كبير يعلم إلى أي مدى يحتاج من يتلقى التربية إلى التذكير الدائم حتى يستقيم على الأمر المطلوب، ومن ثم يستطيع أن يقدر الهدف التربوي من عملية التكرار في القرآن"[٢].

- المعرفة والعلم بل حتى القول، كل هذا لا يكفي لاتباع الحق؛ فأهل الكتاب كما قال الله ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ [١٤٤]، فلابد مع المعرفة الذهنية من برهان عملي وسلوكي، والنماذج القرآنية أمامنا تؤكد ذلك؛ فإبليس كان عالماً، واليهود كان يعلمون، والمشركون كانوا يقرون لله بالخلق والتدبير، بل كان فرعون وقومه موقنين بالرسالة، قال تعالى ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ﴾ [النمل/ ١٤] لكن العبرة دائماً بثمرة المعرفة، وهي العمل.

- لن يتبع أهل الكتاب قبلتنا، ولن يدخلوا بأجمعهم في الدين الإسلامي، وهذا تنبيه على حتمية الصراع، وأخذ الحذر من المشابهة لهم والاتباع، وحتى لو حاول هؤلاء المشركون أن يفتنوا المسلمين أو يضللونهم فإن الله يوصي جند الحق قائلاً: ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي ﴾ [١٥٠] حتى تتم نعمة الله على المؤمنين.

- لن تكون التزكية بالمناهج المستوردة أو التربية الخالية من نور الوحي، فالتزكية قد حدد القرآن منهجها: لن تكون إلا بتلاوة الكتاب وتدبره، قال تعالى: ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ

---

(١) في ظلال القرآن سيد قطب ١/ ١٢٦.

(٢) دراسات قرآنية لمحمد قطب ص٢٥٣.

رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [١٥١].

- أهمية تعلم الكتاب والحكمة.

- جزاء الذاكر أن يذكره ربه، وهذا جزاء من جنس العمل.

- إن منزلة الشهادة لهي منزلة عالية رفيعة، ولذلك فهي محض اختيار وتفضل إلهي، قال تعالى: ﴿ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ﴾[آل عمران/ ١٤٠] وقال النبي ﷺ في بعض أنواع الشهداء: (رجل مؤمن جاهد بنفسه وماله في سبيل الله حتى إذا لقي العدو وقاتلهم حتى يقتل فذلك الشهيد الممتحن في جنة الله تحت عرشه لا يفضله النبيون إلا بفضل درجة النبوة)[1] وهذا دليل على عظيم هذه المنزلة، ولن تنال هذه الدرجة إلا بتربية طويلة وجادة للنفس، مع دعاء صادق أن يبلغ المرء هذه المنزلة.

- من مقاصد بعثة النبي: تبشير المؤمنين، ومن جملة من ورد الأمر بتبشيرهم: الصابرون. وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾.

- بين الله في الكتاب كل ما يحتاجه الناس مما يصلح أمور دينهم ودنياهم، قال تعالى: ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ﴾ .

المناسبة بين المقطع ومحور السورة:

-إن المتدبر في حادثة تحويل القبلة ليعلم أنه ليس حدثاً عادياً، وإنما هو بمثابة الإعلان العملي على استجابة دعوة إبراهيم التي دعاها وهو يرفع القواعد من البيت؛ فقد دعا ربه لذريته، فجاءت إجابة الدعاء في هذا المقطع وحملت في ثناياها مهمة الأمة وهي الشهادة على الأمم جميعاً.

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه برقم/ ٤٦٦٣، وأحمد في مسنده ٤/ ١٨٥ عن عتبة السلمي، وقال الحافظ المنذري: إسناده جيد. الترغيب والترهيب ٢/ ٢٠٨.

وإذا كان المقطع السابق قد كشف محاولات السابقين كي يتبعهم المسلمون وأبطل عليهم تلك المحاولات بإثبات أن الملة الحنيفية التي أرساها إبراهيم هي الحق الذي يلزمنا اتباعه. فإن هذا المقطع قد أبطل محاولات اليهود في التشكيك في أمر القبلة، والتأثير على ضعفاء المسلمين.

وقد بين هذا المقطع أن أمر القبلة هو الحق الذي يعلمه اليهود ويكتمونه، وذلك في أكثر من آية؛ قال تعالى﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ [١٤٤] وقال: ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [١٤٦] وقال ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ [١٤٧] وقال: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [١٤٩].

وهذه الآيات واضحة الدلالة أن أمر القبلة هو الحق الذي كتمه اليهود وحاولوا إخفائه والتمويه على المسلمين بشأنه. لكن الآيات القرآنية ردت على شبهتهم وبينت حكمة التوجه الأول إلى بيت المقدس، وحكمة التوجه الدائم إلى الكعبة؛ فهي القبلة الوسط التي يرضاها النبي ويشهد الله أنها الحق.

وبوضوح أمر القبلة وانتقالها إلى بيت الله الحرام تنتقل القيادة الدينية عملياً إلى مكانها الرئيس، وتبدأ مرحلة جديدة يطوى فيها الحديث عن المعاندين، ليبدأ الحديث عن مقومات استحقاق هذه الأمة للخلافة الدينية والدنيوية حتى تنصلح بهم الدنيا، ويقوم بهم الدين.

ومما سبق يتضح اتصال موضوع القبلة بمحوري السورة معاً؛ فهو إنهاء لمرحلة مؤقتة وابتداء مرحلة جديدة بما تحمله من تشريعات وأحكام.

المحور الثاني: مقومات استحقاق أمة الإسلام للخلافة والقوامة

المدخل إلى عرض الشرائع التفصيلية للدين الإسلامي [١٦٣- ١٧٧]

﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ (١٦٣) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧) يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (١٦٩) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٧٠) وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ۚ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٧١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ۖ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٧٣) إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٤) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (١٧٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (١٧٦) ۞ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ

وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ البقرة:[١٦٣- ١٧٧].

المناسبة بين المقطع والمقطع السابق:

تحدث المقطع السابق عن تحويل القبلة، وانتهى الحديث إلى أن المؤمنين تبوءوا القبلة الوسط والشريعة الوسط التي تؤهلهم لقيادة الدنيا والشهادة على الناس جميعاً.

وجاء هذا المقطع بمثابة التمهيد الذي يمهد للمسلمين تلقي الأوامر والتكاليف، وهو مرتبط بما قبله ارتباطاً وثيقاً.

ذلك أن الآيات السابقة قد بينت أن يعقوب قد دعا بنيه للتوحيد، لكن ذرياتهم لم يمتثلوا بل حاربوا الدين الجديد بكل ما أوتوا من قوة، فجاء هنا الأمر بالتوحيد وبيانه لتتخذه أمة الإسلام منهجاً لها.

وجاءت قضية التحليل والتحريم بشيء من التفصيل لتبين أن بني إسرائيل قد خالفوا المنهج الإلهي في التشريع فحري بالأمة الجديدة أن توحد مصدر تلقيها الشرعي وألا تحلل أو تحرم بالهوى أو التشهي. وقد جاء المثال على ذلك بالأطعمة والمكاسب وهي مما افترى فيها السابقون على الله الكذب فحللوا وحرموا افتراء عليه وقولاً بلا علم.

قال الدكتور دراز: "ومما زاد موضعه حسناً أن مجيئه في سياق ذكر التوحيد وقع عدلاً لمجيء حكم القبلة في سياق ملة إبراهيم، فكلاهما فرع عظيم يتصل بأصل عظيم،ألا ترى كيف ختم الكلام في شأنه بمثل ما ختم به هناك من وعيد المعاندين الذين يكتمون ما أنزل الله؟ أولا ترى كيف أن الإسلام جعل مسألتي القبلة والذبح كليهما من الشعائر التي يتميز بها المسلم عن غيره، كما يتميز بالشهادة والصلاة: (من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذي له ذمة الله ورسوله)[1].

---

(١) النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز ص٢٤٠،٢٣٩، والحديث: أخرجه البخاري في صحيحه برقم/ ٣٨٤.

وقد ابتدأ المقطع بآيات إثبات التوحيد ثم ثنى بأدلة الوحدانية، ولهذا صلة بما قبله؛ قال القرطبي: "لما حذر تعالى من كتمان الحق بين أن أول ما يجب إظهاره ولا يجوز كتمانه أمر التوحيد، ووصل ذلك بذكر البرهان، وعلم طريق النظر، وهو الفكر في عجائب الصنع، ليعلم أنه لا بد له من فاعل لا يشبهه شيء"(١).

وقد جاء في نهاية المقطع السابق ذكر الكفار وعاقبة أمرهم، فابتدأ المقطع هنا بالأمر بما يضاد الكفر وهو الأمر بتوحيد الله وذكر الأدلة على وحدانيته. ثم عاد الحديث إلى ذم الكفار الذين يقلدون بلا بينة أو برهان وبيان حالهم مع متبوعيهم يوم القيامة.

وأمر التحليل والتحريم مرتبط بآيات التوحيد؛ ذلك أن التحليل والتحريم بالهوى اعتداء على حق الله في التشريع، وإشراك به فيما لم يعطه لأحد من البشر، قال تعالى ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [الشورى/ ٢١].

ثم عاد المقطع للحديث عن اليهود وكتمانهم، وهذا مرتبط بما قبله؛ فقد تحدث المقطع السابق في أكثر من موطن عن كتمانهم للحق، ثم جاء هذا المقطع ليفصل جزاء من كتم ما أنزل الله من الكتاب. واستبدله بعرض من أعراض الدنيا.

وآية البر الجامعة مرتبطة أيضاً بما قبلها؛ فهي ترد عليهم شبهاتهم حول القبلة الوسط، وتبين أن البر الحقيقي ليس في التمسك بقشور الأمور وترك لبابها، قال تعالى ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ﴾ ثم نزعت الآية عنهم فضيلة البر وأرست أصولها وبينت من هم أحق بها وأهلها.

التفسير الإجمالي للمقطع:

ابتدأت الآيات بتقرير وحدانية الله تعالى في ربوبيته وإلهيته، فقال تعالى: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ أي الإله المستحق للعبودية هو الواحد الأحد الفرد الصمد لا إله غيره ولا معبود بحق سواه، وهو واسع الرحمة ومسديها لعباده فلا تُطلب من غيره.

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢/ ٤٨٩.



ولما نزلت هذه الآية عجب المشركون وقالوا: إن كان هكذا فليأتنا بآية فأنزل الله عز وجل:﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[1]،فجاءت هذه الآيات دليلا على الوحدانية؛ فخلق السموات والأرض آية على الوحدانية والقدرة؛ قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ ﴾[ق: ٦-٨] واختلاف الليل والنهار وتعاقبهما آية من آيات الله تعالى، قال سبحانه: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [القصص:٧٢- ٧٣]، والسفن التي تجري في البحر بما ينفع الناس في أسفارهم وتجارتهم آية، قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الشورى: ٣٢: ٣٣]

وإنزال الله المطر من السحاب آية؛قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ﴾ [الروم: ٤٨]

وهذا المطر يحيي الأرض الميتة بالنبات وينتشر بسببه في أرجاء الأرض الأحياء التي تدب على وجهها. ومن دلائل قدرته ووحدانيته تدبير الرياح وتوجيهها على وفق الحكمة والنظام الكوني، فمنها الحارة والباردة ومنها العقيم ومنها الملقحة للنبات.

والآية السابعة والأخيرة تسخير السحاب ونقله من موضع إلى موضع فينزل بذلك المطر، ولولا تصريف السحاب لنزل المطر في البحار، لأن ماء المطر ينتج من تكاثف بخار الماء الموجود في المسطحات المائية، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا

(١) رواه الطبري في جامع البيان ٣/ ٢٦٨ برقم/ ٢٣٩٩، وابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم برقم/ ١٤٦١عن أبي الضحى.

﴿ فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ ﴾ [النور: ٤٣] وفي هذا دلائل واضحة على وجود الله وقدرته ووحدانيته لمن عقل وتدبر.

ومع كل هذه الدلائل الباهرة فإن من الناس أناساً يتجاوزن الله ويتخذون أنداداً مماثلين له، وهم كما يقول أبو السعود: "رؤساؤهم الذين يتبعونهم فيما يأتون وما يذرون، لاسيما في الأوامر والنواهي كما يفصح عنه ما سيأتي من وصفهم بالتبري من المتبعين وقيل: هي الأصنام"(١)، وهؤلاء يطيعون رؤسائهم ويحبونهم كحب الله فيشركون مع الله.

ومِنْ أظهَرِ صور المحبة الطاعة في التحليل والتحريم؛ عن عدي بن حاتم قال:" أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال: يا عدي، اطرح عنك هذا الوثن. وسمعته يقرأ في سورة براءة: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١] قال: أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه(٢).

أما المؤمنون فإنهم أشد حباً لله من كل ما سواه؛ فهو حب خالص لا شرك فيه، لكن هؤلاء المشركين غافلون؛ إذ لو رأى هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بالشرك عذابَ الآخرة وعاينوه بأبصارهم لعلموا أن القوة جميعها لله وأنهم لن تغني عنهم الأرباب وستقطع بهم الأسباب ولن ينجيهم شيء من العذاب.(٣)

وقتئذ سيبالغ المتبوعون في البراءة من أتباعهم بعد أن رأوا العذاب وتقطعت الروابط

---

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود ١/ ١٨٥.

(٢) رواه الترمذي في سننه برقم/ ٣٠٩٥وقال: حسن غريب، والبيهقي في سننه ١٠/ ١١٦.

(٣) هذا المعنى على قراءة الجمهور(ولو يرى) وقرأ نافع وابن عامر ويعقوب (ولو ترى الذين ظلموا) على الخطاب لنبينا محمد والمعنى: لو ترى هؤلاء الظالمين حال رؤيتهم للعذاب لعلمت ما حلَّ بهم من نكال.ويحتمل: ولو ترى لعلموا أن القوة لله تعالى. انظر النشر لابن الجزري ١/ ٢٢٤، والبحر المحيط لأبي حيان١/ ٦٥٤.

والمنافع التي كانت تربط بينهم في الدنيا، فلا خير يرتجى ولا شر يندفع فيمضي التابعون بحسرة ما بعدها حسرة، ويتمنوا أن لو كان لهم رجعة إلى الدنيا ليتنصلوا من رياستهم أو ليتبعوا الحق ثم يعودوا للآخرة فيتبرؤوا منهم[1]، كذلك يريهم الله ويظهر لهم أعمالهم الدنيوية الفاسدة وقد صارت سبباً لحسرتهم وشدة ندامتهم، ولن يخرجوا من النار ليعودوا للدنيا تائبين ولا للجنة منعمين.

ومن أوجه اتخاذ الأنداد من دون الله ما درج عليه اليهود ومشركو العرب من التحليل والتحريم للأطعمة بزعمهم افتراء على الله، فبين الله للناس جميعاً أنه أباح لهم ما في الأرض بشرط أن يكون طيباً غير خبيث فلا يتبعوا إغواء الشيطان ووسوسته في التحريم، ففي الحديث القدسي: (**واني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم**)[2]، فالتحليل والتحريم بالهوى اتباع للشيطان مع أن عداوته بينة واضحة.

ثم ذكرت الآية تفاصيل إغواء الشيطان للناس وذلك بأن يزيِّن بكل ما يسوء فعله وبكل ما عظم قبحه وفحش أمره ويأمرهم كذلك بالقول على الله بالتحليل والتحريم من غير علم، وذلك من أكبر الكبائر. قال تعالى: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾** ﴾ [الأعراف: ٣٣] وإن هؤلاء المكذبين من اليهود والمشركين إذا جوبهوا بما هم عليه من الباطل وأمروا باتباع الحق أضربوا عن قول الناصحين واعرضوا قائلين: بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا، وهذا أمر مستنكر؛ أيتبعون آباءهم وما كانوا يعقلون شيئاً من الدين ولا يهتدون للصراط المستقيم.

ثم ضربت الآيات مثلاً يقبِّح من شأن كفرهم ويبين حالهم مع الهداية وأنهم-كأسلافهم-

---

(١) اقتصر على الوجه الأول البيضاوي في تفسيره ١/ ٤٤٤ وذكر الوجه الثاني أبو حيان في البحر المحيط ١/ ٦٤٧.

(٢) رواه مسلم في صحيحه عن عياض بن حمار المجاشعي برقم/ ٢٨٦٥.

يعيشون في عماية، فمثلهم مع الداعي كمثل الراعي[١] الشفيق على من يرعاه، يذودهم عن موارد الهلكة، ويرشدهم إلى الخير والنفع، فهو ينعق وينادي بالدعوة، والكفار كالمنعوق به من البهائم التي لا حظ لها إلا السماع بلا تعقل أو فهم أو قبول[٢].

فكما أن البهائم لا نصيب لها من صوت الداعي إلا السماع، فكذلك الكفار لا نصيب لهم من دعوة النبي إلى الإيمان إلا السماع؛ إذ هم غافلون وعن سماع القبول معرضون.

والذي أوصلهم إلى ذلك أنهم صم عن سماع أي خير، بكم فلا ينطقون بمعروف، لا يعقلون ما يتلى عليهم، قد ألغوا عقولهم وأصموا آذانهم وأصروا على ما هم عليه تقليداً وعناداً.

ثم جاءت الآيات للرد على هؤلاء الذين يحللون ويحرمون من تلقاء أنفسهم ونهت المؤمنين أن يسلكوا طريقهم، فأمرتهم أن يأكلوا مما طاب لهم من رزق الله، قال عليه الصلاة والسلام: "إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا ﴾ [المؤمنون: ٥١] وقال ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ ﴾[٣]". كما أمرتهم أن يشكروا ربهم على ما أولاهم من فضله إن كانوا مقرين لله وحده بالخلق والأمر فلا يجعلوا له أنداداً في التحليل والتحريم.

ولما كان اليهود والمشركون قد حرموا على أنفسهم ما أحل الله لهم فإن الله قد بيَّن للمسلمين فساد مسلكهم وفصل لهم ما حرم؛ فلم يحرِّم ربنا إلا الميتة من غير ذبح شرعي، والدم السائل،

---

(١) قال سيبويه: لم يشبهوا بالناعق، وإنما شبهوا بالمنعوق به؛ وإنما المعنى: ومثلكم ومثل الذين كفروا كمثل الناعق والمنعوق به الذي لا يسمع إلا دعاءً، ولكن جاء سعة الكلام والإيجاز لعلم المخاطب بالمعنى". الكتاب ١/ ١٠٨.

(٢) وهذا اختيار الفراء في معاني القرآن ١/ ١٠٠، والزجاج في معاني القرآن وإعرابه ١/ ٢٤٢، وابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٢٣٨، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن ٣/ ١٩، وغيرهم.

(٣) رواه مسلم في صحيحه / ١٠١٥

ولحم الخنزير، وما رُفعَ الصوتُ عند ذبحه لغير الله، وهذا على الغالب ويعم كل ذبح لغير الله ولو كان بغير رفع صوت، قال تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

إعجاز علمي[1]:

وفي إتيان هذه المحرمات مخالفة للفطرة السليمة، وأضرار صحية؛ فإن الحيوان إذا مات فإنه يموت بسبب ميكروبات وُجدت فيه فتغلبت عليه، وبموته تنشط بكتريا التعفن حتى يصبح كل جزء من الحيوان يحتوي على مئات الألوف من البكتريا التعفنية التي تصيب بالسل والتسمم الغذائي والجمرة الخبيثة والتهاب الكبد الوبائي والأمراض الطفيلية وغير ذلك.

والدم يحوي سموماً و فضلات كثيرة و مركبات ضارة؛ و ذلك لأن إحدى وظائفه الهامة هي نقل الفضلات و السموم مثل حمض البوليك و الكرياتنين، كما يحمل الدم بعض السموم التي ينقلها من الأمعاء إلى الكبد لتعديلها؛ فهو أصلح وسط لنمو شتى أنواع الجراثيم و لتكاثرها.

والخنزير حيوان قذر يعيش على النفايات، ويبلغ عدد الأمراض التي تصيبه (٤٥٠) مرضا ويختص الخنزير بمفرده بنقل (٢٧) مرضاً وبائياً للإنسان ومن أكثر ما يصيب آكليه: الدودة الشريطية والصداع وآلام المفاصل والعمود الفقري.

فمن ألجأته الضرورة وهي شدة الجوع كما قال تعالى ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣] من فعل ذلك غير قاصد الطعام لذاته

---

(١) انظر: الوجيز في الطب الإسلامي د/ هشام إبراهيم الخطيب ص٢٢٥، الإسلام والطب د/ محمد وصفي ص١٩٩، الإعجاز التشريعي في تحريم الخنزير للدكتور / فهمي مصطفى محمود. ص٧ من بحوث المؤتمر العالمي السابع للإعجاز العلمي.

ولا متعد قدر الضرورة فلا ذنب عليه، فالله واسع المغفرة لمن ارتكب الحرام للضرورة عظيم الرحمة به إذ جعل له في شرعه مخرجاً.

ولا تزال الآيات متواصلة في الحديث عن رهبان اليهود؛ فبعد أن تحدثت عن تشريعهم من عند أنفسهم وتحريمهم الحلال ونقضت أحكامهم وبينت ما يحل وما يحرم عادت الآيات ثانية لتتحدث عن حكم كتمان ما أنزل الله من الكتاب على وجه العموم سواء كان ذلك بكتمان نقطة أو بإخفاء معناه بضرب من التأويل والتحريف ليستبدلوا بذلك عرضاً من أعراض الدنيا القليلة فإنهم بذلك ما يأكلون في بطونهم إلا ما يوصلهم إلى نار الله يوم القيامة[1]، ولا يكلمهم الله يوم القيامة كلام محبة ولا يزكيهم ويطهرهم مما ولغوا فيه بالمغفرة ولا يزكيهم بالثناء عليهم لأنهم كتموا التزكية عن الناس، ولهم عذاب مؤلم لأبدانهم.

وهناك صلة أخرى بين هذه الآية والتي قبلها؛ فقد تحدثت الآيات السابقة عن الأطعمة المحرمة وتحدثت هذه الآية أيضاً عن الطعام المحرم الذي يأكله علماء السوء في بطونهم من الرشوة على كتمان الحق؛ فهو من جنس ترك المباحات وأكل المحرمات أيضاً.

وما كان ذلك إلا بسبب أفعالهم فهم الذين اشتروا العدول عن الطريق المستقيم بالهداية إليه في الدنيا وترتب عليه أن اشتروا في الآخرة العذاب بدلاً عن مغفرة الله فيا لطول صبرهم على النار! وهذا تعجيب للمؤمنين من حالهم وتخويف وإلا فأنى لهم أن يصبروا على العذاب المقيم؟

وما استحقوا هذا إلا بسبب ظلمهم لأنفسهم؛ لأن الله أنزل الكتاب بالحق الثابت الذي جاء للهداية ونبذ الفرقة في اختلاف بعيد عن الحق.

ولما أكثر أهل الكتاب من الخوض في شأن القبلة وطال لجاجهم فيها بيَّن الحق جل وعلا أن أمر القبلة ليس هو البر المقصود؛ فليس الخير الذي يتقرب به المرء إلى ربه في التوجه إلى جهة

---

(١) وهذا القول اختاره أكثر المفسرين؛ انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣/ ٤٩. والوجيز للواحدي ١/ ١٤٥، وفتح القدير للشوكاني ١/ ١٧١، والتسهيل في علوم التنزيل لابن جزي ١/ ٦٩، وغيرهم.

المشرق أو المغرب، ولكن البر الحقيقي الذي هو وصف جامع لخصال الخير كلها إنما يتكون من عدة أمور وجوانب تشمل الاعتقادات والعبادات والأخلاق والمعاملات، فالاعتقادات تشمل الإيمان بالله وحده واليوم الآخر وهما جماع كل خير، وأساس كل بر وهما الغايات الأصلية، ثم جاءت الغايات الوسيطة وهي التصديق بالملائكة وبجنس الكتب المنزلة من السماء، وبكافة النبيين بغير تفريق بين أحد منهم.

وبعد أصول الإيمان جاء ذكر إنفاق المال على حب المؤتي للمال كما قال تعالى: ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران:٩٢] وسئل رسول الله ﷺ: أي الصدقة أعظم أجراً؟ فقال: (أن تصدق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا، ولفلان كذا، وقد كان لفلان)[1].

والظاهر أن المقصود به التطوع لأن الزكاة سيأتي ذكرها في الآية، ثم ذكرت الآية المستحقين وأولهم قرابة الشخص، قال تعالى: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [الإسراء:٢٦] وقال ﷺ: (الصدقة على ذي الرحم اثنتان صدقة وصلة)[2]، وكذلك إيتاء اليتيم الذي فقد والده وهو صغير، والمسكين الذي أسكنه الفقر فلا يسأل الناس والمسافر الذي انقطع به الطريق فصار ملازماً له فسُميَّ بـ (ابن السبيل) والمحتاجين الذين يسألون الناس، وإعطاء المال أيضاً للمساعدة في تخليص الرقاب من الرق والأسر، ثم قال(وأقام الصلاة) أي أداها كاملة تامة كما أمر الله وآتى الزكاة المفروضة.

ثم انتقل إلى الأخلاق التي هي ثمرة العبادة فذكر أصولها وهي الوفاء بالعهد إذا عاهد الإنسان، قال تعالى ﴿ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٤] والعهد هنا يشمل الدين كله؛ إذ هو مما يعاهد عليه المرء ربه، قال رسول الله: (لا إيمان لمن لا أمانة له ولا

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ١٣٥٣، ومسلم في صحيحه برقم/ ١٠٣٢ عن أبي هريرة.

(٢) رواه مسلم في صحيحه برقم/ ٥٦٥ عن أبي هريرة.

دين لمن لا عهد له)[1]، والتحلي بحلية الصبر في وقت الشدة والفقر ووقت المرض و الضر ووقت البأس أي قتال العدو، قال تعالى ﴿ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الأحزاب:١٨] أولئك الموصوفون بهذه الصفات الذين صدقوا في إسلامهم وإيمانهم وأولئك هم المتقون لربهم حقاً.

وقد جمعت هذه الآية الخير كله، فذكرت أصول العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق، وهي واسطة العقد بين محوري السورة.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أ- القضايا العقدية:

- تحريم شرك المحبة، وذلك بأن يشرك مع الله غيره في محبته، وهذا أقبح أنواع الشرك وأشدها، يقول ابن القيم: "وهؤلاء المشركون يحبون أوثانهم وأصنامهم وآلهتهم مع الله كما يحبون الله فهذه محبة تأله وموالاة يتبعها الخوف والرجاء والعبادة والدعاء، وهذه المحبة هي محض الشرك الذي لا يغفره الله ولا يتم الإيمان إلا بمعاداة هذه الأنداد وشدة بغضها وبغض أهلها ومعاداتهم ومحاربتهم. وبذلك أرسل الله جميع رسله، وأنزل جميع كتبه، وخلق النار لأهل هذه المحبة الشركية، وخلق الجنة لمن حارب أهلها وعاداهم فيه وفي مرضاته"[2].
- طالما أن المحبة تتفاضل وهي من الإيمان، فالإيمان كذلك يتفاضل.
- التحليل والتحريم حق خالص لله تعالى، وكما لا يشاركه أحد في الخلق فكذلك لا يشاركه أحد في الأمر، قال تعالى: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ [الأعراف/ ٥٤] بل إن النبي ﷺ لا يحلل أو يحرم إلا بالوحي الصريح على الراجح، قال النبي: (أيها الناس إنه ليس بي تحريم ما أحل الله لي)[3].

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه برقم/ ١٩٤، والضياء في المختارة برقم/ ١٦٩٩،وسنده حسن. التيسير بشرح الجامع الصغير ١/ ٣٩١.

(٢) الروح لابن القيم ص ٢٥٤.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه برقم/ ٥٦٥.

- من أمور البر: الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين، وهي أصول العقيدة الإسلامية، وإذا كانت الأحاديث النبوية قد زادت الإيمان بالقدر كما في حديث جبريل[(١)]، فإنه لا يعد زيادة على ما في الآية؛ لأن القدر في حقيقته داخل في جملة الإيمان بالله، لأنه صفة من صفاته؛ قال عمر رضي الله عنه: "القدر قدرة الله"[(٢)].

ب- الأحكام الشرعية:

- في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ ﴾ دليل على إباحة ركوب البحر في التجارة والجهاد وغيرهما للرجال و النساء، لا كراهة في ذلك ولا حرمة.

وما ورد من نهي عن بعض الصحابة فمحمول على الاحتياط والخوف على الأرواح المؤمنة، وما ورد عن مالك في نهي النساء عن ركوب البحر تأوله بعض أصحابه أن السفن بالحجاز صغار وإن النساء لا يقدرن على الاستتار عند الخلاء فيها لضيقها وتزاحم الناس فيها وكان الطريق من المدينة إلى مكة على البر ممكناً فلذلك كره ذلك مالك. قال: وأما السفن الكبار نحو سفن أهل البصرة فليس بذلك بأس[(٣)].

- يجب أن يكون كسب الإنسان حلالاً طيباً اتباعاً لظاهر النص القرآني.

- تحريم القول على الله بغير علم قال تعالى: ﴿ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ وجعله الله قرين الشرك والفواحش وذلك في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأعراف/ ٣٣]. وعلى هذا فلا يجوز لأحد أن يحلل أو يحرم من تلقاء نفسه ما لم يأذن به الله، قال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم/ ٨ عن عمر.

(٢) أخرجه ابن بطة في الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية برقم/ ١٥٦٢.

(٣) انظر: التمهيد لابن عبد البر ١/ ٢٣٣.

أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [يونس/ ٥٩].

- تحريم أكل الميتة التي خرجت روحها من غير ذبح، وقد جاء تفصيل بعض أنواع الميتة في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ ﴾ [المائدة/ ٣]. وقد خصصت السنة العموم الوارد في الآية فأباحت أكل نوعين من الميتة وهما الواردان في حديث النبي: (أحلت لنا ميتتان: السمك والجراد)(١).

- الانتفاع بالميتة على وجه العموم لا يجوز،عن جابر قال"..قيل: يا رسول الله، أرأيت شحوم الميتة، فإنها تطلى بها السفن، وتدهن بها الجلود، ويَسْتَصبِحُ بها الناس؟ فقال: "لا هو حرام)(٢). وقد خص الدليل منها الجلد المدبوغ، لأن في دباغة طهارته كما ورد.

- تحريم الدم، قال ابن العربي: "اتفق العلماء على أن الدم حرام نجس لا يؤكل ولا ينتفع به"(٣). وقد اتفق أهل العلم على أن المحرم هو الدم المسفوح أي السائل، لقوله تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا ﴾ [الأنعام/ ١٤٥] أما الدم الذي في العروق واللحم فمعفو عنه ولا شيء فيه.

- تحريم لحم الخنزير بكل حال سواء ذبح أو لم يذبح، ويحرم كذلك شحمه وجلده. وأجاز بعض أهل العلم الخرازة بشعره(٤).

- تحريم أكل ما ذكر عليه اسم غير اسم الله، ومن هذا القبيل ذبائح المشركين والمجوس ومن لا دين لهم.

---

(١) أخرجه ابن ماجه برقم/ ٣٢١٨واحمد ٢/ ٩٧، والبيهقي برقم/ ١١٢٩ مرفوعاً وموقوفاً على ابن عمر وقال في الموقوف: هذا إسناد صحيح وهو في معنى المسند. وانظر: فتح الباري ٩/ ٦٢١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم/ ٢١٢١ ومسلم في صحيحه برقم/ ١٥٨١.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٧٩.

(٤) وهو قول مالك وأبي حنيفة وغيرهما.وقيده الأحناف بالضرورة انظر: حاشية ابن عابدين ٥/ ٧٢ كفاية الطالب الرباني ١/ ٧٣٤.

- تحريم ما قُصد غير الله به، مثل أن يذبح للأصنام أو لبعض المشاهد الشركية.

- إذا علمنا أن الذابح من أهل الكتاب لم يذكر اسم الله على ذبيحته، فذكر اسم المسيح ﷺ مثلاً فالراجح عند جمهور الفقهاء عدم إباحة الأكل منها لأنها مما أهل به لغير الله. وتكره فقط عند المالكية[١].

- أجمع العلماء على أن المضطر سواء كان مسافراً أم مقيماً يباح له أن يأكل الميتة ويأكل بقدر ما يسد رمقه ويبعد عنه الخطر، ولا يتعدى ذلك إلى ما فوق الشبع، وهل يباح له الشبع أم لا؟ قولان لأهل العلم، أظهرهما الأول. والله أعلم[٢].

- استدل جمع من الفقهاء بمفهوم الآية على أن المسافر سفر معصية لا يباح له الرخصة. وهذا قول الحنابلة والشافعية في أصح القولين، وذكروا في ذلك قاعدة وهي أن الرخص لا تناط بالمعاصي.

أما أبو حنيفة فإنه يرى أن حكم الرخصة ثابت لكل مضطر سواء كان في طاعة أو معصية، ورجح القرطبي هذا القول لأن إتلاف المرء نفسه في سفر المعصية أشد معصية مما هو فيه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء/ ٢٩][٣].

- الأكل من الميتة وغيرها من المحرمات للضرورة الظاهر أنه واجب لاستبقاء النفس وليس برخصة، وعلى هذا فلو تركه ومات كان عاصياً. قال الكيا الطبري: " وليس أكل الميتة عند الضرورة رخصة بل هو عزيمة واجبة، ولو امتنع من أكل الميتة كان عاصياً"[٤].

---

(١) الأم للشافعي ٢/ ٢٣١ والمبسوط للسرخسي ١١/ ٢٤٦، منح الجليل ٢/ ٤١٣. أحكام أهل الذمة لابن القيم ١/ ٥١٧.

(٢) انظر: المغني لابن قدامة ٩/ ٣٣٠. وبداية المجتهد لابن رشد ١/ ٣٤٩.

(٣) انظر في المسألة: أحكام القرآن للجصاص ١/ ١٥٦، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣/ ٤٦.

(٤) أحكام القرآن للكيا الطبري ١/ ٤٢. وانظر: المجموع للنووي ٩/ ٣٦، وهو ظاهر الرواية عند الأحناف كما في المبسوط ٢٤/ ٤٨ ومذهب المالكية كما في الفواكه الدواني ٢/ ٢٨٦.

- استفاد الفقهاء والأصوليون من هذه الآية قاعدة ذهبية وهي: الضرورات تبيح المحظورات. وهي من القواعد الفقهية الكبرى، قال ابن تيمية: "ومن استقرأ الشريعة في مواردها ومصادرها وجدها مبنية على قوله تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة/ ٣] فكل ما احتاج الناس إليه في معاشهم ولم يكن سببه معصية هي ترك واجب أو فعل محرم لم يحرم عليهم لأنهم في معنى المضطر الذي ليس بباغ ولا عاد"[1].

ج - الأخلاق الإسلامية والآداب الشرعية:

- محبة المؤمنين لله أكمل المحاب وأخلصها. وهي روح الدنيا ولذة المؤمنين الذين يجدون بها حلاوة الإيمان. ومحبته تعالى تكون بأمرين هما دافع كل محبة: أولهما: مطالعة أسمائه وصفاته ومعرفة نعوته الجليلة مما يورث القلب محبة وإنابة. وثانيهما: معرفة آلائه ونعمه الحسية والمعنوية وتقديرها حق قدرها فهذا مما يورث في القلب محبته جل في علاه.

والمحبة عند المحققين على نوعين: فرض وفضل؛ أما الفرض فهي المحبة المستلزمة لأداء الأوامر واجتناب النواهي. والفضل الترقي في النوافل والتوقي عن صغير الرذائل.

- ذم التقليد، والسير على نهج الآباء بلا بينة، وهو أشد قبحاً في أمور الاعتقاد؛ إذ قد يؤدي بالمرء إلى الكفر.

- أهمية شكر النعمة، قال تعالى ﴿ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ .

- إيتاء المال على حبه أبلغ في الإيثار، وأدعى لنيل البر، قال تعالى:في وصف الأبرار ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ [الإنسان/ ٨].

- استدل بالآية من قال إن في المال حقاً سوى الزكاة؛ ذلك لأن الآية ذكرت إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ثم ذكرت إيتاء المال على حبه فهذا دليل على هذا الإيتاء ليس بزكاة، ومما يشهد لهذا ما

---

(١) القواعد النورانية الفقهية لابن تيمية ص١٤٣.



روي عن فاطمة بنت قيس عن النبي ﷺ أنه قال:"في المال حق سوى الزكاة، وتلا هذه الآية: ﴿ لَيْسَ ٱلْبِرَّ ﴾ إلى آخر الآية[١].

- الإحسان إلى ابن السبيل باب من أبواب الخير، وابن السبيل مصرف من مصارف الزكاة، لكن الآية عامة في كل صدقة، وقد جاء في الحديث الاقتران بين إعطاء اليتامى والمساكين وابن السبيل الذي يخرج في طلب العلم وغيره من الأمور المباحة فقال رسول الله ﷺ عن المال: (فنعم صاحب المسلم ما أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل)[٢].

- الإحسان إلى السائلين، وإعطائهم من أموال التطوع، ولو كان شيئاً يسيراً؛ وعن أم بجيد رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله، السائل يأتيني وليس عندي ما أعطيه؟ فقال لها رسول الله ﷺ: (لا تردي سائلك ولو بظلف)[٣].

- فضل إعتاق الرقاب، وبيان عظيم أجره.

- فضل الوفاء بالعهد والثناء على أهل الوفاء، وفيه تعريض بمن كان الغدر وعدم الوفاء ديدنهم.

- فضل الصبر في الفقر والمرض والحرب، وعظيم أجره وثوابه، ويكفي أن معية الله بالنصر والحفظ والتأييد والمعونة تكون مع الصابرين.

د- الجوانب التربوية:

- العاقل حقاً من يحسن التعامل مع الكون بالنظر في آيات الله متفكراً متدبراً، فإن التدبر في مخلوقات الله يدل على حكمة أفعاله وجلال صفاته الحسنى، ويدل أيضاً على تصديق رسله

---

(١) أخرجه الترمذي برقم/ ٦٥٩ وقال: حسن غريب والبيهقي في السنن الكبرى ٤/ ٨٤ وضعفه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم/ ١٣٩٦ عن أبي سعيد.

(٣) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه برقم/ ٢٤٧٢، وبنحوه عند الترمذي وابن حبان وغيرهم.وهو صحيح.

ووحيه، قال تعالى ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت/ ٥٣]، ويفتح الآفاق لمكتشفات العلم، وبالجملة فالتدبر والنظر بعين الفكر باب كل خير، ومفتاح أبواب البر.

- التبعية تعني انقياد الإنسان لغيره انقياداً تاماً، وقد تكون محمودة إذا قصد بها اتباع أمر الله ورسله، وقد تكون مذمومة إذا قصد بها اتباع الباطل أو تقليد الآباء الضالين، وقد جمع بينهما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ [١٧٠]. وقد بينت الآيات الكريمة أن التبعية لأهل الباطل من السادات والكبراء في الأوامر والنواهي الظالمة جزاؤها في الآخرة أن تتقطع كل العلاقات ويتبرأ بعضهم من بعض ويلعن بعضهم بعضاً حتى يقرن بينهم جميعاً في نار جهنم. جزاء وفاقاً لما صنعوا. والمؤمن الحق لا يكون إمعة لكل ناعق، بل يتبع الحق وأهله أين كانوا.

- ورد النهي عن اتباع خطوات الشيطان في أربع آيات من القرآن الكريم[1]، وهذا أيضاً من التبعية المذمومة، وخطوات الشيطان آثاره وأعماله وتزيينه للعباد، والمؤمن المخاطب بهذه الآيات ينهاه إيمانه أن يتبع خطوات الشيطان لأنها توصله إلى شقاء الدارين، ولأن الشيطان أيضاً بتنكر لأتباعه يوم القيامة.

- لا رهبانية في الإسلام، ولا تحريم لما أحل الله، ومن فعل ذلك فهو راغب عن هدي النبي ﷺ غير مستجيب لهدي القرآن في الأكل من كل الحلال الطيب، متبع للشيطان في خطواته المضلة.

- التزكية معناها التطهر من كل دنس وسوء، وقوامها أمران: جهد بشري باتباع هدي النبي المبعوث لتزكية الناس، قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ ﴾ [الشمس/ ٩] وتوفيق من الله، ومن فعل ما يغضبه سبحانه فإنه لا يزكيه.

---

(١) في البقرة آية ١٦٨، وآية ٢٠٨. والأنعام ١٤٢ والنور ٢١.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة:

جاء المقطع كمدخل للتشريعات الجامعة التي ستلقى على المسلمين فلازَمَ أن يبدأ بتقرير الأصل الاعتقادي وهو إفراد الله بالوحدانية في ذاته وصفاته، وذلك ليعلم المسلم ويوقن بوحدة مصدر التلقي، ثم دلفت الآيات من ذلك إلى تقرير الوحدة التشريعية؛ وذلك بأن يعتقد المسلم اعتقاداً جازماً أن الله وحده هو الذي يشرع لعباده وقرر ذلك ببيان ما حرم عليهم من الأطعمة، وقد تصير المحرمات هذه حلالاً عند الاضطرار، وهذا من رحمة الله بعباده، أما الشياطين فإنهم يأمرون بكل فاحشة، وكذلك الآباء المتبوعون لا يعقلون ولا يهتدون. وبهذا يتصل هذا الجزء بكل ما سيأتي بعده من تشريعات وحدود يبينها الله وحده، واتصل كذلك بسابقه لِما علمنا من افتراء اليهود والمشركين على الله في التحريم والتحليل.

ثم ذكرت آية البر أوصاف الخير الجامعة وبينت أن هذه الخصال هي مما يحافظ عليها المسلمون، وقد سبق في المقطع الأول أن بني إسرائيل قد تركوا البر وأمروا به الناس، قال تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ [٤٤] فقد تخلوا هم عن البر وأثبته الله للمسلمين.

وذكرت آيات السورة في محورها الأول أن بني إسرائيل لم يوفوا بعهودهم مع الله، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ ﴾ [٢٧] وقال: ﴿ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ﴾ [١٠٠] وجاء تذكيرهم بالوفاء بالعهد في أكثر من آية، قال تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ [٤٠] وجاء هنا إثبات هذه الصفة للمؤمنين في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ﴾ [١٧٧] وبذلك تتسق هذه الآيات مع المحور العام للسورة؛ حيث نكث اليهود عهدهم فسُلِبَتْ منهم القوامة ووفَّى المؤمنون بعهدهم فاستحقوا أن يكونوا هم المتقين الصادقين.

المقطع الأول: تفصيل بعض أمور البر [١٧٨-٢٠٣]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨) وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩) كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (١٨٠) فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨١) فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤) شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥) وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦) أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٨٧) وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٨) ۞ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

﴿١٨٩﴾ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ۞ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ »

المناسبة بين المقطع والمقطع السابق:

ابتدأ هذا المقطع بذكر الدية في القتلى، وبين ما يجب على ولي القتيل وما يجب على القاتل من الاتباع بالمعروف والأداء بإحسان، ثم جاء ذكر الوصية قبل الموت للوالدين والأقربين بالمعروف حتى ينال كلٌ نصيبه من الخير وهذا كله متصل بما قبله اتصالاً وثيقاً.

ذلك أن الآيات السابقة تحدثت في شأن إطابة المطعم في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ ﴾ [١٦٨] وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [١٧٢] ونهت عن بعض الأطعمة المحرمة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [١٧٣] ثم نددت بأكل الرهبان أموال الناس حراماً في بطونهم وذلك في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًاۙ أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ ﴾ [١٧٤]

واتصل الحديث هنا عن أكل الأموال وعدم أدائها في الديات في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى ﴾ [١٧٨] وكذلك أداء الوصايا وعدم تضييع الحقوق وأكل أموال الناس بالباطل.

ثم جاء حديثٌ مفصّل عن الصيام وبعض أحكامه وآثاره، وهذا متصل بما قبله من الحديث عن أكل الحرام؛ لأن في الامتناع عن الطعام والشراب الحلال تدريباً على الامتناع عن الحرام من باب أولى، وتشجيعاً على إطعام المساكين كما أمرت آيات الصوم، وتعويداً على الجود والكرم في تلك الأيام المباركة.

وبعد آيات الصيام مباشرة جاء النهي عن أكل السحت والرشوة، واتصاله بما قبله لا يحتاج إلى بيان.

ثم جاء الحديث عن الأهلة وارتباطها بشعيرتي الصيام الحج، فكان الحديث عن الأهلة رابطا يصل بين العبادتين وبين الجهاد كذلك لارتباطه بالشهور القمرية، وهذا هو محور الحديث في الآيات المتبقية في هذا المقطع.

وقد ابتدأت الآيات بالحديث عن الجهاد والأمر به وبيان غايته، ثم جاءت الإشارة إلى جهاد المال بعد جهاد النفس، وانتقل الحديث بعد ذلك إلى الحج وتفصيل أحكامه.

والحج لون من ألوان الجهاد، وفي كليهما تفصيل لجانب من جوانب البر المذكورة في آية البر السابقة؛ إذ أن في كليهما الصبر، ويختص الحج بالصبر في البأساء لأن فيه إنفاقاً، ويختص الجهاد بالصبر حين البأس، أما الصوم فإنه صبر على الجوع والعطش فيعد صبراً على الضراء، فبذلك يكون هذا المقطع بأكمله إجمالاً وتفصيلاً لبعض أمور البر المذكورة في المقطع السابق.

التفسير الإجمالي للمقطع:

بين تعالى أنه فرض القصاص الذي يفيد معنى المساواة والمماثلة[١]، وقد ذهب جمع من المفسرين أن المقصود بذلك أن يُقْتَلَ القاتل المتعمد كما قتل، فيُقتَل الحرُّ بالحر، وقاتل العبد يقتل بالقتيل العبد، وكذلك الأنثى إذا قتلت قاتلها تقتل، وهذا إبطال لعادات العرب في الجاهلية، روى ابن حاتم عن ابن عباس قوله: وذلك أنهم كانوا لا يقتلون الرجل بالمرأة، ولكن كانوا يقتلون الرجل بالرجل والمرأة بالمرأة[٢].

وذهب الشعبي إلى سبب نزول آخر فقال:" كان بين حيين من العرب قتال فقتل من هؤلاء ومن هؤلاء، فقال أحد الحيين: لا نرضى حتى نقتل الرجل بالمرأة، وبالرجل الرجلين، وارتفعوا إلى النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ: (القتل بواء) أي سواء، فاصطلحوا على الديات،

(١) قال ابن تيمية: "والقصاص مصدر قاصه يقاصه مقاصة وقصاصاً ومنه مقاصة الدينين أحدهما بالآخر" مجموع الفتاوى ١٤/ ٧٤.

(٢) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره عنه بسند حسن ١/ ٢٩٤ برقم/ ١٥٧٨.

ففضل لأحد الحيين على الآخر، فهو قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ ﴾ إلى قوله ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ ﴾ قال سفيان: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ ﴾ يعني: فمن فضل له على أخيه شيء فليؤده بالمعروف[1].

وقد رجح ابن تيمية هذا الوجه؛ وذلك لعدة أسباب:

أولها: إذا فسرناها بالقتل فالقصاص لا إلزام فيه، وإنما غايته أنه مباح، والآية جاءت بلفظ ﴿كُتِبَ ﴾ الذي يفيد الإلزام والوجوب.

وثانيها: لم يُكتب على الأمة استيفاء القتل من القاتل، لأنه حق لولي الأمر، وهذه الآية خطاب للأمة.

وثالثها: أنه تعالى قال في القتلى﴿ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ﴾ و معلوم باتفاق المسلمين أن العبد يقتل بالعبد و بالحر، و الأنثى تقتل بالأنثى و بالذكر، والحر يقتل بالحر و بالأنثى أيضاً عند عامة العلماء. وإذا كان كذلك فالآية تدل على مقاصة الحر بالحر و معادلته به و مقابلته به وكذلك العبد بالعبد و الأنثى بالأنثى، و هذا إنما يكون إذا كانوا مقتولين فيقابل كل واحد بالآخر وينظر أيتعادلان أم يفضل لأحدهما على الآخر، أما في القتلى فلا يختص هذا بهذا باتفاق المسلمين.

ورابعها: أن لفظ ﴿عُفِيَ ﴾ هنا قد استعمل متعدياً، فإنه قال: ﴿ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ ﴾ و لم يقل عفا شيئاً، فالعفو عن القتل يقال فيه عفوت عن القاتل، فدلالة اللفظ توحي باستعماله في الدية لا في العفو عن القاتل[2].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف برقم/ ٢٧٩٧٣ .وذكره الجصاص في أحكام القرآن ١/ ١٨٥ . ثم قال: فأخبر الشعبي عن السبب في نزول الآية، وذكر سفيان أن معنى العفو ههنا الفضل وهو معنى يحتمله اللفظ، قال الله تعالى : ﴿حتى عفوا﴾ يعني كثروا، وقال عليه السلام: (أعفوا اللحى) فتقدير الآية على ذلك: فمن فضل له على أخيه شيء من الديات التي وقع الاصطلاح عليها فليتبعه مستحق بالمعروف، وليؤد إليه بإحسان. وذكره الكيا الطبري في كتابه: أحكام القرآن١/ ٥٥ .

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٤/ ٧٣-٧٧. بتصرف كثير.



والظاهر رجحان ما ذهب إليه ابن تيمية رحمه الله؛ لقوة أدلته ووجاهتها. وعلى هذا يكون تأويل الآية: يا من تحليتم بحلية الإيمان، وجب عليكم المكافأة والمماثلة في ديات القتلى؛ الحر له دية الحر، والعبد له دية العبد، وكذلك الأنثى إذا قُتلَت لها دية الأنثى، وبهذا تكون المساواة والتكافؤ، قال رسول الله ﷺ:(المسلمون تتكافأ دماؤهم)[١] وهذا دليل على أن الإسلام دين المساواة ولا طبقية فيه.

وبعد أن ذكرت الآية فريضة العدل اتبعتها بفضيلة العفو؛ فمن عفا له أخوه في الدين عن شيء من الدية فيتبع الولي القاتل بالمعروف في أمر الدين فلا يُكلَّفُ القاتلُ شططاً قال تعالى في دية القتل الخطأ: ﴿ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ﴾ [النساء:٩٢] وعلى القاتل أن يؤدي الدية بإحسان بلا مطل أو نقصان وهذا الحكم من المولى تبارك وتعالى تخفيف ورحمة بعد أن كانت التوراة تلزم بالقصاص[٢].

فمن تعدى بعد ذلك بأن قتل بعد أخذ الدية أو طلب مالاً زائداً أو آذاهم بسبب ما بينهم من دم فله من الله العذاب المؤلم يوم القيامة.

ثم ذكرت الآيات علة مشروعية القصاص وهي أنه حياة للأنفس ولا يفقه ذلك إلا أولوا العقول الخالصة منهم، بهذا يتقون ربهم ويتحرزون عن سفك الدماء وكل اعتداء.

وإذا كان أمر المساواة والمماثلة في الدية مما يصلح حال المجتمع كله ومن فهم حكمته

---

(١) رواه أبو داود في سننه برقم/ ٢٧٥١، وابن ماجه في سننه برقم/ ٢٦٨٥والبيهقي في سننه الكبرى ٨ / ٢٨ وأحمد في مسنده٢/ ٢١٥ كلهم عن عبد الله بن عمرو، والحديث صحيح وله طرق. انظر: تلخيص الحبير لابن حجر ٤/ ١١٨.

(٢) كما في الفصل التاسع عشر في سفر الخروج، والعشرين من التثنية وروى البخاري في صحيحه برقم/ ٤٢٢٤ عن ابن عباس قال" كان في بني إسرائيل القصاص ولم تكن فيهم الدية، فقال الله تعالى لهذه الأمة: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ ﴾ فالعفو أن يقبل الدية في العمد".

وصل إلى التقوى فإن هناك أيضاً ما يوصل إلى التقوى ويصلح حال المجتمع الصغير والأسرة، وهو تشريع الوصية الذي فرضه الله أيضاً كما فرض القصاص؛ فإذا حضر المسلم أسباب الموت وظهرت أماراته وكان ذا مال كثير فليوص بشيء من ماله للوالدين ولأهل قرابته بالوجه المعروف الذي لا يضر الورثة وهو الثلث كما بينته السنة في حديث سعد بن أبي وقاص حيث قال: يا رسول الله: أوصي بمالي كله؟ قال: لا قال: فالشطر؟ قال: لا قال: الثلث؟ قال: الثلث والثلث كثير،[1] وهذه الوصية حق على المتقين لله.

ومن حِكَم الوصية تحصيل الذكر الحسن في الدنيا، ونوال الثواب والدرجات العلا في الآخرة، لذلك شرعها الشارع استدراكاً للعمل الصالح قبل الموت وإجراء للثواب على المرء بعد موته، ومكافأةً لمن أسدى للمرء خيراً، وصلةً للرحم للأهل والأقارب غير الوارثين، وسداً لحاجة المحتاجين، وتخفيفاً للكرب عن الفقراء والمساكين.قالﷺ:(إن الله تصدق عليكم عند وفاتكم بثلث أموالكم زيادة لكم في أعمالكم)[2].

فمن غيّر في الوصية أو بدل بعد ما سمعه من الموصي وتحقيق منه فإنما إثمه على من بدل لا على من كتب وأوصى والله يسمع أقوال عباده ويعلم أحوالهم وأفعالهم فلا يخفى عليه جنف الموصين وتبديل المتعدين.

فمن خاف من الموصي ميلاً فأصلح بين الورثة والموصي كما شرع الله ففي هذه الحالة لا إثم عليه لأنه أراد المصلحة، ولهذا فإن الله غفور له رحيم به.

وقد ذهب جمهور العلماء إلى أن هذه الآية نسخت بآية المواريث وبقوله ﷺ: (إن الله قد أعطى لكل ذي حق حقه فلا وصية لوارث)[3]، وذهب الطبري إلى أن الآية غير منسوخة فقال:

---

(١) صحيح البخاري كتاب: الوصايا باب: أن يترك ورثته أغنياء خير من أن يتكففوا الناس (٢٧٤٢).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٢٠/ ٥٤، وقال الهيثمي: إسناده حسن. مجمع الزوائد ٤/ ٢١٢.

(٣) رواه أبو داود في سننه برقم/ ٢٨٧٠،والترمذي في سننه برقم/ ٢١٢٠وابن ماجه في سننه برقم/ ٢٧١٣عن أبي أمامة. قال ابن حجر :وهو حسن الإسناد. تلخيص الحبير٣/ ٩٢.

"هي محكمةٌ غيرُ منسوخة. وإذا كان في نسخ ذلك تنازع بين أهل العلم، لم يكن لنا القضاءُ عليه بأنه منسوخٌ إلا بحجة يجب التسليم لها، إذ كان غير مستحيل اجتماعُ حكم هذه الآية وحكمُ آية المواريث في حال واحدةٍ على صحة، بغير مدافعةِ حكم إحداهما حُكمَ الأخرى"[1]. وحملها على الوصية للوالدين والأقربين الذين لا يرثون بسبب اختلاف دين أو غير ذلك، وعلى هذا تكون آية المواريث والحديث مخصِّصَين للعموم الوارد هنا ولا نسخ.

آيات الصيام:

وإذا كان تشريع القصاص والمماثلة يصلح المجتمع كله، وتشريع الوصية يصلح المجتمع الأسري الصغير، فإن تشريع الصيام الذي جاء أيضاً بلفظ ﴿كُتِبَ﴾ يصلح الفرد ويجعله من المتقين ولهذا خاطب ربنا المؤمنين بالخطاب المحبب إلى نفوسهم مبيناً أنه شرع وفرض عليهم الصيام كما فرضه على الأمم السابقة لكي يتحصل لهم التقوى. وتلتزم نفوسهم مراقبة المولى.

والحديث في الصوم موصول بما قبله وما بعده من النهي عن أكل أموال الناس بالباطل، وقد سبق بيان وضوح هذا الخط في الآيات السابقة، وجاء اللحاق لينهى عن أكل أموال الناس بالباطل، وبين هذين جاء الحديث عن الصوم الذي هو تقوية لإرادة الخير في النفوس المؤمنة، وبذلٌ وإعطاءٌ وصدقةُ فطر وجودٌ وكرمٌ حتى تتخلص النفوس من نوازع الحرص والشح والإمساك وطلب الحرام من باب أولى.

من حِكَم الصوم:

فرض الله على عباده الصوم، وهو أدرى بما يصلح أحوالهم، فهو الحكيم في أمره، وإذا أحببنا أن نتلمس بعض حكم الصيام فإننا نوجزها فيما يلي:

١- الصّوم من أبواب شكر النعمة؛ فهو حبس النّفس عن نعم الأكل والشّرب والجماع. والامتناع عنها زماناً معتبراً يعرِّف قدرها، فرتابة النعمة تنسي ذكر المنعم، أما إذا فقدها المرء

---

(١) جامع البيان للطبري ٣/ ٣٨٥.

فترة عرف قيمتها فأدى شكرها، قال تعالى في آية الصّيام: ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

٢- الصّوم وسيلة إلى التّقوى؛لأنّه إذا انقادت نفس للامتناع عن الحلال طمعاً في ثواب الله تعالى، وخوفاً من عقابه، فأولى أن تنقاد للامتناع عن الحرام، فكان الصّوم سبباً لاتّقاء محارم الله. قال تعالى في آخر آية الصّوم ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ .

٣- أنّ في الصّوم قهر الطّباع وكسر الشّهوة؛ فالنّفس إذا شبعت تمنّت الشّهوات، وإذا جاعت امتنعت عمّا تهوى، ولذا قال النّبيّ يا معشر الشّباب: (من استطاع منكم الباءة فليتزوّج؛ فإنّه أغضّ للبصر، وأحصن للفرج،ومن لم يستطع فعليه بالصّوم؛فإنّه له وجاء)[1] فكان الصّوم ذريعةً إلى الامتناع عن المعاصي.

٤- أنّ الصّوم دافع للرحمة والعطف على المساكين؛ فالصائم إذا ذاق ألم الجوع في بعض الأوقات، ذكر من هذا حالهم في غالب الأوقات، فتسارع إليه الرّقّة عليهم، والرّحمة بهم بالإحسان، فينال بذلك ما عند الله تعالى من حسن الجزاء. وقد روي أن يوسف عليه السلام كان يكثر من الصوم وهو على خزائن أرض مصر، فلما سئل عن ذلك قال: أخاف أن أشبع فأنسى الجائع[2].

٥- في الصّوم موافقة الفقراء، بتحمّل ما يتحمّلون أحياناً، وفي ذلك رفع حاله عند الله تعالى[3].

٦- في الصّوم قهر للشّيطان؛ فإنّ وسيلته إلى الإضلال والإغواء:الشّهوات، وإنّما تقوى الشّهوات بالأكل والشّرب. وفيه تقوية للإرادة وصفاء للذهن .

٧- والصوم يعلم المسلم انضباط المواعيد ويشعره بوحدة المسلمين جميعاً في الصوم والفطر.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم/ ٤٧٧٩ ومسلم في صحيحه برقم/ ١٤٠٠ عن عبدالله بن مسعود.

(٢) في رحاب التفسير للشيخ عبد الحميد كشك ١/ ٣٣٤.

(٣) شرح فتح القدير للكمال بن الهمام ٢/ ٣٠١.

٨- والصوم يربي خلق الصبر؛ فإنه يرى ما يشتهي ولا يتمكن منه.

أضف إلى هذا فوائده الصحية التي كتب فيها الأطباء بحوثاً طبية طيبة[١].

وقد كان الصوم مشروعاً في كل الديانات السابقة، وهذا من التخفيف على المسلمين حين يعلمون أنهم ليسوا بدعاً من الناس في الصوم؛ فقد كان الصوم معروفاً في الديانات السابقة لكن على هيئات مختلفة، فالتشبيه هنا تشبيه فرضية فقط والله أعلم.

وقد ذكرت الآية الحكمة المرادة من تشريع الصوم وهي حصول التقوى؛ وذلك إنما يكون بسلوك منهج المراقبة الذي يفرضه الصوم؛ إذ هو عبادة لا يطلع عليها أحد، ولذلك فإنها تقوى ملكة مراقبة الله وتقواه.

ثم جاء التخفيف الآخر وهو قوله تعالى: ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ﴾ وهذا يدل على قلتها، لأن الشيء إذا قل فإنه يُعدُّ، ومن التخفيف أيضاً: أن من كان مريضاً بمرض يشق معه الصوم بتأخير شفائه أو كان مسافراً سفراً يقصر الصلاة فعليه إن أفطر صوم عدة أيام المرض والسفر من أيام أخر غير شهر رمضان، وجاءت الأيام مطلقة فلا يلزم التتابع.

ومن التخفيف أيضاً: أن على من أطاق الصيام بمشقة إن أفطروا أن يفدوا عن كل يوم طعام مسكين، قال ابن عباس في الآية:" ليست بمنسوخة؛ هو الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما فيطعمان مكان كل يوم مسكيناً"[٢]، ويرجح هذا الوجه أن الإطاقة في اللغة اسم لمقدار ما يمكن للإنسان أن يفعله بمشقة، وذلك تشبيه بالطوق المحيط بالشيء[٣]. ويشهد له أيضاً قراءة ابن عباس: يطوَّقونه، وقد وردت في الحديث المذكور قبل قليل. ويدخل في جملة هؤلاء الحامل والمرضع؛ فإن لهما أن يفطرا ويقضيا.

---

(١) انظر: موسوعة الإعجاز العلمي ص٩٤٨ ومجلة الإعجاز التابعة لرابطة العالم الإسلامي.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم/ ٤٢٣٥.

(٣) المفردات للراغب الأصفهاني ص ٣١٢.

فمن تطوع بأن زاد في الإطعام فهذا خير له وأفضل، والصوم خير قربةٍ لمن علم ثواب الصيام وعظيم أجره.

ثم فصلت الآيات وقت الصيام وبينت أن شهر رمضان الذي ابتدأ فيه نزول القرآن هداية للناس جميعاً إلى الدين القويم ودلائل واضحة تهدي للصراط المستقيم وتفرق بين سبيل المؤمنين والكافرين. قال تعالى ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ ﴾ [القدر:١] فمن حضر الشهر فإنه يلزمه صومه متى كان مكلفا، قال ﷺ: (صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته).[١]

ثم أعادت الآيات ذكر الرخصة للمريض والمسافر احتراساً؛ لأن القارئ للآيات عندما يعرف عظيم فضل الصيام وخيريته وبركات رمضان قد يظن أن الصوم هو الأفضل للمسافر والمريض بكل حال.

ثم ختم هذه التخفيفات بأنه تعالى يريد بعباده اليسر، قال تعالى ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج:٧٨] وقال ﷺ:(إن خير دينكم أيسره)[٢]، ثم بين علة الأمر بمراعاة العدد وهي لإكمال عدة الصوم، أما علة الأمر بالتكبير فهي لما علمّنا سبحانه من كيفية القضاء والخروج من عهدة الفطر، وقوله: ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ علة الترخيص والتيسير.[٣]

والتكبير مشروع بعد اكتمال عدة الصيام وانقضاء العبادة.

وقوله ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي ﴾ قال الراغب: "هذه الآية من تمام الآية الأولى؛ لأنه لما حث على تكبيره، وشكره على ما قيضه لهم من تمام الصوم، بيّن أن الذي يذكرونه ويشكرونه قريب منهم، ويجيب لهم إذا دعوه، ثم تمم ما بقى من أحكام الصوم"[٤]، والمعنى: وإذا سألك

---

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ١٨١٠ومسلم في صحيحه برقم/ ١٠٨١ عن أبي هريرة.
(٢) رواه أحمد في مسنده ٣/ ٤٧٩، قال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح. مجمع الزوائد ١/ ٦١.
(٣) الكشاف للزمخشري ١/ ٢٥٢ بتصرف.
(٤) انظر: محاسن التأويل للقاسمي ٣/ ٩١.



عبادي عني فإني قريب منهم بإجابة دعائهم، وحقق ذلك بقوله تعالى: ﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ فليطلبوا إجابتي لهم إذا دعوني أو فليجيبوا لي إذا دعوتهم للإيمان والطاعة كما أني أجيبهم إذا دعوني لقضاء حوائجهم.[١] فإذا استجابوا كانوا على رجاء حصول الرشد وهو الاهتداء لمصالح الدين والدنيا.

ومجيء آيات الدعاء وسط آيات الصوم يلفت النظر لأهمية دعاء الصائمين وأنه أهل لأن يستجاب له، قال ﷺ: (إن للصائم عند فطره لدعوة ما ترد)[٢]، وفي الآية إيناس للمؤمنين وتلطف في الخطاب لهم؛ فقد نسبهم الله تعالى إليه بالعبودية الخاصة، ولم يأت لفظ فقل لهم إني قريب، وإنما جاء الرد مباشرة بلا واسطة، وجاء الرد على السؤال بصيغة الإجابة مباشرة للدلالة على السرعة. كلُّ هذا مما يستجيش في المؤمن مشاعر الحب والإنابة ويدفعه للإقبال على ربه والاستجابة لأمره.

ثم تعود الآيات لبيان تخفيف الله على الصائمين وذلك بإباحة الجماع لهم في ليلة الفطر، فالرجل ستر ولباس لزوجه يمنع أن يظهر منها سوء وكذلك المرأة لزوجها، كما يمنع اللباس صاحبه أن تبدو منه سواه، وحكمة هذا التشريع أن الله يعلم أنكم كنتم تخونون أنفسكم وتنقصون حقها من الخير فقبل توبتكم وخفف عنكم، فهذا الزمان قد صار يباح فيه المباشرة بالجماع واطلبوا ما كتب الله وقضى لكم من التحصين والولد.

قال البراء: لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله، وكان رجال يخونون أنفسهم، فأنزل الله: ﴿ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ﴾[٣].

ثم أباح لهم بعد ذلك الأكل والشرب حتى يظهر ويتضح بياض النهار من سواد الليل في

(١) البحر المحيط لأبي حيان ٢/ ٥٤.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك برقم/ ١٥٣٥ وابن ماجه في سننه برقم/ ١٧٥٣ عن عبد الله بن عمرو، قال البوصيري: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات. مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه ٢/ ٨١.

(٣) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ٤٢٣٨.

الفجر، وعن سهل بن سعد قال: أنزلت ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ ﴾ ولم ينزل ﴿ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ وكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجله الخيط الأبيض والخيط الأسود، ولا يزال يأكل حتى يتبين له رؤيتهما، فأنزل الله بعده ﴿ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ فعلموا أنما يعني الليل والنهار.[1]

ثم أمر بإتمام صوم كل يوم حتى تغرب الشمس قال رسول الله ﷺ: (إذا أقبل الليل من ههنا وأدبر النهار من ههنا وغربت الشمس فقد أفطر الصائم)[2]، واستثنى سبحانه من المباشرة ليلة الفطر حالة المعتكف في المسجد إذا رجع بيته لقضاء حاجةٍ له فلا يباح له حينئذ أن يقرب أهله.

وفي الآية إشارة إلى فضيلة الاعتكاف؛ وهو المكث في المسجد بنية التقرب إلى الله؛ فهو مما يفرغ الإنسان من شواغل الدنيا فيصفو قلبه بالانقطاع إلى العبادة وملازمة بيت الله، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، وتحري ليلة القدر، ومداومة قراءة القرآن والذكر.

وما سبق من الأحكام المتعلقة بالصيام هي أوامر الله التي تحجز بين الحلال والحرام فمن اقترب منها وقع فيها، ومثل ذلك البيان الذي سبق ذكره يبين الله تعالى آياته وفرائضه للناس لكي يكونوا على رجاء تقواه وخشيته.

وجدير بمن امتنع عن الطعام والمباشرة في نهار رمضان تعبداً لله جدير وحريٌّ به ألا يأكل أموال الناس بالباطل وألا ينفقها بالباطل بأن يتوصل بها إلى الحكم على سبيل الرشوة ليأكل طائفة من أموال الناس متلبساً بالإثم مع العلم بسوء عاقبة هذا الفعل.

وفي مناسبة النهي عن الرشوة لما قبله قال أبو حيان: "ومناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة؛ وذلك أن من يعبد الله تعالى بالصيام فحبس نفسه عما تعوّده من الأكل والشرب والمباشرة

---

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ١٨١٨، ومسلم في صحيحه برقم/ ١٠٩١، وورد في روايات عند البخاري / ١٨١٧ ومسلم/ ١٠٩٠ أن من هؤلاء عدي بن حاتم، وقد حدث هو عن نفسه بذلك.

(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ١٨٥٣، ومسلم في صحيحه برقم/ ١١٠٠ عن عمر بن الخطاب.

بالنهار، ثم حبس نفسه بالتقييد في مكان تعبُّدِ الله تعالى صائماً له ممنوعاً من اللذة الكبرى بالليل والنهار جدير أن لا يكون مطعمه ومشربه إلاّ من الحلال الخالص الذي ينور القلب ويزيده بصيرة ويفضي به إلى الاجتهاد في العبادة، فلذلك نهى عن أكل الحرام المفضي به إلى عدم قبول عبادته من صيامه واعتكافه، وتخلل أيضاً بين آيات الصيام آية إجابة سؤال الداعي وسؤال العباد الله تعالى، وقد جاء في الحديث: (إن من كان مطعمه حراماً وملبسه حراماً ومشربه حراماً ثم سأل الله أنَّى يستجاب له)[١] فناسب أيضاً النهي عن أكل المال الحرام"[٢].

ولما كان توقيت الصيام والحج وشيء من أحكام الجهاد مرتبطاً بأهلة الشهور جاء الحديث عن الأهلة إجابةً لسؤال من بعض الصحابة؛ عن أبي العالية قال: بلغنا أنهم قالوا: يا رسول الله، لم خلقت الأهلة؟ فأنزل الله ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ يقول: جعلها الله مواقيت لصوم المسلمين وإفطارهم وعدة نسائهم ومحل دينهم."[٣]، ولكن ليس في الآية ما يفيد عن أى شيء سألوا في الأهلة.

والمشهور أنهم سألوا عن أحوال الهلال وتغيره ولهذا جاء بصيغة الجمع ﴿ٱلْأَهِلَّةِ﴾ فكانت الإجابة أن الأهلة أوقات ترتبط بها مصالح الناس وعباداتهم، وقد يكون سؤالهم مرتبطاً بما سيأتي بعد من الحديث عن النسيء الذي كان يفعله المشركون، قال القرطبي: "وقيل: إنه النسيء وتأخير الحج به، حتى كانوا يجعلون الشهر الحلال حراماً بتأخير الحج إليه، والشهر الحرام حلالاً بتأخير الحج عنه"[٤]. وبذلك يكون سؤال الصحابة عن الأهلة التي تُعرف بها الشهور، وعن النسيء الذي يقوم به المشركون.

(١) هو جزء من حديث عند مسلم في صحيحه برقم/ ١٠١٥ عن أبي هريرة مرفوعاً.

(٢) البحر المحيط لأبي حيان ٢/ ٦٢.

(٣) رواه ابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم ١/ ٣٢٢ عن أبي العالية، وعند الطبري عن قتادة وفي بعض الروايات الضعيفة أن السائل معاذ بن جبل وثعلبه بن غنيمة. انظر: الدر المنثور، السيوطي ١/ ٤٩٠.

(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣/ ١٨٩، وذكره الماوردي في: النكت والعيون ١/ ٢٥٠ عن ابن بحر. وهذا الوجه ينسجم مع ما سيأتي بعد من أحكام الحج والجهاد والقتال في الأشهر الحرم.

ثم صحح الله لهم مفهوم البر، وأنه ليس في إتيان البيوت وكل الأمور من ظهورها كعادة الجاهلين، ولكن البر الحقيقي في تقوى الله واجتناب نواهيه والتزام أوامره، فأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لتكونوا على رجاء الفلاح.

عن البراء: قال: كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت من ظهره، فأنزل الله: ﴿ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ﴾[1]، هذا هو سبب النزول الوارد، ومعلوم أن عموم اللفظ لا يخصصه سبب النزول، ولذلك فإن الرازي ذكر لفتة طريفة في صلة شطر الآية الثاني بما قبله حيث قال: "جعل إتيان البيوت من ظهورها كناية عن العدول عن الطريق الصحيح، وإتيانها من أبوابها كناية عن التمسك بالطريق المستقيم، وهذا طريق مشهور في الكناية؛ فإن من أرشد غيره إلى الوجه الصواب يقول له: ينبغي أن تأتي الأمر من بابه، وفي ضده يقال: إنه ذهب إلى الشيء من غير بابه."[2]

ولأن الأهلة مرتبطة بالجهاد كما سبق، حيث تحريم القتال في الأشهر الحرم، فقد جاء بعد الآية الحديث عن قتال المشركين، فقد روي أن النبي صُد عن البيت في الحديبية ثم صالحه المشركون فرضي على أن يرجع عامه القابل ويخلوا له مكة ثلاثة أيام، فلما كان العام القابل تجهز هو وأصحابه لعمرة القضاء وخافوا ألا تفي لهم قريش وأن يصدوهم عن المسجد الحرام بالقوة ويقاتلوهم، وكره أصحابه قتالهم في الحرم والشهر الحرام فأنزل الله ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ ﴾[3].

وذكر الربيع بن أنس أن هذه الآية أول آية في الإذن للمسلمين في قتال المشركين، وسياق الآيات يشهد لصحة قوله[4]، فأذن الله للمؤمنين أن يقاتلوا من قاتلهم وذلك لتكون كلمة

(١) رواه البخاري في صحيحه/ ٤٥١٢ ومسلم في صحيحه بنحوه/ ٣٠٢٦

(٢) التفسير الكبير للرازي ٥/ ١٠٨.

(٣) أخرجه الواحدي من طريق الكلبي عن ابن عباس ص١٣

(٤) انظر: العجاب في بيان الأسباب لابن حجر ١/ ٤٦٦.

الله العليا، وألا يعتدوا بالبدء أو بقتال من لم يقاتل كالنساء والصبيان[1] والعجزة أو يتلفوا المزروعات وغير ذلك فإن الاعتداء محرم لا يحب الله أهله.

فإذا نشب القتال فاقتلوهم أينما أدركتموهم، قال تعالى: ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الأنفال: ٥٧] وأخرجوهم من المكان الذي أخرجوكم منه كما أخرجوكم؛ فلتكن همتكم متوجهة إلى قتالهم وإخراجهم كما أن همتهم متوجهة إلى قتالكم وإخراجكم، ثم بين سبحانه العلة بقوله: ﴿ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ أي أن فتنتهم للمسلمين بالإيذاء والصد عن سبيل الله أشد من القتل ثم استثنى من الأمر بقتالهم في المحاربين في كل مكان المسجد الحرام سوءاً؛ فمن دخل منهم الحرم فهم آمن، إلا إذا قاتل المسلمين، ولأن الله تعالى يعلم تحرج المسلمين من ذلك فأكده بقوله ﴿ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ﴾ ومثل هذا الجزاء ما سيصيبهم في الآخرة بسبب كفرهم.

فإن انتهوا عن قتالكم وتوقفوا أو تابوا عن الكفر وأسلموا فإن الله غفور لما أسلفوا رحيم بمن أحسن. قال تعالى: ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [الأنفال: ٦١]

وإذا كانت الآيات السابقة قد بينت مبتدأ القتال فإن الآية اللاحقة قد بينت غايته وهي الأمر بقتالهم لكي لا تكون منهم فتنة تصيب المؤمنين وتمنعهم من إظهار الدين، ولكي يكون الدين كله خالصاً لله بلا أثر من إكراه أو غيره، أو حتى يكون دين الله الإسلام هو العالي على جميع الأديان. فإن انتهى المشركون عما كانوا عليه فلا عدوان عليهم طالما لم يظلموا، فالعدوان إنما يكون على الظالمين.

ولئلا يتحرج المسلمون من قتالهم في الأشهر الحرم إذا قاتلهم المشركون قال تعالى ﴿ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ﴾ فالأمور بالمقاصة، ومن انتهك الشهر الحرام وما يجب

---

(١) وقد نهى النبي عن قتل النساء والصبيان كما في البخاري كتاب: الجهاد باب: قتل النساء في الحرب بيقم (٣٠١٥) وهو عند مسلم في كتاب الجهاد باب تحريم قتل النساء والصبيان في الحرب برقم (١٧٤٤).

احترامه فعليه تدور الدوائر ويقتص منه بمثل ما فعل، ثم أَيَّدَ الحكم بأن من اعتدى على المسلمين فليعتدوا عليه بقدر ما اعتدى بلا زيادة ولا نقصان، ثم أمر بعد ذلك بتقوى الله فلا يعتدوا على أحد ولا يظلموا أحداً بالزيادة في الإيذاء، وليْعلم المؤمنون أن الله مع أهل التقوى بالمعونة والنصرة وحسن العاقبة.

ولما كان الجهاد الذي هو بذل الأنفس لا يقوم إلا ببذل الأموال أمر الله المسلمين أن ينفقوا في سبيل إعلاء كلمة الله وألا يلقوا بأيديهم إلى التهلكة وذلك: "بالإمساك عن النفقة في الجهاد أو تركه"[1]، فإذا ترك المسلمون الجهاد والنفقة والاستعداد تسلط عليهم غيرهم. ثم أمر الله المؤمنين أن يحسنوا في كل أقوالهم وأفعالهم فإن الله يحب أهل الإحسان.

وكانت آيات القتال هذه وصلاً بين آيات الصيام والحج، ذلك أن الحج تأتي أشهره بعد الصيام، ثم إن أسباب النزول تشير إلى وجوه مناسبات أخرى؛ فقد سبق بيان أن المسلمين خافوا أن يصدهم المشركون عن المسجد الحرام فسألوا عن النسيء، ثم بعد ذلك حرضهم القرآن على القتال وأمرهم بعد ذلك بإتمام الحج والعمرة لله ولا يتخوفوا من مواقف المشركين، فإن حصل لهم حصر من العدو فعليهم الهدي.

أمر تبارك وتعالى بأداء الحج والعمرة بمناسكها المشروعة لوجه الله تعالى، ثم بين حكم الحاج أو المعتمر إن حبسه عدو عن إتمامها وأراد التحليل فعليه ما تيسر من الهدي الذي يهُدى إلى فقراء الحرم من بدنة أو بقرة أو شاة لينحر، وعليه ألا يحلق رأسه تحللاً من الإحرام إلا إذا بلغ الهَدْيُ موضعه الذي ينحر فيه وهو موضع الإحصار، ومن حكمة التحليل: التخفيف ودفع الحرج؛ فلو لم يشرع له التحلل لظل محرماً إلى أن يزول المانع وفي هذا ما فيه من المشقة، فخفف الله على من احصر بالهدي.

ومن كان منكم أيها المحرمون مريضاً مرضاً يحتاج معه إلى الحلق، أو كان به أذى من رأسه

(١) تفسير الجلالين للمحلي والسيوطي ص٤٠.



كجراحة أو قمل فعليه إن حلق فديه من صيام أو صدقة أو نسك، وعن كعب بن عجرة قال: "حُملت إلى النبي ﷺ والقمل يتناثر على وجهي، فقال: ما كنت أرى أن الجهد قد بلغ بك هذا..! أما تجد شاة ؟ قلت: لا. قال: صم ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع من طعام واحلق رأسك، فنزلت فيَّ خاصة وهي لكم عامة".[١]

ثم انتقل إلى حكم الأمن بعد حكم الإحصار فقال: إذا كنتم آمنين من أول الأمر أو صرتم بعد الإحصار آمنين، فمن تمتع بإحرامه بالعمرة في أشهر الحج ليستفيد الحل حين وصوله للبيت ويستمر متمتعاً بالإحلال إلى وقت الإحرام بالحج فعليه ما تيسر من الهدي لأنه تمتع بالنسكين معاً ﴿ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ ﴾ من الحل، فإذا لم يجد الهدي فعليه بعد الإحرام أن يصوم ثلاثة أيام قبل الفراغ من أعمال الحج وإذا رجع إلى بلده بعد الفراغ من الحج فعليه أن يصوم سبعة أيام، ثم أجمل التفصيل فقال: تلك عشرة كاملة؛ لئلا يتوهم متوهم أن الكلام على التخيير بين الأمرين بل مجموع الصوم بدل عن الهدي، وهذا الحكم من الهدي أو بدله عن فقده لمن كان أهله غائبين عنه، أما من كان من أهل مكة وأهله حاضرين فإن الله يجبره بفضل منه، واتقوا الله ولا تجنوا على الإحرام واعلموا أن الله شديد العقاب لمن جنى على إحرامه.

ثم بين سبحانه وقت الحج وأنه أشهر معلومات وهي شوال وذو القعدة وذو الحجة، وعبَّرت الآيات عن الأشهر بأنها معلومات لأن العرب كانت تعرف أشهر الحج منذ عهد إبراهيم فجاء الإسلام مُقرّاً لما علموا، أو أنها معلومة مؤقتة بوقت معين لا يتقدم ولا يتأخر. فمن أوجب عن نفسه الحج بالشروع فيه فلا يقرب الجماع ومقدماته ولا يخرج عن حدود الشرع بفعل محظور ولا يجال أو يماري مع رفقائه؛ لأن في هذا كله خروجاً عن مقصد الحج من التطهر والتذكر، قال رسول الله ﷺ: (من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه)[٢].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ٤٢٤٥ ومسلم في صحيحه برقم/ ١٢٠١.

(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ١٧٢٣ ومسلم في صحيحه برقم/ ١٣٥٠.

فإن تخلى الناس عن هذه الأمور، فعليهم بالتحلي بالطاعات وكل ما يفعلونه من قربات فإن الله يعلمها فليتزودوا من كل خير مادي[١] ومعنوي، وخير زاد يحصله المرء التقوى فليحرص عليها أولاً العقول الخالصة الذين يعقلون عن الله ما أمر.

ولأن التزود بالأعمال الصالحة والحرص عليها هو ديدن الحاج فجاءت الآيات مستدركة لما يتوهمه أحد من البعد عن التزود المادي، فبيَّن تعالى أنه لا إثم ولا ذنب على من طلب فضل الله في التجارة، قال تعالى ﴿ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ [المزمل: ٢٠] وهو ربح التجارة، وقد كان بعض الناس يتحرج من ذلك كما ورد عن ابن عباس قال: كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقاً في الجاهلية، فتأثموا أن يتجروا في المواسم، فنزلت: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ . في مواسم الحج.[٢] والمراد إباحة التكسب في أيام الحج، والحرص على التزود من كل فضل ديني ودنيوي، فيشمل التجارة ويشمل كذلك ما يفعله الإنسان وهو يرجو به فضل الله ورحمته من كل أفعال الخير[٣]، ومن جملة ذلك وأعظمه الوقوف بعرفات.

فإذا اندفعتم أيها الحجاج مفيضين من جبل عرفات بعد الوقوف به يوم التاسع فلتتجهوا إلى المشعر الحرام بمزدلفة ذاكرين الله بالتكبير والتهليل والتلبية، واذكروا الله ذكراً كثيراً مماثلاً لهدايته إياكم أو لأجل هدايته لكم، وإنكم كنتم من قبل هداية الله لمن الضالين عن الصراط المستقيم.

ثم أمرهم الله أن يفيضوا بعد ذلك من مزدلفة إلى منى كما فعل أبوهم إبراهيم حتى يظلوا على إرثه في هذه العبادة العظيمة، قال ابن عباس: ".. ثم ليدفعوا من عرفات إذا أفاضوا منها حتى يبلغوا جَمعاً الذي يُتَبَرَّرُ فيه ثم ليذكروا الله ذكراً كثيراً، أو أكثروا التكبير والتهليل قبل أن

---

(١) كما في حال أهل اليمن؛ فعن عبد الله بن عباس قال: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون، ويقولون: نحن متوكلون، ثم يقدمون فيسألون الناس. فنزلت. رواه البخاري في صحيحه برقم/ ١٤٥١.

(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ٤٢٤٧.

(٣) انظر: البحر المحيط لأبي حيان ٢/ ١٠٤.

تصبحوا، ثم أفيضوا فإن الناس كانوا يفيضون، وقال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ ﴾ حتى ترموا الجمرة[١].

ثم أوضحت الآيات أن الذكر لا يكون مقتصراً على وقت دون وقت، بل يحرص الإنسان على أن يتبع الطاعة بالطاعة، فإذا أديتم أيها الحجيج نسككم في عرفات ومزدلفة فاذكروا الله كما كنتم تذكرون آباءكم في الجاهلية بل اذكروه أكثر، فهو المنعم المتفضل؛ عن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية يقفون في المواسم فيقول الرجل منهم: كان أبي يطعم ويحمل الحمالات ويحمل الديات ليس لهم ذكر غير فعال آبائهم، فأنزل الله على نبيه محمد ﷺ ﴿ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ ﴾ يعني: ذكر آبائهم في الجاهلية أو أشد ذكراً.[٢]

والعبارة على المبالغة في الأمر بالذكر؛ ذلك لأن الناس يتفاخرون بآبائهم ويحرصون على ذلك، فجاء التشبيه ليؤكد لهم أن ذكر الله أولى من كل ذكر.

ثم بينت الآيات أن الذين يذكرون ربهم ويدعونه فريقان: فريق يسأل ربه من أمر الدنيا ويجعلها أكبر همه ومبلغ علمه، وليس له في الآخرة من حظ أو نصيب، وعن ابن عباس: كان قوم من الأعراب يجيئون إلى الموقف فيقولون: اللهم اجعله عام خصب وعام ولاد حسن، لا يذكرون من أمر الآخرة شيئاً، فأنزل الله فيهم الآية[٣].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ٤٥٢١. والقول بأن المقصود بالآية الإفاضة من مزدلفة ذهب إليه الضحاك ورواه عنه الطبري في تفسيره ٤/ ١٨٩ وصحح سنده الشيخ أحمد شاكر، واختار هذا الوجه عبد الرحمن بن سعدي في تيسير الكريم الرحمن ص٩٢، ورجحه رشيد رضا في تفسير المنار فقال: والمتبادر أن المراد بالإفاضة هنا الدفع من مزدلفة؛ لأنه ذكر الدفع من عرفات في خطاب المؤمنين كافة، وهو لا يكون إلا بعد الوقوف، فعلم أنهم سواء في الوقوف بعرفة وفي الإفاضة منها إلى المزدلفة، وبعد أن أمرهم بما يتوقع أن يغفلوا عنه فيها عند المشعر الحرام ذكر الإفاضة منها، وقوله (ثم) يفيد أن الإفاضة من مزدلفة يجب أن تكون مرتبة على الإفاضة من عرفات ومتأخرة عنها. تفسير المنار ٢/ ٢٣٤.

(٢) رواه ابن حاتم في تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣٥٥ برقم١٨٧٠ والضياء في المختارة برقم/١٠٨ وسنده حسن.

(٣) رواه ابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣٥٥ برقم ١٨٦٩ وسنده حسن.

أما الفريق الآخر فإنه يسأل ربه من خيري الدنيا والآخرة، وجاء لفظ: ﴿ حَسَنَةً ﴾ نكرة ليفيد عموم كل ما يحسن حياة المرء في دنياه وأخراه، ويسألونه أيضاً أن يجعل بينهم وبين عذاب النار وقاية، أولئك الموصوفون بهذه الصفات لهم حظ من جنس ما سألوا في الدنيا والله يوفي كل عامل عمله في الآخرة بلا إبطاء.

ثم عاد الحديث عن مناسك الحج على الترتيب، فتحدثت الآيات عن أيام التشريق الثلاثة بعد يوم النحر العاشر من ذي الحجة، وهي أيام منى، وأمرت بذكر الله فيهن وأباحت التعجل ومغادرة منى بعد رمي الجمرات في يومين بعد يوم النحر، ومن تأخر إلى اليوم الثالث فلا شيء عليه ما دام متقياً لله في كل أحواله، ثم أمرت بالتقوى وأن يكون الناس على علم يقيني بأنهم راجعون لله تعالى يوم القيامة.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أ- القضايا العقدية:

- إثبات التحسين والتقبيح العقليين، أي أن للعقل مدخلاً وشأناً في معرفة حسن الأشياء وقبحها، وهو مذهب المعتزلة والأحناف وجماعة من الفقهاء وانتصر له ابن تيمية وابن القيم، وخالفهم في ذلك الأشاعرة فقالوا بالتحسين والتقبيح عن طريق الشرع فقط. ومن جملة الأدلة التي ذكرها الأولون قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ ففي القصاص مصلحة للعالم وإبقاء لحياة الناس وهذا أمر يدرك حسنه أولو الألباب[1].

- استدل بعض علماء الكلام بقوله تعالى: ﴿ فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ على أن الله ليس في السماء؛ قالوا: ولو كان تعالى في السماء أو فوق العرش لما صح القول بأنه تعالى قريب من عباده[2]. لكن هذه

---

(١) انظر: مفتاح دار السعادة لابن القيم ٢/ ٩٨. ولتفصيل مذهب الأشاعرة انظر: المواقف للإيجي ٣/ ٢٧٥.

(٢) أساس التقديس في علم الكلام للرازي ص٣١.

الآية وغيرها من الآيات التي تدل على قربه تعالى ومعيته لعباده لا تنافي علوه على عباده؛ فإنه سبحانه ليس كمثله شيء، وقربه قرب علم، وهو عليٌّ في دنوِّه قريب في علوِّه.

ب- الأحكام الشرعية:

- وجوب المماثلة في الديات؛ فمن قتل حراً دفع ديته وكذلك من قتل عبداً أو امرأة أدى ديتها.

- قتل الحر بالحر*، ويقتل بالعبد على ما هو الراجح عند الأحناف وجماعة، ولا يستفاد هذا من الآية،ولكن من أدلة أخرى؛ كما وردعن سمرة أن النبي ﷺ قال: (من قتل عبده قتلناه ومن جدع عبده جدعناه)[1]. ولأن الحكمة من شرع القصاص الحياة؛ والحر والعبد فيها سواء، ولأن الحياة لا تدخل تحت القهر المتعرض له الرق[2]. والله أعلم.

- الأنثى تقتل بالأنثى وبالذكر، والذكر كذلك.

- إذا قتل المسلم ذمياً يقتل به، وهذا قول الأحناف وجماعة، وحملوا النفي الوارد في ذلك كقول رسول الله ﷺ: (لا يقتل مؤمن بكافر ولا ذو عهد في عهده)[3] حملوه على قتل المحارب، قال

---

* وقد رجحنا في التفسير الإجمالي أن القصاص معناه المماثلة والمساواة، لكن ذكرنا هنا-بإيجاز- بعض الأحكام الفقهية التي يذكرها المفسرون عند تفسير هذه الآية، وذلك من باب تكميل الفائدة، ولأن بعض هذه الأحكام مما تدل عليه الآية بالمفهوم. وانظر مجموع فتاوى ابن تيمية ١٤/ ٨٠.

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك برقم/ ٨٠٩٨، وأبوداود في سننه برقم/ ٤٥١٥، والترمذي برقم/ ١٤١٤ وقال: حسن غريب. والحديث إسناده للحسن صحيح، وسماع الحسن من سمرة مختلف فيه وقد اعتد به وصحح الحديث: علي بن المديني، والبخاري وأخذ بهذا الحديث انظر: الاستذكار لابن عبد البر٨/ ١٧٧و الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣/ ٧٢.

(٢) انظر: المبسوط للسرخسي ٢٦/ ١٣٠.

(٣) أخرجه الحاكم برقم/ ٢٦٢٣ وصححه على شرطهما، وأبوداود في سننه برقم/ ٤٥٣٠، وأحمد ١/ ١١٩ عن علي. وسنده صحيح. الدراية في تخريج أحاديث الهداية لابن حجر ٢/ ٢٦٢.

الطحاوي: "إنما مراده فيه والله أعلم لا يقتل مؤمن ولا ذو عهد في عهده بكافر فقدم وأخر فالكافر الذي منع أن يقتل به المؤمن هو الكافر غير المعاهد"(١).

-اختلف العلماء في أخذ الدية من قاتل العمد، فقيل: إن شاء الولي أخذ الدية وإن لم يرض القاتل. وقيل: ليس للولي إلا القصاص، فإن أراد الدية لزم رضا القاتل. ويشهد لصحة الأول قوله ﷺ (من قتل له قتيل فهو بخير النظرين إما أن يؤدى وإما أن يقاد)(٢).

- إذا عفا أحد الأولياء عن القصاص يسقط القصاص في حق الجميع. ولم يتبق لهم سوى الدية.

-دل قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ ﴾ على أن دية العمد على القاتل(٣). ولا مدخل للعائلة فيها بخلاف الديات الأخرى.

- حكم الوصية للأقربين الاستحباب وذلك عند جمهور الفقهاء من الأئمة الأربعة وغيرهم، قال ابن عبد البر: "وقد أجمع العلماء على أن الوصية غير واجبة على أحد إلا أن يكون عليه دين أو تكون عنده وديعة أو أمانة فيوصي بذلك. وفي إجماعهم على هذا بيان لمعنى الكتاب والسنة في الوصية، وقد شذت طائفة فأوجبت الوصية لا يعدون خلافاً على الجمهور"(٤).

- دل لفظ ﴿ خَيْرًا ﴾ في الآية على أن الموصي إن كان ذا مال يسير فالأفضل له ألا يوصي، وعن عائشة قال لها رجل: إني أريد أن أوصي؛ قالت: كم مالك؟ قال: ثلاثة آلاف قالت: فكم عيالك؟ قال: أربعة. قالت: فإن الله يقول ﴿ إِن تَرَكَ خَيْرًا ﴾ وإنه شيء يسير فدعه لعيالك فإنه أفضل(٥).

---

(١) شرح معاني الآثار للطحاوي ٣/ ١٩٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم/ ٦٤٨٦ عن أبي هريرة. ووجه الدلالة منه ظاهر.

(٣) أحكام القرآن للكيا الهراسي ١/ ٥٦.

(٤) التمهيد لابن عبد البر ١٤/ ٢٩٢.

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف برقم/ ٣٠٩٤٦. وقال الأحناف: إن كان ماله قليلاً وله ورثة فقراء فالأفضل أن لا يوصي. بدائع الصنائع للكاساني ٧/ ٣٣٠، وتكره عند المالكية في المال القليل. الذخيرة للقرافي ٧/ ٩. وقال الشافعية: إن كان ورثته فقراء نقص عن الثلث. روضة الطالبين للنووي ٦/ ١٢٢.

- أخذ بعض العلماء بمفهوم المخالفة في قوله تعالى: ﴿ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ فلم يجز الوصية لغيرهما؛ ولو أوصى لغير قرابته ردت على قرابته غير الوارثين. وهو قول الحسن وطاووس. وقال جمهور الفقهاء: إن أوصى لأجنبي وترك أقاربه المحتاجين فقد أثم لكن تنفذ وصيته لمن أوصى له سواء كان مؤمناً أو كافراً[١].

- اعتبار العرف في الأحكام الشرعية. وهذا ثابت في مسائل كثيرة في الشرع، ومنها الوصية للوالدين والأقربين، وغيرها من الأحكام الواردة في السورة. قال السيوطي: "اعلم أن اعتبار العادة والعرف رجع إليه في الفقه، في مسائل لا تعد كثرة"[٢]. وذكر لذلك أمثلة عديدة منها: تقدير ألفاظ الواقف والموصي.

- تحريم تغيير الوصية، وذلك بأن يغيرها الشاهد فعليه هو الإثم لا على الميت، وإن غيرها الوصي فهو المسؤول، ولا يلحق الميت شيء. ونظير ذلك أن يوصي الميت بسداد دينه فيصير في ذمة الوصي، قال ابن العربي: "وهذا إنما يصح إذا كان الميت لم يفرط في أدائه، وأما إذا قدر عليه وتركه، ثم وصى به فإنه لا يزيله عن ذمته تفريط الولي فيه"[٣].

-إن خالف الموصي ما أمره الشرع كأن يقصد حرمان الورثة أو بعضهم فإنه يبوء بإثم ذلك، قال ابن عباس: "الإضرار في الوصية من الكبائر"[٤]. ونص عليه العلماء[٥].

- لا حرج على من غير الوصية إن كان بها إثم أو ظلم. قال ابن عبد البر: "فإن أوصى بما لا يجوز

---

(١) انظر: الذخيرة للقرافي ٧/ ٧ والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣/ ١٨٠.

(٢) الأشباه والنظائر للسيوطي ص٩٠.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ١/ ١٠٥.

(٤) أخرجه الطبري عنه موقوفاً برقم/ ٨٧٧٨ وصحح إسناده الشيخ شاكر في التعليق، وأخرجه البيهقي في سننه الكبرى ٦/ ٢٧١ وقال: هذا هو الصحيح أنه موقوف.

(٥) الكبائر للذهبي. الكبيرة السابعة والستون ص٢٣٤، والزواجر للهيثمي الكبيرة العشرون بعد المائتين ١/ ٥٠٠.

مثل أن يوصى بخمر أو خنزير أو بشيء من المعاصي فهذا يجوز تبديله ولا يجوز إمضاؤه"[١].

- لابد في الصلح من موافقة الطرفين.

- دلت الآيات على فرضية الصوم على كل مكلف، ومن جحد فرضيته فهو كافر.

- المرض من الأعذار المبيحة للفطر في نهار رمضان، وهو كل ما أخرج الإنسان عن حد الصحة، قال ابن قدامة: "أجمع أهل العلم على إباحة الفطر للمريض في الجملة. والأصل فيه قول الله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾"[٢].

وضابط المرض تكلم فيه الفقهاء باستفاضة ونستخلص من كلامهم أن المريض الذي يزيد مرضه بالصوم له أن يفطر، قال النووي: "ولا يشترط أن ينتهي إلى حالة لا يمكنه فيها الصّوم، بل قال أصحابنا: شرط إباحة الفطر أن يلحقه بالصّوم مشقّة يشقّ احتمالها... وأمّا المرض اليسير الذي لا يلحق به مشقّة ظاهره فلم يجز له الفطر، بلا خلاف عندنا، خلافاً لأهل الظّاهر"[٣].

- للمسافر أن يؤخر صومه، ويشترط له عند الجمهور مسافة قصر الصلاة، قال ابن رشد: "وأما المعنى المعقول من إجازة الفطر في السفر فهو المشقة، ولمّا كانت لا توجد في كل سفر، وجب أن يجوز الفطر في السفر الذي فيه المشقة، ولمّا كان الصحابة كأنهم مجمعون على الحد في ذلك، وجب أن يقاس ذلك على الحد في تقصير الصلاة"[٤].

ويلزم أن يكون في مدة القصر، وأن يكون في سفر طاعة عند الجمهور خلافاً للأحناف، ولا يفطر في بلده، وأن يبدأ السفر قبل الفجر؛ فإن سافر خلال النهار بعد أن أصبح صائماً لزم أن يتم صومه عند الجمهور خلافاً للحنابلة الذين استدلوا بحديث جابر: أن رسول الله ﷺ

(١) التمهيد لابن عبد البر ١٤/ ٣٠٨.

(٢) المغنى لابن قدامة ٣/ ٤١.

(٣) المجموع للنووي ٦/ ٢٥٧.

(٤) بداية المجتهد لابن رشد ١/ ٢١٧.

خرج إلى مكّة عام الفتح فصام حتّى بلغ كراع الغميم، فصام النّاس، ثم دعا بقدح من ماء فرفعه حتى نظر النّاس إليه ثم شرب، فقيل له بعد ذلك إنّ بعض الناس قد صام، فقال: أولئك العصاة[١].

- والصوم أفضل عند جمهور الفقهاء إذا لم يجهده السفر ويضعفه؛ لقوله تعالى: ﴿ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ ولأن إكمال العدة عزيمة، والعزيمة خير من الرخصة، والصحيح عند الحنابلة أفضلية الفطر في السفر. وقد احتج كل من الفريقين بأحاديث نبوية؛ قال النووي:" والجواب عن الأحاديث التي احتج بها القائلون بفضل الفطر إنها محمولة على من يتضرر بالصوم، وفى بعضها التصريح بذلك... ولابد من هذا التأويل ليجمع بين الأحاديث والله أعلم"[٢].

- دل إطلاق قوله تعالى: ﴿ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ على أن من أخر قضاء ما فاته من رمضان حتى دخل رمضان لا شيء عليه، وهو مذهب أبي حنيفة والحسن وإبراهيم النخغي وغيرهم، وأيده البخاري فقال: "ويذكر عن أبي هريرة مرسلاً وابن عباس أنه يطعم. ولم يذكر الله الإطعام إنما قال: ﴿ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾"[٣].

- للشيخ الكبير الذي يشق عليه الصوم أن يفطر ويفدي عن كل يوم بإطعام مسكين.

- وللحامل والمرضع كذلك أن يفطرا ويقضيا، وفي الفدية خلاف؛ فقال الحنفية: وقال الشافعية والحنابلة: إن خافتا على أنفسهما أفطرتا ولا فدية، وإن خافتا على ولدهما أفطرتا وعليهما الفدية[٤].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم/ ١١١٤..

(٢) المجموع للنووي ٦/ ٢٦٧. وانظر فيما سبق: شرح فتح القدير، الكمال بن الهمام ٢/ ٣٥٢، وبداية المجتهد لابن رشد ١/ ٢١٧، وكشاف القناع للبهوتي ٢/ ٣١٠.

(٣) صحيح البخاري كتاب الصوم باب ٣٩- ٢/ ٦٨٨. وقال ابن حجر: "ولم يثبت فيه - أى الإطعام- حديث مرفوع". فتح الباري ٤/ ١٩٠.

(٤) بدائع الصنائع للكاساني ٢/ ٩٧، والأم للشافعي ٢/ ١٠٣، والكافي لابن قدامة ١/ ٣٤٤.

- يجب صوم رمضان برؤية الهلال ليلة الثلاثين، فإن لم ير الهلال فيجب إكمال عدة شعبان ثلاثين يوما، قال ابن رشد: "وروي عن بعض السلف أنه إذا أغمي الهلال، رجع إلى الحساب بمسير القمر والشمس، وهو مذهب مطرف بن الشخّير، وهو من كبار التابعين. وحكى ابن سريج عن الشافعي أنه قال: من كان مذهبه الاستدلال بالنجوم ومنازل القمر، ثم تبين له من جهة الاستدلال أن الهلال مرئي، وقد غمَّ، فإن له أن يعقد الصوم، ويجزيه"[١].

- من رأى هلال رمضان وحده، وردّت شهادته، لزمه الصوم وجوباً، عند جمهور الفقهاء (الحنفية والمالكية والشافعية و الصحيح من مذهب الحنابلة)؛ وذلك لقوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُ﴾[٢].

- تأول بعض أهل العلم قوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُ﴾ على أن من حضر أول الشهر في بلده فعليه أن يكمل صيامه سواء سافر أو أقام في بقية الشهر.

والجمهور على أن من دخل عليه شهر رمضان وهو مقيم جاز له أن يسافر ويفطر[٣].

- استدل المالكية بقوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُ﴾ على أن الصائم لا يجب عليه تجديد النية كل ليلة، قالوا: تناول الأمر صوماً واحداً هو صوم الشهر، فصار من أوله لآخره عبادة مستقلة، فتكفي نية واحدة عن الشهر كله في أوله، والجمهور على تجديد النية لكل يوم من أيام الصوم؛ لأن كل يوم عبادة مستقلة[٤].

- شروط وجوب الأداء الذي هو تفريغ ذمة المكلف عن الواجب في وقته المعين له هي الصحة

---

(١) بداية المجتهد لابن رشد ١/ ٢٠٧.

(٢) انظر: الهداية للمرغيناني ١/ ١٢٠، وروضة الطالبين للنووي ٢/ ٣٧٨،والمدونة الكبرى لمالك ١/ ١٠٣ الإنصاف للمرداوي ٣/ ٢٧٧.

(٣) المبسوط للسرخسي ٣/ ٩١، والمجموع للنووي ٦/ ٢٦٣،وانظر للمذهب الأول: المحلى لابن حزم ٦/ ٢٤٧

(٤) الثمر الداني للآبي الأزهري ص ٢٩٥، بدائع الصنائع للكاساني ٢/ ٥٨.

والإقامة لقوله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾. قال ابن جزي: "وأمّا الصحة والإقامة، فشرطان في وجوب الصيام، لا في صحته، ولا في وجوب القضاء، فإن وجوب الصوم يسقط عن المريض والمسافر، ويجب عليهما القضاء إن أفطرا إجماعاً، ويصحّ صومهما إن صاما"[١].

- مشروعية التكبير عند اكتمال عدة الشهر، ويكون من ليلة الفطر حتى صلاة العيد،

قال ابن تيمية: " التكبير..مشروع في عيد الفطر: عند مالك والشافعي وأحمد. وذكر ذلك الطحاوي مذهبا لأبي حنيفة وأصحابه... والتكبير فيه هو المأثور عن الصحابة رضوان الله عليهم، والتكبير فيه أوكد من جهة أن الله أمر به بقوله ﴿ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ . والتكبير فيه: أوله من رؤية الهلال، وآخره انقضاء العيد وهو فراغ الإمام من الخطبة على الصحيح"[٢].

-الفطر بالأكل والشرب في نهار رمضان إجماعاً، قال تعالى: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾ فقد مد الأكل والشرب إلى وقت تبين الفجر ثم أمر بالصيام عنهما.

- ومما تستلزمه الآية إباحة صوم الجنب، فإنه يجوز له أن يباشر إلى طلوع الفجر، وهذا يستلزم أن يصبح جنباً. ويطلق علماء الأصول على هذا: دلالة الاقتضاء[٣].

- واستدل جمهور الفقهاء بالآية على أن من أكل أو شرب ظاناً غروب الشمس أو عدم طلوع الفجر فظهر خلاف ظنه أنه يجب عليه الإعادة، وهو قول أبي حنيفة والشافعي ومالك وأحمد. قالوا: حددت الآية وقت الأكل إلى الفجر وهذا أكل في النهار[٤].

(١) القوانين الفقهية لابن جزي ص٧٨.
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٤/ ٢٢١.
(٣) المحصول للرازي ١/ ٣٢٠.
(٤) مجمع الأنهر لشيخي زاده ١/ ٣٥٨، المجموع للنووي ٦/ ٣١٧.

- استدل الأحناف والمالكية بقوله تعالى ﴿ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ﴾ على أن من أفطر في التطوع أنه يجب عليه أن يقضي يوماً مكانه؛ لأن الآية تقتضي عموم الفرض والنافلة[1].

- استدل المالكية بالآية على أن من أفطر ناسياً فعليه قضاء يوم مكانه، قالوا: أمر الله في الآية بصيام اليوم على التمام بلا تفريط، ومن أكل ناسياً لم يأت بالصوم على التمام[2].

لكن قوله ﷺ :(من أفطر في رمضان ناسياً فلا قضاء عليه ولا كفارة)[3] حجة قوية لمذهب الجمهور.

- استدل العلماء بالآية على النهي عن الوصال في الصوم؛ لأنها جعلت غاية الصوم إلى الليل. وصح عن عائشة أنها قالت: "أتموا الصيامَ إلى الليل، يعني: أنها كرهت الوصال"[4].

- من القواعد الفقهية المستقرة: اليقين لا يزول بالشك ومن جملة شواهد هذه القاعدة قوله تعالى ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾ فالأصل بقاء الليل، فلا ينتقل عنه إلا بيقين، وهو التبين الوارد في الآية الكريمة[5].

- دلت الآية على مشروعية الاعتكاف، وهو سنة إلا إذا نذر فيلزمه الوفاء، قال ابن المنذر: "وأجمعوا على أن الاعتكاف لا يجب على الناس فرضاً إلا أن يوجبه المرء على نفسه فيجب عليه"[6].

---

(١) تبيين الحقائق للزيلعي ١/ ٣٣٩، والاستذكار لابن عبد البر ٣/ ٣٥٨.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣/ ٢٠٠.
(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك برقم/ ١٥٦٩ وصححه على شرط مسلم، وابن حبان برقم/ ٣٥٢١،وابن خزيمة برقم/ ١٩٩٠عن أبي هريرة. قال ابن حجر: فأقل درجات الحديث أن يكون حسنا فيصلح للاحتجاج به. فتح الباري ٤/ ١٥٧.
(٤) أخرجه الطبري في تفسيره برقم/ ٣٠٢٧.
(٥) انظر: الفروق للقرافي ٢/ ٣١١.
(٦) الإجماع لابن المنذر ص ٤٧ برقم/ ١٣٠

- لا اعتكاف إلا في مسجد، وهذا متفق عليه بين جمهور أهل العلم لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِ ﴾.

- ودل عموم الآية على صحة مذهب الجمهور في جواز الاعتكاف في أي مسجد، خلافاً لمن قصره على المساجد الثلاثة.

- مباشرة النساء تبطل الاعتكاف؛ فالآية قد نهت عن المباشرة نهياً صريحاً، قال ابن المنذر: "أجمعوا على أن المعتكف ممنوع من المباشرة. وأجمعوا على أن من جامع امرأته وهو معتكف عامداً لذلك في فرجها أنه مفسد لاعتكافه"[١].

- استدل بالآية الأحناف والمالكية على أن من نذر الاعتكاف فلابد له من صوم، قالوا: ذَكَر الله الاعتكاف مع الصيام في الآية، وهذا يقتضي أن الاعتكاف لا يكون إلا بصوم، ولأن الآية اشترطت أحد ركني الصوم وهو الإمساك عن المباشرة فكذلك الركن الآخر وهو الإمساك عن الطعام والشراب[٢]. وروى مالك أن القاسم بن محمد ونافعاً مولى عبد الله بن عمر قالا: لا اعتكاف إلا بصيام؛ يقول الله تبارك وتعالى في كتابه: ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِ ﴾ فإنما ذكر الله الاعتكاف مع الصيام. قال مالك: وعلى ذلك الأمر عندنا: أنه لا اعتكاف إلا بصيام[٣].

- حرمة أكل أموال الناس عموماً مؤمنهم وكافرهم بغير حق.

- قال الجصاص: " وأكل المال بالباطل على وجهين: أحدهما: أخذه على وجه الظلم والسرقة

---

(١) السابق ص ٤٨ برقم ١٣٤،١٣٣.

(٢) تحفة الفقهاء للسمرقندي ١/ ٣٧٢ والمدونة لمالك ١/ ٢٢٥، أما اعتكاف النفل فيجوز عند الأحناف من غير صوم. المبسوط ٣/ ١٧٧.

(٣) الموطأ لمالك برقم/ ٦٨٨. وللمخالفين ردود على هذه الأدلة لا نطيل بذكرها فلتراجع في المجموع للنووي ٦/ ٤٧٨.

والخيانة والغصب وما جرى مجراه. والآخر: أخذه من جهة محظورة نحو القمار وأجرة الغناء والقيان والملاهي والنائحة وثمن الخمر والخنزير والحر وما لا يجوز أن يتملكه وإن كان بطيبة نفس من مالكه"[١].

-حكم الحاكم وقضاء القاضي لا يُغيِّران الحرام إلى الحلال؛ لأنهما يقضيان بالظاهر فقط، قال ابن رشد: "أجمعوا على أن حكم الحاكم الظاهر الذي يعتريه لا يحل حراماً ولا يحرم حلالاً، وذلك في الأموال خاصة"[٢].

- المواقيت المعتبرة شرعا هي الأهلة. وذلك في أبواب مواقيت الزكاة ودخول الصوم والكفارات والحج وأجل الطلاق وأجل الديون والعدة والإجارة والسلم ووضع الخراج على الأرض والجزية وتقدير السن وغير ذلك من أبواب الشرع...

- استدل جمهور الفقهاء بإطلاق الآية على صحة الإحرام بالحج في أي وقت من أوقات السنة وينعقد الحج مع الكراهة؛ لأن الله جعل الأهلة كلها ظرفاً للحج. وذهب الشافعية إلى عدم انعقاد الحج قبل هلال شوال، وينعقد عمرة[٣].

- أمرت الآية بقتال من قاتل المسلمين. ومفهوم المخالفة يقتضي عدم قتال من قاتلنا، فمن كان بيننا وبينه عهد فإنه يجب علينا الوفاء بعهده قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ﴾ [التوبة/ ٧].

- تحريم الاعتداء من المسلم على الغير حتى في حال الحرب. ومن أجل ذلك ذكر الفقهاء ما يلي:

---

(١) أحكام القرآن للجصاص ١/ ٣١٢.

(٢) بداية المجتهد لابن رشد ٢/ ٣٤٥.

(٣) البحر الرائق لابن نجيم ٢/ ٣٩٦، والحاوي الكبير للماوردي ٤/ ٢٨، ومنح الجليل للشيخ عليش ٢/ ٢٢٣، ونيل الأوطار للشوكاني ٥/ ٢٩.

١- حرمة القتال قبل بلوغ الدعوة، فلا بد من دعوتهم للإسلام أولاً. قال الكاساني: "فإن كانت الدعوة لم تبلغهم فعليهم الافتتاح بالدعوة إلى الإسلام باللسان ؛ لقول الله – تبارك وتعالى ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل/ ١٢٥] ولا يجوز لهم القتال قبل الدعوة"[١].

٢- عدم جواز التمثيل بقتلاهم، قال رسول الله ﷺ: (أعفُّ الناس قتلة أهلُ الإيمان)[٢].

٣- لا يجوز قتل الصبيان والمجانين.

٤- لا يجوز قتل المرأة والشيخ الكبير والأعمى والراهب طالما لم يقاتلوا.

٥- لا يجوز الإحراق بالنار طالما أمكن التغلب عليهم بدونها.

٦- لا يجوز قتل الأجراء والفلاحين الذين لا ينصبون للحرب، وهم المدنيون بالمصطلح المعاصر.

ويشهد لذلك كله: حديث بريدة قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال: (اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا و لا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال – أو خلال – فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم"[٣]. ونهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان[٤].

---

(١) بدائع الصنائع للكاساني ٧/ ١٠٠.

(٢) أخرجه أبوداود في سننه برقم/ ٢٦٦٦، وابن ماجه/ ٢٦٨١ وأحمد ١/ ٣٩٣ عن عبدالله بن مسعود. قال المناوي: ورجاله ثقات. فيض القدير ٢/ ٧.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه برقم/ ١٧٣١.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه برقم/ ٢٨٥٢ومسلم في صحيحه برقم/ ١٧٤٤عن عبد الله بن عمر.

وأوصى أبو بكر أحد قواد جيشه إلى الشام فقال: "وإني موصيك بعشر: لا تقتلن امرأة ولا صبياً ولا كبيراً هرماً، ولا تقطعن شجراً مثمراً، ولا تخربن عامراً ولا تعقرن شاة ولا بعيراً إلا لمأكلة، ولا تحرقن نخلاً ولا تفرقنه، ولا تغلل ولا تجبن"[١]. وقال عمر: "لا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً، واتقوا الله في الفلاحين الذين لا ينصبون لكم الحرب"[٢].

- لا يجوز القتال في المسجد الحرام إلا إذا كان دفاعاً عن النفس، اتباعاً لظاهر الآية، وهو قول الأحناف. وقال الشافعية: الحكم منسوخ بقوله تعالى: ﴿ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ [التوبة/ ٥][٣]. والراجح قول الأحناف لقوة دليلهم، وللأحاديث الواردة في تحريم القتال بمكة[٤].

- اتفق العلماء على مشروعية الدفاع عن النفس والعرض والمال، لقوله تعالى ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ وتعرف هذه المسألة بدفع الصائل. وليس على المدافع ضمان فيما أتلف إذا لم يكن هناك طريق أخف[٥].

- استدل الشافعية والمالكية والحنابلة في قول بالآية على وجوب المماثلة في القصاص؛ فالقاتل يُقتل بما قَتَل به، وذهب الحنفية والحنابلة في الأصح إلى أنه لا يكون القصاص في النفس إلا بالسيف[٦].

---

(١) أخرجه البيهقي في سننه٩/ ٨٩ ومالك في الموطأ برقم/ ٩٦٥، وعبد الرزاق في المصنف برقم/ ٩٣٧٥.

(٢) أخرجه سعيد بن منصور في سننه برقم/ ٢٦٢٥. والبيهقي ٩/ ٩١ بلفظ مقارب.

(٣) انظر لرأي الأحناف بدائع الصنائع للكاساني ٧/ ١١٤. ولرأي الشافعية: الحاوي الكبير للماوردي ١٤/ ١١٠.

(٤) ورجحه القرطبي فقال: "وهو الذي يقتضيه نص الآية، وهو الصحيح من القولين". الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣/ ٢٤٢. وانظر: أحكام القرآن للجصاص ١/ ٣٢١، وأحكام القرآن لابن العربي ١/ ١٥٣.

(٥) إعانة الطالبين للدميطي ٤/ ١٧٠.

(٦) شرح الزركشي ٣/ ١٩، المغني لابن قدامة ٨/ ٢٤٠، شرح الشيخ عليش ٨/ ١٥.

- استدل العلماء بالآية على وجوب ضمان المثل على من غصب حق إنسان، فإن تعذر المثل وجب ضمان القيمة[١]. ومثل الغصب الإتلاف؛ لأنه في كونه اعتداء وضرراً فوق الغصب.

- استدل جمع من أهل العلم بهذه الآية على مسألة الظفر بالحق، وخلاصتها أن من كان له حق على غيره، ولم يتمكن من استيفائه، فإن له أن يأخذ حقه بغير إذنه، على تفاصيل وشروط تراجع في كتب الفقه المطولة[٢].

-استدل الحنابلة بالآية على القصاص في اللطمة والضربة، والجمهور على عدم القصاص لتعذر المساواة[٣].

- استدل بعض الفقهاء بالآية على أن من شتم غيره بدون قذف فإن للمشتوم أن يرد عليه، والأفضل أن يرفع أمره للحاكم ليعزر[٤].

-يجب دفع الصائل المعتدي حفاظاً على النفس، وقال الشافعية يباح، وقول الجمهور أرجح لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ [٥].

- يجب إتمام الحج والعمرة لمن شرع فيهما؛ فمن أحرم بنسك وجب عليه ألا يفسخه، لأن ظاهر الآية يقتضي الإتمام بعد الشروع، ولهذا قال:(**فإن أحصرتم**) ولا إحصار قبل الشروع[٦].

-استدل الشافعية والحنابلة بقوله تعالى ﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ ﴾ على وجوب العمرة؛ قالوا: الأمر في الآية للوجوب والأصل التساوي بين المعطوف والمعطوف عليه[٧]، ورد استدلالهم

---

(١) البحر الرائق لابن نجيم الحنفي ٨/ ١٢٥، المغني لابن قدامة ٥/ ١٩٣.

(٢) حاشية ابن عابدين ٤/ ٩٥، الأم للشافعي ٥/ ١٠٤، المغني لابن قدامة ١٠/ ٢٧٦، منح الجليل لمحمد عليش ٧/ ٤٣.

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٤/ ١٦٣.

(٤) كشاف القناع للبهوتي ٦/ ١٢٧. والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣/ ٢٥٥.

(٥) الروض المربع للبهوتي ٣/ ٣٣٢. كفاية الأخيار تقي الدين الدمشقي ص ٤٨٩.

(٦) مواهب الجليل لمحمد عبدالرحمن المغربي ٣/ ٢٠٢، المغني لابن قدامة ٣/ ٨٩.

(٧) الأم، الشافعي ٢/ ١٣٢، والكافي لابن قدامة ١/ ٣٧٧. وانظر للرد على استدلالهم: بدائع الصنائع للكاساني ٢/ ٢٢٦. بداية المجتهد لابن رشد ١/ ٢٣٦.

بأن الأمر هنا للإتمام بعد الشروع. ولأن الأحاديث المشهورة الثابتة في تعديد فرائض الإسلام لم تذكر العمرة.

- استدل جمهور العلماء (الحنفية والشافعية والحنابلة) بالآية على أن من فسد حجه بالوطء وجب عليه أن يتمه ويقضيه في العام المقبل؛ لأنه لم يأت به على النحو المطلوب. وقال المالكية: يفسخ الحج إلى عمرة[١].

-استدل الأحناف بالآية على أفضلية القران (أي الجمع بين الحج والعمرة بإحرام واحد) لما ورد في معنى الإتمام: أن تحرم بهما من دويرة أهلك[٢]. ورد استدلالهم بأن الآية لم تفد أكثر من جمعهما في الذكر فلا يفيد هذا جمعهما في الفعل[٣]. والحق أن الأنساك الثلاثة (القران والتمتع والإفراد) جائزة، والصحيح من أقوال أهل العلم أنه ﷺ حج قارناً.

-استدل جمهور العلماء بالآية على أن الحج واجب على الفور؛ فمن ملك الاستطاعة وجب عليه التعجيل؛ فالأمر في الآية يقتضي الفور، وذهب الشافعي إلى أن الحج واجب على التراخي؛ لأنه فرض بعد الهجرة ولم يحج النبي ﷺ بأزواجه وأصحابه إلا سنة عشر[٤].

ومذهب الجمهور أرجح؛ لأن تأخير النبي ﷺ كان بسبب مظاهر الشرك حول البيت، فلما تم أمر التوحيد نودي ألا يحج بعد العام مشرك، ولأنه ﷺ كان يعلم بقاء حياته إلى أن يعلم الناس مناسكهم تكميلاً للتبليغ[٥].

-من أحصر عن الحج بعدو أو نحوه لزمه الهدي، قال ابن عمر: "خرجنا مع رسول الله ﷺ

---

(١) الإقناع للخطيب الشربيني ١/ ٢٦٢، المغني لابن قدامة ٣/ ١٧٨.

(٢) أخرجه الحاكم برقم/ ٣٠٩٠ وصححه على شرطهما، والبيهقي ٤/ ٣٤١، وابن أبي شيبة برقم/ ١٢٦٨٩ عن علي. وقال ابن حجر: إسناده قوي. تلخيص الحبير ٢/ ٢٢٨.

(٣) البحر الرائق لابن نجيم الحنفي ٢/ ٣٨٤ وانظر المجموع للنووي ٧/ ١٣٨.

(٤) المجموع للحنفي ٧/ ٧٢.

(٥) المبسوط للسرخسي ٤/ ١٦٤. وحاشية ابن عابدين ٢/ ٤٥٥.

فحال كفار قريش دون البيت، فنحر النبي ﷺ هديه وحلق رأسه"[١].

-الإحصار عند الجمهور يكون بالعدو، وعند الأحناف يتحقق بكل حصر وحبس سواء بمرض أو بهلاك نفقة ونحو ذلك، لأنه وإن كانت الآيات نازلة في إحصار العدو، إلا أنه يقاس عليها كل حصر. ومما يؤيد قولهم ما ورد عن الحجاج بن عمرو الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: (من كسر أو عرج فقد حلَّ، وعليه الحج من قابل)[٢].

-وقد استشهد الحنفية بالحديث على أن من حصر فعليه القضاء، وذهب مالك والشافعي إلى عدم وجوب القضاء، واستدلوا بالآية فقالوا: لم تزد الآية عن الهدي ولم تذكر القضاء[٣].

- ﴿ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ﴾ هو ما يهدى إلى بيت الله الحرام، وهو إما شاة أو ماعز، أما البدنة فتكفي سبعة.

- وفي الآية دليل على مذهب الجمهور الذي أوجب ذبح الهدي على المحصر، أما المالكية فقد ذهبوا إلى أنه سنة، وهم محجوجون بنص الآية[٤].

-استدل الأحناف بقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُۥ ﴾ على أن الهدي محله الحرم، ولأنه قربة

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم/ ١٧١٣.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك برقم/ ١٧٢٥ وصححه على شرط البخاري، وأبوداود برقم/ ١٨٦٢، والترمذي برقم/ ٩٤٠وابن ماجه برقم/ ٣٠٧٨، وسنده صحيح. وقد قال عز الدين بن عبد السلام: "والذي ذكره مالك والشافعي لا نظير له في الشريعة السمحة التي قال الله تعالى فيها: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ ، وقال فيها: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ وقال: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ﴾، فإن من انكسرت رجله وتعذر عليه أن يعود إلى الحج والعمرة يبقى في بقية عمره حاسر الرأس متجرداً من اللباس محرماً عليه النكاح والإنكاح، وأكل الصيود والتطيب والأدهان، وقلم الأظفار وحلق الشعر ولبس الخفاف والسراويلات، وهذا بعيد من رحمة الشرع ورفقه ولطفه بعباده. قواعد الأحكام في مصالح الأنام، عز الدين بن عبد السلام ٢/ ١١.

(٣) المجموع للنووي ٨/ ٢٣١.

(٤) حاشية الدسوقي على الشرح الكبير ٢/ ٩٣.

فلابد لها من مكان. وذهب الشافعية وغيرهم إلى أن المحصر يذبح الهدي حيث أحصر؛ لأن النبي ﷺ ذبح الهدي في الحديبية وهي في الحل لا في الحرم[١].

-استدل الجمهور (أبو حنيفة والشافعي وأحمد في الراجح) بإطلاق الآية على أن الذبح لا يتقيد بوقت؛ لأن الآية جاءت مطلقة عن الزمان، فلا تخصص إلا بدليل قطعي ولا دليل[٢].

-استدل الأحناف بإطلاق قوله تعالى ﴿ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ﴾ على أن المحصر لا يلزمه الحلق أو التقصير، واستدل الشافعية بمفهوم الغاية في قوله تعالى ﴿ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ﴾ على لزوم الحلق أو التقصير، والمعنى فإذا بلغ الهدي محله فاحلقوا.

ويؤيده فعل النبيﷺ وأصحابه[٣].

- لا يحلق المحصر رأسه حتى ينحر الهدي لقوله تعالى ﴿ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ﴾.

- من كان مريضاً أو به أذى في رأسه فحلق فعليه الفدية بالتخيير بين ثلاثة أشياء: الصوم ثلاثة أيام، أو إطعام ستة مساكين، أو النسك بشاة.

- من لم يكن مريضاً وحلق رأسه فعليه دم فقط ولا تخيير عند أبي حنيفة وأحمد، لأن الآية خيَّرت بشرط العذر، فإن عدم الشرط بطل التخيير. وخالفهم مالك[٤].

- أوجب الجمهور ذبح فدية الأذى بمكة، وقال مالك: لا يلزم أن يكون بمكة؛ لأن الآية جاءت مطلقة لم تتقيد بمكان[٥].

- التمتع هو الإحرام بعمرة ثم التحلل منها إلى وقت الإحرام بالحج ويكونا في سفر واحد،

---

(١) البحر الرائق لابن نجيم الحنفي ٣/ ٥٩، الحاوي الكبير للماوردي ٤/ ٣٥١.

(٢) أحكام القرآن للجصاص ١/ ٣٤٢.

(٣) المبسوط للسرخسي ٤/ ٧١، المجموع للنووي ٨/ ٢٢٩، المغني لابن قدامة ٣/ ١٧٥.

(٤) المغني لابن قدامة ٣/ ٢٥٨، الاستذكار لابن عبد البر ٤/ ٣٨٥.

(٥) الاستذكار لابن عبد البر ٤/ ٣٨٩.

والقران الإحرام بالحج والعمرة معاً، ويأخذ حكم التمتع في وجوب الهدي.

- من لم يجد الهدي فليصم ثلاثة أيام في الحج قبل يوم عرفة، فإن لم يصم صام أيام منى لقوله تعالى ﴿ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ ﴾ فإذا رجع بلده صام سبعة أيام.

- دل قوله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ على أن من كان من حاضري المسجد الحرام يعني: من أهل مكة فليس عليه دم إذا تمتع أو قرن.

- قال تعالى: ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ﴾ والجمهور على أن أشهر الحج شوال وذو القعدة وعشر ذي الحجة، وقال المالكية: أشهر الحج شوال وذو القعدة وذو الحجة، وعلى مذهبهم يجوز أداء طواف الإفاضة والتحلل آخر ذي الحجة[١].

-دل قوله تعالى ﴿ فَلَا رَفَثَ ﴾ على حرمة الجماع في الحج؛ فمن فعل فسد حجه. قال ابن المنذر: "وأجمعوا على أن من جامع عامدا في حجه قبل وقوفه بعرفة أن عليه حج قابل والهدي"[٢].

- تحريم الفسوق في الحج، ومعناه مطلق الخروج عن الطاعة سواء بانتهاك محظورات الإحرام أو بأي معصية، والمعاصي محرمة بكل حال لكنها في الحج أشد تحريماً.

- جواز التجارة مع أداء عبادة الحج.

-استدل الجمهور بإطلاق قوله تعالى ﴿ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ ﴾ على أن الوقوف بعرفات يجزئ في أي وقت من ليل أو نهار ما دام بعد الزوال، واشترط مالك أخذ جزء من الليل، والحجة للجمهور إطلاق الآية وقولهﷺ: (من أدرك معنا هذه الصلاة - أي صلاة الفجر بمزدلفة- وأتى عرفات قبل ذلك ليلاً أو نهاراً فقد تم حجه وقضى تفثه)[٣].

---

(١) المبسوط للسرخسي ٤/ ٦٠، المجموع للنووي٧/ ١٠٥، بداية المجتهد لابن رشد ١/ ٢٣٨، الكافي لابن قدامة ١/ ٣٩٠.

(٢) الإجماع لابن المنذر ص ٤٩ رقم/ ١٤٥.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك برقم/ ١٧٠١ وقال:هذا حديث صحيح على شرط كافة أئمة الحديث، وأبوداود برقم/ ١٩٥٠ وأحمد في مسنده٤/ ٢٦١ عن عروة بن مضرس. وسنده صحيح. تلخيص الحبير لابن حجر ٢/ ٢٥٦.

-استدل بعض الفقهاء بإطلاق الأمر في قوله تعالى ﴿ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ﴾ على فرضية الوقوف بمزدلفة، ورد جمهور الفقهاء هذا الاستدلال فقالوا: لم يرد في الآية أمر صريح بالوقوف ولا بالمبيت وإنما فيها الأمر بالذكر، وليس فرضاً، فمن لم يذكر الله فحجه صحيح، فكذلك من لم يقف من باب أولى، ولأن المبيت ليس من ضرورة ذكر الله بها[١].

- الأمر للحاج بذكر الله في الأيام المعدوادت وهي أيام التشريق بمنى، ويتشبه غير الحجاج بالحجاج فيكبرون وبخاصة في أوقات الصلوات.

-يجوز التعجل من منى في اليوم الثاني لمن أراد بشرط أن ينفر قبل غروب الشمس؛ قال ابن المنذر: " وأجمعوا على أن من أراد الخروج من الحج عن منى شاخصاً إلى بلده خارجاً عن الحرم غير مقيم بمكة في النفر الأول أن ينفر بعد زوال الشمس في اليوم الثاني إذا رمى في اليوم الذي يلي يوم النفر قبل أن يمسي"[٢].

ج - الأخلاق الإسلامية والآداب الشرعية:

- يجب عمن عفا عن القاتل أن يتبعه بالمعروف، قال ابن عطية معلقاً على الآية:" وهذا الآية حض من الله تعالى على حسن الاقتضاء من الطالب وحسن القضاء من المؤدي".[٣]

- وعلى القاتل كذلك إذا عفي عنه أن يؤدي الدية بإحسان، وألا يماطل في أداء ما عليه.

- التيسير والتخفيف منهج إسلامي أصيل؛ قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞ ﴾ وقال: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ ﴾ وأمثلة ذلك في الصوم كثيرة، ومن أمثلته في الحج قوله تعالى ﴿ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِ ﴾ فعلق الأمر بما تيسر، ومن التيسير في الحج أن الكفارات جاءت متدرجة من الأخف على الأثقل؛ فبدأ بالصيام وهو أيسر على غالب الناس من الفدية، وثنى

---

(١) المبسوط للسرخسي ٤/ ٦٣، مواهب الجليل لمحمد عبدالرحمن المغربي ٣/ ٨، المغني لابن قدامة ٣/ ٢١٥.

(٢) الإجماع لابن المنذر ص ٥٦ رقم/ ٢٠٥.

(٣) المحرر الوجيز لابن عطية ١/ ٢٤٦.

بالصدقة وهي أيسر من النسك. ومن التيسير أيضاً: أن من لم يجد الهدي يجزئه صيام عشرة أيام ولا يلزم تتابعها. وكذلك أباح للحاج التعجل من منى لمن شاء.

- إثم التغيير على من قام به دون غيره.

- فضيلة الصلح، وبيان أنه من أفضل الأعمال، لأن نفعه متعدٍ إلى الناس؛ فهو أفضل من العبادة القاصرة غير المتعدية؛ وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول اللهﷺ: (ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة؛ قالوا: بلى، قال: إصلاح ذات البين)[1].

- الحرص على الدعاء، وتحري مواطن الإجابة الزمانية كساعة يوم الجمعة، وبين الأذان والإقامة، ودبر الصلوات المكتوبات، وجوف الليل، وليلة القدر، ويوم عرفة، والمكانية كالدعاء عند الكعبة وكذلك أحوال الإجابة من السفر والمطر والمرض وعند اللقاء وغيره، ومن مواطن الإجابة شهر رمضان؛ فقد جاءت آيات الصوم مقترنة بالدعاء لهذه الحكمة، والدعاء عبادة يؤجر فاعلها، ومن شروط الإجابة: الإخلاص، وإطابة المطعم، وعدم الاستعجال، والعزم في الدعاء،وحضور القلب، وعدم الاعتداء، ومن آداب الدعاء: أن يبدأ الداعي بنفسه، وأن يكرر الدعاء ثلاثاً، وأن يستفتحه بالثناء على الله، والصلاة على رسوله، وأن يرفع يديه مستقبلاً القبلة، وألا يتكلف السجع. ولكل هذه أدلة لا نطيل بذكرها.

- مما يعظم أجر المرء: أن يبتغي بجماعه ما كتب الله له من الولد؛ فإن حسنت نيته في هذا رزقه الله خيري الدنيا والآخرة.

- إتيان البيوت من أبوابها الحسية والمعنوية؛ وهذه قاعدة عامة تطبق في سبب نزول الآية وفي غيره؛ فالسؤال عن الأهلة لمن لم يكن من أهل المعرفة بها إتيان للبيوت من ظهورها، أما المعرفة والعلم والبحث فهو إتيان للبيوت من أبوابها، فهي منهج دقيق يضبط جوانب العلم

---

(١) أخرجه ابن حبان برقم/ ٥٠٩٢ والترمذي برقم/ ٢٥٠٩وقال: صحيح،وأبوداود برقم/ ٤٩١٩ وأحمد٦/ ٤٤٤. وهو صحيح.

والمعرفة، ويبين كيفية الاستعداد لهما حتى يتبوأ المسلمون الرفعة في الدنيا، وعندما حدث التطبيق العملي لهذه القاعدة العظيمة وأتى المسلمون بيوت العلم من أبوابها حازوا منزلة عظيمة وتعلمت منهم الأمم بأسرها.

-عدم الاعتداء من الأخلاق الإسلامية الواجب تطبيقها مع العدو فكيف بغيره.

-من أخلاق الإسلام العدالة والمساواة والمماثلة في رد الحقوق وغير ذلك، قال تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثۡلُهَا ﴾ [الشورى/ ٤٠]، وقال: ﴿ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ ﴾ [١٩٤]، وقال: ﴿ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦ ﴾ [النحل/ ١٢٦]، وأمر بالمماثلة والمقاصة في شأن القتلى. فلا يحق لأحد أن يتجاوز العدل فيأخذ أكثر من حقه أو يتعدى المماثلة المأمور بها.

- جاء الأمر في الآيات بالإحسان مطلقاً، ﴿ وَأَحۡسِنُوٓاْ ﴾ . والإحسان يشمل إحسان العمل وإتقانه، ويشمل منزلة الإحسان التي هي من أرفع المنازل، ويشمل كذلك إحسان القول والفعل، والإحسان إلى الناس جميعاً وإلى الوالدين والأهل خصوصاً.

- النهي عن الجدال فيما لا يفيد. ويتأكد البعد عن الجدال في وقت الحج لأنه مناف لمقصود الحج من السكينة والهدوء ومداومة الذكر، ولأن فيه تشويشاً للقلب في وقتٍ هو أحوج من يكون إلى اجتماع قلبه لذكر ربه.

د- الجوانب التربوية:

- سمى الله في كتابه المال خيراً في أكثر من آية، وأمر بحفظه فلا يؤتى السفهاء، وجعل المال قياماً بأمور الناس، وامتن على النبي ﷺ بأنه أغناه، وقال رسول الله ﷺ: (نعم المال الصالح للرجل الصالح)[1]. وهذا دليل على أن المال ليس مذموماً لذاته، وإنما المال أداة يستخدمها الطائعون

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه برقم/ ٣٢١٠ وأحمد في مسنده ٤/ ١٩٧ وصحح الحافظ العراقي سنده في المغني عن حمل الأسفار ٢/ ٨٩٢.

في الخير فيقربهم إلى ربهم، وبالعكس.

- الصيام ينمي ملكة المراقبة لله رب العالمين؛ ذلك أن الصوم عبادة سريَّة لا يطلع عليها إلا الله، وقد يأكل المرء ويشرب بدون أن يراه أحد، فإذا حافظ على صيامه بعيداً عن أعين الناس أورثه ذلك تقوى لله تعالى.

- التطوع ترق في المقامات، قال تعالى: ﴿ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ﴾ ، والنوافل باب كبير يلج منه المرء إلى محبة ربه، وفي الحديث القدسي: (وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه)[1] فمن رام الوصول إلى محبة ربه حرص على الزيادة في التطوع ليحقق الخير لنفسه.

- قال تعالى ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ فكلٌ من الرجل والمرأة لباس وستر لصاحبه، وهذا من سمو تعبيرات القرآن عن الحياة الزوجية؛ فهي السكن والمودة والرحمة والميثاق الغليظ؛ فالأسرة التي تتكون لبناتها بين الرجل والمرأة هي أساس المجتمع الفاضل والخطوة الأولى لتكوين جيل مسلم، من هنا كان اهتمام الإسلام بالعلاقة الزوجية، والحرص على ربطها بالرباط الديني الأخلاقي المحكم الوثيق.

- حماية أموال الناس، والحفاظ عليها أمر لا يقبل التفريط بحال، وقد نسب الله أموال الناس إلى آكلها فقال: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ قال الطبري:" فجعل تعالى ذكره بذلك آكل مال أخيه بالباطل، كالآكل مال نفسه بالباطل"[2]. وهذا دليل على وحدة الأمة وتكافلها، وفيه أيضاً تربية للمرء على البعد عن الحرام؛ فإنه إذا استحل مال غيره كان ذلك مدعاة لأن يجترئ الناس على ماله، فحفاظه على مال غيره حفاظ على مال نفسه.

- على المربي إذا طلب أو أمر بشيء أن يذكر ما يعين على الفعل ويحرض عليه، وليكن قدوتنا في ذلك كتاب الله، قال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ ﴾ . وهذا ذكرٌ لأسباب

(١) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة برقم/ ٦١٣٧.

(٢) جامع البيان للطبري ٣/ ٥٤٨.



القتال وتحريض عليه بأسلوب حكيم، وفي اقتران ذلك بسبيل الله إرشاد عن التخلي عن حظوظ النفس ليكون القتال من أجل إحقاق الحق.

- القصد من الجهاد الإسلامي دعوة غير المسلمين إلى الإسلام، أو الدخول في ذمة المسلمين وجريان أحكام الإسلام عليهم، لينتهي تعرضهم لبلاد المسلمين، ويتوقف منعهم للدعوة الإسلامية.

- جاء في آيات هذا المقطع قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [١٩٤]. وهذا نص في أن معية الله بالحفظ والتأييد والنصرة والإعانة إنما تكون مع أهل التقوى، والناظر في آيات القرآن يلاحظ أن معية الله للمتقين جاءت في ثلاث آيات كلها في الجهاد، وهذه أولاها، أما الأخريان فهما قوله تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة/ ٣٦] وقوله تعالى: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة/ ١٢٣] وقريب من هذه الصيغة قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل/ ١٢٨] وهي أيضا نازلة في الجهاد كما هو معلوم من الآيات التي قبلها ومن أسباب النزول الواردة فيها. وفي هذا درس تربوي واضح؛ فلا نصر إلا بالتقوى، ولا صلاح للجهاد ولا إصلاح بالجهاد للناس إلا إذا اقترن بالتقوى، والتزم أهله امتثال الأوامر واجتناب النواهي، أما إذا كان القتال لدنيا أو على غير منهج الوحي، أو لتكون أمة هي أربى من أمة فإنه لن يجدي على أهله شيئا يوم القيامة، بل يكون عليهم حسرات.

-جاء التأكيد في الأمر بالحج والعمرة أن يكونا لله ولم يأت ذلك في الصلاة والصوم وبقية العبادات، وفي هذا لفتة تربوية طريفة؛ ذكرها القرافي فقال: "لأنهما مما يكثر الرياء فيهما جداً، ويدل على ذلك الاستقراء؛ حتى إن كثيراً من الحجاج لا يكاد يسمع حديثاً في شيء من ذلك إلا ذكر ما اتفق له أو لغيره في حجه، فلما كانا مظنة الرياء قيل فيهما: لله. اعتناء

بالإخلاص"[1].

- اهتمت التربية الإسلامية بإصلاح الأمرين معاً: الظاهر والباطن، فصلاح الباطن بالتقوى والخشية مطلوب وهو المقصود الأعظم، لكن لا يُنسى كذلك إصلاح الظاهر بالأخذ بالأسباب، قال تعالى: ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ﴾ وهذا جمع بين الزادين، زاد الدنيا بالطعام وزاد الآخرة بالتقوى، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف/ ٢٦] فجمع بين زينة الظاهر بالملابس وزينة الباطن بالتقوى، والناظر في الآيات يلحظ بوضوح أن زينة الباطن خير وأحسن، لكن لا يُهمَل جانب الدنيا، فالتربية الإسلامية قائمة على مبدأ التوازن بين متطلبات الروح والجسد، مع تغليب الأنفع والأبقى. بل إن المسلم يلحظ ذلك في دعائه فيطلب من خيري الدنيا والآخرة أما الذي يهتم بمطالب الدنيا وما له في الآخرة من خلاق فإنه من الخاسرين.

- أصحاب العقول الخالصة الذين وصفهم الله بأنهم أولوا الألباب هم أهل التذكر الحق،قال تعالى ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾ [البقرة/ ٢٦٩]، وهم المأمورون بالتقوى لأنهم الذين يعرفون قدرها وخطرها، قال تعالى: ﴿ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ ، وهم كذلك الذين يفقهون حكم الله في تشريعاته، قال تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ . وهذا يبين قيمة العقل الصحيح في الإسلام، وأنه يوصل الإنسان بالتدبر إلى تقوى الله.

---

(١) الذخيرة للقرافي ٣/ ١٧٣.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة:

- جاء في المقطع وسائل إصلاح الفرد والأسرة والمجتمع الصغير والمجتمع الإسلامي الكبير، وإليك تفصيل ذلك.

أما إصلاح الفرد وتهذيب روحه فإن تشريع الصيام يتكفل بتنقيته من الآثام، وبابتعاده عن الحرام وهذا واضح من سياق الآيات ولحاقها.

والأسرة الصغيرة إنما تصلح بالحب والإيثار والإعطاء من الغني للفقير سواء في حياته كما في آية البر، أو بالإيصاء له كما في آية الوصية، وكذلك المجتمع إنما ينصلح بالعدل والمساواة في أمور القصاص والدية. أما إذا فشت المظالم فإنها تكون سبباً في هلاك المجتمع وفساده.

ولن ينصلح حال المجتمع الإسلامي كله إلا بالجهاد ومقارعة الظالمين، وإذا لم يكن للمسلمين قوة يحمون بها مقدساتهم فإنهم قد يحال بينهم وبينها؛ فقد صُدَّ المسلمون عن البيت الحرام، لكن القرآن رباهم في هذا الدرس على عدم الاستسلام بل عليهم أن يجاهدوا عدوهم إن حال بينهم وبين مقدساتهم.

وقد جاء أمر التقوى في هذا المقطع مرتبطاً بعدة شعائر:

ففي الصوم قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣ ﴾.

وفي الحج ختمت آية إتمام الحج والعمرة بقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ [١٩٦]، وفي مناسك الحج الأمر بالتقوى، قال تعالى ﴿ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [١٩٧] ﴿ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۖ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٠٣ ﴾ [٢٠٣].

وكذلك جاءت التقوى في الأمر بالوصية والأمر بالقصاص والأمر بالجهاد. وهذا دليل

على أن التقوى هي الرباط الجامع الذي يصل كل هذه الأمور بالله رب العالمين.

وفي هذه الأمور المذكورة حفاظ على كليات الشريعة الإسلامية؛ فالصوم والحج حفظ للدين، والنهي عن الرشوة حفظ للمال، والجهاد حفظ للنفس، وابتغاء ما كتب الله من الولد حفظ النسل، وهذه أصول وكليات الشريعة الإسلامية، وقد جاء في هذا المقطع تفصيل الحفاظ على الدين لأنه الأهم، وسيأتي في المقاطع اللاحقة تفصيل الحفاظ على النسل والعقل والمال. وبهذا تأتلف مقاطع السورة لتشكل معاً معالم الشريعة الإسلامية.

المقطع الثاني: نماذج بشرية ومواعظ إلهية (٢٠٤-٢٢٠)

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ

ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢١٨﴾ ۞يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٢٠﴾ ﴾

المناسبة بين المقطع والمقطع السابق:

اختتمت الآيات السابقة بالحديث عن انقسام الناس حيال الموقف من الدنيا والآخرة إلى فريقين، فريق غايته الدنيا وأسقط أمر الآخرة من حسابه، وآخر يطلب للدنيا لكن لا ينسى الآخرة. واستمرت آيات هذا المقطع في وصف الناس إزاء موقفهم ممن حولهم إلى قسمين أيضاً:

الأول: قسم لا يهمه سوى أمر نفسه، وهو في سبيل ذلك يفسد في الأرض ويخرب عامرها، أما الفريق الثاني فإنه على العكس من ذلك، يبذل نفسه وماله ابتغاء رضوان ربه.

فالنموذج الأول يتحدث عن الناس من حيث صلتهم بالله وطلبهم منه، أما النموذج الثاني فإنه يتحدث عن الناس من حيث صلتهم بمن حولهم، وما الذي يحكم هذه الصلة.

وجاء بعد ذلك ذكر نموذج الضُّلال الذين زينت لهم الحياة الدنيا فانطلقوا يسخرون من المؤمنين، وجاء بعده مباشرة ذكر أهل الإيمان وأنهم أهل العلو الحقيقي. وفي وسط هذه النماذج المتضادة جاء التذكير بأخذ الدين بقوة وعدم اتباع خطوات الشيطان، مع تذكير المؤمنين بحال من بدلوا حتى يتعظوا ولا يقعوا فيما وقعوا فيه.

ثم تَبِع ذلك آيات تمهد للمؤمنين سبيل الجهاد وتهيؤهم له، وهذا مرتبط بما قبله من الحديث عن القتال، بل إن الباعث عن القتال في الموضعين قد تقارب وذلك في قوله تعالى في المقطع السابق: ﴿ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ

عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ ﴾ [١٩١]. وفي هذا المقطع قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ﴾ [٢١٧].

التفسير الإجمالي للمقطع:

لما كانت القلوب هي محل التقوى، وكان العمل شاهداً لما في القلب من التقوى دون الكلام ذكر الله أن الناس في هذا الأمر قسمان: قسم مخادع يظهر خلاف ما يبطن، وقد جاء وصفه بخمس صفات: أولها: أن قوله يروقك في الدنيا حيث الأخذ بالظواهر. وثانيها: أنه لا يكتف بمعسول القول وليِّن الحديث وإنما يحلف بالله ويقول إنه تعالى شهيد على ما في قلبه من الخير، وثالث أوصافه: أنه رغم قوله وحلفه فإنه في واقع الأمر أشد عداوة ومخاصمة للمؤمنين، قال ﷺ: (إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم)[1].

ورابع أوصافه: أنه إذا تولى أي أعرض عن المكان وابتعد عنه، أو صار والياً له كلمة وحكم فإنه يبذل وسعه في الفساد في الأرض فساداً معنوياً بنشر الضلال وفساداً حسياً بإتلاف الزرع والمال والولد، وهذا دليلٌ على فساد باطنه بخلاف ما زعم، والله لا يحب الفساد.

وخامس أوصافه: أنه مصرٌّ على ذنبه ويستنكف من قبول النصيحة وتحيط به حمية الجاهلية، وتأخذه العزة لا بالحق بل بالإثم، فهذا تكفيه جهنم مصيراً وبئس الفراش فراشها.

أما القسم الثاني فإنه صادق القلب، ويظهر أثر هذا في تجرده، فهو يبيع نفسه وكل ما يملك طلباً لمرضاة الله تعالى، فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر[1]، ويجاهد بماله ويجود بنفسه والله رؤوف بعباده، يعيينهم ويقويهم.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ٢٣٢٥، ومسلم في صحيحه برقم/ ٢٦٦٨عن عائشة.

(٢) انظر: جامع البيان للطبري ٤/ ٢٥٠.



قيل: نزلت الآية في صهيب، لما أقبل مهاجراً نحو النبيﷺ فاتبعه نفر من المشركين، فنزل عن راحلته ونثر ما في كنانته، وأخذ قوسه ثم قال: يا معشر قريش، لقد علمتم أني من أرماكم رجلاً وأيم الله لا تصلون إلي حتى أرمي بما في كنانتي ثم أضرب بسيفي ما بقي في يدي منه شيء، ثم افعلوا ما شئتم فقالوا: دلّنا على بيتك ومالك بمكة ونخلي عنك، ففعل. فلما قدم على النبي ﷺ قال: أبا يحيى، ربح البيع، ربح البيع. وتلا له الآية[1]. والنموذج الذي تبينه الآيات يشمل سبب النزول لكنه عام في إبراز ملامح طائفة مخلصة متجردة لله تعالى.

والآيات السابقة تدل على أن الإفساد في الأرض لا يقوم به أهل الإيمان، وإنما هو دأب المنافقين الذين يظهرون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، ودأب شياطينهم من اليهود، أما المؤمنون فإنهم مطالبون بالإيمان الكليّ الذي لا يأخذ شيئاً ويدع آخر. وهذا ما بينته الآية حيث ذكرت ما يجمع القلوب نحو مرضاة علام الغيوب وذلك بأمر المؤمنين أن يستسلموا لله تعالى، ويخضعوا له وينقادوا بالكلية لأحكامه، وألا يتبعوا الشيطان فيتفرق بهم عن سبيل الله، ذلك أن الشيطان للإنسان عدو مبين وإن لم يكن مرئياً إلا أن عداوته ظاهرة لا ينكرها عاقل.

فإن اتبعتم طريقه وسلكتم نهجه فأصابكم الزلل بعد ما هداكم الله بالأدلة البينة على طريق الحق فاعلموا أن الله غالب لا يُغلب وقادر لا يُقهر فاحذروا غضبه وانتقامه.

ثم تغير الأسلوب إلى هؤلاء المفسدين وخاطبهم بأسلوب الغائب التفاتاً تخويفاً لهم وبياناً أنهم لا ينتظروا إلا أن يأتيهم الله إتياناً يليق بذاته وتأتيهم الملائكة في قطع السحاب بعد أن تشقق السموات، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [الفرقان: ٢٥] عندئذ حق العذاب وقضي الأمر وإلى الله تصير الأمور.

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك برقم/ ٥٧٠٠ عن عكرمة، وصححه على شرط مسلم، وابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣٦٨ برقم/ ١٩٣٩ وأبو نعيم في حلية الأولياء ١/ ١٥١ وابن عساكر في تاريخ دمشق الكبير ٢٤/ ٢٢٨، وله طرق عدة. انظر: الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر٣/ ٤٥١.

وتذكر الآيات بعض إفساد هؤلاء وتحذر المسلمين من سلوك منهجهم، قال الرازي: "وذلك تنبيه لهؤلاء الحاضرين على أنهم لو زلوا عن آيات الله لوقعوا في العذاب كما وقع أولئك المتقدمون فيه، والمقصود من ذكر هذه الحكاية أن يعتبروا بغيرهم"[١].

والمعنى: اسأل يا محمد بني إسرائيل سؤال إنكار لا سؤال استفسار كم من المعجزات والبراهين المتكاثرة قد أتتهم ولكن كانوا عنها معرضين، ولها مبدلين، ثم بين الله سنته الكونية في ذلك وهي أن من بدل نعمة من بعد ما جاءته واتضحت له بأن كفر بها فإن الله يعاقبه أشد العقوبة فهو شديد العقاب، ونظير ذلك قوله تعالى في حق المشركين ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ ﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩].

ثم أتبع الله ذلك بالسبب الذي لأجله كفر هؤلاء بأنعم الله فبين سبحانه أن حب الدنيا والاغترار بزخرفها قد زُيِّن لهم وملك عليهم قلوبهم حتى وصلوا إلى درجة دوام واستمرار السخرية بمن لم يكن على طريقتهم من المؤمنين، فبين القرآن أن أهل التقوى هم الأعلون حتى وإن علا الكفار في الدنيا قليلاً، فإن المتقين فوقهم يوم القيامة، وهذا هو التفاضل الحقيقي إذ لا تفاضل في الدنيا فإن الله يرزق الجميع في الدنيا بغير أن يحتسبوا، وقد يكون التذييل خاصاً بنعيم الآخرة حين يكون المتقون فوق الذين كفروا يوم القيامة[٢]، قال: الألوسي" ويجوز أن يُراد في الدارين فيكون تذليلاً لكلا الحكمين"[٣].

وهذان نموذجان يوجدان في كل زمان ومكان: نموذج الكافر المغرور بدنياه، والمؤمن المستعلي بتقواه.

---

(١) مفاتيح الغيب للرازي ٦/ ٣،٤.

(٢) ورجح الوجه الثاني ابن جرير الطبري في جامع البيان ٤/ ٢٧٤.

(٣) روح المعاني للألوسي ٢/ ١٠٠.

وما زال الحديث موصولاً في تقريع هؤلاء الطواغيت وتقوية قلوب المؤمنين لجهادهم؛ فتحدثت الآيات عن سبب اختلاف السابقين من أهل الكتاب على أنبيائهم، وأوضحت أن بغيهم هو علة كفرهم كما ورد في قوله تعالى: ﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [البقرة/ ٩٠] وقد ذكرت هذه الآية الجامعة أحوال الأمم مع الاهتداء في إيجاز مقنع وأسلوب أخاذ.

ذلك أن بني آدم كانوا على ملة واحدة ودين مستقيم[1] فاختلفوا بين ضال ومهتد، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ﴾ [يونس/ ١٩] فأرسل الله النبيين مبشرين للمهتدي بالثواب ومنذرين للضال بالعذاب، وأنزل معهم الكتب السماوية للحكم بين الناس بالحكم العدل والقول الفصل فيما اختلفوا وتفرقوا فيه.

ثم بين الله الأسباب التي أدت إلى اختلاف الناس في الكتاب الذي أنزله لهدايتهم؛ فما اختلف في شأن الكتاب الهادي إلا الذين علموه، وما كان اختلافهم بسبب التباس الحق عليهم، ولكن كان بسبب البغي والحسد بينهم، فأورثهم هذا الشقاق، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ [١٧٦] وإذا كان هذا شأن الضالين المختلفين في الحق فإن الله هدى الذين آمنوا لما اختلف فيه أهل الضلال، والله تعالى يوفق من يشاء بدلالته وإرشاده إلى الطريق القويم والصراط المستقيم.

والآية مرتبطة بقضية الاستخلاف في الأرض؛ فآدم نزل ومعه المنهج كما في قوله تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى ﴾[٣٨] لكن حدث الاختلاف بعد ذلك، والعجب أنه حدث مع

(١) وروى ذلك المعنى الطبري عن أبي وابن عباس ومجاهد وقتادة انظر: جامع البيان للطبري٤/ ٢٧٨ واختاره الزمخشري في الكشاف ١/ ٢٨٣ وابن كثير في تفسير القرآن العظيم ١/ ٥٦٩ والبغوي في معالم التنزيل ١/ ١٨٦ وأبو حيان في البحر المحيط ٢/ ١٤٣ والنسفي في تفسيره ١/ ١٠١ وبالجملة فالإمام الرازي يقول" وهذا قول أكثر المحققين " مفاتيح الغيب ٦/ ١٠.

وجود الكتاب الذي يعصم من الاختلاف، وما كان الاختلاف إلا بسبب البغي وتحكيم الأهواء ومن هنا تفرق الناس شيعاً تبعاً لأهوائهم، وجاء الأنبياء يوجهونهم، والآية تشير بوضوح إلى سبب ضلال أهل الكتاب مع وجود الحق من عند الله في أيديهم.

وفي تذييل الآية بقوله ﴿ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ بيان أن أهل الإيمان اختصوا بالهداية دون غيرهم ممن اختلفوا وتركوا الحق بغياً، ولذلك لم يأت بعدها ذكر للقوم الضالين، وإنما جاءت التكاليف الإلهية للمؤمنين لتكتمل لهم الهداية.

وقد جاءت آية القبلة مقاربة لهذه الآية، وهي قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [١٤٢] وذلك لأنها اشتملت على ما تميزت به هذه الأمة من شأن القبلة الوسط التي أظهرت شرف هذه الأمة ومكانتها وقدرها عند ربها.

وبعد هذا البيان لما حدث من السابقين الضالين، جاءت الآية بالمثال الناصع للمؤمنين، وهو مثل المهتدين الذين ثبتوا على الحق، فكما ذكرت الآيات أهل البغي فإنها بينت للمسلمين بعدها منهج أهل الحق كي يقتدوا بهم في مسيرهم لينالوا مصيرهم؛ فالهداية إلى الطريق الحق تحتاج إلى رجال أشداء يصبرون على البأساء والضراء.

وقد ضربت الآية لهم مثلاً بالأمم السابقة قبلهم، و(أم) هنا متصلة تشير إلى محذوف دل عليه الكلام، والمعنى: قد خلت من قبلكم أمم أوتوا الكتاب واهتدوا إلى الحق فآذاهم الناس فصبروا وثبتوا، أفتصبرون مثلهم على المكاره وتثبتون ثباتهم على الشدائد؛ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة دون أن يصبكم ما أصابهم[1]؟

لقد مستهم الشدة التي تصيب الإنسان في بدنه وماله وانزعجوا واضطربوا، حتى بلغوا الغاية التي قال فيها الرسل وأتباعهم متى نصر الله؟ تمنياً للنصر واستعجالاً له، فيأتيهم الرد

---

(١) انظر: تفسير القرآن الحكيم لرشيد رضا ٢/ ٢٩٩.

الإلهي يتردد صداه في الملأ الأعلى: ﴿ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ فرفع الله ما بهم من ضر، وأجزل لهم الأجر، ونظير ذلك قوله تعالى ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [يوسف: ١١٠].

قيل: نزلت الآية التي معنا في غزوة الأحزاب، حيث أصاب النبي ﷺ يومئذ وأصحابه بلاء وحصر[١].

وبعد ذكر هذه النماذج المؤمنة المجاهدة جاء تذكير المؤمنين ببذل المال والنفس، فعاد الحديث إلى الوعظ والتذكير بالإنفاق والجهاد، وقد روي عن ابن جريج قال: سأل المؤمنون رسول الله ﷺ : أين يضعون أموالهم؟ فنزلت ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [٢].

وهذا أول سؤال من ستة أسئلة وردت متجاورة في سورة البقرة، والسؤال عن مقدار نفقة التطوع ووجهتها فبينت لهم الآيات أن ما أنفقوا من خير أو مال فأولى الناس به الأبوان والولد ثم الأقرب فالأقرب، واليتامى الذين مات آباؤهم، والمساكين الذين أسكنهم الفقر فلم يقدروا على الكسب، والمسافرين الذين انقطعوا عن الرجوع إلى بلادهم، ثم عم الأمر ليشمل من لم يرد لهم ذكر فأخبر سبحانه أن كل ما يفعله المرء من خير مطلقاً فإن الله عالم به وسيجازيه عليه الخير.

وبعد أن حضهم على بذل المال حضهم كذلك على بذل الأرواح والأنفس في سبيل الله، وذلك بأن فرض على المؤمنين القتال، مع كونه مكروهاً للنفس لما فيه من المخاطرة بإزهاق الأنفس وإتلاف الأعضاء والممتلكات وغير ذلك، ولكن مع هذا فإن له حكمة تُهوِّن مشقته وتُحقِّق به خيراً غير ظاهر بالنظرة القاصرة، فعسى أن يتحقق الخير الكثير بما يكرهه المرء، وعسى

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ١/ ٨٣ والطبري في جامع البيان ٤/ ٢٨٩عن قتادة.

(٢) رواه الطبري في تفسيره ٤/ ٢٩٤ وابن المنذر كما في الدر المنثور ١/ ٥٨٥.

أن يحب المرء شيئاً مثل القعود عن الجهاد وهو شر له في الواقع لما فيه من الذل وتداعي الأعداء على المسلمين، والله يعلم الأشياء على ما هي عليه أما نحن فتشتبه علينا الأمور فنرى الضار نافعاً والنافع ضاراً، ومقصود الآية تعليم المؤمنين تلقي أمر الله على ثقة أنه الخير والأنفع لهم.

والحديث مازال موصولاً عن الجهاد وبداية تشريعه على الأمة، ورد شبهات الأعداء حوله، حيث أثاروا شبهة قتال المسلمين لهم في الأشهر الحرم، مع أنهم لم يراعوا هذه الأشهر يوماً ما! فجاء القرآن ليصوب الفهم، ويوجه المؤمنين إلى كيفية الرد عليهم ومواجهتهم. لأن هذا الموقف الذي حدث في سرية عبد الله بن جحش قد أحدث لغطاً في الصفوف.

وملخص ذلك أن النبي ﷺ بعث عبد الله بن جحش ومعه اثنا عشر رجلاً من المهاجرين وأعطاه كتاباً مختوماً على ألا يفتحه إلا بعد أن يسير يومين، ثم ينظر فيه فيمضي لما أمره به ولا يستكره أحداً من أصحابه. فسار عبد الله يومين، وخبرهم الخبر وقرأ عليهم الكتاب فرجع رجلان ومضى بقيتهم، فلقوا ابن الحضرمي فقتلوه، ولم يدروا أن ذلك اليوم من رجب أو جمادى فقال المشركون للمسلمين، قتلتم في الشهر الحرام! فأنزل الله ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ﴾ فقال بعضهم:" إن لم يكونوا أصابوا وزراً فليس لهم أجر، فأنزل الله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ﴾ [1].

والسؤال هنا من المشركين سؤال تعيير ونكير أو هو من المؤمنين سؤال تعليم وتذكير وهو عن حكم القتال في الأشهر الحرم، فلَقَّن الله نبيه الرد بأن القتال في الأشهر الحرم الأربعة (ذي القعدة وذي الحجة والمحرم ورجب) محرم وكبير، ولكن جرائم المشركين: من صرف المسلمين عن دينهم وعن حرم الله، وشرك بالله في بيته، وإخراج أهله منه أكبر وزراً وأعظم إثماً عند الله من القتال في الشهر الحرام، والفتنة بالكفر وتعذيب المؤمنين وإلقاء الشبهات أكبر جرماً من

---

(١) أخرجه ابن جرير في جامع البيان ٤/ ٣١٠ وابن أبي حاتم ٢/ ٣٨٤ والطبراني في المعجم الكبير ٢/ ١٦٢ برقم ١٦٧٠ وصحح إسناده السيوطي في الدر المنثور ١/ ٦٠٠ وقال ابن حجر في العجاب ١/ ٥٣٩ : وهذا سنده حسن. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ١٩٨ : رجاله ثقات.

القتل، فلما هاجر المسلمون ما انفك المشركون عن قصد قتالهم ولهذا حرض الله المؤمنين الذين كانوا يكرهون القتال وبين لهم أن المشركين لا شاغل لهم إلا قتال المؤمنين ليفتنوهم ويردوهم عن دينهم إن استطاعوا.

وبين حكم الردة التي يبتغيها الكفار وأن من ارتد ومات على ردته فقد فسد عمله في الدنيا والآخرة فلم ينتفع به في الدارين وصار من الملازمين للخلود في النار وبئس القرار. وبعد أن توعد الكافرين والمرتدين وعد المؤمنين،" ولا يكاد يوجد وعيد إلا ويعقبه وعد"(١) فوعد الذين آمنوا بالله وفارقوا أموالهم وأوطانهم نصرة لدين الله وجاهدوا في سبيل الله إعلاء كلمته أولئك يرجون ويأملون تعلق رحمة الله بهم فيثيبهم على عملهم، وهو واسع المغفرة عظيم الرحمة للتائبين المؤمنين.

ثم يمضي السياق القرآني متعرضاً لسؤال آخر من أسئلة الصحابة لرسول الله ﷺ وهو السؤال عن الخمر والميسر، والسائل عمر وغيره من الصحابة؛ ففي السنن عن عمر أنه قال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً فإنها تذهب المال والعقل، فنزلت ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ﴾ التي في البقرة، فدعي عمر فقرئت عليه فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً فنزلت الآية التي في سورة النساء ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ ﴾ [النساء: ٤٣] فكان منادي رسول الله ﷺ إذا أقام الصلاة نادى ألا يقربن الصلاة سكران فدعي عمر فقرئت عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية التي في المائدة، فدعي عمر، فقرئت عليه، فلما بلغ ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة: ٩١] قال عمر: انتهينا انتهينا.(٢)

ومن الحديث السابق يتضح لنا أن تحريم الخمر مر بثلاث مراحل، وكانت آية البقرة

(١) التفسير الكبير للرازي ٦/ ٣٤

(٢) أخرجه أبو داود في سننه ٣/ ٣٢٥ والترمذي ٥/ ٢٥٣ والنحاس في الناسخ والمنسوخ١/ ١٤٩، والضياء في المختارة ١/ ٣٦٨ والحاكم في المستدرك ٢/ ٣٠٥ وصححه على شرطهما، والنسائي في سننه ٨/ ٢٨٦ وأحمد ١/ ٥٣ وصححه ابن المديني كما في الفتح ٨/ ٢٧٩.

هي المرحلة الأولى في التحريم، ويرى الزمخشري أن أول آية نزلت في تحريم الخمر بمكة قوله تعالى ﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ [النحل/ ٦٧][١] وفي هذا بيان لحكمة التشريع الإسلامي في اقتلاع هذه العادة الذميمة منهم، قال القفال رحمه الله: " والحكمة في وقوع التحريم على هذا الترتيب أن الله تعالى علم أن القوم قد كانوا ألفوا شرب الخمر وكان انتفاعهم بذلك كثيراً، فعلم أنه لو منعهم دفعة واحدة لشق ذلك عليهم، فلا جرم استعمل من التحريم هذا التدريج وهذا الرفق"[٢].

وأصل الخمر في اللغة السترُ التغطية، وسميت الخمر خمراً لأنها تخامر العقل أي تخالطه، وقيل: لأنها تستره وتغطية"[٣] وجمهور الفقهاء على أن الخمر تشمل كل شراب من العنب أو الشعير أو التمر وغيره وذلك لأدلة كثيرة منها قوله ﷺ : (كل مسكر خمر، وكل مسكر حرام)[٤].

والميسر: القمار، وهو مشتق إما من اليسر لأنه أخذ المال بدون جهد، وإما من اليسار أي الغنى لأنه سلب للغنى[٥]، ويشمل كل ما يؤدي إلى كسب مال عن طريق المخاطرة، فيدخل فيه كل ما يدفعه الفرد ليدخل في سحب أو يانصيب أو نحو ذلك ليفوز بمبلغ أكبر أو يخسر ما دفعه.

وقد أجاب الله على سؤالهم وبين أن في الخمر والميسر منافع مادية للناس في التجارة والربح أما الإثم فهو أكبر[٦]؛ وذلك لأن مفاسدهما عظيمة، فهما كما قال ربنا ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن

---

(١) الكشاف للزمخشري ١/ ٢٨٨.

(٢) نقله الرازي في مفاتيح الغيب ٦/ ٣٥.

(٣) زاد المسير ابن الجوزي ١/ ٢٣٩

(٤) رواه مسلم في صحيحه عن جابر مرفوعاً ورقمه ٢٠٠٢

(٥) انظر: إرشاد العقل السليم لأبي السعود ١/ ٢١٨.

(٦) وفي قراءة حمزة والكسائي (إثم كثير) وهذه القراءة تفيد بيان الكم أما القراءة الأولى فإنها تفيد الكيف، قال مكي: وذلك لأن الخمر تحدث مع شربها آثام كثيرة، من لغط وتخليط وسب وأيمان،وعداوة وخيانة، وتفريط في الفرائض وفي ذكر الله وفي غير ذلك، فوصف بالكثرة. الكشف عن معاني القراءات وعللها وحججها. لمكي بن أبي طالب. ١/ ٢٦١.

يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِي ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [المائدة: ٩١] وقال ﷺ: (الخمر أم الفواحش وأكبر الكبائر، من شربها وقع على أمه وخالته وعمته)[(١)].

وللخمر مضارها الصحية على الجهاز الهضمي والعصبي والقلب والكلى والكبد، كما تؤدي إلى التشوهات الخلقية[(٢)]، ومضارها المالية معروفة، ولها أضرارها الاجتماعية على الأسر والأبناء وعلى المجتمع بأسره، وأضرار الميسر كثيرة ومنها تعويد النفس على الكسل وخراب المال، وإهمال العمل الجاد.

وإذا كان في الخمر والميسر الإنفاق المحرم فإن السؤال الذي جاء بعده كان عن الإنفاق المشروع والمستحب فكان السؤال عن النفقة وماذا ينفقون؛ فعن ابن عباس أن نفراً من الصحابة حين أمروا بالنفقة في سبيل الله أتوا النبيﷺ فقالوا: إنا لا ندري ما هذه النفقة التي أمرنا الله بها في أموالنا فما ننفق منها؟ فأنزل الله الآية[(٣)] فكانت الإجابة القرآنية بأن ينفقوا العفو أي ما يفضل عن الحاجة فهذا هو ما يتيسر فعله ولا يتضرر المنفق منه، قال ﷺ : (خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى)[(٤)]، ومثل هذا البيان الحكيم الذي بينه الله لكم فيما سألتم عنه يبين لكم آياته وأحكامه لكي تتفكروا فيما ينفعكم في دنياكم بالعمل الصالح وفي آخرتكم برضوان الله تعالى.

ثم جاء السؤال عن اليتامى ومناسبته لما قبله كما يقول أبو حيان: "أنه ذكر السؤال عن الخمر والميسر وكان تركهما مدعاة إلى تنمية المال، وذكر السؤال أنهم ينفقون ما سهل عليهم، ناسب ذلك النظر في حال اليتيم، وحفظ ماله وتنميته، وإصلاح اليتيم بالنظر في تربيته؛ فالجامع بين الآيتين إن في ترك الخمر والميسر إصلاح أحوالهم أنفسهم، وفي النظر في حال اليتامى إصلاحاً لغيرهم ممن هو عاجز أن يصلح أحوالهم نفسه، فيكون قد جمعوا بين النفع لأنفسهم

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير ١١/ ٢٠٣ وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٣٤٥

(٢) الإسلام والطب د/ محمد وصفي/ ١٩٩.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم برقم/ ٢٠٠٦. وانظر العجاب لابن حجر ١/ ٥٤٦.

(٤) رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة مرفوعاً ورقمه/ ٥٠٤١.

ولغيرهم"[١].

وكان سبب سؤال الصحابة هو ما ورد في السنن عن ابن عباس قال: "لما نزل قوله تعالى ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾ [النساء: ١٠] انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه وشرابه من شرابه، فجعل يفضل له الشيء من طعامه وشرابه، فيحبس له حتى يأكله أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ ﴾ "[٢].

وقد أجابهم القرآن عن سؤالهم وأخبر النبي ﷺ أن يقول لهم: إن المطلوب هو إصلاح أموالهم بالمحافظة عليها وإصلاحهم كذلك بالعناية والتربية، فهذا خير من تركهم، وإن خالطتموهم في المطعم أو المسكن أو التجارة أو المشاركة أو المصاهرة فهم إخوانكم في الدين، قال الزمخشري: "وقد حملت المخالطة على المصاهرة"[٣]، ورجح هذا المعنى أبو حيان فقال: "ورجح هذا القول بأن هذا خلطة لليتيم نفسه، والشركة خلطة لماله، ولأن الشركة داخلة في قوله: ﴿ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ﴾ ولم يدخل فيه الخلط من جهة النكاح، فحمله على هذا الخلط أقرب"[٤].

ثم رغبهم في الإصلاح وخوفهم من الإفساد بأن الله يعلم المفسد من المصلح، ولو شاء الله لضيق عليكم وأصابكم بالمشقة إن حرم عليكم مخالطة اليتامى، فهو غالب لا يعجزه أمر وهو حكيم في كل أفعاله يضع كل شيء في موضعه.

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان ٢/ ١٧٠

(٢) رواه الحاكم في المستدرك رقم ٣١٨٤ والضياء في المختارة رقم ٢٧٣ وأبو داود في سننه رقم ٢٨٧١ والبيهقي في سننه ٦١١٢٤٥١/ ٢٨٤ وسنده صحيح.

(٣) الكشاف للزمخشري ١/ ٢٩١.

(٤) البحر المحيط لأبي حيان ٢/ ١٧١.

وفي هاتين الآيتين إصلاح أحوال الفرد والمجتمع في طعامهم وشرابهم ونفقتهم، وعلاقتهم مع غيرهم وبالأخص مع الضعفاء واليتامى، وقد ابتدأت الآية بذكر الإصلاح واختتمته كذلك بذكر المصلح، وهذا تأكيد على أمر الإصلاح، وبيان أن المنهج الإسلامي الذي يعمر الدنيا قائم على الإصلاح بخلاف السابقين الذين ادعوا الإصلاح وهم في حقيقة الأمر مفسدون.

الهدايات المستنبطة من المقطع

أولاً: القضايا العقدية:

- من لم تبلغه دعوة الإسلام فلا يعد كافراً، قال تعالى: ﴿ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ ﴾ فاشترط مجيء الآيات البينات الواضحات ليكون الحساب والعقاب. وقد دلت آيات عدة على هذا الحكم؛ قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء/ ١٥] قال ابن حزم: "فنص تعالى على أن النذارة لا تلزم إلا من بلغته لا من لم تبلغه، وأنه تعالى لا يعذب أحداً حتى يأتيه رسول من عند الله عز وجل، فصح بذلك أن من لم يبلغه الإسلام أصلاً فإنه لا عذاب عليه"[١].

- الراجح الذي عليه المحققون في قوله تعالى ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ أن الناس كانوا في مبدأ أمرهم على التوحيد، وهذا يرد ما ذهب إليه اليهودي فرويد؛ حيث ذهب إلى أن العبادة البشرية الأولى كانت عبادة الأب ثم انتقلت إلى عبادة حيوان يقال له (الطوطم) ثم تطور الأمر بالناس إلى التوحيد. وبذلك تكون (الطوطمية) هي أول صورة للدين في التاريخ البشري بزعمهم[٢]. وهذه النظرية تردها الآية القرآنية السابقة، وما ورد في الحديث القدسي: (وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم)[٣]. وما ورد

---

(١) الفصل لابن حزم ٤/ ٥٠.

(٢) انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة (الفرويدية).

(٣) سبق تخريجه ص ١٤٠.

عن ابن عباس: "كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين"[(١)].

ثانيا: الأحكام الشرعية:

- دل قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ﴾ على جواز الانغماس في العدو لتحقيق النكاية فيهم وإن غلب على المرء ظن عدم السلامة، وقد استشهد بها الصحابي الجليل أبو هريرة على قريب من هذا؛ وذلك فيما ورد " جاءت كتيبة من قبل المشرق من كتائب الكفار فلقيهم رجل من الأنصار فحمل عليهم فخرق الصف حتى خرج ثم كبر راجعاً فصنع مثل ذلك مرتين أو ثلاثاً فإذا سعد بن هشام يذكر ذلك لأبي هريرة فتلا هذه الآية ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ﴾"[(٢)].

وقال محمد بن الحسن: "إنه لا بأس أن يحمل الرجل وحده وإن ظن أنه يقتل إذا كان يصنع شيئاً بقتل أو بجرح أو بهزم؛ فقد فعل ذلك جماعة من الصحابة بين يدي رسول الله ﷺ يوم أحد ومدحهم على ذلك، فأما إذا علم أنه لا ينكي فيهم فإنه لا يحل له أن يحمل عليهم؛ لأنه لا يحصل بحملته شيء من إعزاز الدين"[(٣)].

وقيل: إذا طلب الشهادة وخلصت النية فليحمل ؛ لأن مقصده واحد منهم، وذلك بيِّن في قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ﴾ .

قال ابن العربي معلقاً: "والصحيح عندي جوازه ؛ لأن فيه أربعة أوجه: الأول: طلب الشهادة. الثاني: وجود النكاية. الثالث : تجرية المسلمين عليهم. الرابع : ضعف نفوسهم ليروا أن هذا

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك برقم/ ٣٦٥٤ وصححه على شرط البخاري. ومثله لا يقال بالرأي فله حكم المرفوع. والله أعلم.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف برقم/ ١٩٤٣٩ . وابن عبد البر في الاستذكار٥/ ١٣٣ .

(٣) ذكره ابن عابدين في حاشية رد المحتار ٤/ ١٢٧ .

صنع واحد، فما ظنك بالجميع ؟[1].

- قال تعالى: ﴿ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ وفيه دليل على وجوب النفقة من الولد على الأبوين. وهذا محل اتفاق بين أهل العلم: أن على الولد الموسر أو القادر على الكسب نفقة أبويه المحتاجين. والجمهور على وجوب النفقة للأجداد والجدات أيضاً، ولم يخالف في ذلك إلا المالكية حيث قصروها على الأبوين فقط[2].

- أما الأقارب فقد جعل الله حقهم بعد حق الوالدين، وأمر بالإحسان إليهم، ومن جملة الإحسان الإنفاق عليهم. والحنفية والحنابلة يوسعون في النفقة؛ فعند الحنفية تجب لكل ذي رحم محرم، وأما الحنابلة فيوجبونها لكل قريب وراث بالفرض أو التعصيب. أما الشافعية والمالكية فلا يوجبون النفقة إلا للأصول والفروع، والآية تشهد للأولين والله أعلم.

- قال تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ ﴾ وكتب يعني: فرض وأوجب، فالآية تدل بمنطوقها على وجوب القتال. وهو واجب على الكفاية لكن يتعين في ثلاث حالات:

١- إذا التقى الزحفان، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ ﴾ [الأنفال/ ٤٥].

٢- إذا استنفر الإمام قوماً لزمهم الخروج، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [التوبة/ ٣٨: ٣٩].

٣- إذا نزل العدو ببلد تعين على أهله الخروج لعموم قوله تعالى: ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ١/ ١٦٦.

(٢) بدائع الصنائع للكاساني ٤/ ٣٥، المهذب للشيرازي ٢/ ١٦٥، الكافي في فقه ابن حنبل ٣/ ٣٧٣. وشرح الخرشي على مختصر خليل ٤/ ٢٠٤.

وَثِقَالًا ﴾ [التوبة/ ٤١][(١)].

- اتفق الفقهاء على أن قتال الدفع جائز في الأشهر الحرم، لكن اختلفوا في قتال الطلب هل هو محرم أم أن التحريم قد نسخ؟

فذهب جمهور الفقهاء إلى أن تحريم القتال في الأشهر الحرم منسوخ[(٢)]، وذهب عطاء إلى عدم النسخ، فيبقى حكم التحريم قائماً. قال الطبري:" والصواب من القول في ذلك ما قاله عطاء ابن ميسرة: من أن النهي عن قتال المشركين في الأشهر الحرُم منسوخ بقول الله جل ثناؤه ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٌۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةً ﴾ [التوبة:٣٦].

وإنما قلنا ذلك ناسخٌ لقوله: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞ ﴾، لتظاهر الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه غزَا هوازن بحُنين وثقيفًا بالطائف، وأرسل أبا عامر إلى أوْطاس لحرب من بها من المشركين، في الأشهر الحرُم، وذلك في شوال وبعض ذي القعدة، وهو من الأشهر الحرم. فكان معلومًا بذلك أنه لو كان القتالُ فيهن حرامًا وفيه معصية، كان أبعد الناس من فعله ﷺ "[(٣)].

- اختلف الفقهاء في حكم المرتد هل يحبط عمله بالردة أم بالوفاة على الكفر. فذهب الأحناف والمالكية إلى أن الردة كافية لإحباط العمل، وعليه فلو ارتد مسلم حبط عمله كاملاً ولو عاد إلى الإسلام استأنف العمل، وقالوا في الآية التي معنا: "فيها ذكر عملين: أحدهما الردة، والآخر الموت عليها: أي الاستمرار عليها إلى الموت، وذكر جزاءين، لكل عمل جزاء على

(١) انظر: الروض المربع للبهوتي ٢/ ٣.

(٢) المبسوط للسرخسي ١٠/ ٢٦، روضة الطالبين للنووي ١٠/ ٢٠٤، شرح منتهى الإرادات للبهوتي ٣/ ٣٤٢.

(٣) جامع البيان للطبري ٤/ ٣١٤.

اللف والنشر المرتب؛ فإحباط الأعمال جزاء الردة، والخلود في النار جزاء الموت عليها، بدليل أنه في الآية الأولى علق حبط العمل على مجرد الكفر بما آمن به، ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ (الأنعام: ٨٨)"[١].

أما الشافعية فقد ذهبوا إلى أن شرط إحباط العمل أن يموت صاحبه على الردة والعياذ بالله، واستدلوا بهذه الآية الكريمة، قال النووي: "فعلق الحبوط بشرطين الردة والموت عليها والمعلق بشرطين لا يثبت بأحدهما والآية التي احتجوا بها مطلقة وهذه مقيدة فيحمل المطلق على المقيد"[٢].

والراجح - والله أعلم- قول الشافعية؛ لأن الآيات التي أطلقت الإحباط مقيدة بهذه الآية التي اشترطت الموت على الردة، وقد اتحدت الآيات في السبب وهو الردة، والحكم وهو إحباط العمل فوجب حمل المطلق على المقيد، لما هو مقرر في أصول الفقه من أنه إذا اتحد النصان في الحكم والسبب وجب حمل المطلق على المقيد[٣].

- أما المرأة فحكمها حكم الرجل إذا ارتدت عند الجمهور خلافاً لأبي حنيفة وجماعة؛ حيث قالوا لا تقتل المرأة[٤].

- تحريم الخمر حرمة قطعية وكذلك الميسر وكل ما يقاس عليهما من المخدرات والنرد وغير ذلك.

- جواز مخالطة اليتيم بقصد الإصلاح، فللولي أن يخلط طعامه بطعام اليتيم، وإن كان الإفراد أفضل لليتيم أفرد له.

---

(١) حاشية رد المحتار على الدر المختار لابن عابدين ٢/ ٧٦.

(٢) المجموع للنووي ٣/ ٦.

(٣) انظر: الإحكام في أصول الأحكام للآمدي ٣/ ٤ والمحصول للرازي ٣/ ١٤٢.

(٤) بدائع الصنائع للكاساني ٧/ ١٣٤.

ثالثا: الأخلاق الإسلامية والآداب الشرعية:

- من أخلاق المفسدين الاستنكاف عن قبول النصيحة، والعزة بالباطل، وعدم الخضوع للحق. عن عبد الله بن مسعود قال: "إن من أكبر الذنب أن يقول الرجل لأخيه اتق الله فيقول: عليك نفسك أنت تأمرني!".[1]

- الرجاء في رحمة الله من مدارج السالكين إلى رب العالمين، لكن الرجاء الحق هو الذي يكون مع الإتيان بالأسباب التي اقتضتها حكمة الله في خلقه وأمره من عمل الصالحات والسعي في تحصيلها، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ﴾ . فإن هؤلاء يعملون الطاعات ويرجون الخير بها، أما المفرط والمقصر فلا يرجو وإنما هو مغرور يحسن الظن بلا عمل. قال مسلم بن يسار: "من رجا شيئاً طلبه ومن خاف شيئاً هرب منه"[2].

- أمر الله بإنفاق العفو وهو الزائد عن الحاجة له ولعياله؛ لأن إنفاقه على نفسه وعياله فرض عين، أما الصدقة فهي مستحبة أو فرض كفاية، ولأن النفس تطيب بإخراج ما زاد عن الحاجة، وقد قال رسول الله ﷺ: (خير الصدقة عن ظهر غني)[3].

رابعا: الجوانب التربوية:

- مجال القول غير مجال العمل؛ فقد يزعم كثير من الناس أنهم ذوي نية صادقة وعمل مستقيم، لكن فعالهم تكذب أقوالهم، والمسلم الحصيف لا يخدعه بهرج القول ولا الإشهاد أو القسم، ولا يقيِّم الأشخاص بأقوالهم فقط، وإنما لا بد أن يشهد للقول عمل، وإلا فما قيمة القول الصالح إذا صحبه عمل فاسد ومفسد؟

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان برقم/ ٨٢٤٦.

(٢) أخرجه أحمد في الزهد ص٢٥٠، وابن المبارك في الزهد ١/ ١٠٢ وابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله ص٩٨.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه برقم/ ١٣٦١ ومسلم في صحيحه برقم/ ١٠٣٤ عن حكيم بن حزام.

- الدين الإسلامي دين يحرص على عمارة الأرض ونفع الناس، ويحذر من أي إفساد في الأرض بإهلاك المزروعات وغير ذلك، بل إنه يحث أتباعه على الإصلاح في الأرض، وذلك بشقيه المادي والمعنوي؛ فالنفاق إفساد معنوي، وتخريب الحرث والنسل إفساد مادي، والله لا يحب كليهما.

- اللدد في الخصومة كبيرة من الكبائر[١]، وقد ذم الله أهل الخصومة بالباطل، ويلحق الذم أيضاً من خاصم بحق لكن فجر في خصومته، وهي من علامات المنافقين، وقد بين النبيﷺ أن صاحب الخصومة الشديدة مبغوض من الله لأنها تفضي به غالباً إلى فعل المذموم فقال ﷺ: (إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم)[٢]. قال بعضهم: ما رأيت شيئاً أذهب للدين ولا أنقص للمروءة ولا أضيع للذة ولا أشغل للقلب من الخصومة[٣].

- على المسلم أن يأخذ الإسلام بكل أحكامه الاعتقادية والقولية والعملية، وألا يأخذ بعضه ويترك بعضه، فإن الله أمرنا أن ندخل في الإسلام بكليته وألا نترك منه شيئاً، وأن نلتزم أحكامه كلها.

- من بدل نعمة الله بعد أن جاءته استحق أليم العقاب.

- من سنن الله الكونية التي ربى الإسلام أهله عليها: سنة الابتلاء، والابتلاء سنة الله في جميع خلقة، وبخاصة للأنبياء ومن سلك دربهم ومشى على طريقهم؛ فقد بين الحق تعالى أن السابقين تعرضوا للابتلاء الشديد فما وهنوا لما أصابهم في سبيل وما ضعفوا وما استكانوا، وبعد ذلك جاءهم الفتح المبين من رب العالمين، وقد فقه هذه السنة هرقل لكن ضن بملكه

(١) ذكره الذهبي في الكبائر. الكبيرة الستون ص٢٢١، وذكره الهيثمي في الزواجر عن اقتراف الكبائر. الكبيرة الثلاثون بعد الأربعمائة ٢/ ٨٨٠. وقد استشهد كلاهما بالآية الكريمة (وهو ألد الخصام).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم / ٢٣٢٥ ومسلم في صحيحه برقم/ ٢٦٦٨ عن عائشة

(٣) الأذكار للنووي ص ٢٩٦.

الخبيث؛ فقد قال لأبي سفيان:" سألتك: هل قاتلتموه وقاتلكم؟ فزعمت أنه قد فعل وأن حربكم وحربه تكون دولاً ويدال عليكم المرة وتدالون عليه الأخرى، وكذلك الرسل تبتلى وتكون لها العاقبة"[1]. فالابتلاء في طريق الدعوة والتعرض للأذى من أعلام النبوة، ولأتباعهم من ذلك نصيب.

- لا بأس بأن يضيق صدر المؤمنين وأن يستبطئوا النصر، فقد قص الله من سير الأنبياء ذلك، وقد كان سؤال الأنبياء وأقوامهم عن موعد النصر لا عن تحققه وعدمه ولذلك جاءت الإجابة بقرب تحقق النصر. فقد يتأذى المؤمن من كلام الكفار، وقد قال الله في حق نبيه ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [الحجر/ ٩٧]،

- في قوله تعالى: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ﴾ فوائد تربوية منها: أن الأمر الإلهي وإن كان ظاهره ومبدؤه المشقة فإن عاقبته إلى الخير وبالعكس، فالعاقل ينظر إلى غايات الأمور وعواقبها، أما الجاهل فلا يتعدى نظره موضع قدميه. وإذا كان الإنسان لا يعلم الخير فالأولى به والحال هذه ألا يختار على اختيار ربه، وأن يسلِّم له في أمره. وأيضاً: نتعلم من الآية أن كل ما أمر الله فهو راجح المصلحة، والشر فيه مغمور في جانب الخير، وأن كل ما نهى عنه فهو راجح المفسدة والخير الذي فيه مغمور في جانب الشر.

- من الأمور التي حرص الإسلام على تربية أهله عليها: اعتبار المصالح والمفاسد، وتغليب المصلحة الكثيرة على المفسدة القليلة فيأمر بالشيء، وتغليب المفسدة الغالبة على المصلحة القليلة فينهى عنه. وفي هذه القاعدة الجليلة يقول العز بن عبد السلام: "إذا اجتمعت مصالح ومفاسد فإن أمكن تحصيل المصالح ودرء المفاسد فعلنا ذلك امتثالاً لأمر الله تعالى فيهما لقوله

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم / ٢٧٨٠ واللفظ له ومسلم في صحيحه برقم/ ١٧٧٣ عن عبد الله ابن عباس.

سبحانه وتعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن / ١٦]، وإن تعذر الدرء والتحصيل فإن كانت المفسدة أعظم من المصلحة درأنا المفسدة ولا نبالي بفوات المصلحة، قال الله تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ حرمهما لأن مفسدتهما أكبر من منفعتهما"[1].

- اهتم الإسلام بالعقل، وحافظ عليه، وجعل المحافظة على العقل من الكليات الخمسة التي هي ضروريات للوجود الإنساني ولاستقامة حياته، قال القرافي: "وحفظ العقول من الكليات الخمس المجمع عليها عند أهل الملل"[2]، ومن أوجه حفظ الإسلام للعقل تحريم الخمر وكل مسكر يؤدي إلى تغيب العقل الذي هو نعمة الله على بني الإنسان.

- الدين الإسلامي جاء بالتخفيف ورفع الحرج والمشقة عن الناس في أمور معايشهم، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ﴾ وقد كان شيء من العنت موجوداً في الأمم السابقة بسبب ذنوبهم، لكن لرحمة الله بالمسلمين خفف عنهم، وكان من مهام بعثة النبي الخاتم أن يضع عن السابقين إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، فعلى المسلم ألا يوقع نفسه ولا إخوانه في شيء من الحرج حتى لا يكون مخالفاً لمقصد عظيم من مقاصد الشريعة الإسلامية.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة:

-جاء هذا المقطع بمواعظ عدة في ثنايا أحكام وتوجيهات سبقته ولحقته؛ فهو موصول الصلة بما قبله؛ فقد سبقه ذكر المؤمنين ومن ليس لهم في الآخرة خلاق، ثم جاء المقطع ليصل الحديث عن الصنف الثالث وهم أهل النفاق، ثم جاءت الأسئلة لتصله بما بعده؛ ففيها سؤال عن الإنفاق وعن مخالطة الأيتام ومصاهرتهم فجاء الحديث عن الأمور الزوجية في أوانه بعد أن سبق له التمهيد بأمر مصاهرة الأيتام كما مر في التفسير.

---

(١) قواعد الأحكام في مصالح الأنام للعز بن عبد السلام ١/ ٨٣.

(٢) الفروق للقرافي ١/ ٣٧٦.

والمقطع يتجه في بدايته للحديث عن نموذجين متكررين من النماذج البشرية: نموذج المرائي الذي يفسد ويتظاهر بالإصلاح، ثم يعرض النموذج المقابل للمؤمن الذي يبيع نفسه لمرضاة ربه، ويأمر المؤمنين بالاستسلام بالكلية لأوامر الله تعالى؛ وذلك تمهيد لما سيأتي بعدُ من تكاليف شاقة مثل الجهاد، ويختتم الحديث عن الطوائف المخالفة بتهديدهم وتخويفهم من عاقبة صنيعهم الذي ذكرته الآيات السابقة تفصيلاً، وبهذا قضى الأمر في حق هؤلاء ولم يعد لهم ذكر في السورة.

وفي قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ إشارة إلى أمر التقوى وهو من الأمور المحورية في السورة، والإشارة إلى العلو والفوقية بيان أن العلو الحقيقي إنما يكون بالتقوى، وفيه إشارة إلى اقتران التقوى بالجهاد الذي هو من وسائل العلو كما ذكرنا في المقطع السابق.

وقد ناسب انتهاء الحديث عن السابقين أن تعرض الآيات سنة جامعة في نشأة الدين واختلاف أهل الكتاب بغياً وعدواناً، وجاء الحديث خالصاً للمؤمنين من دون الناس؛ حيث بينت الآيات أن الله يهب رزقه لأهل طاعته.

وهذه الآية تعتبر مقدمة للحديث الطويل عن الجهاد الذي يمثل حيزاً كبيراً في هذه السورة الطيبة المباركة؛ ذلك أنها تحدثت عن أسباب الاختلاف الديني الذي يؤدي إلى الاقتتال وجاء بعدها مباشرة الحديث عن الثبات ثم الأمر بجهاد المال والنفس.

وقريب من ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [٢٥٣]،حيث بينت الآية أن الاختلاف حدث بين أتباع الرسل وأدى ذلك للاقتتال، ثم جاء بعدها الأمر للمؤمنين بجهاد المال ثم جهاد النفس.

إذاً فالحديث عن الاختلاف وما يجره من قتال هو من باب تقوية قلوب المؤمنين، وتوطينهم على احتمال مكاره الجهاد، ولهذا جاء بعدها بيان سنة الله مع السابقين من المؤمنين

الذين تعرضوا للابتلاء في أنفسهم وأموالهم، وبعدها أيضاً جاء التصريح بأن في الجهاد مكاره يلزم أن تحتمل لأنها تؤدي إلى خير عظيم في الدنيا والآخرة.

وما بعد الآية مرتبط بحادثة تعد من بواكير الممارسة الفعلية للجهاد في صفوف الجماعة المسلمة الناشئة، وفيها أيضاً بيان لجملة من أسباب القتال مثل الإخراج من الديار والفتنة بالقتل، وهذه بعض دوافع القتال الدفاعي، قال تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحج/ ٣٩، ٤٠].

وبعد هذه المواعظ التربوية المتصلة بها بعدها كانت باقي آيات المقطع تمهد لما سيأتي بعد من تفصيل أحكام النساء، وواضح من سياق الأسئلة أنها نزلت تعالج بعض أحداث كانت موجودة في المجتمع المسلم مما يستلزم طهارتهم منها حتى يكونوا من المتقين لكي يستطيعوا أن يقوموا بمهمتهم الكبرى للإنسانية كلها.

المقطع الثالث: تفصيل أحكام الأسرة. (٢٢١-٢٤٢)

﴿ وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۖ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٢١) وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢) نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٢٢٣) وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٤) لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٢٥) لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧) وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٨) الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٢٩) فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٢٣٠) وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٣١) وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ

وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ۞ وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ لَا تُكَلَّفُ نَفۡسٌ إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوۡلُودٞ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ وَعَلَى ٱلۡوَارِثِ مِثۡلُ ذَٰلِكَۗ فَإِنۡ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٖ مِّنۡهُمَا وَتَشَاوُرٖ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَاۗ وَإِنۡ أَرَدتُّمۡ أَن تَسۡتَرۡضِعُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا سَلَّمۡتُم مَّآ ءَاتَيۡتُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٢٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗاۖ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا عَرَّضۡتُم بِهِۦ مِنۡ خِطۡبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ فِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ سَتَذۡكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗاۚ وَلَا تَعۡزِمُواْ عُقۡدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡكِتَٰبُ أَجَلَهُۥۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿٢٣٥﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمۡ تَمَسُّوهُنَّ أَوۡ تَفۡرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعَۢا بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدۡ فَرَضۡتُمۡ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ فَرِجَالًا أَوۡ رُكۡبَانٗاۖ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا وَصِيَّةٗ لِّأَزۡوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلۡحَوۡلِ غَيۡرَ إِخۡرَاجٖۚ فَإِنۡ خَرَجۡنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِي مَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعۡرُوفٖۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلۡمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ »

المناسبة بين المقطع والمقطع السابق:

هذا المقطع يتحدث عن شأن الأسرة، ورعاية الإسلام لها في كل أحوالها، وهو يفصِّل الخصلة الثانية من الخصال العملية التي جاءت مجملة في آية البر، وهي خصلة الوفاء بالعهود والعقود، وأحقها بالعناية والرعاية عقدة الزواج وما يدور حول محورها من شؤون الأسرة[1].

وإذا كانت المقاطع السابقة تشير إلى خصلة الصبر، فإن هذا المقطع يفصل خصلة الوفاء بالعهد تفصيلاً محكماً دقيقاً.

وختام المقطع السابق يشير إلى أمر المخالطة ومن ضمن معانيها المصاهرة، فيكون المعنى: إن خالطتم اليتامى بالمصاهرة فهم إخوانكم في الدين، وهم خير من المشرك والمشركة فلا تنكحوا المشركات ولا تُنكِحوا المشركين.

التفسير الإجمالي للمقطع:

تفصل آيات هذا المقطع في شأن الأسرة من حيث اتصالها وانفصالها، وابتدأت الآيات بذكر حكم نكاح المشركات، فنهت عن نكاحهن ما دمن على شركهن، ثم جاءت الآية بصيغة القسم المحذوف والله إن امرأة جارية مؤمنة بالله واليوم الآخر خير من مشركة حرة ولو أعجبكم جمالها أو حسبها أو غير ذلك، ولا تزوجوا المؤمنات للمشركين إلا أن يصيروا أكفاء لهن بالإيمان، ولمملوك رقيق مؤمن خير من مشرك حر ولو أعجبكم بماله أو نسبه.

ثم بين الله تعالى علة النهي عن الزواج بالمشركين والمشركات بأنهم يدعون من يصاهرهم ويعاشرهم إلى الاعتقادات الضالة والأفعال الشركية التي تؤدي بمعتنقها إلى النار، ثم تغري الآية المؤمنين بالتمسك بتعاليم دينهم فتبين لهم أن الله يدعوهم إلى أسباب المغفرة ودخول الجنة ولا يكون ذلك إلا بأمره وإرادته، ويبين سبحانه للناس أوامره ونواهيه لكي يعتبروا ويتذكروا

(١) انظر: النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز/ ٢٤٧.

أوامره فيعلموا بها ويتذكروا نواهيه فيتركوها.

وقد ذهب جمهور أهل العلم إلى أن المرأة الكتابية غير داخلة في تحريم المشركات، وذلك اتباعاً لنص الآية القرآنية: ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [المائدة:٥] أما المؤمنة فلا يجوز لها الزواج من اليهودي أو النصراني باتفاق؛ ومستند ذلك الإجماع المستند إلى قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ﴾ [الممتحنة: ١٠] والسنة العملية المتواترة عن الصحابة الكرام، وللعلة الواردة؛ ذلك أنهم يدعون المرأة المؤمنة إلى أسباب النار، ولا يؤمنون بالنبي محمد ﷺ. أما المسلم الذي يتزوج الكتابية فإنه يؤمن برسولها، ويحترم عقيدتها، ويعدل معها، ويتألفها لدخول الدين.

ثم جاء السؤال الثالث من الأسئلة المعطوفة بالواو، وهو يتصل بها قبله وما بعده في أن ذلك من الأحكام المتعلقة بالنساء، وأما الأسئلة التي وردت قبلها مفصولة فلم تكن في موضوع واحد فيعطف بعضها على بعض فجاءت على الأصل في سرد التعدد.[1] وكان السؤال عن إتيان الحائض؛ وذلك أن المسلمين في المدينة قد خالطوا اليهود وكانوا يتشددون في مسائل الحيض والدم[2]، وفي صحيح مسلم عن أنس أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوهن في البيوت أي لا يسكنون معهم فسأل أصحاب النبيِّ النبيَّ ﷺ فأنزل الله تعالى ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ﴾ فقال رسول الله ﷺ:(اصنعوا كل شيء إلا النكاح...)[3].

---

(١) تفسير القرآن الحكيم لرشيد رضا ٢/ ٣٥٨.

(٢) في الإصحاح الخامس عشر من سفر اللاويين " إذا كانت امرأة لها سيل دماً في لحمها فسبعة أيام تكون في طمثها وكل من مسها يكون نجساً إلى الماء وكل ما تضطجع عليه يكون نجساً وكل من مس فراشها يغسل ثيابه ويستحم بماء ويكون نجساً إلى الماء".

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه برقم/ ٣٠٢.

ويحتمل أن يكون سبب النزول ما ورد عن مجاهد أنهم كانوا يجتنبون النساء في الحيض ويأتوهن في أدبارهن مدة زمن الحيض فنزلت[١]. وهذا السبب يشير إلى وقوع تجاوز من بعض الناس وهو ما يفيده تذييل الآية بمحبة الله للتوابين والمتطهرين، ولا تعارض بينه وبين سبب النزول الأول لمن تدبر.

والحيض دم يسيل من المرأة البالغة في أوقات مخصوصة، وقد أجملت الآية كل أضرار الجماع وقت الحيض بكلمة هي غاية في الإيجاز والإعجاز، فبينت أنه ﴿ أَذًى ﴾ يصيب كلاً من الرجل والمرأة، وهذا ما أثبته الطب الحديث؛ حيث ثبت أن جماع المرأة الحائض يصيب المرأة بالتهاب حادة في المهبل والرحم ويصيب الرجل بالصديد والتهاب مجرى البول والسيلان وقد يؤدي إلى العقم[٢]. فأمرت الآية الرجال أن يعتزلوا النساء وقت المحيض وألا يجامعوهن حتى ينقطع الدم، فإذا اغتسلن فللرجل أن يأتي امرأته في المكان الذي أمر الله بتجنبه في الحيض والله يحب التوابين لما بدر منهم المتطهرين عن الوقوع في المحظورات.

وجمهور الفقهاء على حل الاستمتاع بالمرأة فيما سوى العورة ما بين السرة والركبة.

وكانت اليهود تقول: إذا أتى الرجل امرأته من دبرها في قبلها ثم حملت كان ولدها أحول فأنزلت ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾[٣] ففي الآية السابقة إباحة إتيان النساء بعد المحيض وفي هذه الآية حكمة إتيانهن وهي طلب الولد، ومعنى الآية أن نساءكم هن مزدرع لكم ومنبت الولد هيأهن الله لذلك كما هيأ الأرض للنبات، فأتوهن كيف شئتم من الأمام أو من الخلف أو غير ذلك ما دمتم تؤدون ذلك في موطن الحرث، وقد يحتمل توسيع المعنى بأن المرأة حرث لكل ما يقدمه الرجل معها فإنه يجده سواء كان خيراً أو شراً والله أعلم.

---

(١) جامع البيان للطبري٤/ ٣٧٣ برقم / ٤٢٣٣، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣/ ٤٧٤.

(٢) انظر: الإعجاز الطبي في القرآن والسنة لحسن ياسين ص ٧٨.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه برقم/ ١٤٣٥ عن جابر.

ثم ختمت الآية بأمر المؤمنين أن يقدموا لمستقبلهم من الصالحات مع أزواجهم خاصة وفي عموم حياتهم ما ينفعهم عند الله، وأمرتهم بتقوى الله وعدم فعل المحظور وليعلموا يقيناً أنهم ملاقوه للمجازاة أو ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ بشارة طيبة لمن تلقى أوامر الله بالطاعة والقبول.

وبعد أن تكلمت الآيات عن حكم المباشرة في الحيض، وحل الاستمتاع، ذكرت حكم الحلف بالامتناع عن إتيان النساء وهو الإيلاء، ومهدت لذلك بالحديث عن الأيمان، ولم تقتصر القول على الإيلاء بل شملت الأيمان غير الصحيحة كلها، ومنها كلُّ ما يتعارض مع البر والتقوى، فنهت المؤمنين عن أن يجعلوا الحلف بالله مانعاً ومعترضاً لهم من عمل البر وأمور الخير، وقد جاءت أحاديث نبوية كثيرة تؤكد هذا المعنى؛ فعن عبد الرحمن بن سمرة أن رسول الله ﷺ قال: (إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فكفر عن يمينك وائت الذي هو خير)[1].

ويحتمل أن يكون المعنى: ولا تجعلوا اسم الله تعالى هدفاً لأيمانكم فتتبذلوه بكثرة الحلف لأجل البر والتقوى والإصلاح بين الناس، فقد ذم الله من يكثر الحلف، قال تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴾ [القلم: ١٠] ولا تنافي بين القولين، فالله ينهانا عن أن نجعل الحلف به مانعاً من عمل الخير، وينهانا كذلك عن إكثار الحلف باسمه في كل أمر. والله سميع لأقوال العباد وإيمانهم عليم بأحوالهم ونياتهم.

ثم بينت الآيات أن اليمين التي جاءت بدون قصد أو فكر فلا مؤاخذة عليها ولا محاسبة عند عدم الوفاء بها، ولكن المؤاخذة بما قصدت به القلوب إيقاع اليمين، والمؤاخذة تكون بالكفارة في المنعقدة وبالإثم في اليمين المغموس والله غفور لعباده حليم عليهم.

وقد ورد تفصيل كفارة اليمين المنعقدة في قوله تعالى: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٦٢٤٨ ومسلم في صحيحه ١٦٥٢.

حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [المائدة: ٨٩] أما اليمين الغموس فلا كفارة لها.

ومن صور اليمين اللغو التي لا كفارة منها ما ورد عن عائشة أن الآية نزلت في قول الرجل لا والله، وبلى والله، وكلا والله.[١] وورد عنها في اللغو: ـ هو الشيء يحلف عليه أحدكم لم يرد به إلا الصدق فيكون على غير ما حلف عليه[٢].

ثم بينت الآيات بعد ذلك حكم الإيلاء وهو يمين خاص، ناسب أن يأتي ذكره بعد اليمين العامة، والإيلاء الحلف، ومعناه في الشرع: الامتناع باليمين من وطء الزوجة[٣]، فهي يمين تحول بين الإصلاح والبر المأمور به في قوله تعالى: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [النساء: ١٩] وفيه هضم لحق المرأة وإضرار بها. وقد كان الجاهليون يضارون نساءهم فلا يقربوهن ولا يجبون غيرهم أن يقربهن. قال ابن عباس: كان إيلاء أهل الجاهلية السنة والسنتين وأكثر من ذلك فوقَّت لهم أربعة أشهر[٤]. وذلك لأن هذه الفترة مما لاتشق على المرأة، ولأنها فترة كافية لتَرَوِّي الرجل وتمهله في التفكير؛ فإن رجعوا إلى نسائهم وكفروا عن يمينهم وتابوا إلى ربهم فإن الله غفور لمن تاب وأصلح رحيم بعباده في كل ما أمرهم به وكلفّ.

وإن صمموا القصد وعزموا على عدم العود، فليراقبوا ربهم فإن أرادوا إلحاق الضرر بالنساء فإن الله سميع لكل ما كان منهم عليم بما يقع منهم من إيذاء ومضارة.

وبهذا الختام حول عزم الطلاق عند نهاية مدة الإيلاء كان مناسباً أن ينتقل الحديث بعد ذلك إلى الطلاق، وهذا التناسب منطقي لاتصال ما بين الأمرين،" كأن خاتمة حكم الإيلاء

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٤٣٣٧

(٢) رواه البيهقي في سننه الكبرى ١٠/ ٤٩.

(٣) سبل السلام للصنعاني ٣/ ١٨٣.

(٤) رواه البيهقي في سننه الكبرى ٧/ ٣٨١ والطبراني في المعجم الكبير / ١١٣٥٦ وسعيد بن منصور في سننه ١٨٨٤.

كانت بمثابة عروة مفتوحة تستشرف إلى عروة أخرى تشتبك معها؛ فلما جاءت فتيا الطلاق في إبانها كانت هي العروة المنتظرة، وما هو إلا أن التقت العروتان حتى اعتنقتا وكانت منهما حلقة مفرغة..وهكذا أصبح الحديثان حديثاً واحداً"[1].

أمر الله تعالى المطلقات أن يتربصن وينتظرن ثلاثة قروء، وهذا خبر في صيغة الأمر، فلا تتزوج المرأة المطلقة حتى يمر عليها ثلاثة قروء، وفي القرء اختلاف بين الفقهاء بسبب وضعه اللغوي، فهو بمعنى الحيض أو الطهر؛ إذ هو من المشرك اللفظي الذي يصلح للمعنيين معاً، والظاهر أن القرء الحيض؛ لحديث: "تدع الصلاة أيام أقرائها التي كانت تحيض فيها"[2].

وفي الإتيان بلفظ التربص بالأنفس تلميح لا تصريح فيه، وإيجاز لا إطناب فيه، وفيه أيضاً مراعاة لمشاعر المرأة وإحساسها.

ثم حرمت الآية على المطلقة أن تكتم ما في رحمها من الحمل أثناء فترة العدة، ولا يحل لها كذلك كتمان موعد الحيض لتطيل فترة العدة. ذلك إن كن يؤمن بالله ويرجون رحمته ويخافون عذابه، فلا ينصاع لأحكام الله إلا مؤمن جيد الإيمان، وليس من وسيلة لمعرفة ما في رحمها إلا بتذكيرها بالإيمان.

وإذا بدا للزوج أنه أخطأ في حق أهله، وأراد أن يعيد ما بينهما من عرى الزوجية فله أن يراجعها ما لم تكن بائنة، طالما أن دافعه إلى ذلك الإصلاح لا المضارة والإفساد.

ثم تذكر الآية لفظاً موجزاً كل الإيجاز، معجزاً أيما إعجاز وهو قوله تعالى﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ فلكل من الزوجين حقوق وعليه واجبات، والمرد في ذلك

---

(١) النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز/ ٢٤٩.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه برقم/ ٢٩٧، والترمذي في سننه برقم/ ١٢٦، وابن ماجه في سننه برقم/ ٦٢٥، عن عدي بن ثابت عن أبيه عن جده. وله شواهد عدة يرتقي بها للصحة. انظر: نصب الراية في تخريج أحاديث الهداية للزيلعي ١/ ٢٠٢.

إلى العرف الصالح الذي يحفظ لكل حقه، بيد أن للزوج درجة ومنزلة هي مرتبة القوامة التي له؛ وذلك حتى يستطيع أن يقود زمام الأسرة وينظم أمورها.

واستحقاق القوامة بأمرين: كسبي ووهبي، وقد أوضح الأمرين قوله تعالى: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ ﴾ [النساء:٣٤] فتفضيل الله للرجال أمر وهبي، ونفقة الرجل على أهله أمر كسبي.

وليس في هذه الدرجة تسلط من الرجل بالحق والباطل، وإنما هي الرحمة والمودة، والقيادة الحكيمة الرحيمة التي تضع كل شيء في موضعه، ولله در ابن عباس حين قال في تفسير هذه الدرجة: "هي إشارة إلى حض الرجال على حسن العشرة والتوسع للنساء في المال والخلق". قال ابن عطية معلقاً: وهو قول حسن بارع[1].

وختمت الآية بقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أي: غالب منتقم ممن خالف أمره في كل ما سبق؛ وذلك بأن أتي المرأة الحائض، أو جعل الله عرضة لأيمانه، أو آلى من امرأته ليضارها،أو كتمت المرأة ما في رحمها، وهو سبحانه الحكيم الذي شرع هذه الأمور، لتنصلح بها أحوال العباد جميعهم.

ولما ذكرت الآية السابقة أن للزوج حق مراجعة زوجته قيدت الآية هذا الحق وخصصته بمرتين؛ فالطلاق الذي تصح معه المراجعة طلقتان فقط وليس أمام الزوج بعد ذلك إلا أن يمسك زوجه بمعروف أو يفارقها ويسرحها بإحسان، والتسريح بالإحسان هو الطلقة الثالثة عند جمهور الفقهاء، ويؤيد ذلك ما ورد أن رجلاً سأل النبي ﷺ: سمعت الله يقول ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ﴾ فأين الثالثة ؟ فقال ﷺ: (أو تسريح بإحسان)[2]. وهذا إبطال لما كان عليه العرب

---

(١) المحرر الوجيز لابن عطية ١/ ٣٠٦، وهذا قريب مما رجحه الطبري في تفسير الدرجة؛ حيث ذهب إلى أنها: تفضّلهم عليهن، وصفحهم لهن عن بعض الواجب لهم عليهن. جامع البيان للطبري ٤/ ٥٣٦.

(٢) رواه البيهقي في سننه ١٤٧٦٨ والدار قطني في سننه ٤/ ٤ وسعيد بن منصور في سننه ١/ ٣٨٤ قال ابن حجر: وسنده حسن لكنه مرسل فتح الباري ٩/ ٣٦٦.

قبل الإسلام؛ فقد ورد عن عائشة قالت: كان الرجل يطلق امرأته ما شاء أن يطلقها، وإن طلقها مائة أو أكثر إذا ارتجعها قبل أن تنقضي عدتها، حتى قال الرجل لامرأته: والله لا أطلقك فتبيني مني ولا آويك إلي، قالت: وكيف ذلك؟ قال: أطلقك وكلما قاربت عدتك أن تنقضي ارتجعتك ثم أطلقك وأفعل ذلك، فشكت المرأة ذلك إلى عائشة فذكرت ذلك عائشة إلى رسول الله فسكت ولم يقل شيئاً حتى نزل القرآن: ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ﴾ [(١)].

وقد جعل الله الطلاق مرتين، وجعل العدة بعد كلتا الطلقتين ليتروى الزوج في قراره، ولتعرف المرأة وحشة الفراق فلربما تراجع كل منهما إلى الحياة الزوجية مرة أخرى، قال الإمام الرازي رحمه الله: "الحكمة في إثبات حق الرجعة: أن الإنسان ما دام يكون مع صاحبه لا يدري أنه هل تشق عليه مفارقته أو لا؟ فإذا فارقه فعند ذلك يظهر، فلو جعل الله الطلقة الواحدة مانعة من الرجوع لعظمت المشقة على الإنسان بتقدير أن تظهر المحبة بعد المفارقة، ثم لما كان كمال التجربة لا يحصل بالمرة الواحدة فلا جرم، أثبت الله حق المراجعة بعد المفارقة مرتين، وعند ذلك قد جرب الإنسان نفسه في تلك المفارقة وعرف حال قلبه في ذلك الباب، فإن كان الأصلح إمساكها راجعها وأمسكها بالمعروف، وإن كان الأصلح له تسريحها سرحها على أحسن الوجوه، وهذا التدرج والترتيب يدل على كمال رحمته ورأفته بعبده"[(٢)].

فإن أبى الرجل إلا الطلاق فلا يحل له عندئذ أن يأخذ شيئاً مما أعطاه لها سواء كان مهراً أم غيره بل يكون التسريح بإحسان، وكما قال تعالى: ﴿ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٤٩] ثم استثنى الآية صورة واحدة يجوز فيها للرجل الأخذ وذلك إذا كانا في حال يخافان معها أن يتجاوزا حدود الله وأحكامه فيما يجب عليهما؛ فإن خاف المتوسطون للإصلاح أو الحكام ألا يقيم الزوجان حكم الله بأن تجحد المرأة العشرة أو خاف الرجل تجاوز الحد في عقوبتها ونحو ذلك فلا إثم على المرأة إن افتدت نفسها من زوجها، ولا إثم عليه في أخذ ما

(١) رواه الحاكم في المستدرك ٣١٠٦ والترمذي في سننه ١١٩٢ والبيهقي ١٤٧٢٧.
(٢) التفسير الكبير للرازي ٦/ ٨٥.



أعطته المرأة مقابل الانفصال، وهذه الآية دليل على مشروعية الخلع.

وقد حدث الخلع في عهد النبيﷺ؛ فعن عبد الله بن عباس أن امرأة ثابت بن قيس أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، ثابت بن قيس، ما أعتب عليه في خلق ولا دين ولكني أكره الكفر في الإسلام، فقال رسول الله ﷺ :أتردين عليه حديقته؟ قالت: نعم، قال رسول الله ﷺ : أقبل الحديقة وطلقها تطليقة"[١].

والخلع من التشريعات الحكيمة التي تيسر للمرأة أمر الفراق إن كانت لا تطيق معاشرة زوجها، أو استحكم النفور منه، فقد أعطاها الشرع هذا الحق حتى لا تحيا معه وهي كارهة أشد الكراهة، فلربما أداها ذلك إلى الفتنة، على أن الأحاديث الصحيحة ترهِّب المرأة من أن تسعى في الخلع بلا سبب قوي، قال ﷺ:(المختلعات هن المنافقات)[٢]وقال: (أيما امرأة سألت زوجها الطلاق من غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة)[٣].

ثم حذر الله من خالف أحكامه وتعدى حدوده الفاصلة بين الحلال والحرام، ومن تجاوز هذه الحدود فهو الظالم، وجاءت الجملة مؤكدة بفاء السببية وباسم الإشارة وبضمير الفصل (هم) وبالجملة، لتمييزهم أكمل تمييز، ولإيقاع وصف الظلم عليهم.

وبعد أن بينت الآيات السابقة حكم الطلاق الرجعي وحكم الخلع ذكرت حكم الطلاق المكمل للثلاث التي تصير به المرأة بائناً، وقد جاء حكم الخلع معترضاً بين حكمين من أحكام الطلاق وذلك لحكمة وهي: "أن الرجعة والخلع لا يصحان إلا قبل الطلقة الثالثة، أما بعدها

---

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ٤٩٧١.

(٢) رواه الترمذي في سننه برقم/ ١١٨٦ وقال: حسن غريب، وأخرجه البيهقي في سننه الكبرى برقم/ ١٤٦٣٩ وهو حديث حسن انظر: فتح الباري ٩/ ٤٠٣.

(٣) رواه أبو داود في سننه ٢٢٢٦ وابن ماجه في سننه ٢٠٥٥ وأحمد ٥/ ٢٧٧ وصححه ابن خزيمة وابن حبان قال ابن حجر:" الأخبار الواردة في ترهيب المرأة من طلب طلاق زوجها محمولة على ما إذا لم يكن سبب يقضي ذلك" انظر: فيض القدير للمناوي ٣/ ١٣٨.

فلا يبقى شيء من ذلك؛ فلهذا السبب ذكر الله حكم الرجعة، ثم أتبعه بحكم الخلع، ثم ذكر بعد الكل حكم الطلقة الثالثة لأنها كالخاتمة لجميع الأحكام المعتبرة في هذا الباب والله أعلم"[١].

والحكم إن طلق الرجل زوجته طلقة ثالثة بعد الأوليين أنها تكون زوجته محرمة عليه، ولا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره نكاحاً صحيحاً ويدخل بها دخولاً حقيقياً ويكون مقصده من الزواج الاستمرار، ويؤكد هذا ما ورد في الحديث الصحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: جاءت امرأة رفاعة القرظي النبي ﷺ فقالت: كنت عند رفاعة فطلقني، فأَبَتَّ طلاقي فتزوجت عبد الرحمن بن الزبير، إنما معه مثل هدبة الثوب فقال: أتريدين أن ترجعي إلى رفاعة؟ لا حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك.[٢] والمقصود بذوق العسيلة الجماع.

فإن طلقها الزوج الثاني وانقضت عدتها، فلا إثم على الزوج الأول أن يرجع إليها بعقد جديد ما دام قد غلب على ظنهما أنهما سيقيمان حدود الله. قال الزمخشري: " ولم يقل: إن علما أنهما يقيمان؛ لأن اليقين مغيب عنهما لا يعلمه إلا الله عز وجل، ومن فسر الظن ههنا بالعلم فقد وهم من طريق اللفظ والمعنى؛ لأنك لا تقول علمت أن يقوم زيد، ولكن: علمت أنه قام، ولأن الإنسان لا يعلم ما في الغد وإنما يظن ظناً"[٣].

ثم ختم الله الآية ببيان أن هذه الأحكام المذكورة يوضحها الله تعالى ويبينها لقوم يعلمون الحق ويعملون بمقتضى علمهم بلا تحايل أو تغيير، ومن حِكَم هذا التشريع ردع الأزواج وزجرهم عن التساهل في التطليق؛ فإن الحر الشريف إذا علم أن امرأته لن تحل له بعد الطلقة الثالثة إلا إذا جامعها رجل آخر تريث في إيقاع الطلاق، وعالج أموره بروية وتؤدة.

وقد اتفق جمهور أهل العلم على تحريم نكاح التحليل، وهو أن يتزوج الرجل المرأة المطلقة

---

(١) التفسير الكبير للرازي ٦/ ٩٠.

(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ٢٤٩٦ ومسلم في صحيحه برقم/ ١٤٣٣.

(٣) الكشاف للزمخشري ١/ ٣٠٤.

ثلاثاً بقصد تحليها لزوجها، لا بقصد الاستمرار، وهو كبيرة من الكبائر لعن رسول الله ﷺ فاعله، عن علي أن رسول الله ﷺ قال: (لعن الله المحلل والمحلل له)[1].

ثم تعرضت الآيات لحكم جديد من أحكام الطلاق الرجعي؛ فقد تكلمت الآية السابقة على كيفية الطلاق المشروع وعدده وجواز الخلع، أما هذه الآية فقد تكلمت عن الواجب في معاملة المطلقات ونهت عن الضرر وأرشدت إلى المصلحة وبينت الحكمة فقال تعالى: وإذا طلقتم أيها المؤمنون النساء طلاقاً رجعياً وقاربت عدتهن على الانتهاء فتمهلوا في أمركم؛ فأنتم بين أمرين: إما أن تبقوا نساءكم معكم بالمعروف الذي يقره الشرع الحكيم والخلق القويم والعقل السليم، وإما أن تفارقوهن بالمعروف أيضاً.

ثم أكدت الآية على عدم المضارة ونهت عن مراجعة النساء لإرادة إلحاق الضرر بهن بتطويل العدة وبالاعتداء حتى تفتدي نفسها بالمال، وبينت أن من فعل ذلك فقد عرض نفسه للظلم، ثم حذر الله المخالفين لشرعه أن يتخذوا أحكامه التي شرعها في الطلاق وغيره مثار سخرية وذلك بالإكثار من الطلاق أو اتخاذ المراجعة وسيلة لإيذاء المرأة، ثم ذكرهم الله تعالى بنعمه عليهم ومنها نعمة الزواج، قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم: ٢١] وذكرهم بما نزل عليهم من الأحكام في القرآن والسنة النبوية لكي يتعظوا به، ثم أمرهم بتقواه صيانة لأنفسهم عن غضب الله، وليعلموا أن الله عليم بكل ما يسرون ويعلنون.

ثم بين سبحانه ما يلزم اتباعه عند وقوع الطلاق حتى لا يحدث ظلم وجور، وذلك إذا طلقت النساء وانقضت عدتهن فلا يجوز للزوج أن يمنع المرأة من الزواج بعد الطلقة الثالثة، ولا يجوز للأولياء كذلك أن يمنعوا المرأة من العودة إلى الزوج بعد الطلقتين الأولى والثانية،

---

(١) رواه أبو داود في سننه برقم/ ٢٠٧٦ وابن ماجة برقم/ ١٩٣٥ والبيهقي برقم/ ١٣٩٦١ وهو صحيح وله طرق. الدراية في تخريج أحاديث الهداية ٢/ ٧٣، تلخيص الحبير لابن حجر ٣/ ١٧٠.

طالما حصل التراضي بين الأزواج والزوجات على ما يقره الشرع والعرف الصحيح، وكان الخاطب كفؤا.

وقد ورد عن معقل بن يسار أنها نزلت فيه؛ قال: زوجت أختاً لي من رجل فطلقها حتى إذا انقضت عدتها جاء يخطبها، فقلت له: زوجتك وفرشتك وأكرمتك فطلقتها ثم جئت تخطبها! لا والله لا تعود إليك أبداً، وكان رجلاً لا بأس به، وكانت المرأة تريد أن ترجع إليه، فأنزل الله هذه الآية: ﴿ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ ﴾ فقلت: الآن أفعل يا رسول الله، قال: فزوجها إياه.[1]

ثم ذكّر الله المؤمنين بعد النهي عن عضل الزوجات بثلاثة أمور:

أولها: أن ذلك القول الحكيم والتوجيه الكريم يستجيب له ويوعظ به من كان مؤمناً بالله وبثوابه وعقابه.

وثانيها: أن ذلك الذي شرعه الله، أعظم بركة ونفعاً وأكثر تطهيراً من دنس المعاصي؛ فإن المرأة إذا هُضمت حقها قد يدفعها ذلك إلى ارتكاب المحظورات.

وثالثها: أن الله يعلم ما فيه النفع والمصلحة للعباد. أما البشر فإنهم لا يعلمون أحداث المستقبل، أولا يعلمون علماً خالياً من الأهواء.

حكمة الطلاق:

لقد حث الإسلام الرّجال والنّساء إلى حسن اختيار الشّريك والشّريكة في الزّواج عند الخطبة، إلاّ أنّ ذلك قد لا يضمن استمرار السّعادة والاستقرار بين الزّوجين، فربّما قصّر أحد الزّوجين في الأخذ بما تقدّم، وربّما جدّ في حياة الزّوجين ما يثير بينهما الشّقاق مكان الوفاق، كما إذا مرض أحدهما أو لحقه عجز. وربّما حدثت عناصر خارجة عن الزّوجين، كالأهل وغير ذلك، وربّما كان السبب انصراف القلب وتغيّره. ومع هذا فقد أرشد الإسلام إلى نصح الزّوجين وندبهما

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ٤٨٣٧.

إلى الصّبر والاحتمال، وبخاصّة إذا كان التّقصير من الزّوجة، قال تعالى: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء/ ١٩].

إلاّ أنّ مثل هذا الصّبر قد لا يتيسّر للزّوجين أو لا يستطيعانه، فربّما كانت أسباب الشّقاق فوق الطاقة، أو كانا في ظروف لا تساعدهما على الصّبر، وفي هذه الحال: إمّا أن يتم الإبقاء على الزّوجيّة مع استمرار الشّقاق الّذي قد يتضاعف وينتج عنه فتنة، أو جريمة، أو تقصير في حقوق الله تعالى، أو على الأقل تفويت حكمة النّكاح، وهي المودّة والألفة والذرية الصّالحة، وإمّا أن يحدث الطّلاق، وهو ما اتّجه إليه التّشريع في الإسلام، فقد يكون الطّلاق طريقاً لإنهاء الشّقاق والخلاف بين الزّوجين، ليستأنفا بعده حياتهما منفردين أو متزوجين حيث يجد كلّ منهما من يألفه ويحتمله، قال تعالى: ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ ﴾ [النساء/ ١٣٠].

ثم ذكرت الآيات بعد ذلك حكم الرضاع، ومناسبته لما قبله ظاهره؛ قال أبو حيان: " لما ذكر جملة في: النكاح، والطلاق، والعدة، والرجعة، والعضل أخذ يذكر حكم ما كان من نتيجة النكاح، وهو ما شرع من حكم: الإرضاع ومدته وحكم الكسوة، والنفقة"[(١)]. وإن قلنا إن الآية في حكم الرضاع بالنسبة للمطلقات فيكون هذا من تتمة أحكام الطلاق.

والآية جاءت بصيغة الخبر الذي يفيد معنى الأمر، أي ليرضعن، والوالدات قيل: عام لكل أم، وقيل: خاص بالمطلقات[(٢)]، وعلى كلا القولين فالحكم يشمل كل أم، لأنه إن شمل المطلقة فسيشمل المتزوجة من باب أولى، والحولان: العامان، والتقيد بالعامين لرفع توهم أن يكون المراد حولاً وبعض آخر[(٣)]، وليس ذلك للوجوب بدليل: ﴿ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾،

(١) البحر المحيط لأبي حيان ٢/ ٢٢٢.

(٢) وهو اختيار الطبري في جامع البيان٥/ ٣٠والطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير والسيد محمد رشيد رضا في تفسير المنار ٢/ ٤٠٩. قال الألوسي في روح المعاني ٢/ ١٤٦: ولا يخفى أن الحمل على العموم أولى.

(٣) انظر: الطبري سابق.

وغايته التحديد عند وقوع الاختلاف، فلو اتفق الأبوان على الفطام قبل تمام الحولين فلا بأس بشرط ألا يتضرر الولد من الفطام، وفي الآية دليل أن الرضاعة بعد الحولين غير معتبرة في التحريم الجاري مجرى النسب.

وفي الآية بيان اهتمام الإسلام بالصغير، وحرصه على أن ينبت نباتاً حسناً بالرضاعة الطبيعية من الأم وهذا مما لا تخفى فوائده الطبية والنفسية.

من فوائد الرضاعة الطبيعية*:

الرضاعة الطبيعية من لبن الأم تقي الطفل من الميكروبات وتحتوي على مجموعة كبيرة من مضادات الأمراض، وعلى مادة الأنترفيرون التي تقاوم الفيروسات، وتساعد أيضاً على نمو الأسنان وامتصاص الحديد وتقليل الإصابة بالإسهال والإمساك، وتحمي من الكساح ونقص الزنك، وتفيد الرضاعة الأم أيضاً؛ فهي تقيها من حمى النفاس ومن بعض الجلطات وسرطان الثدي، هذا بالإضافة إلى الفوائد النفسية للطفل والأم، والفوائد الاقتصادية للمجتمع.

ثم بينت الآية أن على الوالد أن يقدم للوالدة ما يكفيها من الطعام والكسوة بما تعارف عليه العقلاء وعلى قدر طاقته من حيث الإعسار واليسار، وعلة ذلك أن الله لا يكلف عباده إلا بما يطيقونه بدون عسر أو حرج.

وعلة هذه الأحكام السابقة ألا يقع ضرر من أحد الجانبين على الآخر، فلا تضار الأم بسبب ولدها وذلك بأن يمنعها من الإرضاع أو يقصر في النفقة أو يمنعها رؤية الولد، ولا يضار الوالد كذلك بسبب ولده، وذلك بأن تكلفه الأم ما لا يطيق، أو تمتنع عن إرضاع الولد تعجيزاً لأبيه، وأضافت الآية الولد إلى كل منهما للاستعطاف وليعلما أن الولد رزق لهما من الله فليحرصا على رعايته وحمايته، وقدم الأم لأن عاطفتها لولدها أقوى، ولأنها الجانب الأضعف فيكون إلحاق الأذى بها أقرب.

* موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة ليوسف الحاج أحمد ص٧٨٨ وما بعدها.

وكما تجب النفقة على الأب فإنها تجب كذلك على وارث الأب أو وارث الصبي الذي سيرثه بعد موته[1]، وهذا في حالة فقد الأب أو عجزه عن الإنفاق. وهي دليل على وجوب نفقة الأقارب.

وتحديد المدة بالحولين إنما هو بيان أقصى مدة عند التنازع، أما إن أراد الأبوان قطع الرضاع وفطام الولد قبل مدة الحولين أو بعدها فلا بأس بشرط التراضي والتشاور. وإن أراد الآباء أن يسترضعوا المراضع لأولادهم بالأجرة، ورضيت الأمهات، فلا بأس بشرط تسليم هؤلاء المراضع أجرهن بالمعروف الذي يناسب أجرة أمثالهن في البلد.

ثم ختمت الآية بما يحث على التزام أحكامها وامتثال أوامرها، وذلك إنما يكون بتقوى الله في كل الأمور ولْيعلم كل امرئ أن الله بصير بعمله وسيجزيه عليه إن خيراً وإن شراً.

"ولما ذكر سبحانه عدة الطلاق واتصل بذكرها الإرضاع، عقب ذلك بذكر عدة الوفاة؛ لئلا يتوهم أن عدة الوفاة مثل عدة الطلاق"[2] فالذين يتوفاهم الله بقبض أرواحهم كما قال تعالى ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ [الزمر: ٤٢] ويتركون أزواجاً، فعلى أولئك الزوجات أن ينتظرن انقضاء عدتهن؛ فيمنعن أنفسهن عن الزينة وعن التعرض للخُطَّاب وللزواج، وكذلك عن الخروج من المنزل إلا لضرورة.

ومن حِكَم العدة معرفة براءة الرحم من الحمل، وتعظيم قدر الزواج، وأيضاً لتخفي مرارة الفراق بين الزوجين الذين ربط الله بينهما برباط المودة والرحمة، ومن مكارم الأخلاق وحسن العشرة ألا تتزين المرأة وتعرض نفسها على الرجال وهي حديثة عهد بوفاة زوجها، قال رسول الله ﷺ: (لا يحلُّ لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تحدُّ على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً)[3]. وهذا الحكم عام لكل امرأة توفى عنها زوجها سواء كانت مدخولاً بها

(١) قال في تفسير المنار ٢/ ٤١٤: وكلٌ يحتمله اللفظ، ولعل الحكمة في هذا التعبير أن يتناول كل ما يصح تناوله إياه.

(٢) فتح القدير للشوكاني ١/ ٢٤٨.

(٣) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ١٢٢٢ ومسلم في صحيحه برقم/ ١٤٨٧ عن أم حبيبة رضي الله عنها.

أو غير مدخول بها، وسواء كانت صغيرة أو كبيرة ولم يستثن من هذا إلا الحامل؛ فعدتها وضع الحمل؛ قال تعالى ﴿ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق: ٤] وقد صح عن أم سلمة " أنها قالت: " قُتلَ زوج سبيعة الأسلمية وهي حبلى، فوضعت به موته بأربعين ليلة فَخُطبت فانكحها رسول الله ﷺ "[1].

ومن حِكم الإحداد بالأشهر في الوفاة: أنه بخلاف الطلاق يشمل الصغيرة والكبيرة مدخولاً بها أو غير مدخول بها، فلزم أن تكون العدة بأمر يشترك فيه الجميع ما دام السبب واحداً في الجميع. ولأن العدة في الوفاة متعلقة بالمرأة فقط وربما كان تحديدها بالحيض مساغاً للكذب، أما في المطلقة فالعدة حق للمطلق ويستطيع أن ينكر عليها، أما في حالة الوفاة فصاحب الحق قد مات وصار الحق خالصاً لله، ومن حِكم جعل عدة الوفاة أكثر من الطلاق أن الطلاق كان عن شقاق فمرارة الفراق أخف، وتحديد المدة بأربعة أشهر لأنها أقصى مدة قررها الشرع للحرمان من الرجال كما في حالة الإيلاء، فجاءت مدة الإحداد على الزوج مقاربة لهذه المدة والله أعلم.

ثم بينت الآية الكريمة ما يترتب على انتهاء مدة العدة وبلوغ الأجل، وخاطبت الأولياء بأنه إذا انقضت العدة فلا حرج على الأولياء أو على المسلمين في ترك الأرامل يفعلن ما كان محظوراً عليهن، ولكن بالطريقة التي يقرها الشرع وترتضيها الفِطَر السليمة والعقول القويمة، والله تعالى محيط بدقائق أعمال الجميع لا يخفى عليه شيء منها.

ثم بينت الآيات حكم الخطبة للمعتدة بأسلوب راق يحفظ المصالح ويراعي المشاعر، فيجوز للرجل أن يُعَرِّض للمرأة بالخطبة في أثناء العدة، ولا إثم عليه كذلك إن رغب في زواج المعتدة طالما أضمر في نفسه وأخفى هذا الأمر، قال ابن عطية: " وأجمعت الأمة على أن الكلام مع المعتدة بما هو نص في تزويجها وتنبيهٌ عليه لا يجوز، وكذلك أجمعت على أن الكلام معها بما هو رفث وذكر جماع أو تحريض عليه لا يجوز، وجوز ما عدا ذلك"[2].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ٤٦٢٦ ومسلم في صحيحه برقم/ ١٤٨٥ عن أم سلمة رضي الله عنها

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية ١/ ٣١٥.

ومن لطيف التعريض ما روي أن رسول الله ﷺ دخل على أم سلمة وهي متأيمة من أبي سلمة فقال: لقد علمت أني رسول الله وخيرته وموضعي في قومي"[١].

ولأن الله تعالى عليم حكيم يعلم من خلق فلقد ذكّر الخاطبين بعلمه أنهم سيذكرونهن في أنفسهن، وهذا مما دخل للإنسان فيه ولا مؤاخذة عليه، وهذا هو القدر المباح، فلا يجوز أن يواعد المرأة مواعدة في السر، فإن هذا مدعاة إلى الفتنة، إلا أن تكون المواعدة بقول معروف، قال البيضاوي " أن تعرضوا ولا تصرحوا"[٢].

ثم بينت الآية غاية التحريم، فنهت أن يعقد الرجل العزم على إبرام وإتمام عقد النكاح المؤكد حتى ينتهي وقت ما فرض الله وكتب من العدة.

وكعادة القرآن الكريم في قرن الأحكام بالترغيب والترهيب جاء التحذير الإلهي بأن الله يعلم ما تضمره النفوس فليحذر المخالفون من قصد الشر أو فعل المنكر، ثم فتح باب الأمل لمن أراد الرجوع. وأعلمهم أنه غفور لمن تاب، حليم لا يعاجل بالعقوبة من أساء.

و" لما بين تعالى حكم المطلقات المدخول بهن والمتوفى عنهن أزواجهن بيَّن حكم المطلقة غير المدخول بها وغير المسمى لها مدخولاً بها أو غير ذلك"[٣] فخاطب الله تعالى الأزواج ورفع عنهم التبعة، ولم يلزمهم بدفع المهر إذا طلقوا المرأة قبل الدخول ما داموا لم يفرضوا لهن مهراً، لكن يجب عليكم في هذه الحالة أن تعطوهن مالاً يتمتعن وينتفعن به بما تعارف عليه الناس كل على حسب طاقته فمن وسَّع الله عليه فليوسع، ومن ضيق عليه فلا حرج إن أنفق ما في وسعه. وهذه المتعة حق واجب على الذين يحسنون إلى أنفسهم بطاعة الله وإلى النساء.

قال الجصاص: " وجوب المتعة من وجوه؛ أحدها: قوله تعالى ﴿ وَمَتِّعُوهُنَّ ﴾ لأنه أمر،

(١) رواه الدار قطني في سننه ٣/ ٢٢٤ والبيهقي ٧/ ١٧٨.

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ١/ ٥٣١.

(٣) البحر المحيط لأبي حيان ٢/ ٢٤٠.

والأمر يقتضي الوجوب حتى تقوم الدلالة على الندب، والثاني: قوله تعالى: ﴿ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ تأكيد لإيجابه؛ إذ جعلها من شرط الإحسان، وعلى كل أحد أن يكون من المحسنين....إلخ"[1].

ومن حِكَم هذه المتعة أن في الطلاق قبل الدخول إيهاماً للناس أنه ما طلقتها إلا لشيء عرفه في أخلاقها، فإذا متعها متاعاً حسناً كان ذلك بمثابة الاعتراف بأن الطلاق كان لعذر من ناحيته لا لعلة فيها؛ لأن الله يأمرنا بأن نحافظ على الأعراض بقدر الطاقة.[2]

ثم ذكرت الآية الحالة الثانية للمطلقة قبل الدخول، وهي إذا كان قد سمَّى لها الصداق فخاطب الله الأزواج إن طلقوا قبل الدخول وبعد أن قدروا مهراً معلوماً، فلها نصف المهر إلا أن تعفو المرأة عن حقها، أو يعفوا الزوج الذي بيده عقدة النكاح فيعطيها أكثر من النصف أو المهر كاملاً.

وقد ذهب الحنفية والشافعية وجماعة من السلف إلى أن الزوج هو الذي بيده عقدة النكاح، وورد عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ قال: (وليُّ عقدة النكاح الزوج)[3]،وقال الإمام الشافعي رحمه الله: " وبيَّن عندي في الآية أن الذي بيده عقدة النكاح الزوج، وذلك أنه إنما يعفوه من له ما يعفوه؛ فلما ذكر الله عز وجل عفوها مما ملكت من نصف المهر أشبه أن يكون ذكر عفوه لما له من جنس نصف المهر، والله تعالى أعلم"[4]. وقيل: هو الولي، وقد جاء اللفظ القرآني مجملاً لكي يحرص كل من الفريقين على العفو، والله أعلم.

---

(١) أحكام القرآن للجصاص ٢/ ١٣٨.

(٢) تفسير المنار ٢/ ٤٣٠ بتصرف.

(٣) رواه البيهقي في سننه ٧/ ٢٥١ والطبراني في الأوسط ٦٣٥٩ قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٣٢٠: وفيه ابن لهيعه وفيه ضعف، ورواه ابن أبي حاتم برقم/ ٣٥٩،وحسن السيوطي إسناده في الدر المنثور١/ ٧٣٩.

(٤) الأم للإمام الشافعي رحمه الله ٥/ ٧٤.

وجاء الأمر بالعفو مطلقاً ليشمل الجميع، فالعفو أقرب لتقوى الله، ثم أمرهم بألا ينسوا الفضل، فطالبهم بالفضل لا بالعدل، ثم ختمت الآية ببيان أن الله بصير بما يفعل العبد ليرغِّب العباد في الفضل ويرهبهم من الظلم والجهل.

وختام الآية السابقة يغري الناس بقانون البر والفضل ولكي يحولوا أبصارهم إلى شؤون كلية كبرى أولى أن يتوفر لها أولو العزم، ألا وهي الصلاة والإنفاق والجهاد في سبيل الله، والخطاب هنا بالصلاة يتوجه إلى المجاهدين لكي يحسم لهم مسألة الصلاة قبل أن يأمرهم بالقتال صراحة، ويبين لهم أن الجهاد ليس رخصة لإسقاط الصلاة ولا لتأجيلها، وإنما يأمرهم أن يحافظوا على الصلوات جميعاً، ثم أفرد الصلاة الوسطى بالذكر تفخيماً لأمرها وإعلاء لشأنها، وذهب جمع من العلماء إلى أنها صلاة العصر؛ لأنها بين صلاتي النهار والليل، ولكونها مظنة التقصير لمجيئها بعد وقت الراحة في الظهيرة، وقد ورد عن علي بن أبي طالب قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب، (شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر، ملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً)[(١)].

وقد يقال إن المقصود الاهتمام بالصلوات عموماً دون تحديد واحدة بعينها، والله أعلم.

ثم أمر الله المؤمنين أن يقوموا لله طائعين خاشعين، فهذا دليل حضور القلب وصحة الإيمان.

ولأهمية الصلاة فإنها لا تسقط بحال، ولهذا أمر الله عباده أن يحافظوا عليها وقت الأمن والخوف والصحة والمرض والسفر والإقامة، والتخفيف في وقت الخوف يكون بأدائها بكيفية مخصوصة أياً كانوا مشاة أو راكبين، فإذا زال الخوف وحل الأمن، فلتؤدى الصلاة كاملة كما علمنا ربنا على لسان نبينا ﷺ، وقد مَنَّ علينا بهذا العلم الذي ما كنا نعلمه.

قال القاضي أبو بكر بن العربي: " أمر الله سبحانه بالمحافظة على الصلوات في كل حال من صحة ومرض وحضر وسفر وقدرة وعجز وخوف وأمن، لا تسقط عن المكلف بحال ولا يتطرق إلى فرضيتها اختلال"[(٢)].

---

(١) رواه مسلم في صحيحه برقم/ ٦٢٧.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٣٠٢.

وبين الحديث عن أمور الطلاق والصلاة مناسبة وثيقة:

١- فالصلاة هي أعظم معين على تحمل الأمور، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [١٥٣] وقد توجه الأمر قديماً إلى بني إسرائيل لكن قلوبهم لم تلن لله وأمره، قال تعالى مخاطباً إياهم: ﴿ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [٤٥]. فتوجه الأمر بالصلاة إلى الأمة الخاتمة، وهذا دليل على أن الاستجابة لأوامر الله لن تكون إلا بعد تذليل النفس بالصلاة، ف(من حفظها وحافظ عليها حفظ دينه)[1]، وهي التي تعين على قبول التكاليف، وتروض الأخلاق،قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [المعارج/ ١٩-٢٢].

٢- وجو الآيات الكريمة كله يأمر بالتقوى ويحض عليها في ثنايا الحديث عن حقوق النساء، وقد تكرر هذا في أكثر من آية؛ قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾ [٢٣١] وقال: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾ [٢٣٣]، وجاء قبل هذه الآية مباشرة قوله تعالى: ﴿ وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ ﴾ [٢٣٧]، ولا شك أن المحافظة على الصلاة من أعظم ما يغرس التقوى في قلب المؤمن، قال تعالى: ﴿ وَأَنۡ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ﴾ [الأنعام/ ٧٢]واربط بين هذا وبين وصف المتقين في أول السورة بإقامة الصلاة.

٣- ما ذكره سيد قطب رحمه الله حيث قال: " يدس الحديث عن الصلاة في هذا الجو، فيوحي بأن الطاعة لله في كل هذا عبادة كعبادة الصلاة، ومن جنسها، وهو إيحاء لطيف من إيحاءات القرآن. وهو يتسق مع التصور الإسلامي لغاية الوجود الإنساني في قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات/ ٥٦]. واعتبار العبادة غير مقصورة على الشعائر، بل شاملة لكل نشاط، الاتجاه فيه إلى الله، والغاية منه طاعة الله"[2].

---

(١) رواه عبد الرزاق في المصنف ١/ ٥٣٦ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب ١/ ٢٥٧.

٤- أن الحديث السابق كان حول أداء حقوق النساء سواء كانت مطلقة أو توفي زوجها، وانتقل السياق إلى الحديث عن أداء حق الله بالصلاة.

ثم عادت الآيات إلى الحديث عن بعض حقوق المرأة التي توفى عنها زوجها، والمعنى: أن على الزوج قبل أن تحضره الوفاة أن يوصي لزوجته بها تنتفع به لمدة حول كامل من وفاته، ولا يجوز لأحد أن يخرجها من مسكن الزوجية بغير رضاها، فإن خرجت الزوجة من منزل الزوجية برغبتها فلا إثم عليكم حينئذ فيما فعلن في أنفسهن من الأمور التي لا ينكرها الشرع طالما انتهت عدتها وهي الأربعة أشهر وعشرة أيام. والله عزيز في انتقامه لمن تعدى حدوده، حكيم فيما شرع للعباد من أحكام وآداب.

وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن هذه الآية منسوخة؛ فقد كانت عدة الوفاة سنة كاملة ولها الوصية بالنفقة، ثم نُسخت الوصية بآية المواريث ونُسخ الحول بأربعة أشهر وعشراً.

وذهب جمع من العلماء إلى أن الآية ليست منسوخة؛ فروى البخاري عن مجاهد قال: كانت هذه العدة؛ تعتد عند أهل زوجها واجب فأنزل الله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ﴾ قال: جعل الله لها تمام السنة سبعة أشهر وعشرين ليلة وصية إن شاءت سكنت في وصيتها وإن شاءت خرجت، وهو قول الله تعالى: ﴿ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ فالعدة كما هي[1]. قال ابن عاشور: هذا الذي قاله مجاهد أصرح ما في الباب وهو المقبول[2].

وعلى هذا فالراجح ألا نسخ؛ فهذه الآية ليست منسوخة وإنما تتكلم عن حق المرأة في الإقامة ببيت زوجها سنة كاملة إن رغبت، أما الآية الأولى فهي تتكلم عن الواجب على النساء

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ورقمه/ ٤٢٥٧.

(٢) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢/ ٤٧٢.

من الاعتداد أربعة أشهر وعشراً، قال ابن كثير: " وهذا القول له اتجاه، وفي اللفظ مساعدة له، وقد اختاره جماعة منهم: الإمام أبو العباس ابن تيمية"[1].

ثم بين تعالى حق المطلقات في المتعة وجاء لفظ المطلقات عاماً ليشمل كل مطلقة وذلك لجبر ألم الفراق، ولتخفيف ما بين الزوجين من شقاق، ودرءاً لعدم الوفاق بعد إتمام الطلاق، وهذا حق على المتقين الذين يخافون ربهم. وظاهر الآية يفيد إيجاب المتعة لكل مطلقة.

ثم ختم الله تعالى هذه الآيات المتعلقة بأحكام الأسرة بقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ ﴾ أي: مثل هذا البيان الواضح الذي بين الله به الأحكام السابقة بين لكم جميع آياته وأحكامه لكي تعقلوا ما فيها وتنفذوه.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أولاً: القضايا العقدية:

- جمهور العلماء على أن لفظ المشرك يندرج فيه الكفار من أهل الكتاب، وإنما أفردوا بالذكر في بعض الآيات تنبيهاً على اختلافهم عن المشركين في جملة من الأحكام؛ منها إباحة الزواج من نسائهم، لكنهم في النهاية يشملهم جميعاً وصف الإشراك بالله.
- قوله ﴿ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾ فيه أساس اعتقادي يربط أمور الأحكام بالإيمان المستكن في الضمير، فكيف يعرف الناس إن كانت المطلقة ذات حمل أم لا؟ وكيف يعرف زوجها بعد الطلاق إن كانت حائضاً أو حاملاً؟ لا يستخرج الحق عندئذ إلا إيمانها بالله واليوم الآخر.
- قوله تعالى: ﴿ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ يوجب بطلان قول أهل الإجبار في اعتقادهم

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ٢٩٨ ورجحه أيضاً الفخر الرازي في مفاتيح الغيب ٦/ ١٣٥ فقال: "فكان المصير إلى قول مجاهد أقوى من التزام النسخ من غير دليل".، ورجحه سيد قطب في ظلال القرآن ١/ ٢٥٩ وذهب إلى نفي النسخ : محمد عبده كما في تفسير المنار ٢/ ٤٤٧.

أن الله يكلف عباده ما لا يطيقون، وإكذاب لهم في نسبتهم ذلك إلى الله تعالى الله عما يقولون وينسبون إليه من السفه والعبث علواً كبيراً[١].

ثانياً: الأحكام الشرعية:

- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ يفيد حرمة الزواج بالمشركة، وكذلك الملحدة التي لا تؤمن بدين. وكذلك لا يجوز الزواج بالمجوسية التي تعبد النار[٢]، ولا المرتدة التي عادت للكفر بعد الإيمان، وكذلك التي تنتمي لطائفة أو فرقة ظاهرها الإسلام لكن حكم العلماء بكفرها وردتها وذلك مثل القاديانية والبهائية وغيرهما.

ومعلوم أن تحريم نكاح المشركة ليس مؤبداً كتحريم الأم والأخت، ولكنه مؤقت بغاية وهي الإيمان ﴿حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ فإذا آمنت الكافرة حل نكاحها.

- دلت الآيات على جواز نكاح الكتابية سواء كانت يهودية أو نصرانية، وهذا مذهب جمهور أهل العلم. وذهب عبد الله بن عمر إلى عدم الجواز؛ فكان إذا سئل عن نكاح النصرانية أو اليهودية قال: حرم الله المشركات على المؤمنين، ولا أعلم من الإشراك شيئاً أعظم من أن تقول المرأة ربها عيسى وهو عبد من عباد الله[٣].

والحق مع رأي الجمهور، لكن يشترط أن تكون المرأة محصنة أي عفيفة لا تتعاطى الزنا، ويشترط كذلك ألا تكون من قوم يحاربون المسلمين، فنكاح نساء المحاربين لا يجوز، وهذا قول ابن عباس وغيره[٤]، ومما يحتج به لقوله: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة/ ٢٢] قال الجصاص: "فينبغي أن يكون نكاح

---

(١) أحكام القرآن للجصاص ٢/ ١٠٦.

(٢) انظر: كشاف القناع للبهوتي ٢/ ٤٤٣، والمبسوط للسرخسي ١٣/ ١٣٢، وجاء في حاشية العدوي ٢/ ٨٠: ويرجم الزوج في نكاح المجوسية.

(٣) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ٤٩٨١.

(٤) انظر: جامع البيان للطبري ٩/ ٥٨٨ وأحكام القرآن للقرطبي ٣/ ٤٥٨.

الحربيات محظورا؛ لأن قوله تعالى: ﴿ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ إنما يقع على أهل الحرب؛ لأنهم في حد غير حدنا؛ وهذا عندنا إنما يدل على الكراهة، وأصحابنا يكرهون مناكحات أهل الحرب من أهل الكتاب[١].

- لا يجوز للمشرك أن ينكح المؤمنة بأي حال من الأحوال، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾[الممتحنة/ ١٠]

- دل قوله تعالى ﴿ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ على أنه لا نكاح إلا بولي، قال محمد بن على بن الحسين: النكاح بوليّ في كتاب الله، ثم قرأ:﴿ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْ ﴾ برفع التاء[٢]، واشتراط الولي في النكاح هو قول الجمهور، وورد عن عمر وعليٍ وابن عباس وابن مسعود وغيرهم، وهو مذهب الشافعيِّ ومالك وأحمد[٣] ؛ وحجتهم قول رسول الله ﷺ: (لا نكاح إلا بولي)[٤] وغيره من الأحاديث.

- جواز استمتاع الرجل بامرأته وهي حائض طالما ابتعد عن موطن الأذى، قال رسول الله: (اصنعوا كل شيء إلا النكاح)[٥] وعن عائشة قالت: "كان - أي النبي ﷺ- يأمرني فأتزر فيباشرني وأنا حائض"[٦].

---

(١) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٣٢٦.

(٢) رواه عنه الطبري في جامع البيان ٤/ ٣٧٠، وفي سنده راو لم يسم.

(٣) أقوال الصحابة مروية عند البيهقي في سننه ٧/ ١١٢، ١١١، وانظر في المسألة من كتب الفقه:الأم للإمام الشافعي ٥/ ١٢،المغنى لابن قدامة ٧/ ٦، وبداية المجتهد ونهاية المقتصد لابن رشد٢/ ٩.

(٤) رواه الترمذي في سننه رقم/ ١١٠١، وأبو داود في سننه رقم/ ٢٠٨٣،وابن ماجة في سننه رقم/ ١٨٨١، وابن حبان في صحيحه٤٠٧٨،والحاكم في المستدرك رقم/ ٢٧١٣ وله طرق يصير بمجموعها صحيحاً. انظر: الدراية في تخريج أحاديث الهداية لابن حجر ٢/ ٥٥.

(٥) رواه مسلم في صحيحه برقم/ ٣٠٢ وسبق.

(٦) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ٢٩٥.

- إباحة إتيان المرأة بعد التطهر عند جمهور الفقهاء، وبعد انقطاع الدم وقبل التطهر عند الأحناف.

- إن وطأ الرجل امرأته الحائض وهو عالم بالتحريم متعمد فقد أتى كبيرة لمخالفته نص القرآن، ويجب عليه التوبة والاستغفار عند جمهور العلماء. وذهب أحمد بن حنبل وجماعة إلى وجوب الكفارة عليه؛ وذلك لما ورد عن عبد الله بن عباس مرفوعاً في الذي يأتي امرأته وهي حائض يتصدق بدينار أو نصف دينار[١].

- إباحة الأحوال والهيئات كلها في الجماع إذا كان الإتيان في موضع الحرث.

- تحريم إتيان المرأة في دبرها، وقد شددت الأحاديث النبوية في النهي عن ذلك، ودلالة قوله تعالى: ﴿ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ ﴾ وقوله: ﴿ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ تفيد أن الإتيان لا يكون إلا من موطن الحرث. ومما صح عن رسول الله ﷺ في ذلك قوله: (ملعون من أتى امرأته في دبرها)[٢].

- دل قوله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ﴾ على أن الحلف على مدة دون الأربعة أشهر لا يعد إيلاء، وإنما يكون الإيلاء إذا حلف ألا يقرب زوجته أربعة أشهر فصاعداً عند الأحناف، وأكثر من أربعة أشهر عند غيرهم[٣].

- الإيلاء يثبت بكل يمين، وقد جاءت الآية عامة بدون تحديد صيغة يمين، فيقع الإيلاء بكل الصيغ، وهذا قول الجمهور خلافاً للشافعية. قال ابن عباس: كل يمين منعت جماعاً فهي إيلاء[٤].

---

(١) رواه أبوداود في سننه برقم/ ٢٦٤ والنسائي في الكبرى برقم/ ٩٠٩٨، وابن الجارود في المنتقى ١/ ٣٨. وانظر كلام العلماء على هذا الحديث في شرح النووي على صحيح مسلم ٣/ ٢٠٥. وعمدة القاري للعيني ٣/ ٢٦٦.

(٢) رواه أحمد في مسنده ٢/ ٤٤٤ والنسائي في السنن الكبرى برقم/ ٩٠١٥ وأبوداود في سننه برقم/ ٢١٦٢ وسنده حسن. انظر: تلخيص الحبير لابن حجر٣/ ١٨٠، ومصباح الزجاجة للبوصيري ٢/ ١١٠.

(٣) انظر: بدائع الصنائع ٣/ ١٧٧، الإقناع للخطيب الشربيني ٢/ ٤٥٢، والشرح الكبير ٢/ ٣٤٢ والروض المربع ٣/ ١٩٠.

(٤) أخرجه عنه البيهقي في سنن الكبرى برقم/ ١٥٠١٦ والصغرى برقم/ ٢٧٤١. وانظر لرأي الجمهور: بداية المجتهد٢/ ٧٦، ولرأي الشافعية: الأم ٥/ ٢٦٥.

- وبدلالة عموم الآية قال جمهور الفقهاء: الإيلاء يقع سواء كانت اليمين في غضب أو غير غضب. وقال ابن عباس: لا إيلاء إلا بغضب[١].

قال القرطبي: " ويدل عليه - أي رأي الجمهور -عموم القرآن، وتخصيص حالة الغضب يحتاج إلى دليل، ولا يؤخذ من وجه يلزم. والله أعلم"[٢].

- لفظ: ﴿ مِن نِّسَآئِهِمْ ﴾ عام؛ فتدخل فيه الحرة والأمة إذا تزوجت، ويدخل فيه أيضا الذمية، ويشمل الصغيرة والكبيرة والمدخول بها وغير المدخول بها على السواء[٣].

- قال ابن المنذر: "وأجمعوا على أن الفيء الجماع إذا لم يكن له عذر"[٤].

-إذا جامع المولي زوجته فعليه الكفارة عند جمهور العلماء، قال ابن عبد البر: "وجمهور العلماء على أن المولي إذا فاء بالوطء وحنث نفسه فعليه الكفارة إلا رواية عن الحسن وإبراهيم أنه لا كفارة عليه...وهذا مذهب ضعيف ترده السنة الثابتة"[٥]. وقال ابن تيمية: "المولى بالحلف بالله إذا فاء لزمته كفارة الحنث عند جمهور العلماء. وفيه قول شاذ أنه لا شيء عليه بحال. وقول الجمهور أصح؛ فان الله بين في كتابه كفارة اليمين في سورة المائدة"[٦].

- استدل محمد بن الحسن بآية الإيلاء على امتناع جواز تقديم الكفارة قبل الحنث في اليمين؛ فقال: " لما حكم للمولي بأحد حكمين من فيء أو عزيمة الطلاق، فلو جاز تقديم الكفارة على الحنث لسقط الإيلاء بغير فيء ولا عزيمة طلاق؛ لأنه إن حنث لا يلزمه بالحنث شيء، ومتى

---

(١) رواه عنه الطبري في تفسيره ٤/ ٤٥٩ وبنحوه عن علي ٤/ ٤٦٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٢٧.

(٣) انظر: المغني لابن قدامة ٧/ ٤٢٧. وقال الأحناف: إيلاء الأمة شهران على النصف من الحرة، انظر: البحر الرائق لابن نحيم الحنفي ٤/ ٧٢.

(٤) الإجماع لابن المنذر ص ٨٣.

(٥) الاستذكار لابن عبد البر ٦/ ٤٤.

(٦) مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٣/ ٥٣.

لم يلزم الحالف بالحنث شيء لم يكن مولياً، وفي جواز تقديم الكفارة إسقاط حكم الإيلاء بغير ما ذكر الله، وذلك خلاف الكتاب"[١].

- قال تعالى: ﴿ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ ﴾ فإذا انتهت مدة الأربعة أشهر بدون فيئة طلقت منه عند الأحناف، لأنهم قدروا الآية: للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاؤوا في هذه المدة فإن الله يغفر لهم ما حلفوا عليه. وإن لم يفيئوا كان ذلك عزماً منهم على الطلاق، فيقع بانتهاء المدة.

- أما الجمهور فقالوا: يوقف المولي بعد انتهاء المدة؛ فإما أن يطلق وإما أن يفيء، فإن لم يطلق رفعت المرأة أمرها للقاضي كي يطلقها.

وتقدير الآية عندهم: للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاؤوا بعد انتهاء المدة فإن الله يغفر لهم ما حلفوا عليه، وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع لطلاقهم.

والاحتمالان متساويان في تقدير الآية؛ ولذلك اختلف الصحابة في تأويلها[٢].

قال القرطبي: " وإذا تساوى الاحتمال كان قول الكوفيين أقوى، قياساً على المعتدة بالشهور والأقراء، إذ كل ذلك أجل ضربه الله تعالى، فبانقضائه انقطعت العصمة وأبينت من غير خلاف، ولم يكن لزوجها سبيل عليها إلا بإذنها، فكذلك الإيلاء، حتى لو نسي الفيء وانقضت المدة لوقع الطلاق، والله أعلم[٣].

- عدة غير الحامل ثلاث حيضات، هذا هو الراجح في القرء والله أعلم؛ لقول الله تعالى: ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ ﴾ [الطلاق/ ٤].

---

(١) أحكام القرآن للجصاص ٢/ ٥٥.

(٢) انظر في المذاهب الأربعة: شرح فتح القدير للكمال بن الهمام ٤/ ١٩٢، والأم للشافعي٥/ ٢٦٥، وبداية المجتهد لابن رشد ٢/ ٧٥المغني لابن قدامة ٧/ ٤٢٨.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٣٥.

فنقلهن عند عدم الحيض إلى الاعتداد بالأشهر؛ فدل ذلك على أن الأصل الحيض، ولأن ظاهر قوله تعالى: ﴿ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ وجوب التربص ثلاثة كاملة، ومن جعل القروء الأطهار لم يوجب ثلاثة؛ لأنه يكتفي بطهرين وبعض الثالث، فيخالف ظاهر النص، ومن جعله الحيض أوجب ثلاثة كاملة، فيوافق ظاهر النص[(١)].

- دل عموم قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ﴾ على أن العدة تجب على الذمية إذا طلقها المسلم. وعدتها كعدة المسلمة[(٢)].

- قوله تعالى ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ ﴾ دليل على أن للرجل مراجعة زوجته المدخول بها فيما دون الثلاث طلقات، سواء رضيت أو لم ترض، فإذا انقضت عدة المرأة صارت أجنبية عنه لا تحل له إلا بعقد ومهر جديدين. وهذا بالاتفاق؛ قال ابن المنذر: "وأجمعوا على أن له الرجعة في المدخول بها ما لم تنقض العدة، فإذا انقضت العدة فهو خاطب من الخطاب"[(٣)].

- قوله تعالى: ﴿ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ﴾ المعنى: إن قصد بالرجعة إصلاح حاله معها، وإزالة الوحشة بينهما، لا على وجه الإضرار والقطع بها عن الخلاص من ربقة النكاح، فذلك له حلال، وإلا لم تحل له[(٤)]. فما دام قد قصد الإصلاح فهذا مندوب، أما إذا قصد تطويل مدة العدة فيكون قد ظلم نفسه بارتكاب المحرم.

- دل قوله تعالى: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ على إيجاب مهر المثل إذا لم يسم الزوج لها مهراً؛ لأنه قد ملك عليها بضعها بالعقد واستحق عليها تسليم نفسها إليه، فعليه لها مثل ملكه عليها، ومثل البضع هو قيمته وهي مهر المثل[(٥)].

---

(١) انظر: المغني لابن قدامة ٨/ ٨٢

(٢) قال ابن قدامة : قول علماء الأمصار منهم مالك والثوري والشافعي وأبو عبيد وأصحاب الرأي ومن تبعهم. المغني ٨/ ٧٨.

(٣) الإجماع لابن المنذر ص٨٠ برقم/ ٣٩٧.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٢٥٦.

(٥) أحكام القرآن للجصاص ٢/ ٦٩، ٧٠.

-إذا أراد الرجل أن يراجع زوجته في فترة العدة فله ذلك، سواء كانت الرجعة بالفعل أو بالقول، ويستحب له أن يُشهِد على الرجعة؛ لقوله تعالى ﴿ وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ [الطلاق/ ٢] وقال بعض الفقهاء باشتراط الإشهاد، والصحيح من مذهب جمهور أهل العلم الندب والله أعلم[١].

- دل قوله تعالى: ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ﴾ على أن الطلاق مباح، قال الشافعي رحمه الله: " قال الله عز وجل: ﴿ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ [الطلاق/ ١] الآية وقال: ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ ﴾ [٢٣٦] وقال ﴿ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ ﴾ الآية[الأحزاب/ ٤٩] وقال ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ ﴾ [النساء/ ٢٠] وقال ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ [٢٢٩] مع ما ذكرته من الطلاق في غير ما ذكرت ودلت عليه سنة رسول الله ﷺ من إباحة الطلاق، فالطلاق مباح لكل زوج"[٢].

- دل قوله تعالى: ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ﴾ على حظر إيقاع الطلقتين أو الثلاث في وقت واحد ؛ لأنها تضمنت الأمر بإيقاع الاثنتين في مرتين، فمن أوقع الاثنتين في مرة فهو مخالف لحكمها[٣].

وقال ابن تيمية:" فبين أن الطلاق الذي ذكره هو الطلاق الرجعي الذي يكون فيه أحق بردها هو مرتان مرة بعد مرة"[٤].

- جاء في صحيح البخاري كتاب الطلاق: باب " من أجاز الطلاق الثلاث بقوله تعالى ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ﴾[٥].و قد أشار بهذا إلى الخلاف الواقع في احتساب

---

(١) تبيين الحقائق للزيلعي ٢/ ٢٥٢، وأسنى المطالب للبيروتي ٣/ ٣٤١، والشرح الكبير لابن قدامة ٢/ ٤٢٤، والروض المربع للبهوتي ٣/ ١٨٤.
(٢) الأم للشافعي ٥/ ١٧٩.
(٣) انظر: أحكام القرآن للجصاص ٢/ ٧٥.
(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٣/ ١١.
(٥) صحيح البخاري ٥/ ٢٠١٣، باب رقم ٤.

الطلقات الثلاث في المجلس الواحد. والظاهر احتساب الطلقات الثلاث في المجلس الواحد طلقة واحدة؛ ويؤيد هذا ما ورد عن ابن عباس قال: " طلق ركانة بن عبد يزيد أخو بني مطلب امرأته ثلاثاً في مجلس واحد فحزن عليها حزناً شديداً. قال: فسأله رسول الله ﷺ: كيف طلقتها ؟ قال : طلقتها ثلاثاً قال : فقال : في مجلس واحد ؟ قال: نعم قال: فإنما تلك واحدة، فأرجعها إن شئت. قال : فرجعها[1].

- استدل جماعة من الفقهاء بقوله تعالى: ﴿ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖ ﴾ على أن لفظ التسريح من ألفاظ الطلاق الصريحة فلا يحتاج إلى نية، بخلاف ألفاظ الطلاق غير الصريحة (الكنائية) التي تحتاج إلى نية[2].

- استدل الشافعية والحنابلة بقوله تعالى: ﴿ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖ ﴾ على أن الزوج إذا أعسر بنفقة المعسر فللزوجة فسخ النكاح؛ فقد تعذر الإمساك بالمعروف فيتعين التسريح بإحسان[3].

- استدل الفقهاء بقوله تعالى ﴿ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖ ﴾ على حرمة نكاح المتعة،

---

(١) رواه أحمد في مسنده ١/ ٢٦٥، والبيهقي في سننه الكبرى برقم/ ١٤٧٦٤، قال ابن تيمية: وهذا إسناد جيد. مجموع الفتاوى ٣٣/ ٨٥، ومال ابن حجر إلى تصحيحه وترجيح مقتضاه فقال في فتح الباري ٩/ ٣٦٢: وهذا الحديث نص في المسألة لا يقبل التأويل الذي في غيره من الروايات الآتي ذكرها.

(٢) وهذا مذهب الشافعي، انظر الوسيط ٥/ ٣٧٣، وخالف في ذلك الأحناف والمالكية فقالوا: إن لفظ السراح يستعمل في غير الطلاق كثيراً. انظر: بدائع الصنائع للكاساني ٣/ ١٠٦، المغني لابن قدامة ٧/ ٢٩٤. ووافقهم البخاري؛ فقد ترجم في صحيحه باب: إذا قال: فارقتك أو سرحتك أو البرية أو الخلية، أو ما عني به الطلاق فهو على نيته. صحيح البخاري كتاب الطلاق ٥/ ٢٠١٥.

(٣) الأم للشافعي ٥/ ١٠٧، والكافي في فقه ابن حنبل ٣/ ٣٦٧، أما الأحناف فقالوا: لا تطلق، ويلزمها الصبر؛ لقوله تعالى: ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ ﴾ فهذا تنصيص على أن المعسر منظر. المبسوط للسرخسي ٥/ ١٩٠، والظاهر رجحان ما ذهب إليه الأحناف؛ لأن الفقر لا يكون سببا للفرقة، وقد ندب الله إلى تزويج الفقير.

قالوا:" فجعل إلى الأزواج فرقة من عقدوا عليه النكاح مع أحكام ما بين الأزواج، فكان بيِّنا أن نكاح المتعة منسوخ بالقرآن والسنة لأنه إلى مدة ثم نجده ينفسخ بلا إحداث طلاق فيه ولا فيه أحكام الأزواج"[١].

- في قوله تعالى ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ﴾ دليل على مشروعية الخلع، قال ابن عبد البر: "وأجمع الجمهور منهم أن الخلع والفدية والصلح أن كل ذلك جائز بين الزوجين في قطع العصمة بينهما وأن كل ما أعطته على ذلك حلال له إذا كان ذلك من غير إضرار منه بها ولا إساءة إليها"[٢].

- قرأ حمزة: (إلا أن يُخافا) بضم الياء على البناء لما لم يسم فاعله[٣]. قال النحاس: "قيل: المعنى.. إلا أن يخاف السلطان ويكون الخلع الى السلطان، وقد قال بهذا الحسن.... قال أبو جعفر: وأكثر العلماء على أن ذلك إلى الزوجين[٤].

- دل ظاهر قوله تعالى: ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ﴾ على أن للمرأة أن تفدي نفسها بأكثر من المهر ما داما قد تراضيا على ذلك، قال الشافعي: "وأباح لهما إذا انتقلت عن حد اللاتي حرم أموالهن على أزواجهن لخوف أن لا يقيما حدود الله أن يأخذ منها ما افتدت به لم يحدد في ذلك أن لا يأخذ إلا ما أعطاها ولا غيره، وذلك أنه يصير حينئذ كالبيع. والبيع إنما يحل ما تراضى به المتبايعان لا حد في ذلك، بل في كتاب الله عز وجل دلالة على إباحة ما كثر منه وقل؛

---

(١) الحاوي الكبير للماوردي ٩/ ٣٢٨.

(٢) الاستذكار لابن عبد البر ٦/ ٧٦.

(٣) الحجة في القراءات السبع لابن خالويه ص ٩٧.

(٤) معاني القرآن للنحاس ١/ ٢٠٣. وقال الجصاص: ولا خلاف بين فقهاء الأمصار في جوازه دون السلطان؛ وكتاب الله يوجب جوازه، وهو قوله تعالى﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ﴾وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾ فأباح الأخذ منها بتراضيهما من غير سلطان. أحكام القرآن ٢/ ٩٤.

لقوله ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ﴾[(١)].

- استدل عبد الله بن عباس بسياق الآيات على أن الخلع فسخ وليس بطلاق؛ فقد سأله إبراهيم سألت إبراهيم بن سعد بن أبي وقاص عن رجل طلق امرأته تطليقتين، ثم اختلعت منه. أينكحها؟ فقال: نعم، ذكر الله الطلاق في أول الآية وآخرها، والخلع بين ذلك، فلا بأس به[(٢)].

لكن جمهور العلماء على أن الخلع طلاق لا فسخ؛ فلو نوى به الطلاق وقع، واعتدت المرأة كالمطلقة ثلاث حيضات. وهذا القول عليه - كما قال الترمذي- : أكثر أهل العلم من أصحاب النبي وغيرهم[(٣)].

- أجمع العلماء على أن الرجل إذا طلق زوجته الطلقة الثالثة أنها لا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره.

- واتفق جمهور العلماء على أن مجرد العقد لا يكفي في تحليل الزوجة للأول؛ بل لا بد من الوطء، قال الرازي: "مذهب جمهور المجتهدين أن المطلقة بالثلاث لا تحل لذلك الزوج إلا بخمس شرائط : تعتد منه، وتعقد للثاني، ويطؤها، ثم يطلقها، ثم تعتد منه. وقال سعيد بن جبير وسعيد بن المسيب : تحل بمجرد العقد، واختلف العلماء في أن شرط الوطء بالسنة، أو بالكتاب، قال أبو مسلم الأصفهاني : الأمران معلومان بالكتاب وهذا هو المختار"[(٤)].

- استدل جمهور الفقهاء من الحنفية والشافعية وغيرهم بعموم قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا

(١) الأم للشافعي ٥/ ١١٣، قال في المغني: و هذا قول أكثر أهل العلم. روي ذلك عن عثمان وابن عمر وابن عباس وعكرمة ومجاهد وقبيصة بن ذؤيب والنخعي ومالك والشافعي وأصحاب الرأي.ويروى عن ابن عباس وابن عمر أنهما قالا : لو اختلعت امرأة من زوجها بميراثها، وعقاص رأسها كان ذلك جائزاً. المغني لابن قدامة ٧/ ٢٤٧.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف ٦/ ٤٨٧ برقم/ ١١٧٧١ وسعيد بن منصور في سننه ١/ ٣٨٤ برقم/ ١٤٥٥.

(٣) سنن الترمذي ٣/ ٤٩١.

(٤) التفسير الكبير للرازي ٦/ ٩٠. وجاء في البحر الرائق ٤/ ٦٢ أن سعيد بن المسيب رجع عن مذهبه هذا.

غَيْرَهُۥ ﴾ على أن المسلم إذا طلق زوجته الذمية ثلاثاً ونكحها ذمي ودخل بها، ثم طلقها؛ فيجوز أن ترجع إلى زوجها الأول لعموم لفظ الآية. قال الشافعي: "ولو نكحها الذمي نكاحاً صحيحاً فأصابها كان يحلها من جماعه للمسلم ما يحلها من جماع زوج مسلم لو نال ذلك منها لأنه زوج"[١].

- واستدلوا أيضاً بعموم الآية على أن النكاح الفاسد لا يبيح للمطلقة ثلاثاً أن ترجع إلى زوجها الأول، قال العلماء: لا تحل المرأة لزوجها الأول إلا بعقد صحيح. قال الشافعي: "ولا يحلها إلا زوج صحيح النكاح؛ وأصل معرفة هذا أن ينظر إلى كل زوج إذا انعقد نكاحه لا ينفسخ بفساد عقد. وإن انفسخ بعد لمعنى فأصابها فهو يحلها وإن كان أصل نكاحه غير ثابت عند العقد فلا تحلها إصابته لأنه غير زوج"[٢].

- قوله تعالى: ﴿ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ﴾ يدل على جواز الاجتهاد في أحكام الحوادث؛ لأنه علق الإباحة بالظن[٣].

- قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾ دل على وقوع الرجعة، وإن قصد بها مضارتها، فلولا ذلك ما كان ظالماً لنفسه ؛ إذ لم يثبت حكمها وصارت رجعته لغواً لا حكم لها[٤].

- لا يجوز اتخاذ آيات الله وأحكامه هزواً؛ فمن طلق هازلاً وقع طلاقه باتفاق؛ قال ابن المنذر: "وأجمعوا على أن جد الطلاق وهزله سواء"[٥]. ومستندهم في ذلك قولهﷺ: (ثلاث جدهن جد و هزلهن جد : النكاح والطلاق والرجعة)[٦].

---

(١) الأم للشافعي ٥/ ٢٤٩. وانظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٢/ ١٧٥.
(٢) المرجع السابق.
(٣) أحكام القرآن للجصاص ٢/ ٩٧.
(٤) أحكام القرآن للجصاص ٢/ ٩٩. وانظر: الحاوي الكبير للماوردي ١٠/ ٣٠٣.
(٥) الإجماع لابن المنذر ص ٨٠ رقم/ ٤٠٦.
(٦) أخرجه الحاكم في المستدرك برقم/ ٢٨٠٠ وصححه على شرطها، وأبوداود في سننه برقم/ ٢١٩٤، والترمذي في سننه برقم/ ١١٨٤ .قال ابن حجر: حسن. تلخيص الحبير ٣/ ٢٠٩.

- نهي الأولياء عن منع الزوجات من الزوج إلى أزواجهن طالما تراضيا بعد الطلاق.

- دل قوله تعالى: ﴿ إِذَا تَرَاضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ على أنه لا بد في النكاح من رضا الطرفين؛ فيلزم أن ترضى الزوجة بزوجها وإلا لم يصح الزواج، قال رسول الله ﷺ: (لا تنكح البكر حتى تستأذن ولا الثيب حتى تستأمر)[1]. قال العيني: " هذا لفظ عام يتناول البكر والثيب والمطلقة والمتوفى عنها زوجها ويجب العمل بعموم العام وأنه يوجب الحكم فيما يتناوله قطعاً"[2].

- دل قوله تعالى: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ على أن الرضاعة المعتبرة في تحريم المصاهرة هي ما كان في الحولين. قال مالك: الرضاعة قليلها وكثيرها إذا كان في الحولين تحرم. فأما ما كان بعد الحولين فإن قليله وكثيره لا يحرم شيئاً وإنما هو بمنزلة الطعام"[3].

ومما يدل على هذا قوله ﷺ :(إنما الرضاعة من المجاعة)[4]، والمعنى كما قال العيني: "أي الجوع يعني الرضاعة التي تثبت بها الحرمة ما تكون في الصغر حين يكون الرضيع طفلاً يسد اللبن جوعته لأن معدته ضعيفة يكفيها اللبن وينبت لحمه بذلك فيصير كجزء من المرضعة فيكون كسائر أولادها"[5].

- دل قوله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ ﴾ على وجوب نفقة الولد على أبيه، قال ابن تيمية: " وهذه الآية توجب رزق المرتضع على أبيه لقوله: ﴿ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ [الطلاق/ ٦] فأوجب نفقته حملاً ورضيعاً بواسطة الإنفاق على الحامل والمرضع؛ فإنه لا يمكن رزقه بدون رزق حامله ومرضعه. فسئلت

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم/ ٦٥٦٧عن أبي هريرة.
(٢) عمدة القاري بشرح صحيح البخاري للبدر العيني ٢٠/ ١١٦.
(٣) الموطأ للإمام مالك ٢/ ٦٠٤ كتاب: الرضاع باب: رضاع الصغير.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه برقم/ ٢٥٠٤ ومسلم في صحيحه برقم/ ١٤٥٥ عن عائشة.
(٥) عمدة القاري بشرح صحيح البخاري للبدر العيني ٢٠/ ٩٧.

فأين نفقة الولد على أبيه بعد فطامه؟ فقلت: دل عليه النص تنبيهاً. فإنه إذا كان في حال اختفائه وارتضاعه أوجب نفقة من تحمله وترضعه إذ لا يمكن الإنفاق عليه إلا بذلك، فالإنفاق عليه بعد فصاله إذا كان يباشر الارتزاق بنفسه أولى وأحرى وهذا من حسن الاستدلال"[١].

- وفي الآية أيضاً دليل على أن حضانة الطفل لأمه، وهو قول جمهور أهل العلم[٢]، ويشهد له ما ورد أن امرأة قالت: يا رسول الله، إن ابني هذا؛ كان بطني له وعاء وثديي له سقاء وحجري له حواء وإن أباه طلقني وأراد أن ينتزعه مني. فقال لها رسول الله ﷺ: أنت أحق به ما لم تنكحي[٣].

- استدل الحنابلة بقوله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ﴾ على أن النفقة تجب على كل وارث لمورثه، وقال الأحناف تجب النفقة على كل ذي رحم محرم، وقال الباقون: لا نفقة إلا على المولودين والوالدين[٤].

- استدل بقوله تعالى ﴿ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ﴾ على وجوب الإنفاق على الجد والجدة وإن علوا، وهو مذهب الجمهور خلافاً لمالك[٥].

- دل قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ على جواز استئجار الظئر (المرضعة) لإرضاع الولد. قال ابن المنذر: "وأجمعوا على أن استئجار الظئر جائز"[٦].

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٤/ ١٠٦.
(٢) انظر: شرح فتح القدير للكمال بن الهمام ٤/ ٣٧٥،المهذب للشيرازي ٢/ ١٦٩، الكافي لابن عبد البر٢٩٦،المغني لابن قدامة ٨/ ١٩٠.
(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك برقم/ ٢٨٣٠ وصححه على شرطهما، وأبوداود في سننه برقم/ ٢٢٧٦، وأحمد في مسنده ٢/ ١٨٢عن عبد الله بن عمرو. قال الهيثمي: ورجاله ثقات. مجمع الزوائد ٤/ ٣٢٣.
(٤) انظر: شرح فتح القدير لكمال بن الهمام ٤/ ٤١٩، نيل الأوطار للشوكاني ٧/ ١٢٩.
(٥) انظر: الأم للشافعي ٥/ ١٠٠، المغني لابن قدامة ٨/ ١٦٩.
(٦) الإجماع لابن المنذر ص١٠١ برقم/ ٥٤٩.

- عدة الحامل المتوفي عنها زوجها وضع الحمل، وهذا قول جمهور العلماء؛ وذلك لعموم قوله تعالى: ﴿ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق/ ٤] ولحديث سبيعة الأسلمية[١].

- دل قوله تعالى: ﴿ يَتَرَبَّصْنَ ﴾ على أن المعتدة من وفاة لا تبيت في غير منزل الزوجية، وقد قال النبي للفريعة بنت مالك وكان زوجها قد قتل : (امكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله). قالت: فاعتددت فيه أربعة أشهر وعشراً[٢].

قال ابن قدامة: "وممن أوجب على المتوفى عنها زوجها الاعتداد في منزلها: عمر، وعثمان رضي الله عنهما، وروي ذلك عن ابن عمر، وابن مسعود، وأم سلمة، وبه يقول مالك،والثوري،والأوزاعي، وأبو حنيفة، والشافعي، وإسحاق"[٣].

- الإحداد واجب على من توفي عنها زوجها، ولم يرد له ذكر صريح في كتاب الله، لكن منع التعريض بالزواج يشير إليه، وقد ورد الأمر به في السنة النبوية، واتفق عليه جمهور أهل العلم. قال ابن قدامة: "ولا نعلم بين أهل العلم خلافاً في وجوبه على المتوفى عنها زوجها، إلا عن الحسن، فإنه قال: لا يجب الإحداد. وهو قول شذ به عن أهل العلم وخالف به السنة، فلا يعرج عليه"[٤].

- قال القرطبي: "أجمع العلماء على أن من طلق زوجته طلاقاً يملك رجعتها، ثم توفي قبل انقضاء العدة أن عليها عدة الوفاة، وترثه"[٥].

---

(١) انظر: صفحة رقم: (٢٩) من هذا البحث.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك برقم/ ٢٨٣٣، وابن حبان في صحيحه برقم/ ٤٢٩٢، والنسائي في الكبرى برقم/ ١١٠٤٤، وأبوداود في سننه برقم/ ٢٣٠٠، والترمذي في سنه برقم/ ١٢٠٤. وسنده صحيح. نصب الراية للزيلعي ٣/ ٢٦٣.

(٣) المغني لابن قدامة ٨/ ١٢٧.

(٤) المغني لابن قدامة ٨/ ١٢٤.

(٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٤/ ١٣٧.

- دل مفهوم قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ على أن للأولياء منع النساء من التبرج والنظر للأزواج في وقت العدة.

- قال تعالى: ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ ﴾ قال ابن التين: "تضمنت الآية أربعة أحكام: اثنان مباحان: التعريض والإكنان، واثنان ممنوعان: النكاح في العدة، والمواعدة فيها"[١]. فدلت الآية على إباحة التعريض بخطبة المعتدة من وفاة، والتعريض معنى يؤخذ من عرض الكلام، أي بطريق غير مباشر. ومن أمثلة ذلك ما علقه البخاري في صحيحه قال: "عن ابن عباس ﴿ فِيمَا عَرَّضْتُم ﴾ يقول: إني أريد التزويج، ولوددت أنه تيسر لي امرأة صالحة. وقال القاسم: يقول: إنك علي كريمة، وإني فيك لراغب، وإن الله لسائق إليك خيراً، أو نحو هذا. وقال عطاء: يعرض ولا يبوح يقول: إن لي حاجة وأبشري، وأنت بحمد الله نافقة. وتقول هي: قد أسمع ما تقول. ولا تعد شيئاً ولا يواعد وليها بغير علمها"[٢].

ودلت الآية بمفهومها على حرمة التصريح بالخطبة؛ لأن التعريض خلاف التصريح من القول كما في كتب أهل اللغة[٣].

- استدل جماعة من الفقهاء بآية إباحة التعريض للمعتدة على عدم إقامة حد القذف بالتعريض، وهو قول الحنفية والشافعية والحنابلة في رواية والظاهرية وقال به سفيان وابن شبرمة وغيرهم، وخالف في ذلك المالكية[٤].

- اتفق العلماء على أن النكاح في العدة لا يجوز بحال. فلو عقد على المعتدة فسخ الحاكم العقد،وقال

---

(١) فتح الباري لابن حجر ٩/ ١٧٩.

(٢) صحيح البخاري باب: ولا جناح عليكم فيما عرضتم به.

(٣) انظر: المصباح المنير للفيومي ٢/ ٤٠٣.

(٤) شرح فتح القدير للكمال بن الهمام ٥/ ٣١٧، والحاوي الكبير للماوردي ١١/ ١٣٠، والمغني لابن قدامة ٩/ ٨١، والمحلى لابن حزم ١١/ ٢٧٩.

مالك لا تحل له أبداً. معاملةً له بنقيض مقصوده. لكن الجمهور على خلافه[١].

- قال ابن رشد: " وأجمعوا على أن نكاح التفويض جائز، وهو أن يعقد النكاح دون صداق لقوله تعالى: ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾ "[٢].

- أقسام المطلقات أربعة:

أحدها: المطلقة المفروض لها المدخول بها، وقد ذكر الله فيما تقدم حكم هذا القسم وهو أنه لا يؤخذ منهن على الفراق شيء على سبيل الظلم وأن عدتهن ثلاثة قروء.

والقسم الثاني: ما لا يكون مفروضاً لها ولا مدخولاً بها وقد ذكره الله تعالى في قوله ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾ ، وذكر أنه ليس لها مهر، وأن لها المتعة بالمعروف.

والقسم الثالث: التي يكون مفروضاً لها، ولكن لا يكون مدخولاً بها وهي المذكورة في قوله تعالى ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ ﴾ [٢٣٧] ولا عدة عليها البتة؛ قال تعالى: ﴿ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ ﴾ [الأحزاب:٤٩].

القسم الرابع: التي تكون مدخولاً بها، ولكن لا يكون مفروضاً لها، وحكم هذا القسم مذكور في قوله: ﴿ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ [النساء:٢٤][٣].

- المهر حق خالص للمرأة لا يشاركها فيه أخ أو أب أو غيرهما.

- الظاهر وجوب المتعة لمن طلقت قبل الدخول ولم يكن فرض لها مهر. لقوله تعالى: ﴿ وَمَتِّعُوهُنَّ ﴾ والأمر يقتضي الوجوب.

---

(١) بداية المجتهد ونهاية المقتصد لابن رشد ٢/ ٣٦.

(٢) بداية المجتهد لابن رشد ٢/ ١٩.

(٣) التفسير الكبير للرازي ٦/ ١١٥ بتصرف واختصار.

- لا حد للمتعة، وإنما ترتبط بحال الزوج إعساراً ويساراً؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَـٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾.

- إذا تزوج الرجل امرأة ولم يمسها لكنه خلا بها ولم يطلقها فعند جمهور العلماء من الحنفية والحنابلة وغيرهم أن لها المهر كاملاً؛ لما روى زرارة بن أوفى: "قضى الخلفاء الراشدون المهديون: أنه من أغلق باباً، وأرخى ستراً، فقد وجب عليه المهر"[١]. وهذه قضايا اشتهرت ولم يخالفهم أحد في عصرهم فكان كالإجماع[٢]. وذهب الشافعي إلى وجوب نصف المهر اتباعاً لظاهر الآية[٣].

- دل قوله: ﴿ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴾ على تحريم الكلام عمداً في الصلاة؛ فمن فعل ذلك ذاكراً عالماً بطلت صلاته؛ ويشهد لذلك ما ورد عن زيد بن أرقم قال: "كنا نتكلم في الصلاة يكلم الرجل صاحبه وهو إلى جنبه في الصلاة حتى نزلت: ﴿ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴾ فأمرنا بالسكوت ونهينا عن الكلام[٤]. قال النووي في شرحه للحديث: "وأجمع العلماء على أن الكلام فيها عامداً عالماً بتحريمه بغير مصلحتها وبغير إنقاذها وشبهه مبطل للصلاة. وأما الكلام لمصلحتها فقال الشافعي ومالك وأبو حنيفة وأحمد رضي الله عنهم والجمهور: يبطل الصلاة، وجوزه الأوزاعي وبعض أصحاب مالك وطائفة قليلة"[٥].

- دل قوله تعالى: ﴿ وَقُومُواْ لِلَّهِ ﴾ على فرضية القيام في صلاة الفريضة ما دام المرء صحيحاً قادراً، وقال النبي ﷺ لعمران بن حصين : (صلِّ قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً)[٦].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف ٦/ ٢٨٩ برقم/ ١٠٨٧٥ والبيهقي في الكبرى برقم/ ١٤٢٦١ وقال: هذا مرسل؛ زرارة لم يدركهم، وقد رويناه عن عمر وعلي رضى الله عنهما موصولاً. السنن ٧/ ٢٥٥.

(٢) شرح منتهى الإرادات للبهوتي ٣/ ٢١.

(٣) الأم للشافعي ٧/ ٢٠.

(٤) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ١١٢٤ ومسلم في صحيحه واللفظ له برقم/ ٥٣٩.

(٥) شرح النووي على صحيح مسلم ٥/ ٢٧.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه برقم/ ١٠٦٦.

- دل قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴾ على أنه لا يجوز لمسلم تأخير الصلاة عن وقتها. ومن باب أولى لا تسقط الصلاة عن مسلم إلا إن عجز عجزاً تاماً عن أدائها بأي عضو من أعضاء جسده.

- قوله تعالى ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴾ دليل على مشروعية صلاة الخوف؛ قال ابن عمر في وصف صلاة الخوف: "..فإن كان خوف هو أشد من ذلك صلوا رجالاً، قياماً على أقدامهم، أو ركباناً مستقبلي القبلة أو غير مستقبليها. قال نافع: لا أرى عبد الله بن عمر ذكر ذلك إلا عن رسول الله ﷺ"[1]. وتفاصيل صلاة الخوف وهيئاتها مبسوط في كتب الفقه وشروح الحديث.

- للمرأة أن تعتد في بيت زوجها وتقيم سنة، وهذا حقها، وإلا فالواجب عليها أربعة أشهر وعشرة أيام عدة.

ثالثاً: الأخلاق الإسلامية والآداب الشرعية:

- دل قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ﴾ على أن الإعجاب بالكافر من حيث علمه الدنيوي أو تفوقه في عمله ومهنته لا بأس به.

- قوله: ﴿ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ ﴾،و﴿ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴾،و﴿ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ من الكنايات اللطيفة والتعريضات المستحسنة. وهذه وأشباهها في كلام الله آداب حسنة على المؤمنين أن يتعلموها ويتأدبوا بها ويتكلفوا مثلها في محاورتهم ومكاتبتهم[2].

- من الأخلاق الإسلامية التي أبرزتها الآيات: الإصلاح بين الناس، قال تعالى ﴿ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ والإصلاح بين الناس داخل في البر، لكن أفرد بالذكر لبيان أهميته.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه واللفظ له برقم/ ٤٢٦١.ومسلم في صحيحه برقم/ ٨٣٩

(٢) الكشاف للزمخشري ١/ ٢٩٤.

- نهى الإسلام عن الإضرار؛ فنهى الزوجة أن تكتم ما في رحمها لأن في ذلك مضارة للزوج. فإن ادعت أنها حائض ولم تحض فوتت حقه في الرجعة، وان ادعت العكس ألزمته النفقة وهي لا تستحقها، وكذلك لو كتمت الحمل، فنبه القرآن على تحريم الكتمان لأنه يؤدي إلى الإضرار.

- للمرأة على الرجل حقوق، كما أن للرجل على المرأة حقوقاً. فالعدالة واحترام كل طرف للآخر أساس العشرة واستمرار الحياة، والدرجة التي للرجال حض لهم على حسن العشرة والتوسع للنساء في المال والخلق كما سبق عن ابن عباس.

- دل قوله تعالى: ﴿ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ ﴾ على أن العشرة الزوجية قائمة على ما تعارف عليه الناس، وأقره الشرع من النفقة والكسوة والمعاملة الحسنة، وليس المعروف في الإمساك فقط وإنما المعروف أيضاً في التراضي بين الزوجين، والعشرة بالمعروف، والتسريح بالمعروف، ولهن وعليهن بالمعروف، والرزق والكسوة بالمعروف. وتأخذ المرأة نفقتها هي وولدها بالمعروف. وبالجملة فأمور الحياة الزوجية قائمة على المعروف الذي يعرفه كافة العقلاء ويقره الشرع.

- ندب الإسلام إلى العفو، أي إسقاط الحق، وذلك عند الطلاق بين الرجل والمرأة قبل الدخول، وجعل الله العفو أقرب للتقوى، وجاء العفو للطرفين، فالمرأة لها أن تعفو وتترك كامل المهر، والرجل له أن يعفو عن نصفه ويترك المهر كاملاً، وجاء لفظ ﴿ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ﴾ مجملاً، يعني غير واضح الدلالة، ويتردد بين معنيين[1]، وذلك لكي يحرص كل من الطرفين على العفو، حتى مع انتهاء رابطة الزوجية، وجعل هذا من الفضل وأمر به في صيغة تتوجه للاثنين معاً فقال: ﴿ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾ ولذلك قال مجاهد في تفسيرها: "إتمام الزوج الصداق، أو ترك المرأة الشطر"[2]. فحملها على الاثنين معاً، وهذا يبين أن الإحسان والفضل منهج إسلامي حتى مع الفراق.

---

(١) وهذه الآية يذكرها الأصوليون دليلاً على المجمل المركب. انظر: البحر المحيط في أصول الفقه للزركشي ٣/ ٤٧، والإحكام للآمدي ٣/ ١٣.

(٢) رواه عنه الطبري برقم/ ٥٣٦٥ وسنده صحيح.

رابعاً: الجوانب التربوية:

- يبين الله آياته للناس لكي يتذكروا، وآيات الله إما كونية مشاهدة، وإما شرعية مقروءة، وفي كليهما تذكرة للناس لمن آمن منهم وأعمل فكره واهتدى قلبه.

- محبة الله للتوابين مما يدفع العبد إلى المبادرة إلى التوبة؛ لأنه الجاني الظالم المعتدي، فيكفي بالتوبة أن يقبله ربه، لكن الكريم يحبه إذا رجع عن ذنبه!

-دل قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾ على أن أحكام الله يجب على المسلم امتثالها، وأن عليه ألا يتعدى المأمور وألا يقرب المحظور، فإن تعدى حدود الله كان من الظالمين.

- دل قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ على أن العلم أمر ضروري لمعرفة حدود الله؛ فالعالم يعرف حدود يفهمها ويسعى في تطبيقها، أما الجاهل فإنه لا يضبط ولا يحفظ فيكون ذلك أدعى إلى الترك.

- من الأمور الخطيرة: اتخاذ آيات الله هزواً. والنهي عن ذلك عام لا يختص بأمور الطلاق وحسب، قال أبو جعفر النحاس: "لأنه يقال لمن سخر من آيات الله: اتخذوها هزواً ويقال ذلك لمن كفر بها، ويقال ذلك لمن أطرحها ولم يأخذ بها وعمل بغيرها"[(١)].

- ما أنزله الله في كتابه إنما هو لوعظ العباد وتذكيرهم بما يجب عليهم، وآيات الأحكام موعظة للمؤمنين؛ يتعظون بما فيها فيستجيبون لأمر الله، قال تعالى ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ﴾.

- في اقتران التقوى بأمور الطلاق حكمة بالغة؛ ذلك أن النفوس تكون لينة سخية، فإذا حدث الطلاق أحضرت الأنفس الشح، وضنَّ كل امرئ بما عنده، وأنكر الرجل حق زوجه، وكفرت المرأة بعشرة زوجها، ولن يصلح اعوجاج النفوس إلا الاستقامة على منهج الله، وتقواه حق تقاه.

---

(١) معاني القرآن للنحاس ١/ ٢١١.

- لا ينتفع بأحكام الله ولا بوعده ووعيده إلا من أصلح قلبه، ولا يكون ذلك إلا بالإيمان بالله واليوم الآخر.

- أحكام الله كلها أزكى وأطهر.

- يعلمنا القرآن أن نتشاور في كل أمورنا؛ فالتشاور بين الزوجين شرط لحصول الفطام، والتشاور كذلك يكون في كبار الأمور وصغارها. ولأهمية الشورى سميت سورة في القرآن بهذا الاسم، وقرنها الله بالصلاة والإنفاق فقال: ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الشورى/ ٣٨] وهذا أوضح دليل على أهميتها سواء في الأسرة التي هي المجتمع الصغير، أو في المجتمع الكبير في أموره العامة. وسيرة الرسول ﷺ خير مثال لتطبيق مبدأ الشورى في كل الأمور.

- المحافظة على الصلوات مما يعين المرء على تلقي أحكام الله بالقبول والتسليم.

- الإسلام دين لا يثقل على أهله، فإذا حدث لأحدهم عذر لا يستطيع معه أداء الصلاة كما يجب فله أن يصليها بأي كيفية تتيسر له.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة:

- تمضي السورة في محورها الثاني مرتبة المعالم التي يتكون بها الإصلاح وينتفي بها الإفساد. وقد تحدثت المقاطع السابقة في هذا المحور عن الدائرة الأولى للإصلاح وهي دائرة الفرد، واستفاضت في بيان ما يصلح المرء ويجعله من أهل التقوى، وذلك بالصيام والامتثال، وها قد جاء مجال التقوى ليظهر أثرها في العلاقات الإنسانية، وأي علاقة أسمى من علاقة الزوجية؟

وبعد دائرة الإصلاح الفردي جاءت دائرة إصلاح الأسرة التي تمثل المجتمع الصغير، والأسرة في الإسلام تمثل ركيزة أساسية للصلاح والإصلاح، وقد اهتم القرآن بشان الأسرة اهتماماً بالغاً، وأعلى من قدرها، وها هي سورة التشريعات والأحكام التي نزلت في بداية تكوين الدولة في المدينة تهتم بتفاصيل إقامة الأسرة وتضع الضوابط الصارمة لإصلاح البيوت.

وقد ذكر في المقطع السابق حفظ العقل بالبعد عن الخمر، وفي المقطع الذي قبله حفظ الدين بالعبادات، وجاء هذا المقطع ليتحدث عن حفظ النسل.

وابتدأت الآيات ببيان أمور الزوجية، وأولها اختيار الزوجة؛ فلابد أن تكون مؤمنة، ثم انتقل إلى الخطوة التي تليها وهي ما يحدث بعد الزواج من أمور المعاشرة، وما يحل منها وما يحرم وقرنت ذلك بتقوى الله والتذكير بلقياه.

ثم تحدثت الآيات عن الأيمان وأخذت من ذلك مدخلاً إلى الحديث عن يمين الإيلاء ثم تفصيل أحوال الطلاق والعدة والرجعة والرضاع ثم اختتمت بأحكام المتوفي عنها زوجها فهي نهاية الأمر.

وكل هذه الأحكام موصولة بتقوى الله من أولها لآخرها، وتهدف إلى الإصلاح وتشترطه لعودة الحياة بين الزوجين، وهذا مرتبط بخط السورة العام الذي يهدف لإصلاح الدنيا بالمسلمين.

والمتدبر في آيات هذا المقطع يلحظ أمراً عجيباً؛ فكل فواصله تقريباً أما أن تكون وصفاً للعلي الحكيم باسمين من أسمائه؛ فهو العزيز الحكيم، السميع العليم، الغفور الرحيم، الغفور الحليم، الخبير، البصير،.. أو تكون وصفاً وتذكيرا للمؤمنين بمعاني التقوى والإيمان الإحسان والتذكر والتفكر والتطهر والعلم والإحسان والقنوت. وهذا يعني ارتباط الأحكام بالإيمان وارتباط التشريع بالعقيدة ارتباطاً محكماً لا ينفصم بحال[1].

---

(١) ذهب بعض العلماء المعاصرين إلى أن محوري سورة البقرة هما العقيدة والشريعة، والقسم الأول من آية ٢١-١٦٧ والقسم الثاني ١٦٨-٢٨٣، ثم قال: فكانت الدعوة إلى الجانب الأول للناس كافة في مستهل آيات القسم الأول العقدي. وكانت الدعوة إلى الجانب الآخر للناس كافة في مستهل آيات القسم الثاني التشريعي.

ثم توالت التشريعات ؛ ليحقق الأمن من طيب المطعم وأحكام الصيام والجهاد والحج والإنفاق والقتال في الأشهر الحرم ا والخمر والميسر ا وأحكام الأسرة ا وأحكام المعاملات المالية من صدقة وربا وقرض ورهن ا فختم آيات هذا القسم بأطول آية : (آية المداينة) ا فآية الرهن ؛ مؤكداً الدعوة إلى الأمانة والقيام بحق الشهادة. منهج البحث البياني عن المعنى القرآني للدكتور محمود توفيق سعد ص ١٣٧ وما بعدها.

المقطع الرابع: قصص الإحياء والإماتة الحسية والمعنوية والعبرة منها

الآيات (٢٤٣-٢٦٠)

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ

ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾

المناسبة بين المقطع والمقطع السابق:

- بعد أن استفاضت الآيات في الحديث عن إصلاح المجتمع الصغير انتقلت الآيات إلى الحديث عن إصلاح المجتمع الأكبر، وإصلاح الدنيا، بالترغيب في الجهاد بالنفس والمال، وجاء المقطع بأسلوب قصصي في مجمله وجاء هذا القصص بعد آيات الأحكام تلوينا في الخطاب وتنويعاً في الأسلوب القرآني؛ وفي هذا من تجديد نشاط القارئ والسامع ما فيه.

قال الرازي: «اعلم أن عادته تعالى في القرآن أن يذكر بعد بيان الأحكام القصص ليفيد الاعتبار للسامع، ويحمله ذلك الاعتبار على ترك التمرد والعناد، ومزيد الخضوع والانقياد فقال:﴿ ۞ أَلَمْ تَـرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ ﴾»[1].

التفسير الإجمالي للمقطع:

ذكر الله قصة موجزة تكون مقدمة بين يدي الأمر بالجهاد والإنفاق لتبين للناس أن الله تعالى هو المحيي المميت فلا يجبن إنسان أو يخاف.

وتبدأ القصة بهذا الاستفهام الذي يفيد معنى التعجب والتقرير، والرؤية بمعنى العلم، والمعنى: ألم ينته إلى علم السامع أو الرسول ﷺ حال أولئك القوم الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف مؤلفة وما خرجوا إلا خوفاً من الموت الذي سيلاقيهم، ولهذا كان عاقبة أمرهم أن قال لهم الله موتوا فماتوا ثم أحياهم.

ولم يرد دليل صحيح يبين لنا حال هؤلاء القوم، ولا سبب خروجهم لكن الظاهر أنهم كانوا أكثر من عشرة آلاف، وأنهم فروا خوفاً من قتال الأعداء لهم، وللمفسرين أقوال عديدة في وصف هؤلاء القوم وعددهم قال ابن عطية ـ بعد أن ذكر بعضاً من هذه الأقوال: ـ " وهذا القصص كله لين الأسانيد؛ وإنما اللازم من الآية أن الله تعالى أخبر نبيه محمداً أخباراً في عبارة التنبيه والتوقيف عن قوم من البشر خرجوا من ديارهم فراراً من الموت فأماتهم الله تعالى ثم

---

(١) انظر مفاتيح الغيب للرازي ج٦، ص١٦١.

أحياهم ليروا هم وكل من خلف بعدهم أن الإماتة إنما هي بيد الله لا بيد غيره، فلا معنى لخوف خائف ولا لاغترار مغتر"[١].

وجمهور المفسرين على أن الموت هنا على حقيقته، وذكر أبو حيان قولاً آخر فقال: « وقيل: معنى إماتتهم تذليلهم تذليلاً يجري مجرى الموت،فلم تغن عن كثرتهم وتظاهرهم من الله شيئاً، ثم أعانهم وخلصهم ليعرفوا قدرة الله في أنه يذل من يشاء ويعز من يشاء»[٢]واعتمد هذا القول في تفسير المنار فقال: « فمعنى موت أولئك القوم هو أن العدو نكل بهم فأفنى قوتهم، وأزال استقلالهم، حتى صارت لا تعد أمة، بأن تفرق شملها، وذهبت جامعتها، فكان من بقي من أفرادها خاضعين للغالبين ضائعين فيهم، مدغمين في غمارهم، لا وجود لهم في أنفسهم وإنما وجودهم تابع لوجود غيرهم، ومعنى حياتهم هو عود الاستقلال إليهم»[٣].

وعلى هذا القول يحتمل أن تكون هذه القصة إجمال للقصة التي أتت بعدها، كما جاء في قصة أهل الكهف؛ حيث أجملت قصة أهل الكهف في الآيات (٩-١١) من سورة الكهف، ثم جاء تفصيل القصة في الآيات (١٢-٢١).

والقول بأن القصتين في حادثة واحدة قد سبق به عبد الله بن عباس؛ حيث روى عنه الطبري قوله ﴿ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ﴾، فراراً من عدوهم، حتى ذاقوا الموت الذي فروا منه. فأمرهم فرجعوا، وأمرهم أن يقاتلوا في سبيل الله، وهم الذين قالوا لنبيهم ﴿ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[٤].

ثم ختمت الآية ببيان أن الله تعالى صاحب فضل كبير على الناس جميعاً ولكن أكثرهم لا

(١) لتفسير الكبير للرازي ٦/ ١٣٧. والظاهر عدم اطراد هذه القاعدة؛ فقد جاءت آيات الأحكام في سورة النساء ولم تأت بعدها قصص.

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية ١/ ٣٢٨.

(٣) البحر المحيط لأبي حيان ٢/ ٢٦٠ .

(٤) تفسير القرآن الحكيم لرشيد رضا ٢/ ٤٥٨ .

يشكرون هذه النعم.

ثم وجه الله الخطاب للمؤمنين أن يقاتلوا في دين الله لا في طاعة الشيطان ولا يكونوا كالذين فروا من الموت فلم ينجهم فرارهم منه، وليعلموا أن الله سميع لأقوال الجبناء الذين يخافون من القتال عليم بما جنته صدورهم من النفاق وقلة الشكر.

ولارتباط الجهاد بالإنفاق جاء الأمر بالإنفاق بعد الأمر بالجهاد، قال السعدي: «ولما كان القتال في سبيل الله لا يتم إلا بالنفقة وبذل الأموال في ذلك، أمر تعالى بالإنفاق في سبيله ورغب فيه، وسماه قرضاً»[1]. وجاءت الآية بأسلوب الاستفهام الذي يفيد الحض على الفعل؛ فمن هذا المؤمن القوي في دينه الذي يبذل ماله للجهاد في سبيل الله ولغيره من أبواب البر، فيضاعفه الله له أضعافاً مضاعفة؟

قال القرطبي: «واستدعاء القرض في هذه الآية إنما هو تأنيس وتقريب للناس بما يفهمونه، والله هو الغني الحميد، ولكنه تعالى شبه عطاء المؤمن في الدنيا بما يرجو ثوابه في الآخرة بالقرض كما شبه إعطاء النفوس والأموال في أخذ الجنة بالبيع والشراء»[2]. والقرض الحسن هو المال الحلال الذي تصحبه النية الصادقة، والله سبحانه وتعالى بيده الإعطاء والمنع يضيق على ما يشاء ويوسع على من يشاء حسبما تقتضي الحكمة والمصلحة فلينفق المرء حتى لا ينقطع عنه عطاء ربه، والكل راجع إليه سبحانه.

ثم جاءت قصة طالوت وجالوت بعد الأمر بالقتال، لتبين نموذجاً عملياً لمن أخرجوا من ديارهم وكتب عليهم القتال وذلك لينفع به المسلمون الأوائل، ومن أتى بعدهم.

وتبدأ الآيات بنفس صيغة الاستفهام المنفي لتبين لكل من يتأتى له الخطاب حال هؤلاء الملأ من الأشراف والزعماء الذين يملؤون الأعين مهابة وجلالاً، وقد كانوا من بني إسرائيل

---

(١) جامع البيان للطبري برقم/ ٥٦١٦.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لعبد الرحمن بن سعدي/ ١٠٦

وهذا تذكير لهم بأصل طيب لم يقدروه قدره، وقد كان هؤلاء القوم بعد موسى عليه السلام بزمن طويل، بعد أن استقروا في فلسطين ومر عليهم عهد القضاة، ثم جاء ما يعرف في التاريخ بعصر الملوك، وقد ابتدأ من حوالي (١٠٢٠) قبل الميلاد[١].

ونبيهم: شمويل على الراجح، ولم يذكر القرآن اسمه لعدم وجود فائدة في ذكره، فيكفي أنه نبي ليطيعوه ولا يخالفوه. وقد توجه هؤلاء القوم إلى النبي قائلين: عيِّن لنا ملكاً نقاتل من ورائه، قتالاً في سبيل الله وابتغاء مرضاته!

وكأن هذا النبي الكريم يتوقع ما يكون منهم بعد ذلك، فقال مستفهماً: هل قاربتم إن كتب عليكم القتال ووجب أن لا تقاتلوا عدوكم كما هو المظنون منكم ؟ والاستفهام تقريري، يقرر أن المتوقع حاصل، وذلك معلوم من سيرتهم مع أسلافه من الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه.

فرد القوم عليه مؤكدين عزمهم على القتال وحرصهم على البذل فقالوا: وأي شيء يحول بيننا وبين القتال؟[٢] وكرروا نفس الجملة السابقة: ﴿نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾لزيادة التقرير، ولبيان أنهم خرجوا في سبيل الله.

ثم بينوا علة حرصهم على القتال واستماتتهم في تطلبه وهو أنهم قد أخرجوا من ديارهم التي نشؤوا ودرجوا فيها. وتركوا فلذات أكبادهم نهبة للمحتلين الذين استلبوا ديارهم واستباحوا بيضتهم.

ويحدثنا التاريخ أن العمالقة في هذا الوقت قد استولوا على بيت المقدس وطردوهم منها، وأسروا كثيراً منهم، وعلى هذا يكون قولهم ﴿وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا﴾ من باب العام الذين أريد به الخصوص.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٤/ ٢٢٣ .

(٢) انظر: تاريخ ابن خلدون ٢/ ١٠١، والجواهر الحسان للثعالبي ١/ ١٩١، وموضع الآية في غالب كتب التفسير.



وبعد أن طلبوا القتال نكصوا وتولوا إلا قليلاً منهم، بعد أن رأوا الجيوش الجرارة ولم يثبت إلا القليل ويحتمل أن يكونوا قد تولوا من بداية الأمر بمجرد أن نزل التكليف، والله تعالى عليم بمن ظلم نفسه وأمته بترك الجهاد، وبنقض العهد بعد الإبرام مع الله.

أرسل الله تعالى إليهم ملكاً إما بطلب ودعاء من النبي أو بمحض تفضل وابتلاء إلهي، وأبلغهم النبي بهذا قائلاً: إن الله أرسل لكم طالوت ليقودكم إلى القتال في سبيله. وفي هذا حمل لهم على الامتثال ببيان أن الله تعالى هو الذي كلف طالوت بذلك.

ولكن سرعان ما انكشفت سرائرهم فبادروا معترضين متعجبين : كيف يتولى المُلك ونحن أولى به وأجدر، وبخاصة أنه لا مال له؟!

قال المفسرون: كانت النبوة في سبط لاوي، والملك في سبط يهودا، وكان طالوت من سبط بنيامين، فليس من بيت الملك ولا النبوة.

ولكن النبي رد عليهم دعواهم بعدة أمور:ـ

أولها: أن الله جعله من الصفوة عليكم وهو سبحانه أعلم بما يصلحكم.

والأمر الثاني: أنه تعالى أعطاه وفوراً في العلم، قال الزمخشري: «والظاهر أن المراد بالعلم المعرفة بما طلبوه لأجله من أمر الحرب»[1] وذلك لكي يستطيع تدبير أمور الحرب وإحكامها، ووهبه أيضاً قوة بدنية تيسِّر له مكابدة الأعداء والثبات عند الشدة، وقدم العلم على قوة البدن لأن أثره أعظم.

وثالثاً: ليس لاعتراضكم أي وجه، فهذا محض فضل من الله يؤتيه من يشاء من عباده؛ فهو له الحجة البالغة والحكمة النافذة.

ورابعاً: أنه تعالى ذو السعة يبسط على من يشاء من عباده، وهو عليم بالذي يصلح شؤونهم.

---

(١) انظر: الدر المنثور ١/ ٧٥١.



ولأنهم قوم اعتادوا اللجاجة والاعتماد على الحس وعدم التسليم الفوري كما سبق في أكثر من موضع بالسورة فقد طلبوا آية تدلهم على ملك طالوت[1]. فقال لهم نبيهم إن هذه الآية هي أن تأتيكم كرامة لهذا القائد من ثلاثة وجوه:

أولها: أن يأتيكم الصندوق والظاهر أنه كان معروفاً لديهم، وكان عندهم وأخذه منهم العمالقة وقد ذكرت تفاصيل عودته إليهم بدون قتال في بعض أسفار التوراة[2].

وثانياً: أن هذا التابوت فيه أمران: سكينة أي رحمة[3] تسكن بها نفوسكم من الاضطراب والقلق. وفيه أيضاً: بعض ما ترك لكم موسى وهارون أو أتباعهما وعصبتهما ومن ذلك ألواح التوراة، وبعض آثار الأنبياء. قال ابن عطية: «والصحيح أن التابوت كانت فيه أشياء فاضلة من بقايا الأنبياء وآثارهم، فكانت النفوس تسكن إلى ذلك وتأنس به وتقوى»[4].

ثالثها: أن يأتي هذا التابوت بكيفية غير مألوفة لديكم؛ فإنه سيأتي تحمله الملائكة وهذا تعظيم له. وفي كل هذا علامة لكم على اصطفاء طالوت إن كنتم مؤمنين بما تقوم به الحجة عليكم وإن كنتم على ثقة من وعد الله لكم.

ثم تنقلنا الآيات إلى مشهد خروج القوم مع قائدهم طالوت، وعلى عادة القرآن في الإيجاز وإضمار مما يمكن تقديره ابتدأت الآية بالحديث عن خروجه بالجنود ثقة بأن السامع يعلم أن التابوت أتاهم وأذعنوا لملكهم بالقيادة واستعدوا للخروج.

انقطع طالوت من بلد بجنوده، قال المفسرون: كان عددهم سبعين ألف مقاتل وقيل:

---

(١) الكشاف للزمخشري ١/ ٣٢٠.

(٢) وهذا يحمل في طياته عدم تصديق النبي فيما أبلغهم عن ربه، وهذا أشبه بأخلاق بني إسرائيل مع أنبيائهم. انظر: البحر المحيط لأبي حيان ٢/ ٢٧٠.

(٣) في سفر صموئيل الأول إصحاح ٤ أرقام ٦ وما بعدها.

(٤) رواه ابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم ٢/ ٤٦٩، برقم/ ٢٤٨١عن عبد الله بن عباس بسند حسن.

كانوا ثمانين ألفاً. وقيل غير ذلك.[١] وبينما هم في مسيرهم إذ به يبلغهم بهذا الاختبار الشديد الذي سيتعرضون له وهم على حال شديد من العطش، وإخباره هذا إما أن يكون بإلهام من الله له أو بوحي من الله إلى نبيهم ثم إبلاغه به.

وكان هذا الاختبار أنهم سيتعرضون لنهر، هو نهر الأردن، وعليهم ألا يشربوا منه؛ فمن شرب منه فلن يتبعه في الحرب ولن يكون من أهل طاعته أما من لم يطعمه أي: لم يذقه فسيكون من أتباعه[٢]، وقد استثنى من الجملة الأولى من أخذ بيده غرفة واحدة تروي عطشه.

وهذا اختبار شديد على النفوس، لكنه مفيد ليظهر للقائد قوة جنده ومدى صبرهم على شهوات نفوسهم ، فمن قدر عليها كان على العدو أقدر. كان لابد من هذا البلاء قبل أن يخوضوا هذه الحرب الشديدة مع قوم هم أكثر منهم عدة وعدداً، وأيضاً ليظهر مدى طاعتهم لقائدهم قبل دخول ساحة الوغى.

ماذا كان حال القوم مع هذا الاختبار ؟ لقد تهاووا سريعاً، وفي التعبير بالفاء بيان لسرعة السقوط وإجابة داعي الهوى، ولم ينج من هذا البلاء إلا قليل.

خرج هذا القليل مع قائدهم وفور أن تجاوزوا النهر ورأوا قوة عدوهم انخذل ضعفاء الإيمان وقالوا: لا قوة لنا اليوم على محاربة جالوت وجنوده الذين منه[٣].

---

(١) المحرر الوجيز لابن عطية ١/ ٣٣٣.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ٦٦٨، ومعالم التنزيل للبغوي ١/ ٢٣٠.

(٣) وفي سر التعبير بـ(يطعمه) قال الرازي: إن الإنسان إذا عطش جداً ، ثم شرب الماء وأراد وصف ذلك الماء بالطيب واللذة قال: إن هذا الماء كأنه عسل فيصفه بالطعوم اللذيذة، فمعناه أنه وإن بلغ به العطش إلى حيث يكون ذلك الماء في فمه كالموصوف بهذه الطعوم الطيبة فإنه يجب عليه أن لا يشربه وأيضاً: أن من جعل الماء في فمه وتمضمض به ثم أخرجه من الفم ، فإنه يصدق عليه أنه طعمه ، ولا يصدق عليه أنه شربه، فلو قال: ومن لم يشربه فإنه مني كان المنع مقصوراً على الشرب، ولما قال: (وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ) كان المنع حاصلاً في الشرب وفي المضمضة، ومعلوم أن هذا التكليف أشق. انظر: التفسير الكبير للرازي ٦/ ١٥٣.

لكن قوماً باعوا أروحهم، وهانت الدنيا عليهم فلم يبالوا بها بل كانوا على يقين بلقاء الله وحُسْن ما عنده، وعلى هذا يكون الظن اليقين، ويحتمل أن يكون على معناه ويصير المعنى: الذين يظنون أنهم سينالوا الشهادة في المعركة ويلقوا ربهم وذلك لقوة عزمهم على القتال، وصِدْق يقينهم في لقاء العدو.

قال هؤلاء المؤمنون الصادقون كلمة صارت قاعدة كلية في بابها ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ وكم تفيد معنى التكثير، والمعنى أن أمر الكثرة والقلة لا دخل له بالنصر، فكأين من قوم كانوا قليلي عدد لكنهم نصروا الله في أنفسهم فنصرهم، ولا تكون معية الخاصة بالنصر والتأييد والحفظ إلا لهؤلاء الصابرين عند البأس، وهي من تمام قولهم على الأرجح.

وقف هؤلاء المؤمنون في ساحة الوغى وقبل أن ينازلوا عدوهم توجهوا إلى ربهم بدعاء طيب قائلين: يا ربنا وسيدنا اصبب علينا صبراً من عندك يقوي قلوبنا، فإذا تحقق ذلك فاجعل أقدامنا راسخة قوية وقلوبنا ثابتة عند المنازلة حتى لا تزلَّ، وإذا تحقق ذلك فانصرنا على هؤلاء القوم الذين استحقوا الهزيمة لأنهم كفروا بك.

لقد حقق هؤلاء القوم شرط النصر وعندئذ فما أيسر النصر.

هُزِم القوم الجبارون، وظهر داود بن إيشا فقتل جالوت زعيم الجبارين، ومَنّ الله بعدها على داود فآتاه الملك بعد طالوت وأعظم منه النبوة بعد شمويل وعلمه مما يشاء سبحانه؛ فعلَّمه صنعة الحديد، قال تعالى: ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ ﴾ [الأنبياء/ ٨٠] وعلَّمه الزبور فكان يقرأه بصوت جميل، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ﴾ [سبأ/ ١٠] وعلَّمه منطق الطير كما قال سليمان: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ ﴾ [النمل/ ١٦]. وهذا العلم يشمل داود وسليمان معاً كما ذكر ذلك الطبري وغيره.[1]

(١) إنما ذهبت إلى هذا القول لأنه الأقرب إلى سياق الآيات لفظاً ومعنى؛ أما لفظاً فلأن الآية نصت على أن

ثم تذكر الآيات سنة كونية في المواجهة بين الحق والباطل وهي سنة المدافعة؛ فإن الله يدفع المؤمنين على الكافرين حتى لا تفسد الأرض ويخرب عامرها من المساجد وأماكن العبادة. وإنما ذلك كله من فضله ورحمته على عباده جميعاً.

ثم تختتم القصة بهذا التعقيب القرآني الذي يبين أن هذا القصص وغيرها مما يقصه الله على نبيه لهو القصص الحق والصدق الذي لا يشك فيه عاقل، وذلك ليعتبر به المؤمنون، وهو أيضاً دليل على نبوته عليه السلام وأنه واحد من جملة حملة مشاعل الهداية للبشر جميعاً. والله الموفق.

وبعد أن ذكر الله قصة داود وجالوت وبين الله أن نبيه محمداً من جملة هؤلاء المرسلين ذكرت الآيات أن الله أرسل الرسل لهداية الناس لكنهم اختلفوا وتفرقوا شيعاً، وكفروا ببعض النبيين مع أن الله قد أرسلهم جميعاً، وقد أخذوا جميعهم من معين واحد. فما كان لأقوامهم أن يختلفوا ويقتتلوا ويؤمنوا ببعضهم ويكفروا ببعض.

وبينت الآيات أن جماعة الرسل قد فضل الله بعضهم على بعض مع استوائهم في أصل التبليغ، قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ [الإسراء: ٥٥]

الذين جاوزا معه كانوا هم المؤمنين،ولا حاجة بنا إلى ما قاله البعض من أن الكل جاوز النهر من شرب ومن لم يشرب، وأيضاً لتتحد الضمائر في (آمنوا) و (قالوا) ولا حاجة أيضاً إلى أن نقول إن هذا قول من شربوا، قالوه وهم وراء النهر. لأنهم استبعدوا بنص كلام طالوت ولا حاجه إلى أن يعتذروا. وأما من حيث المعنى فإن ما ذكرته هو الأقرب؛ فلا يلزم أن يكون كل المؤمنين صادقين في القتال، قال تعالى: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ [الأحزاب: ٢٣] ، فإن النفس قد تتماسك ولكن إذا حضرت الصف وتراءى الجمعان فقد تجبن النفس وتضن بحياتها، وقد تولى بعض الصحابة وهم من هم، وما ذكرته هو ما ذهب إليه قتادة في تفسير الآية حيث قال: ويكون المؤمنون بعضهم أفضل جداً وعزماً من بعض، وهم مؤمنون كلهم. رواه الطبري في جامع البيان ٥/ ٣٥١ عنه بسند حسن، وممن جنح إلى هذا القول ابن عطية حيث قال: «وأكثر المفسرين على أنه إنما جاوز النهر من لم يشرب إلا غرفة، ومن لم يشرب جملة، ثم اختلفت بصائر هؤلاء فبعض كع وقليل صمم» المحرر الوجيز ١/ ٣٣٦، ونقل كلامه أبو حيان في البحر المحيط ٢/ ٢٧٦ وانظر: الجامع لأحكام القرآن٤/ ٢٤٤.

وقد بين بعض أوجه التفاضل فيما بينهم، فمنهم من كلمه الله؛ قال تعالى ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٤] ومنهم من رفعه الله درجات وهو نبينا محمد[1] ﷺ فقد رفع الله قدره، وأعلى في العالمين ذكره، ومن الدرجات ما هو في كتابه ومنها ما هو في شرعه، وما هو في أمته وغير ذلك من الخصائص الشريفة والدرجات المنيفة.

وممن فضَّل اللهُ: عيسى؛ فقد آتاه من الدلائل ما يتبين به الحق الذي معه، وقواه بجبريل روح القدس، قال أبو السعود « وإفراده عليه السلام بها ذكره لرد ما بين أهل الكتابين في شأنه عليه السلام من التفريط والإفراط»[2].

ولو شاء الله تعالى أن يجعل الهداية فطرية في نفوس العباد لكانوا في الهداية سواء قال تعالى ﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًا ﴾ [يونس: ٩٩] ولكنه خلقهم متبايني الأفكار والعقول فكان هذا سبب اختلافهم، فمنهم من آمن إيمانا صحيحاً، ومنهم من اتخذ إلهه هواه، فاختلفوا واقتتلوا من بعد موسى وعيسى، ولو شاء الله ألا يؤدي بهم الاختلاف إلى الاقتتال لفعل، ولكنه تعالى أراد ذلك لحكمة، وهو سبحانه الفعال لما يريد.

ثم عاد الحديث مرة أخرى إلى الإنفاق بأسلوب آخر فيه تهديد ووعيد، فحذر المؤمنين من أن يكون المال غاية أمرهم كما فعل السابقون الذين قيموا من بعثه الله إليهم تقييما ماديا. فجاءت الآيات تأمر المؤمنين أن ينفقوا بعض ما رزقهم الله تعالى قبل أن يأتي يوم القيامة الذي لا يمكن تدارك الفائت فيه؛ فلن ينفع فيه بيع ولا صداقة ولا شفاعة إلا بإذن منه تعالى وسيكون الكافرون بالنعم هم أهل الظلم المستحقون له، فاحذروا أن تسلكوا طريقهم، قال تعالى ﴿ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧] وقال: ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ

(١) انظر: جامع البيان للطبري١٩/ ٤٣٧ وزاد المسير لابن الجوزي ٦/ ١٥٩.

(٢) وهذا باتفاق الجميع. قال الرازي أجمعت الأمة على أن بعض الأنبياء أفضل من بعض، وعلى أن محمداً ﷺ أفضل من الكل. التفسير الكبير ٦/ ١٦٥.

فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ﴾ [إبراهيم:٣١].

وبعد أن أمر الله بالإنفاق، وحذر من يوم القيامة التي لا تنفع فيه خلة ولا شفاعة قرر هذا المعنى بوضوح تام حتى يكون الإعطاء في سبيل الله خالصاً عن عقيدة سليمة رجاء مرضاة الله تعالى، وكما بينت الآية السابقة أن يوم القيامة لن تغني فيه الشفاعة جاءت هذه الآية المباركة لتنفي الشفاعة الموهومة عند الكافرين ومن كان على شاكلتهم.

وجاء هذا التقرير في آية هي أعظم آية من كتاب الله كما ورد عن أبي بن كعب أن رسول الله ﷺ قال: يا أبا المنذر، أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: الله لا إله إلا هو الحي القيوم، قال: فضرب على صدري وقال: والله ليهنك العلم أبا المنذر[1].

فالله سبحانه هو المعبود بحق، لا رب غيره ولا معبود بحق سواه، وهو دائم الحياة لا يفنى ولا يبيد، حي لا يموت فمن أراد الحياة الحقة استمدها منه سبحانه، وهو القائم على الدوام بتدبير خلقه، وقائم على كل نفس بما كسبت، تنزه عن كل ما يعوق كمال العلم والتدبير فلا يصيبه النعاس والفتور الذي يتقدم النوم ولا ينام؛ عن أبي موسى قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات. فقال: إن الله عز وجل لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[2]، له سبحانه جميع ما في السموات والأرض خلقاً وملكاً وتدبيراً، وهو وحده المتصرف في شؤونهم، لا يجرؤ أحد منهم أن يشفع لمذنب إلا إن أذن له مولاه، قال تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ [طه/ ١٠٩].

---

(١) رواه مسلم في صحيحه برقم/ ٨١٠ ومعنى ليهنك العلم: ليكن العلم هنيئا لك، وهذا دعاء بتيسير العلم ورسوخه فيه. انظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح لملا على القاري ٥/ ١٩.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه برقم/ ١٧٩.

يعلم ما قبلهم وما بعدهم، وما كان وما سيكون من أمور الدنيا والآخرة، وما يدرك الخلق وما يجهلون، قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ [غافر/ ٧] ولا يحيطون بشيء من معلوماته إلا أن يُطلَع الله عباده على ما شاء منها بفضله وجوده وكرمه، قال تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ [الجن/ ٢٦، ٢٧] وسع علمه السموات والأرض، وقد فسر الكرسي بالعلم جماعة من السلف ورجحه الطبرى وغيره، قال ابن عطية: "والذي تقتضيه الأحاديث أن الكرسي مخلوق عظيم بين يدي العرش ، والعرش أعظم منه ، ... ، وقال أبو ذر : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت في فلاة من الأرض »[1]، وهذه الآية منبئة عن عظم مخلوقات الله تعالى، والمستفاد من ذلك عظم قدرته»[2]. ولا يثقله سبحانه حفظ هذه العوالم الضخمة بما فيها ومن فيها، وهو المتعالي بذاته عن صفات النقص، العلي علوا يليق بكماله وجلاله، العظيم المتنزه بعظمته وعزته عن الاحتياج.

وبعد هذا البيان الناصع لعقيدة المؤمنين في رب العالمين، يمضي السياق مبيناً أن هذا الدين من شأنه أن تقبله العقول السليمة بلا إكراه؛ فالإيمان الواضح والعقيدة الصحيحة تتقبلهما الفطرة المستقيمة بلا قسر أو عدم اقتناع، يقول سيد قطب: «وعندما يصل السياق بهذه الآية إلى إيضاح قواعد التصور الإيماني في أدق جوانبها ، وبيان صفة الله وعلاقة الخلق به هذا البيان المنير . . ينتقل إلى إيضاح طريق المؤمنين وهم يحملون هذا التصور؛ ويقومون بهذه الدعوة؛ وينهضون بواجب القيادة للبشرية الضالة الضائعة»[3].

وتبين الآيات أن الدين الإسلامي لا يكره أحداً على الدخول فيه؛ لأن الإيمان الذي

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في كتاب العرش١/ ١١٤ والبيهقي في الأسماء والصفات / ٢٩٠ قال الألبانى في سلسلة الأحاديث الصحيحة١/ ١٧٤: واعلم أنه لا يصح في صفة الكرسي غير هذا الحديث.

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية١/ ٣٤٢.

(٣) في ظلال القرآن لسيد قطب ١/ ٢٩٠.

يلامس القلوب وتقتنع به العقول لا يكون وليد إكراه، بل هو إذعان قلبي وانقياد بالجوارح لله رب العالمين، قال تعالى ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس/ ٩٩]، فليس في الإسلام إكراه وإنما هو محض اختيار من العبد، وعلة عدم الإكراه أن الله تعالى قد بين الصواب من الضلال، وأوضح الأدلة وأقام البراهين، وأسفر النور لكل ذي عينين، فمن كفر بعد ذلك فعليه كفره، ومن كفر بالأوثان وبكل ما يدعو إليه الشيطان من عبادة غير الله وآمن بالله إيماناً صادقاً فقد استقام أمره على الطريقة القويمة المثلى التي لا انقطاع لها، واستمسك من دينه بعروة حبل محكم لا يصيبه انحلال والله سميع لأقوال عباده عليم بما يخفون وما يعلنون، قال ابن عطية: "ولما كان الكفر بالطاغوت والإيمان بالله مما ينطق به اللسان، ويعتقده القلب، حسُنَ في الصفات ﴿ سَمِيعٌ ﴾ من أجل النطق ﴿ عَلِيمٌ ﴾ من أجل المعتقد"[1].

وقد ورد في سبب نزول هذه الآية عن ابن عباس قَالَ: «كانت المرأة من الأنصار لا يكاد يعيش لها ولد، فتحلف: لئن عاش لها ولد لتهودنه، فلما أجليت بنو النضير إذا فيهم ناس من أبناء الأنصار، فقالت الأنصار: يا رسول الله ، أبناؤنا ، فأنزل الله هذه الآية ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾[2].

وهذا أبلغ رد على من يتهم الإسلام بأنه انتشر بحدِّ السيف؛ فالدين الإسلامي لم يكره أي أحد على اعتناقه، ولم يقاتل إلا لرد الاعتداء، وتمكين الناس من معرفة الإسلام بدون تسلط حكامهم، فالقتال لإزاحة من يحولون بين الناس وبين الهداية، فإذا أزيح هؤلاء فلا يكره الناس على الدخول في الدين، وبهذا نرجح أن الآية ليست منسوخة بآيات القتال على ما ذهب إليه جمع من المفسرين[3]، فليس هناك تعارض؛ إذ القتال للتمكين للدعوة، أما إدخال الناس الإسلام

---

(١) المحرر الوجيز لأبن عطية ١/ ٣٤٤.

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه/ ١٤٠ والنسائي في السنن الكبرى/ ١١٠٤٩ وأبوداود في سننه/ ٢٦٨٢ وسنده صحيح.

(٣) انظر: الناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النحاس ٢/ ٩٩. قال القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٤٨١: وروى هذا عن ابن مسعود وكثير من المفسرين.

بالإكراه فلم يحدث مطلقاً في تاريخ الدعوة الإسلامية بخلاف الرسالات السابقة، قال سيد قطب: وكانت المسيحية - آخر الديانات قبل الإسلام - قد فرضت فرضاً بالحديد والنار ووسائل التعذيب والقمع التي زاولتها الدولة الرومانية بمجرد دخول الإمبراطور قسطنطين في المسيحية . بنفس الوحشية والقسوة التي زاولتها الدولة الرومانية من قبل ضد المسيحيين القلائل من رعاياها الذين اعتنقوا المسيحية اقتناعاً وحباً! ولم تقتصر وسائل القمع والقهر على الذين لم يدخلوا في المسيحية؛ بل إنها ظلت تتناول في ضراوة المسيحيين أنفسهم الذين لم يدخلوا في مذهب الدولة؛ وخالفوها في بعض الاعتقاد بطبيعة المسيح!».[1]

وإن من كفر بالطاغوت وآمن بالله قد تولى الله فصار الله وليّه قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ ﴾ [محمد/ ١١] وهو سبحانه يخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ويزيدهم هدى على هداهم، أما الذين كفروا فأولياؤهم الطاغوت والشياطين، وقد ختم الله على قلوبهم فخرجوا من نور الفطرة إلى ظلام الكفر وازدادوا - بسبب ضلالهم- شكاً وكفراً وحيرة ، وجاء التعبير بالمضارع ليفيد الدوام والتجدد، وهؤلاء الموصوفون بهذه الصفات هم الملازمون للنار كما يلازم الرفيق رفيقه، وأكد خلودهم وبقاءهم بأنهم فيها خالدون.

ثم تذكر الآيات مثالاً لهؤلاء الذين انحرفت فطرتهم وخرجوا من ظلمات الهداية إلى نور الغواية وهو النمروذ، وقد أتت الآيات بصيغة الاستفهام الذي يفيد التعجب من حال هذا الذي جادل إبراهيم في ربه وكان سبب مجادلته وغروره أن الله قد آتاه الملك فأورثه ذلك استكباراً وعلواً بالباطل، قال المفسرون: اسمه النمروذ بن كنعان، وقد أتى برجلين قد استحقا القتل فأمر بقتل أحدهما فيقتل، وبالعفو عن الآخر فلا يقتل. فذلك معنى الإحياء والإماتة بزعمه[2].

---

(١) في ظلال القرآن١/ ٢٩١.

(٢) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره/ ٢٦٣٤عن علي ابن أبي طالب.

وقد قصد نبي الله إبراهيم عليه السلام أن يعلمه أن الله يحيي ويميت بمعنى أنه ينشئ الحياة في جميع العوالم ويزيلها بالموت، فظن النمروذ أن معنى الإحياء والإماتة التسبب في أبقاء بعض الناس أحياء والتسبب في قتل البعض الآخر، وهذه غفلة عن المقصد.

ولما علم إبراهيم أن هذا الملك المغرور لم يفقه حجته أو تجاهل مقصده زاد حجته إيضاحاً بقوله: إن الذي يهب الحياة وينزعها بقدرته هو الذي يخرج الشمس من المشرق، فهو مكون الكائنات سبحانه، فإن كنت تزعم أيها المغرور القدرة على الخلق فغير هذا النظام الكوني وائت بالشمس من المشرق فإن الله يأت بها من المغرب، فبهت الكافر وانقطعت حجته وأزيلت شبهته[١]. وهكذا سنة الله مع من ظلم نفسه بالشرك أن الله لا يوفقه للهداية، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ ﴾ [النحل:١٠٤].

وبعد أن قص الله علينا قصة إبراهيم عليه السلام مع النمروذ عطف عليها هذه القصة التي تثبت قدرة الله تعالى على البعث بعد الموت.

والذي مر على القرية وهي خاوية على عروشها أي ساقطة على جدرانها خالية من سكانها. الذي مر هو عزير. كما هو المشهور في كتب التفسير، والقرية هي بيت المقدس بعد تخريب بختنصر لها.[٢]

عندما مر عزير على القرية هاله ما آل إليه أمرها فقال: كيف يحيي هذه الله بعد موتها؟

(١) الصحيح أن هذه الحجة مرتبطة بالحجة التي قبلها، ولم يعدل إبراهيم من محاجته في الإحياء والإماتة إلى دليل أوضح وهو إتيان الله الشمس من المشرق؛ وإنما الدليل واحد في الموضعين وهو أنا نرى حدوث أشياء لا يقدر الخلق على إحداثها فلا بد من قادر آخر يتولى إحداثها وهو الله سبحانه وتعالى، ثم إن قولنا: نرى حدوث أشياء لا يقدر الخلق على إحداثها له أمثلة منها: الإحياء، والإماتة، ومنها السحاب، والرعد، والبرق، ومنها حركة الشمس. انظر: التفسير الكبير للرازي٧/ ٢٢، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير١/ ٦٨٦ وتفسير المنار لرشيد رضا٣/ ٤٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير سابق.



فأماته الله مائة عام، ليس به حراك، وعمرت البلاد بعد سبعين سنة من موته، ورجع إليها بنو إسرائيل، ثم بعثه الله فقال له: كم لبثت؟ فظن أنه لبث يوماً أو بعض يوم؛ لأنه مات أول النهار وبعث في آخره.

فجاءه الرد عن طريق المَلَك: بل لبثت مائة عام كاملة وانظر إلى قدرة مولاك على البعث، فهذا طعامك وشرابك الذي كان معك لم يأسن ولم تغير طعمه السنون، وعادة الناس في مثله أن يفسد بعد قليل.

أما حمارك الذي كان معك فقد مات وبلى لطول المدة، لكننا سنرد هذه العظام النخرة إلى أماكنها ثم نكسوها لحماً وعصباً وجلداً وننفخ فيها الروح لكي توقن بقدرة الله على البعث ولا تتعجب من ذلك.

وعند ذلك، وبعد أن بانت له الحقيقة بالأدلة الظاهرة قال: أعلم الآن علم اليقين أن الله على كل شيء قدير.

ثم ذكرت الآيات القصة الثالثة وفيها أيضاً إثبات قدرة الله على البعث بعد الموت؛ وفيها تذكير للسامع أن يستحضر قول إبراهيم عليه السلام لربه أن يريه كيف يحيي الله النفوس الميتة، فخاطبه ربه: أولم تؤمن بقدرتي على الإحياء؟ فردَّ إبراهيم مؤكداً إيمانه، والسؤال والجواب تعليم للسامعين أن إيمان إبراهيم متحقق متيقن، ولكنه طلب أن يطمئن أي يزداد سكوناً وطمأنينة بانضمام علم المشاهدة إلى علم الاستدلال، فأراد بطمانينة القلب الوصول إلى عين اليقين بالمشاهدة، ودليل ذلك السؤال بكيف التي تفيد السؤال عن حال شيء موجود ومتحقق عند السائل والمسؤول، ولنفي أي خاطر سوء قال رسول الله ﷺ : (نحن أحق بالشك من إبراهيم)[1].

والمعنى: أنْ لو كان شك لكنَّا نحن أَحقُّ به، ونحن لا نشك، فإبراهيم عليه السلام أحرى

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ٣١٩٢، ومسلم في صحيحه برقم/ ٢٣٧٠.



ألاَّ يشكَّ ، فالحديث مبني على نفي الشكِّ عن إبراهيم.[١]

ثم قص القرآن ما حدث؛ حيث أمره ربه أن يأخذ أربعة من الطير ثم يقطعهن ويجمعهن ويضمهن إليه، ثم يجعل على كل ناحية من الجهات الأربع جزءاً، ثم يدعهن بإذن الله فإنهن يأتين سراعاً كأنهن لم يمتن، والله غالب على أمره، حكيم في فعله.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أ- القضايا العقدية:

- فضل الله يشمل جميع الناس، مؤمنهم وكافرهم، وقد جاء بصيغة تفيد عموم جميع الناس صغيرهم وكبيرهم وذكرهم وأنثاهم. قال تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ قال ابن حزم: " فهذا عموم بالخطاب بإنعام الله تعالى على كل من خلق الله تعالى وعموم لمن يشكر من الناس والكفار من جملة ما خلق الله تعالى ... فصح أن نعم الله في الدنيا على الكفار كهي على المؤمنين وربما أكثر في بعضهم في بعض الأوقات"[٢].

وفي هذا تعليم لنا ألا نطلب الفضل إلا من ذي الفضل سبحانه؛ قال يحي بن معاذ: «من طلب الفضل من غير ذي الفضل ندم؛ وإن ذا الفضل هو الله عز وجل»[٣].

- **الإرادة في كتاب الله على نوعين:**

إرادة كونية قدرية تعني المشيئة الشاملة لجميع الموجوادت؛ وذلك كقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ وقوله تعالى ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام/ ١٢٥].

والنوع الثاني: إرادة شرعية دينية مأمور بها ولا يلزم تحققها؛ وذلك كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ

(١) الجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي ١/ ٢٠٧.

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ٣/ ١٠٥.

(٣) شعب الإيمان للبيهقي ٢/ ١١١.



أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ [النساء/ ٢٧]وقوله ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة/ ١٨٥][1].

- اختلف في نبوة طالوت، وليس في القرآن نص صريح على نبوته، ولا يعده الإسرائيليون من أنبيائهم، واستدل القائلون بنبوته بأن الله أظهر المعجزة على يديه كالتابوت وما فيه. لكن يحتمل أن يكون معجزة للنبي الموجود لا لطالوت ويكون آية لإثبات ملك طالوت. أما كلامه وتبليغه عن الله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ ﴾ فيحتمل أيضا أن يكون أخبر به عن طريق النبي.

- جواز المفاضلة بين الأنبياء، وما ورد من المنع من التفضيل إنما هو من جهة النبوة التي هي خصلة واحدة لا تفاضل فيها، فالنبوة نفسها لا تتفاضل، وإنما التفاضل في زيادة الأحوال والخصائص، والمعجزات[2].

- استدل المعتزلة بقوله تعالى ﴿ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم ﴾ على أن الحرام لا يكون رزقا؛ لأن الحرام لا يجوز إنفاقهن وأمر بالأنفاق مما رزقنا، فلا يكون الحرام رزقا. لكن رد عليهم بأن ظاهر الآية عام دخله التخصيص بإنفاق الرزق الحلال فقط. وعلى هذا فالله تعالى هو وحده المنفرد بتولي الأرزاق[3].

- جواز المجادلة في أمور العقائد ؛ وسيرة الأنبياء شاهدة بهذا؛ قال تعالى على لسان قوم نوح ﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا ﴾ [هود/ ٣٢]، وقصة إبراهيم مع النمروذ شاهد لهذا، بل إن الله أمر به نبيه محمداً فقال: ﴿ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[النحل/ ١٢٥] وقد يكون مستحباً أو واجباً في بعض الأحوال.

---

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص ١١٦.

(٢) انظر: أضواء البيان للشنقيطي ١/ ١٥٧.

(٣) انظر: شرح المقاصد للتفتازاني ٢/ ١٦٢.

أما المنهي عنه فالجدال بالباطل، والجدال بغير علم، والجدال في الحق بعدما تبين، والتعصب والمكابرة.

ب- الأحكام الشرعية:

- استدل بقوله تعالى ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ ﴾ بأنه يجب على المستقرض رد القرض؛ لأن الله تعالى بين أن من أنفق في سبيل الله لا يضيع عند الله، بل يرُدُّ الثواب قطعاً، وأبهم الجزاء[(١)].

- الجهاد كما يكون بالنفس يكون بالمال. قال رسول الله: (جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم)[(٢)].

- قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا ﴾ يدل على أن الإمامة ليست وراثة لإنكار الله تعالى عليهم ما أنكروه من التمليك عليهم من ليس من أهل النبوة ولا الملك وبين أن ذلك مستحق بالعلم والقوة لا بالنسب[(٣)].

قال الرازي: «هذه الآية تدل على بطلان قول من يقول: إن الإمامة موروثة؛ وذلك لأن بني إسرائيل أنكروا أن يكون ملكهم من لا يكون من بيت المملكة، فأعلمهم الله تعالى أن هذا ساقط ، والمستحق لذلك من خصه الله تعالى بذلك وهو نظير قوله: ﴿ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ ﴾ [آل عمران:٢٦]»[(٤)].

- استنبط أبو حنيفة من قوله تعالى ﴿ وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ﴾ أن من حلف لا يشرب من دجلة فشرب منها بإناء لا يحنث حتى يكرع أي: يشرب بفمه

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٤/ ٢٢٤.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك برقم/ ٢٤٢٧ وصححه على شرط مسلم، وأبوداود في سننه برقم/ ٢٥٠٤، وأحمد ٣/ ٢٥١ وسنده صحيح. انظر التيسير للمناوي ١/ ٤٨٥.

(٣) أحكام القرآن للجصاص ٢/ ١٦٧.

(٤) التفسير الكبير للرازي ٦/ ١٤٧.



من نفس النهر إذا لم تكن له نية، فإذا نوى بإناء حنث به إجماعاً، وخالفه صاحباه ومالك والشافعي[١].

- دل قوله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ على أن الذمي إذا أكره على الدخول في الإسلام فأسلم لم يثبت له حكم الإسلام حتى يوجد منه ما يدل على إسلامه طوعاً، وإن رجع إلى دين الكفر لم يجز قتله ولا إكراهه على الدخول في الإسلام. لأنه أكره على ما لا يجوز إكراهه عليه وهذا مذهب أبي حنيفة والشافعي ومالك وأحمد وغيرهم[٢].

وهذا دليل على أهمية الحرية، حتى في أمور الاعتقاد والإيمان لا نلزم أحداً على اعتناق الإسلام إلا برغبته وإرادته الحرة بلا أي درجة من درجات الإكراه، وهذا يبين سمو الإسلام وعظمة تشريعاته في تقديرها للإرادة الإنسانية.

- إذا أخبر الإنسان عما في ظنه فإنه لا يكون كاذباً حتى لو خالف كلامه الواقع، قال الجصاص: « قول هذا القائل لم يكن كذباً، وقد أماته الله مائة عام؛ لأنه أخبر عما عنده فكأنه قال: عندي أني لبثت يوماً أو بعض يوم. ونظيره أيضاً ما حكاه الله تعالى عن أصحاب الكهف ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ ﴾[الكهف/ ١٩] وقد كانوا لبثوا ثلاثمائة وتسع سنين ولم يكونوا كاذبين فيما أخبروا عما عندهم، كأنهم قالوا عندنا في ظنوننا إنما لبثنا يوماً أو بعض يوم. ونظيره قول النبي ﷺ حين صلى ركعتين وسلم في إحدى صلاة العشي فقال له ذو اليدين: أقصرت الصلاة أم نسيت؟ فقال: لم تقصر ولم أنس[٣]. وكان ﷺ صادقاً

---

(١) شرح فتح القدير ٥/ ١٣٦. قال ابن العربي: وهذا فاسد ..لأن شرب الماء ينطلق على كل هيئة وصفة في لسان العرب من غرف باليد أو كرع بالفم انطلاقاً واحداً. أحكام القرآن١/ ٣٠٩ . ورد القرطبي كلام ابن العربي فقال: قول أبي حنيفة أصح، فإن أهل اللغة فرقوا بينهما كما فرق الكتاب والسنة. الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٢٤٢.

(٢) الحاوي الكبير للماوردي ١٠/ ٢٢٩، منح الجليل للشيخ عليش ٧/ ٨٠، المغني لابن قدامة ٩/ ٢٩، ٣٠.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه برقم/ ٦٢٨ ومسلم في صحيحه برقم / ٥٧٣ واللفظ له عن أبي هريرة.

لأنه أخبر عما عنده في ظنه وكان عنده أنه قد أتمها. فهذا كلام سائغ جائز غير ملوم عليه قائله إذا أخبر عن اعتقاده وظنه لا عن حقيقة مخبره"[١].

ج - الأخلاق الإسلامية والآداب الشرعية

- لا بد للقتال أن يكون مبرئاً من أغراض الدنيا وحظوظ النفس، ولا يكون ذلك إلا بإخلاص النية لله فيه، فمن قاتل على عصبية أو تحت راية جاهلية فمات مات ميتة جاهلية، وعن أبي موسى قال جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: الرجل يقاتل حمية ويقاتل شجاعة ويقاتل رياء ، فأي ذلك في سبيل الله؟ قال: (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، فهو في سبيل الله)[٢].

- السكينة من السكون، وهي سكون يقذفه الله في قلب عباده المؤمنين عند الهلع وشدة الخوف والاضطراب، وقد جاءت السكينة في ستة مواضع في القرآن هذا أولها[٣]، وكلها تبين فضل الله الذي ينزل برداً وطمأنينة على قلوب المؤمنين عند اشتداد المخاوف؛ كما في أمر الهجرة واختفاء الرسول ﷺ وصاحبه في الغار، ويوم الحديبية وما كان فيه من شدة على الصحابة، ويوم حنين إذ ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، فتنزل السكينة حينئذ لتصلح القلوب، وتربط عليها برباط الإيمان، ولذلك كان النبي ﷺ يسأل ربه أن ينزل السكينة عليه، والمؤمن المقتدي برسوله ﷺ يسأل ربه السكينة عند الشدائد حتى يهبها إياه.

- لعل في طلب طالوت من جنوده عدم شرب الماء تدريباً لهم على الصبر والاحتمال؛ فهم داخلون على معركة كبيرة، ولابد لهم من صبر على اللقاء؛ فمن صبر على شهوة نفسه من المطعم والمشرب صبر على ما سواها، ومن جزع فهو لما سواها أشد جزعاً، وقريب من هذا ما قال يوشع عندما أراد أن يسترد بيت المقدس؛ فقد ورد في الحديث: (غزا نبي من الأنبياء فقال لقومه: لا يتبعني رجل ملك بضع امرأة وهو يريد أن يبني بها ولّما يبن بها، ولا أحد بنى

---

(١) أحكام القرآن للجصاص ٢/ ١٧٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم/ ٧٠٢٠ ومسلم في صحيحه برقم/ ١٩٠٤.

(٣) وفي التوبة الآيات ٢٦، ٤٠، والفتح الآيات: ٤، ١٨، ٤٠.

بيوتاً ولم يرفع سقوفها، ولا أحد اشترى غنماً أو خلفات وهو ينتظر ولادها)[١]. والغرض من هذا أن يخرج معه من استعد للقتال ولم تشغله دنيا.

- الدعاء عند القتال من أعظم أبواب النصر، ولنا في حال رسول الله ﷺ في غزوة بدر أعظم مثال، وقد قص القرآن حال بعض أتباع الرسل فكان قولهم مطابقاً لأولئك النفر من صالحي بني إسرائيل. فقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ [آل عمران : ١٤٧].

- من آداب الإسلام العالية: السماحة مع المخالفين، وعدم إكراههم على دخول الدين، اتباعاً للنصوص الواردة في ذلك، ولم يعرف التاريخ الإسلامي أي اضطهاد نال هؤلاء بسبب دينهم، يقول توماس آرنولد : «لم نسمع عن أية محاولة مدبرة لإرغام غير المسلمين على قبول الإسلام أو عن أي اضطهاد منظم قصد منه استئصال الدين المسيحي »[٢].

د- الجوانب التربوية :

- القصة القرآنية جانب مهم من جوانب العظة والاعتبار، ولحكمة بالغة كان القصص القرآني حوالي ربع القرآن تقريباً؛ وما ذاك إلا لأثر القصة الفعال في توخي الرذائل والحث على الفضائل، وفي قصص هذا المقطع عبر بالغات ووصايا نافعات، تحض على جهاد اللسان بالحجة واللسان وجهاد المعتدين باليد والسنان، وتثبيت اليقين وتبشير المؤمنين.

- لا يغني حذر من قدر، ولن ينفع الفرار أهله، قال تعالى: ﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ ﴾ [الأحزاب/ ١٦].

- طلب القوم القتال، فلما كتبه الله عليهم تولوا؛ وفي هذا درس؛ وهو أن الإنسان لا يطلب القتال والنزال؛ فلربما جبن، وقد قال رسول الله ﷺ: (لا تمنوا لقاء العدو، فإذا لقيتموهم

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم/ ٢٩٥٦ ومسلم في صحيحه برقم/ ١٧٤٧ عن أبي هريرة.
(٢) الدعوة إلى الإسلام توماس آرنولد. ص ٩٩.



فاصبروا)[1]. وليس هذا الأمر مختصاً بالقتال فقط؛ بل هو عام في كل ما يلزم الإنسان نفسه به ولا يطيقهن ومن هنا كره بعض العلماء النذر.

- على القائد أو المربي أن يبين للناس عاقبة قولهم، حتى يكونوا على بصيرة من أمرهم: ﴿ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ﴾.

- سنة الابتلاء سنة كونية لتمحيص المحق من المبطل، والطيب من الخبيث؛ فقد كان عدد القوم كبيراً، ولكنهم لم يصلحوا لقتال ولا لنزال، فلما حدثت لهم التصفية، أجرى الله النصر للفئة المؤمنة بوعده حقاً.

- لا دخل للقلة والكثرة في النصر، فقد كان عدة هؤلاء القوم ثلاثمائة أو يزيدون، عن البراء قال: «كنا نتحدث أن أصحاب بدر كانوا ثلاث مئة وبضعة عشرة على عدة أصحاب طالوت الذين جازوا معه النهر وما جاز معه إلا مؤمن».[2] ولكن متى كانت الكثرة سبباً للنصر؟ لقد أرست الآيات قاعدة جليلة تنعقد حولها الخناصر، ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾.

- من سنن الله الكونية: سنة المدافعة، وهذه سنة عظيمة تحكم ناموس الكون؛ ولولا هذه المدافعة لهلك أهل الحق، ولهدمت المساجد ودور العبادة، فأهل الصلاح يدفع الله بهم أهل الفساد؛ فإن الشر لا ينحسم إلا بمدافعة، ولن تنزل الملائكة إلا للمعونة، ولن يهلك المفسدون بصاعقة تبيدهم عن آخرهم إلا في آخر الزمان عند هدم الكعبة، أما في الدنيا فلا بد من مدافعة للباطل بالحق، ودمغ للفساد بالإصلاح حتى يكون زهوقاً.

- استخلص الأستاذ الإمام محمد عبده من قصة طالوت وجالوت سنناً اجتماعية في العمران والاستقلال نوجز معظمها فيما يلي:

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم/ ٢٨٦٣ ومسلم في صحيحه برقم/ ١٧٤١ عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه برقم/ ٤٧٩٦ وقال محققه: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

١- وحدة الأمم أعظم السبل لتحقيق الاستقلال كما حدث مع بني إسرائيل.

٢-إذا جاء وقت الحرب انكشف عجز الأدعياء المدعين، ولم ينفع إلا صدق الصادقين

٣- من الأمور المهمة اختيار قائد ورئيس.

٤- الأمم في طور الجهل ترى أن الأحق بالملك أهل الثروة الواسعة والأنساب.

٥- طاعة الجند للقائد من أساسيات النصر.

٦-الإيمان بالله والتصديق بلقائه من أعظم أسباب الصبر.

٧-البقاء في الدنيا للأمثل ولولا ذلك لفسدت الأرض.

٨- مشيئته تعالى إنما تنفذ بمقتضى سننه العامة في تغيير أحوال الأمم بتغييرهم ما بأنفسهم، وفي سلب ملك الظالمين وإيراث الأرض للصالحين[1].

- الاختلاف شر، ولا يأتي لفظ الاختلاف مطلقاً في القرآن إلا ويراد به الذم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ [هود/ ١١٨] وقوله ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ﴾ [يونس/ ١٩] وقوله: ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [البقرة/ ١٧٦][2].

وقد يأتي الاختلاف في القرآن ويراد به مدح المحقين وذم المبطلين كقوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ﴾ فهذا لا يذم كل أهله وإنما يذم من كان على الباطل دون أهل الحق.

فالخلاف الديني بين أهل الحق والباطل فيه الحق والباطل، أما الاختلاف مطلقاً فهو لا يأتي إلا في معرض الذم.

---

(١) تفسير القرآن الحكيم ٢/ ٤٩٢ بتصرف واختصار كثير.

(٢) انظر: منهاج السنة النبوية لابن تيمية ٥/ ٢٥٨.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة:

إن هذا المقطع بكل قصصه ليقرر قضية مهمة، وهي قضية الحياة وقيمتها، وقضية الموت والبعث، وهذا له صلة وثيقة بأمر الجهاد؛ ذلك أن النفس إذا علمت وأيقنت أن الحياة والموت بيد الله دفعها ذلك إلى البذل والتضحية والفداء؛ لأنها تعلم أن نفسها بيد الله، يقبضها متى شاء، ويحييها متى شاء.

ولهذا فإن قصص هذا المقطع كانت تدندن حول هذا الأمر، فالقوم الأولون فروا من الموت فلقيهم، وعندما جبنوا عن القتال ما زادهم ذلك شيئاً في أعمارهم، أما المقاتلون فإنهم كانوا على ثقة ويقين من لقاء الله فقاتلوا بيقين حتى فتح الله على أيديهم.

وبعد ذلك جاء الحديث عن واهب الحياة المحيي المميت، لكي يربط قلوب العباد بخالقهم الذي يقوم بأمورهم، مما يوجب عليهم أن يكفروا بالطاغوت ويؤمنوا برب الملك والملكوت.

ثم جاءت ثلاث قصص تثبت كلها أمر البعث والإحياء بمعناه المادي والمعنوي؛ فقصة النمروذ مع إبراهيم دليل على قدرة الله على الإحياء والإماتة الحسية، وعلى قدرته كذلك على الإحياء والإماتة المعنوية، كما في سيرة الرجلين؛ فقد أبقى الله لخليله إبراهيم الثناء الحسن في الدنيا حتى إن كل الأديان لتدعي نسبتها إليه، وأمات ذكر الملك الغاشم الذي ألبس نفسه رداء ليس له بأهل.

ونحيا درس البعث والنشور مع قصة الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها، وجاء بعدها تجربة الإحياء العملية التي كانت مع إبراهيم عليه السلام.

وفي تناسب هذه القصص يقول البقاعي: «لما كان الإيمان بالبعث بل الإيقان من المقاصد العظمى في هذه السورة وانتهى إلى هذا السياق الذي هو لتثبيت دعائم القدرة على الإحياء مع تباين المناهج واختلاف الطرق فبين أولاً بالرد على الكافر ما يوجب الإيمان وبإشهاد المتعجب ما ختم الإيقان علا عن ذلك البيان في قصة الخليل صلوات الله وسلامه عليه إلى ما يثبت

الطمأنينة،.... فكان كأنه قيل : يا منكري البعث ومظهري العجب منه ومقلدي الآباء في أمره بالأخبار التي أكثرها كاذب! اسمعوا قصة أبيكم إبراهيم ﷺ التي لقاكم بها الاستدلال على البعث وجمع المتفرق وإعادة الروح بإخبار من لا يتهم بشهادة القرآن الذي أعجزكم عن الإتيان بمثل شيء منه فشهادته شهادة الله لتصيروا من ذلك على علم اليقين بل عين اليقين"[1].

وهذا كله لتقرير حقيقة البعث والإحياء، وللرد على اليهود الذين لا يقيمون للآخرة وزناً وحساباً، ولكي يوقن المؤمنون أن الله وحده هو الذي يهب الحياة للأفراد والأمم، وأن الحياة الحقيقة للأمم لن تكون إلا بالقتال في سبيله سبحانه، ولهذا جاء في ثنايا هذا المقطع الأمر بالجهاد بشقيه: جهاد المال وجهاد النفس.

وتتناغم هذه القصص مع محور السورة العام؛ الذي يتحدث في شقه الثاني عن أمة الإسلام ودورها المنوط بها لإحياء الدنيا على منهج الله.

وقد قلنا إن الأحياء والإماتة لا يقصد بها الجانب المادي فقط، وإنما يقصد بها أيضاً الجانب المعنوي الذي يمثله لنا قصة طالوت وجالوت؛ حيث أحيا الله الأمة ببركة الجهاد في سبيله، وهذا متناغم مع أمر الأمة الإسلامية بالقتال في سبيل الله؛ لتحيا بأوامر الله وتحيي بها العالم بلا إكراه في دخول الدين، بعد أن تعرض سابقوهم للموت المعنوي.

وقد أشار بعض الباحثين إلى خيط دقيق يربط أجزاء هذا المقطع مع بعضه البعض فقال: « ولو دققنا في سياق الآيات لوجدنا خيطاً رفيعاً يربط بينها جميعاً. فالسياق هو بيان قدرة الله تعالى من خلال الإحياء والإماتة اللتين زعم نمروذ أنه يقدر عليهما وأراد أن يلبس على الناس في ذلك.

فالصورة الأولى: الإحياء والإماتة في الإنسان: ﴿ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ﴾.

والصورة الثانية: الإحياء والإماتة في الحيوان ﴿ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين البقاعي ١/ ٥٠٨.



﴿لِّلنَّاسِ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾.

والصورة الثالثة: الإحياء والإماتة في الطير ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾.

والصورة الرابعة: الإحياء والإماتة في النبات ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾.

والصورة الخامسة: الإحياء والإماتة في الأعمال (الأعراض) ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾.

إذن الإحياء والإماتة من خصائص الألوهية فهو الحي القيوم، المحيي المميت، وقد عرض لنا هذه الصور الخمس للحياة والموت لهذه المخلوقات المادية والمعنوية، وهي المناسبة التي ربطت بين الآيات جميعها»[1].

أضف إلى هذا أن أول قصة في هذا المقطع وهي قصة طالوت وجالوت فيها نفس خط الإحياء والإماتة بشقيه، وبينت أن الصبر من أهم أسباب النصر، وقد جاء هذا المعنى في عدة مواطن من السورة، ووصف الله به المؤمنين في آية البر.

ومن ارتباط هذا المقطع بخط السورة العام، وهو خط الخلافة والتمكين، أن قصة طالوت وجالوت تحدثت عن الجهاد وبيان أنه الوسيلة المثلى لرفع الفساد من الأرض ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾، وهذا الفساد هو الذي تخوفت منه الملائكة حينما قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾. فلن يزاح الفساد إلا بالجهاد.

ويؤكد هذا المقطع أن الظالمين لا يستحقون الخلافة بالإمامة في الدين ولا في الدنيا، فقد

---

(١) بحث: «المناسبات وأثرها على تفسير القرآن الكريم» للدكتورين عبد الله الخطيب ومصطفى مسلم ص١١، ١٢ . منشور في : مجلة جامعة الشارقة للعلوم الشرعية والإنسانية. مجلد ٢. عدد ٢ ربيع الثاني ١٤٢٦، يونيو ٢٠٠٥م.

استبعدتهم الآيات في قصة إبراهيم: ﴿ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ ، ثم جاء المثال العملي على ذلك في قصة طالوت وجالوت ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾، ومثل هؤلاء لا يستحقوا أن يقوموا بأمر الله في دنيا الناس، ونرى كذلك أن الله قد سجل الظلم على بني إسرائيل في أكثر من موطن بالسورة.

وللعلم دوره في الخلافة البشرية في الأرض؛ فهو الأمر الذي فضل الله به آدم على الملائكة ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾، وهو سبب اختيار طالوت للملك﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾ ، وقد تكرر لفظ العلم في هذه السورة الكريمة أكثر من ستين مرة بألفاظ ودلالات متقاربة وصيغ متشابهة. ولذلك كان أول ما قاله العزير بعد أن رأى آية الله ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ، وكان العلم مما أعطاه الله داود ليتولى الخلافة في الأرض، قال تعالى ﴿ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ﴾ . والعلم بالله وصفاته مما يعين على أداء تكاليف الخلافة: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٤٤) ﴾ .

المقطع الخامس: الإنفاق. آدابه والمستحقون له (٢٦١-٢٧٤)

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًاۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم

بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًاۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ﴾

المناسبة بين المقطع والمقطع السابق:

تحدث المقطع السابق حديثاً موجزاً عن الإنفاق وحديثاً مطولاً عن الجهاد، وجاء ذكرهما معاً في قوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةًۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ ﴾ [٢٤٤، ٢٤٥]. وجاء الأمر بالإنفاق في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ﴾ [٢٥٤]

فبعد أن جاء الحديث عن الجهاد وبيان قيمة الموت والحياة بشكل تفصيلي عاد الحديث هنا مرة أخرى عن الإنفاق بشكل مفصل، فبدأ بالحض عليه ثم بين آفاته من المن والأذى وغير ذلك.

وقد سبقت الإشارة إلى ذكر المناسبة بين المقطع السابق وبين بداية هذا المقطع؛ حيث اتصل الحديث عن قضية الإحياء والإماتة في أكثر من موطن، وجاء الحديث هنا عن إحياء الصدقات ومضاعفتها بأسلوب ينبض بالحياة ويصور المضاعفة بأسلوب رقيق يستجيش في النفس مشاعر الخير، ويظلل الحدث بجو الحياة الذي سبق ذكر أمثلته المادية ليأتي هنا ذكر الحياة المعنوية والمضاعفة الحسية حتى يعلم المنفق أنه لا يعطي بل يأخذ ولا ينقص بل يزداد.

التفسير الإجمالي للمقطع:

شبه الله تعالى في هذه الآية الكريمة المنفق ونفقته بمثل من زرع حبة في أرض خصبة فأنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، وهذا على سبيل التكثير وإلا: فالله يضاعف على السبعمائة إلى ما يشاء بغير حد وذلك على قدر إيمان المنفق وإخلاصه ووقوع صدقته موقعها وحسن النفع

بها، فالله تعالى هو الواسع الذي لا ينحصر عطاؤه العليم بمن يستحق المضاعفة.

وجاءت الآية بأسلوب يستجيش العاطفة، ويستثير في النفس مشاعر فياضة من الحب والرضا، ويدفعها دفعاً إلى البذل، فنحن ما نعطي إلا لنأخذ أضعافاً مضاعفة بلا حصر ولا عد، وهذا إحياء ومضاعفة للأعمال مرتبط بجو الحياة الذي ظلّل أجواء السورة المباركة.

ثم بينت الآية بعدها أن الإنفاق في سبيل الله يشترط ألا يعقبه ذكر الصدقة على سبيل المن والإيذاء. فمن تحاشى هذين كان له من الله الأجر الجزيل والأمن إذا خاف الناس والسرور إذا حزن الناس، وهذا أعظم جزاء للمنفقين.

ولتأكيد النهي عن المن والأذى بيَّن الحق أن القول المعروف وستر حال الفقير خير من الصدقة التي يعقبها الأذى فالله غني عن صدقة المتصدقين وحليم لا يعاجل المخطئ بالعقوبة.

ثم حذر من إبطال الصدقة بالمن والأذى وضرب لذلك مثلاً محسوساً كحال من ينفق مرائياً للناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فيصير عمله مردوداً عليه فشبهه بالحجر الأملس الذي عليه تراب فنزل عليه المطر الغزير فتركة أملس فكذلك هؤلاء لا يقدرون يوم القيامة على ثواب شيء مما كسبوا والله لا يهدي الكافرين للسداد.

أما المؤمنون الذين ينفقون أموالهم طلباً لمرضاة الله وبقلب ثابت عند إخراجه غير جزع ولا هلع[1] فإن صفتهم وصفة نفقاتهم كصفة بستان في مكان مرتفع من الآفات يربو عطاؤه مضاعفاً إن نزل الوابل الكثير فإن لم يكن كثيراً فالطل القليل ينبته وكذلك المؤمن في كل أحواله من يسر أو عسر لا ينقطع خيره. والله يعلم المخلص من المرائي، وفي ذكر نوعي الوابل والطل إشارة إلى نوعي الإنفاق الكثير والقليل؛ فمن الناس من يكون إنفاقه وابلاً ومنهم من يكون إنفاقه طلاً والله لا يضيع عمل هذا ولا ذاك.

---

(١) انظر: الأمثال في القرآن لابن القيم ص ٥٠



ثم تقبّح الآيات حال من أتلف صدقته وعمله وتنفر منه بالمثال المحسوس وهو مثل صاحب جنة نخيل وأعناب فيها من كل الثمرات والمنافع، وأصابه الكبر الذي يقعده عن الكسب وله صبيان ضعفاء لا كسب لهم إلا البستان. فأحيط بثمره وأصابته ريح شديدة فيها نار فأهلكته فكذلك المرائي يفتقد عمله وهو أحوج ما يكون إليه عند عدم الناصر، ومثل هذا البيان يوضح ربنا الآيات لنتفكر فنتعظ وننزجر.

وإذا كانت الآيات السابقة قد تحدثت عن النفقة وحال المنفق فإن الآية التي معنا تحدثت عما يجب مراعاته في المال الذي ينفق من حيث صفته ونوعه فأوصت المؤمنين أن يكون إنفاقهم من كسبهم وما عملته أيديهم وكذلك مما منَّ الله به عليهم من خيرات الأرض من زروع ومعادن، ثم نهتهم أن يقصدوا الخبيث من المال للنفقة وهم لا يرضون بمثله لأنفسهم إلا أن يتساهلوا فيه تساهل من أغمض عينه فلم يبصر، والله لا يأمرنا بالصدقة إلا لنفعها لنا فهو غني عنها محمود بأوصافه وأفعاله.

وقد ورد في أسباب النزول أن الأنصار كانوا يتصدقون برديء التمر فنزلت الآية.[1]

وإذا علم المرء التضعيف الوارد للصدقة فإن النفس تهفو لها لكن الشيطان يخوف الناس بالفقر إن أنفقوا ويأمرهم بالبخل ويزينه لهم فيمسكوا، وهذان جماع ما يطلبه الشيطان من الإنسان: التخويف من فعل الخير والترغيب والتزيين لفعل الشر. والفحشاء صفة لموصوف محذوف ليفيد عموم كل خصلة فاحشة وعلى رأسها البخل. والله يعد المتصدق بالمغفرة التي تقيه الشر وبالفضل الذي يهبه الخير. فهو الواسع العطاء العليم بمن يستحق من فضله فيعطيه ومن يستحق من عدله فيمنعه.

ومن جمله العطاء المعنوي الحكمة التي يهبها من شاء من عباده فلا يلتفتوا لوعيد الشيطان،

---

(١) رواه مطولاً الحاكم في المستدرك برقم/ ٣١٢٧وصححه على شرط مسلم، والترمذي في سننه برقم/ ٢٩٨٧عن البراء، وقال الترمذي: حسن صحيح، وابن ماجه في سننه برقم/ ١٨٢٢، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة٢/ ٩٠: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات.

وأعظم بها من نعمة، والظاهر من سياق النص أن الحكمة هبة الله لأولئك الذين يتصدقون من أموالهم، يفيض الله عليهم الحكمة جزاء لهم على صنيعهم، فمن حازها فقد حاز الخير الكثير؛ لأنها تحكم العقل وتمنعه عن الخطأ، وتجعله يصيب الحق بالعلم والعمل، وما ينتفع بالتذكر إلا ذو العقول الخالصة.

وإن كل هذه النفقات سواء كانت خيراً أو شراً وكل نذر معلوم مجازي به عند الله، فمن وضع الشيء في غير موضعه فليس له من الله نصير.

ومن أبدى الصدقات فهو خير، ومن أخفاها وأعطاها الفقراء فهو خير، قال رسول الله ﷺ:(صدقة السر تطفئ غضب الرب)[1] ويكفر الله عنه من سيئاته فهو سبحانه خبير بأعمال عباده ونياتهم.

ولكل من الصدقتين موقعها؛ قال القاضي أبو بكر بن العربي: « أما صدقة الفرض فلا خلاف أن إظهارها أفضل كصلاة الفرض وسائر فرائض الشريعة؛ لأن الإنسان يحرز بها إسلامه ويعصم ماله .... وأما صدقة النفل.. فالتحقيق فيه أن الحال في الصدقة تختلف بحال المعطي لها والمعطى إياها والناس الشاهدين لها. أما المعطي فله فائدة إظهار السنة وثواب القدوة وآفتها المن والأذى، وأما المعطى إياها فإن السر أسلم له من احتقار الناس.. وأما حال الناس فالسر عندهم أفضل من العلانية»[2].

وقد خصصت الآية الإخفاء بالإيتاء للفقراء وفي هذا إشارة إلى أن الأفضل إعطاء الصدقة للفقير سراً، أما المصالح العامة فالجهر فيها أفضل للاقتداء، والله أعلم.

ولما تحرج بعض الصحابة من الصدقة على غير المؤمن نزل: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ ﴾ ،

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير برقم/ ٨٠١٤عن أبي أمامة وله طرق عدة، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ١١٥ : وإسناده حسن.

(٢) أحكام القرآن للقاضي أبو بكر بن العربي ١/ ١٣٥.

قال ابن عباس: «كانوا يكرهون أن يرضخوا لأنسابهم من المشركين فسألوا فنزلت الآية»[1].

والمعنى: ليس على النبي ولا على غيره من باب أولى أن يكلف بإجبار الناس على الهداية فالله هو الذي يوفق للهداية، وكل نفقة ينفقها المرء فإن نفعها دنيا وأخرى راجع إليه، ولا ينفق عبد نفقة إلا إذا كانت خالصة وهذا نهي جاء في صيغة الخبر، وكل ما أنفقه المرء فإنه يجزاه يوم القيامة الجزاء الأوفى فلا ينقص منه شيئاً.

ثم بينت الآية أولى الناس بالصدقة وقد وصفتهم الآية بست صفات:

أولها: أنهم فقراء. **وثانيها**: أنهم حبسوا أنفسهم عن الدنيا في سبيل مرضاة الله، قيل: هم فقراء الصفة[2]، والمعنى عام يشملهم ويشمل غيرهم ممن كان على وصفهم، **وثالثها**: أنهم لا يستطيعون السفر في الأرض لتجارة ونحوها. **ورابع صفاتهم**: أن غير العارف يظنهم أغنياء لمبالغتهم في التعفف عن السؤال، **وخامسها**: يعرفهم ذو اللب بعلاماتهم من أثر الحاجة والفاقة. **وسادسها**: أنهم لا يسألون الناس ولا يلحون أو يستعطفون. فمن أنفق عليهم فالله عليم بنفقته، لا يخفى عليه حسن النية وتحري النفع.

وبقي الحديث عن زمان النفقة فبين القرآن بأن أهل الخير ينفقون في كل وقت ليلاً كان أو نهار وعلى أي حال سراً كان أو علانية وهؤلاء أجرهم عند ربهم المتولي أمرهم فلا يخافون من المتوقع ولا يحزنون على الماضي.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك برقم/ ٣١٢٨ وصححه على شرطهما، والنسائي في الكبرى كتاب التفسير برقم/ ١١٠٥٢، والبيهقي ٤/ ١٩١. قال الهيثمي: ٦/ ٣٢٤ ورجاله ثقات. والرضخ العطية القليلة راجع: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير٢/ ٢٢٨.

(٢) فتح القدير للشوكاني١/ ٢٩٢.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أ- القضايا العقدية:

- من اختار الكفر فإن الله لا يوفقه للهداية، قال تعالى ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

-هداية التوفيق من الله وحده، قال تعالى﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾.

ب- الأحكام الشرعية:

- العمل قد يحبط ويبطل ثوابه، ويكون ذلك بالرياء في أوله، وبالمن في آخره.

- استدل الإمام مالك بقوله تعالى: ﴿ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ على كراهة إعطاء الرجل زكاته لأقاربه مباشرة، بل الأفضل عنده أن يكون ذلك عن طريق وسيط ، وجاء في المدونة: " قلت : أرأيت زكاة مالي من لا ينبغي لي أن أعطيها إياه في قول مالك ؟ قال: قال مالك: لا تعطها أحداً من أقاربك ممن تلزمك نفقته.

قال: فقلت له: فمن لا تلزمني نفقته من ذوي قرابتي وهو محتاج إليها؟ فقال : ما يعجبني أن يلي ذلك هو بالدفع إليهم، وما يعجبني لأحد أن يلي قسم صدقته لأن المحمدة تدخل فيه والثناء، وعمل السر أفضل. والذي أرى: أن ينظر إلى رجل ممن يثق به فيدفع ذلك إليه فيقسمه له، فإن رأى ذلك الرجل الذي من قرابته الذي لا يلزمه نفقته هو أهل لها أعطاه كما يعطي غيره من غير أن يأمره بشيء من ذلك، ولكن يكون الرجل الذي دفع إليه ليفرق هو الناظر في ذلك على وجه الاجتهاد"[1].

وهذا نظر دقيق من الإمام مالك يرحمه الله؛ فقد فهم من الآية أن المعطي يجب أن يكون حذراً من أن يبطل ثواب صدقته. ولهذا فإن أعطى أقاربه فلا يكون الإعطاء منه مباشرة حتى لا يعود إليه جزاء دنيوي منهم.

(١) المدونة الكبرى لمالك ٢/ ٢٩٧، ٢٩٨.

- دل قوله تعالى: ﴿ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ ﴾ على وجوب زكاة عروض التجارة، وتشمل كل ما يباع ويشترى للتجارة والكسب من عقار أو منقول، والزكاة واجبة في كل أنواع التجارة طالما بلغت نصاباً. قال ابن المنذر: "وأجمعوا على أن في العروض التي تدار للتجارة الزكاة إذا حال عليها الحول"[١].

- قوله تعالى ﴿ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ ﴾ دليل لما ذهب إليه الأحناف في زكاة الزروع والثمار؛ حيث ذهب أبو حنيفة رحمه الله إلى وجوب الزكاة في كل ما أخرجت الأرض في كل مزروع ومغروس من الفواكه والبقول والحبوب والخضر. وهذا هو الصواب والله أعلم، لعموم الآية وعموم قوله ﷺ :(فيما سقت السماء والعيون العشر)[٢] قال ابن العربي معلقاً على قوله تعالى ﴿ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦ ﴾ [الأنعام/ ١٤١]: "وأبو حنيفة جعل الآية مرآته فأبصر الحق"[٣].

- وفي الآية دليل على زكاة المعدن والركاز، فهو من جملة ما أخرجت الأرض. وقد اتفقوا على وجوب الزكاة في المعدن على خلاف بينهم في المعادن الواجب فيها الزكاة ومقدار الزكاة الواجبة فيها[٤].

- في سبب نزول قوله تعالى: ﴿ لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ ﴾ دليل على جواز إعطاء الكافر من صدقة التطوع، وقد ورد عن النبي: (تصدقوا على أهل الأديان)[٥]، وهذا من سماحة الإسلام الدينية؛ فليس معنى كونهم ذميين أو مشركين ألا يعطوا من أموال الصدقات. أما الزكاة

(١) الإجماع لابن المنذر ص٤٥ برقم/ ١١٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمر برقم/ ١٤١٢ ومسلم في صحيحه بنحوه برقم٩٨٠ عن جابر.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٢٨٣.

(٤) وللتفصيل راجع: بدائع الصنائع للكاساني ٢/ ٦٥، روضة الطالبين للنووي ٢/ ٢٨٢، الشرح الكبير لابن قدامة ١/ ٤٨٦، الكافي في فقه ابن حنبل لابن قدامة ١/ ٣١٢.

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف برقم/ ١٠٣٩٨ بسند رجاله ثقات لكنه مرسل عن سعيد بن جبير، وأسنده سعيد إلى عبد الله بن عباس عند ابن أبي حاتم برقم/ ٢٨٥٣ وسنده حسن.

المفروضة فلا يعطون منها ؛ قال ابن المنذر: «وأجمعوا على أن الذمي لا يعطى من زكاة الأموال شيئاً»[(١)]. وذلك لوصية النبي ﷺ لمعاذ: (.. فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم)[(٢)]. قال الأحناف: القياس أن يأخذ الذمي من مال الزكاة لدفع حاجته، ولكن تركنا القياس لحديث معاذ.

وفي صدقة الفطر خلاف؛ فأجاز أبو حنيفة وعمرو بن ميمون وعمرو بن شراحيل إعطائهم منها، وكلام القرطبي في المسألة يشعر بجواز إعطائهم منها. ومنعها الشافعي وغيره.[(٣)]

- يعتبر بالسيما والزي؛ لأنه حجة،قال الله تعالى: ﴿ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ ﴾ ﴿ يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ ﴾ [الرحمن: ١٤] كما لو اختلط الكفار يعني موتانا بموتاهم الفصل بالزي والعلامة[(٤)].

ج - الأخلاق الإسلامية والآداب الشرعية

- المن خلق ذميم يبطل ثواب الصدقة ويمحو فضلها، بالإضافة إلى العقوبة الأخروية التي تنال صاحبه؛ عن أبي ذر عن النبي ﷺ قال: (ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة المنان الذي لا يعطي شيئا إلا منّه والمنفق سلعته بالحلف الفاجر والمسبل إزاره)[(٥)].

- ويقابله قول المعروف والمغفرة وذلك بالكلمة الطيبة وهي صدقة في حد ذاتها؛ قال رسول الله ﷺ (والكلمة الطيبة صدقة)[(٦)].

---

(١) الإجماع لابن المنذر ص٤٦ برقم/ ١١٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم/ ١٣٣١ومسلم في صحيحه برقم/ ١٩. وانظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٤/ ٣٦٩.

(٣) المبسوط للسرخسي ٣/ ١١١المغني لابن قدامة ٢/ ٣٦٥.

(٤) شرح فتح القدير لابن الهمام ٦/ ١١٤، ١١٥.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه برقم/ ١٠٦.

(٦) جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه برقم/ ١٠٠٩ عن أبي هريرة.

- من أخلاق الإسلام الحسنة: إخراج الطيب، وعدم إخراج الخبيث صدقة على المساكين،؛ فإذا كان الإنسان لا يأكل طعاماً أو لا يلبس ملبساً لرداءته فأجدر به ألا يطعم الفقير منه أو يكسوه، عن عائشة قال : أتى رسول الله ﷺ بضب فلم يأكله ولم ينه عنه. قلت: يا رسول الله، أفلا نطعمه المساكين؟ قال: (لا تطعموهم مما لا تأكلون)[1]. وهذا تقدير عالٍ لنفسية الفقير ولمشاعره، فهي صدقة معنوية قبل أن تكون صدقة حسية.

- لما مدح الله الذين لا يسألون الناس إلحافاً دل ذلك على ذم من يسأل الناس إلحافاً، وقد ورد في السنة ذم الإلحاف والنهي عنه؛ فعن معاوية قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تلحفوا في المسألة فوالله لا يسألني أحد منكم شيئاً فتخرج له مسألته مني شيئاً وأنا له كاره فيبارك له فيما أعطيته)[2].

- وقد تكاثرت النصوص النبوية التي تحث على خلق التعفف وترغب فيه، وتذم المسألة، وتتوعد من اعتادها ليكثر ماله بالنار، وقد بينت السنة ضابط السؤال ومن يجوز له أن يسأل؛ فقد قال رسول اللهﷺ: (من سأل وعنده ما يغنيه فإنما يستكثر من جمر جهنم.قالوا: يا رسول الله ،وما يغنيه؟ قال ما يغديه أو يعشيه)[3].

قال الخطابي: «قد اختلف الناس في تأويله؛ فقال بعضهم: من وجد غداء يومه وعشاءه لم تحل له المسألة على ظاهر الحديث، وقال بعضهم إنما هو فيمن وجد غدائه وعشائه على دائم الأوقات فإذا كان ما يكفيه لقوته المدة الطويلة فقد حرمت عليه المسألة»[4].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٦/ ١٠٥ والبيهقي في سننه الكبرى ٩/ ٣٢٥. وقال الهيثمي: رواه أحمد وأبويعلى ورجالها رجال الصحيح. مجمع الزوائد ٤/ ٣٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه برقم/ ١٠٣٨.

(٣) خرجه ابن حبان في صحيحه برقم/ ٣٣٩٤، وأبوداود بنحوه برقم/ ١٦٢٩، وأحمد ٤/ ١٨٠ من حديث سهل بن الحنظلية، قال الهيثمي : ورجاله رجال الصحيح. مجمع الزوائد ٣/ ٩٦.

(٤) نقله العظيم آبادي في عون المعبود شرح سنن أبي داود ٥/ ٢٥.

- قوله تعالى: ﴿ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ ﴾ يعد دليلاً على الفراسة الصادقة، وقد مدح الله الفراسة الصادقة وأثنى على أهلها في كتابه الكريم فقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الحجر/ ٥٧]. وقال النبي: (إن لله عباداً يعرفون الناس بالتوسم)[١]. ومنها فراسة إيمانية ومنها فراسة تأتي بالتعلم أو بالرياضة[٢].
- أهمية الإخلاص في النفقة وفي غيرها من الأمور.

د- الجوانب التربوية:

- على المرء أن يحب للناس ما يحب لنفسه، وأن يعامل الناس بما يحب أن يعاملوه به؛ فإذا كان لا يقبل الخبيث إلا على مضض وكره فعليه في المقابل ألا يعطي الناس الخبيث، وهذا ضابط مهم على المرء أن يقيس أفعاله تجاه الناس عليه، فما يقبله لنفسه فليقبله للناس وإلا فلا، ومن التزم بهذا فإنه يكون قد حقق كمال الإيمان بمحبته لأخيه المسلم ما يحبه لنفسه وبهذا الأمر ينجو يوم القيامة؛ قال رسول الله ﷺ: (فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه)[٣].
- لفظ الضرب في الأرض يوحي بدلالة الشدة، والأخذ بقوة، وهذا له دلالة تربوية؛ فالمسلم يتحرك في الأرض وفق منهج الله بلا تكاسل أو توانٍ أو تخاذل، بل يضرب فيها بقوه.

يقول الشعراوي رحمه الله: (عليك أن تضربها حرثاً وتضربها بذراً، لا تأخذ الأمر بهوادة؛ إن الأرض مسخرة من الحق سبحانه للإنسان، يسعى فيها ويضرب فيها، ويأكل من رزق الله

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط برقم/ ٢٩٣٥ عن أنس. قال الهيثمي :إسناده حسن. مجمع الزوائد ١٠/ ٢٦٨.

(٢) وللتفصيل؛ راجع منزلة الفراسة في مدارج السالكين لابن القيم ٢/ ٤٨٢.

(٣) جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمر برقم/ ١٨٤٤.

الناتج منها»[١].

- الشيطان له مدخل في تثبيط الإنسان عن النفقة، فهو يحض الناس على البخل ويعدهم بالفقر إن هم أنفقوا، وليس الأمر قاصراً على الإنفاق فقط، بل يشمل الحض على كل شر وسوء؛ قال رسول الله: (إن للشيطان لمة بابن آدم و للملك لمة، فأما لمة الشيطان؛ فإيعاد بالشر و تكذيب بالحق، و أما لمة الملك؛ فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك؛ فليعلم أنه من الله تعالى فليحمد الله، و من وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان. ثم قرأ: (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء)[٢]. وإيعاد الشيطان قد يكون بإلقاء الخاطر في القلب، وبالوسوسة والإلقاء في السمع، وعلى المسلم أن يستعيذ بالله دوماً من شره، وأن يأخذ بأسباب الوقاية.

- قال بعض الحكماء: من أعطي العلم والقرآن ينبغي أن يعرف نفسه، ولا يتواضع لأصحاب الدنيا لأجل دنياهم؛ لأن ما أعطي أفضل مما أعطوا أصحاب الدنيا؛ لأن الله تعالى سمى الدنيا متاعاً قليلاً وقال: ﴿ قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ ﴾ [النساء/ ٧٧] ، وسمى العلم خيراً كثيراً[٣]. وذلك في قوله تعالى : ﴿ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ ﴾.

-الحكمة هبة من الله يهبها من يشاء من عباده، ونور يقذفه الله في القلب والعقل فيفهم به المرء ويدرك ويتعقل، وهي على قسمين: علمية وعملية؛ فالعلمية الإطلاع على بواطن الأمور، أما العملية فهي وضع كل شيء في موضعه، ومن أوتي الحكمة فقد منَّ الله عليه بخير كثير، والكثير من الله له قدره، ولقلة أهلها قال الفضيل بن عياض: «العلماء قليل

---

(١) تفسير الشعراوي ١٠/ ١١٩٢.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه بر قم/ ٩٩٧، والنسائي في الكبرى برقم/ ١١٠٥١، والترمذي في سننه برقم/ ٢٩٨٨. وقال: حسن غريب. وصحح إسناده مرفوعاً وموقوفاً الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على نفس الحديث عند الطبري في جامع البيان برقم ٦١٢٧.

(٣) بحر العلوم لأبي الليث السمرقندي ١/ ٢٠٤.

والحكماء كثير»(١).

- إثبات تفاضل الأعمال عند الله، فإبداء الصدقة خير ولكن إخفائها أفضل، وهكذا؛ فمن كان ذا بصيرة في دين الله أدرك فقه مراتب الأعمال، وعلم أحب الأعمال على ربه فحرص على أدائها، وحرص على فعل خير الخيرين، وهذا من الحكمة التي يؤتيها الله من شاء من عباده.

- كل من فعل معروفاً أو أنفق مالاً فإنه في الحقيقة يعطي لنفسه وينفعها؛ لأن ثواب الخير راجع إليه في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾ فأما خير الدنيا فالبركة في الرزق، والوقاية من مصارع السوء، وطهارة المال وغير ذلك،. وأما في الآخرة فالثواب العظيم والخير العميم.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة:

-هذه هي الدائرة الأخيرة من دوائر الإصلاح، وهي دائرة الإصلاح الأكبر، وارتباط النفقة بالجهاد لا يحتاج إلى بيان.

وسورة البقرة اهتمت بشرح مقاصد الإسلام وكلياته، وقد سبق بيان حفظ الدين بالعبادات وحفظ العقل وحفظ النسل وجاء هذا المقطع ليتحدث عن حفظ المال، وحفظ المال بوجهتين: الأولى تثميره وزيادته، وهذا يكون بالصدقة، والثانية: الحفاظ على أصله وهذا يكون بالبعد عن الربا الذي يمحق المال، وبالحرص على الكتابة والإشهاد. وقد تكفل هذا المقطع بالجانب الأول وتكفل المقطع اللاحق بالجانب الثاني.

وهذا المقطع مرتبط بالسورة كلها من أولها إلى آخرها؛ فقد ابتدأت السورة بوصف المتقين بأنهم ينفقون مما رزقهم الله، وجاء هذا المقطع ليفصِّل آداب الإنفاق ومستحقيه.

وجاءت واسطة العقد في السورة وهي آية البر لتتحدث عن الإنفاق ومن يستحقونه، ثم

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي ٨/ ٤٣٤.

جاء الختام التفصيلي في هذا المقطع.

وتحدث هذا المقطع عن أهل الإحسان ثم تحدث المقطع الذي يليه عن أهل الخسران واختتم بالحديث عن أهل العدل؛ فالأولون هم الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار وفي السر والعلن ابتغاء مرضات الله وطمعاً في النجاة، وهم السابقون بالخيرات بإذن الله، أما الطائفة الثانية فهم الذين ظلموا أنفسهم بأكل الربا، وختمت السورة بذكر أصحاب العدل الذين استوفوا حقهم ولم يأكلوا حق غيرهم، وبذلك يكون هذا المقطع مع ما بعده قد استوفى مراتب الناس الثلاثة في المال تصرفاً وتدبيراً.

المقطع السادس: حفظ الأموال عن الحرام وعن الإضاعة.

الآيات (٢٧٥-٢٨٣)

﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٢٧٥) يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ (٢٧٧) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ (٢٧٩) وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ (٢٨٠) وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ (٢٨١) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ (٢٨٢) ۞وَإِن كُنتُمۡ عَلَىٰ سَفَرٖ وَلَمۡ تَجِدُواْ كَاتِبٗا فَرِهَٰنٞ مَّقۡبُوضَةٞۖ فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥۗ وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ (٢٨٣)﴾

المناسبة بين المقطع والمقطع الذي قبله:

بعد أن تحدثت الآيات في المقطع السابق عن أعلى الناس وأعمالهم في الصدقات الذين يعطون بلا عوض جاء التناسب بالتضاد للحديث عن الذين يستغلون حاجة الفقير فيتعاملون معه بالربا.

ويحسن بنا أن ننقل كلام سيد قطب حول المناسبة بين المقطعين، حيث قال: «الوجه الآخر المقابل للصدقة التي عرض دستورها في الدرس الماضي . . الوجه الكالح الطالح هو الربا!

الصدقة عطاء وسماحة ، وطهارة وزكاة ، وتعاون وتكافل . . والربا شح ، وقذارة ودنس، وأثرة وفردية . .

والصدقة نزول عن المال بلا عوض ولا رد . والربا استرداد للدين ومعه زيادة حرام مقتطعة من جهد المدين أو من لحمه . من جهده إن كان قد عمل بالمال الذي استدانه فربح نتيجة لعمله هو وكده . ومن لحمه إن كان لم يربح أو خسر ، أو كان قد أخذ المال للنفقة منه على نفسه وأهله ولم يستربحه شيئاً . .

ومن ثم فهو - الربا - الوجه الآخر المقابل للصدقة . . الوجه الكالح الطالح!

لهذا عرضه السياق مباشرة بعد عرض الوجه الطيب السمح الطاهر الجميل الودود! عرضه عرضاً منفراً ، يكشف عما في عملية الربا من قبح وشناعة . ومن جفاف في القلب وشر في المجتمع ، وفساد في الأرض وهلاك للعباد .

ولم يبلغ من تفظيع أمر أراد الإسلام إبطاله من أمور الجاهلية ما بلغ من تفظيع الربا . ولا بلغ من التهديد في اللفظ والمعنى ما بلغ التهديد في أمر الربا - في هذه الآيات وفي غيرها في مواضع أخرى - ولله الحكمة البالغة»[1].

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ١/ ٣١٨

التفسير الإجمالي للمقطع:

ابتدأ الحديث عن المرابين الذين يأخذون المال بلا عوض ويأكلون الزيادة في مقابل القرض فبيَّن الحق أمرهم ونفَّر من حالهم وأوضح أنهم لا يقومون يوم القيامة من قبورهم إلى نشورهم إلا كما يقوم المتخبط المصروع من مس الشيطان له، وسبب ذلك أنهم جعلوا الربا المحرم الذي هو الزيادة في المال عند حلول أجل الدين مثل البيع الذي أحله الله لأنه لا استغلال فيه، أما الربا فقد حرمه الله لما فيه من الاستغلال لحاجة الفقير، فمن بلغه تحريم الله للربا فانتهى فوراً فله ما أخذ قبل الإسلام وأمره مفوض إلى ربه. أما من عاد لأكل الربا بعد تحريمه فقد استحق المكث الطويل في جهنم.

والربا في اللغة: مطلق الزيادة[1]، وفي اصطلاح الشرع شيئان: ربا الفضل وربا النسيئة؛ أما ربا النسيئة فهو أن يزيد في المال بسبب الأجل، وقد كان معروفاً عند العرب فكان الواحد يقرض إلى أجل، ويأخذ كل شهر مبلغاً ويبقى رأس المال كما هو، فإذا حل أجل الدين طالبه بالسداد قائلاً: إما أن تقضي أو تربي، فكان المدين يزيد في الأجل وفي المال[2].

وهذا هو ربا الجاهلية الذي يجري في غالب المصارف الآن، وقد توعد أهله بأشد العذاب، ولعن الله كل من شارك فيه، عن جابر قال: (لعن رسول الله ﷺ آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه، وقال: هم سواء)[3].

أما ربا الفضل فهو بيع مال مع زيادة أحد العوضين عن الآخر، كمن باع جرام ذهب بجرامين، وهو حرام أيضاً؛ عن عبادة بن الصامت قال: « إني سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن بيع الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبر بالبر والشعير بالشعير والتمر بالتمر والملح بالملح

---

(١) المصباح المنير للفيومي ١/ ٢١٧.

(٢) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ٧/ ٧٥.

(٣) رواه مسلم في صحيحه برقم/ ١٥٩٨.

إلا سواء بسواء عيناً بعين فمن زاد أو ازداد فقد أربى"[١].

وجمهور الفقهاء على تحريمه، وقد ورد عن ابن عمر وابن عباس جوازه لكنهما رجعا عن ذلك[٢]. وجمهور الفقهاء أيضاً على أن الحرمة غير مختصة بهذه الأصناف؛ وذلك لوجود علة التحريم فيقاس عليها.

مراحل تحريم الربا:

لقد مر تشريع الربا بعدة مراحل:

١- الموضع الأول في سورة الروم وهى مكية، قال تعالى ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [الروم/ ٣٩] قال في التفسير الوسيط: "ويبدو لنا أن المراد هنا: الربا الذي حرمه الله تعالى بعد ذلك تحريماً قاطعاً، وأن المقصود من الآية التنفير منه على سبيل التدرج ، حتى إذا جاء التحريم النهائي له ، تقبلته نفوس الناس بدون مفاجأة لهذا التحريم"[٣].

٢-الموضع الثاني: التحذير من فعال اليهود واجترائهم على المحرمات ومن أقبحها الربا، قال تعالى: ﴿ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ ﴾ [النساء١٦١][٤]، وهذا تحريم بالتلويح لا بالتصريح.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه برقم/ ١٥٨٧.

(٢) وقد روى الحاكم في المستدرك برقم/ ٢٢٨٢ أن أبا سعيد الخدري ذكره بالتحريم فقال: جزاك الله يا أبا سعيد الجنة فإنك ذكرتني أمراً كنت نسيته. استغفر الله وأتوب إليه. فكان ينهى عنه بعد ذلك أشد النهي.

(٣) التفسير الوسيط للدكتور محمد سيد طنطاوي ١١/ ٩٠.

(٤) جاء تحريم الربا في التوراة؛ ففي سفر الخروج ٢٢/ ٢٥: إن أقرضت فضة لشعبي الفقير الذي عندك فلا تكن له كالمرابي لا تضعوا عليه ربا. وفي إنجيل لوقا٦/ ٣٤، ٣٥: «وإن أقرضتم الذين ترجون أن تستردوا منهم فأي فضل لكم؟ فإن الخطاة أيضاً يقرضون الخطاة لكي يستردوا منهم المثل، بل أحبوا أعداءكم و أحسنوا وأقرضوا وأنتم لا ترجون شيئاً فيكون أجركم عظيماً». وبهذا نعلم أن الربا محرم في كل الشرائع.

٣- الموضع الثالث في سورة آل عمران؛ حيث ورد النهي عن أكل الربا الفاحش، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ﴾ [آل عمران/ ١٣٠] وذلك نهي جزئي جاء تمهيداً للتحريم الكلي.

٤- ثم جاءت هذه الآية الكريمة لتقطع كل سبيل يؤدي إلى إباحة شيء من الربا، ويشمل ذلك كل ما زاد على رأس مال المقترض[1].

حكمة تحريم الربا:

لقد حرم الله الربا تحريماً قاطعاً، والواجب أن يلتزم المؤمن بأوامر ربه ونواهيه؛ فالأصل في الأحكام الشرعية التعبد بها، ومع هذا فإن العلماء قد اجتهدوا في بيان حكمة تحريم الربا،و إظهار آثاره الاجتماعية والاقتصادية، ومن ذلك ما يلي:

١- الربا يقتضي أخذ مال الإنسان من غير مقابل، لأن من يبيع الواحد باثنين نقداً أو نسيئة فيحصل له زيادة مال من غير مقابل، ومال الإنسان متعلق حاجته وله حرمة عظيمة ، قال ﷺ: (حرمة مال الإنسان كحرمة دمه)[2] فوجب أن يكون أخذ ماله من غير عوض محرماً.

٢- أنه يمنع الناس عن الاشتغال بالمكاسب، وذلك لأن صاحب المال إذا تمكن بواسطة عقد الربا من تحصيل المال الزائد نقداً كان أو نسيئة خف عليه اكتساب وجه المعيشة، فلا يكاد يتحمل مشقة الكسب والتجارة والصناعات الشاقة، وذلك يفضي إلى انقطاع منافع الخلق، ومن المعلوم أن مصالح العالم لا تنتظم إلا بالتجارات والحرف والصناعات.

٣- أنه يفضي إلى انقطاع المعروف بين الناس من القرض؛ فلو حل الربا لكانت حاجة

---

(١) انظر: أحكام القرآن للجصاص ١/ ١٨٤. وقد استفاض في شرح هذه المراحل ومقارنتها بمراحل تحريم الخمر: العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز في مؤتمر القانون الإسلامي سنة ١٩٥١م، ونقل نبذة منه الشيخ أحمد مصطفى المراغي في تفسيره ١/ ٢٨٤،٢٨٥.

(٢) رواه الدارقطني في سننه ٣/ ٢٦، والبزار في مسنده برقم/ ١٦٩٩، وأبونعيم في الحلية ٧/ ٣٣٤وسنده حسن. انظر: تلخيص الحبير لابن حجر٣/ ٤٦.

المحتاج تحمله على أخذ الدرهم بدرهمين، فيفضي ذلك إلى انقطاع المواساة والمعروف والإحسان.

٤- أن الغالب أن المقرض يكون غنياً، والمستقرض يكون فقيراً. فالقول بتجويز عقد الربا تمكين للغني من أن يأخذ من الفقير الضعيف مالاً زائداً، وذلك غير جائز برحمة الرحيم[1].

٥- ومن آثار الربا الاجتماعية: شيوع البغضاء والأحقاد بين الناس، ونزع التراحم، وذهاب المعروف والمروءة بين الناس.

٦- ومن آثاره الاقتصادية: ارتفاع الأسعار؛ ذلك أن المنتج والتاجر يقترض بالربا فيرفع السعر لتعويض ما يدفع، وأيضاً: شيوع البطالة؛ فأصحاب الأموال يفضلون الربا عن الاستثمار، وأيضاً: التضخم، وتعطيل الطاقات البشرية، وتعطيل المال عن الدوران والعمل، وشيوع الكساد والبطالة، وإضعاف القدرة الشرائية عند الطبقة الفقيرة، ووضع مال المسلمين في أيدي الكفار، والتسبب في الأزمات الاقتصادية التي تصيب الدول، وقد حدث هذا مع دول آسيا التي كان يطلق عليها النمور الآسيوية.

ومنها أيضاً: الإسراف وإنفاق المال فيما لا يفيد، قال المراغي: «والسر في هذا أن المقترضين يسهل عليهم أخذ المال من غير بدل حاضر، ويزين لهم الشيطان إنفاقه في وجوه الكماليات التي كان يمكن الاستغناء عنها، ويغريهم بالمزيد من الاستدانة، ولا يزال يزداد ثقل الدين على كواهلهم حتى يستغرق أموالهم»[2].

وإن من آثار الربا أن الله يمحقه ويذهب بركته قال عليه السلام:(ما أحد أكثر من الربا إلا كان عاقبة أمره إلى قلة)[3]. أما الصدقات فإن الله يزيدها في الدنيا والآخرة، ومع عقوبة المحق

(١) انظر: التفسير الكبير للرازي ٧/ ٧٦، ٧٧.

(٢) تفسير المراغي للشيخ أحمد المراغي ١/ ٢٨٤.

(٣) رواه ابن ماجه برقم/ ٢٢٧٩ وأخرجه أحمد ١/ ٢٩٥ عن عبد الله بن مسعود وقال البوصيري في مصباح الزجاجة ٢/ ٢٤: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات.

الدنيوية فإن الله يبغض فاعلها الذي كفر بأنعم الله وفعل الآثام.

قال السرخسي: ذكر الله تعالى لآكل الربا خمساً من العقوبات:

إحداهما: التخبط قال الله تعالى ﴿ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾.

الثانية: المحق، قال الله تعالى﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا ﴾ والمراد الهلاك والاستئصال، وقيل ذهاب البركة والاستمتاع حتى لا ينتفع به ، ولا ولده بعده.

الثالثة: الحرب؛قال الله تعالى ﴿ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾.

الرابعة: الكفر؛ قال الله تعالى﴿ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾، وقال سبحانه بعد ذكر الربا: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ أي كفار باستحلال الربا، أثيم فاجر بأكل الربا.

الخامسة:الخلود في النار،قال تعالى:﴿ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[1].

وكعادة القرآن في المقارنة بيّن الله تعالى أن الذين صدقوا ما أخبرهم به وقبلوه وعملوا الصالحات التي تصلح نفوسهم وأقاموا الصلاة التي تصلهم بربهم وأدوا الزكاة التي بها تطهر نفوسهم لهم عند الله الأجر الذي لا ينقطع ولا يخافون من الآتي ولا يحزنون من الفائت.

وبعد المقارنة بين الجزاءين يأتي الأمر الواضح للمؤمنين بتقوى الله التي تضاد أكل الربا و الأمر بترك كل ما بقي من الربا عند الناس إن كان إيمانهم تاماً. وإلا يفعلوا فليعلموا ويوقنوا بغضب وحرب من الله رسوله في الدنيا والآخرة، ولم يأت هذا الوعيد إلا في آكلي الربا وقطاع الطريق لمحاربة الناس. وذلك لأن كليهما يفسد في الأرض ويؤذي الناس بأخذ ما معهم قهراً وقسراً. ولذلك توعد الله أهل الربا بالعقوبة الشديدة؛ قال عليه السلام: (ما ظهر في قوم الربا

(١) المبسوط للسرخسي ١٢/ ١١٠ باختصار.



والزنا إلا أحلوا بأنفسهم عقاب الله عز وجل)[1] فإن عدتم عما فعلتم فلكم ما استحققتم من أموالكم لا تظلمون الغرماء بالزيادة ولا تظلمون أنفسكم بنقص شيء من أموالكم.

وإن كان المقترض معسراً فأخروه وأمهلوه إلى وقت يسار ليتمكن من الأداء، وإن أبرأتموه من الدين فهو خير له ولكم من إمهاله وأعظم عند الله إن كنتم تعلمون ثواب ذلك قال عليه السلام:(من أنظر معسراً أو وضع عنه أظله الله في ظله)[2].

وفي وسط هذه الأحكام والعظات يأتي الأمر باتقاء وحذر يوم عظيم يرجع العباد إلى ربهم فيجازيهم على ما عملوا في الدنيا جزاء وافياً ولا ينقص من أجر أحد شيئاً، وقد ثبت أن هذه الآية هي آخر ما نزل من القرآن الكريم،

ثم تأتي بعد ذلك الآية الجامعة في كتابة الدين وحفظ الأموال وذلك بعد أن رغبت الآيات في إنفاق المال لله ثم في ترك المال الحرام لله ثم رغبت في تأخير المطالبة بالمال للمعْسر تحدثت هذه الآية المباركة عن حفظ المال حتى لا يظن ظان أن الإسلام يجعل أهله يفرطون في حفظ أموالهم.

ابتدأت الآية بالنداء المحبب إلى النفوس المؤمنة؛ يا من تحليتم بحلية الإيمان إذا داين بعضكم بعضاً إلى وقت محدد فاكتبوا هذه المعاملة وليكتبها فيكم كاتب أمين عادل ولا يمتنع الكاتب أن يكتب إحسانا للناس كما أحسن الله إليه وعلمه؛ فيكتب وليملِ الذي عليه الدين حتى يكون إملاؤه حجة عليه، وعليه أن يتقي ربه فيما يملي وألا ينقص مما عليه شيئاً. فإن كان المدين لا يحسن التصرف في ماله أو ضعيفاً لصغر أو هرم أو عاجزاً عن الإملاء لجهل أو خرس فعلى ولي أمره أن يتولى الإملاء بالحق والعدل.

وظاهر هذه التأكيدات الكثيرة يفيد وجوب كتابة الدين، وهو قول الضحاك وابن جريج

---

(١) رواه أحمد في مسنده ١/ ٤٠٢ وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: ٤/ ١١٨ بسند جيد.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب: الزهد والرقائق باب حديث جابر الطويل وقصة أبي اليسر ٨/ ٢٣١.



والحسن والشعبي وغيرهم، ورجحه الطبري وغيره[١]، ومما يشهد له قوله ﷺ :(ثلاثة يدعون فلا يستجاب لهم: رجل كانت تحته امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها ورجل كان له على رجل مال فلم يشهد عليه ورجل آتى سفيهاً ماله وقد قال الله عز وجل: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ﴾ [النساء:٥][٢].

وبعد البيان الوافي عن الكتابة انتقل الحديث إلى الإشهاد، فأمر الله أن يطلب شاهدين مسلمين من الذكور فإن لم يتيسر رجلان فرجل وامرأتان، من المرضيين في الخلق والدين، والعلة في أن المرأتين تقومان مقام الرجل هي قلة ضبط المرأة وكثرة نسيانها لأمور البيع والشراء لأنها لا تعلق لها بذلك[٣] فتقوم إحداهما بتذكير الأخرى، ثم نهى الله الشهود عن الإباء عن الشهادة متى دعوا إليها، ونهى عن التضجر من كتابه الدين إلى وقته المحدد له سواء كان الدين صغيراً أو كبيراً فهذا أعدل في علم الله وأعون على إقامة الشهادة وأقرب إلى زوال الشك والريبة، وتلك فوائد ثلاث لكتابة الديون.

ثم استثنى الله من ذلك التجارة التي يجري فيها التداول والتقابض في المجلس ويكون المبيع والثمن حاضرين فعندئذ لا بأس ولا حرج من عدم الكتابة رحمةً بالمتعاملين وتخفيفاً

---

(١) جامع البيان للطبري ٦/ ٥٤ وقال الشوكاني: وظاهر الأمر الوجوب. فتح القدير١/ ٣٠٠ وراجع: تفسير المنار لمحمد رشيد رضا ٤/ ١٢٦ ، وفي ظلال القرآن لسيد قطب ١/ ٣٣٥؛ حيث ذهبا إلى وجوب الإشهاد، وهو مذهب الظاهرية أيضاً، راجع: المحلى لابن حزم الظاهري ٨/ ٨٠.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك برقم/ ٣١٨١ وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي في التلخيص، ومن طريقه البيهقي في سننه ١٠/ ١٤٦ عن أبي موسى الأشعري.

(٣) قال الأستاذ الإمام محمد عبده رحمه الله: « المرأة ليس من شأنها الاشتغال بالمعاملات المالية ونحوها من المعاوضات، فلذلك تكون ذاكرتها فيها ضعيفة، ولا تكون كذلك في الأمور المنزلية التي هي شغلها؛ فإنها فيها أقوى ذاكرة من الرجل، يعني: أن من طبع البشر ذكراناً وإناثاً أن يقوى تذكرهم للأمور التي تهمهم ويكثر اشتغالهم بها، ولا ينافي ذلك اشتغال بعض نساء الأجانب في هذا العصر بالأعمال المالية؛ فإنه قليل لا يعول عليه. والأحكام العامة إنما تناط بالأكثر في الأشياء وبالأصل فيها» تفسير المنار ٣/ ١٢٥،١٢٤.

عليهم؛ فالإسلام لا يقف حجر عثرة أمام التيسير على الناس وإنهاء مصالحهم بسرعة.

والأولى الإشهاد عند البيع، ولا يضار الكاتب والشهيد غيرهما بالتغيير والتخريف ولا يتعرضا هم للضرر بحملهما على كتابة أو قول غير الحق بالترغيب والترهيب، وإن فعلتم ما نهيتم عنه من التحريف والتغيير وغيرهما فتكونوا قد خرجتم عن طاعة الله.

ثم ختم الله الآية بالأمر بتقواه وخشيته وتذكير الناس بنعمه فهو الذي يعلم الناس ويصلح لهم دينهم ودنياهم والله بكل شيء عليم لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء؛ ولذلك فإن تشريعه كله حكمة وعدل لأنه العليم سبحانه.

ثم بين سبحانه ما يجب على المؤمن فعله إن لم يتمكن من كتابة الدين سواء بأن كان مسافراً ولم يجد كاتباً للكتابة أو لم يتيسر له أمر الكتابة لأي سبب ففي هذه الحالة يقوم الرهن المقبوض مقام الكتابة، والرهن ضمان لحق الدائن عند تعذر أخذ حقه من الغريم، فإن أمن الدائن المدين ووثق في ذمته ولم يوثِّق دينه فعلى المدين أن يكون أهلاً لهذه الثقة وليؤد أمانته كاملة وليتق ربه في مراعاة حقوق الناس، وعلى المؤمنين الصادقين ألا يمتنعوا عن أداء الشهادة، فمن أخفاها وامتنع عن أدائها فقد أثم قلبه الذي هو أساس كل خير وشر، والله عليم بكل أعمالكم وأقوالكم وسيحاسبكم عليها.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أ- القضايا العقدية:

-دل قوله تعالى ﴿ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ على أن الخلود في النار غير الخلود المؤبد؛ فآكل الربا قد يكون مؤمناً، والمؤمن لا يخلد في نار جهنم أبداً، أما الكافر فإن خلوده في النار مؤبد لا غاية ولا نهاية والله أعلم.

ب- الأحكام الشرعية:

- إباحة كل البيوع ما لم يكن هناك دليل على التحريم، قال تعالى: ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ ﴾ والألف واللام هنا للجنس فتفيد معنى العموم؛ فالأصل في البيوع الحلُّ؛ قال الشافعي: "فاحتمل

إحلال الله البيع معنيين: أحدهما: أن يكون أحل كل بيع تبايعه المتبايعان، جائزي الأمر فيما تبايعاه عن تراض منهما. وهذا أظهر معانيه.

والثاني: أن يكون الله أحل البيع إذا كان مما لم ينه عنه رسول الله ﷺ المبين عن الله عز وجل معنى ما أراد"[1].

- دلت الآيات الكريمة على تحريم الربا تحريماً قطعياً، ويستفاد ذلك من وجهين:

أولهما: أن الله شبه آكلي الربا بتشبيه يحمل أقبح الصفات وذلك للتحذير من الربا.

وثانيهما: قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ [٥٧٢] فقد توعدت الآية بالخلود في النار من عاد إلى أكل الربا بعد أن حذر الله منه.

- يجوز إطلاق وصف المحاربة لله ورسوله على من يفعل معصية عظيمة ويجاهر بها، ولا يلزم أن تكون كفراً؛ فقد وصف الله آكلي الربا بذلك، وهم لا يكفروا إلا باستحلاله.

- دل قوله تعالى: ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ ﴾ مع قوله ﴿ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ ﴾ على ثبوت المطالبة لصاحب الدين على المدين، وجواز أخذ ماله بغير رضاه، ويدل على أن الغريم متى امتنع من أداء الدين مع الإمكان كان ظالماً؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ ﴾ فجعل له المطالبة برأس ماله. فإذا كان له حق المطالبة، فعلى مَن عليه الدين لا محالة وجوب قضائه[2].

- من كثرت ديونه وطلب غرماؤه مالهم فللحاكم أن يخلعه عن كل ماله ويترك له ما كان من ضرورته. والمشهور عن مالك أنه يترك له كسوته المعتادة ما لم يكن فيها فضل، ولا ينزع منه رداؤه إن كان ذلك مزرياً به. والأصل في هذا قوله تعالى ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾.

---

(١) أحكام القرآن للشافعي ١/ ١٣٥.
(٢) أحكام القرآن للكيا القرطبي ١/ ٢٣٧.

عن أبي سعيد الخدري قال: أصيب رجل في عهد رسول الله ﷺ في ثمار ابتاعها فكثر دينه، فقال رسول الله ﷺ : (تصدقوا عليه) فتصدق الناس عليه فلم يبلغ ذلك وفاء دينه.فقال رسول الله ﷺ لغرمائه: (خذوا ما وجدتم وليس لكم إلا ذلك)[١].وهذا نص، فلم يأمر رسول الله ﷺ بحبس الرجل[٢].

- جواز البيع والشراء إلى ميسرة.

- جواز الدين إلى أجل سواء في المال أو المبيع، والدين في المبيع يقال له السلم، ودل قوله تعالى﴿ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ على أن السلم إلى الأجل المجهول غير جائز، ويؤكده ما ورد عن ابن عباس قال: " قدم النبي ﷺ المدينة، وهم يسلفون بالتمر السنتين والثلاث، فقال: (من أسلف في شيء ففي كيل معلوم ووزن معلوم، إلى أجل معلوم)[٣].

- قوله تعالى: ﴿ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ﴾ فيه إثبات إقرار الذي عليه الحق وإجازة ما أقر به وإلزامه إياه؛ لأنه لولا جواز إقراره إذا أقر لم يكن إملاء الذي عليه الحق بأولى من إملاء غيره من الناس. فقد تضمن ذلك جواز إقرار كل مقر بحق عليه[٤].

- قوله عز وجل: ﴿ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ﴾ يدل على أن كل من أقر بشيء لغيره فالقول قوله فيه لأن البخس هو النقص ؛ فلما وعظه الله تعالى في ترك البخس دل ذلك على أنه إذا بخس كان قوله مقبولاً[٥].

- قوله تعالى ﴿ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ

(١) رواه مسلم في صحيحه برقم/ ١٥٥٦.
(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٤/ ٤١٧بتصرف.
(٣) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ٢٢١٥، ومسلم في صحيحه برقم/ ١٦٠٤.
(٤) أحكام القرآن للجصاص ٢/ ٢١٠.
(٥) أحكام القرآن للجصاص ٢/ ٢١١.

بِٱلْعَدْلِ ﴾ تنازعه الفقهاء؛ فذهب بعضهم إلى أنه دليل على جواز الحجر على السفيه الذي لا يعرف أن يحافظ على ماله؛ حيث أجاز لوليه الإملاء عنه، وهذا مذهب الجمهور، وذهب الإمام أبوحنيفة إلى عدم جواز الحجر على السفيه؛ لأن الآية أجازت مداينة السفيه وحكمت بصحة إقراره في مداينته ؛ وإنما خالفت بينه وبين غيره في إملاء الكتاب لقصور فهمه عن استيفاء ما له وعليه مما يقتضيه شرط الوثيقة[1].

- في قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ﴾ دليل على اشتراط الإسلام في الشهود، لأن الخطاب في الآية كان متوجهاً للمؤمنين، فاقتضى ذلك أن يكون الإيمان شرطاً في الشهادة بين المسلمين.

- دلت الآية على جواز شهادة النساء في الأمور المالية، وزاد الأحناف شهادتهن في الطلاق والنكاح والرجعة. قال الجصاص: "ظاهر هذه الآية يقتضي جواز شهادتهن مع الرجل في سائر عقود المداينات؛ وهي كل عقد واقع على دين سواء كان بدله مالاً أو بضعاً أو منفع أو دم عمد لأنه عقد فيه دين ....فاقتضى ذلك جواز شهادة النساء مع الرجل على عقد نكاح فيه مهر مؤجل إذا كان ذلك عقد مداينة وكذلك الصلح من دم العمد والخلع على مال والإجارات"[2].

- دل قوله تعالى: ﴿ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ ﴾ على اشتراط العدالة في الشهود، والعدالة: محافظة دينية تحمل على ملازمة التقوى والمروءة ليس معها بدعة[3]، قال في المغني: «الشاهد

---

(١) لتفصيل رأي الجمهور انظر: المغني لابن قدامة ٤/ ٢٩٥، والحاوي الكبير للماوردي ٦/ ٣٥٥، والكافي لابن عبد البر ١/ ٤٢٣. وانظر لرأي الإمام: البحر الرائق لابن نجيم الحنفي ٨/ ٩١والمبسوط للسرخسي٢٤/ ٢٥٧. وقد نظر الجمهور إلى أهمية المال والمحافظة عليه، أما أبوحنيفة رحمه الله فقد رجح الحرية الإنسانية والكرامة البشرية.

(٢) أحكام القرآن للجصاص ٢/ ٢٣٢.

(٣) سبل السلام للصنعاني ٤/ ١٢٨.

يعتبر فيه أربعة شروط؛ الإسلام والبلوغ، والعقل، والعدالة، وليس فيها ما يخفى ويحتاج إلى البحث إلا العدالة فيحتاج إلى البحث عنها؛ لقول الله تعالى: ﴿ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَآءِ ﴾، ولا نعلم أنه مرضي حتى نعرفه، أو نخبر عنه»[1].

وفي كتب الفقه وغيرها ذِكْر الأمور التي تنخرم بها العدالة.

- قوله: ﴿ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَآءِ ﴾ دليل على تفويض القبول في الشهادة إلى الحاكم؛ لأن الرضا معنى يكون في النفس بما يظهر إليها من الأمارات عليه، ويقوم من الدلائل المبينة له، ولا يكون غير هذا؛ فإنا لو جعلناه لغيره لما وصل إليه إلا بالاجتهاد، واجتهاده أولى من اجتهاد غيره[2].

- في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا ﴾[٢٨٢] دليل على منع الإباء من أداء الشهادة، فإذا طلب القاضي الشاهد لزمه الأداء.

- قال تعالى: ﴿ وَأَشْهِدُوٓا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ﴾ وهذا دليل على مشروعية الإشهاد على المبيع، وذهب الظاهرية وجماعة إلى الوجوب لظاهر الآية، وذهب الجمهور إلى الندب. قال ابن العربي: «وهو الصحيح ؛ فقد باع النبي ﷺ وكتب ونسخة كتابه: (بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما اشترى العداء بن خالد بن هوذة من محمد رسول الله ﷺ اشترى منه عبداً أو أمة لا داء ولا خبثة ولا غائلة، بيع المسلم المسلم)[3].

- في آية الدين قواعد فقهية عظيمة؛ منها ما توصل إليه القانون الوضعي مؤخراً وعدها من مفاخر تشريعاته وهي موجودة قبل أربعة عشر قرناً من الزمان، ومن ذلك نظرية الالتزام

---

(١) المغني لابن قدامة ١٠/ ١٠٩.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٣٣٦.

(٣) أحكام القرآن ١/ ٣٤٢،والحديث المذكور أخرجه البخاري تعليقاً في البيوع باب رقم ٩ والمراد بالخبثة أي: الحرام، والغائلة: السرقة والإباق. قال النووي في الندب: وبهذا قال جمهور الأمة من السلف والخلف.المجموع للنووي ٩/ ١٤٦، وانظر لمذهب القائلين بالوجوب: المحلى لابن حزم ٨/ ٣٤٤.

بالكتابة، وإثبات الدين التجاري، وتحريم الامتناع عن تحمل الشهادات.

ومن هذه القواعد ما لم تصل إليه التشريعات الحديثة رغم كثرة ووفرة المؤسسات التشريعية و الاجتماعية، وذلك مثل حق الملتزم في إملاء العقد، أي أن يكتب الطرف الضعيف العقد كما قررت الآية؛ فإن في هذا حماية له من الاستغلال، ولم تصل المدنية المعاصرة بعد إلى هذه الدرجة، فمازالت عقود الإذعان هي السائدة في العلاقة بين البائع والمشتري وبين العامل وصاحب العمل وغير ذلك، وهذا مما يدل على سمو هذه التشريعات وعظمتها[1].

- مشروعية الرهن. وهو الذي يجعل وثيقة بالدين ليستوفى من ثمنه إذا تعذر استيفاء الدين من المدين. وهو مشروع بنص الآية وبالسنة العملية وبالإجماع.

- ذهب جمهور الفقهاء إلى أن الرهن غير واجب؛ قال ابن قدامة: «والرهن غير واجب، لا نعلم فيه مخالفا، لأنه وثيقة بالدين، فلم يجب كالضمان والكتابة، وقول الله تعالى : ﴿ فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ﴾ إرشاد لنا، لا إيجاب علينا، بدليل قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ ﴾[2].

- الرهن جائز في الحضر كما هو جائز في السفر باتفاق، والقيد الذي في الآية خرج مخرج الغالب، فلا مفهوم له.

- الرهن عند جمهور الفقهاء لابد أن يكون مقبوضاً، قال تعالى: ﴿ فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ﴾ خلافاً لمالك الذي جعله من شروط التمام لا من شروط الصحة[3].

ج - الأخلاق الإسلامية والآداب الشرعية:

- الحرص على الصدقة؛ لأن الله تعالى يربيها ويزيدها للمسلم، وفي الصحيح: «من تصدق

(١) التشريع الجنائي الإسلامي مقارناً بالقانون الوضعي للأستاذ عبد القادر عودة ١/ ٥٥ وما بعدها

(٢) المغني لابن قدامة ٤/ ٢١٥.

(٣) المبسوط للسرخسي ٢١/ ٦٨، بداية المجتهد لابن رشد ٢/ ٢٠٦.

بعدل تمرة من كسب طيب - ولا يقبل الله إلا الطيب - وإن الله يتقبلها بيمينه ، ثم يربيها لصاحبه كما يربي أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل»[١].

- فضيلة إنظار المعسر، والتجاوز عنه بالحط من دينه أو بتأخير المطالبة، وهذا العمل له من الله الأجر الجزيل، قال رسول الله ﷺ: (من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينفس عن معسر أو يضع عنه)[٢].

- من الأخلاق الإسلامية التي يجب مراعاتها: العدل. سواء كان في الكتابة أو الإملاء، قال تعالى: ﴿ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ﴾ [٢٨٢]، وقال:﴿ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ﴾ [٢٨٢] فبالعدل تُحفَظ الحقوق وتؤدَّى، وبالعدل يمتنع الغش والظلم وأكل أموال الناس بالباطل.

- قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ﴾ دليل على أن الشاهد هو الذي يمشي إلى الحاكم، وهذا أمر انبنى عليه الشرع، وعمل به في كل زمن، وفهمته كل أمة، ومن أمثال العرب:" في بيته يؤتى الحكم"[٣].

- من الآداب الإسلامية العظيمة: عدم المضارة. فيجب إزالة الضرر، وقد نهت الآية عن الضرر وبينت أن فعله فسوق يعني خروج عن طاعة الله، وقد قال النبي: (لا ضرر ولا ضرار)[٤]، أي لا يضر المرء بقصد أو بدون قصد. وهذا من القواعد الفقهية المهمة، وقد فرعوا عليها

---

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ١٣٤٤ ومسلم في صحيحه برقم/ ١٠١٤ عن أبي هريرة مرفوعاً.

(٢) رواه مسلم في صحيحه برقم/ ١٥٦٣ عن أبي قتادة مرفوعاً.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٣٣٦ وعنه القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٤٥٣. والمثل مما زعمته العرب على ألسن البهائم. انظر: مجمع الأمثال للميداني ٢/ ٧٢.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك برقم/ ٢٣٤٥ وصححه على شرط مسلم، والبيهقي في سننه الكبرى ٦/ ٦٩ والدارقطني في سننه ٣/ ٧٧ عن أبي سعيد. قال الحافظ العلائي: «للحديث شواهد ينتهي مجموعها إلى درجة الصحة أو الحسن المحتج به». انظر: فيض القدير للمناوي ٦/ ٤٣٢.

عدة قواعد منها: الضرر يزال، الضرر لا يزال بمثله، الضرر الأشد يزال بالضرر الأخف، الضرر يدفع بقدر الإمكان.

- الحرص على عدم تضييع المال، فإن الله جعله قياماً بأمر الناس.

- الحرص على أداء الأمانة لمن ائتمن أخاه.

د- الجوانب التربوية:

- المعاقبة بنقيض المقصود؛ فالمرابي الذي أراد أن يجمع الأموال الكثيرة يعاقب بضد ما قصد، فيمحق الله ماله.

- إثبات أن الإسلام نظام شامل كامل يتناول كل مظاهر الحياة؛ فأطول آية من آيات القرآن الكريم لم تأت لتقرير الصلاة أو الزكاة وغيرها من العبادات المحضة، وإنما جاءت لتقويم الأمور المالية من البيع والشراء والقرض وغيرها من أمور المعاملات، وهذا برهان واضح على أن الإسلام دين يشمل كل نواحي الحياة ويصبغها بالصبغة الإلهية.

- لعل في التأكيد على كتابة الديون والتشديد في ذلك إشارة إلى ضرورة تعلم أفراد الأمة الكتابة إلا من تعسر عليه ذلك لعجز أو نحوه، والله أعلم.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة:

لهذه الآيات الكريمة صلة قوية ومباشرة بمحور السورة؛ فالحفاظ على المال لا يتم إلا بتحريم الربا تحريماً واضحاً لا لبس فيه، وهو يشير من جانب آخر إلى اليهود الذين استحلوا الربا كما قال تعالى: ﴿ وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ وَأَكۡلِهِمۡ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ ﴾ [النساء/ ١٦١].

كما أن آية الدين التي هي أطول آية في القرآن قد سدت كل أبواب التحايل على الربا، وأغلقت منافذه، فلم يعد هناك مجال للتلاعب بالرهن أو غيره للزيادة على رأس المال.

وفي الآيتين مناسبة جليلة لمحور السورة، لفت النظر إليها بعض الباحثين فقال: " إن النظر في هاتين الآيتين من هذه الناحية يكشف لنا أنهما كما تتمتعان بحسن المناسبة وحسن

النظام في إطارهما الخاص، تنسجمان تمام الانسجام مع الجو العام لهذه السورة.

وبيانه أن أفظع جريمة اقترفها بنو إسرائيل - كما نعلم من هذه السورة- هي أنهم نقضوا العهد وكتموا الشهادة. والآيات الصريحة في ذلك كما يلي:

﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ ﴾ [٢٦،٢٧]

﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ [٤٠]

﴿ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [١٠٠]

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [٨٣]

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ [٨٤، ٨٥]

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [٦٣،٦٤]

﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [١٤٠]

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [١٤٦]

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾ [١٥٩]

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [١٧٤]

تلك آيات تسجل على بنو إسرائيل نقض العهد والميثاق وتسجل عليهم كتمان الحق وكتمان الشهادة بالنص على هذه الكلمات، وإلا فالآيات التي تفيد هذا المعنى وتشير إلى هذه الجريمة، أكثر منها مرات ومرات.

ثم لما بعثت هذه الأمة لتقوم بدورها في هذا العالم ناداها ربها بتلك الكلمات:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[١٤٣]

وهكذا نرى هذه السورة يسودها جو العهد والميثاق وجو أداء الشهادة والقيام بالحق فأمة وصمت بأنها نقضت العهد والميثاق وكتمت الشهادة وكتمت الحق.

وأمة بعثت لتقوم بمهمة الشهادة على الناس، كما أن الرسول بعث ليقوم بمهمة الشهادة على هذه الأمة.

فلنرجع إلى هاتين الآيتين مرة أخرى لنراهما كيف تنسجمان تمام الانسجام مع هذا الجو العام لهذه السورة.

وإن كنا نريد أن ندرك هذا الانسجام التام فلا يكلفنا هذا أكثر من أن نضع في اعتبارنا هذه التوجيهات التي تشتمل عليها هاتان الآيتان.

﴿ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ﴾

﴿ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ ﴾

﴿ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ ﴾

﴿ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ﴾

﴿ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ﴾

﴿ وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ﴾ فقد تكررت لفظة ﴿ٱلشَّهَٰدَةَ ﴾ بمختلف مشتقاتها في آيتين اثنتين ثماني مرات.

وتلك ميزة تتميز بها هاتان الآيتان من بين سائر آيات القرآن، فإننا لا نجد في القرآن آيتين تكررت فيهما لفظة الشهادة كما تكررت في هاتين الآيتين.

وهذا الوضع يكفي لأن يلون جو الآيتين بلون ﴿ ٱلشَّهَٰدَةَ ﴾ ولكن الأمر لا ينتهي عند هذا الحد، بل جمع السياق في هاتين الآيتين جميع مقومات الشهادة أو عيون مقومات الشهادة، فلنتدبر هذه التوجيهات:

﴿ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ﴾

﴿ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ﴾

﴿ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾

﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ﴾

﴿ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ﴾

﴿ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ﴾ فقد جمع الله في هذه التوجيهات -كما نرى- سنَ الشهادة: وهو أن يكون الشاهد قد بلغ مبلغ الرجال، ونصاب الشهادة: وهو رجلان أو رجل وامرأتان. ومقومات الشهادة: وهو العدل والقسط والأمانة والتقوى"[1].

---

(١) البرهان في نظام القرآن للدكتور محمد أسد ٣٨٦-٣٨٨.

وقد نقلت الكلام بطوله لأهميته، ولأنه يكشف عن نظرة عميقة متدبرة لهاتين الآيتين وصلتهما بمحور السورة العام؛ فقد بين أن في هاتين الآيتين سبب سلب الخلافة والقوامة من بني إسرائيل، وفي نفس الوقت فإنه يحذر على أمة الإسلام الخاتمة أن تقع فيما وقع فيها السابقون.

وإننا نلاحظ أن هذه السورة قد حذرت المسلمين من مثالب بني إسرائيل؛ فإذا كانوا لم يتقوا الله بعد أن ذُكِّروا بالتقوى أكثر من مرة فإن المؤمنين جاءهم الأمر بالتقوى في أكثر من موطن، ولما جبنوا عن القتال حذر الله المسلمين من هذا الصنيع في أكثر من موطن. ولما فهموا البر فهماً خاطئاً فصَّل القرآن للمسلمين مفهوم البر الصحيح وهكذا.

خاتمة السورة [٢٨٤-٢٨٦]

دعاء وإجابة

﴿ لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾

المناسبة بين الخاتمة والمقطع السابق:

- جاء في ختام سورة البقرة قوله تعالى: ﴿ لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ (البقرة: ٢٨٤) وهذا تذكير بأن أخذ الديون وردها أو أكلها سحتاً لن يخرج عن ملكوت الله تعالى وتقديراته، وفيه كذلك ترهيب من كتمان الشهادة لأنه سبحانه يحاسب على ما أبدت النفوس وكتمت.

وختام السورة يعرض لما يجول في النفوس، وهذه الخواطر لها علاقة وثيقة بالديون: من حيث نية الأداء أو نية الإتلاف فالنية وما يدور في النفس هو ما عليه مدار الحساب.

وفي الآيات السابقة تفاصيل لأحكام كثيرة في الدين والرهن مما يناسب التعقيب عليها بالسمع والطاعة، كما في ختام السورة ﴿ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾.

والدين عبء وهمٌّ يناسب أن يأتي بعده الدعاء برفع الأثقال التي قد يدخل في جملتها.

ولما ختمت الآيات السابقة بقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ جاء في أول هذه الآيات الدليل على ذلك وهو ملك ما في السموات والأرض.

وفي وجه المناسبة بين الآية الأولى وما قبلها من التشريعات المالية يقول الألوسي: "وقوله

﴿ لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ من الأمور الداخلة في حقيقتها والخارجة عنهما كيف كانت؛ أي كلها ملك له تعالى ومختصة به، فله أن يلزم من شاء من مملوكاته بما شاء من تكليفاته، وليس لأحد أن يقول المال مالي أتصرف به كيف شئت"[١].

وهذه التشريعات المالية أثر من آثار رحمة الله بالأمة والتخفيف عليها وعدم تكليفها ما لا طاقة لها به.

التفسير الإجمالي للمقطع:

تمثل هذه الآيات الثلاث ختام سورة البقرة، وقد جمعتهم معاً عدة أحاديث منها ما ورد عن أُبيٍّ قال: كنت عند النبي ﷺ، فجاء أعرابي فقال: يا نبي الله، إن لي أخاً وبه وجع، قال: وما وجعه؟ قال: به لمم، قال: فأتني به. فوضعه بين يديه، فعوذه النبي ﷺ بفاتحة الكتاب وأربع آيات من أول سورة البقرة وهاتين الآيتين ﴿ وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ ﴾ وآية الكرسي وثلاث آيات من آخر سورة البقرة، وآية من آل عمران ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [آل عمران:١٨]وآية من الأعراف ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [الأعراف:٥٤]وآخر سورة المؤمنون ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّ ﴾ [المؤمنون:١١٦] وآية من سورة الجن ﴿ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا ﴾ [الجن:٣] وعشر آيات من أول الصافات، وثلاث آيات من آخر سورة الحشر، و ﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ والمعوذتين، فقام الرجل كأنه لم يشك قط[٢]. وورد عن ابن مسعود أنه قال: «من قرأ الثلاث الأواخر من سورة البقرة فقد أكثر وأطاب»[٣].

ومما يؤكد ارتباط الآيات الثلاث أن حديث التخفيف قد وردت فيه الآيات الثلاث متصلة المعاني، فدل ذلك على ارتباطها ووحدة موضوعها. وهذا لا ينفي اختصاص الآيتين

---

(١) روح المعاني للألوسي ٣/ ٦٤.

(٢) أخرجه أحمد ٥/ ١٢٨، والحاكم برقم/ ٨٢٦٩ وقال: والحديث محفوظ صحيح ولم يخرجاه.

(٣) أخرجه الخطيب في تلخيص المتشابه. الدر المنثور ٢/ ١٣٩. وفيه عدة روايات عن فضل قراءة الآيات الثلاث من خواتيم سورة البقرة.

الأخيرتين بفضلٍ؛ فإن فيهما دعاء وذكراً وثناء يحتاج المسلم أن يقرأه ويتدبره ويلهج لسانه به.

والآيات تبين أن المولى تبارك وتعالى له جميع ما في السموات وما في الأرض خلقاً وملكاً وتدبيراً، وهذا يتطلب توحيد ربوبيته وألوهيته، ويتضمن أن السؤال والرغبة يكون له فهو المالك لما في السموات والأرض، وبعد أن أخبر الله عن تمام ملكه أخبر عن تمام علمه فبين سبحانه أن كل ما أخفاه الإنسان أو أبداه فإن الله مطلع عليه لا يعزب عن علمه من شيء فيغفر لمن يشاء بفضله ويعذب من شاء بعدله وهو سبحانه على كل شيء قدير.

ولذلك لما نزلت الآية أشفق الصحابة ووجلوا؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: « لما نزل على رسول الله ﷺ ﴿ لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ ﴾ اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فأتوا رسول الله ﷺ ثم جثوا على الركب فقالوا: يا رسول الله، كُلّفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزل الله هذه الآية ولا نطيقها، فقال رسول الله ﷺ: أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتاب من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، آمن الرسول ...الآية) فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل الله ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ الآية[1].

والنسخ في الآية لا يراد به رفع الحكم الشرعي، وإنما جرى على مصطلح الأولين الذين يطلقون النسخ على كل تغيير في الحكم، قال ابن تيمية: «والنسخ فيها هو رفع فهم من فهم من الآية ما لم تدل عليه؛ فمن فهم أن الله يكلف نفسا ما لا تسعه فقد نسخ الله فهمه وظنه، ومن فهم منها أن المغفرة والعذاب بلا حكمة وعدل فقد نسخ فهمه وظنه؛ فقوله : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾رد للأول، وقوله : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ رد للثاني"[2].

وعلى هذا فلا نسخ في الآية، وقد رجح الطبري هذا ثم قال في تأويلها: «وإن تبدوا ما في

(١) رواه مسلم في صحيحه برقم/ ١٢٥ عن أبي هريرة.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٤/ ١٠٦ وقال القرطبي: «ومما يدفع أمر النسخ أن الآية خبر والأخبار لا يدخلها النسخ». الجامع لحكام القرآن ٤/ ٤٨٨.



أنفسكم أيها الناس فتظهروه، أو تخفوه فتنطوي عليه نفوسكم يحاسبكم به الله، فيعرِّف مؤمنكم تفضله بعفوه عنه ومغفرته له فيغفره له، ويعذب منافقكم على الشك الذي انطوت عليه نفسه في وحدانية خالقه ونبوة أنبيائه»[1].

ثم تناغمت خاتمة السورة مع مقدمتها، واتصل آخرها بأولها اتصالاً محكماً وثيقاً، وارتبطت الخاتمة مع المقدمة ارتباطاً محبوكاً يصل بينهما ويحيط بالسورة إحاطة السوار بالمعصم؛ فقد جاء الوعد في أول السورة بالهدى والفلاح لمن أطاع أوامر الله فيها، وها هي نتيجة ذلك الوعد تتحقق، فتذكر الآية جزاء من استمع واتبع، فبينت الآية نجاح الدعوة وأن رسالة النبي ﷺ امتداد للرسالات السماوية السابقة وخاتمة لها؛ فقد صدَّق الرسولﷺ وأتباعه من المؤمنين بما أنزل إليه ربه في هذه السورة من عقائد وعبادات وأحكام.

ثم شهد الله بالإيمان الكامل الذي اعتقده الرسول ﷺ فيما أنزل إليه من عند ربه، ثم جمعه هو والمؤمنون في فضيلة الإيمان بالكتاب وبأصول الإيمان الخمسة من التصديق بوحدانية الله وعظمته وبوجود الملائكة الكرام، والكتب المنزلة لهداية البشر، وبالرسل الذين أخرجوا الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم. وهم يقرون بعدم التفريق في الإيمان بين رسول الله، وبذلك باينوا أهل الكفر ومن آمن ببعض الرسل وكفر ببعض.

وبهذا ترث الأمة الإسلامية هذا الرصيد الإنساني الطويل، وتعلن بوضوح أنها الأمينة على دين الله وشرعه، والحاملة لمنهجه في الدنيا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ثم أقر المؤمنون بركني الإيمان فقالوا: سمعنا قولك يا ربنا سماع فهم وقبول وإجابة ولم نقل كما قال المغضوب عليهم، بل امتثلنا أمرك وأظهرنا انقيادنا لحكمك وشرعك، وإنا مع هذا قد تغلبنا دواعي نفوسنا ولن يصلح أمرنا إلا مغفرتك فاغفر لنا غفرانك، إذ لابد لنا من الرجوع إليك؛ فإليك وحدك المرجع والمرد والمصير.

---

(١) جامع البيان للطبري ٦/ ١٢٣ وقد روي عن ابن عباس ما يؤيد هذا ٦/ ١١٣.

ثم وفت الآية بالوعد لكل نفس بذلت وسعها في إتباع هذه التكاليف بعد أن بينت أن التكليف لا يكون إلا بما في الوسع المستطاع وما تقدر عليه، دون ما فيه عسر وحرج ومشقة، قال سفيان بن عيينة: "إلاّ يسرها لا عسرها، ولم يكلّفها طاقتها ولو كلّفها طاقتها لبلغ المجهود منه". قال الثعلبي : وهذا قول حسن لأنّ الوسع ما دون الطاقة[1].

ثم أخبر أن ثواب الأعمال إنما يرجع نفعه إلى العباد وحدهم؛ فإن كل نفس لها وحدها ما كسبت من حسنات بسبب الطاعة وعليها عقاب ما كسبت بسبب المعاصي.

وبعد هذا فتحت الآية باب الأمل على مصراعيه لهؤلاء الذين اهتدوا، فإنه جملة هذه الأوامر والنواهي في السورة قد يحدث فيها تقصير أو خطأ بمقتضى الطبيعة البشرية، فعلمتهم أن يرفعوا أكف الضراعة لربهم قائلين: أي رب لا تعاقبنا إن نسينا أوامرك أو فعلنا خلاف الصواب جهلاً منا، ربنا لا تكلفنا بما يشق علينا كما كلفت الذين هادوا بسبب ظلمهم، قال الرازي « والمؤمنون إنما طلبوا هذا التخفيف لأن التشديد مظنة التقصير، والتقصير موجب للعقوبة، ولا طاقة لهم بعذاب الله تعالى فلا جرم التمسوا السهولة في التكاليف»[2].

وبعد أن سألوا ربهم التخفيف في حكمه وأمره سألوه التخفيف في قضائه وقدره؛ فدعوا ربهم ألا يحملهم ما هو فوق وسعهم وقدرتهم من المصائب والعقوبات وغير ذلك، ثم سألوا ربهم أربعة أمور بها صلاح دنياهم وأخراهم:

أولها: أن يعفوا عنهم بمحو سيئاتهم وإسقاط حقه عليهم، وثانيها: أن يغفرها ويسترها، والمغفرة وقاية، فهم يسألونه أن يقيهم أثر ذنوبهم، فالعفو إسقاط الذنب، والمغفرة تفضل وإحسان. ثم سألوه ثالثاً: أن يرحمهم برحمته التي وسعت كل شيء، فهي زيادة إحسان وعطف. ثم ختموا دعاءهم بهذه الكلمة المعبرة: أنت ولينا ولا مولى لنا سواك، وناصرنا ومعيننا وكافينا

(١) الكشف والبيان للثعلبي ٢/ ٣٠٦.

(٢) مفاتيح الغيب للرازي ٧/ ١٢٧ .



وهادينا، فانصرنا ربنا على القوم الكافرين حتى نتمكن من إظهار دينك وإعلاء كلمتك. والنصر له جانبان: «بإقامة الحجة والغلبة في قتالهم»[١]. وبهذا تختم السورة بهذا الختام الطيب، «إنه الختام الذي يلخص السورة، ويلخص العقيدة، ويلخص تصور المؤمنين، وحالهم مع ربهم في كل حين»[٢].

وفي الصحيح من حديث ابن عباس عن النبي ﷺأنه قال: (أعطيت فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لن تقرأ بحرف منها إلا أعطيته)[٣]، وعن ابن مسعود قال: (لما أسري برسول الله ﷺ انتهي به إلى سدرة المنتهى وهي في السماء السابعة إليها ينتهي ما يعرج من الأرض فيقبض منها وإليها ينتهي ما يهبط من فوقها فيقبض منها قال : (إذ يغشى السدرة ما يغشى) قال: فراش من ذهب، قال: فأعطي رسول الله ﷺ ثلاثاً أعطي الصلوات الخمس، وأعطي خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن مات من أمته لا يشرك بالله شيئاً المقحمات)[٤].

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أ- القضايا العقدية:

- احتج أهل السنة بقوله تعالى ﴿ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾ على جواز غفران ذنوب أصحاب الكبائر؛ لأن المؤمن المطيع مقطوع أنه يثاب ولا يعاقب، والكافر مقطوع بأنه يعاقب ولا يثاب، والآية لم تذكر صيغة القطع فدل ذلك على أنها لصنف آخر وهم المؤمنون المذنبون.

- ذهب جمهور الأشاعرة إلى جواز التكليف بما لا يطاق؛ قال الإيجي: "تكليف ما لا يطاق جائز

(١) تفسير الجلالين للمحلي والسيوطي ص٦٤.

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب ١/ ٣٤٧.

(٣) سبق تخريجه ص ١٧.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه برقم / ١٧٣. والمقحمات: الذنوب العظام التي تقحم أصحابها في النار أي تلقيهم فيها. النهاية لابن الأثير٤/ ١٩.

عندنا، ومنعه المعتزلة لقبحه عقلا"[1]. قال تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ وفي دعاء المؤمنين ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾ وقال الله: قد فعلت. وهذا يشهد لعدم جوازه، والصحيح التفصيل: فإن ما لا يطاق يفسَّر بشيئين: بما لا يطاق للعجز عنه، فهذا لم يكلف الله به أحداً، وما لا يطاق يفسر بالاشتغال بضده، وهذا وقع فيه التكليف.

ب- الأحكام الشرعية:

- اتفق العلماء على أن حديث النفس معفو عنه، أما العزم المصمم فإنه يدخل تحت المجازاة، وقد رتب درجات الدواعي أبو البقاء الكفوي فقال: «السانح ثم الخاطر ثم الفكر ثم الإرادة ثم الهم ثم العزم فالهَمّ اجتماع النفس على الأمر والإزماع عليه. والعزم هو القصد على إمضائه، فالهم فوق الإرادة دون العزم وأول العزيمة، والهم همّان: همٌّ ثابت؛ وهو ما إذا كان معه عزم وعقد ورضا؛ مثل هَمِّ امرأة العزيز، والعبد مأخوذ به. وهمٌّ عارض؛ وهو الخطرة وحديث النفس من غير اختيار ولا عزم؛ مثل همّ يوسف عليه السلام، والعبد غير مأخوذ به ما لم يتكلم أو لم يعمل؛ لأن تصور المعاصي والأخلاق الذميمة لا يعاقب به عليها ما لم توجد في الأعيان، وأما ما حصل في النفس حصولاً أصلياً ووجد فيها وجوداً عينياً فإنه يوجب اتصاف النفس كالكيفيات النفسانية الردية فقد يؤاخذ بها لقوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾»[2]. وهو تلخيص جيد لأقوال العلماء في المسألة والله أعلم.
- قال الكيا الهراسي: «قوله تعالى: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ يستدل به على أن من قتل غيره بمثقل أو بخنق أو تغريق فعليه ضمانه قصاصاً أو دية، خلافاً لمن جعل ديته على العاقلة، وذلك يخالف الظاهر، ويدل على أن سقوط القصاص عن الأب لا يقتضي سقوطه

(١) المواقف لعضد الدين الإيجي ٣/ ٢٩٢. وانظر للتفصيل: منهاج السنة النبوية لابن تيمية ٣/ ٥٣، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص٤٩٣.

(٢) الكليات لأبي البقاء الكفوي ص٩٦٠،٩٦١.

عن شريكه.ويدل على وجوب الحد على العاقلة إذا مكّنتْ مجنوناً من نفسها"[١].

- دل قوله تعالى ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ وقول الله: قد فعلت. على أن النسيان مسقط للإثم في الآخرة، قال رسول الله ﷺ:(إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه)[٢]. قال الشاطبي: «وهو معنى متفق عليه في الجملة لا مخالف فيه»[٣].

أما في الدنيا فإن وقع النسيان في ترك مأمور لم يسقط ويجب تداركه، ولا يحصل الثواب المترتب عليه لعدم الائتمار كنسيان فرض من فروض الصلاة ونحو ذلك. وإن وقع النسيان في فعل منهي عنه ليس من باب الإتلاف فلا شيء فيه؛ وذلك كأكل الصائم. أما إن وقع في فعل منهي عنه فيه إتلاف لم يسقط الضمان، فإن وقع في فعل منهي عنه يوجب عقوبة كان النسيان شبهة في إسقاطها.

- ودلت الآية أيضاً على أن الخطأ معفو عنه؛ قال الشاطبي: « فكل فعل صدر عن غافل،أو ناس،أو مخطئ، فهو مما عفي عنه، وسواء علينا أفرضنا تلك الأفعال مأموراً بها أو منهياً عنها أم لا؛ لأنها إن لم تكن منهياً عنها ولا مأموراً بها ولا مخيراً فيها فقد رجعت إلى قسم ما لا حكم له في الشرع وهو معنى العفو»[٤].

واتفق العلماء على أن الخطأ يرفع الإثم عن المجتهد، وأنه شبهة تدرأ الحدود، لكن حقوق العباد لا يرفع فيها الخطأ الإثمَ، قال الزركشي: « وكل ما أخطأت بينك وبين ربك فغير مؤاخذ به ، وأما الخطأ المتعلق بالعباد فيضمنه»[٥].

---

(١) أحكام القرآن للكيا الهراسي ١/ ٢٧٣.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك برقم/ ٢٨٠١ وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي، وابن حبان في صحيحه برقم/ ٧٢١٩، وابن ماجه في سننه برقم/ ٢٠٤٥، قال ابن حجر: ورجاله ثقات إلا أنه أعل بعلة غير قادحة.

(٣) الموافقات في أصول الشريعة للشاطبي ٢/ ٣٤٧.

(٤) الموافقات في أصول الشريعة للشاطبي ١/ ١٦٥.

(٥) البحر المحيط في أصول الفقه للزركشي ١/ ٢٨٣

- لا يجوز تصرف أحد على غيره إلا بإذنه.

- قال ابن حزم: «وكل فرض كلفه الله تعالى الإنسان فإن قدر عليه لزمه وإن عجز عن جميعه سقط عنه وإن قوي على بعضه وعجز عن بعضه سقط عنه ما عجز عنه ولزمه ما قدر عليه منه سواء أقله أو أكثره.برهان ذلك قول الله عز وجل: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ ﴾ "[1].

ج - الأخلاق الإسلامية والآداب الشرعية:

- من أخلاق الإسلام: اليسر، ورفع الحرج والضيق، وعدم المشقة والإعنات على الناس أو النفس.

- المؤمن يحرص أن يسأل ربه المغفرة في كل وقت وحين، وليكن قدوته في ذلك رسول الله فقد قال: (والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة)[2].

-كل إنسان مسؤول عن فعله، والتكليف فردي ﴿ كُلٌّ ءَامَنَ ﴾ والجزاء فردي ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ ﴾.

د- الجوانب التربوية:

- لقوله تعالى ﴿ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾ دلالة تربوية؛ فالمؤمن إذا علم أن الله لا تخفى عليه خافية في نفسه، ويعلم خلجات فؤاده، دفعه ذلك إلى مراقبة الله وألا يخفي شيئاً لا يرضاه.

- من اللفتات الطيبة التي ذكرها الزمخشري قوله: "فإن قلت: لم خص الخير بالكسب ،والشر بالاكتساب؟ قلت: في الاكتساب اعتمال؛ فلما كان الشر مما تشتهيه النفس وهي منجذبة إليه وأمّارة به، كانت في تحصيله أعمل وأجدّ، فجعلت لذلك مكتسبة فيه. ولما لم تكن كذلك في باب الخير وصفت بما لا دلالة فيه على الاعتمال»[3].

---

(١) المحلى لابن حزم ١/ ٦٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم/ ٥٩٤٨ عن أبي هريرة.

(٣) الكشاف للزمخشري ١/ ٣٥٩.

ومعنى كلام الزمخشري رحمه الله أن الخير فطري في النفس، أما الشر فإنه يحتاج إلى تكلف لذلك جاء بصيغة (افتعل) التي تفيد معنى التكلف، وهذا استنباط جيد؛ فالنفس مجبولة على الخير والطاعة، فطرةً من الله أودعت في النفوس، ولا يحتاج الإنسان إلى التكلف في فعل الخير، لأنه منسجم مع نفسه ومع فطرته، ومع ما جبلت عليه النفوس من شكر النعمة ومحبة خالقها، أما الشر فإنه مخالف لأصل فطرة الإنسان، فيحتاج إلى التكلف، والمربي المسلم يلحظ هذا في تعامله مع الناس؛ فيستجيش نوازع الخير فيهم، ويحيي ما اندرس من معالم الإيمان في نفوسهم حتى يتلقوا أوامر الله بالرضا والقبول.

- من آثار العصيان وعدم الاستجابة لأوامر الله أن يشدد الله على العاصين فيحرم عليهم ما كان قد أحله لهم؛ قال تعالى ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [النساء : ١٦٠]، أما الطاعة فمن ثمراتها ألا يحمل الله المرء الآصار والأثقال والأغلال.

المناسبة بين الخاتمة ومحور السورة:

لخصت هذه الخاتمة أهم مقاصد السورة وبينت أن تشريعات الإسلام مبناها على التخفيف واليسر ودفع الحرج، وقد سبقت أمثلته الكثيرة في أبواب الصلاة والصيام والحج وغير ذلك. وقد رفع الله الإصر عن المسلمين بسبب طاعتهم وتسليمهم لأمره، بخلاف من قالوا سمعنا وعصينا وقد جازاهم الله ببغيهم فأمرهم بقتل أنفسهم عند التوبة إلى غير ذلك من الآصار والأغلال التي كانت عليهم، وقد سبق بيان أحوالهم في المقطع الأول.

وللجهاد بالنفس والمال حديث طويل في السورة، وقد جاء الختام ليشير إلى طلب النصر من الله فهو نعم المولى ونعم النصير.

وفي مناسبة هذه الآيات لختام السورة يقول أبو حيان: «وناسب ذكر هذه الآية خاتمة لهذه السورة لأنه تعالى ضمنها أكثر علم الأصول والفروع من: دلائل التوحيد ، والنبوّة ،والمعاد ، والصلاة ، والزكاة ، والقصاص ، والصوم ، والحج ، والجهاد ، والحيض ، والطلاق ، والعدّة ،

والخلع ، والإيلاء ، والرضاعة ، والربا ، والبيع ، وكيفية المداينة.

فناسب تكليفه إيانا بهذه الشرائع أن يذكر أنه تعالى مالك لما في السموات وما في الأرض، فهو يلزم من شاء من مملوكاته بما شاء من تعبداته وتكليفاته.

ولما كانت هذه التكاليف محل اعتقادها إنما هو الأنفس، وما تنطوي عليه من النيات ، وثواب ملتزمها وعقاب تاركها إنما يظهر في الدار الآخرة ، نبه على صفة العلم التي بها تقع المحاسبة في الدار الآخرة بقوله ﴿ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾ فصفة الملك تدل على القدرة الباهرة ، وذكر المحاسبة يدل على العلم المحيط بالجليل والحقير ، فحصل بذكر هذين الوصفين غاية الوعد للمطيعين ، وغاية الوعيد للعاصين"[١].

وختام السورة بالدعاء تعليم للأمة أن تظل موصولة الصلة بالله كما كان قدوتهم إبراهيم يدعو ربه وهو يبدأ عمله وهو ينتهي منه، فحق لهم كذلك إذا ختمت سورة الأحكام العظيمة أن يتضرعوا إلى الله بالمغفرة والقبول.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(١) البحر المحيط لأبي حيان ٢/ ٣٧٥.

سورة آل عمران

أولاً: بين يدي السورة، وفيه:

أ- اسمها:

سورة آل عمران لها أكثر من اسم؛

فاسمها المشهور هو: (آل عمران)، وقد وردت تسميتها بهذا الاسم في عدة أحاديث صحيحة[1].

وسبب تسميتها بسورة آل عمران لأن فيها ذكر قصة آل عمران من بدايتها، حيث جاء فيها قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾[آل عمران:٣٣][2]، وجاء فيها بعد ذلك: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ ﴾[آل عمران:٣٥]، ولم يرد مثل هذا في غير هذه السورة، فلفظ ﴿ عِمْرَٰنَ ﴾ الذي في سورة التحريم يتحدث عن مريم عليها السلام ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ [التحريم:١٢]. الجدير بالذكر أن هذه السورة هي الوحيدة التي فيها قصة أم مريم، فقصتها ليست مذكورة حتى في سورة مريم عليهم السلام. يضاف إلى ذلك أن هذا الاسم (آل عمران) فيه إشارة عظيمة في الردّ على النصارى الذين ألّهوا عيسى عليه السلام، فهو يشير إلى أصل عيسى عليه السلام البشري، فهو من (آل عمران)، وسيأتي مزيد بيان لذلك إن شاء الله، والله أعلم.

---

(١) فقد جاء في الصحيح أن النبي ﷺ قال: (يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ تَقْدُمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَآلُ عِمْرَانَ)، صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل قراءة القرآن وسورة البقرة برقم (٨٠٥)، كما جاء في الصحيح أن النبي ﷺ: (قَرَأَ الْعَشْرَ الْآيَاتِ الْخَوَاتِمَ مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ)، البخاري، كتاب الوضوء، باب: قراءة القرآن بعد الحدث وغيره برقم (١٨٣)، وانظر البخاري: (٩٩٢)، (١١٩٨)، (١٧٥٠)، ومسلم (٢٥٦)، (٧٢٧)، (٧٦٣)، وغيرها كثير.

(٢) جملة (آل عمران) لم ترد في القرآن الكريم إلا مرة واحدة في هذا الموضع.

وتسمى: (الزهراء)، فهي وسورة البقرة تسميان بالسورتين (الزهراوين)[1]، وقَالُوا: سُمِّيَتَا الزَّهْرَاوَيْنِ لِنُورِهِمَا وَهِدَايَتِهِمَا وَعَظِيمِ أَجْرِهِمَا[2]، ويقال لكل مستنير: زاهر[3]، أو لهدايتهما قارئهما بما يزهر له من أنوارهما أي: معانيهما، أو لما يترتب على قراءتهما من النور التامّ يوم القيامة، أو لاشتراكهما في اسم الله الأعظم[4].

وتسمى: (الكنز)، كما سمّاها عبد الله بن مسعود ﷺ، حيث قال: (نِعْمَ كَنْزُ الصُّعْلُوكِ سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ يَقُومُ بِهَا فِي آخِرِ اللَّيْلِ)[5].

وقيل: تسمى في التوراة: (طَيْبَة)[6]، ولعله وصف لها[7].

وتسمى كذلك: سورة الأمان، والمعينة، والمجادلة، وسورة الاستغفار[8].

ب ـ فضائلها:

سورة آل عمران سورة عظيمة من سور القرآن - وكل سوره عظيمة -، وهي إحدى

---

(١) ففي الصحيح عن النبي ﷺ قال: (اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا)، صحيح مسلم (٨٠٤).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٦/ ٨٩-٩٠).

(٣) لباب التأويل في معاني التنزيل، للخازن، (١/ ١٨).

(٤) تفسير القرطبي (٥/ ٨).

(٥) رواه الدارمي، في كتاب فضائل القرآن، باب: فضل سورة آل عمران، برقم (٣٣٩٨).

(٦) نسبه السيوطي في الدر المنثور (٢/ ١٤٠) وفي الإتقان (١/ ١٥١) لسعيد بن منصور في سننه عن أبي عطاف، ونسبه ابن عطية في المحرر الوجيز (١/ ٣٩٦) والقرطبي في الجامع (٤/ ١) للنقاش.

(٧) جاء في سنن الدارمي، كتاب: فضل القرآن، باب: فضل سورة آل عمران، برقم (٣٣٩٩): (... قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: هَلَكَ وَاللهِ الرَّجُلُ، قَالَ: فَافْتَتَحَ سُورَةَ آلِ عِمْرَانَ، قَالَا: فَقَرَأَ سُورَةً طَيِّبَةً لَعَلَّهُ سَيَنْجُو، ...). فلعل تسميتها بطيبة جاءت من هنا.

(٨) ذكر هذه الأسماء أبو حيان في البحر المحيط (٢/ ٣٨٩)، والآلوسي في تفسيره روح المعاني (٣/ ٧٣).

السورتين الزهراوين، اللتين تأتيان يوم القيامة تحاجّان عن صاحبهما، وتظلاّنه يوم القيامة[١]، وقد وصفهما النبي ﷺ بثلاثة أوصاف، فقال: (اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا)[٢]، (تقولان: ربنا لا سبيل عليه)[٣].

وقد روي عن ابن مسعود ﷺ أن اسم الله الأعظم في هاتين السورتين الزهراوين، جاء في الأثر: (قَرَأَ رَجُلٌ عِنْدَ عَبْدِ اللهِ الْبَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ فَقَالَ: قَرَأْتَ سُورَتَيْنِ فِيهِمَا اسْمُ اللهِ الْأَعْظَمُ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى)[٤]. وعن أسماء بنت يزيد أن النبي ﷺ قال: (اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾ وفاتحة آل عمران ﴿ الم ﴿١﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ ﴾)[٥].

كما روي أن النبي ﷺ عوّذ بعض أصحابه بآيات من سورة آل عمران، فعن أبي ليلى قال: كنت جالساً عند النبي ﷺ إذ جاءه أعرابي فقال: إن لي أخاً وَجِعاً، قال: (ما وجع أخيك؟) قال: به لمم، قال: (اذهب فأتني به)، قال: فذهب فجاء به فأجلسه بين يديه، فسمعته عوذه بفاتحة الكتاب... وآية من آل عمران أحسبه قال: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ...، فقام الأعرابي قد برأ ليس به بأس[٦].

---

(١) سنن الدارمي، كتاب فضائل القرآن، باب في فضل البقرة وآل عمران، برقم (٣٣٩١).

(٢) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل قراءة القرآن وسورة البقرة برقم (٨٠٤)، وانظر رقم (٨٠٥).

(٣) سنن الدارمي، كتاب فضائل القرآن، باب في فضل البقرة وآل عمران، برقم (٣٣٩٤).

(٤) المرجع السابق، برقم (٣٣٩٣).

(٥) المرجع السابق، كتاب الدعوات، باب جامع الدعوات، برقم (٣٤٧٨)، وقال: حديث حسن صحيح.

(٦) سنن ابن ماجة، كتاب الطب، باب الفزع والأرق وما يتعوذ منه، برقم (٣٥٤٩)، ومسند الإمام أحمد، في مسند الأنصار، برقم (٢٠٦٧٠).

كما أن سورة آل عمران من السور السبع الطوال[1]، وهي السور التي قام بها النبي ﷺ في صلاة الليل، فقرأ السبع الطوال في سبع ركعات[2].

ج. مكية السورة أو مدنيتها:

سورة آل عمران مدنية باتفاق[3]، ومواضيع السورة ومحاورها تدل على ذلك، ولم أقف على خلاف في مدنيتها. على أن السورة تتناول إثبات وحدانية الله تعالى، وهذا الموضوع من خصائص السور المكية، لكن الجانب الذي تتناوله هنا هو من منطلق الحوار مع النصارى من أهل الكتاب خاصة، كما سيأتي بعد قليل.

د. عدد آياتها:

عدد آياتها: مائتا آية باتفاق[4]، لكن اختلف في تقسيم سبع آيات، عدّها بعضهم، وعدّ الآخرون غيرها بدلاً منها[5].

هـ: محور السورة:

بسبب حجم السورة الكبير فقد تناولت عدداً كبيراً من الموضوعات، كما سيأتي، إلا أن

---

(١) روي في مسند الإمام أحمد برقم (٢٣٩٢٢) أن النبي ﷺ قال: (مَنْ أَخَذَ السَّبْعَ الْأُوَلَ فَهُوَ حَبْرٌ)، يعني السبع الطوال، والحديث فيه مقال، لكن معناه صحيح، ففي السبع الطوال علم وفقه كثير، والله أعلم.

(٢) مسند الإمام أحمد، في باقي مسند الأنصار، باب حديث حذيفة بن اليمان، برقم (٢٢٧٨٩).

(٣) تفسير ابن زمنين (١/ ٢٧٤)، والبيان في عدّ آي القرآن لأبي عمرو الداني (ص١٣٣-١٣٤)، والمحرر الوجيز لابن عطية (١/ ٣٩٦)، والتسهيل لعلوم التنزيل للكلبي (١/ ٥)، والإتقان في علوم القرآن، للسيوطي (١/ ٥١).

(٤) البيان في عدّ آي القرآن لأبي عمرو الداني (ص١٤٣).

(٥) انظر تفصيل ذلك في: البيان في عدّ آي القرآن لأبي عمرو الداني (ص١٤٣)، وإتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة، للدمياطي (ص٢١٨).

محور السورة العام هو إثبات وحدانية الله تعالى[1]، وإقامة الأدلة عليه نقلاً وعقلاً.

والحقيقة أن أكثر سور القرآن الكريم تتناول هذا الموضوع من جانب أو آخر، ولا غرو، فإن أسّ الخلاف مع أهل الكتاب وغيرهم من الكفار هو ابتداء في هذه الحقيقة، كما سيأتي. وأما سبب اهتمام هذه السورة به فهو لأن مقصود السورة الأعظم تقرير كون عيسى عليه السلام عبد الله[2].

وقد تناولت السورة أيضاً جوانب تتعلق بذلك من مناقشة أهل الكتاب - خصوصاً النصارى -، وتحذير الكافرين من الاغترار بالدنيا من أموال وأولاد، وتحذير المسلمين من موالاتهم، وبيان حقيقة الدنيا وتقلّبها، والتقليل من شأن مصائبها من موت وجراحات ونقص أموال، وبيان حقيقة الموت والترغيب في أن يكون في سبيل الله تعالى.

وقد ركزت السورة على مسألة التوحيد وما يتعلق بذلك من صفات لله تعالى، بل إن سورة آل عمران هي السورة الوحيدة التي فصل فيها بين الأحرف المقطعة والحديث عن القرآن الكريم، فقد فصل بينهما بالتأكيد على وحدانية الله تعالى وأنه حي قيوم، قال تعالى: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ ﴾. بينما في باقي سور المصحف الشريف التي افتتحت بالحروف المقطعة يأتي الحديث عن القرآن الكريم مباشرة بعد الأحرف

---

(١) ترددت كثيراً في الجزم بهذا، إلى أن وقفت على قول البقاعي بذلك في نظم الدرر (٤/ ١٩٥-١٩٦) حيث قال ما نصّه: (المقاصد التي سيقت لها هذه السورة: إثبات الوحدانية لله سبحانه وتعالى، والإخبار بأن رئاسة الدنيا بالأموال والأولاد وغيرهما مما آثره الكفار على الإسلام غير مغنية عنهم شيئاً في الدنيا ولا في الآخرة، وأن ما أعد للمتقين من الجنة والرضوان هو الذي ينبغي الإقبال عليه والمسارعة إليه وفي وصف المتقين بالإيمان والدعاء والصبر والصدق والقنوت والإنفاق والاستغفار ما يتعطف عليه كثير من أفانين أساليب هذه السورة. هذا ما كان ظهر لي أولاً، وأحسن منه أن نخص القصد الأول وهو التوحيد بالقصد فيها فإن الأمرين الآخرين يرجعان إليه ...)، وسمّاها في موضع آخر (٥/ ١٤٤): {سورة التوحيد}، وانظر كذلك: (٥/ ١٥٤). وتحدث في أثناء التفسير عن مقاصد أخرى.

(٢) ينظر: قطف الأزهار في كشف الأسرار، للسيوطي (١/ ٥٤٩).

المقطعة[1].

---

(١) قال ابن كثير: (ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء). تفسير ابن كثير، دار الفتح (١/ ٢٢٧).
وهذا صحيح، فقد قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ ﴾.
وقال في سورة الأعراف: ﴿ الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ ﴾.
وقال في سورة يونس: ﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١ ﴾.
وقال في سورة هود: ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾.
وقال في سورة يوسف: ﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴾.
وقال في سورة الرعد: ﴿ الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ ﴾.
وقال في سورة إبراهيم: ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾.
وقال في سورة الحجر: ﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ﴾.
وقال في سورة طه: ﴿ طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴾.
وقال في سورة الشعراء: ﴿ طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴾.
وقال في سورة النمل: ﴿ طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ﴾.
وقال في سورة القصص: ﴿ طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴾.
وقال في سورة لقمان: ﴿ الٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ﴾.
وقال في سورة السجدة: ﴿ الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾.
وقال في سورة يس: ﴿ يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾.
وقال في سورة ص: ﴿ صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ﴾.
وقال في سورة غافر: ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾.
وقال في سورة فصلت: ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾
وقال في سورة الشورى: ﴿ حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾.
وقال في سورة الزخرف: ﴿ حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾.
وقال في الدخان: ﴿ حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾.
وقال في الجاثية: ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾. =

والدلائل على هذا المحور في السورة كثيرة جداً؛ فقد ذكرت شهادة توحيد الله تعالى في هذه السورة صراحة خمس مرات، وذلك في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ ﴾ [آية: ٢]، وقوله: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آية: ٦]، وقوله: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ [آية: ١٨]، وقوله: ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ ﴾ [آية: ٦٢]، وهذا الحشد لشهادة التوحيد هو الأكثر تكراراً في القرآن الكريم[1]، كما أن شهادة التوحيد لم تتكرر مرتين في آية

= وقال في سورة الأحقاف: ﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾.

وقال في سورة ق: ﴿ قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴾.

وأما سورة مريم - التي تدور حول تنزيه الله تعالى عن الولد - فلا يوجد فيها حديث عن القرآن الكريم بعد الأحرف المقطعة - صراحة -، وإنما تأتي الإشارات إلى القرآن الكريم ضمن السياق، كما في قوله تعالى ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ ﴾، ثم في قوله تعالى ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ ﴾ وتكراره، وقوله سبحانه ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾. ويقال مثل هذا في سورة العنكبوت، والله أعلم.

(١) وردت شهادة التوحيد صراحة في باقي سور القرآن الكريم بتكرار أقل من ذلك، ففي سورة البقرة: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [آية: ١٦٣]، ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [آية: ٢٥٥]، وربما يدخل قوله تعالى: ﴿ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [آية: ١٣٣]. وفي سورة النساء ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ ﴾ [آية: ٨٧]، وفي سورة الأنعام ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [آية: ١٠٢]، ﴿ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾[آية: ١٠٦]، وفي سورة الأعراف ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ [آية: ١٥٨]، وفي سورة التوبة ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [آية: ٣١]، ﴿ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [آية: ١٢٩]، وفي سورة يونس على لسان فرعون - ولعلها لا تدخل فيما نحن بصدده -: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [آية: ٩٠]، وفي سورة هود ﴿ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آية: ١٤]، وفي سورة الرعد ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [آية: ٣٠]، وفي سورة النحل ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ [آية: ٢]، وفي سورة طه ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [آية: ٨]، ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى ﴾ [آية: ١٤]، ﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [آية: ٩٨]، وفي سورة الأنبياء ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [آية: ٢٢]،=

واحدة في القرآن الكريم سوى في سورة آل عمران في آية الشهادة المذكورة سابقاً.

كما ذكر في سورة آل عمران الأمر بعبادة الله وأكّد بعدم الإشراك به وعدم اتخاذ البشر آلهة: قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [آية: ٦٤]، وامتازت السورة عن غيرها بهذا، حيث إن الآيات الأخرى التي دعت إلى عبادة الله تعالى وحده في القرآن الكريم ليس فيها تأكيده بعدم الإشراك به سبحانه وتعالى(١).

وتكرر في السورة إطلاق المشيئة والإرادة لله تعالى وإسناد الأمور له وحده سبحانه،

= ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [آية: ٢٥]، وفيها على لسان ذي النون ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ ﴾ [آية: ٨٧]، وفي سورة المؤمنون ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾ [آية: ١١٦]، وفي سورة النمل ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [آية: ٢٦]، وفي سورة القصص ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [آية: ٧٠]، ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [٨٨]، وفي سورة فاطر ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ [آية: ٣]، وفي سورة الصافات ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [آية: ٣٥]، وفي سورة ص ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ [آية: ٦٥]، وفي سورة الزمر ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ [آية: ٦]، وفي سورة غافر ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [آية: ٣]، ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ [آية: ٦٢]، ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [آية: ٦٥]، وفي سورة الدخان ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ [آية: ٨]، وفي سورة محمد ﷺ ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [آية: ١٩]، وفي سورة الحشر ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ [آية: ٢٢]، ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ﴾ [آية: ٢٣]، وفي سورة التغابن ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [آية: ١٣]، وفي سورة المزمل ﴿ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ [آية: ٩].

(١) ورد الأمر بعبادة الله وحده في باقي سور القرآن الكريم كما يأتي؛ قال في سورة البقرة: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ [آية: ٨٣]، وفي سورة هود ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ [آية: ٢]، ﴿ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ [آية: ٢٦]، وفي سورة فصلت: ﴿ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ [آية: ١٤]، وفي سورة الأحقاف ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [آية: ٢١]، والله أعلم.

وذلك بشكل لافت، كما سيأتي ذكره لاحقاً[1].

كما تكرر في السورة أيضاً لفظ الإسلام والمسلمين والفعل ﴿ أَسْلَمَ ﴾ ، أكثر من أي سورة أخرى في القرآن الكريم؛ ففيها: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ [آية: ١٩]، ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا ﴾ [آية: ٢٠]، وفيها على لسان الحواريين: ﴿ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [آية: ٥٢]، وعلى سبيل الأمر للمسلمين بقوله في حوارهم مع أهل الكتاب: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [آية: ٦٤]، وقوله: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ﴾ [آية: ٦٧]، وفيها أيضاً: ﴿ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [آية: ٨٠]، ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [آية: ٨٣]، وعلى سبيل الأمر للنبي ﷺ بقوله: ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [آية: ٨٤]، وفي قوله: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آية: ٨٥]، وعلى سبيل الأمر للمسلمين: ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [آية: ١٠٢]. كما أن الفعل المشتق من الإسلام لم يتكرر ثلاث مرات في آية واحدة في القرآن الكريم سوى في قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا ﴾ [آية: ٢٠]، والله أعلم.

وذكر في السورة أيضاً: إثبات العلم المطلق لله تعالى ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [آية: ٦٦]، وتصرفه في الكون بمشيئته ﴿ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الآيتان: ٧٣-٧٤]، وتنزيه الأنبياء عن الدعوة إلى الشرك كما يزعم النصارى ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ

(١) ينظر: آخر فقرة المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها.

تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ﴾ [الآيتان: ٧٩-٨٠].

كما تناولت السورة: تأكيد وحدة الرسالات والدين الحق الذي هو الإسلام، ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ﴾ [آية: ٨١]، ﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [آية: ٨٤]، ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ ﴾ [آية: ٨٣]، ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آية: ٨٥].

وفي السورة أيضاً: ذكر حقيقة الموت، وهذا له علاقة بالمحور الرئيس في السورة الكريمة، لأن أول صفة ذكرت لله تعالى في هذه السورة هي ﴿ الْحَيُّ ﴾ ، ولهذه الصفة علاقة مباشرة بالحوار مع النصارى، فعيسى عليه السلام بشر يموت كما يموت البشر[1]، وكما مات من سبقه ولحقه من الرسل، وقد جاء في هذه السورة النص على وفاة عيسى عليه السلام: ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [آية: ٥٥]، والله أعلم.

ومن الآيات التي جاءت لبيان حقيقة الموت قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ

---

(١) اختلف العلماء في وفاة عيسى عليه السلام، وقد ورد نصان صريحان في القرآن الكريم يبتان الوفاة لعيسى عليه السلام؛ ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [آل عمران: ٥٥]، ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ [المائدة: ١١٧]، واختلف العلماء في معنى الوفاة في الآيتين، والذي أميل إليه أنها الوفاة الحقيقية، وأما حياته في السماء فهي حياة الله أعلم بكيفيتها، هذا ما أراه صواباً، وإن كنت لا أزال أدرس هذه المسألة وأبحث فيها، والله أعلم. وأما نزول عيسى عليه السلام آخر الزمان فهو ثابت بأحاديث صحيحة لا ينكرها إلا جاحد معاند.

﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾ [الآيات: ١٤٣-١٤٥]، وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾ [آية: ١٦٨]، وقوله: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ [آية: ١٦٩]، وقوله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [آية: ١٨٥].

كما تناولت السورة المال ودوره الهام؛ من حيث الإنفاق[1] والحث عليه ﴿ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾ ، والدعوة إلى الإنفاق من أجود ما يجد ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ﴾ ، والإنفاق في جميع الأحوال ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾ . كما تناولت بيان أن المال لا يغني من الله شيئاً ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ ﴾، وتكرار ذلك في آيتين، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ﴾، وبيان تعلّق الناس بالأموال المنقولة وغير المنقولة من متاع الحياة الدنيا، وحثّهم على التعلق بما هو خير من ذلك. وذم البخل والشحّ، وأمر المسلمين بالصبر على الأذى الذي سيلاقونه في أموالهم وأنفسهم من أهل الكتاب.

وهكذا، نرى أن آيات السورة الكريمة تتناول محور السورة الرئيس مباشرة، كما تتناول الموضوعات المرتبطة بالمحور الرئيس، والله أعلم.

وقد انقدح في ذهني مقصد مهم امتازت به هذه السورة الكريمة؛ وهو **المقارنة بين ظواهر الأمور والمتعلقين بها، وحقائق الأمور وعواقبها**، وهذا المقصد له صلة وثيقة بمحور السورة الكريمة، لأن الشبهة في عيسى عليه السلام جاءت بسبب التعلق بظواهر الأمور ونسيان الحقائق الكبرى بكل سذاجة. وأحسب أن هذا المقصد هو من الأغراض الأساسية في سورة آل عمران، وكأن في قوله تعالى في أول السورة: ﴿ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ

---

(١) ينظر: نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٣٧).

مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ إشارة إلى هذا المقصد.

يبدو هذا المقصد واضحاً جلياً في عدة مواضع من السورة الكريمة، منها ما يأتي:

بيان وجود المحكم والمتشابه في القرآن الكريم، وتعلق أهل الزيغ بالمتشابه، في مقابل إيمان الراسخين في العلم.

تعلق أهل الكفر بكثرة الأموال والأولاد، في مقابل حقيقة أنها لا تغني عنهم من الله شيئاً يوم القيامة.

تعلق فرعون بالقوة والسلطان، في مقابل حقيقة القوة المطلقة لله تعالى.

تعلق الناس بالشهوات من النساء والبنين وقناطير الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والزروع، في مقابل ما هو خير من ذلك؛ الجنات ونعيمها، ورضوان الله تعالى الدائم.

تعلق الناس بأسباب الملك والعزة الظاهرة، في مقابل حقيقة أن الله تعالى يؤتيهما من يشاء وينزعهما انتزاعاً ممن يشاء.

تعلق امرأة عمران بالذكورة وطلبها ولداً ذكراً، مع أن الأنثى التي ستنجبها هي واحدة من أفضل وأكمل النساء على الإطلاق.

ظاهر كبر زكريا عليه السلام وعجزه وظاهر العقم في زوجته، في مقابل حقيقة أن الله يفعل ما يشاء.

تعلق النصارى بظاهر مخالفة العادة في خلق عيسى عليه السلام، في مقابل حقيقة أنه بشر، ولد لأنثى ولو بلا ذكر، وأنه يأكل ويشرب وينام، وحقيقة أن الله تعالى ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾.

المقارنة بين علاقة النصارى الخاطئة بعيسى عليه السلام المبنية على الظواهر، وبين علاقة

المسلمين بالرسول محمد ﷺ، وتنبيه المسلمين حتى لا يقعوا في أخطاء من سبقهم؛ ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾.

تعلق المسلمين بظاهر النصر في أول الأمر في معركة أحد، في مقابل حقيقة أن النصر من عند الله تعالى ﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ ﴾.

تعلق اليهود بظاهر الدنيا في قولهم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾، في مقابل حقيقة ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾.

وليس مجرد التعلق بالظواهر مذموماً، بل المذموم هو التعلق بظواهر الأمور المؤدي إلى الإعراض عن حقائقها. ولما كان الناس متعلقين بالظواهر بفطرتهم، أرشدهم القرآن الكريم إلى التوجّه إلى الظواهر والتدبر فيها للوصول إلى الإيمان بالحقائق؛ ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾، فأولوا الألباب الذين تفكروا في خلق السماوات والأرض وصلوا سريعاً إلى الإيمان بالخالق سبحانه وتعالى. والله أعلم.

و: المناسبات في السورة:

- المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

لم أقف على من فصّل المناسبة بين اسم سورة آل عمران ومحورها، وقد اقتصر بعضهم على أن وجه تسميتها بسورة آل عمران أنها ذكرت فيها فضائل آل عمران، وهم زوجه وأختها زوجة زكريا عليه السلام وزكريا عليه السلام كافل مريم عليها السلام بعد وفاة أبيها عمران[1].

وقد وقع لي في المناسبة بين اسم السورة ومحورها سبب لطيف ظاهر ودقيق في نفس الوقت،

(١) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٣/ ٥).

وذلك أن معظم الحوار في سورة آل عمران يدور مع النصارى، وأكبر خلاف مع النصارى هو في بشرية عيسى عليه السلام، كما أن معظم الحوار في سورة البقرة يدور مع اليهود، وحادثة ذبح البقرة وتلكؤ اليهود فيه، هي أوضح حادثة تشير إلى طبيعتهم المكذّبة المعاندة، وهي طبيعة متكررة في السورة.

وأما تسمية السورة باسم آل عمران فهو لدحض شبهة الألوهية عن عيسى عليه السلام، لأنه لا خلاف في أن مريم عليها السلام هي بنت عمران، وامرأة عمران هي أمها، وبالتالي فإن عيسى عليه السلام هو من آل عمران، إذن فاسم السورة يشير إلى النسب البشري الذي لا خلاف فيه لعيسى عليه السلام، وإن مجرد اسم السورة يكفي في حسم هذا الخلاف. ولهذا جاء في آخر السورة قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ [آية: ١٩٩]. والله أعلم.

- المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

هناك مناسبات كثيرة بين مطلع السورة ومقطعها، ولعل أبرزها ما يأتي:

بدئت السورة بدعاء المؤمنين: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾ ﴾. واختتمت بمثل ذلك: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ ﴾.

وجاء في أول السورة تهوين شأن الكفار وبيان مصيرهم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ ﴾. ثم اختتمت بمثل ذلك: ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ

كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ ﴾[1].

وبُدأت السورة بذكر إنزال القرآن والتوراة والإنجيل من قبل، وختمت بذلك في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ ﴾[2].

كما بُدئت السورة بالحديث عن الوحي المسطور (الكتب المنزّلة) من الله تعالى: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾، وختمت بالحديث عن التفكّر في الوحي المنظور، والآيات الواضحات في خلق الأرض والسماوات: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾.

وذكر في أول السورة الوعيد بالعذاب الشديد للذين يكفرون بآيات الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ ﴾، ثم ذكر في آخر السورة الوعد بالجنان والرضوان للذين يتفكرون ويؤمنون بآيات الله تعالى: ﴿ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ ﴾.

وذكر في أول السورة تعلّق الناس بشهوات الدنيا والتي منها المال: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ ﴾، ثم ذكر في آخرها الوعيد الشديد للذين يبخلون بأموالهم ولا ينفقونها في سبيل الله: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾.

---

(١) كلاهما من: جواهر البيان في تناسب سور القرآن، للغماري (ص٢٨).

(٢) قطف الأزهار، للسيوطي (١/ ٦٧٥).



ويناسب ذمّ البخلاء في آخرها أيضاً ما ذكره في أول السورة من مدح للمنفقين: ﴿ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾.

وذكر في أول السورة التهديد والوعيد للكافرين، وأن أموالهم وأولادهم لن يغنوا عنهم من الله شيئاً، ثم ذكر في آخرها أن مصيرهم إلى جهنم. وقد سبق ذكر مناسبة مشابهة.

كما ذكر في أول السورة قولهم: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ﴾، ثم ذكر في آخرها أن تقلّبهم في الدنيا هو المعدود، فهو متاع قليل، وأن مأواهم جهنم وبئس المهاد.

وذكر في أولها عدم موالاة المؤمنين للكافرين: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ ﴾، وهو مناسب لما ذكر في آخرها من الوعد بالجنة للذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيل الله.

وذكر في أولها الأمر بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾، ثم مدح في آخرها المستجيبين لنداء الرسول: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ ﴾.

ونكتفي بهذا القدر من المناسبات بين المطلع والمقطع خشية الإطالة، والله أعلم.

المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها:

مقاطع السورة تتناسب مع محورها بوضوح تام، لأن محور السورة العام هو: إثبات وحدانية الله تعالى، وما يتعلق بذلك من تقرير بشرية عيسى عليه السلام، ووحدة الدين والرسالات، وأهمية طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ.

فبدأت السورة بمقدمات مهمة قبل الحوار مع النصارى في حقيقة عيسى عليه السلام، تناولت تلك المقدمات إنزال الكتب من عند الله تعالى لغرض هداية وامتحان الناس، وبيان

حقيقة الدنيا، ثم الإعلام بانتقال الرسالة إلى أمة الإسلام.

ثم تناولت السورة بيان اصطفاء الله تعالى لرسله عليهم السلام، وبيان حقيقة عيسى عليه السلام. ثم تأكيد حقيقة تاريخية هي أن الإسلام هو الدين الحق وهو دين جميع الأنبياء، وهم أولاد علّات، واشتمل ذلك على بيان أن إبراهيم عليه السلام كان حنيفاً مسلماً، وبيان فرق أهل الكتاب وحقيقتهم، والتصريح بوحدة الرسالات والدين الحق الذي هو الإسلام، وتأكيد صلة المسلمين بإبراهيم عليه السلام، وافتراء أهل الكتاب في ادّعائهم الصلة به.

وبعد هذا التصريح والتأكيد، جاء بيان خيرية هذه الأمة واصطفاؤها وفضلها على سائر الأمم، وتحذيرها من الوقوع في أخطاء الأمم السابقة، وتحذيرها من أعدائها ومن المنافقين خصوصاً. وكان هذا التحذير مدخلاً للحديث عن المواجهة مع الأعداء، فتحدّثت الآيات عن معركة أحد، وشمل ذلك هدايات ومواعظ في الطاعة وأهميتها، وتعزية المسلمين في مصابهم، والدروس المستفادة من الهزيمة.

وختمت السورة بالحديث عن الاستفادة من الآيات الكونية في الوصول إلى الله تعالى، وبيان حقيقة أن الأمور بخواتيمها وعواقبها.

وهكذا نرى مقاطع السورة تتناسب مع محورها بوضوح وجلاء، بل إن الآيات في المقاطع نفسها تكاد تصرّح بهذه المناسبات بين المقطع ومحور السورة في مواضع عدّة، وهذه أمثلة على الآيات التي تؤدي هذا المعنى:

﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [٧]، ﴿ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ [١٣]، ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [٢٦]، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [٣٧]، ﴿ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ ﴾ [٤٠]، ﴿ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ ﴾ [٤٧]، ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ ﴾ [٦٢]، ﴿ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾ [٧٣]، ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ [٧٤]، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن

تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا ﴾ [١١٦]، ﴿ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [١٢٦]، ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ ﴾ [١٢٩]، ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ [١٤٥]، ﴿ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [١٥٤]، ﴿ إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦ ﴾ [١٦٠]، ﴿ إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا ﴾ [١٧٦]، ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ ﴾ [١٧٩]، ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ ﴾ [١٨٠]، ﴿ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ ﴾ [١٨٩]، ﴿ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ ﴾ [١٩٥]، ﴿ نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [١٩٨].

ويمكن الاستزادة بالرجوع إلى ما ذكرناه سابقاً في محور السورة، والله أعلم.

- المناسبة بين مقاطع السورة مع بعضها:

يأتي في بداية كل مقطع أثناء التفسير إن شاء الله تعالى.

- المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

مناسبة أول سورة آل عمران لآخر سورة البقرة ظاهرة من عدة وجوه؛ أولها: أن فاتحة سورة آل عمران هي في الإيمان بالله تعالى وبالكتب السماوية المنزلة من عنده، وآخر سورة البقرة هي في إيمان الرسول ﷺ بما أنزل عليه من ربه وإيمان المؤمنين معه، كلهم آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله.

قال أبو حيان: لما ذكر في آخر سورة البقرة: ﴿ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [آية: ٢٨٦]، ناسب أن يذكر نصرة الله تعالى على الكافرين حيث ناظرهم رسول الله ﷺ، وردّ عليهم بالبراهين الساطعة والحجج القاطعة، فقصّ تعالى أحوالهم وردّ عليهم في اعتقادهم وذكر تنزيهه تعالى عما يقولون وبداءة خلق مريم وابنها المسيح إلى آخر ما ردّ عليهم. ولما كان متفتح آية آخر البقرة: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ ﴾ [آية: ٢٨٥] فكأن في ذلك الإيمان بالله وبالكتب، ناسب ذكر أوصاف الله تعالى وذكر ما أنزل على رسوله

وذكر المُنْزَل على غيره صلى الله عليهم[1].

- المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها:

سورة البقرة وسورة آل عمران مدنيتان، وترتيبهما في النزول كترتيبهما في المصحف، لكن نزلت بينهما سورة الأنفال[2].

والسورتان متلازمتان من حيث المضمون، كأنهما سورة واحدة، وقد جمع رسول الله ﷺ بينهما في الفضل والذكر -كما سبق بيانه-. يضاف إلى ذلك أن سورة آل عمران شارحة لكثير مما أجمل في سورة البقرة[3]، كما سيأتي تفصيله بعد قليل.

ويدخل في المناسبة بين مضمون السورتين -أيضاً- ما سبق ذكره من المناسبة بين ما ورد في آخر سورة البقرة وما جاء في أول سورة آل عمران، فلا نعيده هنا.

ويمكن إجمال المناسبات بين مضمون السورتين فيما يأتي:

افتتحت كلتا السورتين بالأحرف المقطعة (ألم)[4].

سورة البقرة تضمنت قواعد الدين فكأنها بمثابة إقامة الدليل على الحكم، وجاءت سورة آل عمران مكمّلة لمقصودها فكأنها بمثابة الجواب عن شبهات الخصوم[5].

ذكرت كلتا السورتين خلقاً معجزاً جاء على غير المعتاد، فذكرت سورة البقرة خلق آدم عليه السلام، وذكرت سورة آل عمران خلق عيسى عليه السلام، وسبب تقديم ذكر آدم عليه

---

(١) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان (٢/ ٣٨٩).
(٢) ينظر: تنزيل القرآن، لابن شهاب الزهري، (ص٢٩-٣٠).
(٣) ينظر: أسرار ترتيب القرآن للسيوطي (ص٨٣).
(٤) ينظر: المرجع السابق (ص١٠٦).
(٥) قطوف الأزهار في كشف الأسرار، للسيوطي (١/ ١٥٣).

السلام ظاهر؛ فهو أقدم في الوجود، وأغرب في الخلق من عيسى عليه السلام[1].

شرحت سورة آل عمران كثيراً مما أجمل في سورة البقرة (ينظر: الجدول الأول في آخر هذه الفقرة).

تكرّر الحديث في سورة آل عمران عن مواضيع جاءت في سورة البقرة، وذلك للتأكيد واستكمال الحديث. (ينظر: الجدول الثاني في آخر هذه الفقرة).

ويوضّح الجدول الآتي المواضع التي وردت مجملة في سورة البقرة، ومفصّلة في سورة آل عمران[2]:

في سورة البقرة	في سورة آل عمران
وصف الكتاب بأنه ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾	﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ وذاك بسط وإطناب لنفي الريب عنه.
ذكر إنزال الكتاب مجملاً	قسّمه إلى آيات محكمات وأخر متشابهات
قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾ مفصلاً	﴿ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾
صرح بذكر التوراة خاصة لأن السورة خطاب لليهود، والتوراة هي الأصل	صرح بذكر الإنجيل أيضاً لأن السورة خطاب للنصارى، والإنجيل فرع للتوراة
ذكر القتال وقع مجملاً: ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [١٩٠،٢٤٤]، ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ ﴾ [٢١٦].	فصّلت قصة أحد بكاملها

(١) وينظر: البرهان في ترتيب سور القرآن، لابن الزبير الغرناطي (ص١٩٦)، وينظر: أسرار ترتيب سور القرآن، للسيوطي (ص٨٧).

(٢) ينظر: أسرار ترتيب سور القرآن، للسيوطي (ص٨٣-٨٦)، وقارن بقطف الأزهار في كشف الأسرار، للسيوطي كذلك (١/ ١٥٣).

في سورة البقرة	في سورة آل عمران
حذّر من الربا ولم يزد على لفظ الربا إيجازاً.	زاد قوله: ﴿ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً ﴾ [١٣٠].
أوجب الحجّ إجمالاً، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ ﴾ [١٩٦].	فصّله بقوله ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ ﴾ [٩٧]، وزاد بيان شرط الوجوب بقوله ﴿ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾، ثم زاد تكفير من جحد وجوبه بقوله ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾.
قال تعالى بإيجاز: ﴿ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ﴾ [٢٤٧].	فصّل ذلك فقال: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [٢٦].
قال في أهل الكتاب ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ ﴾ [٨٣] فأجمل القليل من أهل الكتاب.	فصّله بقوله: ﴿ لَيْسُواْ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ [١١٣]
أوجز ذكر المقتولين في سبيل الله بقوله ﴿ أَحْيَآءٌ وَلَـٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾ [١٥٤].	زاد: ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ ﴾ الآيتين [١٦٩-١٧٠].
عرّض ولم يصرّح بتفضيل الأمة على اليهود، فقال: ﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴾ [١٩٣]. وفضّل الأمة على سائر الأمم بلفظ فيه يسير إبهام فقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [١٤٣].	صرّح بتفضيل هذه الأمة فقال: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [١١٠]. فقوله ﴿ كُنتُمْ ﴾ أصرح في قِدَم ذلك من ﴿ جَعَلْنَـٰكُمْ ﴾. ثم زاد وجه الخيرية بقوله ﴿ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾.

في سورة البقرة	في سورة آل عمران
حذّر من أكل الحرام فقال: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ ﴾ [١٨٨].	بسط الوعيد بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ ﴾ [٧٧].

وقد ذكر السيوطي أن بين السورتين اتحاداً وتلاحماً متأكداً، وقد تكرر في سورة آل عمران بيان حقيقة الكتاب من إنزال الكتاب وتصديقه للكتب قبله والهدى إلى الصراط المستقيم، وتكررت هنا آية {قولوا آمنا بالله وما أنزل} [البقرة: ١٣٦]، بكمالها[١].

ويوضّح الجدول الآتي المواضع التي تشابهت في السورتين، بغرض استكمال الحديث أو ذكر ما هو لازم له[٢]:

في سورة البقرة	في سورة آل عمران
ذكر خلق الناس	ذكر تصويرهم في الأرحام
ذكر مبدأ خلق آدم	ذكر مبدأ خلق أولاده
ذكر قصة آدم حيث خلقه من غير أب ولا أم	ذكر قصة نظيره في الخلق من غير أب وهو عيسى عليه السلام، وضرب له المثل بآدم
قال في صفة النار ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ [٢٤]، ولم يقل في الجنة ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ مع افتتاحها بذكر المتقين والكافرين معاً.	قال ذلك في آخر آل عمران في قوله ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [١٣٣]. فكأن السورتين بمنزلة سورة واحدة

(١) ينظر: أسرار ترتيب سور القرآن، للسيوطي (ص٨٦).

(٢) انظر: أسرار ترتيب سور القرآن، للسيوطي (ص٨٦-٨٨).

في سورة البقرة	في سورة آل عمران
افتتحت بذكر المتقين وأنهم المفلحون	ختمت ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [٢٠٠]
افتتحت بقوله ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾ } [٤]	ختمت بقوله ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ ﴾[١٩٩]
رغّب في الإنفاق فقال: ﴿ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ [البقرة: ٢٤٥].	حذّر المستهزئين بقوله: ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ﴾ [١٨١].
ذكر دعوة إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ ﴾ [١٢٩].	ذكر استجابة الدعوة: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ﴾ [١٦٤].

ونشرع بعد هذه المقدمات في التفسير الموضوعي لمقاطع هذه السورة الكريمة، وقد رأيت تقسيمها إلى ثمانية مقاطع، وبعض المقاطع يشتمل على عدد من المواضيع، كما سيأتي، والله الموفق.

المقطع الأول: مقدمات للحوار مع النصارى

يندرج تحت هذا المقطع عدة نقاط، رأيت جمعها معاً واعتبارها مقدمات للحوار مع النصارى الذي سيستغرق نصف السورة الكريمة تقريباً، وهو سبب تسمية السورة الكريمة بآل عمران. وأكثر الآيات في هذا المقطع فيها تعريض بأهل الكتاب عموماً، وبالنصارى خصوصاً، وإن كان بعضها يعرض باليهود.

والمقدمات الرئيسة في هذا المقطع ثلاث؛ هي ما يأتي:

المقدمة الأولى: إنزال الكتب هداية وامتحاناً للناس:

قال تعالى: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٦﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿٩﴾ ﴾ [آل عمران: ١-٩].

التفسير الإجمالي:

تبدأ السورة الكريمة بالأحرف المقطعة، وقد سبق الحديث عنها في أول هذا التفسير. ثم تنتقل إلى التعريض بأهل الكتاب، خصوصاً النصارى منهم، عبر تقرير حقيقة وحدانية الله تعالى واتصافه بصفات الكمال، وختمت هذه الآية بقوله تعالى﴿ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾، وفي اختيار هاتين الصفتين إشارة إلى الرد على النصارى في ادعائهم أن عيسى عليه السلام إله، وابن إله،

لأنهم زعموا أنه صلب فليس بحي وليس بقيوم[(١)].

ثم تقرر الآيات حقيقة إنزال الله تعالى للكتب السماوية، وبدأت الآية بإنزال القرآن الكريم، لأنه آخر الكتب وخاتمها نزولاً، وهو أهمها وأعظمها وأدومها. وفي قوله تعالى ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ إشارة إلى صدق النبي ﷺ في نزول القرآن عليه، بخلاف زعم أهل الكتاب، وتفصيل ذلك مبثوث في آيات القرآن الكريم، كما في قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقوله تعالى ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، وقوله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ ﴾ [الشورى: ٥٢]، فكون النبي ﷺ أمياً لا يقرأ ولا يكتب يبعد عنه شبهة النقل عن أهل الكتاب أو أساطير غيرهم، وكون القرآن الكريم ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ يبعد عن النبي ﷺ شبهة الاختراع والتأليف.

ثم تذكر الآية والتي بعدها إنزال التوراة والإنجيل من قبلها وكان فيهما هداية للناس، فما العجب إذاً من إنزال القرآن؟، وفي الآيتين تلميح إلى كفر اليهود والنصارى بالنبي ﷺ وبالقرآن الكريم، ودليل هذا التلميح هو خاتمة الآية الثانية كما سيأتي. فلماذا يطالب اليهود والنصارى غيرهم بتصديق إنزال الكتب عليهم ويرفضون أن يصدقوا إنزال القرآن على النبي ﷺ؟، هذا هو الكفر بعينه، ولذا ختمت الآية الثانية بقوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ ﴾، كما قال تعالى عن تفريقهم بين الرسل ﴿ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ ﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١].

وعدم وصف القرآن الكريم في هذه السورة بالهدى مع وصفه بأنه حقّ، لأن المناظرة

(١) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، للكلبي (١/ ٩٩)، والتفسير الكبير للرازي (٧/ ١٣٥).

مع النصارى، وهم لا يهتدون بالقرآن. ووصف التوراة والإنجيل بالهدى في هذا المقام لأنهم يعتقدون صحة التوراة والإنجيل، ويدّعون أنهم يعوِّلون في دينهم عليها[١]. ولهذا أشار إليهما في أكثر من موضع في هذا السورة.

وأما ذكر القيد في قوله تعالى ﴿مِن قَبْلُ﴾ فلكي لا يُتوهّم أن هُدى التوراة والإنجيل مستمر بعد نزول القرآن الكريم[٢].

وقد عبّر عن القرآن الكريم في هذه السورة بلفظ: ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾، ولم ترد لفظة القرآن الكريم في السورة إطلاقاً، ربما لأن آيات السورة الكريمة قد حسمت الصراع وفرّقت بشكل قاطع بين الحق والباطل في الجدال القائم بين الأديان السماوية الكبرى، الواردة في آخر سورة الفاتحة وفي سورة البقرة وفي افتتاح سورة آل عمران، فيكون لفظ ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾ ألصق الألفاظ وأصدق الأوصاف[٣]، والله أعلم. وفي هذا السياق من دقة التعبير وكثرة المعاني والإشارات مع قلة الألفاظ الشيء العجاب.

الآية التالية تؤكد علم الله تعالى بكل شيء في الكون، ومناسبتها للسياق وللآية السابقة أن فيها إشارة إلى محاولة أهل الكتاب إخفاء ما عندهم في التوراة والإنجيل من ذكر صريح للنبي محمد ﷺ، ووصية لأهل الكتابين باتباعه، كما قال تعالى ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وكما قال على لسان عيسى عليه السلام ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، فقد حاول أهل الكتاب إخفاء هذا الذكر وهذه

(١) ينظر: قطف الأزهار في كشف الأستار، للسيوطي (١/ ٥٥٢)، نقله عن الأصبهاني.

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (٣/ ١٠).

(٣) وقد اختار الطبري في تفسيره أن الفرقان هو: (الفصْل بين الحق والباطل فيما اختلفت فيه الأحزابُ وأهلُ الملل في أمر عيسى وغيره). جامع البيان في تأويل القرآن (تفسير الطبري)، لابن جرير الطبري، بتحقيق أحمد ومحمود محمد شاكر، (٦/ ١٦٢). ط١. (١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م)، مؤسسة الرسالة.

الوصية، ولا يزالون يحاولون[1]، وقد قاموا بذلك عبر إخفاء بعض القراطيس من الكتب، وطمس بعضها الآخر، وتحريف بعضها، بالإضافة إلى ما نسوه منهما، قال تعالى ﴿ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ [الأنعام: ٩١]، وقال عن اليهود: ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾ [النساء: ٤٦]، و قال عنهم أيضاً: ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ﴾ [المائدة: ١٣]، وقال عن النصارى وبعض اليهود: ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ ﴾ [المائدة: ٤١]، وفي هذا دليل على كفرهم بآيات الله تعالى، وكفرهم بالآيات التي أنزلت إليهم، متناسين أن تحريفهم لا يخفى على الله تعالى.

كما أن الآية مناسبة لما بعدها أيضاً، فبما أن الله تعالى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فإنه يعلم ما يكون في الأرحام، فإن مما اختص الله تعالى به علم ما يكون في الأرحام

---

(١) على الرغم من هذه المحاولات المتواصلة فقد بقي ذكر النبي ﷺ والإشارة إليه في أكثر من موضع من التوراة ومن الإنجيل، مصداقاً للفعل المضارع في قوله تعالى ﴿ يَجِدُونَهُۥ ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. فمثلاً: جاء في التوراة (جاء الرب من سيناء واشرق لهم من سعير وتلألأ من جبل فاران)، (سفر التثنية:٢/ ٣٣)، وهي تشير إلى نبوة موسى عليه السلام بدلالة كلمة (سيناء). كما تشير كلمة (سعير)، وهي المنطقة الجبلية من جنوب البحر الميت إلى العقبة، إلى نبوة عيسى عليه السلام. وتشير جملة (جبل فاران) إلى نبوة محمد ﷺ، فسلسلة جبال فاران هي في الجزيرة العربية بمحاذاة البحر الأحمر. وهذا التعبير يشبه إلى حدٍّ ما قوله تعالى: ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴾، والله أعلم.
وهناك إشارات كثيرة يفهم منها مثل هذا، فقد جاء في سفر التكوين (١٧/ ٢٠): (وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه. ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جداً. اثني عشر رئيساً يلد، وأجعله أمة كبيرة). فهذه الجملة تشير إلى استجابة الله تعالى لإبراهيم في طلبه الذي طلبه من أجل إسماعيل، دون تحديد هذا الطلب، إلا أن العبارة التالية بالمباركة والإثمار والتكثير، وجعله أمة كبيرة، قد يشير إلى جعل النبوة في نسله، ومن المتفق عليه أنه لم يظهر من نسل إسماعيل عليه السلام غير نبينا محمد ﷺ. وينظر: الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة للإمام شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي، (مخطوط) (ص١٢٤ أ – ١٣٩ أ)، فقد ذكر إحدى وخمسين بشارة بالنبي ﷺ في كتب أهل الكتاب.

﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ﴾ [لقمان: ٣٤][1].

أما سبب إيراد آية تصوير الأرحام هنا فهو: الإشارة إلى خلق عيسى عليه السلام وتصويره في رحم أمه مريم عليها السلام[2]، ففي الآية إشارة إلى الطبيعة البشرية لعيسى ابن مريم وأمه عليهما السلام، وهي إشارة بديعة في الحوار مع النصارى، ولهذا ختمت الآية بإثبات وحدانية الله تعالى ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ، وحكمته فيما يقضي سبحانه وتعالى.

كما أن في الآية تعريضاً -بل تصريحاً- بالردّ على النصارى في اعتقادهم بألوهية عيسى عليه السلام لأن الله خلقه وصوّره بكيفية تختلف عن غيره من البشر، فبيّن لهم أنه عبد مخلوق، وكل ذلك من صنع الله وتصويره، سواء الكيفية المعتادة أو غير المعتادة[3].

وهذه الآية والتي قبلها جاءتا استطراداً أثناء الحديث عن إنزال القرآن الكريم، ثم تابعت الآيات استكمال الحديث عن القرآن الكريم[4]. فبيّنت أن الله سبحانه وتعالى اختار بحكمته أن يجعل آيات القرآن الكريم على قسمين؛ آيات محكمات هن أم الكتاب وأصله وأساس تعاليمه،

---

(١) وقد جاء في الصحيح عن النبي ﷺ: (مفتاح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله لا يعلم أحد ما يكون في غد ولا يعلم أحد ما يكون في الأرحام ولا تعلم نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت وما يدري أحد متى يجيء المطر). أخرجه البخاري في كتاب الجمعة، باب: لا يدري متى يجيء المطر إلا الله، برقم (١٠٣٩)، وفي تفسير سورة لقمان من وجه آخر برقم (٤٦٢٧)، وبرقم (٤٧٧٨)، وفي تفسير سورة الرعد برقم (٤٦٩٧)، وفي كتاب التوحيد، باب: قول الله تعالى ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴾، برقم (٧٣٧٩).

(٢) قارن بالمحرر الوجيز لابن عاشور (١/ ٤٠٠)، وتفسير القرطبي (٥/ ١٣-١٤).

(٣) ينظر: تفسير ابن كثير دار الفتح (٢/ ٧)، والتحرير والتنوير، لابن عاشور، مؤسسة التاريخ العربي (٣/ ١٢-١٣).

(٤) ولعل بين الآية ولاحقتها مناسبة من وجه آخر، وهو أن الاشتباه الذي حصل بسبب خلق عيسى عليه السلام المخالف للعادة، والذي ضل بسببه أصحاب الهوى، يوجد اشتباه مثله في القرآن الكريم، وهي الآيات المتشابهات، والتي قد يضل بسببها أصحاب الزيغ كذلك، والله أعلم.

وآيات متشابهات لا يعلمهن إلا الله تعالى وحده[١]، وربما أطلع الله سبحانه بعض عباده على شيء من أسرارها.

وللعلماء أقوال كثيرة في المراد بالآيات المحكمة والآيات المتشابهة، وتفصيل هذا يطول، وأفضل ما قيل فيها ما نقل عن محمد بن إسحاق بن يسار أنه قال في قوله تعالى ﴿ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ قال: (فَهُنَّ حُجَّةُ الرَّبِّ وَعِصْمَةُ الْعِبَادِ، وَدَمْغُ الْخُصُومِ وَالْبَاطِلِ لَيْسَ لَهُنَّ تَصْرِيفٌ وَلا تَحْرِيفٌ عَمَّا وُضِعْنَ عَلَيْهِ)، وقال في قوله تعالى: ﴿ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾: (لَمْ يَفْصِلْ فِيهِنَّ الْقَوْلَ كَفَصْلِهِ فِي الْمُحْكَمَاتِ، تَتَشَابَهُ فِي عُقُولِ الرِّجَالِ وَيَتَخَالَجُهَا التَّأْوِيلُ، فَابْتَلَى اللهُ فِيهَا الْعِبَادَ كَابْتِلائِهِمْ فِي الْحَلالِ وَالْحَرَامِ)[٢].

وحذّرت الآية من اتباع المتشابهات، كما يفعل الذين في قلوبهم زيغ[٣]، بعضهم طلباً للفتنة عمداً، وبعضهم طلباً لمعرفة تأويل ما لا طاقة لعقولهم به، ولا يحيط بتأويل القرآن الكريم كله ولا يعلم تأويل المتشابه منه إلا الله تعالى. فالراسخون في العلم لا يعلمون تأويله، ولكنهم يقولون: آمنا به كل من عند ربنا[٤].

---

(١) هناك رأيان في قراءة الآية وتفسيرها، الأول يقف على لفظ الجلالة، فيكون المعنى أن معرفة المتشابه مما اختص الله بعلمه، ولا سبيل إلى معرفة المراد منه، والرأي الثاني، لا يقف على لفظ الجلالة، والمعنى عنده أن المتشابه لا يعلمه إلا الله والراسخون في العلم. وسياق الآية يحتمل المعنيين. فيما يرى الشيخ الشعراوي رحمه الله تعالى أن المعنيين يؤولان إلى أمر واحد، فهما متساويان. ينظر: تفسيره (٢/ ١٢٨٠- ١٢٨١). والله أعلم.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في أثرين برقم (٣١٧١)، وبرقم (٣١٧٧)، والطبري (٦/ ١٧٧).

(٣) وكما يحتج بعض النصارى بأن القرآن الكريم قد نطق بأن عيسى هو روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم، ويتركون الاحتجاج بقوله تعالى ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ [الزخرف: ٥٩]، وبقوله تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩]، وغيرها من الآيات المحكمة المصرحة بأنه خلق من مخلوقات الله. ينظر: تفسير ابن كثير، دار الفتح (٢/ ٩).

(٤) كتاب تفسير القرآن من الجامع لابن وهب، (١/ ٦٤).

وقد حذّر النبي ﷺ من اتباع هؤلاء، فقد صحّ عنه ﷺ أنه: تلا هذه الآية: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾ فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (فَإِذَا رَأَيْتِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكِ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ فَاحْذَرُوهُمْ)[١].

وليس مجرد طلب التأويل هو المذموم، وإنما المراد هنا: التأويل بحسب الهوى وطلباً للفتنة، فالذين في قلوبهم زيغ ﴿ يَتَّبِعُونَ ﴾ قاصدين ما تشابه من القرآن طلباً للفتنة[٢]، فعلم من السياق أن هذا هو المذموم، لأنهم يطلبون تأويلاً ليسوا أهلاً له، فيؤولونه بما يوافق أهواءهم، وهذا ديدن الملاحدة وأهل الأهواء[٣]. وهذه الآية تشمل كل أهل الزيغ والضلال، من كافر وزنديق وجاهل وصاحب بدعة، وإن كانت الإشارة وقت النزول إلى نصارى نجران[٤].

وحثّت الآية على التأسي بالراسخين في العلم الذين يؤمنون بجميع القرآن الكريم، لأنه كله من عند الله تعالى. وختمت الآية بمدح هؤلاء الراسخين في العلم ومن تبعهم في إيمانهم وتسليمهم، فوصفتهم بأنهم ﴿ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ والعقول. ففي السياق أمر ضمني باتباع الآيات المحكمة من القرآن الكريم والإيمان بالمتشابهات.

وسبب وجود المتشابه في القرآن الكريم أن الدعوة عامة والشريعة دائمة، وذلك يقتضي فتح أبواب عبارات القرآن الكريم لاستنباط العلماء في كل عصر، وتعويد علماء الأمة على

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: {منه آيات محكمات}، برقم (٤٥٤٧)، واللفظ له، وأخرجه مسلم، في كتاب العلم، باب: النهي عن اتباع متشابه القرآن، برقم (٢٦٦٥).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور، (٣/ ٢٣).

(٣) ينظر: المرجع السابق، (٣/ ٢٢).

(٤) تفسير القرطبي (٥/ ٢٢).

البحث والتنقيب واستنباط الأحكام، فتناسب العبارات فهم الأولين والآخرين[1]. بالإضافة إلى أن وجود المتشابه يعد امتحاناً يميز الله به المؤمن الصادق الراسخ في إيمانه من غيره.

وختمت هذه المقدمة بدعاء وتضرع من الراسخين في العلم وأولي الألباب، طالبين التثبيت على الهداية؛ ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٩﴾ ﴾ . وهذا الدعاء يأتي بعد الدعاء في سورة الفاتحة طلباً للهداية ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ ﴾ [الفاتحة: ٦]، كما يأتي بعد الدعاء في سورة البقرة طلباً للعفو وعدم المؤاخذة ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۚ أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وفي ختام هذه المقدمة بالتأكيد على يوم الحشر وجمع الناس للحساب والثواب والعقاب حثٌّ على اتباع الحق والمحكم من الآيات التي أنزلها الله على رسوله ﷺ، وتحذيرٌ من الزيغ عن الحق واتباع الهوى، استعداداً ليوم الحساب.

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور، (٣/ ١٨).

المقدمة الثانية: تحذير الكافرين، وبيان حقيقة الدنيا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران: ١٠-١٨].

التفسير الإجمالي:

بعد أن ختمت المقدمة الأولى بالتأكيد على البعث والحشر، حذّرت الآيات الكافرين من الاغترار بأموالهم وأولادهم، وبينت أنها لن تغني عنهم من الله شيئاً، يوم القيامة، حيث سيكونون وقوداً للنار، وضربت مثلاً لهم بآل فرعون والأقوام السابقة، حيث ملكوا المال والمنصب، واستعبدوا الناس، وكذبوا بآيات الله تعالى، حتى إن فرعون ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٧]، فعاقبهم الله تعالى، ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾. ثم انتقلت الآيات من التحذير إلى التهديد؛ ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾، وقد سبق التهديد بالنار في الآية السابقة، وأما التهديد بالهزيمة فقد بيّنته الآية التالية، حيث خاطبت عقول الكافرين وضربت لهم مثلاً بما حصل للمشركين

في غزوة بدر، على كثرتهم وعدتهم، حيث تدخلت القدرة الإلهية لنصرة المسلمين، فكان أحد الفريقين يرى الآخر مثليه ﴿ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ﴾ ، وهكذا أيّد المسلمين بنصره[1]، ﴿ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ ، كيف شاء، سبحانه وتعالى. فالآيات تقرّر مصير الكافرين وتذكر سنة الله التي لا تتخلف في أخذهم بذنوبهم، وتهديدهم على جرائمهم، وتذكّرهم بما رأوه بأعينهم في غزوة بدر من نصر القلة المؤمنة على حشود الكافرين[2].

وبعد أن بيت الآيات عدم منفعة المال والعيال مع الكفر، بينت حقيقة الدنيا، وأنها زينت للناس لدرجة الحب[3]، وذكرت الآية من الشهوات المزينة: النساء والبنين، والذهب والفضة ويشمل ذلك سائر الأموال المبنية عليهما، والخيل المسومة للحُسْن[4]، والأنعام، والحرث وأنواع الزرع[5]، وهذا كله مما يستمتع به في الحياة الدنيا، وهي قصيرة مهما طالت، وفي مقابل ذلك، فإن الله تعالى عنده حسن العاقبة والمرجع في الدنيا والآخرة.

والتزيين هو من الله تعالى عن طريق الخلْق والإيجاد والتهيئة للانتفاع وإنشاء الجبلّة على

---

(١) الخطاب في قوله تعالى ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ﴾ يحتمل أن يكون للكافرين، وهو أقرب للسياق، كما يحتمل أن يكون للمسلمين، ومثلها قوله تعالى ﴿ يَرَوْنَهُم ﴾. والظاهر أن الكفار رأوا المسلمين يوم بدر عند اللقاء والتلاحم مثلي عددهم، رأوا ذلك رأي العين، فوقع الرعب في قلوبهم فكان سبباً في هزيمتهم. وأما قوله تعالى ﴿ وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ ﴾ [الأنفال: ٤٤]، فالظاهر أنها كانت قبل التلاحم، حتى يستخف المشركون بالمسلمين، فلا يستعدوا للقتال. وهكذا كانت رؤية القلة ورؤية الكثرة سببين لنصر المسلمين بعجيب تدبير الله تعالى. ينظر: التحرير والتنوير (٣/ ٣٦).

(٢) ينظر: في ظلال القرآن، لسيد قطب (١/ ٣٧١).

(٣) لابن عاشور في تفسيره (٣/ ٣٨) لهذه الآية لفتة لطيفة، قال: تعليق التزيين بالحب جرى على خلاف مقتضى الظاهر، لأن المزَّين هو الشهوات وليس حبها، فإذا زينت لهم أحبوها، وفي الآية إيجاز يغني عن أن يقال: (زينت للناس للشهوات فأحبوها).

(٤) كتاب تفسير القرآن من الجامع لابن وهب، (١/ ١٢٥).

(٥) نرى الآن أن البشرية قد عادت إلى الأنعام والزروع والمنتوجات الطبيعية، بعد ثورة التصنيع والتعليب، وبدأت اللحوم والنباتات العضوية تعود إلى محلات البيع بقوة.

الميل إلى هذه الأشياء. وقال بعضهم هو: من الشيطان بالوسوسة والإغراء، وهو بعيد[١]، لأن تزيين الشهوات في ذاته قد يوافق وجه الإباحة والطاعة، فقد قال النبي ﷺ: (وفي بضع أحدكم صدقة)، قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟، قال: (أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟، فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجراً)[٢]. فالراجح أن التزيين هو من الله تعالى، على سبيل الاختبار، كما قال عز وجل: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ ﴾ [الكهف: ٧][٣].

وفي الآيات عظة للمسلمين حتى لا يغترّوا بالحياة الدنيا وزينتها التي حببت للناس فتلهيهم عن الآخرة، كما حصل للكافرين[٤]. ولهذا جاءت الآية التالية بخطاب النبي ﷺ أن يسأل على سبيل التشويق إن كانوا يريدون أن يدلهم على ما هو خير من كل ما ذكر من زينة الحياة الدنيا، وهو النعيم المقيم في جنات الخلد، ﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ فهو يعطي كلاً ما يستحقه من العطاء[٥]. (وقد ألغى ما يقابل شهوات الدنيا في ذكر نعيم الآخرة؛ لأن لذة البنين ولذة المال هنالك مفقودة، للاستغناء عنها، وكذلك لذة الخيل والأنعام، إذ لا دواب في الجنة، فبقي ما يقابل النساء والحرث، وهو الجنات والأزواج، لأن بهما تمام النعيم والتأنس، وزيد عليهما رضوان الله الذي حُرمه من جعل حظه لذّات الدنيا وأعرض عن الآخرة)[٦]. ووصف الأزواج بأنها ﴿ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ أي منزهة عن جميع المنغصات التي تعتري البشر سواء

---

(١) ينظر: تفسير القرطبي (٥/ ٤٢)، والتحرير والتنوير لابن عاشور (٣/ ٣٨-٣٩)، وزاد: «أو من الإنسان بالطبع والرغبة».
(٢) رواه مسلم في كتاب الزكاة، باب: بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، برقم (١٠٠٦).
(٣) ينظر: تفسير القرآن العزيز، لابن أبي زمنين (١/ ٢٥٥).
(٤) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٣/ ٣٧).
(٥) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، دار الفتح (٢/ ٢٩).
(٦) التحرير والتنوير لابن عاشور (٣/ ٤٢).

أكانت حسية أم معنوية[١].

وقوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا ﴾ عطف بيان على قوله ﴿ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ ﴾، وصفتهم الآية بالتقوى والتوجه إلى الله تعالى بطلب المغفرة، قولاً وعملاً[٢]. ثم وصفت الآيات المتقين بخمس صفات أخرى؛ ﴿ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ على أداء الطاعات واجتناب المحرمات، {والصادقين} في قولهم ﴿ إِنَّنَآ ءَامَنَّا ﴾[٣] وفي جميع شؤونهم، ﴿ وَٱلۡقَٰنِتِينَ ﴾ الطائعين الخاضعين لله تعالى وأوامره، ﴿ وَٱلۡمُنفِقِينَ ﴾ مما رزقهم الله تعالى في مختلف الطاعات، ﴿ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ﴾، إذ الاستغفار بالأسحار من أعمال الأبرار، كما قال تعالى ﴿ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الذاريات: ١٨]، والسحر هو: آخر الليل قُبَيل الصبح[٤]، وقد وردت في فضائل آخر الليل أحاديث كثيرة، أشهرها حديث النزول؛ قال رسول الله ﷺ: (إذا مضى شطر الليل أو ثلثاه ينزل الله تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا فيقول: هل من سائل يعطى، هل من داع يستجاب له، هل من مستغفر يغفر له، حتى ينفجر الصبح)[٥].

بعد هذه الآية كانت آية شهادة التوحيد؛ وفيها شهادة من الله سبحانه لنفسه بالوحدانية، ﴿ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ ﴾ عطف على لفظ الجلالة، أي: هم شهداء بالوحدانية، ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ ﴾ هم العارفون بالله الذين يقيمون البراهين على وحدانيته[٦]، ﴿ قَآئِمَۢا ﴾ حال الضمير ﴿ هُوَ ﴾

---

(١) جزم ابن عاشور في التحرير والتنوير (٣/ ٤٢) أن الطهارة هنا حسّيّة لا معنوية، ولا أرى سبباً لهذا التحديد، والله أعلم.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٣/ ٤٢).

(٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢/ ٣٠).

(٤) لسان العرب، لابن منظور، مادة سحر.

(٥) متفق عليه، أخرجه البخاري في كتاب التوحيد برقم (٧٤٩٤)، ومسلم واللفظ له في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل برقم (٧٥٨).

(٦) التسهيل لعلوم التنزيل، للغرناطي (١/ ١٠٢).

أي شهد بوحدانيته وقيامه بالعدل[١]، أو حال من اسم الجلالة ﴿ ٱللَّهِ ﴾ للتأكيد[٢]، كما يحتمل أن يكون لفظ ﴿ قَآئِمًۢا ﴾ منصوب على المدح[٣]، والقسط هو العدل، معرّب.

ثم كرر شهادة التوحيد ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ لوجهين؛ أحدهما: أنه ذكر أولا الشهادة بالوحدانية ثم ذكرها ثانيا بعد ثبوتها بالشهادة المتقدمة، والآخر: أن ذلك تعليم لعباده ليكثروا من قولها[٤].

(والشهادة بالشيء: الإخبار به عن علم إما بالمشاهدة الحسية، وإما بالمشاهدة المعنوية وهي الحجة والبرهان)[٥].

والآية مرتبطة بمحور السورة الأساسي ارتباطاً وثيقاً، بل هي خير دليل على محور هذه السورة الكريمة، كما ترتبط الآية بما قبلها من حديث عن المؤمنين وصفاتهم والشهادة أول أركان الإيمان، وترتبط الآية بما بعدها من حصر الدين الذي يرتضيه الله تعالى في الإسلام، وهو دين التوحيد.

---

(١) في هذه الآية إشارة إلى أنه لا محاباة في الدين والحساب والجزاء، تعريضاً بأهل الكتاب الذين قالوا ﴿ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾ [المائدة: ١٨]، وقالوا ﴿ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ ، كما سيأتي بعد قليل، وتحذير لأمثالهم من أهل الأهواء. ففي الآية تنبيه إلى أن المجازاة ستكون على الأعمال بلا محاباة، كما سيأتي في الآيات: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور، (٣/ ٤٤)، والتسهيل لعلوم التنزيل، للغرناطي (١/ ١٠٢).

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، للغرناطي (١/ ١٠٢)، وقيل: منصوب على الحال، وقيل غير ذلك، ينظر: تفسير ابن أبي زمنين (١/ ٢٥٧)، والبحر المحيط (٢/ ٤٢٠-٤٢٣).

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، للغرناطي (١/ ١٠٢). وهناك أوجه أخرى، ينظر: البحر المحيط (٢/ ٤٢٣-٤٢٤).

(٥) تفسير المراغي (٣/ ١١٣).



المقدمة الثالثة: الإعلام بانتقال الرسالة والريادة إلى أمة الإسلام:

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [آل عمران ١٩-٣٢].

التفسير الإجمالي:

تعود الآيات تأكيد وحدانية الله تعالى وتفرده، تعريضاً مرة أخرى بأهل الكتاب وشركهم، خصوصاً النصارى منهم، لتضيف أن أصل الديانات واحد، وهو الإسلام دين التوحيد، وهو

الدين الذي يرتضيه الله تعالى، ولا يجادل من يحترم عقله في كمال الإسلام وعظمته وفضله على سائر الأديان، ولهذا جاءت تكملة الآية للإخبار عن حال أهل الكتاب من سوء تلقيهم للإسلام ورسوله، ومن سوء فهمهم وعدم اتباعهم لتعاليم دينهم[١]. وإنما اختلف أهل الكتاب بعد ما جاءهم العلم بغياً وحسداً وتباغضاً بينهم[٢]، فيخالفون خصومهم في جميع أقوالهم وأفعالهم وإن كانت حقاً[٣]. وختمت الآية بالوعيد ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾، ففي الآية تحذير لأهل الكتاب من أن يختلفوا في القرآن اختلافهم في كتبهم، وتحذير للمسلمين من أن يقعوا فيما وقع فيه أهل الكتاب من قبل[٤].

وبعد هذه الحقائق المذكورة في هذه المقدمات من إرسال الرسل وإنزال الكتب، والأمر بعبادة الله وحده وعدم اتباع الشهوات والمتشابهات وعدم إنكار آيات الله تعالى، وهي حقائق ثابتة لا ينبغي المخالفة فيها ولا المكابرة برفضها، ومن فعل ذلك فليس له حظ من الإيمان ولا يستحق مزيداً من النقاش، ولذا يأتي التعليم الإلهي للنبي ﷺ بترك من جادل بعد أن عرف الحق وإعلان الإسلام، فقال تعالى ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ ﴾ وحده أنا ومن تبعني وكان على ديني. كما أمره الله تعالى بأن يدعو أهل الكتاب وغيرهم إلى دين الإسلام، ﴿ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ ٱهْتَدَوا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَاغُ وَٱللَّهُ بَصِيرٌ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ ﴾ فهو يتولى جزاءهم ويعلم أنك دعوتهم إلى الإسلام. فتوجيه الآية إلى دفع المجادلة، وترك محاجّتهم مع القيام بدعوتهم[٥]. وفي

---

(١) نظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٣/ ٥٣).

(٢) كأن في هذه الآية مع آية الشهادة التي سبقتها إشارة إلى الفريقين المختلفين في التعامل مع محكم الكتاب ومتشابهه، فأولوا العلم يؤمنون به فأكرمهم بذكر شهادتهم على وحدانيته، والضالون من أهل الكتاب يتبعون المتشابه فذكرهم في هذه الآية: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾، والله أعلم.

(٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢/ ٣٣).

(٤) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٣/ ٥٦).

(٥) ينظر: البحر المحيط (٢/ ٤٢٧)، والتحرير والتنوير، لابن عاشور (٣/ ٥٧).

الآية دليل صريح على عموم بعثة النبي ﷺ للناس كافة، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨][1].

ثم تشير الآيات إلى كفر اليهود وقتلهم الأنبياء والدعاة، وتهددهم بالعذاب الأليم يوم القيامة جزاء جرائمهم، فهم الذين خسروا الحياة الطيبة في الدنيا، والثواب والنعيم في الآخرة، ﴿ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ يمنعون عنهم العذاب الأليم. ففي الآية ثلاثة أصناف من الوعيد، هي: اجتماع أصناف الآلام والمكاره وهو العذاب الأليم، وزوال أسباب المنافع في الدنيا والآخرة، ودوام هذا العذاب إذ لا ناصر يدفعه[2].

وجاء فعل ﴿ يَقْتُلُونَ ﴾ بصيغة المضارع لبيان أنهم على طريقة أسلافهم وراضون بأفعالهم، ومعتقدون صحتها[3]، ولو تمكنوا لفعلوا مثل فعل أسلافهم، ولأنهم أرادوا قتل النبي ﷺ وقتل أتباعه، فأطلق ذلك عليهم مجازاً، أي: من شأنهم وإرادتهم ذلك[4].

وقوله تعالى﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ استفهام للتقرير والتعجب من إعراض بعض من ﴿ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ عن كتاب الله وعن الحكم بما فيه، وكان الأولى بهم أن يكونوا أحرص الناس على اتباعه والعمل به، وبالتالي فلا عجب إذا أعرضوا عن القرآن أو كفروا برسول الإسلام عليه الصلاة والسلام، فهذا ديدنهم وتلك عادتهم.

وفي قوله تعالى ﴿ نَصِيبًا ﴾ تعريض بأنهم لا يعلمون من كتبهم إلا الشيء اليسير[5]. وفي قوله تعالى ﴿ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ ﴾ مصداق لقوله تعالى فيما سبق ﴿ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ ، حيث لم

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٤).

(٢) تفسير المراغي (٣/ ١٢١).

(٣) ينظر: البحر المحيط (٢/ ٤٢٩)، والتحرير والتنوير، لابن عاشور (٣/ ٦٢).

(٤) البحر المحيط النسخة المحققة (٢/ ٤٢٩-٤٣٠)، والأخرى (٢/ ٤١٣)، وفي كلتيهما: (فقتل أتباعه)، ولعلها مبنية للمجهول. لكن ما أثبته أقرب للسياق، والله أعلم.

(٥) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٣/ ٦٤-٦٥).

يعمم التولي والإعراض.

ثم بينت الآيات سبب كفرهم وجرائمهم وهو قولهم كذباً وافتراء: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾، وقد تقدم قولهم هذا في سورة البقرة [آية: ٨٠]. وقد خدعوا أنفسهم بزعمهم الكاذب هذا، ﴿وَغَرَّهُمْ﴾ وثبتهم هذا الافتراء ﴿فِي دِينِهِم﴾ الباطل، وهم الذين افتروه واختلقوه.

ثم حذرهم الله تعالى من يوم الحساب فقال سبحانه ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ أي: كيف يكون حالهم وقد افتروا على الله وكذبوا رسله وقتلوا أنبياءه والعلماء من قومهم، والله جامعهم ومحاسبهم ومجازيهم[1]، وفي الاستفهام بقوله تعالى ﴿فَكَيْفَ﴾ تهويل لما سيلاقونه يوم القيامة[2].

وقد جاء في الصحيح أن النبي ﷺ سألهم: (من أهل النار)، قالوا: نكون فيها يسيراً ثم تخلفونا فيها، فقال النبي ﷺ: (اخسئوا فيها والله لا نخلفكم فيها أبدا)[3].

وبعد هذه المقدمات في الحوار مع أهل الكتاب تشير الآيات إلى انتقال الراية من الأمم السابقة إلى أمة الإسلام؛ فتقرر الآيات حقيقة تفرد الله تعالى بالملك وتصرفه فيه، فهو سبحانه مالك الملك، يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء، ويعز من يشاء ويذل من يشاء، وهو على كل شيء قدير، وفي الآية إشارة إلى أن الله تعالى يختار من يشاء من عباده لحمل رسالته، كما قال تعالى رداً على اعتراضهم إرسال النبي ﷺ: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الزخرف: ٣٢].

وفي هذه الآية تنبيه وإرشاد إلى شكر نعمة الله تعالى على رسوله ﷺ وهذه الأمة، لأن الله

(١) ينظر: تفسير ابن أبي زمنين (١/ ٢٥٩)، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢/ ٣٧).

(٢) ينظر: تفسير المراغي (٣/ ١٢٥).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الجزية، باب: إذا غدر المشركون بالمسلمين هل يعفى عنهم، برقم (٣١٦٩).

حول النبوة من بني إسرائيل إلى النبي العربي القرشي المكي الأمي ﷺ[(١)]. وفيها تعريض بأن أهل الكتاب أعرضوا عن الإسلام حسداً على زوال النبوة والملك منهم[(٢)].

وقوله تعالى ﴿ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٢٧﴾ ﴾ متصل بالآية السابقة، فهذه كلها دلائل الملك والإرادة، ولا أحد يجادل الله تعالى في ملكه وتصرفه في الليل والنهار والحياة والمات[(٣)]، فيجب أن لا يجادلوا في انتقال النبوة والملك من بني إسرائيل إلى أمة الإسلام[(٤)].

وفي استخدام ألفاظ الليل والموت، والنهار والحياة إشارة إلى ما في الديانات الباطلة المحرفة من ظلمات الجهالة والشرك، وإلى ما حدث بظهور الإسلام من إبطال تلك الضلالات[(٥)].

وبعد هذه الآيات كلها، تأتي النتيجة المنطقية في قوله تعالى ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ ، فبعد بيان بغي أهل الكتاب وإعراضهم عن الحق، نهى الله تعالى عباده المؤمنين عن موالاة الكافرين، كما قال تعالى ﴿ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ ﴾ [الممتحنة: ١].

ومن اتخذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين فليس من الله في شيء، كما قال تعالى ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [المائدة: ٥١].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢/ ٣٧).

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٣/ ٦٧).

(٣) يرى المرحوم عبد العزيز باشا إسماعيل في كتابه الإسلام والطب الحديث أن المراد بإخراج الحي من الميت هو ما يحصل يومياً من أن الحي ينمو جسمه بأكل أشياء ميتة، وأما إخراج الميت من الحي فهو الإفرازات من الجسم كاللبن مثلاً. ينظر: تفسير المراغي حيث نقل ذلك (٣/ ١٢٩-١٣٠).

(٤) ينظر: تفسير المراغي (٣/ ١٢٨-١٢٩).

(٥) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٣/ ٦٩).



وكيف يمكن للمؤمن بالله تعالى أن يوالي أعداء الله، والله تعالى هو مالك الملك المتصرف فيه بما يشاء؟، كما سيأتي في وسط السورة الكريمة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٠-١٠١]. وقوله تعالى ﴿ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، إما أن يكون تقييداً للنهي كما هو ظاهر الآية، فيكون المنهي عنه اتخاذ الكافرين أولياءَ دون المؤمنين، أي: ولاية الكافرَ التي تنافي ولاية المؤمنين، وذلك عندما يكون في تولي الكافرين إضرار بالمؤمنين، وإما أن يكون النهي عن الموالاة مطلقاً بدون قيد، كما ورد في آيات كثيرة، وهناك أحوال وأحكام كثيرة في الموالاة، ليس هذا مجال تفصيلها، فالنهي ليس على عمومه[1]. واستثنى من هذا النهي حالة تجنب المكروه، بسبب الخوف ونحوه، والتقية تكون بالقول لا بالعمل وبقدر الضرورة، فقد صح عن ابن عباس ﷺما أنه قال: التقاة: التكلم باللسان[2].

وذكر المفعول المطلق في الآية ﴿ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ﴾ ، ليشير إلى وجوب أن تكون الحالة حالة ضرورة لا يمكن معها عدم الموالاة ظاهراً، كما كان عليه المستضعفون من المؤمنين الذين لم يتمكنوا من الهجرة في سبيل الله، كما قال تعالى ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ [النحل: ١٠٦][3]، فظاهر الآية يقتضي جواز موالاتهم عند الخوف منهم[4].

وختمت الآية بالتحذير من فعل المنهي عنه في الآية من موالاة الكافرين ومعادة المؤمنين، فقال تعالى ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ ، وأكد ذلك بالتذكير بأن المرجع والمصير إليه وحده لا

(١) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٣/ ٧١-٧٤)، والبحر المحيط لأبي حيان (٢/ ٤٤١).

(٢) أخرجه الحاكم وصححه في المستدرك، (٢/ ٣١٩) برقم (٣١٤٩)، وقال الذهبي في التلخيص: على شرط البخاري ومسلم.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٣/ ٧٥).

(٤) البحر المحيط لأبي حيان (٢/ ٤٤٣).



شريك له، فيجازي كل إنسان بعمله، ففي الآية تهديد ووعيد شديد وتحذير من المخالفة ومن التساهل في دعوى التقية واستمرارها أو طول زمانها[1].

وفي قوله تعالى ﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ إخبار وتنبيه على سبيل التحذير والتخويف، فهو سبحانه ﴿ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ﴾ [طه، آية: ٧].

والآية مرتبطة بما قبلها وبالسياق والمحور العام ارتباطاً وثيقاً[2]؛ لأن الآية السابقة تتحدث عن تحريم موالاة الكافرين إلا أن يكون ذلك على سبيل التقية خشية الضرر، وهذا أمر يقدّر بقدره وهو يتعلق بالسرائر، فجاءت هذه الآية للتنبيه على إحاطة علم الله تعالى بما في الصدور، وكمال قدرته على المؤاخذة على ذلك.

كما أن الآية مرتبطة بالسياق والمحور العام ارتباطاً وثيقاً كذلك، فالسياق في الحوار مع النصارى الذين يخفون كثيراً مما جاء في الكتب المقدسة، والآية هنا تنبه على إحاطة علم الله تعالى بما يخفون وما يبدون، وبكل ما في السموات وما في الأرض.

وقدم الإخفاء على الإبداء هنا فقال تعالى ﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ﴾ ، لأن المقام مقام محاورة مع أهل الكتاب من يهود ونصارى - حيث بدأت الآية بقوله تعالى ﴿ قُلْ ﴾ -، وهم قد أخفوا كثيراً مما أنزل الله عليهم من الكتاب، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴾ [المائدة، آية: ١٥]، ولذا استخدم لفظة العلم فقال ﴿ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ .

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٣/ ٧٥)، والبحر المحيط لأبي حيان (٢/ ٤٤٣).

(٢) قال الدكتور فاضل السامرائي في أسرار البيان في التعبير القرآني حول السياقين: (المحاسبة في سورة البقرة هي على ما يُبدي الإنسان وليس ما يُخفي ففي سياق المحاسبة قدّم الإبداء، أما في سورة آل عمران فالآية في سياق العلم لذا قدّم الإخفاء لأنه سبحانه يعلم السر وأخفى).

أما في سورة البقرة فقدم الإبداء على الإخفاء فقال تعالى ﴿ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة، آية: ٢٨٤]، لأن السياق هناك يتحدث عن أنواع من المعاملات بين البشر من أنواع الإنفاق والقروض وتحريم الربا وكتابة الدين والرهن وختمت الآيات بتحريم كتمان الشهادة، والمعاملات بين البشر تقوم عادة على الإبداء وليس على الإخفاء[١].

ثم قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ ﴾، وهذه الآية مرتبطة بالتحذير المذكور سابقاً في السياق من الحشر والحساب والجزاء، والتحذير من عذاب الله وغضبه، وكون المصير إلى الله، فبيّن ما يكون حينئذ، من الحسرة والندامة وتمني المستحيل. والتحذير في هذه الآية يمكن أن يكون تكراراً للتحذير السابق، زيادة في التأكيد والتهديد والوعيد[٢]، ويمكن أن يكون الأول تحذيراً من موالاة الكافرين، والثاني تحذيراً من أن يجدوا يوم القيامة ما عملوا من سوء محضراً[٣]. والتخويف الثاني موجه للمؤمنين بدلالة قوله تعالى في آخر الآية: ﴿ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ ﴾ ، قال الحسن البصري: من رأفته بهم حذّرهم نفسه[٤].

---

(١) وهناك لفتة أخرى في آية البقرة وهي استخدام لفظة الحساب ﴿ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾ بدل لفظة العلم ﴿ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ﴾، لأن السياق كما ذكرنا سياق معاملات. والله أعلم.
وثمة لفتة أخرى فيها، حيث قال تعالى ﴿ لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾، على سبيل الملك والحكم والتصرف المطلق، لأن السياق في المعاملات وهذا التعبير يناسبه كما لا يخفى.
أما في آية آل عمران فقال تعالى ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾، لأن السياق في الحوار معهم والتنديد عليهم بإخفاء الحق الذي أنزل إليهم، فاستخدم التعبير الدال على كمال العلم بكامل الكون، والله أعلم.

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢/ ٤١)، والتحرير والتنوير لابن عاشور (٣/ ٧٨).

(٣) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٣/ ٧٨).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم برقم (٣٣٩٨)، والطبري في تفسيره (٦/ ٣٢١)، برقم (٦٨٤٤).

ونظم الكلام في الآية يحتمل عدة أوجه؛ فيمكن أن يكون: تود كل نفس لو أن بينها وبين ما عملت من سوء أمداً بعيداً يوم تجد ما عملت من خير محضراً. ويمكن أن يكون: يحضر لكل نفس في يوم الإحضار ما عملت من خير وما عملت من سوء، فتود في ذلك اليوم لو أن بينها وبين ما عملت من سوء أمداً بعيداً. ويمكن أن يكون أصل النظم: يوم تجد كل نفس ما عملت من خير ومن شر محضراً، تود لو أن بينها وبين ذلك اليوم أمداً بعيداً[(١)].

وفي قوله تعالى ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ دليل على عدم القبول ممن ادّعى محبة الله ولم يلتزم بما جاء به رسول الله ﷺ، أو زعم إمكان الوصول إلى الله تعالى عبر سنن وطرائق لم يأت بها رسوله ﷺ[(٢)]، وهو ما حذّر منه عليه الصلاة والسلام بقوله (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ)[(٣)]. قال الحسن: جعل محبة رسوله محبته، وطاعته طاعته[(٤)].

وفي الآية تعريض بأهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين يظهرون حب الله ويزعمون حب الله لهم، ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾ [المائدة، آية: ١٨]، ثم لا يتبعون الرسول محمداً ﷺ ﴿ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ [الأعراف، آية: ١٥٧]، بل لا يتبعون رسولهم ولا ما أنزل عليه. فيجب على كل من يزعم حب الله تعالى وحب رسله عليهم السلام أن يتبع رسوله الخاتم رسول الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام.

ثم ختمت الآيات بالأمر بطاعة الله تعالى ورسوله محمد ﷺ، وحذرت من الإعراض عن

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٣/ ٧٧).

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢/ ٤٢)، والتحرير والتنوير، لابن عاشور (٣/ ٨١).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الأقضية، باب: نقض الأحكام الباطلة وردّ محدثات الأمور، برقم (١٧١٨)، وأخرجه البخاري في كتاب الصلح، باب: إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود برقم (٢٦٩٧) ومسلم في الموضع المذكور أعلاه بلفظ آخر: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد).

(٤) تفسير ابن أبي زمنين (١/ ٢٦١).

ذلك لأنه كفر، ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾، وإن زعموا أنهم يحبون الله ويتقربون إليه.

وفي قوله تعالى ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾ دون الفصل بينهما بتكرار الفعل إشارة إلى عدم القبول ممن زعم أنه يطيع الله تعالى دون طاعة الرسول، بل إن ذلك من الكفر، لذا ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

الدروس والعبر المستفادة من هذا المقطع:

- الدلائل على وحدانية الله تعالى كثيرة، فهو الحيّ القيوم، الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو مالك الملك، والمتصرف في هذا الكون، كالليل والنهار والحياة والموت، وما سوى ذلك مما لا قدرة للمخلوقات عليه.
- صفتا الحياة والقيومية لله تعالى كافيتان للردّ على شبهة إلوهية عيسى عليه السلام، ففيهما ردّ على ادّعاء النصارى أن عيسى عليه السلام إله، وابن إله، لأنهم زعموا أنه صلب فليس بحيّ وليس بقيوم[1].
- أنزل الله تعالى الكتب لهداية البشر، والقرآن الكريم هو آخر الكتب السماوية، وهم مصدّق لها، ومهيمن عليها.
- كون النبي ﷺ أمياً لا يقرأ ولا يكتب يُبْعِد عنه شبهة النقل عن أهل الكتاب أو أساطير غيرهم، وكون القرآن الكريم ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ يبعد عن النبي ﷺ شبهة الاختراع والتأليف.
- إحاطة علم الله تعالى بكل ما في الأرض والسماء، يعلم بما يخفيه أهل الكتاب من صفة الرسول ﷺ، وما يقوله أهل الزيغ والضلال، وأعداء الإسلام مما سيأتي في آيات السورة الكريمة.

---

(١) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، للكلبي (١/ ٩٩)، والتفسير الكبير للرازي (٧/ ١٣٥).

- في آية تصوير الأرحام إشارة إلى خلق عيسى عليه السلام وتصويره في رحم أمه مريم عليها السلام، ففيها إشارة إلى طبيعته وطبيعة أمه البشرية عليهما السلام، وهي إشارة بديعة في الحوار مع النصارى، ولهذا جاء بعدها إثبات وحدانية الله تعالى ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾.
- في آية تصوير الأرحام كذلك ردّ على القائلين بنظرية التطوّر (النشوء والارتقاء)، الذين يجعلون المخلوقات فاعلة مستبدّة[١].
- يجب على المؤمن العمل بمحكم الكتاب الكريم، والإيمان بالمتشابه منه، ودعاء الله تعالى بالهداية والاستقامة، وعدم تتبع الشبهات كما يفعل أهل الزيغ والضلالات.
- ليس مجرد طلب تأويل الآيات المتشابهة هو المذموم، وإنما المذموم هو التأويل بحسب الهوى وطلباً للفتنة.
- سبب وجود المتشابه في القرآن الكريم أن الدعوة عامة والشريعة دائمة، وذلك يقتضي فتح أبواب عبارات القرآن الكريم لاستنباط العلماء في كل عصر[٢]. بالإضافة إلى أن وجود المتشابه يعد امتحاناً يميّز الله به المؤمن الصادق الراسخ في إيمانه من غيره.
- كثرة الأموال والأولاد لا تغني من حساب الله يوم القيامة شيئاً، وإنما النجاة هناك متعلقة بعد توفيق الله تعالى ورحمته بالعمل الصالح المنبثق عن الإيمان بجميع ما في كتاب الله تعالى، وطاعة الله ورسوله ﷺ.
- إن ما يحبه الناس من الشهوات إنما هو متاع الحياة الدنيا، والآخرة خير وأبقى.
- الإسلام هو دين الله تعالى، وهو الدين الذي جاء به الرسل جميعهم، على اختلاف شرائعهم وتشريعاتهم.
- كفر أهل الكتاب، وقتلهم الأنبياء بغير حق، وقتلهم العلماء والدعاة، وسائر جرائمهم

(١) ينظر: تفسير القرطبي (٥/ ١٤).
(٢) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور، (٣/ ١٨).

الأخرى هي التي تسببت في نقل الرسالة منهم إلى أمة الإسلام.

- زعم أهل الكتاب أن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة هو الذي شجّعهم ويشجّعهم على ارتكاب جرائمهم.
- الملك لله تعالى يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء.
- لا يجوز للمؤمنين موالاة الكافرين على حساب إخوانهم المؤمنين إلا في حال الخوف الشديد تجنباً للمكروه، وتكون بالقول لا بالعمل وبقدر الضرورة.
- عدم القبول ممن ادّعى محبة الله ولم يلتزم بما جاء به الرسول ﷺ.
- وعدم القبول ممن زعم إمكان الوصول إلى الله تعالى عبر سنن وطرائق لم يأت بها الرسول ﷺ.

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

المناسبة ظاهرة جداً، بل إن هذا المقطع لخّص النقاش العام في السورة، حيث بدأ بإقرار وحدانية الله تعالى وأنه ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ ، وأثبت إنزال الكتب على رسله، وبين أن الأموال والأولاد لن ينفعوا الكفارَ شيئاً، وبين حقيقة الدنيا، واستخدم الترهيب والترغيب في ذلك، وقطع باب الجدال الذي لا يفضي إلى نتيجة، ثم دعت الآيات إلى مقاطعة أهل الكفر وعدم موالاتهم، وختمت بتوضيح حقيقة الحب والاتباع، وحذرت الكافرين من أن الله تعالى لا يحبهم. والآيات في كل ذلك تعرض بأهل الكتاب من اليهود والنصارى.

المقطع الثاني: اصطفاء الله تعالى لرسله عليهم السلام

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الآيات: ٣٣-٤٤].

مناسبة هذا المقطع لما قبله:

لما تقدّم قبل: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾، ووليه: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾، وختمها بأنه ﴿ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾، ذكر المصطفين الذين يجب اتباعهم فبدأ أولاً بأولهم وجوداً وأصلهم وثنى بنوح عليه السلام إذ هو آدم الأصغر ليس أحد على وجه الأرض إلاَّ من نسله ثم أتى ثالثاً بآل إبراهيم فاندرج فيهم رسول الله ﷺ المأمور باتباعه وطاعته وموسى عليه السلام ثم أتى رابعاً بآل عمران فاندرج في آله مريم وعيسى عليهما السلام، ونص على آل إبراهيم لخصوصية اليهود بهم، وعلى آل عمران لخصوصية النصارى بهم، فذكر تعالى جعلَ

هؤلاءِ صفوة أي مختارين[١]. وبعبارة أخرى: لما بين سبحانه أن محبته منوطة باتباع الرسول، فمن اتبعه كان صادقاً في دعوى حبه لله تعالى، اتبع ذلك ذكر من أحبهم واصطفاهم، وجعل منهم الرسل الذين يبينون طريق محبته، وهي الإيمان به مع طاعته[٢].

كما أن هذا المقطع نزل ردّاً على نصارى نجران لما غلوا في عيسى، وجعلوه ابن الله تعالى، واتخذوه إلهاً، ففيه إعلام لهم أن عيسى عليه السلام من ذرية البشر المتنقلين في الأطوار المستحيلة على الإله، واستطرد من ذلك إلى ولادة أمه، ثم إلى ولادته هو[٣]، ففيه تفصيل لبعض ما أجمل في سابقه.

التفسير الإجمالي:

يرجع الحديث في هذه الآيات إلى تاريخ اصطفاء واختيار الأنبياء والمرسلين، من آدم عليه السلام إلى سيد الأولين والآخرين، مصداقاً لما أخبر به الله تعالى في الآيات السابقة من وحدانيته وتفرده بالملك والتصرف فيه.

فيخبر تعالى أنه اصطفى واختار آدم عليه السلام وهو أبو البشر كلهم، ونوحاً عليه السلام وهو الأب الثاني للبشر، وآل إبراهيم عليه السلام، وهو أبو الأنبياء، ولذا جعل الاصطفاء للآل ولم يقصره على إبراهيم عليه السلام، إذ جعل في ذريته النبوة والكتاب، ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ﴾ [العنكبوت: ٢٧][٤].

---

(١) البحر المحيط، لأبي حيان (٢/ ٤٥٢)، وينظر: تفسير المراغي (٣/ ١٣٨). وينظر في أوجه اصطفاء هؤلاء الأنبياء عليهم السلام: البحر المحيط لأبي حيان (٢/ ٤٥٢-٤٥٣)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٤٣-٤٤)، ونظم الدرر للبقاعي (٤/ ٣٤٢-٣٤٨).

(٢) ينظر: تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار، للشيخ محمد عبده، (٣/ ٢٨٧-٢٨٨).

(٣) البحر المحيط، لأبي حيان (٢/ ٤٥٢).

(٤) وقد وردت نفس العبارة عنه وعن نوح عليهما السلام، ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ﴾ [الحديد: ٢٦]، ووجه ذلك أن نوحاً عليه السلام هو أبو البشر الثاني، وبالتالي أبو الأنبياء أيضاً، والله أعلم.

واصطفاء هؤلاء إنما هو اصطفاء لدينهم، وهو دين الإسلام، اصطفاه الله على سائر الأديان[١]، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ ﴾ .

والمقصود بآل إبراهيم وآل عمران: المؤمنون، لأن آل الرجل هم أتباعه وقومه ومن هم على دينه[٢]، كما سيأتي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٨ ﴾ [آل عمران: ٦٨].

وقوله تعالى ﴿ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ ، إشارة إلى أنهم من جنس البشر، يسري عليهم ما يسري على البشر، وفي هذا تعريض بضلال النصارى في دعواهم. ثم أكّد هذا المعنى بقوله تعالى ﴿ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖ ﴾ ، فهم كلهم من بني آدم[٣]، كما أن بعضهم من بعض في الموالاة في الدين، والمؤازرة على الإسلام والحق[٤]، ومشتركون في توحيد الله تعالى والإخلاص له[٥]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ، اصطفاهم على تمام العلم، ويسمع أقوال الناس فيهم ويعلم أحوالهم معهم[٦].

تتجه الآيات بعد ذلك للحديث عن آل عمران[٧]، وقيل إن عمران هو أبو موسى عليه السلام، أو هو عمران أبو مريم عليها السلام، والثاني ألصق بالسياق[٨]، أما عمران الثاني

---

(١) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لابن جرير الطبري (٦/ ٣٢٦).
(٢) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لابن جرير الطبري (٦/ ٣٢٦).
(٣) ينظر: نظم الدرر للبقاعي (٤/ ٣٤٥).
(٤) تفسير الطبري (٦/ ٣٢٧).
(٥) أخرج الطبري معناه بسنده الحسن عن قتادة (٦/ ٣٢٨).
(٦) ينظر: نظم الدرر للبقاعي (٤/ ٣٤٨-٣٤٩).
(٧) متجاوزة الحديث عن آدم ونوح وآل إبراهيم عليهم السلام، حيث تقدم الحديث عن آدم عليه السلام في سورة البقرة، كما تقدم الحديث عن اصطفاء إبراهيم وآله عليهم السلام، وطوى ذكر نوح عليه السلام لأن المقصود من ذكره عليه السلام كونه في عمود النسب، وليس في أمر ولادته ما هو خارج عن العادة. ينظر: نظم الدرر للبقاعي (٤/ ٣٤٩).
(٨) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان (٢/ ٤٥٣). وينظر: التفسير المنير لوهبة الزحيلي (٣/ ٢١٣)، حيث جزم

المذكورة امرأته فهو أبو مريم عليها السلام قولاً واحداً.

كانت امرأة عمران عاقراً لم يقدّر لها الولد، واشتاقت بفطرتها للأمومة، فدعت الله تعالى فرزقها الله بالحمل. وتبدأ الآيات سرد الأحداث من نذر امرأة عمران بعد تحققها الحمل، حيث قالت ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾ خالصاً لخدمة بيت المقدس، ﴿ فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ ﴾ هذا النذر، ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ﴾ لقولي ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بنيتي وقصدي.

فلما وضعت امرأة عمران حملها تحسرت لأن المولودة أنثى، وهي قد نذرت حملها لخدمة بيت المقدس، والأنثى لا تصلح لذلك بسبب ما يجري عليها من أمور الطبيعة، ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ ، إشارة إلى كمال علم الله تعالى من جهة، وبيان مكانة مريم عليها السلام من جهة أخرى، حيث إنها ممن كَمُل من النساء، وهي مكانة لا يصلها أكثر الرجال، كما قال النبي ﷺ: (كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون)[1].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾ ، إما أن يكون من كلام امرأة عمران خوفاً من أن لا تكون الأنثى التي وضعتها كافية للوفاء بالنذر. كما يمكن أن يكون من كلام الله سبحانه وتعالى؛ أي: وليس الذكر الذي أرادته للنذر كالأنثى التي وضعتها، إبرازاً لمكانة مريم عليها السلام[2]. ثم تابعت مناجاتها قائلة: ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ ، وفي الآية إشعار بأن الله تعالى أوحى إليها أن هذه المولودة سيكون لها ولذريتها شأن عظيم[3]. وقد استجاب الله تعالى دعاءها وتضرعها، وأعاذها وابنها من الشيطان الرجيم،

أنه أبو موسى عليه السلام في الموضع الأول، مخالفاً لما قاله قبل ذلك من الجزم بأنه والد مريم أم عيسى عليهما السلام (٣/ ٢١١).

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء، باب: قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ ﴾، برقم (٣٤٣٤)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب: فضل خديجة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها، برقم (٢٤٣١).

(٢) ينظر: نظم الدرر للبقاعي (٤/ ٣٥٣).

(٣) ينظر: نظم الدرر للبقاعي (٤/ ٣٥٥).



كما قال النبي ﷺ: (ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسُّه حين يولد فيستهلُّ صارخاً من مسّ الشيطان إياه، إلا مريم وابنها)[١].

تقبل الله تعالى نذر امرأة عمران ﴿ بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾ ، وحفظ مريم ورعاها، ﴿ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ ، والحسن في الموضعين عام، فيشمل كل ما يطلق عليه هذا الاسم، من شكل مليح ومنظر بهيج، وتيسير أسباب القبول، والصحبة الصالحة الدالة على الخير والعلم والدين[٢]، وكان من تمام ذلك أن جعل نبيه زكريا عليه السلام كافلاً لها، لتقتبس من علمه وصلاحه، ولأنه كان زوج خالتها، وقيل زوج أختها[٣]، كما ورد في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: (فلما خلصتُ إذا يحيى وعيسى وهما ابنا الخالة)[٤]. وقد كانوا اختلفوا في كفالتها، كلهم يريد ذلك، حتى اقترعوا وألقوا أقلامهم، كما قال تعالى ﴿ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾ [آل عمران: ٤٤]، فكانت الكفالة من نصيب زكريا عليه السلام، فكانت بركة لكليهما؛ حسن إنبات لمريم عليها السلام، وسبباً في دعاء زكريا وإيتائه ولداً يكون نبياً هو يحيى عليهما السلام.

تنتقل الآيات لتخبر عن أحد أوجه الإكرام والاصطفاء لمريم عليها السلام، حيث أنه ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾ ، تتغذى به، قيل: كان يجد عندها فاكهة

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، في تفسير هذه الآية، برقم (٤٥٤٨)، ومسلم في كتاب الفضائل، باب: فضائل عيسى عليه السلام، برقم (٢٣٦٦).

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢/ ٤٦).

(٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢/ ٤٦-٤٧). والقول الثاني بعيد جداً، لأنه من غير المعروف أنه كان لمريم عليها السلام أخت، ليتزوجها زكريا عليه السلام. بالإضافة إلى أنه لو كان لها أخت فستكون أصغر منها، لأنها أول مولودة لأمها التي كانت عاقراً حسب الظاهر. وبالتالي لا يمكن أن تكون زوجة لزكريا عليه السلام الذي استبطأ الولد وقد بلغ من الكبر عتياً.
وأما ما جاء في الحديث الشريف فيمكن حمله على زوج الخالة أيضاً حيث (الخالة بمنزلة الأم)، وينظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٤٧)، والله أعلم.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب: المعراج، برقم (٣٨٨٧).

الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء[1]، وهذا من الكرامات التي يكرم بها الله تعالى من شاء من عباده[2].

عندما يرى زكريا عليه السلام هذا الأمر يسأل مريم عليها السلام عنه ﴿ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ ، فتجيبه قائلة: ﴿ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ ، الرزاق الكريم، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴾، والجملة الأخيرة تحتمل أن تكون من كلام مريم عليها السلام، كما تحتمل أن تكون كلاماً مستأنفاً تأكيداً للحقيقة التي سبقت في السورة ﴿ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٢٧ ﴾ [آل عمران: ٢٧].

لما شاهد زكريا عليه السلام هذا الرزق معاينة رجا الولد من الله تعالى، وكانت الأسباب المعتادة من البشر غير متوفرة له ولزوجه؛ إذ كان شيخاً كبيراً وهن عظمه وشاب رأسه، وامرأته عاقراً، لكن رؤية رزق الله تعالى أطمعه في مناجاته طالباً الذرية الطيبة، فقال: ﴿ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ .

استجاب الله تعالى لدعاء عبده زكريا عليه السلام، ﴿ فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ ﴾ ناقلة البشارة من الله تعالى له بولد من صلبه اسمه يحيى.

ثم ذكرت في البشارة ما يكون عليه يحيى عليه السلام من صفات وخصائص، وهي:

أنه يكون ﴿ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ والمقصود عيسى عليه السلام[3]، كما قال تعالى:

---

(١) ينظر في ذلك: تفسير الطبري (٦/ ٣٥٣-٣٥٦)، وتفسير ابن أبي حاتم (٣٤٤٥).

(٢) تقديم شبه الجملة ﴿ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ﴾ في الآية لأن الكلام في الآية والآيات التي سبقتها عن مريم عليها السلام وليس عن زكريا عليه السلام ولا المحراب لذا قدّم ﴿ عَلَيۡهَا ﴾ لأن الكلام كله عن مريم عليها السلام، يقول سيبويه في التقديم والتأخير: يقدمون الذي هو أهمّ لهم، وهم أعنى به. تراجع محاضرة: أسرار البيان في التعبير القرآني، ألقاها الدكتور فاضل صالح السامرائي ضمن فعاليات جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم عام ٢٠٠٢م.

(٣) ينظر: تفسير الطبري (٦/ ٣٧١-٣٧٣).



﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٥]، وأطلق عليه ذلك لأن الله تعالى خلقه بكلمة ﴿كُن﴾، كما قال تعالى عن خلق عيسى عليه السلام: ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧].

وأنه يكون {سيداً}، أي: سيداً في الخُلق والدين والعلم والفقه، وعدم تمكن الغضب منه[1].

وأنه يكون {حصوراً}، أي: لا يأتي النساء، ولا يولد له[2]. ومدح يحيى عليه السلام بأنه حصور ليس مجرد أنه لا يأتي النساء[3]، إذ هو ليس مقصوداً لذاته؛ بل معناه أنه معصوم عن الفواحش والمعاصي.

وأنه يكون ﴿نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، أي: أن الله سيصطفيه ليكون نبياً من أنبيائه الصالحين. والبشارة بنبوة يحيى عليه السلام زيادة على مجرد البشارة الأولى بحصول الولد.

ولما سمع زكريا عليه السلام بهذه البشارة، تعجب من كيفية حصول ذلك، لا من مجرد حصوله؛ أي تعجب هل سيكون بالطريقة المعتادة وهو شيخ طاعن في السن وامرأته عاقر، أم سيكون بمعجزة لا تعرف أسبابها كما في الرزق الذي يأتي لمريم عليها السلام. فأجابته الملائكة بالقول: ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

فرح زكريا عليه السلام بهذه البشارة، وطلب علامة ليعرف بها حصول الحمل والولد، فكانت الآية عدم استطاعته النطق بدون مرض ولا علة، كما قال تعالى: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٠]، وواضح أن هذه الآية هي آية خاصة له لا يتحقق

(١) ينظر: تفسير الطبري (٦/ ٣٧٤-٣٧٦).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٦/ ٣٧٦-٣٨٠)، وابن أبي حاتم في عدة آثار (٣٤٦٤-٣٤٦٨).

(٣) يرى بعض العلماء أنه يفهم من دعاء زكريا عليه السلام بقوله ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ أن يحيى عليه السلام ربما يكون تزوج ووجد له نسل وذرية وعقب. ينظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٥٢).



منها إلا هو.

ثم أمره الله تعالى بكثرة الذكر والتسبيح آناء الليل وأطراف النهار ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ ، وهو ما قام به زكريا عليه السلام خير قيام، بل زاد على ذلك أن أمر قومه بفعل ما أُمر هو به ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ ﴾ [مريم: ١١].

وهنا تتوقف السورة عن ذكر المزيد من قصة يحيى عليه السلام، وتنتقل إلى ما هو أهم في هذا السياق، وهو متابعة قصة مريم عليها السلام، لتكون مدخلاً إلى قصة ولدها عيسى عليه السلام، وهي أساس في الحوار مع النصارى.

وتتابع الآيات من مخاطبة الملائكة لمريم عليها السلام، وبيان اصطفاء الله تعالى لها وتفضيلها على نساء العالمين، فتقول لها الملائكة ﴿ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ ﴾ لكثرة عبادتك وزهدك وشرفك، ﴿ وَطَهَّرَكِ ﴾ من الأكدار والوسواس ﴿ وَٱصْطَفَىٰكِ ﴾ مرة أخرى لجلالتك وفضلك ﴿ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [1]. وقد قال ﷺ: (خير نسائها مريم ابنة عمران، وخير نسائها خديجة)[2]. ثم أمرتها الملائكة بكثرة العبادة والخشوع والخضوع والسجود والركوع لله تعالى؛ ﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [3]، وهو ما قامت به مريم عليها السلام التي أنبتها الله نباتاً حسناً. وهذا الخطاب من الملائكة تمهيد ضروري لما سيكون بعد ذلك من بشارة بعيسى عليه السلام، وهو أمر مهول جداً على المرأة الحرّة الشريفة، فكيف

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٥٣).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: تفسير قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ ﴾، برقم (٣٤٣٢)، وفي كتاب المناقب، باب: تزويج النبي ﷺ خديجة، برقم (٣٨١٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها، برقم (٢٤٣٠).

(٣) وفي الآية تدرج من الكثرة إلى القلة، فبدأ بالقنوت وهو عموم العبادة ثم السجود وهو أخصّ وأقلّ ثم الركوع وهو أقلّ وأخصّ. تراجع: محاضرة: أسرار البيان في التعبير القرآني، ألقاها الدكتور فاضل صالح السامرائي ضمن فعاليات جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم عام ٢٠٠٢م..

بامرأة هي من أكمل النساء كمريم عليها السلام.

ثم وصلت الآيات إلى نتيجة حتمية بأن ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ المذكور من الأخبار هو ﴿ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ ﴾ الماضي، ﴿ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ ؛ أوحاه الله تعالى إلى نبيه ﷺ، وهو من دلائل نبوته ﷺ، ومن دلائل إعجاز القرآن الكريم[١]؛ لأن النبي ﷺ ما كان هناك، ولا عاش هذه الحوادث، ولا سمعها من أحد، ولا عرفها أحد من قومه، ولذا قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ ﴾ وهم يستهمون ويقترعون ﴿ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾ ويتولى تربيتها والعناية بها، ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ في ذلك.

الدروس والعبر المستفادة من هذا المقطع:

- مرتبة النبوة والرسالة اصطفاء محض من الله تعالى لمن يشاء من عباده.
- اصطفاء الأنبياء إنما هو اصطفاء لدينهم، وهو دين الإسلام، اصطفاه الله على سائر الأديان[٢]، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ .
- الأنبياء بعضهم من بعض، جاءوا بتوحيد الله تعالى وإخلاص العبادة له.
- لا خلاف في وجود فارق خَلْقي بين الرجل والمرأة، وأنهما لا يستويان في ذلك، ولكن هذا لا يعني إطلاق تفضيل جنس الرجل على جنس المرأة، فمريم عليها السلام كانت خيراً لأمها من الذكر الذي أرادته.
- استحباب تعويذ الأولاد والذرية، والدعاء لهم بالحفظ والرعاية والخير والبركة، لما له من أثر عظيم في مستقبلهم.
- أهمية الصحبة الصالحة في تربية الناشئة، لتربيهم على الخير والعلم والدين، وليقتبسوا من علمهم وصلاحهم.

---

(١) ينظر: الباب الثالث من كتاب إعجاز القرآن الكريم لغير العرب، د. محمد عيادة الكبيسي.

(٢) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لابن جرير الطبري (٦/ ٣٢٦).

- مشروعية القرعة لحلّ بعض الاختلافات.
- مشروعية الدعاء حتى في الأمور التي يستبعد وقوعها في الطبيعة.
- إخبار النبي ﷺ بالأمور الغيبية الماضية هي وحي أوحاه الله تعالى إليه، وهو من دلائل نبوته ﷺ، ومن دلائل إعجاز القرآن الكريم.

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

هذا المقطع يتناسب مع محور السورة الذي هو توحيد الله تعالى، حيث تناول هذا المقطع اصطفاء الله تعالى لأنبيائه، ووحدة دينهم ودعوتهم، وفيه بيان أن قدسية هؤلاء وتكريمهم إنما هو باصطفاء الله واختياره لهم، وما يجري لهم من كرامات ومعجزات إنما هو من عند الله تعالى، ولا دخل لأشخاصهم فيه.

المقطع الثالث: بيان حقيقة عيسى عليه السلام

قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الآيات: ٤٥-٦٣].

مناسبة المقطع لسابقه:

يتواصل الحديث من المقطع السابق، فبعد أن بيّن الله تعالى اصطفاء من شاء من عباده وآلهم وذريتهم على العالمين، وذكر أنّ منهم آل عمران، وذكر اصطفاء وإكرام مريم عليها السلام، شرع في ذكر حقيقة عيسى ابن مريم عليه السلام، وما ظهر على يديه من معجزات خارقة، ثم وفاته من هذه الدنيا.

التفسير الإجمالي:

تنتقل القصة إلى حادثة البشارة بعيسى عليه السلام. وفيها إخبار من الملائكة لمريم عليها السلام بالبشارة العظيمة من الله تعالى أنه سيكون منها ولد له شأن عظيم في الدنيا والآخرة، ومكانة عند الله تعالى.

والمراد بالملائكة هنا جبريل عليه السلام جاءها على هيئة البشر، كما قال تعالى ﴿ فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ ﴾ [مريم: ١٧]. وقوله تعالى ﴿ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ﴾ أي: بكلمة من الله تعالى، كما مرّ في الآيات، وأطلق هذا الوصف على عيسى عليه السلام لأن الله تعالى خلقه بكلمة ﴿ كُن ﴾، وأما اسمه فهو المسيح عيسى ابن مريم عليهما السلام، وتسميته بالمسيح: قيل لكثرة سياحته، وقيل: لأنه كان مسيح القدمين: أي لا أَخْمَص لهما. وقيل: لأنه كان إذا مسح أحدًا من ذوي العاهات برئ بإذن الله تعالى[1]. وهذه التسمية جمعت بين الاصطفاء وبيان الطبيعة البشرية، فهو المسيح، وهو ابن مريم عليهما السلام. وبالإضافة إلى ذلك فإنه ﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ ﴾ أي: وهو صغير رضيع، كما قال ﷺ: (لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة عيسى ...)[2]. ويكلمهم ﴿ وَكَهْلًا ﴾، أي: يدعو إلى عبادة الله تعالى والعمل الصالح صغيراً

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢/ ٥٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء باب: قول الله تعالى ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ ﴾، برقم (٣٤٣٦)، ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب: تقديم بر الوالدين على التطوع بالصلاة، برقم (٢٥٥٠).

في مهده، وكبيراً بعد بعثته. والكهل: منتهى الحُلُم[1]. وهو ﴿ وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ في قوله وعلمه وعمله، كما قال تعالى على لسانه: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ ﴾ [مريم: ٣٠-٣١].

ولما سمعت مريم عليها السلام بهذه البشارة العجيبة، قالت تناجي ربها عز وجل وهي متعجبة: ﴿ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾، أي: كيف يكون لي ولد ولم أتزوج أحداً، فأجابها جبريل عليه السلام: ﴿ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾، وقد خلق آدم عليه السلام من تراب من غير أب ولا أم، كما سيأتي: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾ [آل عمران: ٥٩].

وعبّر هنا (بالخلق) ﴿ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾، بدلاً من التعبير (بالفعل) الذي مرّ في قصة زكريا عليه السلام ﴿ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾، لأن ولادة العذراء من غير أن يمسّها بشر أبدع وأغرب في الخلق من ولادة عجوز عاقر من شيخ طاعن بالطريقة المعتادة وإن كان ذلك نادراً، فكان لفظ (الخلق) الدالّ على الاختراع أنسب بهذا المقام من لفظ (الفعل)[2].

ثم تواصل الآيات البشارة بذكر المزيد عن عيسى عليه السلام، وذلك أن الله سيعلمه ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ أي: الكتابة والخط، ﴿ ٱلْحِكْمَةَ ﴾ وهي: السنة التي يُوحيها إليه في غير كتاب، ﴿ وَٱلتَّوْرَىٰةَ ﴾، وهي: التي أنزلت على موسى عليه السلام، ﴿ ٱلْإِنجِيلَ ﴾، وهو إنجيل عيسى عليه السلام الذي سيوحى إليه[3]. ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ أي: سيبعث رسولاً إلى بني إسرائيل، قائلاً لهم: ﴿ قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي: معجزات دالة على صدقي في رسالتي، وهي: ﴿ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾، فقد كان

---

(١) كتاب تفسير القرآن من الجامع لابن وهب، (١/ ١١٠).

(٢) ينظر: تفسير أبي السعود (٢/ ٣٧)، وتفسير ابن عطية (١/ ٤٣٧)، والبحر المحيط لأبي حيان (٢/ ٤٨٤)، وقطف الأزهار للسيوطي (١/ ٥٩٣)، والتفسير المنير لوهبة الزحيلي (٣/ ٢٣١).

(٣) تفسير الطبري، (٦/ ٤٢٢).

عليه السلام يصوّر تمثالاً من الطين على شكل طير، ثم ينفخ في هذا التمثال فيصير طيراً حيّاً بإذن الله تعالى، الذي جعلها معجزة لعيسى عليه السلام. ﴿ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ ﴾ وهو: الذي يولد أعمى[1]، وأبرئ ﴿ وَٱلْأَبْرَصَ ﴾ المصاب بالمرض الجلدي المعروف، ﴿ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ وهي أشهر معجزات عيسى عليه السلام الذي بعث في قوم اشتهروا بالطب فكانت المعجزات من جنس ما اشتهروا به، لتكون أبلغ في الدلالة وأقوى في التحدي. وكل هذه المعجزات هي ﴿ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ الخالق الواحد سبحانه وتعالى، ﴿ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾ من طعام. وفي هذه المعجزات ما هو كفاية لمن آمن ولمن أراد الإيمان.

﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾، فإن عيسى عليه السلام لم يأتِ بدين جديد بالكلية، كما أنه لم يلغِ التوراة، بل كان مصدقاً لما جاء فيها، ناسخاً لبعض ما فيها[2]، مخففاً لبعض ما فيها من أحكام، كما قال: ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ مما حرّم على بني إسرائيل بظلمهم، كما قال تعالى: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ ﴾ [النساء: ١٦٠]. وقوله: ﴿ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ تأكيد لقوله السابق، وتأكيد على مصدر هذه المعجزات أنها من عند الله تعالى، ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ فيما أرسلت به، وهو: توحيد الله تعالى وعبادته، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ﴾ فكلنا في العبودية له سواء، ﴿ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾، وطريق قويم، اتفق عليه المرسلون عليهم السلام.

---

(١) وقيل: هو الذي يبصر نهاراً ولا يبصر ليلاً، وقيل بالعكس، وقيل هو الأعشى، وقيل هو الأعمش. والقول المختار أعلاه أشبه بالصواب، لأنه أبلغ في المعجزة وأقوى في التحدي. ينظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٥٩). وهذا القول يناسب ما أوتي من معجزات فيها خوارق طبية من النفخ في صور الطين، وإحياء الموتى، والله أعلم.

(٢) هذا أصح القولين في المسألة، ومن العلماء من قال: لم ينسخ من التوراة شيئاً، بل أحل لهم بعض ما كانوا يتنازعون فيه فأخطئوا فكشف لهم عن المغطى في ذلك، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ [الزخرف: ٦٣]. ينظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٦٠).

لم تكن استجابة بني إسرائيل لعيسى عليه السلام جيدة، بل لقد ﴿ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ ﴾، وهنا قال لهم حاسماً لتلاعباتهم: ﴿ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾، فأجاب ﴿ ٱلْحَوَارِيُّونَ ﴾ الصادقون الذين آمنوا به قائلين: ﴿ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾. والحواريون جمع حواري، وهو الناصر[1]. وناجى الحواريون ربهم صادقين: ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ من أولي العلم الذين شهدوا بوحدانيتك.

ثم تنتقل الآيات إلى الحديث عن بقية بني إسرائيل الذين تآمروا على عيسى عليه السلام ﴿ وَمَكَرُواْ ﴾ ووشوا به إلى ملكهم الكافر ليقتله، ﴿ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ﴾ بهم ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ وذلك كما قال تعالى ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ حيث ألقى الله تعالى شبه عيسى عليه السلام على أحد المتآمرين، أو شبه لهم أنهم قتلوه أو صلبوه، ودفع الله كيدهم عن نبيه عيسى عليه السلام، وخلصه منهم[2].

ذهب جمهور أهل السنة والجماعة إلى أن الله رفع المسيح عليه السلام إلى السماء بجسده وروحه، سئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن رجلين تنازعا في أمر نبي الله عيسى عليه السلام فقال أحدهما: إن عيسى ابن مريم توفاه الله ثم رفعه إليه، وقال الآخر: بل رفعه الله إليه حياً فما الصواب في ذلك؟ وهل رفعه بجسده أو روحه أم لا؟ وما الدليل على هذا وهذا؟ وما تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾.

---

(١) كما قال النبي ﷺ: (إن لكل نبي حواريَّ وإن حواريَّ الزبيرُ)، أخرجه البخاري (٤١١٣)، ومسلم (٢٤١٥). وقيل سمي الحواريون: لبياض ثيابهم، ويطلق الحواري على: الخالص والخليل والمخلص والناصح والخصيص والمجاهد والمفضل ومن يصحب الكبير ومن يصلح لخلافة كبيرة. ينظر: هدي الساري مقدمة فتح الباري، لابن حجر (ص١٠٩).

(٢) العجب أن النصارى يسمون عيسى عليه السلام (المخلِّص) بالكسر. وجدير أن يسمى عيسى عليه السلام (المخلَّص) بالفتح، إذ أنه ما خلّص أحداً، ولكن الله خلّصه، والله أعلم.

فأجاب: الحمد لله، عيسى عليه السلام حيّ، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: (ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً وإماماً مقسطاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير ويضع الجزية)، وثبت في الصحيح عنه أنه ينزل على المنارة البيضاء شرقي دمشق، وأنه يقتل الدجال، ومن فارقت روحه جسده ولم ينزل جسده من السماء، وإذا أحيي فإنه يقوم من قبره، وأما قوله تعالى: ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ فهذا دليل على أنه لم يعنِ بذلك الموت، إذ لو أراد بذلك الموت لكان عيسى في ذلك كسائر المؤمنين، فإن الله يقبض أرواحهم ويعرج بها إلى السماء فعلم أن ليس في ذلك خاصية، وكذلك قوله: ﴿ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾، ولو كانت قد فارقت روحه جسده لكان بدنه في الأرض كبدن سائر الأنبياء أو غيره من الأنبياء، وقد قال الله تعالى في الآية الأخرى: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ۝١٥٧ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ فقوله هنا: ﴿ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ يبين أنه رفع بدنه وروحه كما ثبت في الصحيح أنه ينزل بدنه وروحه، إذ لو أريد موته لقال: وما قتلوه وما صلبوه بل مات.ا.هـ كلام ابن تيمية رحمه الله[1].

وقوله تعالى ﴿ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي: بأن أنقذتك منهم ومن كيدهم ومكرهم، وخلصتك من القتل والصلب، ﴿ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ أي: اتباعك الصادقون، وذلك أن بني إسرائيل اختلفوا في عيسى عليه السلام كما سيأتي، وهذا التفضيل خاصّ بهم في وقتهم، وبمن اتبع النبي محمداً ﷺ بعد بعثته، إذ أن صدق اتباع عيسى عليه السلام يقتضي اتباع النبي محمد ﷺ الذي بشّر به عيسى عليه السلام، ولأن من آمن بمحمد ﷺ فقد آمن بجميع الأنبياء ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ من صدق

---

(١) انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية، جمع وترتيب عبدالرحمن بن محمد بن قاسم، المجلد الرابع ص٣٢٢، ٣٢٣. ط وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية.

عيسى عليه السلام خلافاً لمن كفر به، وخلافاً لمن ادعوا ألوهيته وغير ذلك، ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ وهذا وعيد بالعذاب الشديد في الدنيا والآخرة لمن كفر به واتهمه من اليهود، وللذين غلوا فيه وادعوا ألوهيته من النصارى. ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ ﴾ الله تعالى﴿ أُجُورَهُمْ ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ، وإيراد الظلم للإشعار بأنهم بكفرهم متعدون متجاوزون على الحدود واضعون للكفر مكان الشكر والإيمان، والجملة تذييل وتقرير وتفسير للحكم المذكور[1].

وفي الآية التفات، حيث جاء التعبير بضمير الغائب ﴿ فَيُوَفِّيهِمْ ﴾ وكان الظاهر أن يقول (فأوفيهم) كما قال قبلها ﴿ فَأُعَذِّبُهُمْ ﴾ ، ولعل المراد من هذا التعبير التخفيف من وقع التهديد السابق بالعذاب، فجاء بصيغة مغايرة تطميناً وتسكيناً لقلوب السامعين، والله أعلم.

وأما على القراءة بنون العظمة {فنوفيهم} فإن الغاية من الالتفات فيها هو إظهار عظمة الله تعالى وبالتالي تعظيم أوليائه، وبيان تمام الاعتناء بهم[2].

وقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ ﴾ أي: هذا الذي مرّ من أمر عيسى عليه السلام وأمر ولادته ومعجزاته هو من قول الله تعالى الذي أوحاه وأنزله عليك يا نبي الله عليك الصلاة والسلام، وهو الحق لا مرية فيه، كما قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [مريم: ٣٤].

ثم تعود الآيات للمناقشة بشأن خلق عيسى عليه السلام المعجز، ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أي: في قدرة الله تعالى حيث خلقه من غير أب، ﴿ كَمَثَلِ ءَادَمَ ﴾ إذ خلقه الله تعالى من غير أب ولا أم، بل ﴿ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ والذي خلق آدم قادر على

(١) تفسير أبو السعود (٢/ ٤٥)، وينظر: تفسير النسفي (١/ ١٥٧)، وفتح القدير للشوكاني (١/ ٣٤٥).
(٢) ينظر: نظم الدرر للبقاعي (٤/ ٤٢٢-٤٢٣).



خلق عيسى عليه السلام بطريق الأولى والأحرى، وإن جاز ادعاء البنوة في عيسى عليه السلام فجواز ذلك في آدم عليه السلام بطريق الأولى[١]، وهذا هو القول ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ في أمر عيسى عليه السلام ﴿ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ ، وفي الآية والسياق تعريض بالنصارى الشاكين في أمر وحقيقة عيسى عليه السلام، ولا يزالون مختلفين إلى زماننا هذا.

بعد هذا البيان والتوضيح تأتي آية المباهلة الشهيرة، حيث أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يباهل من جادل وحاجّ في أمر عيسى عليه السلام بعد ما تبين الحق، فقال تعالى: ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ ﴾ من الطرفين، فأيهما استحق هذا الوصف استحق اللعنة من الله تعالى. وقصة المباهلة ووفد نجران مبثوثة في كتب السيرة والتاريخ[٢]، وعندما جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه قال أحدهما لصاحبه: لا تفعل فوالله لئن كان نبيا فلاعنا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا[٣]. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: (لو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالاً ولا أهلاً)[٤].

ثم كانت خاتمة الآيات والمقطع بقوله تعالى ﴿ إِنَّ هَٰذَا ﴾ الذي قصصناه عليك وبيناه لك من أمر عيسى السلام ﴿ لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ﴾ ، وعيسى عليه السلام عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وهو ليس بإله، ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾، وحده لا شريك له، ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ وقد اقتضت حكمته خلق عيسى عليه السلام من غير أب، ليكون

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢/ ٦٥-٦٦).

(٢) ينظر: سيرة ابن هشام (٣/ ١٢٥-١٢٦)، وتاريخ المدينة لابن شبة (٢/ ٥٨٥)، والبداية والنهاية لابن كثير (٢/ ٦٩)، و (٥/ ٥٢-٥٥)، ودلائل النبوة للبيهقي (٥/ ٣٨٢-٣٩٢)، وتاريخ الإسلام للذهبي (٢/ ٦٩٥-٦٩٨)، وغيرها.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب: قصة أهل نجران (٤٣٨٠).

(٤) أخرجه أحمد في مسنده برقم (٢٢٢٦).

آية للناس وليظهر الله تعالى قدرته لخلقه كما قال ﴿ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾ [مريم: ٢١]؛ فخلق آدم عليه السلام من غير ذكر ولا أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى عليه السلام من أنثى بلا ذكر، وخلق سائر الخلق من ذكر وأنثى[1]. ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ عن هذا الحق بعد أن عرفوه فأولئك هم المفسدون، والله ﴿ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ وسيجازيهم على أفعالهم وأقوالهم.

الدروس والعبر المستفادة من هذا المقطع:

- مكانة عيسى عليه السلام في الدنيا والآخرة تستدعي بشارة أمه بمولده.
- قدرة الله تعالى على خلق ما شاء كيفما شاء، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، سبحانه وتعالى.
- المعجزات والخوارق التي تظهر على أيدي الأنبياء، والكرامات التي تظهر على أيدي بعض الأولياء إنما هي بأمر الله وإذنه، وفعله وقدرته، يظهرها لحكم عظيمة.
- لم يأتِ عيسى عليه السلام بدين جديد، كما أنه لم يلغِ التوراة، بل كان مصدقاً لما جاء فيها، ناسخاً ومخففاً لبعض ما فيها من أحكام.
- لم يستجب بنو إسرائيل لعيسى عليه السلام، بل كانوا يتلاعبون ويراوغون، حتى ﴿ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ ﴾.
- دعوى صلب عيسى عليه السلام قد تكون أكبر خدعة وكذبة في تاريخ البشرية، فقد خلّص الله تعالى نبيه عيسى عليه السلام من مكر بني إسرائيل، فلم يتمكنوا من قتله أو صلبه.
- عجز عيسى عليه السلام عن الدفاع نفسه أو الهروب ممن أرادوا قتله أو صلبه دليل على بشريته.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢/ ٦٦).

- إن ادّعاء البنوة أو الألوهية في عيسى عليه السلام بسبب خلقه المخالف للعادة غير مُسَلّم، لأن خلق عيسى ليس بأغرب من خلق آدم عليهما السلام.
- ما مرّ من بيان للأصل البشري لعيسى عليه السلام وأمه، وأنهما ممن اصطفى الله تعالى، وأن عيسى عبد الله ورسوله، كل ذلك يكفي لتفنيد شبه النصارى فيما ادّعوه. وهنا تنتهي المحاجّة معهم، ومن لم يستجب منهم بعد ذلك فلا طريق أمامه سوى المباهلة لمن يرى استمرارها.

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

هذا المقطع مناسب لمحور السورة، ففيه بيان حقيقة عيسى عليه السلام والأصل البشري له، وبيان أن خلقه غير المعتاد ليس دليلاً على أنه إله أو ابن إله، فخلق آدم عليه السلام أغرب وأعجب.

المقطع الرابع: حقيقة تاريخية هي أن الإسلام هو الدين الحق وهو دين جميع الأنبياء، وهم أولاد علات

مناسبة المقطع لسابقه:

بعد أن ذكر الله تعالى اصطفاء من شاء من عباده، وذكر أنهم ذرية بعضها من بعض، شرع هنا في بيان وحدة الدين الذي جاءوا به وهو الإسلام، وأنه دين جميع الأنبياء، وتأكيد إسلام إبراهيم عليه السلام، والصلة الوثيقة بينه وبين أمة الإسلام، وبين دينه ودين الإسلام.

وبعد بيان حقائق تاريخية حول إبراهيم عليه السلام، وتكذيب أهل الكتاب في دعواهم الانتساب إلى إبراهيم عليه السلام وملته الحنيفية، تنتقل الآيات إلى الحديث عن أهل الكتاب مبينة حقائق عنهم تتعلق بضلالهم وإضلالهم ومحاولاتهم ردّ أتباع إبراهيم الخليل عليه السلام -وهم المسلمون- عن دينهم عبر وسائل مختلفة ملتوية، حسداً من عند أنفسهم لأن الله اختص هذه الأمة بالرسالة الخاتمة. فتتحدث الآيات عن مكائدهم، وتزويرهم للحقائق وتزويرهم لكلام الله وعهده، وقولهم على مريم وعيسى عليهما السلام الكذب. ثم أكدت الآيات وحدة الرسالات، والدين الحق، الذي هو الإسلام، وتأكيد صلة المسلمين بإبراهيم عليه السلام، وافتراء أهل الكتاب في دعواهم أنه منهم، وتذكر دليلاً مشاهداً ماثلاً للعيان على صدق المسلمين وكذب أهل الكتاب المدّعين، وهو البيت الحرام بمكة المكرمة.

وهذا المقطع هو ختام القسم الأول من السورة الكريمة، وهو القسم الذي يتناول نقاش أهل الكتاب ومحاجّتهم.

ينقسم هذا المقطع إلى ثلاثة مواضيع:

يمتد هذا المقطع عبر الآيات (٦٤-٩٩) من السورة، وقد رأيت تقسيمه إلى أربع مواضيع كما يأتي:

الموضوع الأول: إبراهيم عليه السلام كان حنيفاً مسلماً:

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [آل عمران: ٦٤-٦٨].

التفسير الإجمالي:

تتوجه الآيات بالخطاب إلى أهل الكتاب ودعوتهم إلى الإتفاق على الحق والعدل؛ ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ وهي دعوة إلى الحق والعدل الذي يعرفونه في كتبهم، والذي جاء به أنبياؤهم، وهو توحيد الله تعالى، وعدم الإشراك به، وعدم تأليه البشر أو صرف أنواع العبادة لهم، وعدم ادعاء الولد لله تعالى، كما فعلت اليهود والنصارى، ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣٠]، ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ عن هذه الدعوة الصادقة المنصفة ﴿ فَقُولُواْ ﴾ أيها المسلمون لهم: ﴿ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾، لله تعالى وحده، كما قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

وقد استخدم النبي ﷺ هذه الآية في رسالته لهرقل عظيم الروم؛ فكان في كتابه ﷺ: (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن

عليك إثم الأريسيين، و ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾[1].

ثم تواصل الآيات دعوة أهل الكتاب، وهذه المرة على سبيل الإنكار، حيث تنكر عليهم محاجتهم في إبراهيم عليه السلام؛ وقولهم هو يهودي أو نصراني، رغم بعد المدة بينهم وبينه، ﴿ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ ﴾ بزمن طويل لا يعمل قدره إلا الله، ولهذا ختم الآية بقوله ﴿ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ . وهذه الآية مناسبة للسياق ولما سبق؛ فإن السياق في مخاطبة أهل الكتاب، وهذا جزء منها، وقد سبق الحديث عن خطأ اليهود الفظيع وخطأ النصارى الشنيع في عيسى عليه السلام، وهم قريبو العهد به، فناسب أن يعقب بالتنبيه على خطأهم في إبراهيم عليه السلام مع تباعد الأزمان والدهور، من باب الأولى والأحرى.

﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ ﴾ في صفة محمد ﷺ، حيث تجدونه مكتوباً في كتبكم، ﴿ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ ﴾ مما ليس في كتبكم من أمر إبراهيم عليه السلام،

(١) أخرجه البخاري في كتاب وباب بدء الوحي، برقم (٧).
وقد أورد ابن كثير في تفسيره (٢/ ٧٤) إشكالاً؛ وذلك أن محمد بن إسحاق وغيره ذكروا أن صَدْر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها نزلت في وفد نجران، وقال الزهري: هم أول من بَذَلَ الجزية. ولا خلاف أن آية الجزية نزلت بعد الفتح، والنبي ﷺ كتب هذه الآية قبل الفتح، فكيف يكون ذلك؟، وحاول أن يجمع بين القولين من وجوه: أحدها: احتمال نزول الآية مرتين، مرة قبل الحديبية، ومرة بعد الفتح. والثاني: يحتمل أن صدر سورة آل عمران نزل في وفد نجران إلى عند هذه الآية، وتكون هذه الآية نزلت قبل ذلك، ويكون قول ابن إسحاق: «إلى بضع وثمانين آية» ليس بمحفوظ، لدلالة حديث أبي سفيان. والثالث: يحتمل أن قدوم وفد نجران كان قبل الحديبية، وأن الذي بذلوه مُصالحة عن المباهلة لا على وجه الجزية، ووافق نزول آية الجزية بعد ذلك. والرابع: يحتمل أن رسول الله ﷺ لما أمر بكَتْب هذه الآية في كتابه إلى هرقل لم تكن أنزلت بعد، ثم نزل القرآن موافقة له.

﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ﴾ أن إبراهيم كان على دين الإسلام ﴿ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[(١)].

وفي الآية إنكار عليهم في محاججتهم في أمر لا علم لهم به.

﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾، كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [البقرة: ١٣٠-١٣٢].

﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾، وسيأتي في السورة لاحقاً إشارة إلى ذلك في قوله تعالى ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [آل عمران: ٩٦-٩٧]، والرسول محمد ﷺ دعا إلى ملة إبراهيم عليه السلام ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ ﴾ [الأنعام: ١٦١]، ودعا إلى الصلاة إلى الكعبة التي بناها في أول بيت وضع للناس، وعند مقام إبراهيم عليه السلام، والحج إلى المناطق نفسها، والمسلمون مدعون إلى اتباع ملة إبراهيم عليه السلام الذي استخدم تسمية المسلمين ﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ [الحج: ٧٨]. إذن فمن أولى الناس بإبراهيم عليه السلام؟.

---

(١) بحر العلوم، المسمى: تفسير السمرقندي، (١/ ٢٧٦)، وقطف الأزهار، للسيوطي (١/ ٦٠٢).

الموضوع الثاني: مخاطبة فرق أهل الكتاب وبيان حقائقهم:

﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الآيات: ٦٩-٨٠].

التفسير الإجمالي:

قبل أن نشرع في التفسير الإجمالي لهذه الآيات نشير إلى عظمة القرآن الكريم في إنصافه لأعدائه وذكر الحقيقة دون مبالغة أو إجحاف، حتى في معرض الردّ عليهم وتكذيبهم، فنرى القرآن الكريم يقول في هذا الجزء من المقطع: ﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾، وليس (ودّ أهل الكتاب)، ونراه يقول: ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ ، ويقول: ﴿ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾،

ويقول: ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا ﴾ ، وسيأتي في الآيات الأخرى مثل ذلك. فسبحان الله الحكم العدل.

يخبر الله تعالى أن طائفة من أهل الكتاب تتمنى أن تصد المسلمين عن دينهم، وتضلهم عن الحق الذي أنزل إليهم، ويخبر القرآن الكريم أنهم في الحقيقة إنما يضلون أنفسهم، لأنهم اقترفوا ذنباً بالإعراض عما أنزل إليهم وسيتحملون وزر من يضل متأثراً بشبهاتهم، ولذا قال تعالى: ﴿ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ ، فهم ﴿ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ ، رغم أنهم من أهل الكتاب، فكان الأجدر بهم أن يكونوا داعين إلى الحق دالين عليهم، ولهذا خاطبهم بعدها بقوله: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ الذي أنزل عليكم من الله لهدايتكم ﴿ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ أنها آيات منزلة من عند الله تعالى، وبشهادة التوراة والإنجيل وأنتم تزعمون أنكم تؤمنون بهما، كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٤٦].

وبعد أن ذكر هذا الكفر، ذكر نوعاً آخر من الكفر والمكر، وهو خلط الحق بالباطل، ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾، وذلك أنهم كانوا يظهرون بألسنتهم التصديق بالنبي محمد ﷺ وما جاء به من عند الله، وهو غير الذي في قلوبهم من اليهودية والنصرانية[١]، ويا أهل الكتاب لم ﴿ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ، حيث كتموا ما في كتبهم من نعت رسول الله محمد ﷺ ومبعثه ونبوّته[٢].

ثم فصّل خلطهم الحق بالباطل ومكرهم بالمؤمنين، فقال تعالى: ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ ﴾ أي: أظهروا تصديقكم للنبي محمد ﷺ وما جاء به من ربه، هذا في بداية النهار، ثم ﴿ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ عن الحق

(١) ينظر: تفسير الطبري (٦/ ٥٠٣-٥٠٤).
(٢) ينظر: تفسير الطبري (٦/ ٥٠٥).



ويرتدون عن دين الإسلام، فتصديقهم إنما هو نفاق ومكر وخداع، وإلا فإنهم كانوا يتواصون فيما بينهم قائلين: ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾، وما أنتم عليه من يهودية أو نصرانية. وهنا يقطع حديثهم أمر الله تعالى لرسوله ﷺ أن يجيبهم، ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ ، وقد هدى الله المسلمين إلى الحق المبين والصراط المستقيم. ثم يتابع نقل حديثهم لبعضهم أن ما يفعلونه هو خشية ﴿ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾ قالوا ذلك حسداً منهم أن تكون النبوة في غيرهم، وحذّر بعضهم بعضاً من أن يركنوا إلى المسلمين أو أن يظهروا لهم أسرارهم فيتعلموها منهم فيحاجّوهم بها ويغلبوهم بالحجة والبرهان. ويأمر الله تعالى رسوله بأن يجيبهم على هذا الوهم فقال: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ ﴾ في فضله ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بمن يستحقه، ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ ﴾ وبفضله ﴿ مَن يَشَآءُ ﴾ من خلقه، فكما اختصّ اليهود عندما اتبعوا موسى عليه السلام، ثم اختصّ النصارى عندما اتبعوا عيسى عليه السلام، فكذلك اختصّ المسلمين باتباع رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام، ﴿ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ .

وهذه الطائفة من أهل الكتاب التي تكتم الحق عمداً لم تؤد الأمانة ولم تحفظ عهد الله لهم باتباع الرسول محمد ﷺ الذي جاء مصدقاً لما معهم من التوراة والإنجيل. وقبل الدخول في التفصيل ينصف القرآن الكريم أهل الكتاب قائلاً: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ﴾ ، فهم ليسوا سواء في خيانة الأمانة، فبعضهم يؤديها ويوفيها ولو بلغت قنطاراً، وبعضهم يجحدها ويخونها ولو كانت ديناراً، إلا إذا كانت عليه مستمسكات لا تمكنه من الخيانة!.

وسبب فعلهم هذا هو زعمهم بأن ﴿ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ ﴾ من غير اليهود ﴿ سَبِيلٌ ﴾ ولا حرج ولا إثم، ونسبوا ذلك إلى التوراة كذباً وافتراءاً على الله، وقد يراد بالأميين العرب[1]، لأنهم كانوا أمة أمية. وهم في فعلهم هذا عامدون، فهم ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ

---

(١) وهو الذي قال به ابن كثير في تفسيره (٢/ ٨٠).

﴿يَعۡلَمُونَ﴾.

﴿بَلَىٰ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ﴾، أي: لكن من أوفى منكم يا أهل الكتاب بالعهد الذي عاهدكم الله عليه من الإيمان بمحمد ﷺ إذا بعث، ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾ محارم الله تعالى وحقوق الآخرين واتبع شريعة خاتم المرسلين ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾[1].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ الذي عاهدهم به من اتباع محمد ﷺ إذا بعث، ﴿وَأَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ التي يحلفونها ويعطونها، يشترون بهذا ﴿ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾ من متاع الدنيا الزائل، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ﴾ ولا نصيب ولا حظ ﴿فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾، ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ بكلام لطيف رحيم، ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ بعين الرحمة والرأفة، ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمۡ﴾ من الذنوب والآثام، ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ في نار الجحيم.

وقد وردت أحاديث كثيرة في التحذير من الحلف الكاذب؛ فعن أبي ذر ﷺ عن النبي ﷺ قال: (ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم)، قال: فقرأها رسول الله ﷺ ثلاثاً مراراً، قال أبو ذر: خابوا وخسروا، من هم يا رسول الله؟، قال: (المسبل والمنان والمنفق سلعته بالحلف الكاذب)[2].

ثم يخبر الله تعالى عن تحريفهم للكتب السماوية التي أنزلت عليهم، ﴿وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ﴾ فيحرفونه ويزيدون فيه وينقصون منه حسب الحاجة، ويعمدون إلى تقليد أساليب الكتاب الصحيح ﴿لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ الصحيح، ﴿وَيَقُولُونَ﴾ بكل جرأة ووقاحة وصلافة: ﴿هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ كذباً وافتراءاً، ﴿وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾ [البقرة: ٧٩]، ثم أخبر بأنهم يفعلون ذلك عن

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٨١).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب: غلظ تحريم إسبال الإزار والمن بالعطية برقم (١٠٦).

عمد وقصد، فقال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ . وقد أثبتت هذه الآية صفتين شنيعتين لأهل الكتاب وهما تحريف الكتب والسماوية، والكذب والافتراء على الله تعالى بوضع كتب من عند أنفسهم ونسبتها إلى الله تعالى[١]. وهاتان الصفتان يصدر عنهما عادة أسوأ أنواع الأفعال وأخس المؤامرات، وأخطر أنواع التضليل والتدليس والخداع الذي يمارسونه في حق البشرية[٢].

وبعد أن ذكر تحريف اليهود للتوراة وليّ ألسنتهم بها، انتقل إلى تحريف مشابه له[٣]، وهو ما تسبب به كذبهم وافتراؤهم هذا في أنهم عبدوا عيسى وعزير عليهما السلام، ولهذا قال تعالى ردّاً عليهم: ﴿ مَا كَانَ ﴾ ولا ينبغي ﴿ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ﴾ فيصبح ذا علم وحكمة وقرب من الله تعالى ﴿ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ، وقصد بهذا القيد ﴿ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ تشنيع أمر الناس بعبودية البشر بأن ذلك يقتضي أنهم انسلخوا عن العبودية لله تعالى، لأن حقيقة العبودية لا تقبل التجزئة لمعبودين[٤]، ولهذا لم يقل: (عباداً لي مع الله) رغم زعمهم هذا. ﴿ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ ﴾ ، أي: ولكن كونوا علماء عاملين تخلصون العبادة لله تعالى[٥]، ﴿ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ للناس ﴿ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ الكتاب

---

(١) ولا ننس أن نشير هنا إلى الافتراء الجديد الذي اقترفوه في زماننا هذا، حيث افتروا كتاباً زعموا أنه وحي جديد على لسان نبي جديد، وسمّوه: الفرقان الحق. ظهر الإصدار الأول منه في بداية عام ٢٠٠٢. ثم ظهرت النسخة المعدلة في آخر عام ٢٠٠٤، وفيها زيادة سور. وقد طبع هذا الكتاب ووزع في بعض الدول الإسلامية، وهو باللغة العربية، ومليء بالأخطاء والترهات. ولعلي أفرد له ردّاً مفصلاً.

(٢) التفسير المنير، أ. د. وهبة الزحيلي (٣/ ٢٧٣).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٣/ ١٣٨).

(٤) التحرير والتنوير لابن عاشور (٣/ ١٤٠).

(٥) قال الطبري في تفسيره (٦/ ٥٤٤): الربانيون: هم عماد الناس في الفقه والعلم وأمور الدين والدنيا. ولذلك قال مجاهد: «وهم فوق الأحبار»، لأن «الأحبار» هم العلماء، و«الرباني» الجامع إلى العلم والفقه، البصرَ بالسياسة والتدبير والقيام بأمور الرعية، وما يصلحهم في دُنياهم ودينهم.

وتحفظون ألفاظه. كما قال تعالى: ﴿ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [البقرة: ٧٥].

{وَلا} يمكن لهذا النبي الصادق أن ﴿ يَأْمُرَكُمْ ﴾ بأَنْ ﴿ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ﴾ من دون الله تعالى، لأن هذا من الكفر، فهل ﴿ يَأْمُرُكُم ﴾ النبي الصادق ﴿ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾، هذا لا يكون.

الموضوع الثالث: وحدة الرسالات والدين الحق الذي هو الإسلام:

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٩١﴾ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ﴾ [الآيات: ٨١-٩٢].

التفسير الإجمالي:

بعد أن بيّن الله تعالى كذب أهل الكتاب وافتراءهم وتحريفهم للكتب السماوية، وخيانتهم للعهد والميثاق، أخبر تعالى أنه أخذ ميثاق النبيين أن يصدّق بعضهم بعضاً، فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ﴾ أي: أنه مهما آتى الله تعالى أحدهم من كتاب وحكمة ثم جاءه رسول من بعده ليؤمنن به ولينصرنه، ولا يمنعه ما آتاه الله تعالى من العلم والنبوة من اتباع من بُعث بعده ونصرته[1]. ﴿ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ﴾ وعهدي وميثاقي، ﴿ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾ العهد والميثاق ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾.

والمقصود من ذكر ميثاق الأنبياء إعلام أممهم بذلك ليكون هذا الميثاق محفوظاً لدى سائر الأجيال[2].

ومسألة اتباع السابق القديم للاحق الجديد ظاهرة لا تحتاج إلى نقاش، وبخلافها لا تستقيم الأمور، وهذا مشاهد في حياة الناس، فمن المعلوم أن القانون اللاحق يعمل به بدلاً من القانون السابق، ويكون للقانون الجديد السلطة والهيمنة على القانون القديم. وقد قال الله تعالى بخصوص القرآن الكريم مع الكتب السماوية: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤٨]. والنبي محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمقدم عليهم أجمعين، وإمامهم في ليلة الإسراء، وشفيع الناس في يوم الدين، فيكون هو ﷺ المخصوص بهذه الآية[3]، وهو الرسول المصدق لما معهم، كما قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٨٨).

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (٢/ ١٤٣).

(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٨٩).

يَعۡلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [البقرة: ١٠١]، والقرآن الكريم مصدق لما قبله، كما قال تعالى: ﴿ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ ﴾ [آل عمران: ٣].

هذا هو دين الله الحق الذي أنزله على أنبيائه جميعاً، وأولئك الذين خانوا عهد الله تعالى ﴿ أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ ﴾ وهو دين جميع المرسلين، والله وحده إله هذا الكون ﴿ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا ﴾ أي: استسلم له من فيهما طواعية باختيارهم وهم المؤمنون، وكراهية بانقيادهم لقوانين الكون ونواميسه وهم الكافرون[1]. كما قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا ﴾ [الرعد: ١٥]. وجميعهم ﴿ إِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ﴾ فيحاسبون على أعمالهم يجازون. وقيل المعنى: أطاعوه فيما أحبّوا أو كرهوا[2].

ثم أمر الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام أن يعلن لهم إسلامه طوعاً واختياراً، مبيناً حقيقة وحدة الدين من الله تعالى والرسالات؛ ﴿ قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ﴾ وهو القرآن الكريم، ﴿ وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ ﴾ من الصحف والوحي، ﴿ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ﴾ من التوراة والأنجيل ﴿ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ ﴾ من الوحي ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ ﴾ في الإيمان فنحن نؤمن بهم جميعاً ﴿ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ مصدقون[3]. وهذه الآية قطع للجدال العقيم معهم، كما قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ

---

(١) ذكر ابن عاشور في التحرير والتنوير (٣/ ١٤٦) عدة توجيهات للآية، فقال: ومعنى ﴿ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا ﴾: أن من العقلاء من أسلم عن اختيار لظهور الحق له، ومنهم من أسلم بالجبلة والفطرة كالملائكة، أو الإسلام كرهاً هو الإسلام بعد الامتناع، أي: أكرهته الأدلة والآيات، أو هو إسلام الكافرين عند الموت ورؤية سوء العاقبة، أو هو الإكراه على الإسلام قبل نزول آية ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾.

(٢) تفسير القرآن من الجامع لابن وهب (٢/ ١٢٤).

(٣) وقد مرّ مثل هذه الآية وهو قوله تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٦]، والخطاب فيها للمسلمين، ولهذا قال فيها ﴿ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا ﴾ لأن القرآن الكريم لم ينزل عليهم وإنما أنزل على الرسول ﷺ ووصل عن طريقه إليهم.

ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، لأنهم لا يبحثون عن الحق وإنما يطلبون ديناً خاصّاً بهم مفصّلاً على هواهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾، استكمالاً لما قاله تعالى في صدر السورة: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾.

ولما كان الضلال بعد الهدى دليل على اتباع الهوى وعدم الرغبة في الحق والهدى قال تعالى: ﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ ﴾. وهذه الآية و ما بعدها في المرتدين من أمة الإسلام، ويدخل فيها أهل الضلال من أهل الكتاب الذين عرفوا الحق ولم يتبعوه. وقوله تعالى: ﴿ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾ أي: قامت عليهم الحجج والبراهين على صدق ما جاءهم به الرسول، ووضح لهم الأمر، ثم ارتدوا إلى ظلمة الشرك، فكيف يستحق هؤلاء الهداية بعد ما تلبسوا به من العماية[1]، ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، لأنهم لا يبحثون عن الحق ولا يريدون الهداية، ولهذا توعدهم الله تعالى باللعنة والعذاب، فقال عز وجل: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾، وكما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ [البقرة: ١٦١-١٦٢]، فحقت عليهم لعنة الله تعالى ولعنة خلقهم، كما قال: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٩].

وترك باب التوبة والعودة مفتوحاً، فقال تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ ﴾، يتوب على من تاب، واشترط هنا مع التوبة الإصلاح، لأن كفرهم بعد إيمانهم قد يوقع بعض الناس في الفساد والغواية، بخلاف الكافر ابتداءً، لذا طالبهم

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٩٣).

بالإصلاح مع التوبة[١]، والله أعلم.

وبعد الترغيب في التوبة، هدد وحذر من الكفر وعدم الرجوع، وحذر من الإمعان في الكفر والازدياد من الإثم، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ ﴾، عن طريق الحق، كما قال عز وجل: ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾ [النساء: ١٨].

وبما أن الكافرين غرتهم أموالهم وأولادهم وغرتهم الحياة الدنيا، فربما ظنّ بعضهم أن هذا سيشفع له يوم القيامة، فقال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ ﴾، تأكيداً لما قاله في صدر السورة ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الآية: ١٠]، وكما سيأتي فيها: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾ [الآية: ١١٦]، وكما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ [المائدة: ٣٦]. وقد قال النبي ﷺ: (يقول الله تعالى لأهون أهل النار عذابا يوم القيامة: لو أن لك ما في الأرض من شيء أكنت تفتدي به. فيقول: نعم، فيقول: أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم؛ أن لا تشرك بي شيئاً، فأبيت إلا أن تشرك بي)[٢].

والسياق يحتمل معنى آخر وجيهاً؛ وهو أنه لن يقبل من أحدهم جميع ما أنفقه من أموال

---

(١) قارن بتفسير السمرقندي (١/ ٢٨٣).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب: صفة الجنة والنار، برقم (٦٥٥٧)، ومسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب: طلب الكافر الفداء بملء الأرض ذهباً، برقم (٢٨٠٥).

في ما يظن أنه من وجوه الخير والقربات بدون إيمان(١)، كما قال النبي ﷺ عندما سألته عائشة رضي الله عنها فقالت: يا رسول الله، ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين فهل ذاك نافعه؟، قال: (لا ينفعه، إنه لم يقل يوماً: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين)(٢).

ثم قال تعالى مبيناً أنواع الإنفاق التي تنفع المؤمنين بدين الله تعالى الذي هو الإسلام الذين وصفهم قبل بقوله: ﴿ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾، فقال هنا: ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ ﴾ وكمال الخير ﴿ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ من أنواع الأموال والممتلكات وأنواع الخير، ﴿ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ فيجازي المنفق مما يحب بالبر والإحسان.

الموضوع الرابع: تأكيد صلة المسلمين بإبراهيم عليه السلام، وافتراء أهل الكتاب:

﴿ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الآيات: ٩٣-٩٩].

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٩٤)، وينظر: نظم الدرر للبقاعي (٤/ ٤٨٠-٤٨١)، وقد رجّح ابن كثير هذا المعنى. والمعنى الأول هو الأقرب للسياق، وسبب زيادة الواو في هذا السياق وعدم وجودها في آية المائدة هو أن السورة تتحدث عن اغترار الكافرين بالدنيا وتعلقهم بها كما مرّ وكما سيأتي، ولهذا كأن الله تعالى يشير إلى بخلهم وحرصهم على هذه الدنيا حتى لكأنهم يترددون في تقديمها للفداء، والله أعلم.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب: الدليل على أن من مات على كفره لا ينفعه عمل، برقم (٢١٤).

مناسبة هذا الموضوع لسابقه:

بعد أن رغّب الله تعالى في الإنفاق مما يحب الإنسان، ذكر كيف أن إسرائيل عليه السلام ترك أحبّ الطعام إليه لله سبحانه وتعالى، ففي الموضعين ترك ما يحبه الإنسان[١].

وأيضاً لما تقدم السياق في الردّ على النصارى في اعتقادهم في عيسى عليه السلام، شرع في الردّ على اليهود في إنكارهم النسخ، وذلك بذكر تحريم يعقوب عليه السلام لأحب الطعام والشراب إليه، ولم يكن قبل حراماً، ثم نزل تحريمه في التوراة بعد ذلك، وهذا من النسخ، ففيه ردّ عليهم في عدم اتباعهم لعيسى عليه السلام بدعوى إنكار النسخ، وكذلك في عدم اتباعهم لمحمد ﷺ[٢].

فالآيات المتقدمة في تقرير الدلائل الدالة على نبوة محمد ﷺ، في توجيه الإلزامات الواردة على أهل الكتاب في هذا الباب، وأما هذه الآية فهي في بيان الجواب عن شبهات القوم، فإن ظاهر الآية يدل على أنه ﷺ كان يقول إن كل الطعام كان حلاً ثم صار البعض حراماً، والقوم نازعوه في ذلك وزعموا أن الذي هو الآن حرام كان حراماً أبداً[٣].

فالغرض من الآيات بيان أن محمداً صلوات الله عليه على دين إبراهيم عليه السلام في الفروع والأصول، أما في الفروع فلما ثبت أن الحكم بحله كان إبراهيم قد حكم بحله أيضاً، وأما في الأصول فلأن محمداً صلوات الله وسلامه عليه لا يدعو إلا إلى التوحيد والبراءة عن كل معبود سوى الله تعالى وما كان إبراهيم صلوات الله عليه وسلامه إلا على هذا الدين[٤]. ولما كان

---

(١) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان (٣/ ٣)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٩٨)، ونظم الدرر للبقاعي (٥/ ١).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٩٨-٩٩).

(٣) التفسير الكبير، للرازي (٨/ ١١٩)، وينظر: قطف الأزهار للسيوطي (١/ ٦١٣)، نسبها للأصبهاني، ولعله محمود بن عبد الرحمن الشافعي (ت٧٤٩هـ)، في كتابه أنوار الحقائق الربانية في تفسير اللطائف القرآنية. ينظر: هدية العارفين (٦/ ٤٠٩). فإن كان هو فهو متأخر عن الرازي بكثير.

(٤) التفسير الكبير، للرازي (٨/ ١٢٤).

من أعظم شعائر ملة إبراهيم الحج، عقّب هنا بذكره، لبيان كذب اليهود والنصارى في دعواهم أنهم على دينه، وهم لا يحجون[1].

التفسير الإجمالي:

يخبر الله تعالى أن جميع الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل قبل نزول التوراة، إلا ما حرّم يعقوب عليه السلام على نفسه، واتبعه بنوه في ذلك. ثم قال تعالى: ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ فإنها ناطقة بما تقدم من أمور من بداية السورة الكريمة، والمقصود تعدد الرسل والكتب والرسالات، وهو ما أنكروه. ﴿ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ أي: فمن كذب على الله تعالى وافترى وزاد ونقص كما يفعل أهل الكتاب ﴿ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾.

﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ﴾ أي: قل يا محمد لهم: صدق الله تعالى فيما أخبر به عن أهل الكتاب وفيما شرعه من أحكام وشرائع، ﴿ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾، فملته عليه السلام هي الطريق المستقيم، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ ﴾ [الأنعام: ١٦١]، ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [البقرة: ١٣٠]، ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النساء: ١٢٥].

ثم تواصل الآيات الردّ على أهل الكتاب، وتنتقل إلى طريقة أخرى في الردّ حيث يخبر تعالى أن أول بيت وضع للناس ليقوم بأمور العبادة والنسك هو البيت الحرام المبارك الذي ببكة، وهي مكة المكرمة؛ أي: الكعبة التي بناها إبراهيم عليه السلام، أو المراد ببكة: البيت

(١) قطف الأزهار، للسيوطي (١/ ٦١٤)، وانظر ما بعدها ففيه فوائد.

والمسجد فقط[1]. وأهل الكتاب الذين يزعمون أنهم على ملة إبراهيم عليه السلام لماذا لا يصلّون إلى هذا البيت ولا يحجّون إليه.

وبني بعده المسجد الأقصى، وقد وردّ النص في الحديث الشريف على المدة بين بنائهما، فعن أبي ذر ﷺ قال: قلت: يا رسول الله أي مسجد وضع في الأرض أول؟، قال: (المسجد الحرام) قال: قلت: ثم أي؟، قال: (المسجد الأقصى)، قلت: كم كان بينهما؟، قال: (أربعون سنة، ثم أينما أدركتك الصلاة بعد فصله فإن الفضل فيه)[2].

ثم اتجهت الآيات إلى وصف المسجد الحرام فوصف بأنه مبارك كثير البركات والخيرات، ﴿ يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [القصص: ٥٧]. ووصف بأنه ﴿ وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾، فهو مصدر هداية للناس، يصلّون ويتوجهون ويحجون إليه ويتعلقون به. ووصف بأنه ﴿ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ﴾، وهو دليل قاطع على أن هذه الأمة أولى بإبراهيم عليه السلام من غيرها، فهي التي حفظت آثاره واتبعت آثاره. ووصف بأنه أمان لمن دخله، كما وصف بذلك في عدة مواضع من القرآن الكريم؛ ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ [البقرة: ١٢٥]، ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ﴾ [القصص: ٥٧]، ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت: ٦٧]. ووصف بأنه مكان الحج، فجاء بآية الحج ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ ، فأوجب الله تعالى الحج على من استطاعه من عباده المؤمنين، فوجد الزاد والراحلة. والاستطاعة أقسام؛ فتارة يكون الشخص مستطيعاً بنفسه، وتارة بغيره[3].

والحج ركن ثابت من أركان الإسلام؛ فعن أبي هريرة قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: (أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا) فقال رجل: أكل عام يا رسول الله، فسكت،

---

(١) كتاب تفسير القرآن من الجامع لابن وهب، (١/ ٣١).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالى ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾، برقم (٣٣٦٦)، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، برقم (٥٢٠).

(٣) ينظر: تفسير ابن كثير (٢/ ١٠٧).

حتى قالها ثلاثا، فقال رسول الله ﷺ: (لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم) ثم قال (ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه)[١]. ومن أنكر فريضة الحج فقد كفر، ولهذا ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[٢].

ثم ختم المقطع بتعنيف أهل الكتاب وهز كيانهم بسبب كفرهم وعنادهم ومكابرتهم، وصدهم عن سبيل الله تعالى رغم علمهم ومعرفتهم بالحق، فقال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾ وسوف يحاسبكم على كل صغيرة وكبيرة، ثم قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ ﴾ وهو ما سبق من حيلهم ومكرهم حتى يرتد المسلمون عن دينهم، ﴿ تَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ عن الطريق المستقيم وعن الملة الحنيفية، ﴿ وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ﴾ تعرفون الحق وتعرفون صدق النبي محمد ﷺ، ثم قمتم بتحريف الكتب والكذب على الله ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

وهذه الآية تختتم القسم الأول من السورة الكريمة، وهو القسم المخصص لمناقشة أهل الكتاب والرد على شبهاتهم وبيان دسائسهم ومكرهم.

الدروس والعبر من هذا المقطع:

- توحيد الله تعالى هو أصل الدين، وهو الذي جاء به جميع الأنبياء، ومن مستلزمات هذا التوحيد إفراد الله تعالى بالعبودية والربوبية، وعدم ادّعاء الربوبية لأحد من خلق الله تعالى.
- الدين الإسلامي هو الدين الوحيد الذي امتاز بالالتزام بالتوحيد ومقتضياته في هذا الزمان،

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الحج، باب: فرض الحج مرة في العمر، برقم (١٣٣٧).

(٢) وجاءت الجملة {وَمَنْ كَفَرَ} باستخدام صيغة الماضي، بدلاً من (وإن تكفروا) بصيغة المضارع، لأن فعل الماضي بعد أداة الشرط مع المستقبل يفترض الحدث مرة واحدة، أما فعل المضارع فيدلّ على تكرار الحدث، فالفعل الماضي يناسب السياق هنا. تراجع: محاضرة: أسرار البيان في التعبير القرآني، ألقاها الدكتور فاضل صالح السامرائي ضمن فعاليات جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم عام ٢٠٠٢م.

ومدّ يده إلى أهل الكتاب بدعوة صادقة إلى الحق والعدل وتوحيد الكلمة عبر كلمة التوحيد التي جاء بها أنبياؤهم أيضاً.

- بيان كذب أهل الكتاب في زعمهم أن إبراهيم عليه السلام كان يهودياً أو نصرانياً؛ لأن التوراة والإنجيل واليهودية والنصرانية ما وجدت إلا بعده.
- المسلمون أولى الناس بإبراهيم عليه السلام، وألصق الناس بدينه وشريعته، والقائمون بتطبيق ما جاء به، والتوجه إلى قبلته، والعبادة في أماكن العبادة التي بناها، وتتبع آثاره الدينية في الحجّ والعمرة وغيرها، كما أمرهم نبيهم محمد ﷺ، فلا يستطيع أحد أن يزعم أنه أولى به منهم.
- يعرف كثير من أهل الكتاب أن الذي جاء به محمد ﷺ هو الحقّ ولكنهم يكتمونه لأسباب مختلفة.
- يسعى بعض أهل الكتاب إلى إضلال المسلمين، رغم علمهم بالحق، حسداً ليس إلا، كما قال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [البقرة: ١٠٩].
- من الطرق الخبيثة التي ينتهجها أعداء الإسلام ادّعاء الدخول في الإسلام، ثم إظهار ونشر وإعلان الرجوع عنه، من أجل تشكيك ضعاف المسلمين، حتى يتفرد أعداء الله بقيادة البشرية بحجة أنهم وحدهم أهل الكتاب السماوي.
- أنصف القرآن الكريم أهل الكتاب أيما إنصاف، وقد أنصفهم حتى في معرض الردّ على ضلالاتهم ودسائسهم ومكائدهم، فنسب ذلك كله إلى بعض أهل الكتاب، ولم يعمّم الحكم عليهم.
- الحلف الكاذب من كبائر الذنوب.

- الإسلام هو دين الله تعالى، ﴿ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا ﴾، فعلى العاقل أن يسلم وجهه لله تعالى طوعاً وعبادة للحصول على مرضاته.
- الكفر بعد الإيمان جريمة كبرى تستوجب العقوبة في الدنيا والآخرة، وتكرار هذه الجريمة يدلّ على تجذّر الكفر وتغلغل النفاق عند صاحبه.
- باب التوبة مفتوح لكل المذنبين، حتى مرتكبي الكبائر مهما عظمت.
- إنفاق المسلم في سبيل الله تعالى من أحبّ أمواله إليه يوصله إلى البرّ، (وإن البر يهدي إلى الجنة)[1].
- فريضة الحج ثابتة بالكتاب والسنة، وهو من أركان الإسلام التي أوجبها الله على عباده المؤمنين، ومن جحدها فقد كفر، ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾.
- رفض الحق بعد معرفته أقبح وأشنع عند الله تعالى وعند الناس.

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

هناك عدد من المناسبات بين هذا المقطع بمواضيعه وبين محور السورة الرئيس وهو التوحيد؛ حيث تناول هذا المقطع بيان الدين الحق الذي جاء به جميع الأنبياء، وهو الإسلام القائم على التوحيد، كما تناول إسلام إبراهيم الخليل عليه السلام، وكذب أهل الكتاب في زعمهم أنهم على ملّته بسبب الشرك الذي عندهم، وتخلّل ذلك تحذير الكافرين من أهل الكتاب، ودعوات متكررة لهم إلى الدين الحق وعبادة الله تعالى، والرجوع عن كذبهم وافترائهم.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب: قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ وما ينهى عن الكذب، برقم (٦٠٩٤)، ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب: قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، برقم (٢٦٠٧).

المقطع الخامس: بيان خيرية هذه الأمة، وتحذيرها من الوقوع في أخطاء الأمم السابقة، وتحذيرها من أعدائها

مناسبة المقطع لسابقه:

بعد أن ناقش القرآن الكريم شبهات أهل الكتاب، وفضح كذبهم وافتراءهم على الله تعالى، وبيّن تعمدهم لبس الحق بالباطل وكتمان الحق عمداً، وخيانة الأمانة، انتقل إلى تحذير المسلمين من الوقوع في أخطائهم، وجاء هذا التحذير بطرق مختلفة، صريحة وباطنة؛ فمن ذلك أنه حذّر المسلمين من طاعة أهل الكتاب لئلا يردوهم عن دينهم، كما دعا القرآن الكريم المسلمين إلى الاعتصام وعدم التفرق، وحذّرهم من الاختلاف بعد نزول القرآن الكريم كما تفرقت واختلفت الأمم السابقة بعد ما جاءهم البينات وقامت عليهم الحجج والبراهين، ثم ذكر تفرّق الناس يوم القيامة إلى أهل العذاب وأهل الرحمة، وفيه إشارة إلى الابتعاد عن أفعال أهل العذاب الذين ذكرهم قبلها وتوعدهم بقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾. ثم أمر الأمة بتحمّل مسؤولياتها بعد اختيارها لتكون خاتمة الأمم وخير أمة أخرجت للناس، وكرر تحذيرها من الوقوع في أخطاء الأمم السابقة، ومن الخوف من أعدائهم من أهل الكتاب خاصة، ومن العدو عامة، ثم حذّرها من المنافقين خصوصاً، وأمرهم بالصبر والتقوى للتخلص من أخطار الأعداء والمنافقين وكيدهم.

ينقسم هذا المقطع إلى ثلاثة مواضيع:

يندرج تحت هذا المقطع عدة مواضيع متداخلة، رأيت تقسيمها إلى ما يأتي:

الموضوع الأول: التحذير من الوقوع في أخطاء السابقين:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيۡفَ تَكۡفُرُونَ وَأَنتُمۡ تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥۗ وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٠١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾

﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾﴾ [الآيات: ١٠٠-١٠٩].

التفسير الإجمالي:

تبدأ الآيات بتحذير المسلمين من الوقوع في أخطاء الأمم السابقة، وجاء هذا التحذير بطرق مختلفة، فبدأ أولاً بالنهي عن طاعة فريق من أهل الكتاب، ويبدو أن هذا الفريق هو الطائفة المذكورة من قبل، وهم الذين قالوا: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [آية: ٧٢]، لأن هذا الفريق سيردهم عن إيمانهم فيصبحوا كافرين، والعياذ بالله. ولما كان الكفر غير متصور مع وجود الرسول ﷺ يهدي الناس إلى الحق ومع وجود القرآن الكريم الذي أنزل هداية للناس وفرقاناً بين الحق والباطل كما سمّاه الله تعالى في أول السورة، قال تعالى بصيغة الاستفهام الدال على الاستبعاد لهذا الأمر: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾يعني: "أن الكفر بعيد منكم وحاشاكم منه، فإن آيات الله تنزل على رسوله ليلاً ونهاراً، وهو يتلوها عليكم، ويبلغها لكم"[1]. ثم بيّن طريق الخلاص من المكائد والدسائس وطريق الهداية الذي لا اعوجاج فيه فقال: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾، وهي دعوة إلى الاعتصام، سيأتي التصريح بها بعد قليل.

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ١١١).

ثم توجّه من التحذير بالإشارة والذكر إلى التوجيه بالنهي والأمر فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ...﴾ الآيات الأربع. فأمر أولاً بتقوى الله تعالى حق تقاته بالخوف منه ومراقبته وطاعته واجتناب معاصيه[1]، كما ينبغي لجلاله سبحانه وتعالى، قال ابن مسعود: في تفسيرها: "أن يُطاع فلا يُعصى، وأن يُذكر فلا يُنسى"، وفي رواية زيادة: "ويُشكر فلا يُكفر"[2]. ومثل هذا لا يتأتى من البشر، ولهذا اختلف المفسرون في هذه الآية هل هي منسوخة أم لا؟؛ فمن رأى أنها غير منسوخة فسّر قوله تعالى ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ بأن يجاهدوا في الله حق جهاده، ولا يأخذهم في الله لومة لائم، ويقوموا لله بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم[3]، أو فسرتها خاتمة الآية وهي قوله تعالى ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾، أي: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ فإن لم تفعلوا ولم تستطيعوا، فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون[4]. ومن رأى أنها منسوخة قال: نسخها قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التغابن: ١٦][5]، ويمكن الجمع بين الرأيين بسهولة، فالمطلوب تقوى الله تعالى حق تقاته، فإن لم تستطيعوا ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾.

وقد وقع النهي في ظاهر قوله تعالى ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ على الموت، وإنما نُهوا في الحقيقة عن ترك الإسلام، ومعنى الآية: داوموا على الإسلام وحافظوا عليه في حال الصحة والسلامة حتى لا يصادفكم الموت إلا وأنتم مسلمون، لأن من عاش على شيء مات عليه،

---

(١) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ٦٠).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك، برقم (٣١٥٩)، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. والزيادة عند الطبري (٧/ ٦٥)، وابن وهب في كتاب التفسير من الجامع (١/ ١٢٢) و (٢/ ٨٥).

(٣) أخرجه الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما (٧/ ٦٧)، وينظر: (٧/ ٦٨).

(٤) ينظر: المرجع السابق (٧/ ٦٨).

(٥) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ٦٨-٦٩).

ومن مات على شيء بعث عليه(١).

﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا ﴾ أي: عهده وميثاقه، أو: القرآن الكريم ﴿ وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾، أمرهم بالجماعة ونهاهم عن الفرقة(٢)،(٣).

ثم ذكّرهم بنعمة الله تعالى عليهم عندما ألّف بين قلوبهم ووحّد صفوفهم فأصبحوا إخواناً على قلب رجل واحد، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٢-٦٣]، وأنقذهم من الكفر والنار، إلى جنات الأبرار. وهذا السياق في شأن الأوس والخزرج وكانت بينهم عداوات وحروب، فأنقذهم الله تعالى بالإسلام من النار، وألف بين قلوبهم. وكأن الآية تحذّر وتشير إلى أن الاختلاف كفر يؤدي إلى النار، والعياذ بالله،

---

(١) ينظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم آبادي أبو الطيب، ط الثانية، ١٤١٥هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، (٦/ ١٠٩)، و تفسير ابن كثير (٢/ ١١٢).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ١١٤-١١٥).

(٣) قال الله تعالى: ﴿ تَفَرَّقُواْ ﴾، بينما في سورة الشورى: ولا ﴿ تَتَفَرَّقُواْ ﴾ ؛ لأن الآية في سورة الشورى فيها الوصية خالدة من زمن سيدنا نوح، إلى خاتم الأنبياء، فجاء الفعل (تتفرقوا) أما في سورة آل عمران فهي خاصة بالمسلمين لذا جاء الفعل (تفرّقوا)، والأمة المحمدية هي جزء من الأمم المذكورة في الآية الأولى. وكذلك فالحدث ممتد في الأولى (تتفرقوا) والحدث محدد في الثانية (تفرقوا). فالأولى وصية خالدة على زمن الأزمان (ولا تتفرقوا فيه) لأن هذا هو المأتى الذي يدخل إليه أعداء الإسلام فيتفرقون به لذا جاءت الوصية خالدة مستمرة، وصّى تعالى الأمم مرة ووصّى الأمة الإسلامية مرتين. والآية الأولى أشد تحذيراً للأمة الإسلامية ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾. شرعه لنا في الوصية العامة لنوح وخصّ بالذي أوحينا إليك ثم خصّ الأمة الإسلامية في الآية الثانية. والحذف له سببان هنا الأول لأن الأمة المحمدية أصغر، ونهانا عن التفرّق مهما كان قليلاً وأراد ربنا تعالى أن نلتزم بهذا الأمر (لا تفرقوا) وقال ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا ﴾. تراجع: محاضرة: أسرار البيان في التعبير القرآني، ألقاها الدكتور فاضل صالح السامرائي ضمن فعاليات جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم عام ٢٠٠٢م.

وسيأتي التصريح بذلك في سياق الآيات، وختمت الآية بقوله تعالى ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إلى ما فيه صلاحكم وفلاحكم في الدنيا والآخرة.

ثم أمر تعالى بأن تتصدى طائفة من المسلمين للدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإن كان هذا الأمر واجباً على كل فرد من الأمة بحسب استطاعته[١]؛ كما أمر النبي ﷺ بقوله: (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان)[٢]، وأكد بأسلوب القصر أنهم هم المفلحون دون غيرهم، والمراد أن من لم يفعل ذلك من الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بيده أن بلسانه أو بقلبه فليس من المفلحين، وكيف يفلح من لم ينكر بقلبه؟، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: (ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل)[٣].

ثم نهى الله تبارك وتعالى هذه الأمة عن مشابهة الأمم السابقة التي اختلفت وتفرقت وتركت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ أي: مع قيام الحجة عليهم بمجيء البينات والأدلة الواضحات، وجاء الفعل مذكّراً مع لفظة البينات لأن المراد بالبينات هنا: الأمر والنهي[٤]. وأعرض عن الحق بعد البيان فقد عرّض نفسه للتحذير الذي

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ١١٧).

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب: كون النهي عن المنكر من الإيمان، برقم (٤٩).

(٣) صحيح مسلم في كتاب الإيمان، باب: كون النهي عن المنكر من الإيمان، برقم (٥٠).

(٤) وحيثما وردت كلمة البيّنات بمعنى الأمر والنهي فإن الفعل يُذكّر، كما مرّ في هذه السورة ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [آية: ٨٦]، وفي هذه الآية أعلاه، وفي قوله تعالى ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، [غافر، الآية: ٦٦]، والله أعلم. تراجع: محاضرة: أسرار البيان في التعبير=

ختمت به الآية ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾، في يوم الدين، ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ ﴾ وهي وجوه المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾ [القيامة، آية: ٢٢]، وقال: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ [عبس، آية: ٣٨]. ﴿ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ وهي وجوه الكافرين والمنافقين، كما قال تعالى: ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [القيامة، آية: ٢٤]، وقال: ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [عبس، آية: ٤٠]. ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ يقال هذا للكافرين والمنافقين، وفي سياق الآية تعريض بكفر أهل الكتاب بعد إيمانهم، ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴾ وهم المؤمنون ﴿ فَفِي ﴾ الجنة ﴿ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾ ومكان نزول رحماته ﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الكهف: ١٠٧-١٠٨].

ثم قال تعالى: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ ﴾ وبيّناته وحججه وبراهينه الواضحة، ﴿ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ ﴾ يا أيها الرسول ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ المبين لأمور الدنيا والدين، ﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ﴾ بإرسال الرسل وإنزال الكتب ومجيء البينات، وإنما يريد هداية الخلق إلى ما فيه خيرهم في الدارين، كما قال في صدر السورة ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾. ومما يدلّ على عدم احتياج الله لظلم أحد من خلقه: أن جميع ما في السموات والأرض من مخلوقات ملك له وعبيد له، وأنهم إليه راجعون، فهو الحاكم المتصرف في الدنيا والآخرة[1]، وهو ما ختم به المقطع بقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾.

= القرآني، ألقاها الدكتور فاضل صالح السامرائي ضمن فعاليات جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم عام ٢٠٠٢م.

(١) التفسير المنير لوهبة الزحيلي (٤/ ٣٥).

الموضوع الثاني: خيرية هذه الأمة وفضلها على سائر الأمم:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠) لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ۖ وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ (١١١) ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (١١٢) ۞ لَيْسُوا سَوَاءً ۗ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥) ﴾ [الآيات: ١١٠-١١٥]

التفسير الإجمالي:

يذكّر الله تعالى الأمة بواجبها بعد أن اختارها سبحانه وتعالى لتحمّل الرسالة ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾، مقيّداً هذه الخيرية بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله تعالى ﴿ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾. وخيرية هذه الأمة تقتضي أن يصل خيرها إلى غيرها، فيكون المعنى: كنتم خير الناس للناس[١].

ولعل في تقديم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان بالله إشارة إلى ارتباط الأمرين بالإيمان وانتشاره، وإشارة إلى تقصير أهل الكتاب في ذلك كما أخبر النبي ﷺ في قوله: "إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد"[٢].

---

(١) تفسير القرآن من الجامع لابن وهب (٢/ ٤٩).

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء، باب: أحاديث الغار، برقم (٣٤٧٥)، ومسلم في كتاب الحدود، باب: قطع السارق الشريف وغيره، والنهي عن الشفاعة، برقم (١٦٨٨).

والأحاديث في فضل هذه الأمة وتكريمها واصطفائها كثيرة جداً، وذكر هنا صفات هذه الخيرية، فمن اتصف من هذه الأمة بهذه الصفات دخل معهم في هذه الخيرية وهذا الثناء والمدح، ومن لم يتصف بذلك أشبه أهل الكتاب الذين ذمّهم الله تعالى[1]، لذا أعقب هذه الآية بذكر حال أهل الكتاب تحذيراً للمسلمين من أفعالهم، ودعوة لهم إلى الرجوع إلى الحق ﴿ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ ﴾، وكما تكرر في السورة فإن القرآن الكريم لم يعمم الحكم عليهم بالفسق والكفر فقال: ﴿ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ الذين يؤمنون بما أنزل إليهم وما أنزل إليكم، ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ الضالون المكذبون.

وانتقال السيادة والريادة من أمة إلى أخرى سيؤدي إلى عداوة هذه الأمة، فقال تعالى مطمئناً للمسلمين ومهيئاً لهم للمواجهة إذا وقعت ومبشّراً لهم بالنصر عليهم: ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ﴾ الاستثناء منقطع، أي: لن يضروكم ولكن يسمعونكم ما تكرهون بكفرهم وتكذيبهم بنبيكم ﷺ وقولهم في عيسى ابن مريم عليهما السلام[2]، ﴿ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ عليكم، وهو متصل بما قبله من شروط الخيرية، فإذا وفّت الأمة بوعدها لربها وقامت بما اشترطه عليها من الإيمان به والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعدم التفرق والاختلاف فإنهم سينتصرون على أعدائهم، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٨ ﴾ [سورة محمد ﷺ، آية: ٧-٨]. ثم ذكر تعالى سبب ذلك وأنه بسبب كفرهم وفسقهم وقتلهم واعتدائهم، وهو ما أدى إلى غضب الله عليهم ولعنه لهم، ونقل الرسالة منهم، وابتلائهم بالذلة والمسكنة، فقال تعالى: ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ ﴾ ووجدوا فهم يعيشون في ذلة وهوان، ﴿ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾[3] وعهد منه، وقيل هي الجزية والعهد بينهم وبين المسلمين، ﴿ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ وعهود

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ١٣١).

(٢) تفسير الطبري (٧/ ١٠٨).

(٣) أفاض الإمام ابن جرير الطبري في مناقشة دخول الباء في لفظة ﴿ بِحَبْلٍ ﴾، وهو كلام مهم، يرجع =

ومواثيق بينهم وبين غيرهم، ﴿ وَبَآءُو ﴾وألزموا فالتزموا ﴿ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ وهم يستحقونه بسبب أفعالهم التي ستذكر، ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ﴾ قدراً وشرعاً[1]، وكل ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الذل واللعن والمسكنة بسبب ﴿ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾، ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾ أي: إنما حملهم على ذلك كثرة معاصيهم واعتدائهم على حرمات الله تعالى فأدّى ذلك بهم إلى الكفر بآيات الله ورسله.

وأهل الكتاب ﴿ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ﴾ ، فإن ﴿ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ ﴾ بحق الله تعالى مستقيمة على شرعه[2]، فهم ﴿ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ يقومون الليل في صلاة وتلاوة، والمراد بآناء الليل: مابين المغرب والعشاء[3]. ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ﴾ ، كما قال تعالى في آخر السورة ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [آية: ١٩٩]، ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾ يجزي كل عامل بعمله، ويجزل العطاء بكرمه.

الموضوع الثالث: تحذير الأمة من المنافقين خصوصاً:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا

= إليه في تفسيره (٧/ ١١٣-١١٦).

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٢/ ١٣٢).

(٢) ينظر: تفسير القرآن من الجامع لابن وهب (٢/ ١٣٣-١٣٤).

(٣) كتاب تفسير القرآن من الجامع لابن وهب، (١/ ٣٥).

تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [الآيات: ١١٦-١٢٠]

التفسير الإجمالي:

بعد أن حذّر الله تعالى المسلمين من أخطاء أهل الكتاب، وحذّرها من أعدائها من غيرها، انتقل إلى التحذير من أعدائها من الداخل، وهم المنافقون، ومهّد للدخول في هذا الموضوع ببيان أن الأموال والأولاد لن تنفع الكافرين ولن تنقذهم من عذاب الله تعالى، فقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾، وإنما خصّ أولادهم وأموالهم، لأن أولاد الرجل أقربُ أنسبائه إليه، وهو على ماله أقدر منه على مال غيره، وأمرُه فيه أجوز من أمره في مال غيره، فإذا لم يغن عنه ولده لصلبه، وماله الذي هو نافذ الأمر فيه، فغير ذلك من أقربائه وسائر أنسبائه وأموالهم، أبعد من أن تغني عنه من الله شيئاً[1]. ﴿ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ لا يفارقونها، بل ﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾.

ثم ضرب الله تعالى مثلاً لبطلان أعمالهم وعدم نفعها، فقال: ﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أي: ما يبذلونه من أموال ويفعلونه من أعمال حقيقة، أو ما يقولونه من أقوال بلا أفعال، فكل تلك لا ثمرة لها ولا ثواب لهم عليها، لأن كفرهم وذنوبهم قد أفسدتها فهي ﴿ كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ ﴾ أي: كمثل ريح فيها برْد شديد أو فيها بَرَد أو جليد، والصر: شدة البرد، وذلك بعُصُوف من الشمال في إعصار الطَّلّ والأنداء، في صبيحة مُعْتمة بعقب ليلة مصحية[2]، فأصحاب الزرع غافلون ساهون سامدون، غير متوقعين لما سيكون، فجاءت هذه

---

(١) تفسير الطبري (٧/ ١٣٣).

(٢) هذا الشرح الدقيق لمعنى الصر من الطبري في تفسيره (٧/ ١٣٦). قال محققه: هـذا البيان عن معنى =

الريح على هذا الوصف و ﴿ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ﴾ أي أصابت زرعهم الذي حان أوان حصاده فأهلكته. وشدة البرد تقتل كثيراً من النباتات بما يشبه الحرق، ويعبر بالحرق عنه. ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾، بل هو بكفر أصحابه وذنوبهم.

وأمثال هؤلاء الناس الذين يضيعون حرثهم بعد تعبهم ويندبون حظهم بعد تضييع فرصهم لا يمكن أن يحرصوا على مصلحة غيرهم ولا أن يحبوا الخير لغيرهم، لذا انتقل إلى التحذير من مخاطر فئة أخرى منهم وهم المنافقون، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً ﴾ [١] وأولياء وأصدقاء وأهل سرّ ﴿ مِّن دُونِكُمْ ﴾ أي: من غيركم وليسوا على دينكم، فنهى الله تعالى المؤمنين أن يتخذوا من الكفار به أخلاء وأصفياء، ثم عرّفهم ما هم عليه من الغش والخيانة وطلب الأذى لهم، فقال: ﴿ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا ﴾ أي: لا يتركون جهداً في طلب ما يورثكم الخبال والفساد[٢]. ﴿ وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ ﴾ فهم يتمنون لكم العنت والشر في دينكم ويتمنون ما يسوءكم ولا يسركم[٣]، كما سيأتي بعد قليل ﴿ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ﴾. ثم قال تعالى: ﴿ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ﴾ أي: قد بدت عداوتهم لكم وبغضهم إياكم من أقوالهم وأفعالهم وفلتات ألسنتهم، كما يظهر لكم، وكما يتناقلونه بينهم[٤]، ﴿ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ ﴾ من البغضاء والعداوة والكراهية ﴿ أَكْبَرُ ﴾ من ما يظهرونه، ومن لم يقبل بمثل هذا البيان من الخالق الديان فليس لعقله رجحان، ولذا ختم الآية بقوله تعالى: ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ﴾ أيها المؤمنون ﴿ ٱلْأَيَٰتِ ﴾ الظاهرات والبينات الواضحات ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ما أنزلته لكم

= «الصر» قلما تصيب مثله في كتب اللغة.

(١) قال الطبري في تفسيره (٧/ ١٣٨) في بيان ذلك: وإنما جعل «البطانة» مثلا لخليل الرجل، فشبهه بما ولي بطنه من ثيابه، لحلوله منه - في اطِّلاعه على أسراره وما يطويه عن أباعده وكثير من أقاربه - محلَّ ما وَلِيَ جَسده من ثيابه.

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ١٤٠)، وما قبله، وينظر تعليق المحقق في حاشية رقم (١).

(٣) تفسير الطبري (٧/ ١٤٠)، وانظر (٧/ ١٤٣-١٤٤).

(٤) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ١٤٥-١٤٦)، وتفسير ابن كثير (٢/ ١٣٧).

من قرآن وما بينته من برهان. وهذا هو الخطاب الوحيد بهذه الصيغة الموجه للمؤمنين ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾، ولم يقل ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أو نحوه، وفي هذا من الدلالة على خطورة هذا الأمر ما فيه، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ولهذا أتبع ذلك بذكر أحوال غير العاقلين من المؤمنين الذين لا يدركون خطورة ما يفعلون، فقال:

﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ﴾ أيها المؤمنون ﴿تُحِبُّونَهُمْ﴾ وتصدقون الود لهم حقيقة ﴿وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ ولا يخلصون لكم النصح ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ كتابكم وكتب من قبلكم، وفي هذه الجملة إشارة إلى أهل الكتاب. ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ﴾ نفاقاً وكذباً وخداعاً: ﴿ءَامَنَّا﴾ وما هم بمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [البقرة: ٨-٩]، وقال: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾ [البقرة: ١٤]. ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ أي: وإذا هم خلوا فصاروا في خلاء حيث لا يراهم المؤمنون، عضوا - على ما يرون من ائتلاف المؤمنين واجتماع كلمتهم وصلاح ذات بينهم - أناملَهم، وهي أطراف أصابعهم، تغيُّظًا مما بهم، ولو وجدوا من يحميهم لأظهروا العداوة والمحاربة[1]. ﴿قُلْ﴾ يا محمد، لهؤلاء الذين وصفت لك صفتهم، وأخبرتك بحقدهم وكراهيتم للحق وأهله، ﴿مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ﴾ الذي بكم على المؤمنين لاجتماع كلمتهم وائتلاف جماعتهم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: بالذي في صدور هؤلاء الأعداء، وما ينطوون عليه من الغل والحقد، ويبطنون من العداوة والبغضاء، وبما في صدور جميع خلقه من خير وشر، وسيجازيهم على ما في قلوبهم من إيمان أو كفر، ومن حب أو بغض[2].

ثم زاد بيان هذه العداوة المتأصلة في جذور هؤلاء الحاقدين فقال: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ﴾ أيّ ﴿حَسَنَةٌ﴾ مهما صغر شأنها وضعف أثرها ﴿تَسُؤْهُمْ﴾، فيسوؤهم ما يحصل للمؤمنين من نصر

---

(١) تفسير الطبري (٧/ ١٥١-١٥٢).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ١٥٤-١٥٥).

أو خير أو مال أو رزق أو أي حسنة، ﴿وَإِن تُصِبْكُمْ﴾ أيّ ﴿سَيِّئَةٌ﴾ مها كانت ﴿يَفْرَحُواْ بِهَا﴾، وهذه درجة في العداوة تبعد الإنسان عن صنف الإنسان والحيوان، إلى صنف الشيطان. ثم أرشد الله تعالى عباده إلى طريق النجاة من كيد الأعداء ومكر الدخلاء وهو طريق الصبر والتقوى، فقال: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ وينجيكم الله تعالى من شرورهم، فدعاهم إلى الصبر على طاعة الله واتباع أمره فيما أمركم به، واجتناب ما نهاكم عنه من اتخاذ بطانة لأنفسكم من هؤلاء الأعداء، وغير ذلك من سائر ما نهاكم، ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ ربكم، ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾، أي: لا يضركم كيد هؤلاء الذين وصف صفتهم[1]. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾، أي: إن الله محيط بجميع ما يعمل هؤلاء الكفار في عباده وبلاده من الفساد والصدّ عن سبيله، والعداوة لأهل دينه، وغير ذلك من معاصي الله، وسيوفيهم جزاءهم ويعاقبهم على ذلك كله[2].

الدروس والعبر من هذا المقطع:

- يسعى بعض أهل الكتاب إلى الإيقاع بالمسلمين عبر الدسائس والمكائد، وقد بيّنت الآيات أن طاعة المسلم لأمثال هؤلاء لتحقيق جرائمهم يعتبر ردّة عن الإسلام.
- دعوة المسلمين إلى الثبات على الإيمان حتى الموت.
- دعوة المسلمين إلى الوحدة والائتلاف، وتحذيرهم من الفرقة والاختلاف.
- وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي مسؤولية كل مسلم، ودعت الآيات كذلك إلى تفرّغ أناس لهذا العمل مما يساهم في حفظ الأمن والانسجام في المجتمع.
- التحذير من مشابهة أهل الكتاب في التفرق والاختلاف بعد ظهور الحقائق والبيّنات.
- الله تعالى غني عن عباده وعن عقابهم، ولا يريد الظلم لهم، بل يريد خيرهم وسعادتهم لأنه

(١) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ١٥٦).
(٢) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ١٥٨).



رحيم بهم.

- خيرية أمة الإسلام مشروطة بتحقيق شروط هذه الخيرية، وهي الإيمان بالله تعالى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- رعاية الله تعالى لهذه الأمة لا تعني عدم إصابتها بالأذى، لأن ذلك خلاف سنن الله تعالى في الكون، بل تصاب بالأذى، لكن النصر لها في آخر المدى.
- غضب الله تعالى على أهل الكتاب بسبب كفرهم وعصيانهم وجرائمهم واعتداءاتهم.
- وامتدح الله تعالى المؤمنين الصادقين العابدين من أهل الكتاب، الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسعون في سبيل الخير.
- الأموال والأولاد لا تنفع شيئاً من دون الله تعالى.
- ما يصرفه بعض الناس من مساعدات على سبيل الدعاية والسمعة لا ينفعهم عند الله تعالى؛ لأنهم لم يبتغوا به وجهه الكريم.
- التحذير من المنافقين، وتحريم إطلاعهم وإطلاع غير المسلمين على أسرار الأمة الإسلامية.
- أهل النفاق يفرحون بمصائب المسلمين، ويتمنون لهم العنت في جميع أمورهم.
- تمتلئ قلوب أهل النفاق بالحقد والبغضاء على أهل الإسلام، وبعض ملامح هذا الحقد تظهر من زلات ألسنتهم وفلتات أقوالهم، ﴿ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ ﴾ من البغضاء والعداوة والكراهية ﴿ أَكْبَرُ ﴾.
- قد يغفل بعض المؤمنين عن مثل هذه التنبيهات من الله تعالى، وقد لا يتصورون وجود مثل هذه العداوة المتأصلة عند بعض أعدائهم، وهذا بسبب جهلهم من جهة، وطيبة قلوبهم من جهة أخرى.
- تبلغ العداوة ببعض الكفار إلى كراهية أيّ خير للمسلمين مهما قلّ، والفرح بأيّ شرّ يصيبهم مهما ذلّ، والصبر هو خير علاج لمثل هذه الدرجة من الكراهية.

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

يتناسب هذا المقطع مع محور السورة العام وهو التوحيد؛ لأن الأمة المؤمنة بالله تعالى هي خير الأمم، وهذه الخيرية مشروطة بالإيمان والدعوة إليه والاستقامة عليه، والتوحيد هو أساس الإيمان بالله تعالى. كما تناولت الآيات مواضيع متعلقة بهذه المناسبة، مثل التحذير من الأعداء ومن طاعتهم وموالاتهم، والتحذير من أعداء الداخل من المنافقين، والتنبيه إلى أن الحساب والجزاء يكونان يوم القيامة، عندما يرجع الناس لرب العالمين.

المقطع السادس: عندما يواجه الأعداء (معركة أحد)

مناسبة المقطع لسابقه:

بعد أن حذّر الله تعالى من كيد الأعداء، وأكّد استمرارهم على العداء، وبيّن إظهارهم وإضمارهم للبغضاء، وأمر بالصبر والتقوى، - ويشير ذلك كله إلى حتمية الصراع والمواجهة-، انتقل إلى الحديث عن معركة أحد، والاختبار الذي حصل فيها، والتمييز الذي حصل بين المسلمين والمنافقين، والدروس والعبر المستفادة منها.

ينقسم هذا المقطع إلى ثلاث مواضيع، وهي كما يأتي:

الموضوع الأول: مقدمات معركة أحد (وأن الأمر كله لله):

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [الآيات: ١٢١-١٢٩].

التفسير الإجمالي:

بدأت الآيات بذكر الاستعداد لمواجهة العدو القادم إلى المدينة، فذكرت أن النبي ﷺ غدا صباحاً من أهله ومن منزله، لينزل المجاهدين في منازلهم، ويرتب أوضاعهم، فيضع أناساً في الميمنة وأناساً في الميسرة، وآخرين على الجبل كل في موقعه المناسب، وفي قوله تعالى ﴿ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾ إشارة واضحة إلى أن إنزال النبي ﷺ لهؤلاء في أماكنهم كان مصحوباً بتعليمات واضحة

بعدم الانتقال منها، ولذا قال ﴿ مَقَٰعِدَ ﴾؛ كأنهم قاعدون فيها أو عليها، لا يتزحزحون عنها[(١)]، وختم الآية بقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ لأقوالكم ومناقشاتكم، ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بما في صدوركم وضمائركم. وفيها إشارة إلى ما حصل أثناء ذلك من نقاش وكلام كثير خفي وجلي[(٢)].

وواضح أن لهذا التعبير بالمقاعد وختم الآية بالاسمين الجليلين ﴿ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ علاقة بما حصل لاحقاً من انتقال الرماة عن مواقعهم، والنقاشات التي حصلت بينهم، والأغراض التي من أجلها تركوا مواقعهم، وحصول الهزيمة بسبب ذلك، فتكون إشارة في بداية القصة لأهم درس مستفاد منها، وسيأتي التصريح به والتأكيد عليه لاحقاً.

ولعل في التقييد بقوله تعالى ﴿ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ ، إشارة إلى أن المواجهة وقرار الحرب والمعركة كان مفاجئاً. كما قد يفهم في قصة المراجعة قبل الحرب، حيث ندم الناس وقالوا استكرهنا رسول الله ﷺ، فقال النبي ﷺ: (ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل)[(٣)]، والله أعلم.

ثم انتقل الحديث إلى الحرب والمؤثرات النفسية التي حصلت قبل الحرب[(٤)]، فأشار إلى ما كان من تردد وهمّ بالانسحاب وشعور بالجبن من قبل طائفتين من المؤمنين، قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: فينا نزلت ﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ﴾ ، قال: نحن الطائفتان بنو حارثة وبنو سلمة، وما نحب أنها لم تنزل لقول الله ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ﴾ [(٥)]. قال

---

(١) قارن بنظم الدرر للبقاعي (٥/ ٤٢).

(٢) ينظر: نظم الدرر للبقاعي (٥/ ٤٢-٤٣).

(٣) ذكره ابن هشام في السيرة (٤/ ٩).

(٤) وأغفل ذكر جزء مهم منها؛ وهو رجوع ثلث الجيش وهم المنافقون بزعامة رأسهم عبد الله بن أُبيّ، حيث أخّر ذكرهم إلى آخر القصة، تحقيراً لشأنهم، وقلة تأثيرهم، كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾ [التوبة: ٤٧]، وقد مرّ هنا قبل آيات التحذير من اتّخاذهم بطانة تكشف لها الأسرار.

(٥) أخرجه البخاري في تفسير هذه الآية من كتاب التفسير، برقم (٤٥٥٨)، ومسلم في كتاب فضائل=

ابن حجر: والآية وإن كان في ظاهرها غض منهم لكن في آخرها غاية الشرف لهم[١]، حيث تكفّل الله بهما وتوّلاهما. قال الطبري: وكان همُّهما الذي همَّا به من الفشل الانصرافَ عن رسول الله ﷺ والمؤمنين حين انصرف عنهم عبد الله بن أبيّ ابن سلول بمن معه، جبنًا منهم، من غير شك منهم في الإسلام ولا نفاق، فعصمهم الله مما هموا به من ذلك، ومضوا مع رسول الله ﷺ لوجهه الذي مضى له، وتركوا عبد الله بن أبي ابن سلول والمنافقين معه، فأثنى الله عز وجل عليهما بثبوتهما على الحق، وأخبر أنه وليُّهما وناصرهما على أعدائهما من الكفار[٢]. قال محمد بن إسحاق في قوله: ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ﴾ أي: المدافع عنهما ما همَّتا به من فشلهما[٣]. قال ابن حجر: لأن ذلك كان من وسوسة الشيطان من غير وهن منهم[٤]. وختم الآية بقوله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ إذا أحسوا بالخوف أو الفشل، فإذا توكلوا على الله تعالى فإنه سيذهب عنهم ما أحسوا به.

ثم ذكّرهم بما كان في معركة بدر فقال: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ ﴾ على أعدائكم ﴿ وَأَنتُمْ ﴾ يومئذ ﴿ أَذِلَّةٌ ﴾ قليلون، في غير منعة من الناس، حتى أظهركم الله على عدوكم، مع كثرة عددهم وقلة عددكم، وأنتم اليوم أكثر عدداً منكم حينئذ، فإن تصبروا لأمر الله ينصركم كما نصركم ذلك اليوم، ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ ربكم بطاعته واجتناب محارمه ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ربكم على ما منَّ به عليكم من النصر على أعدائكم وإظهار دينكم، ولما هداكم له من الحق الذي ضلّ عنه مخالفوكم[٥].

ثم ذكر ما وعدهم رسول الله ﷺ في بدر من المدد بثلاثة آلاف من الملائكة، وبخمسة آلاف

= الصحابة، باب: فضائل الأنصار رضي الله عنهم، برقم (٢٥٠٥).

(١) فتح الباري لابن حجر (٧/ ٣٥٧).

(٢) تفسير الطبري (٧/ ١٦٨).

(٣) المرجع السابق.

(٤) فتح الباري لابن حجر (٧/ ٣٥٧).

(٥) تفسير الطبري (٧/ ١٦٩).

من الملائكة عند المعركة إذا صبروا واتقوا، ولا توجد دلالة على حصول هذا المدد بأحد هذين العددين، لكن جاء في موضع آخر أن الله تعالى أمدّهم بألف: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ [الأنفال: ٩]، ولا يوجد نصّ على وجود مثل هذا الوعد في أحد، أو حصول مدد بأي عدد، فالدلالة على أنهم لم يمدوا أبينُ منها في أنهم أمدوا؛ وذلك أنهم لو أمدوا لم يهزموا، ويُنالَ منهم ما نيل منهم[1]. ولذا فإن سياق الوعد متعلق بقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾.

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ﴾ أي: وما أنزل الله الملائكة وأعلمكم بإنزالها إلا بشارة لكم وتطيباً لقلوبكم وتطميناً[2]. ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ ولو شاء لانتصر من أعدائه بدونكم، وبدون الحاجة إلى قتالكم[3]، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ

(١) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ١٨٠-١٨١).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ١٤٥). وقدّم القلب على الجار والمجرور هنا فقال: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ﴾ وأخّره في [الأنفال: ١٠] فقال ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ علماً بأن الكلام في الموطنين على معركة بدر غير أن الموقف مختلف؛ ففي آل عمران ذكر معركة بدر تمهيداً لذكر موقعة أحد وما أصابهم فيها من قرح وحزن والمقام مقام مسح على القلوب وطمأنة لها، فقال ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ﴾، فذكر أن البشرى (لهم) وقدم (قلوبهم) على الإمداد بالملائكة، من قبيل المواساة والتبشير والطمأنة. وأما المقام في الأنفال فهو مقام ذكر موقعة بدر وانتصارهم فيها ودور الإمداد السماوي في هذا النصر، وقد فصّل في ذلك أكثر مما ذكر هنا، كما قال: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأنفال: ٩-١٢]. فلما كان المقام مختلفاً خالف في التعبير. تراجع: محاضرة: أسرار البيان في التعبير القرآني، للدكتور فاضل السامرائي. وقارن بأسرار التكرار للكرماني (ص٩٢-٩٣)، وكشف المعاني لابن جماعة (ص١٣٢-١٣٣).

(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ١٤٥-١٤٦).



لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ﴾ [سورة محمد، آية: ٤]، وهو سبحانه العزيز الغالب، الحكيم فيما شرع لخلقه، وإنما شرع لكم القتال والجهاد لأسباب هي:

﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ﴾ ويهلكهم، ﴿ أَوْ يَكْبِتَهُمْ ﴾ ويذلهم ويخزنهم[١]، ﴿ فَيَنقَلِبُوا۟ ﴾ ويرجعوا ﴿ خَآئِبِينَ ﴾ خاسرين فاشلين. ثم اعترض بجملة دلَّت على أنّ الحُكْم في الدنيا والآخرة لله وحده لا شريك له، فقال: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴾ أي: بل الأمر كلّه إلى الله تعالى[٢]، ونزلت هذه الآية لسببين؛ الأول: أن رسول الله ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الآخرة من الفجر يقول: (اللهم العن فلانا وفلانا وفلانا)، بعد ما يقول: (سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد)، فأنزل الله ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴾ إلى قوله ﴿ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾[٣]. والثاني: أن رسول الله ﷺ كسرت رباعيته يوم أحد وشجّ في رأسه فجعل يسلت الدم عنه ويقول: (كيف يفلح قوم شجوا نبيهم وكسروا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله)، فأنزل الله عز وجل ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴾[٤]. وعلى كلٍ فهي تدلّ على ما سبق ذكره في تفسيرها.

﴿ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ وهم القسم الثالث، بأن يهديهم إلى الإيمان، ويغفر لهم ما كان، ﴿ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ ﴾ في الآخرة، أو في الدنيا والآخرة، ﴿ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ مستحقون للعذاب. وهذا هو القسم الرابع والأخير المذكور هنا.

وختم هذا الموضوع بقوله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ يتصرف في ملكه كيف يشاء ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ برحمته ﴿ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾ بعدله، ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾،

---

(١) ينظر: لسان العرب، مادة ك ب ت.

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ١٤٦).

(٣) أخرجه البخاري في تفسير الآية في كتاب التفسير برقم (٤٥٥٩).

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير، باب: غزوة أحد، برقم (١٧٩١).

سبقت رحمته غضبه كما كتب سبحانه فوق عرشه[1]. وهذه الآية تأكيد لما تكرر من بداية هذا الموضوع، حيث جاء فيه: ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ﴾، ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾، ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ ﴾، ﴿ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم ﴾، ﴿ يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم ﴾ ﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾، ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾، فناسب ختمه بقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾.

الموضوع الثاني: أهمية الطاعة، ومواعظ وهدايات في الطاعات:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الآيات: ١٣٠-١٣٨]

مناسبة الموضوع لسابقه:

لما مرّ في المقطع السابق أن الأمر كله لله تعالى وحده، وليس لأحد من خلقه شيء في ذلك، ولما كان العصيان هو السبب الأساس في حصول الهزيمة في معركة أحد، ذكر هنا مواعظ وهدايات للمتقين المصدقين، ليستحقوا نصر الله تعالى.

التفسير الإجمالي:

بدأت هذه المواعظ والهدايات بالتحذير من أكل الربا ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟

(١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب: ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾، برقم (٧٤٢٢).

ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾، ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ﴾ لأن أكل الربا يؤدي إلى استحقاق النار، كما قال تعالى: ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ ﴾ [البقرة، آية: ٢٧٥]. والنار ﴿ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴾ ولم تعد للمؤمنين، لكن كل من عصى وطغى ولم يترك الربا فقد استحق النار والعنا، والعياذ بالله، كما قال تعالى في آكلي الربا: ﴿ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ ﴾ [البقرة، آية: ٢٧٦].

وذكر الربا هنا له مناسبة عظيمة دقيقة، لم أقف على من أشار إليها؛ وهي أنه لما كان الكلام في معركة أحد، وسبق ذكر أن النصر من عند الله تعالى، وأن ما سوى ذلك فهو بشرى وتطمين فقط، وأن ملك السموات والأرض لله تعالى، ناسب التحذير من الربا الذي يؤذن بحرب من الله ورسوله؛ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٧٨-٢٧٩]، وبالتالي فهو حكم بالهزيمة والخسارة في الدنيا والآخرة، فناسب التحذير منه هنا.

وأما ذكر التقوى هنا فلما سبق من الأمر بالتقوى للخلاص من مكائد الأعداء، ﴿ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔا ﴾، ولنزول المدد من الله تعالى ﴿ بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم ﴾.

وبعد هذا النهي والتحذير من النار، انتقلت الآيات إلى الأمر والحث على الخيرات، فأرشدت إلى طاعة رب السموات ورسول الخيرات لاستحقاق الرحمات؛ ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ في الدنيا والآخرة.

والأمر بطاعة الله وطاعة الرسول مناسب لأحداث معركة أحد، وما وقع فيها من مخالفة لأمر الرسول ﷺ وتسببها في الهزيمة، ومناسب أيضاً لما حصل من عدم استجابة لأمر الرسول أثناء الهزيمة كما سيأتي ﴿ ۞ إِذۡ تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ ﴾، ومناسب لما حصل من استجابة لأمر الرسول ﷺ بعد المعركة مما تسبب في انسحاب

الكفار وردّهم خائبين كما سيأتي ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ﴾.

ثم حثّت على المسارعة إلى نيل المغفرة، والفوز بالجنة التي أعدت للمتقين، والنجاة من النار التي أعدت للكافرين، ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾[1]، ثم شرعت الآيات في ذكر صفات أهل هذه الجنة ترغيباً في العمل بعملهم لنيل مكافأتهم؛ ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ﴾ جميع أحوالهم من ﴿ ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾، والمعنى أنهم لا يشغلهم أمر عن طاعة الله تعالى والإنفاق في مراضيه، والإحسان إلى خلقه[2]، ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾ إذا جهل عليهم أحد[3]، أي: إذا غضبوا سيطروا على غضبهم وكظموا[4] غيظهم ولم يظهروه، والأحاديث في التحذير من الغضب والحث على كظم الغيظ كثيرة، أشهرها قول النبي ﷺ: (ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب)[5]. ثم ذكرت الآيات مرتبة أعلى في صفات هؤلاء؛ ﴿ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾ فهم بعد كظمهم الغيظ يعفون عمن أساء إليهم فلا يبقى في أنفسهم شيء من الغل عليهم، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ [الشورى، ٣٧]، وجاء في الصحيح (وما زاد الله عبداً

---

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٤٩-١٥٠): قيل: إن وصف سعة العرض تنبيه على اتساع طولها، أي: فكيف بطولها؟، كما قال في صفة فرش الجنة: ﴿ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ [الرحمن:٥٤] أي: فما ظنك بالظهائر؟، وقيل: بل عرضها كطولها؛ لأنها قبة تحت العرش، والشيء المُقَبَّب والمستدير عَرْضُه كطوله. وقد دلّ على ذلك ما ثبت في صحيح البخاري (برقم: ٧٤٢٣): (إذا سألتم الله فسلوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ١٥٢).

(٣) تفسير القرآن من الجامع لابن وهب (٢/ ٥٤).

(٤) أصل الكظم: الإمساك على غيظ وغم، والاستخدام اللغوي لمشتقات (كظم) لطيف جداً، وهو من رباط القِرْبة الممتلئة، تربط بعد أن تملأ حتى لا يتسرب منها شيء، ينظر: تفسير الطبري (٧/ ٢١٤)، ولسان العرب، مادة (ك ظ م).

(٥) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب: التحذير من الغضب، برقم (٦١١٤)، ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب: فضل من يملك نفسه عند الغضب، برقم (٢٦٠٩).

بعفو إلا عزاً)[١]، ثم ذكرت الآيات أن هذا هو مقام الإحسان ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[٢]، ويحتمل أن تكون الآيات ذكرت مقاماً أعلى وأرفع من سابقه، أي: ويحسنون إلى من أساء إليهم، والله أعلم.

ولم تغفل الآيات الطبيعة البشرية فبعد ذكر النهي والتحذير، ثم الأمر والحث، انتقلت الآيات إلى الحديث عن حال هؤلاء الأخيار عند وقوعهم في المعصية وارتكابهم للخطأ؛ ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ أي: أنهم إذا أذنبوا لم يصروا على الذنب بل سارعوا إلى الاستغفار وبادروا إلى التوب، وهم يعلمون خطورة الذنب وسوء عاقبته، وأهمية التوبة وحسن عاقبتها[٣]، ويعلمون أن الله يغفر الذنوب، فغفر الله لهم ﴿ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾، كما جاء في الصحيح أن النبي ﷺ قال: (إن عبدا أصاب ذنباً فقال: رب أذنبت فاغفر لي، فقال ربه: {أَعَلِمَ عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، غفرت لعبدي} ثم مكث ما شاء الله، ثم أصاب ذنباً، فقال: رب أذنبت آخر فاغفره، فقال: {أَعَلِمَ عبدي أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به غفرت لعبدي}، ثم مكث ما شاء الله ثم أذنب ذنباً، قال: قال: رب أصبت آخر فاغفره لي، فقال: {أعلِمَ عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، غفرت لعبدي} ثلاثا {فليعمل ما شاء})[٤]. ويحتمل أن يكون المعنى: ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[٥] أنهم قد أذنبوا، وأن

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب: استحباب العفو والتواضع، برقم (٢٥٨٨).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ٢١٤)، وابن كثير (٢/ ١٥٦)، والتحرير والتنوير لابن عاشور (٣/ ٢٢٢).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٣/ ٢٢٤).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب: قول الله تعالى ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ ، برقم (٧٥٠٧)، وفيه ألفاظ متقاربة. ومسلم في كتاب التوبة، باب: قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت، برقم (٢٧٥٨).

(٥) وأحسب أن جملة {وهم يعلمون} يمكن أن تتعلق أيضاً بأحد الفعلين: {يصروا} أو {فعلوا}، ويكون المعنى على هذا أوسع، والله أعلم.

الذي أتوا معصية لله تعالى[١].

وهذه الهدايات كلها تناسب ما حصل في معركة أحد؛ فإن ذكر الأمر بالمسارعة إلى الآخرة، والأمر بالإنفاق في السراء والضراء، والأمر بالاستغفار من الذنوب، إن ذكر هذا كله يناسب ما حصل في معركة أحد، حيث كانت المعصية وحب الدنيا السبب في الهزيمة كما سيأتي ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا ﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ دليل على أن المعصية تنتج عن الغفلة،

وفي قوله تعالى: ﴿ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ ﴾ دليل على عظم الإصرار على الذنب،

وفي قوله تعالى: ﴿ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ ﴾ دليل على أن المؤاخذة هي على الذنب العمد[٢]، وأنه لا مؤاخذة على الذنب بالخطأ، كما قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وفي قوله تعالى: ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ دليل على أن عدم المؤاخذة لمن وقع في الذنب عن جهل من غير تقصير. والله أعلم.

ثم ذكر تعالى قبوله لاستغفارهم فقال: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾، وذكر أنه زادهم بعد المغفرة بالجنة؛ فلهم: ﴿ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾، وذلك هو جزاؤهم على التقوى وحسن العمل ﴿ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾.

ثم ختم الموضوع بالتأكيد على الاعتبار من أحوال الأمم الماضية، وضرب المثل بعاقبة العصاة والمكذبين؛ ﴿ قَدْ خَلَتْ ﴾ في الأمم التي ﴿ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ﴾ وأحوال معهودة من

---

(١) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ٢٢٦).

(٢) الأصل في الفعل أنه عام لما كان بقصد أو بغير قصد. ينظر: المفردات (ص٣٨٢). لكن السياق هنا يشير إلى الفعل العمد، والله أعلم.



تكذيب أعدائهم ومحاربتهم إياهم ﴿ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ وكيف عاقبة المتقين. وإن ﴿ هَٰذَا ﴾ القرآن ﴿ بَيَانٌ ﴾ لحقائق الأمور ﴿ لِّلنَّاسِ ﴾ كي يتعظ ويعتبر أولوا الألباب، والقرآن كذلك ﴿ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ يهدي به الله المتقين إلى أحسن الأحوال والأخلاق.

وهاتان الآيتان يمكن أن ترتبطا بهذا الموضوع والمواعظ والهدايات، ويمكن أن ترتبطا بالموضوع الذي بعده والمتعلق بمعركة أحد، فهما كالتمهيد للعودة إلى الحديث عن معركة أحد، وهما توضحان المناسبة بين الموضوعين.

الموضوع الثالث: تعزية المسلمين والنهي عن الهوان والخوف من الموت:

﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾

[الآيات: ١٣٩-١٤٨]

التفسير الإجمالي:

بدأت الآيات بتعزية المسلمين على ما أصابهم يوم أحد، فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُواْ ﴾ ولا تضعفوا بسبب ما نالكم من الأذى، ﴿ وَلَا تَحْزَنُواْ ﴾[١] الحزن الذي يؤدي إلى اليأس والإحباط[٢]. وفي الآية تحذير للمسلمين من أسباب الهزيمة. ثم بشّرهم بالنصر والظفر، فقال تعالى: ﴿ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ ﴾ المنتصرون على أعدائكم ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ مصدّقين بما يخبركم ويعدكم به نبيكم محمد ﷺ[٣].

وجملة ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ يمكن أن تتعلق بالنهي في أول الآية ﴿ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ ﴾، أو متعلق بالبشارة في آخرها ﴿ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ ﴾[٤].

وتواصل الآيات تسليتها وتعزيتها للمسلمين؛ ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ ﴾ ويصبكم ﴿ قَرْحٌ ﴾ ألم وجراح وقتل ﴿ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ﴾، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُواْ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ [النساء، ١٠٤]. وهي سنة الله تعالى في خلقه، ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾، ولولا هذه المداولة لما عادت الدنيا دار اختبار، إذ لو انتصر أهل الحق دائماً كيفما كان لما بقي للباطل سلطان، ولآمن

---

(١) وأسلوب القرآن الكريم في البشارة والتطمين في أمور الدنيا والدين يشتمل على الأمن من الخوف ومن الحزن؛ كما قال تعالى: ﴿ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [آل عمران، ١٧٠]، ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس، ٦٢]، ﴿ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ﴾ [القصص، ٧]، ﴿ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الزمر، ٦١]، ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ ﴾ [فصّلت، ٣٠]، ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ [الزخرف، ٦٨].

(٢) وهو منهي عنه شرعاً، بخلاف الحزن الذي يدفع إلى اللجوء إلى الله تعالى والاجتهاد في العمل؛ كما قال يعقوب عليه السلام: ﴿ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [يوسف، ٨٦].

(٣) تفسير الطبري (٧/ ٢٣٤).

(٤) ينظر: تفسير البيضاوي (٢/ ٩٥).

الإنس والجانّ. ولكن الله تعالى جعل الدنيا دار امتحان؛ ﴿ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ العلم الذي يترتب عليه الجزاء.

والظاهر أن الجملة متعلقة بأول الآية، كأنه جواب لسؤال: فلماذا مسّنا القرح؟، فقال: ومسّكم القرح ﴿ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾[1]. ﴿ وَيَتَّخِذَ ﴾ ويصطفي ويختار ﴿ مِنكُمۡ شُهَدَآءَ ﴾ يكرمهم بالشهادة وحسن ثوابها. ثم ختمت الآية بقوله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، حتى لا يتوهم أن انتصار الكافرين في بعض المعارك دليل على حب الله تعالى لهم، بل هو كما قال تعالى في أول الآية: ﴿ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ ﴾ جميعهم مسلمهم وكافرهم. وفيه إشارة إلى أن ظلم الكافرين هو سبب قيام المسلمين بالجهاد، والله أعلم.

وتواصل الآيات الحديث عن حِكَم الأمر بالقتال؛ ﴿ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾، والتمحيص هو الابتلاء والاختبار[2]، أي: يختبرهم ليمتازوا من غيرهم من الكفار والمنافقين وأهل الأهواء والأغراض[3]. أو المراد بالتمحيص التخليص؛ أي: ليخلصهم من ذنوبهم بما يقع عليهم من قتل وجرح وذهاب مال[4]. ﴿ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ أي: يستأصلهم إذا أدال عليهم، يعني: أنه يديل على المؤمنين لتخليصهم من ذنوبهم، ويديل على الكافرين لإهلاكهم بذنوبهم[5][6].

---

(١) اختار الإمام الطبري (٧/ ٢٤٢) أن يكون المعنى: (وليعلم الله الذين آمنوا منكم، أيها القوم، من الذين نافقوا منكم، نداول بين الناس. فاستغنى بقوله: {وليعلم الله الذين آمنوا منكم}، عن ذكر قوله: (من الذين نافقوا)، لدلالة الكلام عليه).

(٢) زاد المسير لابن الجوزي (١/ ٤٦٧).

(٣) وينظر: المحرر الوجيز لابن عطية (١/ ٥١٥)، وتفسير السمرقندي (١/ ٢٧٨).

(٤) تفسير الواحدي (١/ ٢٣٤)، و زاد المسير لابن الجوزي (١/ ٤٦٧).

(٥) ينظر: تفسير الواحدي (١/ ٢٣٤).

(٦) في قوله تعالى ﴿ إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ =

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ ﴾ يا من انهزم يوم أحد ﴿ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ ﴾ كما دخل الذين قتلوا وصبروا على ألم الجراح والقتل من غير أن تسلكوا طريقهم وتصبروا صبرهم، كلا، حتى ﴿ يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾، علم شهادة، حتى يقع عليه الجزاء[1].

﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ ﴾ شهادة في سبيل الله، أي: كنت تمنون لقاء أسباب الموت[2]، والمقصود الثبات في القتال ولو أدى إلى القتل[3]، ﴿ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ ﴾ وتلاقوه مشاهدة، ﴿ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾، يعني: قد رأيتموه بمرأى منكم ومنظر، أي: بقرب منكم[4]، أو هو تكرار لتأكيد الرؤية، أي: فقد رأيتموه رؤية حقيقية. وقال بعضهم المراد: وأنتم تنظرون إلى محمد ﷺ، فلم انهزمتم[5]، وسيأتي في السياق: ﴿ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ

=وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران، الآيتان: ١٤٠-١٤١]، لفتات بلاغية، فاللام في (ليعلم) هي لام التعليل ثم قال تعالى (يتخذ) عطف بدون لام ثم قال (ليمحّص) عطف وذكر اللام ثم قال (يمحق) عطف بدون ذكر اللام، لماذا ؟ قلنا أن الذكر للتوكيد وما حذف أقل توكيداً وإذا استعرضنا الأفعال في الآية فهل كلها بدرجة واحدة من التوكيد والحذف؟. (وليعلم) الله تعالى يريد ذلك من كل شخص علماً يتحقق منه الجزاء لكل شخص. إذن هو أمر عام لجميع الذين آمنوا ومن غير الذين آمنوا فهو أمر ثابت مطلق لكل فرد من الأفراد. (يتخذ) لا يتخذ كل المؤمنين شهداء فهذا الفعل ليس بدرجة اتساع الفعل الأول وهو ليس متعلقاً بكل فرد. (ليمحص) متعلق بكل فرد وهذا يتعلق به الجزاء. (يمحق) لم يمحق كل الكافرين محقاً تاماً فالكفر والإيمان موجودان. إذن عندما يذكر اللام على وجه العموم والمقصود يكون كل فرد من الأفراد والحذف عكس ذلك. تراجع: محاضرة: أسرار البيان في التعبير القرآني، ألقاها الدكتور فاضل صالح السامرائي ضمن فعاليات جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم عام ٢٠٠٢م.

(١) تفسير القرطبي (٤/ ٢٢٠).

(٢) الطبري (٧/ ٢٤٨).

(٣) قال القرطبي (٤/ ٢٢١): (وتمني الموت يرجع من المسلمين إلى تمني الشهادة المبنية على الثبات والصبر على الجهاد لا إلى قتل الكفار لهم؛ لأنه معصية وكفر، ولا يجوز إرادة المعصية، وعلى هذا يحمل سؤال المسلمين من الله أن يرزقهم الشهادة فيسألون الصبر على الجهاد وإن أدى إلى القتل).

(٤) تفسير الطبري (٧/ ٢٤٨).

(٥) تفسير القرطبي (٤/ ٢٢١).

﴿أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾. وقد جاء في الحديث الصحيح التوجيه بعدم تمني لقاء العدو؛ قال رسول الله ﷺ: (لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف)[١].

وتواصل الآيات عتاب المنهزمين من المسلمين، والذين تخاذلوا عندما سمعوا إشاعة قتل النبي ﷺ وموته: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ وقد مات من قبله من الرسل، وسيلحق به عليهم السلام، ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ كما مات أو قتل من قبله ﴿ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ عن دعوته ونصرة دينه، ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ بل الخسران له والضرر عليه، ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، أي: وسيثيب الله من شكره على توفيقه وهدايته إياه لدينه، بثبوته على ما جاء به محمد ﷺ إن هو مات أو قتل، واستقامته على منهاجه، وتمسكه بدينه وملته بعده[٢]. أو الشاكرين: الذين صبروا وجاهدوا واستشهدوا[٣].

وهذه الآية من تتمة العتاب مع المنهزمين أي لم يكن لهم الانهزام وإن قتل محمد ﷺ، فالنبوة لا تدرأ الموت، والأديان لا تزول بموت الأنبياء[٤].

وقد استدل أبو بكر ﵁ بهذه الآية على موت النبي ﷺ حقيقة عندما اختلف الناس في ذلك، فقام فيهم خطيباً فقال: (أما بعد، فمن كان منكم يعبد محمداً ﷺ فإن محمداً قد مات، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لا يموت، قال الله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب:... تأخير القتال حتى تزول الشمس، برقم (٢٩٦٦)، ومسلم في نفس الكتاب، باب: كراهية تمني لقاء العدو والأمر بالصبر، برقم (١٧٤٢).

(٢) تفسير الطبري (٧/ ٢٥٢).

(٣) تفسير القرطبي (٤/ ٢٢٦).

(٤) تفسير القرطبي (٤/ ٢٢٢).

﴿ٱلرُّسُلُ﴾ إلى قوله ﴿ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[١]، وفي هذا دليل على ثبات أبي بكر ﷺ وشجاعته[٢].

ثم أخبر تعالى أن الأجل بيده سبحانه وتعالى تثبيتاً لعباده؛ ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾، ولن تموت نفس حتى تستكمل أجلها. والآية تشير إلى عدم التأثر بإشاعة الموت؛ لأنه إن وقع فإنما وقع في أجله الذي كتبه الله تعالى وبإذنه عز وجل، فيجب عدم التخاذل عند وقوعه. وفي الآية تحريض وتشجيع للجبناء على القتال، فإن الإقدام والإحجام لا ينقص من العمر ولا يزيد فيه[٣]، ووعد للرسول ﷺ بالحفظ وتأخير الأجل[٤].

ولما كان التخاذل والنكوص عند وقوع الهزيمة أو الإصابة بالقرح أو مقتل النبي ﷺ مظنة أن القتال لم يكن في سبيل الله تعالى بل كان في سبيل الدنيا، قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ ما كتبنا له فيها كما قال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾﴾ [الإسراء: ١٨]، وكما قال تعالى: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ [البقرة: ٢٠٠]. وفيه تعريض لمن شغلتهم الغنائم يوم أحد[٥].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: مرض النبي ﷺ ووفاته، برقم (٤٤٥٤). قال راوي الحديث بعده: (والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر فتلقاها منه الناس كلهم فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها، فأخبرني سعيد بن المسيب أن عمر قال: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرتُ حتى ما تقلني رجلاي وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها علمت أن النبي ﷺ قد مات).

(٢) قال القرطبي (٤/ ٢٢٢): (هذه الآية أدلّ دليل على شجاعة الصديق وجراءته؛ فإن الشجاعة والجرأة حدّهما ثبوت القلب عند حلول المصائب، ولا مصيبة أعظم من موت النبي ﷺ، فظهرت عنده شجاعته وعلمه، قال الناس: لم يمت رسول الله ﷺ منهم عمر وخرس عثمان واستخفى علي واضطرب الأمر، فكشفه الصديق ﷺ بهذه الآية).

(٣) ابن كثير (٢/ ١٦٦).

(٤) البيضاوي (٢/ ٩٩).

(٥) البيضاوي (٢/ ٩٩).

﴿ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ﴾ ولا نحرمه خير الدنيا كما قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ﴾ [البقرة: ٢٠٢]، ﴿ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ الذين شكروا نعمة الله فلم يشغلهم شيء عن الجهاد[١]، أي: نؤتيهم الثواب الأبدي جزاء لهم على ترك الانهزام، وقيل: ﴿ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ من الرزق في الدنيا، لئلا يتوهم أن الشاكر يحرم ما قسم له مما يناله الكافر[٢].

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾ أي: وكم من نبي قاتل معه ربانيون علماء أتقياء عابدون لربهم، أو قاتل معه جماعات، والربى منسوب إلى الربة وهي الجماعة للمبالغة[٣]، وقرئت ﴿ قُتِلَ ﴾[٤]، وقراءة ﴿ قَٰتَلَ ﴾ أعم وأمدح[٥]. ﴿ فَمَا وَهَنُوا۟ ﴾ ولا ضعفوا ولا

---

(١) البيضاوي (٢/ ١٠٠)، وينظر ما ذكرته في تفسير قوله تعالى ﴿ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ في الآية السابقة.

(٢) القرطبي (٤/ ٢٢٧).

(٣) البيضاوي (٢/ ١٠٠)، وينظر: القرطبي (٤/ ٢٣٠).

(٤) وهذه القراءة تحتمل معنيين: أحدهما: أن يكون {قتل} واقعاً على النبي وحده، وحينئذ يكون تمام الكلام عند قوله {قتل}، ويكون في الكلام إضمار أي: {ومعه ربيون كثير}. والثاني: أن يكون القتل نال النبي ومن معه من الربيين، ويكون وجه الكلام: قتل بعض من كان معه، تقول العرب: قتلنا بني تميم وبني سليم، وإنما قتلوا بعضهم، ويكون قوله {فما وهنوا} راجعاً إلى من بقي منهم. وهو الذي اختاره القرطبي فقال: وهذا القول أشبه بنزول الآية وأنسب، فإن النبي ﷺ لم يقتل وقتل معه جماعة من أصحابه. الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٤/ ٢٢٩).

(٥) اختار أبو عبيد قراءة {قاتل}، وقال: إن الله إذا حمد من قاتل كان من قتل داخلاً فيه، وإذا حمد من قتل لم يدخل فيه غيرهم، فقاتل أعم وأمدح. نقله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن (٤/ ٢٣٠). بينما اختار الطبري قراءة {قتل}، قال: لأن الله عز وجل إنما عاتب بهذه الآية والآيات التي قبلها الذين انهزموا يوم أُحُد، وتركوا القتال، أو سمعوا الصائح يصيح: (إن محمدًا قد قتل). فعذلهم الله عز وجل على فرارهم وتركهم القتال، فقال: أفائن مات محمد أو قتل، أيها المؤمنون، ارتددتم عن دينكم وانقلبتم على أعقابكم؟. الطبري (٧/ ٢٦٤).

فتروا ﴿ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ من قرح وقتل لبعضهم أو لنبيهم[١]، ﴿ وَمَا ضَعُفُواْ ﴾ عن العدو، أو في الدين[٢]، أو عن الجهاد، ﴿ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ﴾ ولا خضعوا ولا ذلوا، بل صبروا وصابروا ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ على الجهاد في سبيله.

ومعنى الآية: تشجيع المؤمنين والأمر بالاقتداء بمن تقدم من خيار أتباع الأنبياء، أي: كثير من الأنبياء قتل معه ربيون كثير، أو كثير من الأنبياء قتلوا، فما ارتد أممهم[٣].

ثم أخبر تعالى عنهم بعد أن قتل بعضهم أو قتل نبيهم بأنهم صبروا ولم يفروا، واستغفروا ليكون موتهم على التوبة من الذنوب إن رزقوا الشهادة[٤]؛ ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا ﴾ ، ثم سألوا الثبات في القتال ﴿ وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ﴾[٥] وسألوا النصر على الأعداء ﴿ وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [٦]، أي: وما كان قولهم مع ثباتهم وقوتهم في الدين وكونهم ربانيين إلا هذا القول، وهو إضافة الذنوب والإسراف إلى أنفسهم والاستغفار عنها، ثم طلب التثبيت في مواطن الحرب والنصر على العدو ليكون الدعاء والتوجه عن خضوع وطهارة فيكون أقرب إلى الإجابة[٧].

﴿ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْأَخِرَةِ ﴾ ، أي: فأجاب الله دعاءهم، وأعطاهم النصر والظفر والغنيمة في الدنيا والمغفرة في الآخرة، ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ وهكذا يفعل

---

(١) ينظر: البيضاوي (٢/ ١٠١).
(٢) البيضاوي (٢/ ١٠١).
(٣) القرطبي (٤/ ٢٢٩).
(٤) القرطبي (٤/ ٢٣١).
(٥) قال القرطبي (٤/ ٢٣١): خصوا الأقدام بالثبات دون غيرها من الجوارح لأن الاعتماد عليها.
(٦) يرى القرطبي الالتزام بالدعاء المأثور، فقد قال بعد هذه الآية: (فعلى الإنسان أن يستعمل ما في كتاب الله وصحيح السنة من الدعاء ويدع ما سواه، ولا يقول أختار كذا، فإن الله تعالى قد اختار لنبيه وأوليائه وعلمهم كيف يدعون). الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٤/ ٢٣١).
(٧) البيضاوي (٢/ ١٠١).

الله مع عباده المخلصين التائبين الصادقين الناصرين لدينه الثابتين عند لقاء عدوه بوعده الحق وقوله الصدق. وفي الآية توجيه لأصحاب النبي ﷺ، أي: فهلا فعلتم وقلتم مثل ذلك يا أصحاب محمد ﷺ[١].

الدروس والعبر المستفادة من هذا المقطع بجميع مواضيعه:

- ضرورة الاستعداد للقاء العدو، فالإسلام وإن كان دين سلام، إلا أنه أيضاً دين قوة وحكمة، وأعداء الإسلام لا يريدون له السلام، لذا وجب الاستعداد لهم، خشية أن يباغتوا المسلمين في أراضيهم ويصيبوهم في أهليهم.
- الهزيمة النفسية خطيرة جداً، وتؤدي في الغالب إلى الهزيمة في باقي الجوانب، لذا يجب التوكل على الله تعالى، واستلهام القدوة في مواضع القوة، لردّ وساوس الضعف والخوف.
- النصر من عند الله تعالى وحده، وما غير ذلك فإنما هي أسباب وضعها الله تعالى. ورغم ذلك فإن للنصر شروطاً ومتطلبات يجب الأخذ بها لينزل نصر الله تعالى، ومن أهمها الاستعداد لردّ العدوان، وعدم الخوف والهوان، وعدم التفرق والخذلان، والتوكل على الملك الديّان.
- شرع القتال في الإسلام لحكم عظيمة جليلة ذكرت في عدد من المواضع في هذه السورة الكريمة.
- طاعة الله تعالى هي السبيل إلى نزول رحمته وتوفيقه، وفي ذكر الطاعة أثناء آيات القتال إشارة واضحة إلى ارتباط نزول النصر بلزوم الطاعة، لأن المعصية وحب الدنيا هما سبب الهزيمة.
- المعصية تنتج عن الغفلة.
- الإصرار على الذنب كبيرة من الكبائر.
- المؤاخذة تكون على الذنوب التي يرتكبها العبد متعمداً وهو عالم بحرمتها.

---

(١) القرطبي (٤/ ٢٣١).

- الإسلام دين واقعي، يفترض وقوع الذنب من الإنسان، ويرسم له الطريق للخلاص من الذنوب ومن آثارها.
- العاقل من اتعظ بغيره، واستفاد من تجارب من سبقه.
- طبيعة الاختبار والامتحان في الدنيا تقتضي استمرار الصراع بين الخير والشر، وتداول الأيام بينهما، وحصول الأذى لكلا الفريقين، وإنما العبرة بالثبات والاستقامة وخواتيم الأمور.
- حصول الصراع والأذى له حكم عديدة حتى يمتاز الخير عن الشر، والمؤمن عن المنافق، والصادق عن الكاذب، وحتى يحصل الصادقون على درجات الشهداء والمقرّبين، ويتطهر المجتمع من الأدعياء والكاذبين، وينتصر أهل الحق ويكسروا الكافرين أعداء الدين.
- حفّت الجنة بالمكاره، ولا يمكن الوصول إليها دون مشاق وصعوبات وتضحيات.
- الرسل عليهم السلام بشر، وهم في بشريتهم كسائر البشر، يسري عليهم ما يسري على غيرهم من الأذى والمرض والموت. فالنبوة لا تدرأ الموت، والأديان لا تزول بموت الأنبياء[١].
- لكل نفس أجل في هذه الدنيا، فالإقدام والشجاعة لا تقدم الموت، كما أن الجبن والتخاذل والهرب لا يؤخره.
- المؤمن الصادق لا يتعلق بالأفراد، حتى لو كانوا رسلاً من عند الله تعالى؛ لأن علاقته مع الله وحده لا شريك له.
- الرجوع إلى الله تعالى في الأزمات واللجوء إليه في المُلمّات هو السبيل إلى نزول الرحمات، وحصول الخيرات، والنجاة في الحياة وبعد الممات.

---

(١) تفسير القرطبي (٤/ ٢٢٢).

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

هذا المقطع شديد الصلة بمحور السورة الكريمة، لأن المعركة والمواجهة هي أشدّ امتحان للإيمان، وفيها تظهر حقيقة كل إنسان، وهل هو متعلق بالدنيا أم بالآخرة. كما أن ساحة القتال تستلزم صدق الطاعة والتوكل على الله تعالى، والاستغفار والاستبشار، والصبر على ما يحصل من أذى، والرضا بالقضاء والتقوى. كما أن من مقتضيات توحيد الله تعالى التعلق به وحده، وعدم التعلق بالأعداد ولا بالأفراد ولا بأحد من الخلق، ولو كان رسولاً من عند الله تعالى.

المقطع السادس: دروس مستفادة من الهزيمة

بعد الهزيمة في معركة أحد، يأتي هذا المقطع ليقرر حقائق وتوجيهات مختلفة، رأيت تقسيمها على شكل دروس مستفادة من نتيجة هذه المعركة، وهي أربعة دروس، كما يأتي:

الدرس الأول: التحذير من طاعة الأعداء، ومن التنازع والتخذيل:

قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين (١٤٩) بل الله مولاكم وهو خير الناصرين (١٥٠) سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين (١٥١) ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين (١٥٢) ۞ إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم فأثابكم غما بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون (١٥٣) ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور (١٥٤) إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم (١٥٥) يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم والله يحيي ويميت والله بما تعملون بصير (١٥٦) ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون (١٥٧) ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون (١٥٨)﴾[الآيات: ١٤٩-١٥٨].

التفسير الإجمالي:

بدأت الآيات بتحذير المسلمين من طاعة الكافرين، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ ﴾ إلى الكفر[١] ﴿ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴾ للدنيا والآخرة. والمراد طاعتهم في ما يخالف أوامر الله تعالى[٢].

ثم أمرت الآيات بطاعة الله تعالى وموالاته، ﴿ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ﴾ وهو خير لكم من أعدائكم، ينصر عباده على أعدائه ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴾[٣]، أي: فاستغنوا عن موالاة الكفار فأنا ناصركم فلا تستنصروهم[٤].

ثم بشّرهم الله تعالى بالحفظ وبالنصر بقوله: ﴿ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ ﴾ والخوف حتى لا يرجعوا إليكم[٥]، والنصر بالرعب مما اختصّ الله به نبيه ﷺ؛ (نُصرتُ بالرعب مسيرة شهر)[٦]. وإلقاء الرعب فيهم كان ﴿ بِمَآ أَشْرَكُواْ ﴾ أي: بسبب إشراكهم ﴿ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ﴾ ولا حجة ولا برهاناً، وإشراكهم كان عبادتهم للأصنام، وتأليههم للأنام، ﴿ وَمَأْوَىٰهُمُ ﴾ ومرجعهم ومثواهم ﴿ ٱلنَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى ﴾ ومأوى ومقام ﴿ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ لأنفسهم بإشراكهم بربهم.

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ يا أصحاب محمد ﷺ ﴿ وَعْدَهُۥٓ ﴾ الذي وعدكم إياه في

---

(١) البيضاوي (٢/ ١٠١).

(٢) ينظر: كتاب تفسير القرآن من الجامع لابن وهب، (١/ ١١٨).

(٣) وفي ختام الآية بهذه العبارة إشارة إلى حقيقة طلب النصرة عند الحاجة.

(٤) تفسير الواحدي (١/ ٢٣٦).

(٥) تفسير الواحدي (١/ ٢٣٦).

(٦) أخرجه البخاري في التيمم، باب: وقول الله تعالى ﴿ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾، برقم (٣٣٥)، ومسلم في أول كتاب المساجد والصلاة، برقم (٥٢١).

أُحُد على لسان رسوله محمد ﷺ ﴿ إِذْ تَحُسُّونَهُم ﴾ وحين تقتلونهم[١] ﴿ بِإِذْنِهِۦ ﴾، وكان وعدهم رسول الله ﷺ النصر يومئذ إن انتهوا إلى أمره[٢]. ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ ﴾ وجبنتم وضعفتم ﴿ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾ واختلفتم في أمر الله ﴿ وَعَصَيْتُم ﴾ وخالفتم نبيكم، فتركتم أمره وما عهد إليكم، وإنما يعني بذلك الرماة الذين كان أمرَهم ﷺ بلزوم مركزهم. ﴿ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم ﴾ الله ﴿ مَّا تُحِبُّونَ ﴾ من النصر والظفر بالمشركين، وذلك هو الهزيمة التي كانوا هزموهم عن نسائهم وأموالهم قبل ترك الرماة مقاعدهم[٣].

﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا ﴾ وهم الرماة الذين تركوا أماكنهم، ولحقوا بالمسلمين من أجل الغنيمة عندما رأوا هزيمة المشركين. ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾ وهم الذين ثبتوا من الرماة في أماكنهم[٤]، ﴿ ثُمَّ صَرَفَكُمْ ﴾ الله أيها المسلمين ﴿ عَنْهُمْ ﴾ أي: عن المشركين وعن قتالهم بعد أن كنتم المنتصرين ﴿ لِيَبْتَلِيَكُمْ ﴾ ويختبركم، كما سبق قوله تعالى ﴿ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾. ﴿ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ ﴾ أيها المخالفون لأمر رسوله ﷺ، ﴿ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ لا يستأصلهم بمعاصيهم، وقد يعاقبهم ببعض الذنوب في عاجل الدنيا أدبًا وموعظة[٥].

وتواصل الآيات الامتنان على المؤمنين بالعفو رغم عظم الذنب، وفداحة العواقب، فيقول تعالى: ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ ﴾، فهذه الآية مرتبطة بسابقتها، والمعنى: ولقد عفا عنكم، أيها المؤمنون، إذ لم يستأصلكم بسبب ذنوبكم وهربكم ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ

(١) تفسير الطبري (٧/ ٢٨٧-٢٨٨)، و تفسير الواحدي (١/ ٢٣٧)، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٧٥).
(٢) تفسير الطبري (٧/ ٢٨١).
(٣) تفسير الطبري (٧/ ٢٨٩).
(٤) تفسير الطبري (٧/ ٢٩٣).
(٥) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٦٧)، وينظر: تفسير الطبري (٧/ ٢٩٩) والحاشية ٣.

﴿ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ ﴾[1]. ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ ﴾: الإصعاد: هو السير والذهاب في الأرض، بخلاف الصعود الذي هي السير في مرتفع[2]، والمراد هربهم في الوادي، ﴿ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ ﴾: لا تعطفون ولا تنتظرون، يقال: لويت عليه: عطفت، وانتظرت[3]، و (مرّ لا يلوي على أحد)، أي: لا يقف ولا ينتظر[4]. ﴿ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ ﴾ ويناديكم ﴿ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ ﴾ أي: من خلفكم، قائلاً: (إليّ عباد الله)، (إليّ عباد الله، ارجعوا)، وهم لا ينتظرون ولا يلتفتون. وفي قوله تعالى ﴿ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ ﴾ تنبيه إلى ثبات رسول الله ﷺ، حيث كان في آخر الجيش، وأقرب شيء إلى العدو[5].

﴿ فَأَثَٰبَكُمْ ﴾ وجازاكم ﴿ غَمًّۢا ﴾ وهو ما تحدَّث به القوم أنّ نبيهم ﷺ قد قتل {بِغَمٍّ} وهو ما نالهم من القتل والجراح[6]، تسلية لهم في مصابهم، حتى ينسيهم الغمّ الجديد المصابَ الأول، ثم بعد أن يتبين كذب الغم الجديد وعدم صدق الشائعة حول مقتل النبي ﷺ يفرحون بذلك، وينسون ما كانوا فيه من غمّ الهزيمة وفقدان الغنيمة[7]، ولذا قال بعدها: ﴿ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ ﴾ من نصر وغنيمة ﴿ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ﴾ من قتل وقرح وجراحات، فالمثوبة بالغم لم تكن عقوبة[8]. وقيل غير ذلك في المراد بالغم الأول والثاني،

---

(١) تفسير الطبري (٧/ ٢٩٩).

(٢) ينظر: لسان العرب، مادة (ص ع د)، وقد يقال (أصعد) لمن ارتقى في أرض تعلو. ينظر: المعجم الوسيط، نفس المادة. وعلى هذا يحتمل أن يكون هروبهم كان باتجاه الجبل، كما في قراءة: {تَصْعَدون}.

(٣) المحكم والمحيط الأعظم، لابن سيده، مادة (اللام والياء والواو).

(٤) المصباح المنير للفيومي (٢/ ٥٦١)، وأساس البلاغة للزمخشري، وتاج العروس للزبيدي، مادة (ل و ي).

(٥) قال أبو حيان في البحر المحيط (٣/ ٩٠): في قوله: ﴿ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ ﴾ دلالة عظيمة على شجاعة رسول الله ﷺ، فإن الوقوف على أعقاب الشجعان وهم فرار والثبات فيه إنما هو للأبطال الأنجاد، وكان رسول الله ﷺ أشجع الناس.

(٦) تفسير الطبري (٧/ ٣٠٣).

(٧) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ٣٠٦).

(٨) اختار الإمام الطبري (٧/ ٣٠٣) أن يكون المعنى: فجازاكم بفراركم عن نبيكم، وفشلكم عن عدوكم،=

والمراد بها فاتهم وما أصابهم[1]. ﴿ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ وبأسباب فشلكم وتنازعكم، وبعصيانكم، وإرادة بعضكم للدنيا، وقد عفا عن المؤمنين بمنّه وكرمه وفضله. فجملة ﴿ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ متعلقة بالسياق كله، وليس بهذه الآية فقط، ولها تعلّق ظاهر بالآية الأولى في هذا المقطع، وهي التي تحذّر من طاعة الكافرين التي ستسبب النكوص والخسران، فالله خبير بمن يعمل ذلك، وما يعمل من ذلك. والله أعلم.

وفي هذه الآية تصوير لمدى البلبلة التي حصلت لجيش المسلمين بسبب الهجوم المفاجئ من خلفهم، فإنهم حين انهزموا عن عدوِّهم أخذوا في الوادي هاربين من عدوهم، لا يعطفون على أحد منهم، ولا ينتظر بعضهم بعضاً، ولا يلتفت بعضهم إلى بعض[2]، ورسول الله ﷺ يناديهم من خلفهم (إليّ عباد الله)، (إليّ عباد الله، ارجعوا)، وهم لا يرجعون ولا ينتظرون ولا يلتفتون.

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا ﴾ أي: أماناً وطمأنينة جاءت على شكل نعاس يؤدي إلى الراحة والاسترخاء، ويدل على الهدوء وراحة البال، وهذا الأمان ﴿ يَغۡشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمۡ ﴾ هم الصادقون الصابرون، بخلاف المنافقين والشاكّين وهم الطائفة الثانية[3]؛ ﴿ وَطَآئِفَةٌ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ ﴾ وشغلتهم عن دينهم ورسولهم، ﴿ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ﴾ وبرسوله ووعدهما ظنوناً كاذبة باطلة ﴿ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ﴾ تشبه ﴿ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ﴾ والمشركين بالله تعالى[4]، كما

= ومعصيتكم ربكم غماً على غم. وأرى أنه بعيد عن السياق، فقد ذكر الله تعالى قبلها أنه امتنّ عليهم بالعفو والمغفرة، فيبعد أن يذكر بعدها أنه عاقبهم. والله أعلم. وقارن بما قاله الطبري بعد ذلك في (٧/ ٣١٤) وفي (٧/ ٣١٥)، فكأنه يفهم منه تراجعه عن هذا القول شيئاً ما، أو عدم جزمه به، والله أعلم.

(١) تنظر هذه الأقوال في تفسير الطبري (٧/ ٣٠٣-٣١٥)، والبحر المحيط لأبي حيان (٣/ ٩٠-٩١)، وابن كثير (٢/ ١٨٤-١٨٥).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ٣٠٢).

(٣) ينظر ما ذكره الطبري من سبب افتراق الطائفتين وحصول هذا النعاس وكيفيته (٧/ ٣١٦-٣١٩).

(٤) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ٣٢٠-٣٢١).

قال تعالى: ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾ [الفتح: ١٢]، فهؤلاء اعتقدوا أن انتصار المشركين هو نهاية الإسلام والمسلمين، وهذا شأن أهل الريب والشك إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة، تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة[1]، فهم يقاتلون في صفوف المسلمين وقلوبهم مع قلوب مَن يقاتلون مِن المشركين.

ثم أخبرت الآيات أنهم تراجعوا عن فكرة القتال أصلاً، وتنصلوا منها، فكانوا ﴿ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ ﴾ بالقتال من رأي أو قرار، لم يكن لنا فيه ﴿ مِن شَيْءٍ ﴾ ، وقولهم هذا دليل على عدم إيمانهم، ﴿ قُلْ ﴾ لهم يا رسول الله: ﴿ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ﴾ تعالى وحده، ولو كنتم مؤمنين لعلمتم ذلك. ولكنهم منافقون، ﴿ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ﴾ يا رسول الله، ومما يخفون أنهم كانوا ﴿ يَقُولُونَ ﴾ لبعضهم: ﴿ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا ﴾ خرجنا للقتال، ولا {قُتِلْنَا هَا هُنَا} في أحد[2]. ﴿ قُل ﴾ لهم يا رسول الله مبيّناً ما يجب أن يعتقده المؤمنون: ﴿ لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾ وجاء أجلكم ﴿ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴾ التي كتب الله أنهم يموتون فيها[3].

وتختتم الآية باستكمال ما سبق من حِكَم الأمر بالقتال في قوله تعالى ﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا ﴾ وما بعدها[4]؛ ﴿ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ ﴾ ويختبر ﴿ مَا فِي صُدُورِكُمْ ﴾ من إيمان أو

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ١٨٧).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ٣٢٢-٣٢٣).

(٣) ولفظ المضاجع مناسب لمعنى المصارع التي يصرعون فيها لاشتمالها على معنى الاستلقاء على الأرض. ينظر في معنى المضجع: لسان العرب لابن منظور، مادة (ض ج ع)، وينظر: البحر المحيط لأبي حيان (٣/ ٨٧).

(٤) اختار الإمام الطبري (٧/ ٣٢٤) أن ختام الآية مرتبط بالحديث عن المنافقين في الجملة السابقة فقط، فالمعنى عنده: (وليبتلي الله ما في صدوركم، أيها المنافقون، كنتم تبرزون من بيوتكم إلى مضاجعكم). ويشكل على هذا المعنى وجود حرف الواو في قوله ﴿ وَلِيَبْتَلِيَ ﴾ . والله أعلم. وينظر: روح المعاني للآلوسي (٤/ ٩٧) في الآراء حول ارتباط هذه الجملة، ولم يذكر ما كتب أعلاه.

نفاق[1]. ﴿ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ من وساوس وفتن، وخالف بينهما لأن متعلق الابتلاء ما انطوت عليه الصدور وهي القلوب[2]، ومتعلق التمحيص وهو التصفية والتطهير ما انطوت عليه القلوب من النيات والعقائد[3]. ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾، وبما انطوت عليه، وبما يختلج فيها من السرائر، وما فيها من العقائد في الضمائر، فهو يمحص منها ما أراد تمحيصه[4].

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ ﴾ عن القتال والمواجهة ﴿ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ﴾ في أحد والتفاف العدو عليكم ﴿ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ ﴾ ودعاهم إلى الخطيئة والزلل، ﴿ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ﴾ من ذنوب ﴿ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ وتجاوز عن ذنوبهم وغفر لهم، ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ يغفر للمذنبين من المؤمنين، ولا يعجّل العقوبة على العاصين[5].

وتواصل الآيات بيان حقيقة الأجل والموت؛ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بالله ورسوله ﴿ لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ونافقوا من أمثال عبد الله بن أبي ابن سلول وأصحابه ﴿ وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ ﴾ في الكفر ﴿ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ في سفر أو تجارة ﴿ أَوْ كَانُوا غُزًّى ﴾ في معركة وقتال، فماتوا في سفرهم، أو قتلوا في المعركة: ﴿ لَّوْ كَانُوا ﴾ باقين ﴿ عِندَنَا ﴾ ولم يخرجوا من بلادهم ﴿ مَا مَاتُوا ﴾ في سفرهم ﴿ وَمَا قُتِلُوا ﴾ في المعركة، ﴿ لِيَجْعَلَ اللَّهُ ﴾ قولهم ﴿ ذَٰلِكَ حَسْرَةً ﴾ وحزناً وغماً ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾. والحق أن الأمر كله بيد الله تعالى ﴿ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ وحده لا شريك له[6]، ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من خير أو شرّ ﴿ بَصِيرٌ ﴾، يحصي ذلك، ويجازي عليه[7]. وهذا ترغيب من الله عز وجل لعباده المؤمنين على جهاد عدوه والصبر على قتالهم،

---

(١) اختار الطبري (٧/ ٣٢٥) أن يكون الخطاب للمنافقين فقط.
(٢) كما قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦]، وهذا الاستدلال من أبي حيان.
(٣) البحر المحيط لأبي حيان (٣/ ٩٧).
(٤) البحر المحيط لأبي حيان (٣/ ٩٧).
(٥) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ٣٢٧).
(٦) تفسير الطبري (٧/ ٣٣١).
(٧) تفسير الطبري (٧/ ٣٣٦).

وإخراج هيبتهم من صدورهم، وإن قل عددهم وكثر عدد أعدائهم وأعداء الله، ونهيٌ لهم أن يجزعوا الموت من مات أو قتل في حرب المشركين[١].

﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ وعدهم على جهادهم في سبيله المغفرة والرحمةَ، وأخبرهم أن القتل والموت[٢] في سبيل الله خير لهم مما يجمعون في الدنيا من حطامها ورغيد عيشها الذي من أجله يتثاقلون عن الجهاد في سبيل الله، ويتأخرون عن لقاء العدو[٣].

﴿ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ ﴾ أيها المؤمنون، ﴿ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾، إليه مرجعكم ومحشركم، فيجازيكم بأعمالكم، فالآية حثّ على ما يقرّب من الله تعالى، ويوجب مغفرته ورحمته، وتحذير من الركون إلى الدنيا وملذاتها[٤]، فليس في مقدور الإنسان دفع الموت أو القتل إذا جاء الأجل، وليس في مقدوره دفع يوم المحشر، لكن في مقدوره دفع هول المحشر بطاعة الله تعالى وعمل ما يستجلب رحمته ومغفرته[٥]، فمعنى الآية: فاستعدوا لما بعد الموت أو القتل.

---

(١) تفسير الطبري (٧/ ٣٣٦).

(٢) لمّا ذكر الجهاد في هذه الآية قدّم القتل على الموت إذ هو المناسب لأن الجهاد مظنّة القتل، ثم هو الأفضل أيضاً ولذا ختمها بقوله (لمغفرة من الله ورحمة) فهذا جزاء الشهيد ومن مات في سبيل الله. وقدم الموت في الآية التي تليها لأنه الحالة الطبيعية، ولم يذكر فيه قوله تعالى (في سبيل الله)، ولذا ختمها بقوله (لإلى الله تحشرون)، إذ الميت والمقتول كلاهما يحشره الله إليه، فوضع كل لفظة الموضع الذي يقتضيه السياق. تراجع: محاضرة: أسرار البيان في التعبير القرآني، ألقاها الدكتور فاضل صالح السامرائي ضمن فعاليات جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم عام ٢٠٠٢م.

(٣) تفسير الطبري (٧/ ٣٣٧).

(٤) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ٣٣٩).

(٥) ينظر: نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٠٥).

الدرس الثاني: أهمية الشورى ووجوب طاعة رسول الرحمة:

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [الآيات: ١٥٩-١٦٤].

التفسير الإجمالي:

لما فرغ من وعظ الصحابة رضي الله تعالى عنهم أتبعه تحبيب النبي ﷺ فيما فعل بهم من الرفق واللين، بدلاً من العنف والسطوة، مع وجود أسبابها؛ من اعتراض من اعترض على ما أشار به، ثم مخالفتهم لأمره في حفظ المركز والصبر والتقوى، ثم خذلانهم له وتقديم أنفسهم على نفسه الشريفة، ثم عدم العطف عليه وهو يدعوهم إليه ويأمر بإقبالهم عليه، ثم اتهام من اتهمه بالغلّ كما سيأتي. إلى غير ذلك من الأمور التي توجب لرؤساء الجيوش وقادة الجنود اتهام أتباعهم والإيقاع ببعضهم ليكون ذلك زاجراً لهم[1].

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ ولم تعنّفهم على مخالفتهم لأمرك، أي: ما لنت لهم هذا اللين الخارق للعادة ورفقت بهم هذا الرفق بعد ما فعلوا بك إلا بسبب رحمة عظيمة من الله الحائز لجميع الكمال، فقابلتهم بالجميل ولم تعنفهم بانهزامهم عنك بعد إذ خالفوا رأيك، وهم

(١) نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٠٦).

كانوا سبباً لاستخراجك للقتال[١]. ﴿ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا ﴾ سيئ الأخلاق ﴿ غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ ﴾ قاسي القلب من غير رحمة ولا رأفة ﴿ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ ﴾ وتفرقوا عنك، ثم أمر الله نبيه ﷺ بحسن معاملتهم، فقال: ﴿ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ ﴾ وتجاوز عن خطئهم ﴿ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ ﴾ على ما اقترفوه، ثم أمره بمشاورة أصحابه بقوله: ﴿ وَشَاوِرۡهُمۡ ﴾ واستمع لآرائهم ﴿ فِي ٱلۡأَمۡرِ ﴾ من الحرب وغيره، تطيباً وتأليفاً لقلوبهم، وتعليماً لأمته من بعده، ليقتدوا به في ذلك عند النوازل التي تنزل بهم، فيتشاوروا فيما بينهم ليسددهم الله ويوفقهم[٢]. ﴿ فَإِذَا عَزَمۡتَ ﴾ أمرك على أمرٍ بعد المشاورة[٣] ﴿ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ وثق به في كل ذلك، وارض بقضائه في جميعه، وامض لما أمرناك به على ما أمرناك به، وافق ذلك آراء أصحابك وما أشاروا به عليك، أو خالفها[٤]، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ﴾ عليه، والراضين بقضائه، والمستسلمين لحكمه فيهم، وإن خالف هواهم[٥]. ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق: ٣]، ولذا قال بعدها: ﴿ إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡ ﴾ من الناس، سواء أكان رسول الله ﷺ حيّاً بينكم أو لا[٦]، ﴿ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ ﴾ ابتلاء لكم أو بسبب معاصيكم فلا ناصر لكم ﴿ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦ ﴾ سبحانه وتعالى، فلا ينفعكم وجود نبي أو غيره[٧]، ولهذا فتوكلوا عليه وثقوا بوعده ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ﴾، فيكون ذلك أمارة صحة إيمانهم[٨].

---

(١) نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٠٦-١٠٧).

(٢) تفسير الطبري (٧/ ٣٤٥-٣٤٦).

(٣) ذكر هذا القيد - قيد المشاورة - ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٩٤)، وجلال الدين السيوطي في تفسيره (ص٨٨)، وغيرهما.

(٤) تفسير الطبري (٧/ ٣٤٦).

(٥) تفسير الطبري (٧/ ٣٤٦).

(٦) ينظر: نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٠٩).

(٧) انظر: نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٠٩).

(٨) نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٠٩).

ثم أتبع هذه الآية بالحديث عن أحد أعظم موجبات الخذلان وهو الغلول؛ لأنه كان سبب هزيمتهم في هذه الغزوة، فهو من أعظم الذنوب الموجبة للخذلان[١]، وبدأت الآية بتنزيه النبي ﷺ عن الغلول، وسبب ورود هذا التنزيه: أن فعلهم هذا قد يتطرق منه احتمال لسوء الظن بالنبي ﷺ[٢] بالغلول أو سوء القسمة، وحاشاه؛ لأن إقبالهم على نهب الغنائم قبل وقته إما أن يكون لقصد أن يغلوا بإخفاء ما انتهبوه أو بعضه، وإما أن يكون للخوف من أن يغلّ رئيسهم وحاشاه!، وإما أن يكون للخوف من مطلق الخيانة بأن لا يقسمه ﷺ بينهم على السواء، وحاشاه من كل من ذلك![٣]، كيف، وهو الذي أخبرهم بتحريم الغلول وبأنه سبب للخذلان، وما نهى ﷺ قطّ عن شيء إلا كان أول تارك له، وما كان ينبغي لهم أن يفتحوا طريقاً إلى هذا الاحتمال[٤].

﴿ وَمَا كَانَ ﴾ ولا صحّ في أي وقت وعلى أي حال ﴿لِنَبِيٍّ ﴾ من الأنبياء فضلاً عن سيدهم وإمامهم ﴿أَن يَغُلَّ ﴾ ويخون في الغنيمة أو يظنّ به ذلك ﴿وَمَن يَغْلُلْ ﴾ أي شيء مهما قلّ ولو كان مِخيطاً وهي الإبرة ﴿يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾، حاملاً له على عنقه، كما ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال: (من استعملناه منكم على عمل فكتمنا مِخيطاً فما فوقه كان غلولاً يأتي به يوم القيامة)[٥]. ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾[٦] من غلّ أو شرّ أو غيره ﴿وَهُمْ لَا

---

(١) نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٠٩-١١٠).

(٢) وقد يفتح الطريق أمام المنافقين لنشر الافتراءات والتهم، كما روي أن الذي اتهم النبي ﷺ بالغلول هم المنافقون. نسبه ابن كثير (٢/ ١٩٥) لابن مردويه.

(٣) نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١١٠).

(٤) نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١١٠).

(٥) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب: تحريم هدايا العمال، برقم (١٨٣٣).

(٦) ظاهر السياق يقتضي أن يقال: (ثم يوفى ما كسب)، وإنما عدل عنه وعمّم الحكم ليكون كالبرهان على المقصود والمبالغة فيه، فإنه إذا كان كل كاسب مجزياً بعمله مهما قلّ فالغال مع عظم جرمه بذلك أولى. قاله البيضاوي (٢/ ١١٠). وينظر: روح المعاني للآلوسي (٤/ ١١١)، وتفسير المراغي (٤/ ١٢١).

﴿ يُظْلَمُونَ ﴾ وإنما يجازون على ما كانوا يعملون، وهناك يفترقون ولا يستوون، وكيف يستوون؟، ولهذا أردف الله تعالى هذه الآية بالتفصيل الآتي ليبين أن جزاء المطيعين ليس كجزاء المسيئين[(١)]، فقال تعالى: ﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ ﴾ وطلب ﴿ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ﴾ في أقواله وأفعاله فقام بالجهاد[(٢)] ولم يغلّ[(٣)]، فنال الجنة والنعيم[(٤)]، ﴿ كَمَنۢ بَآءَ ﴾ ورجع بتصرفاته وأعماله ﴿ بِسَخَطٍ ﴾ وغضب ﴿ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ بسبب ذنوبه وآثامه وتقاعسه عن الجهاد أو أخذه الغلول، ﴿ وَمَأْوَىٰهُ ﴾ ومرجعه ﴿ جَهَنَّمُ ﴾ خالداً فيها ﴿ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ الذي يصير إليه من باء بسخط من الله وباء بجهنم[(٥)]. فهم لا يستوون، كما قال تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ ﴾ [السجدة:١٨]، بل ﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ ﴾ ومقامات متفاوتة في الاستعداد والعمل والجزاء، ليس التفاوت في ميزان الناس[(٦)]، إنما التفاوت ﴿ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ في الجزاء يوم القيامة؛ من أعلى عليين إلى أسفل سافلين، ﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ في الدنيا من طاعات ومعاصي، يحصيها عليهم، ويجازي كلاً بما سعى، فكيف يتصور أنهم يتساوون.

وبعد هذه الإرشادات والتنبيهات، نبّه سبحانه وتعالى على عظم المنّة على المسلمين بنبي الرحمة للعالمين، ليهتدوا بهديه وينهلوا من علمه ويقدروه حق قدره، فقال سبحانه وتعالى مؤكداً تنزيه نبيه ﷺ عما قد يفهم منه النسبة إلى الغلول[(٧)]: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾منّة

---

(١) تفسير المراغي (٤/ ١٢١).
(٢) ينظر: روح المعاني للآلوسي (٤/ ١١١).
(٣) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ٣٦٥-٣٦٦).
(٤) قال الآلوسي في روح المعاني (٤/ ١١١): لم يذكر مع الرضوان الجنة لأن رضوان الله تعالى أكبر وهو مستلزم لكل نعيم، وكون السخط مستلزماً لكل عقاب فيقتضي أن تذكر معه جهنم في حيز المنع لسبق الجمال الجلال.
(٥) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ٣٦٦).
(٦) ينظر: نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١١٤).
(٧) ينظر: نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١١٥)، وتفسير المراغي (٤/ ١٢٢).

عظيمة ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ عربياً يفهمون كلامه، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢]، وقد عُرف أمره وصدقه وأمانته، أو ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ إنساناً بشراً مثلهم يأنسون به بجامع البشرية، وليس ملكاً، ولا أحداً من غير بني آدم[١]، ولو كان كذلك لم يحصل كمال الأنس به لاختلاف الجنس[٢]، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: ٩]. والمنة الثانية أن هذا الرسول الكريم ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ وقرآنه، والمنّة الثالثة في قوله ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [٣] أي: يطهّرهم من الكفر والذنوب والآثام، والمنّة الرابعة في قوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وهو القرآن ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ وهي السنة[٤]، تفسيراً وإبانة وتحريراً[٥]، ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ [٦] أن يرسل إليهم ويعلمهم ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ واضح.

وفي هذه الآية إشارة إلى أنه عليه السلام علّمهم من الحكمة في هذه المعركة ما أوجب نصرتهم في أول النهار، فلما خالفوه حصل الخذلان والانهزام[٧]. ثم انتقل الحديث إلى أسباب حصول الهزيمة، والفوائد المستفادة منها.

---

(١) ينظر: تفسير الواحدي (١/ ٢٤١)، وتفسير البغوي (١/ ٣٨٦)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٢٠٤).

(٢) ينظر: فتح القدير للشوكاني (١/ ٣٩٤).

(٣) قال البقاعي في نظم الدرر (٥/ ١١٥): (قدم التزكية لاقتضاء مقام المعاتبة على الإقبال على الغنيمة ذلك).

(٤) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ٣٧٠).

(٥) نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١١٥). وقارن بتفسير المراغي (٤/ ١٢٤)، فقد قال: (تعليم الكتاب إشارة إلى معرفة ظواهر الشريعة، وتعليم الحكمة إشارة إلى فهم أسرارها وعللها وبيان منافعها). ولعل السياق، وواقع الحال من فعل النبي ﷺ لا يدلّ على هذا، والله أعلم.

(٦) قال البقاعي في نظم الدرر (٥/ ١١٥): (لما كانوا قد مرت لهم أزمان وهم على دين أبيهم إسماعيل عليه الصلاة والسلام نبه على ذلك بإدخال الجار فقال {من قبل}).

(٧) نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١١٥).

الدرس الثالث: أسباب الهزيمة، وفوائدها، والفرق بين الخبيث والطيب:

﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿١٧٩﴾ ﴾

[الآيات: ١٦٥-١٧٩].

التفسير الإجمالي:

بعد أن امتنّ الله تعالى على المؤمنين ببعثة نبيه ﷺ، ذكّرهم هنا بالنصر الذي منّ به عليهم في بدر، حتى لا ينسوه بسبب الهزيمة في أحد، وفي هذا ردّ على شبهة المنافقين القائلين: لو كان رسولاً ما انهزم أصحابه عنه[١]، كما ذكّرهم بأن فعلهم هو سبب هزيمتهم، كما مرّ في الدرس السابق، ثم ذكر فوائد من الهزيمة وأهمها التمييز بين الحق والباطل؛ ولهذا أبرز موقف الشهداء المؤمنين الصادقين، وموقف المنافقين الكاذبين، وختم بالتصريح بإرادة التمييز بين الخبيث من الطيب.

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم﴾ أيها المؤمنون ﴿مُّصِيبَةٞ﴾ وهي الهزيمة يوم أحد وما نالكم من قرح وقتل وجراحات، حيث قتل من المسلمين سبعون، ﴿قَدۡ أَصَبۡتُم﴾ من عدوكم ﴿مِّثۡلَيۡهَا﴾ أي: ضعفيها، وذلك في معركة بدر، حيث قتلوا من المشركين سبعين وأسروا سبعين، ﴿قُلۡتُمۡ﴾ على سبيل التعجب: ﴿أَنَّىٰ﴾ وبسبب ماذا أصابنا ﴿هَٰذَا﴾؟، ونحن مسلمون وهم مشركون، وبيننا رسول الله ﷺ يأتيه الوحي من السماء[٢]، ﴿قُلۡ﴾ لهم يا محمد: هذا الذي أصابكم ﴿هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ﴾ وبسبب عصيانكم ومخالفتكم لما أمرتكم به؛ حيث اخترتم الخروج لقتالهم، ثم فشلتم وتنازعتم وعصيتم أمري[٣]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ قادر على أن ينصركم وينتصر لكم على كل حال، فهو سبحانه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾، ولكنه أراد أن يعلمكم ويهديكم ويرشدكم، ففي هذه الهزيمة حِكَم ظاهرة وخفية، مرّ بعضها، ويأتي بعضها.

---

(١) نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١١٦).

(٢) تفسير الطبري (٧/ ٣٧١)، وينظر: تفسير المراغي (٤/ ١٢٦).

(٣) اقتضت حكمة الله تعالى أن يربط الأسباب بمسبباتها، فكل جيش يخطئ الرأي ويعصي قائده يصاب بالهزيمة والخسران. ينظر: نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١١٧)، وتفسير المراغي، والعبارة له (٤/ ١٢٧)، وتفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٤/ ٢٢٦). وقيل: المراد: بأخذكم الفداء يوم بدر، كما جاء في بعض= = الروايات، وهو بعيد عن السياق، وإن كان يحتمله، والله أعلم.

وهذه الهزيمة وإن كانت بسبب معصيتكم إلا أنها لا تخرج عن مراد الله تعالى وإذنه[١]، {وَ} لهذا، آمنوا وأيقنوا أن كل ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ ﴾ جمع المؤمنين وجمع الكافرين في أحد ﴿ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ الذي لا يكون شيء في الكون إلا بإذنه. ثم شرع في ذكر الحكم والفوائد من الهزيمة والشدائد والمصائب؛ وأهمها التمييز بين الطيب والخبيث، فقال: ﴿ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ الصادقين منكم، ﴿ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ ﴾ وكذبوا، {وَ} عندما ﴿ وَقِيلَ لَهُمۡ ﴾ على سبيل الأمر: ﴿ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أعداءَ الله إن كنتم صادقين في إيمانكم، ﴿ أَوِ ٱدۡفَعُواْ ﴾ ضررهم عن بلدكم وأهليكم وأموالكم، أو: كثّروا سواد المسلمين بأن تكونوا معهم، ﴿ قَالُواْ ﴾ تهرباً وتعللاً بالباطل: ﴿ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا ﴾ يكون بينكم وبين أعدائكم ﴿ لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡ ﴾ إلى ساحة القتال، ولكننا لا نظن أنه يكون قتال. ولما كان محكّ الإيمان هو الطاعة في جميع الأزمان، وكان التراجع عن المبادئ وقت المصاعب أشدّ ضرراً وخطراً، تأكد أنهم غير صادقين في إيمانهم وغير مخلصين في طاعتهم، ولهذا قال: ﴿ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ ﴾ الظاهر عليهم ﴿ يَوۡمَئِذٍ ﴾ وفي ذلك اليوم العظيم[٢] ﴿ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ ﴾ الذي يزعمونه[٣]، وإنما هم ﴿ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم ﴾[٤] تعللاً وكذباً وزوراً، ﴿ مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡ ﴾ ، وما لا يعتقدون صحته[٥]، إذ أضمروا في قلوبهم

---

(١) نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١١٨).

(٢) لفظ {يومئذ} ليس للاحتراس، بل هو لرفع شأن ذلك اليوم الذي حصل فيه التمييز والتفريق بين أهل الإيمان وأهل النفاق. تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٤/ ٢٢٨).

(٣) قال الله تعالى {أقرب} للكفر، ولم يقل: إنهم كفار مع علمه بحالهم تأديباً لهم، ومنعاً للتهجم على التكفير بالعلامات والقرائن، وذلك أن هذا الذي صدر منهم وإن كان من شأنه ألا يصدر إلا من الكافرين، فإنه لا يعدّ بحدّ ذاته كفراً صريحاً في حكم الظاهر، لاحتمال العذر والتأويل. تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٤/ ٢٢٨-٢٢٩).

(٤) وعبّر بالأفواه بدلاً من اللسان لكونهم منافقين، فقولهم إلى أصوات الحيوان أقرب منه إلى كلام الإنسان= = ذي العقل واللسان. نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١١٩).

(٥) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٠٧).

النفاق وعداوة النبي ﷺ وأصحابه، ﴿ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴾ من العداوة والبغضاء، وأنهم لو علموا قتالاً ما قاتلوا معهم ولا دافعوا عنهم[١]، فالله سبحانه يكشف من أسرارهم وسرائرهم في كل حين حسب تقتضيه المصلحة[٢]. ومن المتفق عليه أن هذه الآية نزلت في عبد الله بن أبي وأتباعه الذين رجعوا قبل القتال[٣].

وهؤلاء المنافقون القاعدون عن الجهاد وقت الصعاب والشداد، أضافوا إلى نفاقهم قلة المروءة[٤]، فهم ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ ﴾ من عشائرهم وقومهم الذين أصيبوا وقتلوا في معركة أحد مع المسلمين ﴿ وَقَعَدُواْ ﴾ هم عن القتال، قالوا عن إخوانهم: ﴿ لَوۡ أَطَاعُونَا ﴾ في عدم الخروج ﴿ مَا قُتِلُواْ ﴾ في المعركة، ﴿ قُلۡ ﴾ يا رسول الله لهؤلاء المنافقين: ﴿ فَٱدۡرَءُواْ ﴾ وادفعوا ﴿ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ ﴾والهلاك ﴿ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ أنهم لو لم يخرجوا ما ماتوا ولا قتلوا، بل الحقّ أن الجميع سيموت، وأنتم ستموتون، لا تستطيعون دفع الموت عنكم[٥].

ولما بيّن الله تعالى أنه لا مفر من الموت والقدر، ردّ على قول أهل النفاق عن مقتل إخوانهم، وبشّر أهل الإيمان بحياة من فقدوا من الإخوان[٦]، فقال: ﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ ﴾ في هذه المعركة أو غيرها، وكان قتالهم ﴿ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ لا تحسبنّهم ﴿ أَمۡوَٰتَۢا ﴾ هامدين، ﴿ بَلۡ ﴾ هم ﴿ أَحۡيَآءٌ ﴾ مكرمون ﴿ عِندَ رَبِّهِمۡ ﴾ ، وهم في حياتهم هذه ﴿ يُرۡزَقُونَ ﴾ بكيفية يعلمها الله تعالى، وتليق بحياتهم عنده سبحانه، ﴿ فَرِحِينَ ﴾ لا يمسّهم

---

(١) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ٣٧٨-٣٨١).
(٢) ينظر: تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٤/ ٢٢٩).
(٣) العجاب في بيان الأسباب لابن حجر (٢/ ٧٨٣)، برقم (٢٥٣).
(٤) نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٢٠).
(٥) تفسير الطبري (٧/ ٣٨٢).
(٦) ينظر: نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٢٠-١٢١).

السوء والأذى، راضين مسرورين ﴿ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ ﴾ وهو ذو الفضل العظيم، ﴿ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم ﴾ أي: بالشهادة للذين لم ينالوها في هذه الغزوة ﴿ مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ ﴾ [1] في الدنيا، بأنهم على نفس طريقهم وأنهم إذا استشهدوا نالوا الكرامة عند الله تعالى[2]، وبشراهم هذه هي: ﴿ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ ﴾ أي: من العقاب، ولا على إخوانهم الذين استشهدوا، ﴿ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ أصلاً، على ما تركوا خلفهم في الدنيا[3]، بل هم فرحين مستبشرين، كما ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال عن الشهداء: (أَرْوَاحُهُمْ فِى جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ ثُمَّ تَأْوِى إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمُ اطِّلاَعَةً فَقَالَ: {هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا} قَالُوا: أَىَّ شَىْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا، فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا قَالُوا: يَا رَبِّ، نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِى أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ فِى سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى. فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرِكُوا)[4]. فالشهداء والذين بقوا من بعدهم كلهم ﴿ يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ في حياة الشهداء ﴿ وَفَضۡلٖ ﴾ منه في أنهم فرحين مستبشرين يرزقون، ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ الشهداء منهم والذين لم ينالوا الشهادة، وهم البقية من المؤمنين الطائعين كما سيأتي[5].

وبعد أن ذمّ المنافقين برجوعهم من غير أن يصيبهم قرح، ومدح أحوال الشهداء ترغيباً في الشهادة، وأحوال من كان على مثل حالهم ترغيباً في النسج على منوالهم، أخذ يذكر ما أثمر لهم

---

(١) وإنما قال {من خلفهم} للدلالة على أنهم يقتفون أثرهم ويحذون حذوهم. تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٤/ ٢٣٥).

(٢) تفسير الطبري (٧/ ٣٩٥).

(٣) تفسير الطبري (٧/ ٣٩٦).

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب: أن أرواح الشهداء في الجنة..، برقم (١٨٨٧).

(٥) وينظر: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في تفسير الآية، برقم (٤٥٠٥).

إيمانهم من المبادرة إلى الإجابة إلى ما يهديهم إليه ﷺ إشارة إلى أنه لم يحمل على التخلف عن أمره من غير عذر إلا صريح النفاق[١]، فقال عن المؤمنين إنهم: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ في دعوة الجهاد بعد معركة أحد، لا لغرض المغنم أو غيره[٢]، بل إن ذلك كان ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ﴾ والأذى في المعركة، وهم الذين اتبعوا رسول الله ﷺ إلى حَمْراء الأسد في طلب العدّو بعد أحد، ليرى الناسُ أنّ به وأصحابِه قوةً على عدوهم[٣]، منهم الزبير وأبو بكر في سبعين من أصحاب النبي ﷺ، كما جاء في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ قالت لعروة: يا ابن أختي، كان أبواك منهم الزبير وأبو بكر، لما أصاب رسول الله ﷺ ما أصاب يوم أحد وانصرف عنه المشركون خاف أن يرجعوا، قال: (من يذهب في إثرهم)، فانتدب منهم سبعون رجلاً، قال: كان فيهم أبو بكر والزبير[٤]. ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ ﴾ فيما بقي من أعمارهم ﴿ وَٱتَّقَوْا۟ ﴾ ربهم وأدّوا فرائضة وأطاعوه فلهم ﴿ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ وثواب جزيل، لاستجابتهم وجهادهم وصبرهم وتقواهم[٥].

﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ ﴾ وهم ركب عبد قيس، أو نعيم، أو أعرابي غير محدّد، قالوا لرسول الله ﷺ وأصحابه: ﴿ إِنَّ ٱلنَّاسَ ﴾ أي: أبا سفيان وأصحابه مشركوا قريش ﴿ قَدْ جَمَعُوا۟ ﴾ الجموع ﴿ لَكُمْ ﴾ يريدون الكرّة عليكم واستئصالكم ﴿ فَٱخْشَوْهُمْ ﴾ وخافوهم، ﴿ فَزَادَهُمْ ﴾ هذا التهديد والتخويف والوعيد ﴿ إِيمَٰنًا ﴾ بالله تعالى وبنصره ووعده، ﴿ وَقَالُوا۟ ﴾ مؤمنين بالله واثقين بوعده متوكلين عليه: ﴿ حَسْبُنَا ﴾ ويكفينا ﴿ ٱللَّهُ ﴾ جمعهم ﴿ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ هو

---

(١) نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٢٣).

(٢) نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٢٣).

(٣) تفسير الطبري (٧/ ٣٩٩).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب: {الذين استجابوا لله والرسول}، برقم (٤٠٧٧)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب: فضائل طلحة والزبير رضي الله عنهما، برقم (٢٤١٨).

(٥) تفسير الطبري (٧/ ٤٠٤).

سبحانه وتعالى، أي: الموكول[١] الذي تفوّض إليه جميع الأمور[٢]. ﴿ فَانقَلَبُوا ﴾ ورجعوا من خروجهم هذا ﴿ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ وسلامة حيث خافهم العدو، ﴿ وَفَضْلٍ ﴾ وهو الزيادة في الأجر أو الربح في التجارة[٣]، ﴿ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ﴾ من قتل أو جراحات وما يكون في الحرب من أذى[٤]، ﴿ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ ﴾ عندما استجابوا لله وللرسول، فأثابهم الله بأن صرف عنهم عدوهم، ورضي عنهم، وأنعم عليهم ﴿ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ في الدارين على من استجاب له وأطاعه[٥]. وفي هذا إلقاء للحسرة في قلوب المتخلفين منهم، وإظهار لفساد رأيهم، إذ حرموا أنفسهم هذا الفضل العظيم الذي فاز به المستجيبون[٦].

ثم أتبع ذلك بتثبيت المؤمنين، وبيان ضعف العدو، وأن الأمر بيد الله تعالى، فعليهم أن يستجيبوا له ويتبعوا أوامره، ولا يلتفتوا إلى المثبطين الذين يخوّفونهم من أعدائهم، فقال: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ﴾ الذي يخوفكم من عدوكم هو ﴿ الشَّيْطَانُ ﴾، وهو ضعيف الكيد، لا يستطيع أن يخوّف أولياء الله، وإنما ﴿ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ ﴾ لأن تخويفه ينقلب على أتباعه الذين يغترّون بوساوسه، فهم الذين يخافون بسبب ثبات المسلمين[٧]، أو المعنى: يخوفكم من أوليائه وأنصاره

---

(١) قال الطبري (٧/ ٤٠٥): (الوكيل) في كلام العرب هو المسنَد إليه القيام بأمر من أسنِد إليه القيام بأمره. فلما كان القوم الذين وصفهم الله بما وصفهم به في هذه الآيات، قد كانوا فوَّضوا أمرهم إلى الله، ووثِقوا به، وأسندوا ذلك إليه، وصف نفسه بقيامه لهم بذلك، وتفويضِهم أمرهم إليه بالوكالة فقال: ونعم الوكيل الله تعالى لهم.

(٢) ينظر في هذه الآية: تفسير الطبري (٧/ ٤٠٥)، والبحر المحيط لأبي حيان (٣/ ٤٦٤)، ونظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٢٩-١٣٠).

(٣) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ٤١٤)، والبحر المحيط لأبي حيان (٣/ ٤٦٦).

(٤) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ٤١٤).

(٥) ينظر: نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٣١).

(٦) تفسير المراغي (٤/ ١٣٦).

(٧) نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٣٢).

المشركين، ويوهمكم أنهم أولو قوة وذوو بأس وشدة وعددهم كثير، وأن من مصلحتكم أن تقعدوا عن لقائهم، وتجبنوا عن مدافعتهم[١]، ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ ﴾ لأن أمرهم بيدي، ﴿ وَخَافُونِ ﴾ حق الخوف، فلا تعصوا أمري، ولا تتخلفوا عن رسولي، وتوكلوا عليّ، كما قال: ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي ﴾ [البقرة: ١٥٠]، وكما قال: ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ [إبراهيم: ١٤]، وقال: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ ﴾ [النازعات: ٤٠]، فهو سبحانه المستحق أن يخاف منه ويخشى، ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أولياء الله تعالى، مباعدين لأولياء الشيطان[٢].

وبعد أن مدح سبحانه وتعالى المسارعين في طاعته وطاعة رسوله ﷺ، وختم ذلك بالنهي عن الخوف من أولياء الشيطان، أعقبه بذم المسارعين في الكفر والنهي عن الحزن من أجلهم[٣]، إذ كان النبي ﷺ من شدة حرصه على الناس يحزنه مبادرة الكفار إلى المخالفة والعناد والشقاق[٤]، فقال تعالى: ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ ﴾ فهم يسرعون إسراع من يسابق خصماً[٥]، ﴿ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا ﴾ دين وعباد وأولياء ﴿ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ﴾ مهما قلّ، لأن الأمر كله بيد الله تعالى، والحكمة في إمهالهم على جرائمهم هي أنه: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا ﴾ مهما كان يسيراً ﴿ فِي ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ حيث يحاسبون وبالعدل يجزون ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ بسبب مسارعتهم في الكفر، لأن المسارعة دلت على أن الكفر قد ملأ أبدانهم ونفوسهم وأرواحهم[٦]. ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ فأطاعوا أهل الشرك، ووافقوا على تخويف المسلمين مقابل أموال ضئيلة، ظناً منهم أنهم سيتخلصون بهذا من المسلمين، ولن تقوم لهم قائمة بعدها، والحق أنهم

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٢٢٢)، وتفسير المراغي (٤/ ١٣٦)، وتفسير القرآن من الجامع لابن وهب (٢/ ٤٧).

(٢) نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٣٢).

(٣) نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٣٢-١٣٣).

(٤) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٢٣).

(٥) نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٣٣).

(٦) نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٣٤).

﴿ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ ﴾ ودينه وعباده ﴿ شَيْـًٔا ﴾ مهما قلّ إلا بإرادته وحكمته سبحانه وتعالى، وهم لن ينجوا من عذاب الله، بل سيحاسبون ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ بدلاً عن لذة الدنيا التي اشتروا لأجلها الكفر بالإيمان[1]. ولما سبق الحديث عن الإمهال، والإمهال قد يظن معه أهل الكفر أنهم على خير، أو أنهم قد نجوا من العذاب في الدنيا والآخرة، ذكر خطأ رأيهم بقوله: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ﴾ أو يظنّنّ ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ وحاربوا أهل الإسلام، وآذوهم، وأمهلناهم فلمّا يصبهم العذاب ﴿ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ ﴾ ونمهل هو ﴿ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ﴾ ، كلا، ﴿ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ﴾ على آثامهم، حتى لا يكون لهم حظّ في الآخرة كما سبق، فهو شرّ لهم ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ جزاء ما أهانوا عباد الله وآذوهم بالقول والفعل والتآمر[2]، وفي هذه الآية مكر بهم، كما قال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦].

ثم ختم هذا الدرس ببيان حكمة الله تعالى البالغة في جريان هذه الأمور، وإرادته سبحانه وتعالى لهذا التمحيص والتمييز، فقال: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ﴾ ويترك ﴿ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الصادقين المخلصين، ﴿ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾ من الاختلاط بالمنافقين[3]، وضعاف المؤمنين، والمترددين والمتشككين ﴿ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾، بالتكاليف الشاقّة والمواقف الصعبة التي لا يصبر عليها إلا الصادقون المخلصون[4]، ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ ﴾ الذي اختصّ به، فيكشف لكم خبايا قلوبهم وأسرارهم التي هي خلاف ظواهرهم، ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى ﴾ ويختار ﴿ مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ فيطلعه على ما يشاء من الغيب، فيفضح على لسانه من شاء من المنافقين، كما

(١) ينظر: نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٣٤).
(٢) ذهب الإمام البقاعي في نظم الدرر (٥/ ١٣٤-١٣٥) إلى أن هذه الآية تتحدث عن رجوع المنافقين عن أحد، ولما كان الرجوع المسفر عن السلامة مظنة لعزهم في هذه الدار الفانية عوّضوا عن ذلك بالإهانة الدائمة بقوله تعالى: ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ .
(٣) نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٣٥).
(٤) نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٣٦).

ذكر هنا قربهم من الكفر، ونفاقهم بألسنتهم، وغيرها[١]، ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ ﴾ واستسلموا لحكمته وقضائه ﴿ وَرُسُلِهِۦ ﴾ الذين اصطفاهم، وأطيعوهم وصدقوهم فيما يخبرونكم به، ﴿ وَإِن تُؤۡمِنُواْ ﴾ حقّ الإيمان بالله ورسله ﴿ وَتَتَّقُواْ ﴾ ربّكم، ﴿ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾ على ذلك، من نصر في الدنيا وفوز في الأخرى.

الدرس الرابع: تحذير المنافقين والبخلاء، وفيها أن المال من أهم أسباب النصر، والتحذير من المال الذي كان سبباً في الهزيمة:

﴿ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١٨٠﴾ لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ جَآءُو بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ۞ لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ ﴾[الآيات: ١٨٠-١٨٩].

---

(١) ينظر: نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٣٦)، وينظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٢٢٤).

مناسبة المقطع لسابقه:

هذا المقطع بكل دروسه شديد الصلة بسابقه، فقد جاء بعد الهزيمة في معركة أحد، ليقرر حقائق وتوجيهات مختلفة، بدأت بالتحذير من طاعة الأعداء وموالاتهم لأنها سبب الخسارة في الدنيا والآخرة، ودعت إلى موالاة الله تعالى، كما حذّرت من التنازع والاختلاف، وفضحت المنافقين والمخذّلين، وأكّدت أن النصر من عند الله تعالى، فإذا نصرهم الله تعالى فلا غالب لهم، وإذا خذلهم فلا ناصر لهم، ثم تحدثت الآيات عن أسباب حصول الهزيمة وأولها العصيان، والحكم البليغة والفوائد المستفادة منها، مع التفريق بين الطيب المطيع والخبيث العاصي. وختم المقطع بالتحذير من البخل، وحبّ الأموال والدنيا، وهما من أسباب النفاق والخيانة[1]، كما دعت الآيات المسلمين إلى الصبر على الأذى الذي سيلاقونه من اليهود والنصارى بالقول والفعل.

التفسير الإجمالي:

لعب المال دوراً هاماً في معركة أحد، حيث بذله المشركون لحرب الإسلام، وطلبه بعض الرماة عندما انتصر المسلمون أول الأمر، ثم خسره المسلمون بسبب طمع بعض الرماة، ثم قام ركب عبد قيس أو نعيم أو بعض الأعراب بتخويف المسلمين مقابل وعد بالأموال، ثم كانت العاقبة للمؤمنين عندما انقلبوا آمنين مطمئنين وتاجروا وربحوا، كما أن الإنفاق من مواضيع السورة المهمة كما سبق بيانه في محور السورة، ولهذا فقد تناول هذا الدرس موضوع البخل، والرياء والادّعاء في الإنفاق، والأمر بالصبر على الأذى الحاصل في الأموال من نقص وخسارة وغيرها.

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ﴾ لا يملكون ملكاً استقلالياً حقيقة بل هو مما ﴿ ءَاتَىٰهُمُ

---

(١) اختار الشيخ محمد عبده مناسبة أخرى بين هذا الدرس وما سبقه، تنظر في تفسير المنار (٤/ ٢٥٦- ٢٥٧).



﴿ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ وكرمه على عباده. وما دام الله أعطاهم إياه، فعليهم أن ينفقوه فيما يرضاه، وعليهم ألا يظنوا أن بخلهم ﴿ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ﴾ باعتبار الظاهر حيث لم تنقص أموالهم، ﴿ بَلْ ﴾ في الحقيقة ﴿ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ﴾ ، لأنهم بالإضافة إلى فقدان البركة وضياع المال واستحقاق دعاء الملائكة بتلف المال كما ثبت في الصحيح: (ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً)[١]، ﴿ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ ، والذي سيتولى تطويقهم في أعناقهم ثعبان أقرع، وهو مخلوق من مخلوقات الله تعالى، كما ثبت في الصحيح: (من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مثّل له ماله يوم القيامة شجاعاً أقرعَ له زبيبتان، يطوّقه يوم القيامة، ثم يأخذ بلهزمتيه يعني بشدقيه، ثم يقول: أنا مالك أنا كنزك) ثم تلا رسول الله ﷺ[٢]، أو راوي الحديث[٣]: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ ﴾ الآية)[٤]، ويستمر ذلك العقاب حتى يلقى الحساب[٥].

وهؤلاء البخلاء لن يأخذوا معهم شيئاً مما بخلوا به، وكان الأولى بهم ما دام كذلك أن ينفقوا من أموالهم لا أن يبخلوا بها، وهي وكل ما في الوجود ملك لله تعالى، وهو مستغن عنهم وعن أموالهم[٦]، ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ﴾ كل ما في ﴿ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾، وهو الذي أمر بالإنفاق، ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ ، يعلم بحقيقة بخل البخلاء وخبايا قلوبهم.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب: قوله تعالى {فأما من أعطى واتقى..}، برقم (١٤٤٢)، ومسلم في كتاب الزكاة، باب: المنفق والممسك، برقم (١٠١٠).

(٢) ينظر: فتح الباري (٣/ ٢٧٠)، حيث ذكر أن في حديث ابن مسعود عند الشافعي والحميدي: (ثم قرأ رسول الله ﷺ).

(٣) ينظر: أحمد في مسند ابن مسعود ﷺ، برقم (٣٥٦٧)، والترمذي في التفسير برقم (٣٠١٢)، والنسائي في الزكاة، برقم (٢٤٤١).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب: إثم مانع الزكاة، برقم (١٤٠٣).

(٥) ينظر: كتاب تفسير القرآن من الجامع لابن وهب، (١/ ١٠٠).

(٦) ينظر: نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٣٨).

ثم انتقل الحديث من حضيض البخل إلى درك القبح والجهل[١]، إذ اجترؤوا على مقام الجلال، فقالوا قولة الكفر، ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ﴾ بكل دناءة نفس وسوء سريرة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ ﴾ لأنه يطلب الصدقة والتبرع والإنفاق، ﴿ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾ ، ولذا يريد أن يأخذ من أموالنا، ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ﴾ [الكهف: ٥]، وكان قولهم هذا بعد نزول قوله تعالى: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، قالت اليهود: يا محمد، افتقر ربك، يسأل عباده القرض؟، فأنزل الله: ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾ الآية[٢]. فتوعّدهم الله تعالى بقوله: ﴿ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ ﴾، بالإضافة إلى جرائمهم الأخرى، ﴿ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ ﴾ وقتلهم جريمة كبرى، فكيف إذا كان قتلهم ﴿ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ أصلاً، ﴿ وَنَقُولُ ﴾ تبكيتاً لهم وتعنيفاً: ﴿ ذُوقُوا۟ ﴾ الهوان في الدنيا وفي الأخرى ﴿ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾[٣]، و﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الهوان والعذاب هو ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ واقترفت جوارحكم من الكذب والافتراء وقتل الأنبياء، ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ ﴾ الحكم العدل ﴿ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾.

وعبّر بلفظ "الذوق" الذي هو لإدراك الطعوم وقد يستعمل لإدراك المحسوسات والحالات، وذكره ها هنا لأن العذاب مرتب على قولهم الناشئ عن البخل والتهالك على المال، وغالب حاجة الإنسان إلى المال لتحصيل المطاعم، ومعظم بخله به للخوف من فقدانه، ولذلك كثر ذكر الأكل مع المال[٤].

والحريق: النار الملتهبة، وهو بمعنى المُحْرِق، كما يقال: عذاب أليم وضرب وجيع[٥].

---

(١) ينظر: نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٣٩).

(٢) العجاب في بيان الأسباب لابن حجر (٢/ ٨٠٤). ويقال: نزلت في المنافقين. ينظر: التفسير من كتاب الجامع لابن وهب (٢/ ٩١).

(٣) ينظر: نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٤١).

(٤) تفسير البيضاوي (٢/ ١٢٤).

(٥) ينظر: تفسير الثعالبي (٣/ ٢٢٣).

ولعل في استخدام لفظ "الحريق" إشارة إلى عقاب البخيل الذي يكون بالكيّ، كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [التوبة: ٣٤-٣٥].

وبعد الاستطراد في ذكر جرائمهم وتذكيرهم بطبائعهم تذكر الآيات قولاً آخر افتروه حتى لا يؤمنوا بنبوة محمد ﷺ، فهم ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ﴾ كذباً من عند أنفسهم: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ ﴾ في التوراة[1]، ﴿ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ ﴾ جديد ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ﴾، حتى تكون معجزة مشاهدة نؤمن بها، ﴿ قُلْ ﴾ لهم يا رسول الله لبيان كذبهم وافترائهم: ﴿ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ وبالأدلة الواضحات على صدقهم ونبوتهم، وبمختلف المعجزات، ﴿ وَبِٱلَّذِي قُلْتُمْ ﴾ وطلبتم من الآيات، ولكنكم قتلتموهم بغير حق، ﴿ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ ﴾ قتلهم أسلافكم ورضيتم أنتم بذلك فشاركتموهم فيه[2]، ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أن الذي يمنعكم من الإيمان هو انتظار الإتيان بقربان تأكله النار[3]، أو في أن الله عهد إليكم بذلك.

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ ﴾ في رسالتك ونبوتك بعد كلّ ما سبق من بيان لصدقك فاصبر على تكذيبهم، ﴿ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾ عبر العصور والثغور، مع أنهم كلهم ﴿ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ والأدلة على صدقهم، {وَ} جاءوا بهدايات وتعاليم من عند الله تعالى؛ ﴿ وَٱلزُّبُرِ ﴾ والصحف المتضمنة للمواعظ والحكم والزواجر والرقائق[4]، ﴿ وَٱلْكِتَٰبِ ﴾ الجامع لكل صنوف الخير ﴿ ٱلْمُنِيرِ ﴾ والهادي إلى طريق الحق. فعلى العاقل أن يتبع هذه الهدايات ويلتزم

---

(١) تفسير البيضاوي (٢/ ١٢٥)، وينظر: تفسير القرطبي، ط. مؤسسة الرسالة (٥/ ٤٤٤-٤٤٥).
(٢) نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٤٣).
(٣) نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٤٣).
(٤) نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٤٤).

بتعاليم الآيات، لأن الدنيا فانية غير باقية، والحساب سيكون يوم القيامة، ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ في أجلها، فلماذا الهروب والخوف والبخل. والموت هو: المعنى الذي يبطل معه تصرف الروح في البدن، وتكون هي باقية بعد موته، لأن الذائق لا بدّ أن يكون حال ذوقه حيّاً حساساً، ومن يجوز عليه ذوق الموت يجوز عليه ذوق النار، وهو عبد محتاج، فالعاقل من سعى في النجاة منها والإنجاء، كما فعل الخلّص الذين منهم عيسى ومحمد عليهما أفضل الصلاة وأزكى السلام[١]، ﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ ﴾ وتحاسبون على أعمالكم، وتجازون على أفعالكم الجزاء الأوفى ﴿ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾، ﴿ فَمَن زُحْزِحَ ﴾ وأبعِدَ إبعاداً سريعاً[٢] ﴿ عَنِ ٱلنَّارِ ﴾ في ذلك اليوم ﴿ وَأُدْخِلَ ﴾ بفضل الله ورحمته ﴿ ٱلْجَنَّةَ ﴾ والرضوان ﴿ فَقَدْ فَازَ ﴾ فوزاً عظيماً، ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ ﴾ بكل ما فيها ﴿ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ أي: المتاع الذي يدلّس الشيطان أمره على الناس حتى يغتروا به فيغبنوا بترك الباقي وأخذ الأشياء الزائلة بانقضاء لذاتها والندم على شهواتها بالخوف من تبعاتها[٣].

﴿ لَتُبْلَوُنَّ ﴾ على سبيل الاختبار ﴿ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ ﴾ بالأمر بالإنفاق والبذل والجهاد بها، وبحلول الخسارة بسبب أو غيره، ﴿ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ بالقتل في الجهاد وغيره، كما سيكون هناك ابتلاء معنوي أيضاً، فقال: ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ من اليهود والنصارى ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ ﴾ سوى أهل الكتاب، ستسمعون من هؤلاء جميعاً ﴿ أَذًى كَثِيرًا ﴾ من الطعن في الدين وغيره[٤]، ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا۟ ﴾ على الأذى ﴿ وَتَتَّقُوا۟ ﴾ الله في المعاملة بما يأمر الله به وبما يرضي الله تعالى ﴿ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ أي: الأمور التي تستحق أن يعزم الإنسان على فعلها. وما أحسن مناسبة هذه الآية وذكرها بعد قصة أحد

---

(١) العبارة كلها من نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٤٥).

(٢) زُحْزِحَ أي: نُـحِّيَ وبُعِّدَ، يقال: زَحَّ الشيءَ يَزُحُّه زَحّاً جذبه في عَجَلَة، وزَحْزَحه فتَزَحْزَحَ: دَفَعه ونَـحَّاه عن موضعه فتَنَـحَّى وباعَدَه منه. ينظر: لسان العرب، مادة: (ز ح ح).

(٣) نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٤٧).

(٤) نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٥٠).

التي وقع فيها القتل بسبب الإقبال على المال[١].

وفعل هؤلاء ليس بمستغرب، فقد سبق أن خانوا الله وكفروا برسله من قبل؛ ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ﴾ العلماء ﴿ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ من ربهم ﴿ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ ﴾ ولهذا أنزل عليكم، ﴿ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ ﴾ ، فبعد أن أمروا بالبيان أمروا بعدم الكتمان، والكتمان جرم أكبر من عدم البيان، ﴿ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ ﴾ نبذوا الكتاب ونبذوا الميثاق، نبذ من لا يريد منهما شيئاً، ولا يلقي بالاً، وكتموا ما جاء من البشارة بنبوة محمد ﷺ، ﴿ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا ﴾ وزاد في بيان سفههم أن الثمن كان ﴿ قَلِيلًا ﴾[٢]، ﴿ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ لأنهم إلى النار صائرون[٣].
ويفهم من السياق تحذير المسلمين من موالاة الكافرين الذين يفترون على الله الكذب، ويكفرون برسله ويقتلونهم، ويؤذون المسلمين[٤].

﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ ﴾ من غير استحقاق، لا تحسبنهم أيها الناظر لمكرهم، ورواجهم بسببه في الدنيا، لا تحسبنهم واصلين إلى خير[٥]، ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ ﴾ وبعد ﴿ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ ، بل هو واقع بهم ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ سينالهم يوم الدين. وقد ورد في سبب نزول الآيات ما أخرجه البخاري عن ابن أبي مليكة أن علقمة بن وقاص أخبره أن مروان قال لبوّابه: اذهب يا رافع إلى ابن عباس فقل: لئن كان كل امرئ فرح بما أوتي وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذباً لنعذبنّ أجمعون، فقال ابن عباس:

---

(١) نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٤٩).
(٢) نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٥٢).
(٣) وقد يدخل في وعيد هذه الآية علماء الدين الذين اشتروا الدنيا بالتملق لأهلها. والعياذ بالله مما عمّ به البلاء، ولا حول ولا قوة إلا بالله. قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٣٤): وفي هذا تحذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم فيصيبهم ما أصابهم، فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع الدالّ على العمل الصالح، ولا يكتموا منه شيئاً.
(٤) ينظر: نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٥٢).
(٥) نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٥٣).

وما لكم ولهذه، إنما دعا النبي ﷺ يهود فسألهم عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره فأروه أن قد استحمدوا إليه بما أخبروه عنه فيما سألهم وفرحوا بما أوتوا من كتمانهم، ثم قرأ ابن عباس ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ كذلك حتى قوله ﴿ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ ﴾[١]. كما ورد أنها نزلت في رجال من المنافقين في عهد رسول الله ﷺ كانوا إذا خرج النبي ﷺ إلى الغزو تخلفوا عنه وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ فإذا قدم النبي ﷺ اعتذروا إليه وحلفوا وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا فنزلت ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴾[٢]. والآية عامة تشمل هذا وغيره[٣].

ثم ختم المقطع ببيان تفرد الله تعالى بالملك والأمر في السماوات والأرض، وبمقدرته المطلقة على كل شيء؛ ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ ﴾ ، أي: هو مالك كل شيء والقادر على كل شيء فلا يعجزه شيء، فهابوه ولا تخالفوه، واحذروا نقمته وغضبه، فإنه العظيم الذي لا أعظم منه، القدير الذي لا أقدر منه، سبحانه وتعالى[٤].

وقد ناسب أن يكون هذا التعبير بعد قوله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ، لأن التعبير بالميراث لا يفهم منه أن الملك حاصل الآن، لذا ناسب أن يكون التعبير في الآية الثانية بقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ .

---

(١) البخاري في كتاب التفسير، باب: تفسير {لا يحسبن الذين يفرحون} الآية برقم (٤٥٦٨)، ومسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم برقم (٢٧٧٨).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم برقم (٢٧٧٧). وينظر: تفسير القرآن من كتاب الجامع لابن وهب (٢/ ٣٧-٣٨).

(٣) ينظر تفسير ابن كثير (٢/ ٢٣٥-٢٣٦)، والعجاب لابن حجر (٢/ ٨١٣-٨١٦).

(٤) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٣٧).



الدروس والعبر من هذا المقطع:

- موالاة غير المسلمين عاقبتها الخسران، ولو طال الزمان، أما المسلم الصادق فموالاته لله، والله مولاه، والله خير الناصرين.
- من لم يؤمن بالله تعالى فإنه يعيش في صراع مع نفسه، مما يؤدي به إلى العيش في خوف وهلع من الآخرين.
- الفشل والخور، والتنازع والاختلاف، والمعصية وحب الدنيا، كلها من أسباب الهزيمة والخسران.
- النعاس وقت الشدائد دليل على الطمأنينة والاستقرار النفسي، مما يؤدي إلى اختطاف دقائق من الراحة الضرورية.
- شدّة الهول قد تذهل الإنسان عن أقرب الأقربين إليه.
- التحسّر والندم على فعل الصواب عند حصول الألم بسبب ذلك الفعل من علامات النفاق، فالحذر لا يدفع القدر، والدنيا دار امتحان واختبار.
- يحرص الشيطان على أن يغوي أهل الإيمان بتحبيب الدنيا لهم، وتخويفهم من المصاعب والمصائب إذا هم فعلوا الصواب.
- من صفات الكافرين ربطهم الأحداث من حياة وموت وغيرهما بكلمة (لو).
- الحسرة والندامة والشعور باليأس والإحباط عقاب من الله تعالى، يصيب به غير الملتزمين بأوامره، والعياذ بالله.
- الموت حق لازب على كل إنسان، وعلى المسلم العاقل أن يحرص أن يكون موته في سبيل الله تعالى؛ ليحصل على المغفرة والرحمة من الله تعالى.
- الرحمة والرأفة من أهم صفات القيادة؛ لأن سياسة الناس بالشدة والغلظة والفظاظة تؤدي

إلى النفور وعدم الاستجابة.

- الشورى في أمور الدولة والأمور الخاصة والعامة مبدأ إسلامي أصيل، وقد أمر الله تعالى أولياء الأمور بالعمل به وحثّهم على تطبيقه.
- على المؤمن أن يطلب النصرة من الله تعالى ويتوكل عليه بعد الأخذ بكل الأسباب المطلوبة، وبعد المشاورة والعزم.
- عظم رحمة الرسول ﷺ بأتباعه، ويظهر ذلك من موقفه ﷺ معهم بعد الهزيمة في هذه المعركة بسبب عصيانهم ومخالفتهم.
- عظيم المنة على هذه الأمة بنبي الرحمة.
- من أكبر فوائد الهزيمة التمييز بين الحق والباطل، والطيب والخبيث.
- المخالفة والعصيان من أسباب الخسران.
- كل إنسان مسؤول عن أفعاله وتصرفاته وما ينجم عن ذلك من توفيق أو خذلان ونصر أو انهزام، ولكن ذلك لا يخرج عن قدرة الله تعالى وتقديره.
- استدلوا بقوله تعالى ﴿ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾ على أن الشخص قد تتقلب به الأحوال، فيكون في حال أقرب إلى الكفر، وفي حال أقرب إلى الإيمان[1].
- تحريم الغلول مهما كان قليلاً، والغالّ مذنب بحق نفسه وبحق المجتمع. وقد ذهب جمهور الفقهاء إلى تعزير الغالّ، أما الإمام أحمد فقد ذهب إلى أن متاع الغالّ يجمع ويحرق[2].
- في قوله تعالى: ﴿ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾ نعمة ورحمة، وإلا لدخل كثير

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٠٧).

(٢) ينظر: المغني لابن قدامة (٩/ ٢٤٥-٢٤٧)، والنسخة المحققة (١٣/ ١٦٨-١٧١)، والجامع للقرطبي (٤/ ٢٥٩-٢٦٠).

من المسلمين في مسمى الكفر، والعياذ بالله تعالى، لكن رحمة الله تعالى اقتضت عدم إطلاق مسمى الكفر على كل من ارتكب شيئاً من مسبباته لاحتمال التأويل، وغيره، والله أعلم.

- من عقيدة المؤمن أن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، ولا يعلم تفاصيل ذلك إلا الله تعالى، وهي حياة تليق بهم، وتختلف عن حياة غيرهم من الأموات.
- من ثمرات الإيمان سرعة الاستجابة لأوامر الله تعالى وأوامر رسوله ﷺ.
- يحاول الشيطان وأتباعه تخويف المسلمين من الكافرين بمختلف الوسائل، وقد أمر الله تعالى المؤمنين بألا يخافوا منهم، فالمؤمن الصادق لا يخاف إلا الله تعالى. وإن قلة من المؤمنين الصادقين يمكنها بتوفيق الله ونصره أن تحبط مخططات أهل الظلم والفساد والعدوان، كما هو مشاهد في جميع الأزمان.
- كل من أعان أعداء الله على عباد الله وأطاع أهل الكفر ووافق على تخويف المسلمين وإرهابهم فقد اشترى الكفر بالإيمان، وخسر الآخرة بسبب الدنيا.
- تحذير الكافرين من الاغترار بإمهال الله تعالى لهم، لأن عقابهم سيتضاعف بسبب استمرارهم على جرائمهم.
- على المؤمن أن يلجأ إلى الله تعالى عند اشتداد الأمور، ويدعو بالدعاء المأثور: (حسبنا الله ونعم الوكيل)، والله ذو فضل عظيم.
- الإيمان والتقوى متلازمان، وتقوى الله تعالى مفتاح النصر وتفريج الكرب وتيسير الأمور.
- البخل بمال الله تعالى وعدم الإنفاق فيما شرع الله وبال على الإنسان في دينه ودنياه، وسيلقى عقوبته عند الله.
- الله سبحانه وتعالى غني عن عباده وعن أموالهم، والأمر بالإنفاق هو من أجل البشر أنفسهم في دنيا الابتلاء.
- الموت حق على جميع الخلق، لا فرق بين ملك أو بشر، والرسل عليهم السلام في ذلك كسائر

بني آدم.

- الأصل في الحساب والجزاء أنه في يوم القيامة، فهناك تجزى كل نفس ما كسبت.
- الابتلاء في الأموال والأنفس من سنن هذا الكون، ومن طبيعة أهل الضلال أنهم يتهجمون على أهل الحق ويؤذونهم ويفرحون بأذاهم، وعلى المسلم أن يصبر ويتقي الله تعالى في معاملتهم امتثالاً لأوامر الله تعالى.

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

المواضيع المتناولة في هذا المقطع بدروسه الأربعة شديدة المناسبة لمحور السورة، فقد تناول هذا المقطع مواضيع من أركان وشعب الإيمان بالله تعالى ولوازم توحيده عز وجل، منها: وجوب طاعة الله وحده وموالاته، وعدم موالاة أعدائه، والتوكل عليه، والإيمان باليوم الآخر والبعث والنشور والحساب والجزاء، والإيمان بأن الأمور كلها بيد الله تعالى وحده لا شريك له، وهو الذي يعلم ما في القلوب وما في الصدور، وهو الذي يحيي ويميت، والإيمان بأن النصر من عند الله تعالى، والإيمان بإرسال الرسل، وإنزال الكتب لهداية الناس، واعتقاد أن النفع والضرّ بيد الله تعالى، وأنه على كل شيء قدير، وأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، وأنه لا يعلم الغيب إلا الله تعالى، وأن الأمور كلها عائدة إلى الله تعالى، وأن ملك وميراث السموات والأرض إليه عز وجل، وأن الموت حق على جميع الخلق. وهكذا نجد أن هذا المقطع قد حشد بالإيمانيات حشداً. والله أعلم بأسرار كلامه.

المقطع السابع: أولو الألباب يستفيدون من الآيات الكونية

قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [الآيات: ١٩٠-١٩٥].

مناسبة المقطع لسابقه:

لما ذكر الله تعالى أن له ملك السموات والأرض، وأنه على كل شيء قدير، ذكر هنا ما في خلق السموات والأرض من دلالات واضحة لذوي العقول[١]، وأرشد إلى التفكر في هذا الخلْق العظيم، تفكّراً يؤدي إلى الإيمان بالله تعالى واللجوء إليه[٢].

بعد أن تحدثت الآيات عن افتراء بعض أهل الكتاب على الله تعالى وعلى عباده، وتكذيبهم لرسوله ﷺ، وزعمهم أن الله عهد إليهم ألا يؤمنوا لرسول حتى يأتيهم بآية هي قربان تأكله النار، ذكرتْ هنا ما في خلق السموات والأرض من آيات ودلالات واضحات لذوي العقول -وليس آية واحدة بسيطة-، ترشدهم إلى الإيمان بالله تعالى.

وأيضاً، لما ذمّ الله تعالى البخلاء والمرائين، ذكر هنا العاملين الصادقين، وضمن لهم الأجر

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان (٣/ ١٤٥).

(٢) قارن بنظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٥٤).

على أعمالهم. وكذلك، لما ذمّ الله تعالى علماء أهل الكتاب الذين نبذوه وراء ظهورهم، مدح هنا ذوي العقول من أهل الإيمان الذين آمنوا وتابوا، وعملوا وأنابوا.

قال الرازي: اعلم أن المقصود من هذا الكتاب الكريم جذب القلوب والأرواح عن الاشتغال بالخلق إلى الاستغراق في معرفة الحق، فلما طال الكلام في تقرير الأحكام والجواب عن شبهات المبطلين عاد إلى إنارة القلوب بذكر ما يدل على التوحيد والإلهية والكبرياء والجلال فذكر هذه الآية[1].

التفسير الإجمالي:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ذلك الخلْق العظيم، والذي هو أكبر من خلق الناس، كما قال تعالى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [غافر: ٥٧]، وفي ما ينتج عنهما ويتعلق بهما من آيات وظواهر ﴿ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ وتعاقبهما وزيادتها ونقصانهما، ﴿ لَءَايَٰتٍ ﴾ ودلالات واضحات ﴿ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ وأصحاب العقول، ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ يؤمنون بالله تعالى و﴿ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ ﴾ على كل أحوالهم؛ ﴿ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾، ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فيزيدهم التفكير يقيناً، فيقولون ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا ﴾ الكون ﴿ بَٰطِلًا ﴾ وعبثاً، ﴿ سُبْحَٰنَكَ ﴾، ما خلقت هذا إلا بالحق. ثم بدؤوا بالابتهال والدعاء فقالوا: ﴿ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ التي أعددتها للمنكرين الكافرين الغافلين، ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ ﴾ بسبب كفرهم وطغيانهم وافترائه ﴿ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ﴾، فعذاب الآخرة أخزى من عذاب الدنيا، ﴿ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [النحل:٢٧]، ﴿ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ ﴾ المشركين ﴿ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ ينصرونهم، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [الشورى: ٤٦].

ثم ذكروا مبادرتهم إلى الإيمان بخلاف أهل الزيغ والضلال الذين مرّ ذكرهم، أما هؤلاء

(١) التفسير الكبير للرازي (٩/ ١٠٩).



فقالوا: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا ﴾ رسولاً ﴿ مُنَادِيًا ﴾ أو: سمعنا القرآن ﴿ يُنَادِى ﴾ ويدعو الناس ﴿ لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ ﴾ الذي خلقكم وخلق كل شيء، ﴿ فَـَٔامَنَّا ﴾ مسرعين مستجيبين، ﴿ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا ﴾ (١). ﴿ وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾ ، بإيماننا بك وتصديقنا لرسولك. ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ ﴾ من النعيم والرضوان، وباعد بيننا وبين النار، ﴿ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾، و﴿ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة:٦٣]، ﴿ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ (٢)، كما قال تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [يونس:٥٥].

﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ الذي خلقهم وهداهم ﴿ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴾ عمله خالصاً لوجهي، ﴿ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾ ، أي: أصل ذكوركم وإناثكم واحد،

(١) الفرق بين الذنب والسيئة: قال ابن عباس: الذنوب هي الكبائر، والسيئات هي الصغائر. ويؤيده قول الله تعالى: ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ [النساء: ٣١]، وقيل: الذنوب: ترك الطاعات، والسيئات: فعل المعاصي. وقيل: غفران الذنوب وتكفير السيئات أمر قريب بعضه من بعض، لكنه كرّر للتأكيد والمبالغة، وقيل: في التكفير معنى، وهو: التغطية، ليأمنوا الفضيحة. ينظر: البحر المحيط لأبي حيان (٣/ ١٤٨).

(٢) قال في البحر المحيط (٣/ ١٤٩-١٥٠): وانظر إلى حسن محاورة هؤلاء الذاكرين المتفكرين، فإنهم خاطبوا الله تعالى بلفظة ربنا، وهي إشارة إلى أنه ربهم، أصلحهم وهيأهم للعبادة، فأخبروا أولاً بنتيجة الفكر وهو قولهم: ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا ﴾ ثم سألوه أن يقيهم النار بعد تنزيهه عن النقائص، وأخبروا عن حال من يدخل النار، وهم الظالمون الذين لا يذكرون الله ولا يتفكرون في مصنوعاته، ثم ذكروا أيضاً ما أنتج لهم الفكر من إجابة الداعي إلى الإيمان، إذ ذاك مترتب على أنه تعالى ما خلق هذا الخلق العجيب باطلاً، ثم سألوا غفران ذنوبهم ووفاتهم على الإيمان الذي أخبروا به في قولهم: ﴿ فَـَٔامَنَّا ﴾، ثم سألوا الله الجنة وأن لا يفضحهم يوم القيامة، وذلك هو غاية ما سألوه. وتكرر لفظ ﴿ رَبَّنَآ ﴾ خمس مرات، كلّ ذلك على سبيل الاستعطاف وتطلُّب رحمة الله تعالى بندائه بهذا الاسم الشريف الدالّ على التربية والملك والإصلاح. وكذلك تكرر هذا الاسم في قصة آدم ونوح وغيرهما. وفي تكرار ﴿ رَبَّنَآ ﴾ ﴿ رَبَّنَآ ﴾ دلالة على جواز الإلحاح في المسألة، واعتماد كثرة الطلب من الله تعالى. وفي الحديث: «ألِظّوا بيا ذا الجلال والإكرام» [الترمذي:٣٥٢٤]، وقال الحسن: ما زالوا يقولون ربنا ربنا حتى استجاب لهم.

فكل واحد منكم من الآخر، أي: من أصله، وكما أنتم مشتركون في الأصل، فكذلك أنتم مشتركون في الأجر وقبول العمل[١].

ثم ذكر بعض الأعمال التي لا يضيعها؛ كالهجرة وتحمل الأذى والجهاد والاستشهاد في سبيل الله، فقال: ﴿ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ ﴾ من بلادهم لعدم تمكّنهم من إقامة دينهم، ﴿ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ ﴾ إجباراً بظلم أعدائهم، كما نراه حاصل اليوم في بعض بلاد المسلمين التي تسلط عليها أهل الكتاب، وفي السياق إلزام الذنب للكفار، لأن المهاجرين إنما أخرجهم سوء عشرة الكفار وقبيح أفعالهم معهم[٢]. ﴿ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي ﴾ بأي نوع من الأذى؛ القولي والفعلي والمعنوي.

وبعد أن ذكر هذه الأنواع من الأعمال، وهي كلها أعمال تشير إلى الصبر والتحمّل وعدم المواجهة، انتقل بعدها إلى ذكر الجهاد في سبيل الله تعالى، المقتضي دفع البلاء ومواجهة الأعداء والثبات في اللقاء، وأتبعه بذكر الاستشهاد المستلزم للتسليم بالقضاء والصبر على الابتلاء، فقال: ﴿ وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ ﴾، وهذا أعلى المقامات؛ أن يقاتل ويقتل في سبيل الله[٣].

فهذه الأعمال تشير إلى مراتب التضحية في سبيل الله تعالى، بدءاً من تنقيص الأحوال في الحياة لأجل دين الله بالمهاجرة، والإخراج من الديار والأذى في سبيل الله، وأخيراً الفناء بالقتل في سبيل الله[٤].

ثم ذكر ما وعدهم وتكفّل بحفظه لهم وعدم إضاعته، فقال: ﴿ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ ﴾ وصغائر ذنوبهم. ولعله استغنى بذكر تكفير صغائر السيئات عن ذكر غفران كبائر الذنوب من باب الأولى، والله أعلم.

---

(١) ينظر: الكشاف، للزمخشري (١/ ٤٨٥)، والبحر المحيط لأبي حيان (٣/ ١٥١).

(٢) البحر المحيط لأبي حيان (٣/ ١٥٢).

(٣) ينظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٢٤٧).

(٤) البحر المحيط لأبي حيان (٣/ ١٥٢).



ثم واصل البشارة لهم فقال: ﴿ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ فيكون هذا ﴿ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ لهم، ﴿ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾، الذي تهون لأجله الصعاب، ومفارقة الوطن والأحباب، وتحمّل الأذى والعذاب، والجهاد والاستشهاد والمصاب.

وذكر هذه الأعمال مناسب للمقطع السابق الذي جاء فيه الإخبار عن الأذى والأمر بالصبر عليه، ومناسب لسياق السورة التي جاء فيها الأمر بمحاربة الأعداء وردّ عدوانهم، والصبر في القتال، وتحمّل ما يكون فيه. وبالعموم فقد جيء بها لتبيين شركة النساء مع الرجال فيما وعد الله به عباده العاملين[1].

وفي هذه الآية: عود على بدء، حيث فيها تفصيل لدعاء أولي الألباب الوارد في أول السورة، أو هو استمرار له. والله أعلم.

الدروس والعبر من هذا المقطع:

- آيات الله في الظواهر الكونية كثيرة ماثلة للعيان، متكررة مدى الأزمان، لكن غفلة الإنسان واعتياده عليها ينسيه أن يعتبر بها، ولا يستفيد من تلك الآيات الواضحات ولا يتذكر إلا أصحاب النهى والعقول.
- لا ينفك العاقل عن ذكر الله تعالى على كل حال من أحواله، فقد مدح الله تعالى أولي الألباب بذكرهم الله تعالى قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم.
- التفكّر في الخلق وما فيه من آيات ودلالات مطلب شرعي.
- على المسلم أن يستغل كل فرصة متاحة للتقرب إلى الله تعالى بالعلم والعمل، كما يفعل أولوا الألباب الذين يدفعهم التفكر في خلق الله إلى مناجاته ودعائه.
- في تكرار لفظة ﴿ رَبَّنَا ﴾ في الدعاء دلالة على جواز الإلحاح في المسألة، واعتماد كثرة الطلب

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان (٣/ ١٥١).

من الله تعالى[١].

- لا فرق بين الذكر والأنثى في أصل التكليف والحساب والجزاء والثواب.
- عظم أجر المؤمن الذي يتحمّل الأذى الماديّ والمعنويّ في سبيل الله تعالى.
- عظم أجر الجهاد في سبيل الله تعالى لتكون كلمة الله هي العليا.
- التضحية في سبيل الله تعالى مراتب ودرجات، تبدأ من الابتلاء الحاصل من ترك الأوطان هجرة في سبيل الله تعالى، والإخراج من الديار والأذى في سبيل الله، وأخيراً الفناء بالقتل في سبيل الله[٢].
- ثواب الله تعالى يستحق أن تُواجه لأجله الصعاب، ويُفارق الوطن والأحباب، ويتحمّل الأذى والعذاب، والاستشهاد والمصاب.
- يستحب لمن انتبه من نومه أن يمسح على وجهه، ويستفتح قيامه بقراءة هذه العشر آيات اقتداء بالنبي ﷺ، كما ثبت ذلك في الصحيح[٣]، ثم يصلي ما كتب له، فيجمع بين التفكر والعمل[٤].

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

يرتبط هذا المقطع بمحور السورة ارتباطاً وثيقاً، حيث أنه يرشد إلى التفكر في الخلق للوصول إلى الخالق سبحانه وتعالى، والقيام بحق العبادة والدعاء، والخوف والرجاء، والإيمان بيوم الجزاء، وما فيه من سعادة وشقاء، والتأكيد على بذل الجهد وتحمل الصعب في سبيل الله تعالى.

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان (٣/ ١٥٠).
(٢) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان (٣/ ١٥١-١٥٢).
(٣) أخرجه البخاري في تفسير هذه الآية في كتاب التفسير، عن ابن عباس برقم (٤٥٦٩).
(٤) البحر المحيط لأبي حيان (٣/ ١٥٠).

المقطع الثامن: الأمور بخواتيمها وعواقبها

قال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [الآيات: ١٩٦-٢٠٠].

مناسبة المقطع لسابقه:

لما ذكر الله تعالى حسن عاقبة أهل الإيمان به يوم القيامة، انتقل إلى الإجابة عن سؤال مفترض أو متوقع من السامع يتعلق بالحال في الدنيا، فنبّه إلى عدم الاغترار بحال الكفار في الدنيا، لأن متاع الدنيا قليل، وسيعاقبون بعده في دار البوار.

ولما ذكر في المقطع قبل السابق أن بعض علماء أهل الكتاب خانوا العهد الذي عندهم، وكتموا الحق، ونبذوا الكتاب، واشتروا به ثمناً قليلاً، ذكر هنا أن مِن أهل الكتاب من يؤمن بالله وبما أنزل من الكتب، لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً. ولما ذكر هناك أن أهل الكتاب سيؤذون المسلمين بالقول والفعل، ذكر هنا الخاشعين منهم، الذين يخافون الله تعالى فلا يؤذون أحداً.

ولما ذكر قبل المقطع السابق الابتلاء الذي سيكون في أموال المسلمين وأنفسهم، والأذى الذي سيصلهم من أهل الكتاب، ذكر هنا أن تقلب الكفار في البلاد هو لفترة قصيرة، وأن عقابهم الحقيقي سيكون يوم القيامة، وكما أمرهم هناك بالصبر أمرهم هنا بالصبر، وزاد بالأمر بالمصابرة والمرابطة.

وفي هذا المقطع إشارة إلى ختم الرسل والرسالات بخير الرسل والرسالات، واصطفاء هذه الأمة لتكون خير أمة، فالحمد لله على هذه المنة، وتمام النعمة.

التفسير الإجمالي:

﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ ﴾ يا رسول الله صلى الله عليك وسلم، ولا يغرَّنَّ أمتك ﴿ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴾ وتمتعهم في الدنيا، فإنما هو ﴿ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ﴾ ، والعمر في الدنيا قليل مهما طال، والدنيا كلها مهما طالت فهي قليل مقارنة بالآخرة الباقية، هذا بخصوص الزمان، وهي بخصوص الكمّ والكيف كذلك، ﴿ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ ﴾ ومصيرهم، وآخر تقلّب لهم هو ﴿ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ والمصير، وعبر بالمأوى إشعاراً بانتقالهم عن الأماكن التي تقلّبوا فيها، وكأن البلاد التي تقلبوا فيها إنما كانت لهم أماكن انتقال من مكان إلى مكان، لا قرار لهم ولا خلود، ثم المأوى الذي يأوون إليه ويستقرّون فيه هو جهنم، والعياذ بالله[1].

واستخدم لفظة ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ ﴾ في هذه الآية بمعنى: (لا تظن) أن حال الكفار حسنة فتهتمّ لذلك، وذلك أن المغترّ فارح بالشيء الذي يغتر به. فالكفار مغترّون بتقلبهم، والمؤمنون مهتمون به. لكنه ربما يقع في نفس مؤمن أنَّ هذا الإملاء للكفار إنما هو خير لهم، فيجيء هذا جنوحاً إلى حالهم، ونوعاً من الاغترار، ولذلك حسنت ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ ﴾[2].

واقتصر على ذكر تقلب الكفار في البلاد والسيطرة عليها، ولم يذكر انتقال السيطرة إلى المسلمين، لأن الحديث في السورة عن الهزيمة في أحد، فناسب التعزية بهذا. والله أعلم.

ثم ذكر المقابل لحال الكافرين وهو مأوى المتقين، ومتاعهم يوم الدين، ووقتهم وكمّه وكيفه، فقال: ﴿ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ ﴾ ، فبدلاً من التقلّب للكافرين، ذكر الخلود للمتقين، وبدلاً عن جنهم، ذكر الجنّات، وبدلاً من كونه متاع في الدنيا، ذكر كونه من عند الله للمتقين، وبدلاً من كونه مأوى، ذكر كونه نزلاً ومستقراً مهيئاً لهم، وبدلاً من قوله ﴿ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ ،

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان (٣/ ١٥٤).

(٢) المحرر الوجيز، لابن عطية (١/ ٥٥٨).

ذكر قوله: ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾[١].

ولما كان أكثر الحديث عن أهل الكتاب، وذكر أصنافهم السيئة والجيدة، ختم هنا بذكر صنف مؤمن منهم، فقال مؤكّداً: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ﴾ وحده لا يشرك به شيئاً ﴿ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ ﴾ من كتاب على رسوله محمد ﷺ، ﴿ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ ﴾ من كتب من عند الله تعالى على أنبيائه، ﴿ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ ﴾ مطيعين، لا يتكبرون ولا يؤذون، يؤمنون بكتب الله تعالى و ﴿ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ كما يفعل أهل الضلال من علماء أهل الكتاب، ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ الذين آمنوا منهم ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ ﴾ والجزاء الجميل ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ ، وسيجازي كل عامل بما عمل. وجزاء المؤمنين من أهل الكتاب أنهم يؤتون أجرهم مرتين[٢]، كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾ [القصص: ٥٢-٥٤]، وكما قال رسول الله ﷺ: {ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بي} الحديث[٣].

ثم ختمت المقطع والسورة بوصية جمعت خير الدنيا والآخرة، وهي قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ ، حيث أمر سبحانه وتعالى المؤمنين بالصبر والمصابرة والرباط والتقوى، من أجل الفلاح في الدنيا

---

(١) قارن بها في البحر المحيط لأبي حيان (٣/ ١٥٤): حيث قال: (فقابل جهنم بالجنات، وقابل قلة متاعهم بالخلود الذي هو الديمومة في النعيم، فوقعت لكن هنا أحسن موقع).

(٢) وسبب ذلك أنهم آمنوا بالكتابين التوراة والقرآن، أو لأنهم آمنوا بالنبي ﷺ إيماناً غيبياً قبل مجيئه، ثم آمنوا به عندما شاهدوه، أو لأنهم صبروا على ما عانوه جراء تبديل الكتاب والرسول والتشريع أو غير ذلك. التفسير الموضوعي لسورة القصص، د. محمد عيادة الكبيسي (ص ٤٦).

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري في كتاب العلم، برقم (٩٧)، ومسلم في كتاب الإيمان برقم (١٥٤).

والأخرى، فقد جمعت هذه الوصية الظهور على العدو في الدنيا، والفوز بنعيم الآخرة[١]. وقيل الصبر والمصابرة بمعنى واحد، والراجح أن الصبر غير المصابرة؛ فقد مرّ في السورة ما يقتضي المصابرة ويحثّ عليها، بخلاف ما فعله أهل النفاق من تثبيط وتخذيل، وندم على ما فات من أموال وأنفس في سبيل الله، وهذا كله يقتضي المصابرة، والله أعلم. فيكون المعنى: ﴿ٱصۡبِرُواْ﴾ على طاعة الله في تكاليفه، ﴿وَصَابِرُواْ﴾ أعداء الله في الجهاد، وقيل: هي مصابرة وعد الله بالنصر، أي: لا تسأموا وانتظروا الفرج[٢].

وأما المراد بالمرابطة فهي: المداومة في مكان العبادة والثبات[٣]، كما جاء عن النبي ﷺ أنه قال: (ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات)، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: (إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطا إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط، فذلك الرباط)[٤]. أو: المراد بالمرابطة: مرابطة الغزو في سبيل الله تعالى، وحفظ ثغور الإسلام من الأعداء[٥]، وقد وردت في فضل ذلك أحاديث كثيرة، منها قوله ﷺ: (رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها)[٦]، وقوله عليه الصلاة والسلام: (رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله وأجري عليه رزقه وأمن الفتن)[٧].

وختمت السورة بقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾، أي: واتقوا الله فيما بيني

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان (٣/ ١٥٦).
(٢) ينظر: البحر المحيط (٣/ ١٥٦).
(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٥٤). وقارن بتفسير القرآن من الجامع لابن وهب (٢/ ١٥٤-١٥٥).
(٤) أخرجه مسلم في كتاب الطهارة، باب: فضل إسباغ الوضوء على المكاره، برقم (٢٥١).
(٥) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٥٦).
(٦) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب: فضل رباط يوم في سبيل الله، برقم (٢٨٩٢).
(٧) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب: فضل الرباط في سبيل الله عز وجل، برقم (١٩١٣).

وبينكم، ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ غداً إذا لقيتموني[1]، والله أعلم.

اللهم اجعلنا من المؤمنين الصابرين المصابرين المرابطين المتقين المفلحين. آمين.

الدروس والعبر من هذا المقطع:

- متاع الدنيا مهما كثر فهو بالنسبة للآخرة قليل، ولقلة قيمته وحقارته لم يحرم الله الكافرين منه، بل لعلهم يتمتعون فيه أكثر من تمتع المؤمنين. فيا خسارة من اغترّ بالدنيا ونسي الآخرة.
- العبرة بعاقبة الأمور وخاتمتها، نسأل الله تعالى حسنها في أمور الدنيا والآخرة.
- في هذا المقطع تشجيع لأهل الكتاب على اتباع الحق الذي جاء به الرسول محمد ﷺ، لأن الإيمان بذلك لا يتنافى مع الأصول الصحيحة لدينهم، مع الاعتراف بفضل النبي عيسى عليه السلام وما جاء به من عند الله تعالى.
- عظم فضيلة الصبر والمصابرة في سبيل الله تعالى.
- عظم فضل الرباط في سبيل الله تعالى.
- الصبر والمصابرة والمرابطة والتقوى هي أركان الفلاح عند الله تعالى.

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

يرتبط هذا المقطع بمحور السورة ومقاصدها، حيث اشتمل على أمور غيبية في الدنيا والأخرى، والإيمان بمثل هذا مبني على الإيمان بالله تعالى وحده لا شريك له.

فقد اشتمل المقطع على نصح وإرشاد، وحِكَم وأوامر، ووعد ووعيد، وبيان حقيقة الدنيا والأخرى، وعاقبة المتقين، ومصير الكافرين في يوم الدين، كما تحدثت الآيات عن المؤمنين من أهل الكتاب بالله وحده وبكتبه ورسله، وأمرت المؤمنين بالصبر والمصابرة والمرابطة والتقوى

---

(١) تفسير القرآن من الجامع لابن وهب (٢/ ٧٠)، وتفسير الطبري (٧/ ٥١٠)، كلاهما عن محمد بن كعب القرظي.

من أجل الفلاح في الدنيا والأخرى.

وهكذا يختتم المقطع والسورة بخاتمة قصيرة وخلاصة حكيمة، هي بيان عاقبة أهل الإيمان ومثواهم، وعقوبة أهل الطغيان ومأواهم، وإرشاد المؤمنين إلى سبيل فلاحهم في دنياهم وأخراهم. والله أعلم.

تم ما يسّره الله تعالى من تفسير سورة آل عمران، ولله الحمد والمنّة،

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الفهرس



Tel. (9716) 5 321 321 Fax (9716) 5 323 323
P.O.Box 598, Sharjah - U.A.E.
E-mail: almarifpress@yahoo.com


جامعة الشارقة
UNIVERSITY OF SHARJAH
1997


تفسير
مركز تفسير للدراسات القرآنية
Tafsir Center for Qur'anic Studies